جرمان عياش

أصول حرب الريف

ترجمة

محمد الأمين البزاز   عبد العزيز التمسماني خلوق



smer

جرمان عياش



ترجمة

محمد الأمين البزاز   عبد العزيز التمسماني خلوق



3 زنقة غزة الرباط
الهاتف 72.37.25 - 72.59.60

مدخـــــل

إن نصف القرن الذي يفصلنا عما سمّي بـ «حرب الريف» لمشحون في حد ذاته بأحداث أخرى أهم بكثير من هذه الحرب ، بحيث لا نستغرب إن كان غالبية معاصرينا يجهلون حتى وقوع حدث تاريخي بهذا الاسم في عصرهم . على أن ما يثير الانتباه بالعكس هو كيف بقيت ذكرى هذه الحرب الريفية ، المجهولة من طرف الأغلبية ، راسخة رسوخا عميقا في أذهان من عايشوها ساعة نشوبها ، ممن كانوا وقتذاك ما يزالون شبابا أو مراهقين .

إنه أمر مثير للانتباه بلا ريب ، لكنه لا يدعو الى الاستغراب . فمنذ عشرين أو ثلاثين سنة ، أحست البشرية جمعاء بأنها معنية بأحداث كانت مع ذلك محصورة في رقعة ضيقة ، في الهند الصينية ، في الجزائر ، في الشرق الأوسط ، في كوبا.ذلك أن المعاصرين كانوا يرون فيها ، إن بوضوح كبير أو قليل ، إرهاصات عصر ينتقض فيه المستعمرون (بالفتح) لخلع نير العبودية ، ومؤشرات تحول يحدث في مصير الشعوب مع أفول الامبراطوريات الكبرى . فإذا كان البعض الى يومنا هذا يساوره القلق ازاء هذه الآفاق المستقبلية ، والبعض الآخر يعلق عليها الآمال ، والكثيرون يمعنون فيها التفكير ، مع أنه كان للأذهان الوقت الكافي للتكيف بالمجرى الجديد للأحداث ، فاننا نتصور أي انفعال وذعر ، أو أي أمل جنوني ، أمكن أن يفرزه منذ خمسين سنة ذلك الحدث الذي دشن تدشينا صاخبا هذه الحقبة التي ما زلنا نعيشها ، عندما زعزع بضربة واحدة دعائم سيطرتين مزدوجتين .

ذلك أن الامر يتعلق بهذا الحدث بالذات.

بدأ كل شيء ، في الظاهر على الأقل ، خلال صيف 1921 . ففيما كان الفرنسيون في الجنوب يحكمون سيطرتهم على مجموع المغرب تقريبا ، كان الاسبان ما يزالون في شمال البلاد يجدون لغزو نصيبهم من الأرض الممنوحة لهم . بيد أن الأمور كانت تسير منذ سنة وفق ما يرام ، بل وكان الجيشان اللذان يعملان منفصلين عن بعضهما ،أحدهما في الشرق والآخر في الغرب ، قاب قوسين أو أدنى من بلوغ أهدافهما ، عندما سُحق فجأة جيش الجبهة الشرقية عن آخره ، على الرغم من رجاله البالغين 000 20 جندي ، وانسحب مغطيا الأرض بجثث ضحاياه ، تاركا للخصم مذخراته الحربية ومخزوناته الغذائية . قوبل الحدث بموجة من الذهول ، سواء في اسبانيا أو في العالم . ولا غرو فقد كان الخصم يتكون من مجرد عصابات من الفلاحين ، ذوي تسليح يرثى له لا يكادون يطلقون النار حتى يلوذوا بالفرار . لتفسير الهزيمة اذن ، تذرعت الأوساط الاستعمارية بالاندفاع الطائش لقائد الجيش ، الجنرال سلفستري (Silvestre) الذي لقي

مصرعه بدوره خلال المعركة ، أو بتهاون الجيش الاسباني . إلا أن هذه الاوساط سكنت من روعها . فبعد هذه الصحوة القاسية ستعرف اسبانيا ، الدولة الأوربية ، كيف تأخذ ثأرها بشدة ، وتنجز مأموريتها .

كان الأمر على نقيض ذلك. حقا ، لقد وجهت اسبانيا مددا هائلا الى ساحة المعارك . كما أنها تمكنت جزئيا على الاقل من اعادة غزو الأراضي التي خسرتها . الا أن الأمر تطلب منها أشهرا طويلة ، لأن تنظيما أو نوعا من الدولة ، أو قل جيشا على الأقل ، أصبح منتصبا منذئذ حيالها ، على رأسه زعيم اختير لساعته ، يدعى عبد الكريم ، تبين أنه صلب العود بشكل غير مألوف . كان لا بد من الاقتناع بأن المشكلة لم تعد تكمن في قمع الريفيين بقدر ما أصبحت تكمن في معرفة كيفية مقاومتهم . وفوق ذلك وفيما كانت سلطة عبد الكريم و شهرته تزدادان توطدا سواء في الريف أو في باقي المنطقة الآيلة لاسبانيا ، كانت مدريد هي التي شهدت اضطرابات سياسية انتهت بقيام دكتاتورية عسكرية . والحال أن صاحب السلطة الجديد في اسبانيا ، بريمو دى رفرا (Primo de Rivera) لم يكن أحسن حظا في المغرب . في 1924 تقهقر جيشه أمام ضربات الريفيين حتى الى أبواب تطوان . كان عبد الكريم حينئذ قد ربح الحرب و على أهبة الاستعداد لشن هجومه النهائي المزدوج ، في اتجاه مليلية شرقا ، وفي اتجاه تطوان غربا ، لو لا أنه اضطر في هذا الوقت بالذات الى الاستدارة نحو الجنوب ، حيث قامت فجأة جبهة ثالثة في ظروف غامضة .

كانت فرنسا ، وهي الدولة التي تدخلت بدورها في الصراع ، خصما شتان بينه وبين اسبانيا . في المتروبول ، كانت تتوفر يومئذ على أقوى جيش في العالم . أما جيوشها في المستعمرات ، فلم تعرف منذ أمد بعيد سوى الانتصارات على جميع الجبهات . كان جيشها بالمغرب على الخصوص معبأ بالقرب من مكان المعركة منذ زهاء عشرين سنة . ويقبض على زمام الأمور بقوة في البلاد ، متوفرا على الأرض والموارد والرجال ، وكذلك على الأطر المكونة و المتمرسة بالحرب في عين المكان . أخيرا فقد كان قائده المارشال ليوطي يمثل في نظر العالم رمزا حيا لنجاح المشروع الاستعماري . فعند أول التحام بهذا الجيش ، كان يبدو بالطبع أن دولة الريفيين المتواضعة الشأن ستنهار عن آخرها .

لذا فإن الكلمات تعجز عن التعبير عن الذهول العام لرؤية الفرنسيين ينهزمون بدورهم، ويتقهقرون ، ويتعثرون ، بشكل أقوى مما حدث للاسبان قبلهم ، إلى حد أن فاسا وتازة ووزان أصبحت مهددة. من ثم بادرت فرنسا ، بعد انهزام ليوطي ، إلى تعويضه في أوج المعركة ببيتان ، المارشال الاكثر شهرة منه ، والذي يذكرنا اختياره بمعركة فردان. وجاء انسحابها من اقليم الرور في الوقت المناسب ليمكنها من حشد جيش عرمرم من 150 000 جندي على طول 300 كلم. كما أنها عقدت تحالفا مستعجلا مع اسبانيا التي كانت تتوفر على عدد مماثل من الجنود. هل كانت كل هذه الضجة

وهذه الاستعدادات الضخمة لمجرد قضية استعمارية بسيطة ؟ في الواقع ، تبين أن الامر يتعلق بحرب حقيقية ، كانت تدور رحاها منذ البداية ، عند مرحلتها الاسبانية. لقد اكتشف العالم حرب الريف .

كان النصر في نهاية المطاف حليف فرنسا و اسبانيا المتحالفتين . وكان من شأن احتلال الريف، الذي استتبع ذلك ، واستسلام عبد الكريم ، أن عملا على تعبيد الطريق أمام الحماية الاسبانية ، وارساء دعائم الاحتلال الفرنسي. لذا ، وإذا ما نحن لم نأخذ بعين الاعتبار سوى ما آلت اليه هذه الحرب وما خلفته من نتائج فورية ، فقد نجنح الى التقليل من أهميتها ، بفعل تقادم العهد و انحسار موجة الانفعال. بحيث قد لا نرى فيها سوى عثرة في مسيرة الغزو ، وبالتالي واقعة لا أقل و لا أكثر من وقائع الحقبة الاستعمارية. وهي واقعة متأخرة بالطبع. على أية حال ، قد يقال إن الستار لم يكن قد أسدل بعد عام 1925 على عصر الاستعمار. أما بالنسبة للخطورة التي اكتستها ، فقد يقال أيضا إنها لم تكن تمثل بتاتا حالة استثنائية ، لان التوسع الاوربي تخللته عقبات جمة ، بل وانتكاسات اكتسى بعضها منذ الامس طابعا مأساويا .

إن وجهة النظر هاته ليست بالطبع خاطئة تماما . الا أنها تبقي في الظل ما هو أساسي . من المؤكد أن عدم التكافؤ في الامكانات بين أوربا و الشعوب التي كانت تخضعها كان كبيرا الى حد أن قلة الخبرة أو هفوات فادحة هي وحدها التي يمكن أن تفسر بعض النكسات ، مثل هزيمة الانجليز في الخرطوم عام 1885 ، أو هزيمة الايطاليين في أدوا عام 1896 . على العكس من ذلك ، فإن مثل هذا التعليل لا يصدق عند اللزوم في مثال الريف الا بالنسبة للمرحلة الأولى من المعارك . الا أنه لا يستساغ لتعليل حصيلة الهزائم التي راكمها معا فيما بعد جيشان أوربيان.

هناك مثال قد يبدو من الجائز بل من المحبذ اقامة مقارنة بينه وبين الريف ، وهو مثال الحرب التي اضطر الفرنسيون الى خوضها في بدايات غزوهم للجزائر ضد الأمير عبد القادر. فبالنظر الى دوافعهما المشتركة ، وقرب مسرحيهما ، ومدتهما ، وضراوتهما ، وتجسد كل منهما في شخص زعيم فذ ، فان لحربي الريف والجزائر مظهرا كبيرا من القرابة بفارق زمني من 24 سنة. مع ذلك كم هي الفروقات وأوجه التباين ان نحن نظرنا اليهما عن كثب.

عندما دخل عبد القادر الحرب ضد فرنسا عام 1839 فإنه كان رئيس دولة قائمة ، تمتد سلطته على ثلثي الجزائر. كان يتوفر في الجنوب ، مع الصحراء ، على امتدادات لا حد لها. وكان يتلقى في الغرب دعم جاره المغربي الكبير . على العكس من ذلك ، كان الفرنسيون تجاهه محصورين في أشرطة ضيقة ، لا ترتبط فيما بينها الا عن طريق البحر. فاذا تتبعنا الحرب بأدق تفاصيلها انطلاقا من هذه الحيثيات ، سنلاحظ بلا ريب ، من الجانب الجزائري ، مفاخر ثمينة وجولات بطولية عظيمة ، وضربات قاسية موجهة للعدو . لكن على الرغم من أن المقاومة المستميتة و الانتصارات المتعددة عملت على

تأخير مجرى الأمور على نطاق واسع ، فإنها لم تتمكن إطلاقا من ايقافه ، فبالأحرى من قلبه. ان الجهاز الذي عبأه عبد القادر و الذي نالت منه الصدمات الأولى ، تقوض ، وتفكك ، وتلاشى ، مع توالي الشهور والسنين. بعد أن كان النضال متراصا ، متلاحما ، تحول إلى حرب عصابات ، قبل أن ينتهي الى مطاردة فردية حقيقية. على مستوى التاريخ اذن لم يكن من أوله الى آخره سوى صيرورة حتمية نحو الهزيمة (1) .

أما بالنسبة للريف ، فلم يكن هناك بالعكس في البداية ، وقد رأينا هذا ، سوى حفنة من الفلاحين قد يعتبرون متهورين لاقدامهم على الوقوف أمام الزحف الاسباني. لقد كانوا غير مسلحين تقريبا ، معرضين لنقمة اخوانهم في القبائل الذين كانوا يتخوفون من عمليات قمع العدو ، ناهيك بأنه لم يعد بامكانهم حتى التذرع بمشروعية قضيتهم ، طالما أن اسبانيا كانت تتدخل ، بمقتضى المعاهدات ، تحت راية عاهلهم السلطان . كان لا بد من معركتهم الأولى وما حققته من نجاح تجاوز كل التكهنات لكي يتمكنوا فجأة ، بعد أن تزودوا بالسلاح ، وكثر أتباعهم ، وخاصة بعد أن وصلوا الى نقطة اللارجعة ، من اختيار زعيم لهم ، وتزويد أنفسهم بتنظيم أولي . على أنهم دشنوا منذئذ ، ودائما للاستجابة لمتطلبات كفاحهم ، حركية دؤوبة و مستمرة من التعزيز العسكري و التوحيد السياسي و التوسع الترابي ، تلك الحركية التي ستتمخض في نهاية المطاف عن تأسيس جيش ودولة الريف .

وهكذا ، وفي عصر لم يكن فيه الأوربيون يتوفرون سوى على سفن شراعية ، وكانوا ما يزالون يجردون سيوفهم في المعارك ، وجدنا دولة عبد القادر ، الموجودة سابقا، تتحطم تدريجيا تحت ضربات بوجو Bugeaud) ، في حين أن الريفيين ، الذين كانوا في الأصل معدنا خاما ، ثم انصهروا فيما بعد في بوتقة المعارك ، التحموا ، ان جاز التعبير ، تحت ضربات مطرقة العدو نفسها.ثم كانوا قادرين على تكبيد اسبانيا ، وفرنسا بعدها ، هزائم استراتيجية على مدى خمس سنوات ، وهذا في عصر المصفحات والمدافع الثقيلة والطيران . وحتى بالنسبة لهزيمتهم ذاتها ، فقد اعتبرت من طرف قطاعات عريضة جدا من الرأي العالمي بمثابة انتصار معنوي بالنظر الى ما كلفت العدو من تكاليف باهظة . فلئن كانت اذن حربا الجزائر والريف تنتميان حقا الى العصر الاستعماري فان مجرييهما المتعاكسين تماما ، رغم عدم التكافؤ الكبير الذي أصبح يفصل منذئذ بين الامكانات المتواجهة ، ينبهاننا مع ذلك الى أنهما يقعان في فترتين متطرفتين : احداهما في البداية ، والأخرى في النهاية .

لقد كان انهزام عبد القادر ، واقصاؤه مؤشرا على أنه لن يوجد مستقبلا ما من شأنه أن يوقف التوسع الأوربي. وهو ما حدث بالفعل. فلم تقع مصادمة الأحداث في الريف الا بعد أن كان قد غمر العالم. انها مصادمة حدثت حقا في طريق مده . بيد أنها كانت مؤشرا على الموجة المضادة التي ستأخذ في الانتشار لتجتاح الامبراطوريات ذات يوم .

أدركت الدوائر الحاكمة في العصر بوضوح جسامة الخطر ، واتخذت بالتالي ، وبدون

مساومات ، جميع تدابير الانقاذ التي يتطلبها الموقف . كما تمكن الحكام في هذا البلد أوذاك من تهميش الخلافات و المنافسات التقليدية . يمكننا كذلك أن نسجل على سبيل البيان ذلك الفزع الذي بقي عبد الكريم يوحي به حتى بعد انهزامه . ففيما أمكن لعبد القادر ، بعد فترة احتجاز ، الاقامة والعيش طليقا في قلب العالم الاسلامي ، تعرض زعيم الريف للنفي و الاحتجاز ، على مدى 21 سنة في جزيرة منعزلة من المحيط الهندي . فباستثناء سابقة معروفة ، لم يحدث مطلقا أن تعرض خصم بعد استسلامه لمثل هذه القساوة وهذه التدابير الاحتياطية.

بالطبع كان رد الفعل مختلفا في عالم المستعمرين (بالفتح) الذي فتحته فترة ما بعد الحرب على نطاق واسع على أخبار العالم . لقد عمته موجة من الحماس الجنوني. من الجزائر الى مصر ، من الهند الصينية الى الصين ، من الأرجنتين الى الولايات المتحدة ، في كل جهة أحس فيها شعب بكامله ، أو أقلية قومية أو عرقية ، بأن قضية الريفيين تشبه قضيته ، الا ووجدنا بطولات هؤلاء الحربية تبعث تلك الآمال الخائبة التي ظهرت في عهد الرئيس الأمريكي ولسن ، مع اعطائها دفعة جديدة كل الجدة . لماذا انتظار واستجداء الهبة التي قد تأتي من فوق ، ما دام دافيد يصرع كولياط ، كما ساد الاعتقاد بذلك الى آخر لحظة ؟ لقد صرح يومها الصحافي الشهير شكيب أرسلان : " ان عبد الكريم هو بطل عصرنا ، ليس بين المسلمين فحسب ، بل وكذلك بين جميع الأمم" (2) .

بيد أن الحركة الشيوعية ، في كل جهة قامت فيها أحزاب قوية بما فيه الكفاية ، في أوربا أولا ، ثم خارجها ، هي التي تتبعت حرب الريف باهتمام بالغ وعناية فائقة . نعرف نظرية لينين الشهيرة التي صيغت منذ بضع سنوات وقتذاك ، والتي ستعمل على توجيه استراتيجية "الثورة البروليتارية" في ظروف العصر الجديدة . فمنذ نهاية القرن الماضي ، كانت الرأسمالية الصناعية العتيقة في بعض بلدان أوربا العظمى ، وفي الولايات المتحدة ، قد تركت المجال للرأسمالية المالية ، وهي أشد توثبا الى التوسع من سابقتها بسبب تعطشها الحاد للأسواق الخارجية ، ليس فحسب من أجل تصريف بضائعها ، وانما على الخصوص لاستثمار الفوائض الضخمة من الرساميل التي أصبحت عاطلة . من ثم جاء تقسيم العالم برمته الى مستعمرات و مناطق نفوذ ، تعرضت بدورها ، وبشكل أقوى كذلك ، للاستغلال الفظيع الذي كان وقفا في السابق على بروليتاريا المتربولات . من المؤكد أن المنظومة بعد وصولها الى المرحلة الامبريالية ، كانت قد تعززت بقدر ما أصبحت تتوفر كليا على الموارد و الرجال في العالم بأسره . الا أنها أوجدت ، في الوقت نفسه ، أعداء جددا بمئات الملايين وفي جميع القارات . وهذا يعني أن عمال أوربا وأمريكا أصبحوا يتوفرون منذئذ في القارات ، وبالجملة ، على حلفاء كثيرين ، ستقذف بهم حتما طبيعة الأمور الى جانبهم في المعركة التي كانوا قد بدأوها هم أنفسهم . وبالفعل ، وانطلاقا من بعض المؤشرات ، بات من المتوقع ، منذ 1919 ، قرب تدخل هذه القوى الجديدة من الهند ، وأفغانستان ، وطرابلس ، ومصر ، وتركيا ،

والصين ، وأندونيسيا. نتجت عن ذلك حالة من الانتظار المتلهف ، سيما وأن الثورة الناجحة في روسيا ، أصبحت مطوقة من جميع الجهات ، مما كان يهدد بسقوطها ، وهذا دون أن تتمكن أوربا ، حيث كانت اهتياجات ما بعد الحرب قد هدأت ، من تقديم الدعم الكافي وحدها . الا أنه سرعان ما تعين الاعتراف بواقع الحال . فالدعم المنشود لم يأت هو الآخر من الشرق ، حيث كانت الأنظار مركزة قبل كل شيء على الصين و الهند.

تلك كانت الحالة عندما اندلعت حرب الريف في قطاع لم يكن ، نوعا ما ، في حساب أحد. مع ذلك ، وباستثناء الهزيمة الكبرى لاسبانيا ، التي اعتبرت مجرد عثرة مسيرة ، فانها لم تثر الا اهتماما قليلا . كانت المسألة ما تزال محدودة . علاوة علـى ذلك ، فإن اسبانيا التي كانت تبدو ظاهريا هي المعنية وحدها ، لم تكن تمثل قوة استعمارية . ألا يمكن ، في نهاية المطاف ، أن يتوهم البعض بأن القبائل الريفية كانت تخدم ، بلا وعي منها ، الأهداف السرية للأوساط الاستعمارية الفرنسية ؟ وبالتالي ، لم يكن بالامكان أن تكون النتائج مرموقة ، وفي جميع الأحوال ، مشجعة.

بدأ الموقف يتغير في نهاية 1923 بعد اقامة الدكتاتورية بمدريد. لقد نهض هذا الانقلاب دليلا على أن القضية الريفية قادرة على أن تنعكس على جزء من القارة الأوربية . كما أصبح امتداد الحرب متوقعا بعد ستة أشهر ، مع الزحف الفرنسي حتى مشارف مناطق المعارك . ثم حدثت في النصف الثاني من عام 1924 الانتصارات المدهشة التي حققها عبد الكريم ، و التي وان كانت على حساب اسبانيا وحدها ، اعتبرت بوضوح في جميع أنحاء العالم المستعمر ، بمثابة ثأر من السيطرة الأوربية ، بدون أي تمييز بينها . منذئذ لم يعد بالامكان التشكك في أهمية الأزمة و لا في مغزاها الثوري . وبالفعل عندما وقعت في فصل الربيع التالي ، ثم في غضون فصل الصيف ، الانتكاسات الفرنسية الكبرى ، استفحلت المصاعب المالية في فرنسا نفسها ، وأصبح القلق السياسي عميقا ، وانطرحت مشاكل حتى بخصوص المحافظة على الغطاء العسكري. أما بالنسبة للامبراطورية ، فقد مر وقت أصبح من المنتظر معه حقا وقوع قطيعة ذات نتائج لا تعد ولا تحصى. فبعد أن اعتبرت في البداية تافهة ، ألا يمكن أن تفتح الحرب ثغرة في المواقع الامبريالية ، تلك الثغرة التي طالما وقع انتظارها ؟ انه السؤال الذي أخذ الشيوعيون يطرحونه في كل جهة تقريبا ، ولو بدرجات متنوعة و من زوايا مختلفة.

وبادئ ذي بدء ، شيوعيو اسبانيا . بيد أن هؤلاء لم يتمكنوا على ما يظهر ، من التأثير في الأحداث لضعف موقفهم وقتذاك . على العكس منهم ، فان جيرانهم الفرنسيين ، الذين كانوا يتوفرون على حزب قوي ، ويوجد وراءهم عدد كبير من الناخبين ، ولهم في البرلمان فريق نشيط و متجانس ، ويشرفون على نقابات هامة و منظمات اجتماعية ، أمكنهم ، هم على الاقل ، ممارسة نشاط ملحوظ . لم يعد هذا

النشاط مقصورا ، كما كان عليه في أيام جوريس على شجب السياسة الفرنسية ، ولو بخطابات بليغة ، لقد كان على جميع الأصعدة تعويقا منسقا للاستعدادات العسكرية ، ثم لمتابعة الحرب وذلك عن طريق افحام الحكومة في مجلس النواب ، وافشاء أسرار محرجة ، ودعوة المجندين الى الاستسلام ، وتفجير الاضطرابات ، وتزعم المظاهرات . ان مثل هذه الحملة التي تستهدف كما قيل وقتذاك ايقاف « يد المعتدي » ، تدخل حقا في الخط الذي سبق ان رسمه متمردو البحر الأسود . الا أنها كانت تجري هذه المرة في قلب البلاد نفسها ، وعلى صعيد أوسع بكثير . وفوق ذلك لم يسبق أن رأينا ، على الخصوص ، مثال متروبول ، ينحاز فيه قسم هام من السكان حتى نهاية المطاف ، الى جانب مستعمرين ، مكافحين بحد السلاح ضد الوطن الاب . لقد كان التأثير الذي حدث في الضمائر جد عميق في فرنسا ، بل وكذلك في جهات أخرى من المعمور، حيث سيتمخض ذات يوم عن نتائج بعيدة المدى .

كذلك فقد أثارت القضية الريفية ، وعن كثب ، اهتمام الأوساط الحاكمة في روسيا السوفياتية . حقا ، لم يكن لهؤلاء وقتذاك ، على احتمال أن لهم الرغبة ، الوسائل لتزويدها بمساعدة مادية ، كما فعلوا فيما بعد في حالات جد معروفة . الا أنهم لم يخفوا تعاطفهم ولم يتجاهلوا الكسب الكبير الذي كان يمثله في أعينهم الانتصار المحتمل للريفيين. وعلى سبيل المثال ، فقد كتب قائد الجيش الاحمر نفسه ميشل برونزي : ان ما يتقرر هنالك ، تحت قصف المدافع ، هو كل القوة الاستعمارية لأوربا الغربية . وخاصة مصير امبراطورية فرنسا الافريقية" . لنوضح أن هذه الأسطر مقتبسة من كتاب حرره ميشل فرونزي خلال فترة الأحداث ذاتها [3] . انه عمل أدبي نادر و ذو دلالة كافية في حد ذاته . الا أن قراءة الكتاب تبين لنا ، بالاضافة الى أهميته الاجمالية ، أن الجيش الروسي في أيام الثورة ، وهو جيش فقير وسيء التجهيز ، كان يشعر بالضرورة بأهمية الانتصارات على الطريقة الريفية ، حيث كان مفعول التقنية يتضاءل أمام العنصر البشري. .

هذا النوع الأخير من الاعتبارات كان يهم بشكل أكثر كذلك الخلايا الشيوعية النادرة في الشرق ، التي كانت تبحث في ذلك الوقت عن طريقها بجهد جهيد . لا نتوفر من هذا الجانب سوى على نزر قليل من المعلومات الدقيقة . بيد اننا نعرف أن الرئيس ماوتسي تونغ كان في السنوات الأخيرة قد كاشف بمكنون صدره وفودا عربية ، مصرحا باختصار : فيما قدومكم لتلقي الدروس من الصين ، طالما وأن لكم في عبد الكريم الأستاذ الذي تتلمذنا نحن الصينيين على يديه ؟ يمكن بالطبع أن نستشف من هذه الكلمات جانبا من المبالغة المبيتة . الا أن التقدير للزعيم الريفي لا غبار عليه . ذلك أن أحداث الريف كانت قد طويت في ثنايا النسيان منذ أن اسدل الستار عليها . وحتى بالنسبة للبلدان التي كان من المفروض أن تحتفظ هي الاخرى بذكراها ، ونعني بها اسبانيا وفرنسا والمغرب ، وجدناها ترفض تخصيص حيز لها في تاريخها . فاذا كان

الرئيس ماو ما يزال اذن في الأمس القريب قادرا على استحضار صورة عبد الكريم ، فهذا يفترض أنه تعرف عليها مباشرة من خلال أخبار العصر ، واحتفظ بذكراها ماثلة أمامه بعد ذلك . والا ، فاننا لا نفهم كيف تم في غضون ذلك رتق الفتق في ذهنه ، أو رسم تقاطيع صورة طواها النسيان.

أما بالنسبة للعبر التي استخلصت من الأحداث في الريف ، فكانت متناقضة من هذا البلد الى ذاك . في كثير من البلدان ، بما فيها المغرب ، حيث كانت الملحمة الريفية قد بعثت آمالا لا حد لها ، بقي الناس في نهاية المطاف تحت عقدة الهزيمة ، كما أدت خيبة الآمال الى البحث عن سبل سلمية ، ان لم نقل الى الوفاق مع المحتلين . ومن ثم أصبحت حرب الريف ذكرى مزعجة ، فتم طمسها بكل بساطة . ولئن كانت الشبيبة المغربية ، على الخصوص ، قد حاولت استحضارها فيما بعد ، وحتما بمعالم خيالية ، فإن التقدير الذي يقال انها كانت تحظى به في الشرق ، لم يكن منعدم التأثير في ذلك.

وبالفعل ، لم يكن عبد الكريم نبيا في بلاده ، الا انه كون فيما يبدو مدرسة في الطرف الآخر من العالم . في بلدان الشرق ، في الصين أو الهند الصينية ، حيث كان يوجد شيوعيون متحدرون من عين المكان ، وعازمون على أن يلعبوا دورهم في الثورة العالمية ، كانت حرب الريف تمثل تقريبا ما مثلته بالنسبة لماركس كومونة باريس فيما قبل بنصف قرن . فعلى الرغم من ان الكومونيين انهزموا ، ولما تمض على ثورتهم بضعة اسابيع ، فانهم اسسوا حيال البرجوازية أول دولة بروليتارية في التاريخ . كذلك فقد تمكن عبد الكريم ، على الرغم من انهزامه في الأخير ، من تأسيس وتسيير لمدة خمس سنوات بلا هوادة أول دولة فلاحية يعرفها التاريخ قامت بمحاربة الامبريالية . لقد أبان للعالم أن لهذه الامبريالية أيضا جلادها ، رغم ما تتوفر عليه من وسائل و تقنيات .

أولا يمكن أن يرى فيها البعض ، مستقبلا ، مجرد بيت من عنكبوت ؟

على العكس من ذلك ، فان ما أثبته عبد الكريم بثورته ، هو أن السكان قادرون ، وان كانوا بدائيين ، لا جيش لهم و لا دولة قائمة ، على أن يشكلوا قوة لا يرقى اليك شك ، وذلك بمجرد اتحادهم وعزمهم على خلع نير الوصاية الاستعمارية و وصاية سادتهم من بني جلدتهم التقليديين .

أخيرا ، ودون أن يتوخى ذلك ، فقد أعطى البرولتاريا الأوربية ، التي انضمت الى معركته ، الفرصة لترى في الامبريالية عدوا وحيدا للشعوب المستعمرة ، بل وعدوا للبشرية جمعاء . بهذا فقد كانت حرب الريف بمثابة تجربة لنظرية لينين في نظر شيوعيي الشرق الجدد . لقد كانت تجسيدا وتطبيقا لأطروحات هيئت بحضورهم و بمساهماتهم في المؤتمرات الدولية .

وإذا كان بالامكان الاقرار بأن الأمور كانت على هذا النحو بالنسبة للرجل الذي سيصبح رئيسا للصين ، وهذا بمقتضى شهادته ، فهل يمكن أن نتردد في الاقرار بها كذلك بصدد مثال أكثر وضوحا ، ألا وهو مثال الرئيس المقبل للفيتنام ؟ لا نتوفر لسوء

الحظ على كتابات يعرف فيها هو شي من بردود فعله ازاء أحداث الريف ، اما معاصرة أو بشكل استذكاري ، نعرف على أية حال أنه كان في باريس مناضلا في صفوف الشيوعيين الفرنسيين عندما تأسست الدولة الريفية عام 1923 . في السنة التالية ، عندما تمت مطاردة الاسبان حتى الى البحر ، كان متواجدا بروسيا كرئيس للدولة الفلاحية و عضو في المدرسة التي كان يتكون فيها زعماء ثورة المستعمرات . وعندما عاد الى الشرق عام 1925 لتهييء بلاده للنضال ضد الامبريالية الفرنسية ، علم أن هاته تكبدت في الريف أول هزيمة لها في التاريخ الاستعماري . أخيرا ، وبعد أكثر من عشرين سنة ، عندما أصبح يضطلع هو الآخر بدوره بنفس الدور الذي اضطلع به سابقا عبد الكريم ، وبعد أن تمكن هذا الأخير من الافلات من حراسه الفرنسيين ، توجه اليه طالبا منه المساعدة . وهو ما استجابه له عبد الكريم عن طريق نداء موجه الى المغاربة المنضوين في جبهة الهند الصينية . من الصعب أن نتصور أن مثل هذا التضامن الطبيعي ، الذي لوحظ عندما لم يعد عبد الكريم سوى اسم كبيرمنسي ، لم يكن ظهر بشكل أقوى عندما كان يوجه ضربات جد قاسية الى العدو المشترك .

على أنه بدلا من أن نرى في أحداث الريف اعادة متأخرة للمقاومة الجزائرية أيام عبد القادر ، لنقارنها بما حدث فيما بعد في الفيتنام . سنرى حينئذ حقا صورة مسبقة لها نوعا ما : في طبيعة القوى المتصارعة ، وعلاقتها الأولية ، وتطور هذه العلاقة ، والسبل و الوسائل ، وحلول امبريالية محل أخرى ، و الانعكاسات الواقعة حتى في داخل البلدين المعتديين . دون شك ، لا يمكن أن نقيس الأحداث في كلا الحالتين بنفس المقياس . وبدون شك أيضا أنهما يقعان على مستويين مختلفين : على مستوى تجربة أولية ما تزال تتلمس طريقها ، في مثال الريف ؛ وعلى مستوى حركة أوثق تشق طريقها على ضوء نظرية ، في مثال الفيتنام . لكن ، أو لم يكن من الممكن أن تصطدم المرحلة الثانية بصعوبات أكثر لو لم يكن عبد الكريم و الريفيون قد خاضوا غمار الثانية قبلها بربع قرن ؟ انه لمن الواجب أن نطرح السؤال على الأقل. و اذا كان لا مندوحة عن الجواب عليه ، فانه يتوجب علينا ان نعود إلى موضوع حرب الريف . وحتى لو افترضنا ، وهو افتراض بعيد الاحتمال ، عدم وجود اية علاقة بين المرحلتين على الأقل في أذهان الذين عاينوا الأولى وصنعوا الثانية ، فيما بعد ، فكيف يمكن لتاريخ تحرير الشعوب المستعمرة ، الذي يطبع بعمق عصرنا ، أن يتجاهل حرب الريف ، وهو الحدث الذي أعطى نوعا ما إشارة الانطلاقة ؟

والحالة أن هذا التجاهل هو الملاحظ اليوم.

نفهم كيف بذلت اسبانيا ما في وسعها لتتناسى " الكابوس المغربي " فور انقشاعه ، بعدما أقض مضجعها طيلة خمس سنوات . لذا ، وباستثناء دراسات لبعض العسكريين أو الاختصاصيين العسكريين ، فان موجة الكتابات ، والاحاديث ، والبيانات ، والروايات ، والشهادات والكتابات التهجمية ، التي كانت تغمر شبه الجزيرة ، انحسرت في الحين

تقريبا . وذلك ما حدث أيضا في فرنسا ، حيث توقف فيها بدورها هذا النشاط الأدبي ، الذي لم يترك لا القصة ولا الأغنية . ومع أن الهموم ، القديمة منها والجديدة ، خاصة المالية ، كان لها في مثال فرنسا تأثير دون شك ، فانه يمكننا أن نتساءل الى أي مدى لاح فيه النسيان و الصمت ، بعد هذا القلق الساخن ، كوسيلتين من شأنهما درء عودة ظهوره ؟ ألم يحظر الفرنسيون في ثكنات المغرب ، وخلال سنوات عدة ، ترديد ذلك النغم البريء الذي يتغنى بحنين شاب ريفي الى "بلاد الريفيين" ؟ مهما يكن ، وسواء عن قصد أم لا ، فقد عم الصمت ، وساد النسيان ، على الأقل بين الأجيال الصاعدة . الا أن سبات الرأي العام لا يكفي لتبرير صمت التاريخ . والحالة أن الحرب الريفية تعرضت الى يومنا لطمس حقيقي ، فانحصر الحديث عنها في بضعة أسطر ، ان لم يقتصر على ذكرها عرضا بمجرد الاسم ، في المؤلفات الحديثة التي كرست بالذات للفترة المعنية ، ولهذه الظاهرة التي نسميها اليوم ظاهرة تصفية الاستعمار .

علينا أن نضيف ، لنكون منصفين ، أن معاودة الاهتمام بالقضية بدأت تظهر استجابة لحاجة ملحة . دون أن نتحدث عن كتاب سوفياتي ظهر منذ زهاء 15 سنة والذي يندرج في اطار الاهتمام السوفياتي الذي حددنا معالمه أعلاه - وهو على أية حال غير معروف بالمغرب - فقد ظهر بعد ذلك كتابان بالانجليزية ، ترجم أحدهما الى العربية والآخر الى الاسبانية. كما ظهر بالقاهرة كتاب ثالث بالعربية لمؤلف مغربي . ولنضف في الأخير كتيّبين صغيرين بالعربية كذلك . الا أن هذه الكتب ، باستثناء الأول منها ، مستوحاة من روح تجارية أو صحافية. فبعضها لا يقوم الا على اجترار ما هو مكتوب سابقا ، مع محاولة اظهاره بمظهر الجدة ، والبعض الآخر على تقديم مجموعة صور ذات أصل واحد . لذلك لا يمكن التعويل عليها حتى لتقديم مساهمة أولية في مشروع اعادة بناء الأحداث ، الذي يبقى علينا بالتالي القيام به بكامله (4) .

علينا أن نوضح بالفعل أن انتاج أدبيات العصر ، يتسم بكثير من الاخطاء ، والأهواء ، وسوء النية ، ان لم نقل بالكذب الصرف . الى حد أن الحقائق نفسها ، ان وجدت ، تقابل بالشك . حقا هناك كتب لفرنسيين واسبان تتميز عن المجموعة بكفاءة مؤلفيها ممن شاركوا في الأحداث أو كانوا شهود عيان لها ، واستفادوا من التقاط الأخبار مباشرة أو عن طريق الاطلاع على الوثائق ، بيد أنها لا تعالج الا جزءا من الأزمة ، ولا تأخذ بعين الاعتبار الا جانبا واحدا من الامور . ذلك أنها ، وهنا يكمن عيبها الاساسي ، لا تعدو ان تكون دفاعا عن الرؤساء المتعاقبين ، العسكريين والمدنيين ، ذوي المفاهيم المتضاربة . لكن بشكل أو بآخر ، فان هذه المصادر ، الفرنسية منها والاسبانية ، وحتى الانجليزية ، وضعت اما من طرف الجانب المحارب ضد الدولة الريفية ، أو من طرف محايدين مزعومين يكنون لها الحقد والازدراء . صحيح ان هناك اربعة او خمسة من الصحافيين تمكنوا من ولوج الريف والحصول من عبد الكريم على حديث لدقائق معدودة . الا أنهم لم يتورعوا بعد عودتهم عن اضفاء الطابع القصصي

على مغامرتهم أو على تضخيم حصيلة أخبارهم ، أو اعادة صياغة اقوال باذلين مما عندهم ، تلك الاقوال التي التقطت عن طريق الصدفة وفهمت بالتالي فهما خاطئا . أما بالنسبة للكتابات العربية التي لا نعدم بعضها ، فلم تصدر هي الاخرى عن الريف ، وانما عن الشرق الاوسط حيث كانت الأخبار لا تصل الا محرفة وعبر القنوات الأوربية . وهذا يعني ان لا أثر للواقع الريفي في كلا التخريجين المهلهلين اللذين نجدهما في هذه الكتابات او تلك ، رغم ما يطبعهما من تناقض . فبالنسبة للبعض ، يبدو عبد الكريم عفريتا أقرن ، مختفيا في كنف برلين ، أنقرة ، موسكو ، او في جهة اخرى . بينما يبدو بالنسبة للبعض الآخر ملاكا نزل من السماء وبيده سيف مهند . لاجل هذا ، فان الشرط الاساسي لكل تقدم في هذه القضية التاريخية ، هو أن نقتنع بضرورة رفض جميع المصادر المطبوعة مع بعض الاستثناءات.

من البديهي ان الرفض الذي ننادي به هنا لا يعني رفض الاضطلاع . فهو لا يتعارض بتاتا مع القراءة المنهجة للصحف ولاي كتاب له صلة معينة بالحدث ، وإن لمجرد الوقوف على حالة الرأي العام واستحضار الصورة التي كانت تقدم له عن الاحداث . لكن بالنظر الى مدى حجم المغالطات حول موضوع الريف فيما كتب وقتذاك وما طبع فيما بعد ، فان الشك يصبح من الضرورة بمكان ، ولا بد للنقد من ان يكون اشد ارتيابا . توجد على سبيل المثال "مذكرات عبد الكريم" التي ظهرت بعدة لغات ، وأصبحت منذ نصف قرن المصدر الأساسي دون أن يطعن أحد في أصالتها . كيف لا وقد سجلت عن طريق الاملاء مباشرة من طرف صحافي ذي شهرة ، وفي ظروف و تواريخ واماكن محددة او يمكن ضبطها بالتمام . علاوة على ذلك ، فقد جاءت مدعمة بتقدمة من الصور ، وحتى بشهادة أوتغرافية مثبتة حسب الأصول . فبالرجوع الى الدراسة التي قمنا بها في ملحق البيليوغرافيا لهذه المذكرات المزعومة ، سنرى حينئذ انها لا تتعلق في الواقع الا بتخريج يقوم فيه التزييف الصرف بجانب معطيات غير موثوق بها او نابعة من الخيال ، استقيت من جميع المصادر باستثناء مصدر واحد ، فيما نعتقد ، ذاك الذي يدل عليه العنوان. نرى على ضوء هذا المثال ، الذي اخترناه من بين أمثلة أخرى عديدة ، أن المؤرخ ملزم بالتنقيب عن مادته في مصادر أخرى.

بالطبع يمكنه أن يجدها بادء ذي بدء في المصادر الموثقة . والحال أن ثمة مجموعة من الوثائق نشرت خلال الحرب أو مباشرة بعدها في اسبانيا ثم في فرنسا ، من طرف رؤساء عسكريين أو رجال سياسيين لتبرير مواقفهم أمام الرأي العام ، أو للمطالبة بالمكافآت ، وعن طريقها تتميز عن مجموع اللائحة ، كما سبق القول ، تلك المؤلفات التي نشرت فيها ، مما جعلها جديرة باهتمام المؤرخ . لكن بالنظر الى ندرتها ، ولكونها اختيرت لغايات مبيتة ، فانها غالبا ما توحي بالشك أكثر مما تنير السبيل .

بعد ذلك بمدة طويلة ، ظهرت طبعة وافية تتضمن رسائل وبرقيات وتقارير صادرة عن المارشال ليوطي لما كان متقلدا مهامه كرئيس ومقيم عام بالمغرب . انه مصدر جديد حقا

ونوأهمية بالغة . الا أنه تبين لنا أننا أمام مشروع عائلي يرسي هو الآخر الى الاحتفاظ للتاريخ بصورة مشرقة عن المارشال الراحل . وبالتالي ، فقد فرزت الوثائق بعناية ، ثم بترت بدون تنبيه ، بل وصححت أحيانا . لسنا في حاجة الى التنبيه الى النتائج الوخيمة المترتبة عن مثل هذه العملية التمشيطية . فلئن كان بالامكان استغلال هذه النصوص على أوسع نطاق ، فانها وحدها وفي الحالة التي صارت عليها ، لا يمكنها حول نقاط جوهرية الا أن تكبح البحث بل و ان تضلله.

كان يلزم أن يصبح بالامكان تدريجيا في المدة الاخيرة ، وبعد انقضاء المهلة اللازمة ، ولوج دور الأرشيفات مباشرة ، بمدريد و فرنسا و الرباط و جنيف و لندن ، لكي نتمكن في الأخير وبدون أن ندعي استغلال كل الوثائق ، حتى ما تبقى منها ، من التعرف بنوع من اليقين على الوجه الأوربي من القضية ، وهذا ليس في مجموعه ، وانما على الأقل فيما يخص الجوانب الرئيسية.

أما بخصوص الجانب الآخر ، المغربي و الريفي ، وهو الجانب الذي تعرض أكثر للتشويه، ولم يقدر على أية حال حق قدره ، فان المظان الأوربية لا تخلو من فائدة . سيما وان كثيرا من الوثائق الصادرة عن عبد الكريم ، أو عن أتباعه ، توجد اليوم محفوظة بها . وفيما عدا هذا ، نجد ايضا جميع المعلومات التي كانت مصالح قوات الاحتلال تحصل عليها حول حالة الخصم . بيد أنه على الرغم من أن الاسبان حاولوا في هذه الحالة الاستخبار بانفسهم بجدية أكثر مما كانوا يخبرون به الرأي العام ، وعلى الرغم من أنهم كونوا فيما بعد نظرة أكثر واقعية عن الأمور ، وبالتالي أقرب الى الواقع ، بحكم ما واجهوه من صعوبات منذ البداية ، فان ثمة ما يدعونا الى التزام كثير من الحذر قبل استغلالها ، ان لم نقم بالاعراض عنها رأسا.

بالفعل ، فان المصالح التي تولت مهمة الاستخبارات عن الحياة السياسية و الاجتماعية في الريف ، كانت لها نظريتها المتعلقة بالمجتمع ، وذلك قبل انهماكها في انجاز مهمتها . وهي نظرية مواتية تماما ، تم تحضيرها خلال عقود من السنين ، واختبرت مصداقيتها بنجاح باجماع الآراء ، لأنها هي التي كانت تلهم ليوطي في عملية الغزو التي كان يواصلها منذ ما قبل 1912 . فماذا يمكن انتظاره من هذه المصالح سوى أن تقوم باسقاط قوالبها الجاهزة على الريف أيضا ؟ واذا كان الاسبان الراغبون في التتلمذ على ليوطي . قد تكبدوا و يتكبدون الهزائم ، فان اللائمة أنحيت عليهم كتلاميذ غير نجباء ، لا على النظرية التي لم يطعن فيها أحد . ولم يتغير الموقف حتى بعد انهزام المعلم بدوره ، ونعني به ليوطي . على العكس ، فقد تعلق المستعمرون بأهذاب النظرية أكثر من ذي قبل ، جازمين بان يد الأجنبي هي التي كانت تخل وحدها بمعطيات المشكل.

نعرف اليوم أن مثل هذا الادعاء انما هو من نبع الخيال . وهذا يعني أن جميع الحالات غير المنتظرة التي انطوت عليها حرب الريف ، انما هي في الحقيقة نتاج

عنصر داخلي لم يؤخذ بعين الاعتبار . وان التاريخ لفي أمس الحاجة الى هذا العنصر ليرى على ضوئه ما جعل من الحدث نوعا من اللغز في نظر من شارك فيه أو عاصره . الا أننا ندرك أن العثور على هذا العنصر في الأرشيفات الأوربية أمر بعيد الاحتمال . وحتى لو وجد ، فان الباحث يصاب بخيبة أمل . فكم هي كثيرة البيانات ، والعناوين والمنشورات، التي يزعم أنها موقعة من طرف عبد الكريم ، وهي في الواقع موقعة من طرف مزورين ذوي مقاصد معينة .

من الجانب المغربي ، يتعين القول ان الحالة ليست بتلك التي قد تساعد بسهولة على ملء الثغرة . ذلك أنه لم يكن يوجد بالريف أي كتاب أو صحيفة من شأنها أن تحتفظ لنا بشريط الوقائع كما كان الناس يرونها . دون شك ، كانت الحرب والادارة وكذلك الدبلوماسية تقتضي تبادل المراسلات . لكن باعتبار أن الرسائل كانت تحرر بأقلام الزعماء بمساعدة عدد قليل جدا من الكتاب ، فانها كانت مختصرة و وجيزة جدا و مشفوعة في الغالب بتتمة شفوية يتولى المرسول ابلاغها ، كما لم يكن هناك متسع من الوقت أو حتى فكرة للاحتفاظ بنسخة من الأصل . أما بالنسبة للرسالة الأصلية ، وباستثناء الحالات التي ترسل فيها الى الخارج حيث يتم الاحتفاظ بها ، فغالبا ما كان المرسل اليه يقوم باتلافها مخافة وقوعها بيد اسبانيا المنتصرة . أو أنها ضاعت بوفاته. وعليه فمن النادر أن يتمكن المؤرخ من الحصول على وثيقة محررة في طراوة الأحداث.

أمام تعذر العثور على مثل هذه الوثائق بالقدر الكافي ، هل لنا على الأقل شهادات موثوق بها ولو كانت بعد الأحداث ؟ حول هذا الجانب أيضا لم تكن الظروف مواتية على الاطلاق . فالزعماء الريفيون ، أولائك الذين كان بامكانهم اخبارنا على الخصوص ، لم يكونوا متعلمين إلا فيما ندر . هذا مع العلم أنهم تعرضوا كلهم بعد انتهاء الحرب اما للاعتقال او للاقامة تحت الرقابة الصارمة ، أو تم دمجهم في جهاز قوات الاحتلال . وعلى افتراض أنهم تمكنوا من التحرير رغم كل هذه المعوقات ، فلمن سيكتبون في بلد تنيخ فيه الأمية بكلكلها جنبا الى جنب مع الرقابة ؟ لذا فهو نوع من المعجزة اذا ما كانت بعض الثمار قد اينعت في مثل هذا المناخ العقيم . هناك على أية حال شهادتان متميزتان ، سواء من حيث شخصيتي صاحبيهما ، أو من حيث التاريخ الذي أدليتا فيه ، والذي جاء بعيد الحرب ، مما جعلهما تحتفظان ببصماتها الطرية . احداهما صدرت عن عبد الكريم في بداية نفيه . ويتعلق الأمر ، وهذا توضيح من الأهمية بمكان ، بمذكرة وجهها أسير كانت انسدت أمامه جميع الآفاق . كيف لا يمكن لصاحب هذا الدفاع عن النفس أن يعمل على تلطيف ما كان في نظر الفرنسيين على الأقل يشكل مبررا لعقابه ؟ فمن المؤكد إذن انه لم يستطع الافصاح سوى عن جزء محدود من لواعج صدره. مع ذلك ، فان لهذا الجزء الصادر عنه أهمية بالغة .

من حسن الحظ ، فان الشهادة الثانية صدرت عن اعتبارات مختلفة تماما.

فخصيصا لمواطنيه بالفعل ، لكن كما يلقى نوعا ما بالقنينة الى البحر ، قدم لنا أحد وزراء عبد الكريم وهو محمد أزرقان ، رواية مفصلة عن الأحداث التي كان متصلا بها اتصالا وثيقا من أولها الى آخرها . من المؤسف جدا أنه رأى هو الآخر ، بحكم إقامته الإجبارية تحت الرقابة الفرنسية ، ضرورة التخلص بسرعة من القسم الذي كانت فيه فرنسا تشكل طرفا معنيا بالأمر ، وهذا حتى بالنسبة لكتاب على هذه الدرجة من السرية بحيث لا توجد منه اليوم سوى النسخة المخطوطة . رغم هذا التحفظ ، يمكننا القول اننا نطلع بتتبع الرواية على صميم ما كانت عليه معركة الريفيين ، تلك المعركة المدهشة التي كللت بالانتصار قبل أن تمنى بالهزيمة في الأخير. نجد حينئذ هذه الاضاءة الداخلية التي كانت تفتقر اليها .

باستثناء هذين المكتوبين ، نعرف ان عبد الكريم بعد ان استرجع حريته ، استأنف في ظروف أقل حرجا تحرير ما يمكن اعتباره وحده مذكراته الحقيقية . من المؤكد أن وثيقة من هذا النوع ، وهي للاسف ما تزال غير متاحة ، ستزودنا باضافات هامة متممة لرواية أزرقان سابقة الذكر . لكن لا مجال للتخوف من أن تعمل على ابطالها ، على الأقل في خطوطها العريضة . وما يجعلنا نقرر ذلك ، هو امتحانها على ضوء مصدر آخر. وهو النوع الأخير الذي يتوفر عليه المؤرخ من الجانب المغربي ، ونعني به الرواية الشفوية .

ندخل هنا ميدانا كان بوسعنا منذ خمس عشرة سنة أن نتمتع فيه بحرية تصرف كبيرة نظرا لوفرة عدد الشهود وقتذاك ممن عاشوا بعد المأساة . لكن لا شيء يدل على أنه كان بالامكان تحصيل كبير طائل من ورائهم ، كما يمكن التأكد من ذلك من بعض الأمثلة . فرواية شاهد عن أحداث غابرة تتسم بالتعقد والتنوع ، تظل غامضة على العموم اللهم الا اذا اسعفه المحقق نفسه بمساعدة فعالة . فعلى هذا الأخير ، مهما بدا لنا الأمر مستغربا ، أن يكون ملما الماما دقيقا بالجوانب التي ينتظر من الشاهد توضيحها ، لأنه هو الوحيد الذي يستطيع أن يرشده الى النقاط الهامة ، ويبني له الهيكل الكرونولوجي الذي مضى زمانه . وبما أنه لم يكن بامكانه استخلاص هذه الايضاحات الا بالرجوع إلى الوثائق ، فقد كان عليه الانتظار الى أن تبوح له ملفاتها بأسرارها . و الحال أن ذلك لم يتيسر له الا في المدة الأخيرة ، أي بعدما أصبح الشهود الأصغر سنا شيوخا طاعنين ، ناهيك بالأقدمين الذين فارقوا الحياة . وهكذا فان مجال البحث المحدود في أصله ازداد تقلصا ، وأصبحت كثير من الشهادات القيمة مطوية في مجاهل التاريخ . الا أن تلك التي لم تضع وتأتى الحصول عليها على مستويات مختلفة ، من عسكريين ومنظمين سياسيين وكتاب أو جنود صف ، أقول ان هذه الشهادات على الأقل كانت دقيقة و أمكن بالتالي توظيفها . هذا وقد كنا ، ونحن نستمع الى شهادة هؤلاء الرجال البسطاء الذين كانوا مع ذلك أبطالا لمأساة عظيمة ، نكتشف الأسباب الحقيقية لمعركتهم ، ونقف على مثل عليا ، ومشاعر انسانية حقيقية ، ولم نلمس فيهم لحظة واحدة ما ينم عن تلك الصورة البشعة التي تقدمها عنهم عموما الوثائق الأجنبية .

وتلك نتيجة لا تقل أهمية عن النتائج التي أسفر عنها هذا البحث الميداني.

انها نتيجة يبدو لنا معها ضرورة اعادة النظر في جميع المقولات التي صاغتها الاستغرافية التقليدية . ففيما عدا استثناءات نادرة جدا ، لم يكن المؤرخ عند تعرضه حتى وقتذاك للحقل الاستعماري يولي اهتماما متكافئا ومن نفس الطبيعة الى الطرفين اللذين يضعهما الغزو وجها لوجه . في جميع الحالات ، كان الأوربيون من انجليز وفرنسيين وغيرهم ، هم الذين يشدون بصره قبل كل شيء ، ويتمتعون بعطفه ، وتحظى قضيتهم بمناصرته تجاه الشعب المعرض للغزو . وبدلا من أن يرى في هذا الأخير جماعة بشرية تتوق بكل تطلعاتها الى هدف العيش المشروع ، فانه يتحول في نظره ، برفضه السيطرة الأوربية ، الى عقبة كأداء تعترض سبل التقدم ، بل والى داء ينبغي استئصال شأفته . ومن ثم فان الدراسة العارضة التي يصبح موضوعا لها ، تكون موجهة الى الكشف في حاضره و ماضيه ، لا عن ظروف تطوره الداخلي ، وإنما عن جوانب الضعف التي يمكن عن طريقها الشروع في غزوه .

لنلاحظ انه كان بالامكان ، في حدود متجاوزة ، تبرير هذه الرؤية الضيقة والمتحيزة في نفس الوقت ، ما دامت الشعوب المستعمرة بعد خضوعها تباعا لم تلعب في نهاية المطاف سوى دور سلبي في التاريخ العام . لكن كيف يمكن للمؤرخ التشبث بها بدون نوع من العماء ابتداء من الوقت الذي بدأت فيه الدول العظمى تجابه قوى لها وزنها وتتعزز باستمرار لينتهي بها الأمر في الأخير إلى قلب مجرى الأمور ؟

مهما يكن ، فانها لروح مغايرة تماما تلك التي ننطلق منها في هذه الدراسة . لا ننكر بالطبع أن حرب الريف هي أيضا قضية اسبانية وفرنسية طالما أن اسبانيا و فرنسا خاضتا غمارها . وهذا يفرض علينا أن نحاول في مختلف مراحلها تسليط الأضواء على نوايا ونشاط هاتين الدولتين . كذلك الأمر فيما يخص المشاكل ذات الطابع الدولي التي انطرحت ، خاصة مع انجلترة ، والتي يتوجب علينا بالتالي استجلاؤها . على أننا اذا حصرنا طموحنا في مثل هذه الجوانب ، فاننا سنتغافل عما هو أهم . فبغض النظر عن أن أحداث حرب الريف جرت على الأرض المغربية ، وأن أهل البلاد هم الذين كابدوها قبل غيرهم ، هناك خاصية أساسية لا ينبغي أن تعزب عن بالنا ، وهي أن المغاربة ، والمغاربة وحدهم، هم الذين جعلوا من هذه الحرب مقدمة لتحرير الشعوب المستعمرة بوسمهم اياها بطابع جديد في الحوليات الاستعمارية . وحيث ان المؤرخ حتى ولو كان بدون أفكار مسبقة ، قد يتوهم أن الأمر لا يتعلق هنا سوى بعثرة في مسيرة الغزو ، بحدث طارىء، أو مصادفة محضة ، فانه يتوجب علينا كذلك أن نربط الحدث بالماضي الحديث والبعيد لهذا الشعب الفخور ، ذي التقاليد الاستقلالية العريقة ، والذي أشبعه مع ذلك الأوربيون منذ مائة سنة اذلالا ، وكابد على أيديهم ما لا يعد ولا يحصى من الاهانات . فتقصي منطق هذه المفارقة ، مفارقة قيام حرب تحريرية في القرن العشرين على أساس تقليد أزلي ثابت ، لهو موضوع جدير بالبحث ومن شأنه أن يساعدنا على

فهم حاضرنا.

لا يبدو لنا من التناقض أن نوضح منذ الآن أن هذا المنطق ، ونقول منطقا لا ضرورة ، كان في حاجة ليتحقق الى عنصر يمكن اعتباره طارئا ، ونعني به دماغا قادرا على ادراكه وأن يجعل من نفسه أداة تنفيذ له . والحال أنه وجد ضالته بالذات في شخص عبد الكريم .

دون شك لا يوجد في أيامنا مثال آخرلشخص جعل الناس يلهجون باسمه على نطاق واسع وظل في نفس الوقت مغمورا الى هذا الحد. حقا لقد سبق لبعض الاسبان أن احتكوا به في الماضي ، الا أنهم هلكوا كلهم تقريبا منذ المعركة الأولى التي كشفت وجوده للعالم . لكن ما وجه العلاقة بين موظف بسيط ملحق بمصالحهم ، ذلك الذي كان بامكانهم أن يرسموا لنا صورته ، وهذا الزعيم المظفر ، المثير للاعجاب ، والبعيد كل البعد ، بحيث لم يتسن الاتصال به فيما بعد سوى لقلة قليلة من الأوربيين الذين كان همهم هم أيضا التأثير على المشاعر بالغريب من الأخبار ؟ لذا وبعد أن ظهر فجأة كالمذنب في عالم الأحداث الآنية ملهبا مثله خيال الناس ، نراه يحتجب فجأة كذلك دون أن نعرف عنه شيـئا ، عن أفكاره و طبعه ، بل وعن تقاسيم وجهه . وحتى بالنسبة لاسمه ، فقد كان وما يزال عرضة للتحريف ، اذ الحقيقة أن الوالد لا الابن هو الذي يسمى عبد الكريم . وهكذا فقد حيكت عنه أغرب الحكايات ، وبقيت الأمور الى اليوم كما كانت عليه بالأمس .

في مثل هذه الظروف ، تبين لنا من اللازم أن نخصص في الصفحات التالية حيزا كبيرا للرجل محمد بن عبد الكريم ، لاستفاقته في بيئة معينة ، ولبداية أمره ، وللتطور البطيء لافكاره ، وللمبادىء الجليلة التي تحكمت في توجهاته ازاء واقع بلاده وعصره الى اليوم الذي اتخذ فيه قراره الحاسم ، وأخيرا لمزاياه وخاصة لموهبته الفذة التي كان من الممكن أن يغبطه عليها رؤساء الدول الأسعد طالعا . ولا غرو ، فهو الذي هيمن منذ اللحظة الأولى على جميع الأحداث الى حد أنه يمكننا أن نتساءل كيف كان من الممكن أن تحدث على الأقل بدونه . وعليه ، فاننا اذا لم نجتهد في التعرف على صورته الحقيقية من خلال الأقنعة المختلفة التي لفت بها ، فان ما سيعوزنا تقريبا هو روح الأشياء .

جـــرمـان عـيــــاش

الهـــــوامـــــش

1) René GALLISSOT : La guerre d'Abd el Kader ou la ruine de la nationalité algérienne (1830 - 1847) , in Hespéris - Tamuda, 1964, vol. V, fasc. unique ; pp. 111 - 149.

2) «الأمير محمد بن عبد الكريم زعيم الريف في حاضر العالم الإسلامي» ، وهذا الكتاب لصاحبه لوثروب ستودات (Lothrop STODDARD) وترجمته العربية المنشورة بالعربية المنشورة بالقاهرة عام 1343 / 1924 - 25 تتخللها دراسات شخصية لشكيب أرسلان ، ج 3 ، ص 184 .

3) Michaïl W. FRUNSE : Die europäischen Zivilisatoren und Marokko

ص 441 - 533 من الطبعة الألمانية للمؤلفات المختارة لهذا المؤلف المنشورة ببرلين عام 1955 . توفي فرونزي قبل نهاية حرب الريف . وتوجد دراسته بالروسية في المجلد 2 من مؤلفاته الكاملة المنشورة في منشورات الـدولة ، موسكو - لننغراد 1927 .

4) هذه الحالة لم يدخل عليها تذيير من جراء نشر كتابين بالعربية بعد كتابة هذه السطور ، ونجد الاشارة إليهما في الملحق البيليوغرافي : كتاب محمد عمر البوعياشي وكتاب محمد عمر القاضي .

امبراطورية السلاطين
استمرارية الدولة وتكوين شعب

لتحديد اطار حرب الريف واستعراض ظروف نشأتها ، قام الرئيس بول بنلفي Paul Painlevé في خطاب له عام 1925 بعرض زاهي الألوان يمتد على ثلاثة عهود . فبدأ أولا باستحضار الماضي القريب عندما كان المغرب المستقل يتخبط - في نظره- في فوضى لا يحسد عليها :

" منذ قرن لم يكن بإمكان السفن الشراعية محاداة الشواطىء المغربية دون أن تجازف بالتعرض للحجز وتعريض ملاحيها وركابها ليباعوا عبيدا في الأسواق المغربية. ومنذ عشرين سنة كان المغرب ما يزال ممزقا الى وحدات فيودالية يعيش فيها الفلاح عرضة للاعتصار والاضطهاد والنهب . لقد كانت هذه البلاد موطنا للفوضى والفساد العام وتبدو في نفس الوقت فريسة سهلة المنال ، بحيث إنها كانت تحمل في طياتها نيران الحروب وتهدد باشعالها بين الدول الأوربية".

على هذه الوتيرة سارت الأمور الى أن حدث التغير فجأة مع الحماية الفرنسية :

لقد تم التوقيع على عقد.

" فترى نفس المناطق اليوم يسودها النظام والصحة والأمن ، وتتمتع فيها المعتقدات والعادات بالاحترام ، وينعم الجميع بثمرة كدهم في ظل السلم "

كان من الممكن- في نظره -أن تسير الأمور كلها على خير ما يرام لولا أن فرنسا اضطرت كما هو معروف الى تسليم اسبانيا جزءا من مأموريتها. ومن ثم حدثت الثغرة من حيث وجدت الحرب سبيلها الى الانفجار ، ذلك " الداء الذي كان المغرب يحمله في طياته".

تساءل الرئيس قائلا : ماذا حدث اذن ؟ "

اليكم عبارات جوابه :

« في المنطقة الاسبانية ، حدث أن القبائل الريفية وهي مصدر ترويع للقبائل المجاورة لها وتوجد منذ قرون في حالة تمرد مستمرة ضد السلطان ، أن قامت في أقاصي خوانقها المقفرة بتكبيد الوحدات الاسبانية التي حاولت اخضاعها هزائم ساحقة مستغلة وعورة التضاريس . ثم اجتاحت المنطقة الفرنسية بعد أن تقوت عزيمتها و أثملتها نشوة الانتصارات » (1) .

لذلك وفي الوقت الذي كان فيه الرئيس يعبر عن وجهة نظره ، وجه المارشال بيطان وحداته الى الديار الريفية . كان الأمر بسيطا كما نرى بل وفي غاية البساطة ، وينسجم أيما انسجام مع المتطلبات التي تستلزمها عادة ممارسة السلطة . الا انه من الانصاف القول ان المؤرخين أنفسهم لم يدلوا بما يزيد أو يختلف عن ذلك ، كما أنهم نسجوا على نفس المنوال فيما بعد.

عندما يتعلق الأمر بمغرب الأمس ، وهو الذي يبدأ المشهد انطلاقا منه ، فان الصورة التي احتفظت لنا عنه هي دائما تلك التي تناقلها أوبان أوجين (Eugène Aubin) في بداية القرن ، واگستان برنارد (Augustin Bernard) الذي انتحله بعد عشرين سنة ، وهنري طيراس القريب العهد بنا الذي يحيل اليها باستمرار (2) . على ما يقال لم تكن توجد سوى مشابهات بعيدة بين دولة أوربية مركزية وموحدة تأخذ على عاتقها مبدئيا مصالح الأمة جمعاء ، وبين ما كان يظهر في المغرب وكأنه دولة . فبادىء ذي بدء لم يكن المخزن ، بمعنى السلطان والزمرة الحاكمة التي يترأسها ، سوى جهاز طفيلي في جوهره ، فرض نفسه في البداية بحد السيف ، وحافظ بفضله على استمراريته . أما غايته الوحيدة فهي المحافظة على مصالح أعضائه التي يخولها لهم مركزهم الامتيازي . لذلك نراه يستغل ويضطهد السكان الكادحين ويقوم بقمعهم عند الاقتضاء بضراوة يندر ايجاد مثيل لها . مقابل ذلك لا يقدم أي خدمات : فلا وجود لاشغال عمومية وللامن ، ولا شيء في قطاع التعليم أو الصحة . وتجاه الانفتاح و الاصلاحات التي كانت أوربا المستنيرة تحاول ادخالها أو تقترحها من أجل تقدم البلاد ، كان يتخذ موقفا " محافظا " رجعيا بل ومتعصبا ، معتبرا اياها مجرد دسائس تحاك ضد سلطته التعسفية أو ضد ما يجنيه من فوائد.

على أن النظام المغربي لم يكن قويا مهما اتسم به من عنف . فاذا كان نفوذه يشمل المدن والسهول فانه لم يتمكن اطلاقا من مد غزواته الى الجبال و المناطق الهامشية التي تؤلف ثلثي البلاد . في هذه المناطق تراه يصطدم بقبائل حريصة على استقلاليتها ، ويصعب التمكن من أعنتها ، وهي قبائل مرعبة بما تتميز به من خصال حربية . فلئن كانت هذه القبائل ترتضي بأن يكون السلطان المتحدر من سلالة الرسول زعيما دينيا ، فانها لم تكن تحتمل أن يطالبها بالضرائب أو بالخدمة العسكرية ، ناهيك بأن يتطلع الى ممارسة حكمه عليها . اذ الواقع أنها عبارة عن دويلات صغيرة تخضع كل منها لأعرافها وتقاليدها ، فتتولى بذلك بنفسها مهمة تسيير شؤونها . وجملة القول فقد كان المغرب مكونا في الواقع من شطرين غير متجانسين : أحدها ، ويدعى "بلاد المخزن" ،

هو الذي كان وحده خاضعا ومدمجا . في حين أن الآخر ، "بلاد السيبة" ، كان يتطاير كالغبار حول هذه النواة وفق قوانين ذات قوة جاذبية غير ثابتة . في هذا الجانب كان يكمن خطر القطيعة . فنظرا لعدم خضوعها لأي قانون ، كانت القبائل الفتانة في المنطقة غير الخاضعة تعيش أولا في حالة حرب دائمة فيما بينها ، وتهدد أيضا في اتجاه الداخل كل المنطقة الخاضعة ، تلك التي أصبح يعيش فيها تجار أوربيون ، زارعة فيها الرعب وعدم الأمن . أخيرا فإنها كانت في اتجاه الخارج وكذلك ازاء أوربا الغربية التي أصبحت الآن مجاورة ، تشكل بلصوصها في الجزائر أو قراصنتها في المتوسط خطرا دائما الا أنه لا يمكن درؤه .

أن تكون كل هذه الآفات وهذه الأخطار قد استؤصلت في النهاية وإلى الأبد وعلى يد الحماية ، فذلك أيضا ما كان وما يزال راسخا في الأذهان . فكأننا برجل أوربا المريض ، كما كان ينعت المغرب وقتذاك ، يتغير تماما بين عشية وضحاها بعد أن تناول الدواء الأوربي الناجع و يجتاز بقفزة واحدة عشرة قرون من الهمجية ، متفتحا منذئذ في ظل النظام والرخاء على جميع محاسن الحضارة العصرية .

لا ريب أن ثمة قبائل لم تلن عريكتها وظلت ترفض عبور الجسور التي مدت أمامها . الا أنه ليس من السهل أن تتخلى دفعة واحدة عن فوضاها الأزلية . سيما إذا ما ارتكبت أخطاء عند الاحتكاك ، كما حدث في مثال اسبانيا . وهل كانت لحرب الريف نفسها أسباب أخرى غير هذه ؟ كلا ، تبعا لرأي العقول النيرة . وعلى سبيل المثال فإن روبر مونطاني لا يستحضر بصددها حتى مثال عبد القادر وانما مثال ابن تومرت المتقادم العهد ، الذي قام سنة 800 يتحدى من قمم الأطلس سلطة العاهل المنزوية في السهل . وجملة القول فان ابن عبد الكريم لم يكن سوى آخر تسجيد لداء عضال متعشعش منذ القدم في أعماق البلاد ، وأجلى مظهر في العصر الحديث للتناحر الأزلي بين "بلاد المخزن" و "بلاد السيبة " (3) .

هكذا فان السياسة في شخص بول بنلفي لم تعد أن تكون تبنيا حرفيا لوجهة نظر المؤرخين . ألا أن مثل هذا التوافق التام من شأنه أن يثير بعض الشكوك . لا يجب أن يعزب عن بالنا أن تاريخ المغرب كما سردت علينا وقائعه ، قد كتب بأقلام أوربيين وبالضبط في عصر كانت فيه أوربا الطامعة أولا في المغرب قد قامت بغزوه بعد ذلك ، وهو عصر كان فيه على العلم ، حسب تعبير أحد الرواد ، أن يكون سلاحا بيد الغزاة ، و" أول سلاح ينبغي توظيفه لانه هو الذي يعمل على تمشيط الأرضية التي يتعين الزحف فيها " (4) . كانت الحدود فيه ، ولنقلها بكل صراحة ، غير آمنة بين الجغرافية

والجاسوسية ، وبين الدعاية ونمط معين من التاريخ . والحال أن هذا المغرب المنقسم الى شطرين غير متجانسين مع ما يواكب هذا الانشطار من فوضى القبائل وقمع الفلاح ، لهو مقولة من اللازم الانتباه الى أنها قدمت خدمات جمة لسياسة الوقت . فكيف يمكن في البداية القول بكل فظاظة إن على الدول أن تحارب لأسباب غير مشرفة متعلقة بهذه "الفريسة الباردة" التي أحال اليها سهوا بنلفي ؟ لكن ألا تكون حربها أقل بداءة وأكثر مداهنة لو أنها اقترحت شعارات براقة تتعلق باعادة القبائل المتغطرسة الى جادة الصواب ، وفي نفس الوقت تحرير الفلاح المغلوب على أمره ؟ (5) فيما بعد ، وحتى في أعقاب 1912 ، كان من العسير أن يفهم الناس كيف أن حاميا بأيد فياضة بالنعم يضطر الى أن يحارب أكثر من عشرين سنة لكي يفرض وجوده . كان يكفي حينئذ التذكير بالتعارض التقليدي بين "بلاد المخزن" وبلاد السيبة "ليتم فجأة طمس النضال الوطني الذي كان يخوضه المغاربة ضد الغزاة ، وليتحول هذا النضال الى مجرد صراعات داخلية محضة ، تلك التي جاء الأجنبي لتهدئتها (6) .

لنوضح أن المقولة كانت توظف لتبرير السياسة ، ولم تكن تلهمها . فعندما تحددت طموحات فرنسا على المغرب عام 1903 ، كان يتعين القيام باختيار . وهو من أي طرف ينبغي امساك خيط القضية ؟ هل يمكن توظيف السلطان في اللعبة مع أنه كان فيما يقال جد ضعيف ولا شعبية له ؟ أم ينبغي بالعكس اللعب ضده بورقة قبائله المتمردة ؟ خلافا لما كان متوقعا ، صوتت الحكومة على الاختيار الأول ، مما أحدث دهشة كبيرة في مختلف مقاعد البرلمان . ألا يعني هذا الاختيار نهج سياسة معاكسة لمجرى الأمور ؟ بالنسبة لدشانيل ، فانه من غير المعقول : "توطيد سلطة العاهل حيث لا وجود لها و استعمال القوة لاخضاع القبائل الهمجية والمستقلة عن سيادة لم تعترف بها مطلقا ". (7)

بالنسبة لبوان كارى ، الذي كان أكثر انفعالا ، فقد ندد بالتهور قائلا :

" انني مقتنع بأن الحكومة تريد السلم ... الا أنني أشك في أن تتوصل اليه عن طريق السياسة التي تنصحنا بها . لن تكون لنا حرب ضد السلطان لكنني أخشى أن يفضي بنا الأمر الى أن نجد أنفسنا مضطرين الى خوضها لصالح السلطان وضد القسم الأكبر من المغرب " (8) .

هل يجوز الاعتقاد أن الحكومة كانت غير متبصرة أو غير مطلعة على حقيقة الأوضاع ؟ انه اعتقاد ينطوي على قدر كبير من السذاجة . فنحن نعلم أن عرافي الحزب الاستعماري ، لأنهم هم الذين كانوا يخططون وقتئذ سياسته ، كانوا يعرفون حق المعرفة صورة المغرب هاته التي كانت تظهر جانبيا وراء ردود فعل دشانيل وجوريس

لأنهم كانوا هم أنفسهم صانعيها . لكنهم في نفس الوقت الذي كانوا يجتهدون بنجاح ، كما نرى ، لترويجها واعطائها صبغة من الحقيقة ، كانوا يجاهرون فيما بينهم باعتقاد آخر ، وإذا ما كانوا قد عبروا عن وجهة نظرهم بكل امعان بأنه من الأفضل المراهنة على سلطة العاهل لاحتلال البلاد بأدنى ما يمكن من الأخطار ، فلان السلطة المذكورة لم تكن ، في نظرهم على الأقل ، لا وهمية ولا منازعا فيها كما تمكنوا من الايهام بذلك (9) . وسيظهر المستقبل أنهم كانوا على صواب. فالغزو لن يحدث ضد السلطان كما انه لن يحدث بدونه . صحيح أنه جرى بمشقة ولم يخل تقدمه من عثرات جدية ، الا أنه لم يتم الا باسمه . بل يمكننا أن نؤكد أنه كان من الممكن في ظروف أخرى أن يواجه صعوبات متناهية ، لو جاز على الأقل الافتراض بأنه كان ممكنا في هذه الحالة .

ذلك أنه كان ثمة الدليل المضاد . بالفعل ، وبعد أن انطلق الغزو تحت كنف السلطان ، عمل الفرنسيون بمجرد ما وضعوا أقدامهم في بلد مشهور بتمرده على أن يخلقوا فيه حالة من الاستقلال التي يقال انه كان يعيش عليها . منذ 1914 شرعت فرنسا في نهج "السياسة البربرية" التي ارتكزت على سلخ جميع قبائل الجبل والمناطق النائية عن سلطة العاهل القضائية (10) . فنهضت هذه السياسة دليلا جديدا وضمنيا على مدى النفوذ الذي يتمتع به في مجموع البلاد . فتحسبا لكل الطوارىء ، ومن أجل مناوأته وخلق موازنة لسلطته ، حاولت بذلك " تكسير المرآة " (11) ، ونعني بها وحدة البلاد . وحتى في هذه المرة ، وبينما لم يلق هذا الأسلوب غير المنمق رواجا الا في اطار دراسات مغمورة لبعض اللجان ، قام مؤرخون مرموقون بإعطاء دفعة قوية لمقولة "السيبة " الأزلية . هكذا وجدنا روبر مونطاني يتأسف لكون فرنسا انخدعت كثيرا بوهمية وحدة لا وجود لها في المغرب على الاطلاق ، مما جعلها تخطىء بدعمها طموحات المخزن في تأسيس دولة لا حدود داخلية لها (12). . ومن ثم أعرب عن أمله ، لكي تعود الى جادة الصواب في أن :

"تتمكن القبائل الجبلية بفضل مساندتها من التحررالى حد ما من الروابط التي نسجها التقليد الشريفي بينها " (13) .

فنرى أن الأمر لم يعد يتعلق ب "تكسير المرآة" وانما بالأحرى بالعودة الى الثنائية المقدرة بحكم الطبيعة والتاريخ ، "بلاد المخزن " و "بلاد السيبة " ، تلك الثنائية التي رأى فيها المؤرخون في الأمس القريب والبعيد ، ولنذكر ذلك ، مصدرا لجميع الآفات ، والتي أخذت تجري الآن مجرى الحقيقة كأنها أعجوبة من أعاجيب العلم .

ان النتيجة معروفة معرفة جيدة . فبكفالة السلطان ، احتلت الدولة الحامية المملكة بدون اشكال . الا أنها بمحاولة تقسيمها أثارت بالعكس ، خلافا لما كان متوقعا ، انتفاضة

وطنية التفت حول العاهل الذي أصبح من جديد رمزا للوحدة ، تلك الانتفاضة التي سترغمها على التراجع في البداية ، قبل أن تجبرها ذات يوم على الرحيل . ان هذه الثنائية التي كان يقال إن البلاد كانت تصبو إليها ، والتي كان من المنتظر أن تقر بها عينا ، أحست بها – واحترزت منها – كخطر يهدد بتقويض كيانها تقويضا تاما [14] .

* * *

لو أن المشكل كان منطقيا محضا ، لما كان لمقولة المغربيين المتنافرين أن تصمد أمام تكذيب الأحداث لها بشكل متجدد . لكن الخلفيات السياسية تداخلت ، وبمقدار ما كانت الحقيقة تتجلى ، بمقدار ما كانت الحاجة تشتد بالعكس الى هذه المقولة نفسها لتشويه معالمها . هذا ما يفسر ، وبالنظر الى الضمانات القوية التي تتمتع بها ، كيف أنه لا توجد الى يومنا ، فيما عدا استثناء يشار اليه بالأصبع ، كتب أو بكل بساطة كتابات حول المغرب تجرؤ على عدم اعتبارها حقيقة مسلما بها . وحيث إن مسعانا في الدراسة التالية يضرب صفحا عن خدماتها ، فاننا نرى من الواجب ، كما فعلنا ، التنبيه الى أننا سنسلك طرقا أخرى .

على القارىء أن يفهمنا . فحتى لو كانت فترة تاريخية معينة مشرقة في الواقع ، فاننا قد نعتبرها بائسة اذا ما نحن لم نرصد سوى سلبياتها . والحالة أن الجوانب السلبية وحدها هي التي حظيت باهتمام المؤرخين في دراستهم لتاريخ المغرب ، هذا البلد الذي كانت له نظم تختلف كثيرا عما عرفته أوربا ، والذي كان متأخرا أيما تأخر في تطوره ، بل ويعاني من انحطاط كبير. بناء على ذلك ، فاننا لن نحاول احلال صورة مثالية محل تلك اللوحة التي رسمت عن قصد بألوان قاتمة ، إنما سنعيد بكل بساطة الأمور الى وضعها الطبيعي من خلال عرض موجز وبقدر ما يكفي لتسليط الأضواء على موضوع دراستنا . فان يكون المجتمع المغربي قد كابد العنف والتناقضات الداخلية ، فذلك معطى لن نحاول اخفاءه ولا التقليل من شأنه . لكن لماذا نتناسى في مثال المغرب لا غير أن أية دولة لم تقم ولم تستمر في الحكم دون استئصال المقاومة التي اعترضتها داخل كيانها ؟ لماذا نعتبر بريطانيا العظمى مملكة متحدة رغم المشاكل الارلندية والاقوصية والغالية ؟ لماذا لا يسترعي انتباهنا في تاريخ ايطاليا وألمانيا سوى وحدتيهما الحديثتين رغم قرون من الانشقاق ، ولماذا نتغاضى هنا وهناك عن الصراعات الطبقية والحروب الأهلية والدينية ، لكي لا نرى التمردالا في هذا المغرب الذي تأسست به مع ذلك ومنذ فجر القرن التاسع ، دولة استمرت في الحكم وبقيت هي هي الى يومنا هذا وان تغيرت قيادتها ؟ هل يمكن أن نفهم هذه الاستمرارية لولا وجود عنصر التحام وتماسك

كأشد ما يكون قوة من جميع عناصر الانفصام والانشقاق ؟ انه سؤال في منتهى البساطة ويكفي طرحه ليظهر كل شيء بألوان جديدة .

يجدر بنا بادىء ذي بدء أن نتخلص من فكرة كثيرا ما يشار اليها مع ما فيها من تعارض مع الواقع المغربي ، وهي فكرة الفيودالية . حقا لقد استعملت الكلمة لأغراض تحقيرية . الا أن هذه الفكرة لا تؤدى المعنى لأمرين : لأنها متطرفة في الغلو وغير كافية في آن واحد . من جهة ، لأنها لا تأخذ بعين الاعتبار ما كان من ازدهار الحضارة في مدن المغرب قبل ازدهارها في أوربا بمدة بعيدة . من جهة أخرى ، لأنها تبالغ الى أقصى حد في تضخيم المستوى العام للبلاد . فلئن كان المغرب قد شهد قيام مدن كبيرة ومزدهرة بشكل لا عهد به لأوربا الفيودالية ، فان بواديه ظلت بالمقابل والى بداية القرن التاسع عشرفي حالة ركود قريب من مستوى جرمانيا القديمة . ها هو ذا التناقض الحقيقي والكبير للمجتمع المغربي . وهنا يكمن السبب الرئيسي لدونيته في الصراع الذي فرضته عليه أوربا . لكن ذلك ما شكل بالعكس سر مقاومته التي عرف كيف يخوضها والتي طالما كللت بالنصر .

على الرغم من أن وسائل أخرى أكثر تقدما استعملت هنا وهناك ، فان وسائل الانتاج الرئيسية في المغرب الحديث ظلت كما كانت عليه منذ عشرين قرنا : المحراث الخشبي ، والعتلة ، والرحى والمعصرة ، والمغزل والخزافة الخشنة . والتشكيلة الاجتماعية السائدة والمترتبة عن هذه الوسائل هي القبيلة . وهي جماعة بدائية يجمع بين أعضائها الاعتقاد بأنهم كلهم من سلالة جد واحد ، مما جعلها تتميز عن القبائل المجاورة . والقبيلة لا تستهلك الا ما تنتجه أراضيها ومواشيها وغاباتها ، وهي قادرة على تسيير شؤونها الداخلية بحيث يمكن أن تكون لجميع القبائل مصالح ذات طبيعة متشابهة دون أن يكون لها ، على الأقل في العهود الأولى ، روابط مشتركة . وهذا ما جعلها غير مهيأة من تلقاء نفسها لتتقارب وتتجمع قصد تأسيس دولة . وكان الفتح الإسلامي هو الذي أعطى من الخارج انطلاقة التطور عن طريق ربط جميع أجزاء البلاد داخل شبكة بيقارية من المسالك التجارية . فمن أجل التجارة و من أجل الأمن ومتطلباته ، كان لا مناص من تأسيس إدارة تتجاوز اطار القبيلة ويكون مصدرها خارجها . كانت هذه الادارة على أول عهدها هي ادارة الخلفاء كما هو الشأن في باقي أنحاء الامبراطورية الاسلامية . الا أن المغرب بحكم بعده عن المركز وموقعه الجغرافي الممتاز في مفترق الطرق التجارية البحرية بين افريقيا وأوربا الغربية ، ما لبث أن أظهر شخصيته فانعتق

وتحرر بعدما كان مجرد ولاية ، وقامت فيه منذ فجر القرن التاسع دولة مغربية . وان وفرة المعامل التي ضربت فيها النقود الفضية في مختلف جهات البلاد وكثرة المناجم التي زودتها بالمعدن اللازم ليشهدان على أن هذه الدولة الجديدة لم تكن مجرد مرحلة من المراحل لا تزيد البضائع عن المرور منها ، بل كانت مركزا نشيطا للمبادلات التجارية [15] .

على أن مؤسسها المولى ادريس لم يكن سوى غريب حديث العهد بالمغرب . فهو وان كان منشقا عن الامبراطورية العربية الا أنه بقي مع ذلك ثمرة من ثمارها . والحال أن بعض القبائل القاطنة بالمغرب على ممرات اهتمت بالتجارة ، فتمولت وتقوت الى حد أنها أصبحت تتطلع الى السيطرة على مقاليد الحكم . سنرى بالفعل أن ثلاث قبائل منها تتداول بالتناوب جهاز الدولة على امتداد خمسة قرون تقريبا .

لا شك أن المستفيد من الأرباح والامتيازات في مثل هذه الدولة التي ولدت من التجارة واستندت اليها ، هي القبيلة الحاكمة قبل غيرها ، ثم من ساعدوها في الحكم من عسكريين وموظفين وعلماء ، ومن شاركوها في الأعمال التجارية من تجار وصناع أو بعبارة أخرى سكان المدن التي نشأت هي الأخرى من التجارة . أما بخصوص القبائل البعيدة عن هذه المدن ، الواقعة بمعزل عن التيارات التجارية ، فما عسى يكون موقفها من هذا النظام الذي لا تفهمه والذي لم ينشأ مبدئيا لفائدتها ؟ كثيرا ما اتسم موقفها هذا بالنفور لأنها كانت تشعر بخضوعها دون أن تتضح أمامها الفوائد التي يمكن أن تجنيها في المقابل . وكان رفضها أو تحفظها هو مصدر ما عرفه تاريخ المغرب من نزاعات متعددة لم تخل في بعض الأحيان من عنف . الا أن ما ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار من وجهة نظر التاريخ العام هو أن تلك النزاعات انتهت دائما برضوخ القبائل للسلطة المركزية . وكما حدث في فرنسا أيام لويس الرابع عشر الذي شنق ألوفا من الفلاحين الى أغصان الأشجار ، فقد كان ضرب كثير من الرقاب على يد مولاي اسماعيل وسيلة للمحافظة على وحدة البلاد أو ترسيخها .

لكن ايانا أن نقتصر على هذا التعليل الوحيد لتفسير تكوين السلطة المركزية ، كما هي عادة المؤرخين الذين يعترفون بوجود دولة مغربية . من المؤكد أن الاخباريين سجلوا بالخصوص ، جريا على عادتهم . " الحركات التأديبية " . لكن هل من المعقول أن يغتر بهم المؤرخون ؟ لنقم باحصاء هذه " الحركات" من جهة ، واحصاء القبائل المتعددة من جهة أخرى ، سنرى حينئذ أن الأغلبية الساحقة من هذه القبائل لم تر ولو مرة واحدة على امتداد أجيال جنديا واحدا من جنود السلطان . لا ينبغي أن يعزب عن بالنا ، من جهة

أخرى أن العنف لا يسفر عن نتائج ثابتة الا اذا جاء تتويجا لعوامل أخرى لا ينتبه اليها الاخباريون لأنها لا تكون بادية للعيان . والحال أن العوامل التي تضمن تماسك وحدة البلاد لم تكن منعدمة بالمغرب . قد تختلف هذه العوامل عن تلك التي أثرت في تشكيل المجتمع الأوربي ، الا أنها مع ذلك جديرة بأن تؤخذ بعين الاعتبار.

لنذكر بادىء ذي بدء العامل الديني وامتزاجه بالظروف الاجتماعية الخاصة بالمغرب . لقد ظهرت في المغرب بين القرن التاسع والثاني عشر ثلاث دول تبوأت الحكم كلها تحت غطاء أيديولوجي وهو نشر الاسلام أو تقويم ما أدخل عليه من تحريف . كان أتباعها في أول الأمر قلة قليلة . الا أن ايمانهم جعل منهم بنيانا مرصوصا ، بحيث انهم كونوا فيلقا له بريقه القاهر ، يفتتن به للوهلة الأولى الأهالي المجبولون على الخوارق . وكما يشهد على ذلك فوزهم السريع ، فانهم كانوا يستميلون قلوب الناس بقوة ايمانهم دونما حاجة الى خوض كثيرمن المعارك . وبمجرد اسلام قبيلة أو انقيادها ، تراها تتبوأ مكانتها داخل الجماعة الجديدة ، بحيث ان الآفاق تنفتح أمامها لتصبح طرفا مشاركا في الانتصار بدلا من أن تنحط الى منزلة المغلوبين على أمرهم . من الحق أنها لا تزيد عن كونها شريكا تابعا للقبيلة الحاكمة ، إلا أنها تبقى مالكة لأراضيها كما كانت تملكها قبل الفتح ، ويبقى أعضاؤها شرعا وفعلا رجالا أحرارا. هذا هو الفرق الأساسي بين المغرب وأوربا الفيودالية . وفيما عدا بعض الاستثناءات الاقليمية أو الوقتية ، لم تكن توجد في المغرب لا ضيع السادة الفيوداليين و لا أملاك الكنيسة ولا أملاك التاج . وبالتالي لا وجود للعبيد وللأقنان المشدودين الى أرض الضيعة . أما تدخل الدولة فيقتصر على مطالبة القبيلة بالأعشار الشرعية التي مهما قيل عن فداحتها فانها تظل يسيرة جدا بالمقارنة بالضرائب المفروضة على الفلاح الأوربي ، زيادة على ذلك ، كانت هذه الضريبة الشرعية تجد ما يبررها في وجود مشروع جماعي تشترك فيه جميع القبائل .

كان هذا المشروع على امتداد أزيد من ثلاثة قرون عبارة عن حرب طالما خاضها المغاربة منتصرين في أراضي اسبانيا ، وبالتالي خارج البلاد . كانت الحملات مربحة جدا إلا أنها لم تكن مقصورة كما هو الشأن في أوربا على طائفة محدودة من النبلاء الفرسان . اذ كان الغزاة يستنفرون من كل قبيلة ، ويحملون عند عودتهم الى قبيلتهم نصيبهم من الغنائم الذي نالوه وفق القواعد الشرعية المتعلقة بالفيء . زد على ذلك أن هؤلاء الغزاة كانوا قلبا وروحا يتفانون في الجهاد في سبيل الله لحماية دار الاسلام التي يتهددها الزحف المسيحي ، بحيث ندرك كيف أن المكاسب الدنيوية كانت تمتزج بالمثل العليا للدفع بشتات القبائل المستقلة الى الانضواء داخل القبيلة الحاكمة دونما

حاجة الى استعمال العنف . بذلك تحققت وحدة البلاد ووجدت هذه الوحدة السياسية تعبيرها منذئذ في الوحدة العقائدية ، مما أدى بلا رجعة الى استئصال البدع التي كانت ما تزال منتشرة . ابتداء من هذا العهد أصبح السلطان يحمل لقب "أمير المسلمين" ثم "أمير المؤمنين" . فهل من المعقول ازاء هذه السلطة الروحية والوحدة العقائدية اللتين ينم عنهما هذا اللقب واللتين يسلم بهما الجميع الى يومنا، أن يمتنع المؤرخون عن الاعتراف بالواقع السياسي الذي يتراءى من ورائهما ؟

لقد استغل هذا النفوذ الروحي والسياسي فيما بعد لتدعيم الوحدة السياسية والدينية دون أن يستثني هذا اللجوء أحيانا الى القوة ، لكن دون أن يكون اللجوء إليها أيضا أمرا ضروريا خصوصا اذا تذكرنا الوظيفة التحكيمية التي يقوم بها السلطان .

ذلك أن القبائل كانت تتوفر من أجل ضبط السلام فيما بينها ، كما هو الشأن في بلاد الغال عند حلول القيصر بها ، على منظومة من الأحلاف الجماعية تضمن توازن جميع القوى. وهي منظومة فعالة الى حد ما اذ أنها ما تزال الى يومنا موجودة في المناطق التي استمرت فيها القبيلة كهيئة اجتماعية واطار سياسي . الا أنها كانت تقف عاجزة في بعض النزاعات الحادة كما هو الشأن عادة في حالة هذه الأحلاف الجماعية . في مثل هذه المناسبات ، وعندما تندلع حرب بين قبيلتين أو يلوح شبحها ، كانت الحاجة تمس والفرصة تتاح لتدخل قوة عليا قادرة على فرض حكمها على الخصمين . ولما التأم شمل القبائل داخل الجماعة ، أصبح السلطان هو الذي يقوم بهذه المهمة اما بناء على طلب القبائل أو بناء على مبادرته الخاصة [16] . كانت ممارسة هذه المهمة التي لا غنى عنها بالنسبة للقبائل تؤدى الى نتيجة مزدوجة . فهي تظهر للقبائل المعنية فائدة وجود الدولة لضبط السلام فيما بينها ، كما أنها تتيح للسلطان الفرصة ليغتنم ظروف التحكيم فيترك في عين المكان من ينوب عنه باستمرار ، مما يعمل على توطيد نفوذه هنالك .

وبذلك تصبح القبائل وقد سبق لها أن انضمت الى السلطان للحصول على الغنائم والدفاع عن الدين ، أداة أكثر انقيادا بيده لأجل الغزوات في الخارج بفضل ما تحقق من توطيد للسلطة وضبط للسلام في الداخل .

ذلك أن دولة نشأت على أساس التجارة لا بد لها من أن تمتد أكثر فأكثر على طول المحاور التجارية التي تراقب هي بعض محطاتها . وبالفعل فقد أصبح المغرب منذ القرن الحادي عشر مركزا لامبراطورية شاسعة تمتد أطرافها في الجنوب والشمال والشرق ، نحو السودان وأوربا والمشرق الاسلامي . كان ذلك العصر الذهبي من تاريخه . خلال

أكثر من ثلاثة قرون كانت المراكب والقوافل تأتي المغرب من كل تلك الآفاق محملة بالذهب والملح والعنبر والفرو والرقيق والتوابل والجوهر والكتان والأدوات الحديدية . ثم تنطلق منه الى جهات مختلفة بنفس هذه البضائع لتوزيعها من جديد بعدما أضيف إليها ما أنتجته أراضي البلاد أو مناجمها أو معاملها من نحاس وفضة وحبوب وزيوت وجلود ومرجان سواء في حالة مواد خام أو في حالة بضائع مصنوعة . وعلى حين أن المدن في أوربا ، العتيقة منها والجديدة ، كانت تبدو متواضعة ، فيما عدا مدن ايطاليا ، وتستحق أن تسمى بقرى أكثر منها بمدن ، ظهرت في المغرب عواصم لامعة يمكننا الى اليوم أن نقف على ضخامتها وروعتها كما هو الشأن بالنسبة لفاس . لقد وفق المغرب بفضل استعماله الكثيف لوسائل الانتاج ، برغم مستواها المتدني الى انجاز أشغال عظيمة وتشييد بنايات جميلة وضخمة كالأسوار وقنوات توزيع الماء والقصور والمنارات العظيمة . بالاضافة الى البضائع ، كانت التقنيات والأفكار تصل بدورها الى المغرب من مختلف الآفاق وتثمر في الحين . وكانت جمهرة من الصناع تنتج منتجات مشهورة سواء للاستهلاك المحلي أو للتصدير . ومنذ هذا العصر أدرك فن الزخرفة مستوى نموذجيا من الجودة والاتقان . كذلك الأمر في ميدان الفكر الذي كان حيا وخلاقا . يكفي أن نذكر هنا أن حاشية مراكش احتضنت في القرن الحادي عشر ابن رشد ، وفيها تفتق فكره . انه وريث ارسطوطاليس ، لكنه على الخصوص مجدد مقدام ألهبت أفكاره العصر الوسيط الأوربي الى عهد النهضة (17) .

ما أعجب التناقض بين هذه الحياة الحضرية النشيطة المتقدمة بالنسبة لعصرها وتلك الحالة من التأخر التي ظلت البوادي غارقة فيها ! وسرّ هذا التناقض أن المدينة لم تكن في المغرب نتيجة تطور داخلي وانما نتيجة للتجارة بعيدة المدى التي فاجأته من الخارج لذلك فان المدينة والبادية لم تمثلا درجتين من درجات حضارة مشتركة بل مثلت كل منهما نموذجا لحضارتين متباينتين ، كما هو الشأن اليوم بالنسبة لخيمة البدوى التي تقوم بجانب جهاز استخراج النقط ، فلا علاقة بين هاتين الحضارتين مع ما يجاورهما نفهم كيف كان ذلك في نهاية الأمر سبب عجز المغرب ازاء التدفق الأوربي فيما بعد . ان الدولة المغربية لم تجد في ريفها ما وجدته أوربا المتطورة في باديتها .

* * *

والحقيقة أن المغاربة قد تقدموا شيئا ما وإن انطلقوا متأخرين في هذا السباق الذي ستقضي فيه بالانتصار ذات يوم البنية الريفية التحتية . لقد كان العالم القروي يبدو جامدا في الظاهر طوال قرون . أما في الواقع فانه كان يتغير وان ببطء وبالتالي

بشكل غير ملموس . ذلك أن التجارة بعيدة المدى التي تخترق تياراتها كل البلاد كان لا بد وأن تجذب المنتجات والأيدي الى مجرى تيارها . وان استيلاء قبيلة في القرن الحادي عشر على جهاز الدولة ليدل على أن القلوب في البوادي كانت تتوق منذ ذلك الحين الى الأرباح التجارية . من جهة أخرى يخبرنا البكرى المعاصر لهذه الفترة بان التجارة توغلت بعيدا حتى في الجبال منعشة هنالك نشاطا صناعيا متواضعا (18) . ثم اذا ما استثنينا تلك الأقلية الأولى من العرب و الأندلسيين ، ألا نجد التجار والصناع الذين يشكلون غالبية السكان الحضريين متحدرين من أصول قبلية ؟ على أن المدن هي التي أصبحت المراكز الرئيسية لهذا الاجتذاب . لتوفير قوت تلك المدن و تزويدها بالفحم وتزويد صناعتها بالجلد والصوف والخشب و النحاس ولوازم البناء ، كان على أهالي الريف القريب والبعيد أن يستخلصوا الفوائض من حقولهم أو يتحولوا الى حطابين في المناجم . فتأتيهم من المدينة في المقابل ادوات ومنتجات مختلفة .

إذا تحدثنا اذن فيما سبق عن وجود نمطين متجاورين من الحضارة ، فينبغي أن نضيف هذا التحفظ وهو أنهما لا يبقيان بمعزل عن بعضيهما . ذلك أن روابط بشرية وأخرى مادية نمت بينهما مع مرور الزمن فمحت الى حد ما بينهما من حدود . صحيح أن ثمة عوامل أخرى كانت تتداخل في الوقت نفسه لهدم الجسور بينهما . فعادة ما كانت التجارة لا تجري على قدم المساواة بين المدينة التي تستفيد من تنظيمها و مهارتها في الأعمال ، وبين القبائل المشتتة و عديمة الخبرة في الميدان التجاري ، والواعية مع ذلك بأن تقاسم الأرباح انما يتم على حسابها . هذا ما يفسر ذلك الغضب المتأجج في صدور أهل البادية والذي كانت المدينة ترد عليه ببناء الأسوار حول نفسها. في شتى المناسبات ثارت فعلا ثائرة القبائل وأرهقت أرباض المدن بغاراتها أو ضربت عليها حصارا محكما . لكن السلطان كان يتدارك الموقف حينذاك فيرسل حاكما للفصل بينهما أو جيشا للحيلولة دونهما. على كل حال كان لا مناص للطرفين من التوصل الى الصلح بهذه الوسيلة أو تلك ، لأن حاجة القرويين و الحضريين الى بعضهما البعض أصبحت أكثر الحاحا من تعارضهما .

تلخيصا لما سبق يمكن القول إن السلاطين استطاعوا في مرحلة أولى جمع القبائل حولهم تحت راية الاسلام ، تلك القبائل التي لم يكن يوجد في السابق ما يدفعها الى الاتحاد. ثم اجتهدوا بفضل جهاز الدولة لضمان استمرارية الوحدة التي لم تتحقق بعد سوى على الصعيد السياسي . الا أن مجهوداتهم كانت تحت رحمة عوامل أخرى تتداخل بالوجه المعكوس . بحيث كان من الممكن مع توقف الغزو أو قلة مردودية أرباحه

أن تمتنع القبائل عن تقديم مساهمتها . لكن القبائل وجدت أمامها وضعا جديدا . فالتجارة التي شهدت بالذات ازدهارا كبيرا في اطار هذه الامبراطورية الموحدة ، أدت الى حدوث روابط متينة في نسيج العلاقات الاقتصادية الداخلية والعلاقات الاجتماعية هي الأخرى ، بحيث ان القبائل انصهرت في بوتقة هذا النسيج ، وظهرت بذلك بوادر وحدة أخرى أكثر رسوخا من سابقها.

من المؤكد أن عملية الاندماج الاقتصادي لم تجر الا بوتائر بطيئة بل لم تؤد بالمرة الى احداث وحدة شاسعة ، وانما الى وحدات جهوية حول مدن متنافسة فيما بينها بل وتجنح أحيانا الى الاستقلال والنضال . الا أن نتائج الاندماج كانت قد تراكمت منذ الفتح الاسلامي كما أنها لم تتوقف حتى بعد استيلاء البرتغاليين على سبتة بعد الفتح بسبعة قرون . يشهد على ذلك وفي عهود مختلفة عدد من المؤلفين من أمثال البكري والادريسي وليون الافريقي [19] . كما يشهد على ذلك امتداد المناطق التي تستعمل فيها اللغة العربية . ذلك أن اعتناق الاسلام ترجم في حد ذاته الوحدة السياسية بمجرد ما ظهرت للوجود . لكن لغة الاجداد البربرية لم تتراجع أمام لغة التجار العربية الا بمقدار نشوء وسيادة الروابط الاقتصادية الجديدة [20] .

قد لا نكون مخطئين ان قلنا ان الأساس الاقتصادي لنوع جديد من الوحدة ظهر منذ القرن الثاني عشر للميلاد . والا كيف نفهم أن الامبراطورية المغربية لم تنهر عندماانهارت الدولة التي أسستها ، وهي دولة المرابطين ؟ لم يزد الأمر في الواقع عن مجرد انتقال الحكم من يد قبيلة الى يد قبيلة أخرى ، أما الامبراطورية فلم تزدد الا قوة وازدهارا . أضف إلى هذا ان السادة الجدد ، ونعني بهم الموحدين ، ينتمون بدورهم إلى قبائل مغربية ، مما يدل على أن المحافظة على الموحدة جاء نتيجة لقوة داخلية . وحتى بالنسبة للمستقبل ، فان عملية المحافظة على المملكة أو تجددها ستتم وفق هذا المنوال ذي الدلالة في حد ذاته .

* * *

مع ذلك ، فان هذه الامبراطرية الموحدة ، والمزدهرة ، والقوية ، والقادرة في بدايتها على أن توقف المسيحيين عندحدهم بأسلحتها بل وأن تلقنهم الفنون والفلسفة ، سرعان ما بدأ الضعف يدب فيها منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادي لتأخذ في التقهقر بشكل يرثى له أمام حركة الاسترجاع في الأندلس ثم أمام الغزو الأوربي في عقر دارها . أما سر هذا التأخر فيرجع ، ولاسباب لم يحاول المؤرخون الى يومنا الكشف جديا عنها ،

الى أن النمو الاقتصادي الحثيث الذي صنع مجد الامبراطورية المغربية لم يتمخض فيها عن نفس النتائج التي تمخض عنها في أوربا خلال نفس الفترة .

لا ننحاز حول هذا الموضوع الى ذلك التهافت الذي أثارته النظرية القائلة بان حضور العنصر العربي هو الذي نسف كل الجهود وأدى الى الخراب والدمار (21) . ان تاريخ ابن خلدون الذي اقتبست منه هذه المقولة ملئ في حد ذاته بالوقائع والحجج التي تظهر بطلانها (22) . مع ذلك ، وفيما يستهجن المؤرخون ارجاع سقوط الامبراطورية الرومانية الى غزو القبائل الجرمانية المتبربرة ، برغم كثرتها وجولتها الكاسحة ، نراهم الى اليوم ما يزالون يصرون بصدد المغرب ، الذي كان في مرحلة التوسع وقتذاك ، على ارجاع تأخره الى مجيئ قبائل مستضعفة استخدمتها الدولة منذ القرن الثاني عشر للميلاد كقوات مساعدة وظلت بعد ذلك حبيسة داخل اطار التبعية لها . سيكون من الأجدى تاريخا تقصي الأسباب الحقيقية لا في حضور هذه الأقلية العرقية أو تلك ، وانما في الحالة العامة للبلاد : في الظروف الطبيعية والمستوى القائم لقوى الانتاج ، والتشكيلات الاجتماعية ، والمنظومة السياسية ، وهذا دون أن نتغافل بموازاة ذلك عن الأخذ بعين الاعتبار تأثير وعداء العالم الأوربي . ومع أننا لن نتمكن هنا من التوسع في مثل هذا الموضوع ، فانه لا غنى عن تقديم بعض الايضاحات .

في فجر القرن الثاني عشر للميلاد ، عندما كانت الدولة المرابطية ، مؤسسة الامبراطورية المغربية ، في أوج عظمتها ، كانت التجارة هي التي شكلت منذ أمد بعيد قاعدة ازدهار البلاد . وهي تجارة مرور كما هو الشأن آنذاك بالنسبة لمجموع العالم الاسلامي ، وقامت بالتالي على منتجات تصل من الخارج لتواصل طريقها الى جهات أخرى ، الا انها أدت بالضرورة ، وبوتائر متصاعدة ، الى تنشيط حركة المنتجات المحلية المتكونة من فائض المحصولات الزراعية بالاضافة الى المواد الصناعية التي كان نطاقها يتسع باتساع نمو المدن . بيد ان الصناعة المرتكزة أساسا على استخدام الخشب والجلد والصوف لم تكن سوى ذيل ونشاط تكميلي للفلاحة . والاستثناء الوحيد الجدير بالذكر هو الأدوات النحاسية التي كان استعمالها شائعا جدا في هذه الفترة . ذلك أن النحاس في شكله النقدي كان يأخذ طريقه مباشرة الى خزائن الدولة مما جعله منذ وقت مبكر، شأنه شأن الفضة التي كانت الأرض المغربية تزخر بها أيضا ، محط عناية خاصة ، بحيث يمكن القول ان الفضة والنحاس لعبا دورا كبيرا في ازدهار البلاد (23) . مع ذلك ، وعلى الرغم من ان الحياة الاقتصادية كانت في مجملها منتعشة جدا ، فانها بقيت داخل هياكل تقليدية أو أصبحت خارج ذلك تعاني من الأزمة . لقد استجلبت

أساليب السقي الا أن المنظومة الزراعية العتيقة ظلت قائمة ، وزاد حجم التجارة دون وجود شبكة من الطرق والعربات لتحل محل الدواب ، ومقابل الجهود التي انصبت على استخراج النحاس والفضة بقي الحديد مهملا .

انها الفترة التي شهدت فيها أوربا ، ولما تزدهر تجارتها ، ثورتها الفلاحية والصناعية الأولى . فالاجتثات المكثف للغابات ، واستعمال المحراث ، والتناوب الثلاثي ، أدى الى مضاعفة المحصولات الزراعية ومضاعفة الانتاج بشكل عام . و بالاضافة الى الطرق العتيقة الموروثة عن الرومانيين ، بنيت طرق جديدة ، ومدت القناطر ، وتدعمت فعالية العجلات عن طريق استعمال زوجة متقنة ، وأصبح بالامكان استخدام الطرق الملاحية . وبفضل اختراع دولاب المغزل ، انتعشت صناعة النسيج . وفوق هذا كله ، تهيأت ظروف الاقلاع في ميدان صناعة الحديد . وهذا بجانب ما حدث من تقدم في استخدام التقنيات الملائمة ، خاصة الطاحونة المائية ، وبجانب أيضا ذلك النفس الجديد الذي أعطته الآلة المعدنية للاقتصاد برمته ، ناهيك في الأخير بالمساهمة الرهيبة في ميدان انتاج الاسلحة . كان الانتاج في مجموعه يحقق إذن قفزة لا بد وان تسفر عن نمو التجارة بدورها . انها صورة معاكسة للتطور الذي عرفه المغرب ، حيث أحرزت فيه التجارة قصب السبق دون أن يواكب نموها نمو الانتاج الفلاحي والصناعي ، أو قل دون أن يواكبه الا من بعيد .

على أنه علينا هنا أيضا الا نبحث عن تفسير هذه المفارقة في عوامل عنصرية ان سافرة أو مخجلة . بالفعل ، يمكننا أن نجد لها أسبابا أخرى ، وبادئ ذي بدء في الظروف الطبيعية حيث كان تمازج دقيق من العوامل المساعدة والمعوقة يدفع الى الاستغناء عن المجهود البشري ليحكم عليه بالفشل عند تدخله فيما بعد ؛ وهذا في بلد كان فيه الجمل يشق طريقه في كل الاتجاهات ، ولا تكاد فيه الأنهار بتاتا تشكل حاجزا لا يمكن اجتيازه ، و لم تكن فيه الطرق و القناطر لازمة . على العكس ، كانت قساوة فصول الصيف تحول دون تنظيم تناوب ثلاثي . على أن العلة تكمن أساسا في البيئة المتقلبة التي كانت تقدمها الطبيعة شبه الجافة للانسان . ففيما كانت مكافحة الشجرة في أوربا ، حيث تكثر الغابات والمياه التي تدفعها الى النمو من جديد ، تسير خطوة خطوة ، لكن بفعالية ، بفضل الأدوات المعدنية التي أصبح استعمالها شائعا ، كانت الغابة في المغرب هي التي تتراجع بالعكس أمام الانسان لتتركه تحت رحمة موجة جفاف متصاعد . كيف يمكن اذن بدون غابات ولا مجار مائية منتظمة استغلال مناجم الحديد ولو أن وجودها كان معروفا ؟ وفعلا لم يتمكن المغاربة من انتاج هذا المعدن الا بقدر

ضئيل ومن نوع لا جودة له [24] .

دون شك أن ثمة أسبابا أخرى ما دام المغاربة لم يتمكنوا من تفادي هذه المصاعب الطبيعية أو تذليلها ، الا أنها ذات طبيعة سياسية واجتماعية .

عندما عرفت أوربا بدورها ، وبعد مدة طويلة ، ازدهار التجارة بعيدة المدى فان ذلك كان من عمل برجوازية نشأت ونمت بموازاتها . ولما حاول وقتذاك النبلاء والملوك ، الذين كانوا يحتقرون التجار والسلع لكونهم استمدوا دائما من أراضيهم قوتهم وأرباحهم ، الاستئثار بثمار هذه التجارة ، وجدوا أمامهم أندادا صناديد . فالتاج الاسباني خسر هلندة في هذه المحاولة ، كما ترك ملك انجلترة رأسه وعرشه ، في حين تمكن ملك فرنسا من ابتلاع الاقطاعيين بفضل البرجوازية الوضيعة ، وهكذا فان البرجوازيين ، الذين كانوا من رجال الصناعة والاقتصاد ويتميزون بالجرأة والذكاء ، لم يكتسبوا الا في ظل الصراع تلك المزايا التي مكنتهم من مجابهة الطبيعة ومنافسيهم الاجتماعيين على حد سواء .

لم يحدث في المغرب شيء من هذا القبيل . في هذا البلد تأسست الدولة بفضل سيطرتها على مناجم الفضة والممرات الرئيسية والمحاور التجارية الكبرى . فكانت بالتالي منذ البدء السيد المطلق للتجارة ، كما أنها ظلت حريصة دائما على أن تكون المقاول الرئيسي والتاجر الأول في البلاد . وقد بقي الاحتكار الذي مارسه السلطان اما مباشرة أو عن طريق كرائه للملتزمين تقليدا ساري المفعول الى منتصف القرن الماضي، حيث لم يزل نهائيا الا بقوة الضغط الأوربي [25] . من هذه الوضعية اذن تتضح لنا النتائج . فالبيروقراطية هي التي كان لها اليد العليا على الأعمال في جميع العصور . ما دامت الأسرة الحاكمة محافظة على ذلك الشباب الذي يحدد ابن خلدون مدته بجيلين ، فقد كان بالامكان أن تسير الأمور على أحسن حال ، لكن كلما انقضى الأجل الا وساد الاختلال والفساد . أما بخصوص البرجوازية ، فقد كاد يوجد بالمغرب صنف منها ، والا بماذا نسمي الصناع والتجار الذين نعرف أن بعضهم احتجن منذ القرن الحادي عشر للميلاد رساميل هامة ؟ [26] . الا أن هذه البرجوازية كانت تدين بوجودها لرعاية السلطان الذي كان يشركها في أعماله بمقدار ما يبدو له ذلك مربحا . وحيث انها نشأت في ظل السلطة ، فقد ظلت تحت الوصاية . وهي وصاية كانت تضيق بها ذرعا كما تشهد على ذلك بعض النزاعات ، لكن دون أن تراودها فكرة التخلص منها.

هاهو ذا السبب - وليس لكونها من طينة أخرى غير طينة برجوازية لندن أو باريس أو أمستردام - الذي جعل البرجوازية الفاسية أو المراكشية عاجزة على أن تضطلع

بنفس الدور التاريخي الذي اضطلعت به نظيرتها الفتية في أوربا .

إدارة بيروقراطية ، وبرجوازية مدجنة ، ووسط ملائم في البداية لكنه ذو موارد في طريق الاستنفاذ ، تلك هي الأسباب السياسية والاجتماعية والطبيعية للفشل الذي لم تكن تلك الانطلاقة المبشرة لتدل عليه . ان الحضارة التي كان المغرب مهدا لها وقتذاك ، والتي تألقت وازدهرت ما دام لم يعترض سبيلها أي حاجز على قدر مستواها ، ظلت من النوع التجاري ، ولم تكن تنتج بنفسها الا بوسائلها التقليدية التي أصبحت متقادمة ومتجاوزة أمام تفوق التقنية الأوربية الجديدة . لم يظهر هذا الاختلال على الفور . ذلك أن أوربا ظلت لمدة طويلة في حاجة الى البضائع التي يزودها بها تجار المغرب ، مما أبقى ازدهار المغرب الى مطلع القرن الخامس عشر مع ما كان قد أصابه من ضعف آنذاك. لكن المغرب كان يصدر المواد الخام قبل كل شئ مقابل المنسوجات والمصنوعات الحديدية . أي أن اقتصاده أصبح منذ تلك الأيام في تبعية لاقتصاد أوربا . مما زاد من هذه التبعية أن الأوربيين صاروا يحتكرون وسائل النقل البحري ، بحيث صار التاجر الأوربي في حالة سيد سوق وقت البيع والشراء . فلم يعد بعيدا الوقت الذي سينزل فيه غزاة قشتالة لتخريب مدينة تطوان ، وينزل البرتغاليون للاستيلاء على سبتة ، الميناء الكبير المتصل بأوربا . وبعد أن كان المغرب يبسط سلطته على موانئ أوربا الأمامية ، جاء الوقت الذي تقدمت فيه أوربا الى دياره لتنتزع من يده جميع أرباح تجارته . وفعلا ، عرفت جميع مراسي المغرب تقريبا مصير سبتة خلال القرن الخامس عشر ، بل ووصل البرتغاليون بعد ذلك الى خليج غينيا فحولوا الى طريق البحر جزءا متزايدا من تجارة القوافل الصحراوية (27) . فأصبح المغاربة في حالة المحبوسين في حدود بلادهم وفلت من أيديهم جل التجارة بعيدة المدى التي كانت تمر بترابهم . أما انتاج بلادهم فلم يكن بامكانهم تصديره الا عن طريق الوساطة الخانقة للبرتغاليين أو الاسبانيين ، فكانوا يدفعون كثيرا ولا يأخذون مقابله الا القليل اليسير . بعد هذا التقلص المفاجئ الشديد لتجارتهم التقليدية ، وبعد فقدانهم المستمر لمادتهم الحيوية لعدم مساواة القيمة في المبادلة ، كيف لا يكون مكتوبا بذلك منحنى انحطاطهم ؟

* * *

الحقيقة أن التجارة لم تكن وحدها موضوع النزاع . انظر ما رواه البرتغاليون أنفسهم عن التخريب والنهب والسلب والقتل الذي قاموا به في الغزوات التي شنوها من قواعدهم على الموانئ ، تفهم كيف أن وجود الشعب المغربي أصبح هو أيضا مهددا (28) . كان من المتوقع اذن أن يعرف المغاربة نفس المصير المحزن الذي عرفه

آنذاك أهالي القارة الأمريكية الذين أبادهم الاسبانيون ، لولا أن الوحدة التي رأينا كيف أنها نشأت ونضجت منذ ستة قرون والتي بلغت درجة كافية من الكثافة و من الوعي بالنفس ، مكنتهم من أن يجابهوا برد فعل جماعي الضربات التي لم تكن تصيب في أول الأمر الا البعض منهم . وفعلا كانت القبيلة الحاكمة من قبل هي التي تأخذ على عاتقها جمع القبائل لتوحيد الأمة . أما الآن فكان عكس ذلك ، اذ أن السلاطين من بني مرين الأخيرين وأعقابهم من بني وطاس أصبحوا يتراخون ، اما لعجزهم أو لمصلحتهم ، في رد ضربات البرتغاليين ، فلم يبرز انعكاس الوحدة الا من أعماق القبائل . كذلك فقد كانت العادة في الماضي أن تبرز قبيلة من بين القبائل فتفرض نفسها على الجميع .
أما الآن فقد نهض الجميع نهضة واحدة في سبيل قضية لا بد من أن نسميها وطنية الا اذا اقترح علينا أحد تسمية أنسب . أما أنا فلا أعرفها . قد يقول بعضهم ان دعاة هذه القضية خصوصا منهم محمد الجزولي ومن جاء بعده ، جاهروا على رؤوس الملأ بأنهم مجاهدون في سبيل دين الاسلام ، طبعا . لكن أليس الاسلام هو الذي عبر منذ البداية عن وحدة القبائل السياسية ؟ هل من المعقول - ولو خطر ذلك بباله - أن يستغني الجزولي عن صلة الوصل هذه خصوصا والمغيرون الأجانب يرفعون ضد المغاربة شعار الصليب ؟ فلننتبه من جهة أخرى إلى أن الطريقة الشاذلية التي كان الجزولي شيخها لم تكن الطريقة الوحيدة . بل كانت ثمة أخرى لا تقل عنها ايمانا وتدينا ، منها القادرية مثلا . الا أن هذه لم تكن تدعو للجهاد . انظر أيضا الى أن الدفاع - أو قل الجهاد- بدأ ضد البرتغاليين لكنه أصبح فيما بعد موجها ضد الأتراك أيضا مع أنهم مسلمون ، بل كان الجهاد ضد الأتراك المسلمين بمساعدة الاسبانيين المشركين . ما أعجب هذا الجهاد من المعقول اذن أن نستنتج من هذا كله أن الدفاع كان دينيا قالبا لكنه سياسي بل وطني قلبا (29) . اذا كان السعديون قد تقلدوا الحكم آنذاك بفضل انتمائهم الى سلالة الرسول ، وهذا دون أن تكون لهم عصبية قبلية تشد أزرهم كما كان يحدث سابقا ، فذلك لا يرجع لكون المغاربة لم يكتشفوا وجود هذه السلالة بين ظهرانيهم الا مؤخرا - مع أنها موجودة منذ قرون - بل لأن اختيار هؤلاء الرؤساء الجدد بالنسبة الي الاسلام الذي تشترك فيه جميع القبائل هو الاختيار الأنسب لاقامة الدولة القوية التي لا بد منها لخوض معركة ضارية ضد الغزاة . فظهور سلاطين جدد من الشرفاء - أي السعديين

أولا ثم العلويين - لم يكن كما يزعم البعض وليد عقلية متدينة متحجرة بل هو دليل على خطوة كبيرة قطعها المغاربة في توحيد أمتهم لأنهم أصبحوا يشعرون بشكل أعمق بانتمائهم الى وحدة تتجاوز بكثير حدود القبيلة . من جهة أخرى فان شرفاء آخرين ينتمون بدورهم الى هذه السلالة الشريفة على مستويات متعددة ، كانوا قد غرسوا جذورهم منذ أمد بعيد في مختلف جهات البلاد تقريبا ، وأصبحت ذريتهم المتجمعة حول أضرحتهم محل تكريم وتبجيل من طرف القبائل المجاورة . وبالنظر الـــى ان هذه الذرية كانت متفانية في اخلاصها للاسرة الحاكمة بحكم قرابة النسب ، فاننا نتصور أي وسيلة جديدة أصبح السلطان يتوفر عليها في شخص هـؤلاء الأقرباء المخلصين لترويض القبائل أو ابقائها تحت الطاعة دون اللجوء الى العنف ، بما فيها القبائل الأكثر انزواء وتعنتا .

بهذا ، وبفضل مزيد من الالتحام و التماسك ، قدر للمغاربة أن يتفادوا الخطر العظيم الذي أصبحوا عرضة له . من الحق أن هذا التماسك والالتحام كانا دون درجة الكمال بكثير . ذلك أن الحكام الجدد لم يغيروا بشيء هيكل المخزن العتيق الذي ورثوا عن أسلافهم جهازه الباهظ التكاليف مع موظفيه من ذوي الامتيازات و عادات أفراد حاشيته . كما أنهم لم يدخلوا أي تغيير - وأنى لهم ذلك ؟ - في العلاقات الاجتماعية . كذلك ظل عدم المساواة ثابتا بين المدن والريف بسبب المعاملات التجارية التي قلنا إنها كانت تتم على حساب سكان الريف ، وأيضا بسبب الضرائب التي كانت تجبى منهم من دون أهل المدن تقريبا . وكان الكساد الذي يخيم على التجارة قد أصبح مانعا يعرقل الاندماج الاقتصادي ، مما أبقى القبيلة كهيئة اجتماعية و اطار للحياة السياسية . بالتالي ظلت العلاقات بين القبائل تثير المشاكل كما استمر بالخصوص التناقض بين القرويين والحضريين المفضلين لدى السلطة . هذا التناقض الأخير هو الذي ظل الى النهاية نقطة الضعف الرئيسية في كيان المغرب وجهازه بما أدى اليه من اصطدامات عنيفة . هذا كله صحيح لا شك فيه . لكن هذا الكيان المغربي كان قادرا كما رأينا مع

ضعفه على أن يوقف المغيرين ، بحيث انه حصرهم في الموانئ في مرحلة أولى ثم طردهم بعد صراع دام مائة وخمسين سنة من شاطئ المحيط الأطلسي على الأقل . لا ننسى أن البرتغال فقدت فوق التراب المغربي وجودها كدولة لمدة تناهز قرناً بعد انهزام جيشها في معركة وادي المخازن الشهيرة . بل ظهر في بعض الفترات ، أيام أحمد الذهبي ، مثلا ، أو أيام المولى اسماعيل ، كأن هذا الكيان المغربي قادر على استئناف تقدمه لاستدراك تخلفه عن أوربا.

لكن هذا الرأي طبعا انما هو من الأوهام . اذ من المستحيل أن يبلغ الأمر الى هذا الحد . بل بالعكس لم يزد التباين الا تعمقا بين المغرب الذي كان انتاجه متوقفا والذي انقطعت عنه التيارات التجارية القديمة وبين الدول الأوربية التي ما فتئت تنمو وتزدهر في جميع الميادين . فلتحرير الموانئ مثلا - ولا يمثل ذلك الا خطوة لفك الخناق تمهيدا لهذا التقدم المحتمل - كان السلاطين في حاجة إلى مدافع وإلى وحدات حربية فكان لا بد لهم منذ تلك الأيام من استحضار المهندسين من أوربا لصنع المدافع أو من استيرادها بذاتها ، كما كان لا بد لهم من استيراد القلاع والمخاطف والحبال بل وخشب الألواح والسواري . فاستنزفوا بذلك أموالهم ولم يوفقوا الى التخلص النهائي من الخناق. كان سيدي محمد بن عبد الله قد حرر الجديدة ، أما مليلية فكان عليه أن يوقف الحصار الذي ضربه عليها سنة 1774 . فتجلى في هذا التاريخ فشل مشروع تحريري استغرق قرونا ، اذ بقيت في أيدي الاسبانيين المنافذ المطلة علـى المتوسط خصوصا منها سبتة [30] .

هكذا وحتى مطلع القرن التاسع عشر كان المغرب من بين البلدان القلائل غير الأوربية التي تمكنت من صيانة حياة شعوبها ووجود دولها ، وهذا بالرغم من وجود علاقات متينة وعريقة مع أوربا ، الا أن ذلك كان نتيجة مجهودات كبيرة اعترضتها مصاعب كثيرة . بحيث ان المغرب المستنزف وبالغ الانحطاط كان مكتوبا عليه أن يرزح في الأخير تحت عبء ضغوط أشد هولا من قبل قوى أوربية جديدة . لكن حتى على هذه

الحالة ، لم تكن العملية باليسيرة . حقا لا يمكن أن نقارن المغرب بدولة عصرية . فقد ظلت وسائل الانتاج فيه عتيقة بما يترتب عن ذلك من تقسيمه الى قبائل متعددة ، مما حال دون بلوغ مستوى كاف من الوحدة العضوية . بيد أن نوعا من هذه الوحدة كان قد حدث فيه منذ مدة طويلة بفضل التجارة وبفضل الدولة التي قامت على أساس هذه التجارة والتي جمعت القبائل تحت راية دين واحد ، فأشركتها في غزواتها الخارجية ثم حبستها في شبكة من المصالح الاقتصادية وربطتها نهائيا بالعواصم التجارية . فاذا بالبرتغاليين والاسبانيين يغيرون على البلاد . وبما أن احتلالهم أدى بالتجارة الى الافلاس ، فانه أوقف الاندماج الاقتصادي الذي كان جاريا ، مما أحدث الفسق الذي يتعذر رتقه . لكن بما أن هذا الاحتلال كان يهدد حياة أناس تعودوا المشاركة في مصير واحد ، فانه أثار فيهم غريزة البقاء مما أحدث تماسكا جديدا في هذه الوحدة التي كانت مترتبة من قبل عن وجود الدولة فقط. ان أربعة قرون من الجهاد ضد المغيرين المسيحيين لهو أمر له تأثيره في قلوب القبائل المسلمة لترمق بعين الاجلال رئيسها المشترك ، أي السلطان ، الذي بايعت له بالامارة . له تأثيره أيضا في تكييف عقلية جماعية تحدد هويتها قبل كل شيء كهوية مضادة لهوية المغيرين . وله تأثيره أخيرا في ترسيخ فكرة التضامن في الأذهان كواجب مقدس . وفعلا ترى أن الوثائق تبرز هذه العواطف - أي الولاء والقرابة والتضامن - كلما أصبحت سيادة البلاد في خطر . حقا لقد كان المحتلون يسمون في هذه الوثائق ب "المسيحيين " و بأعداء الله . لكن أليسوا مع هذا محتلين ؟ أليسوا أيضا وقبل كل شيء مسيحيين ؟ أما بالنسبة للمغاربة الذين كانوا يطلقون على أنفسهم اسم مسلمين ، فينبغي التوضيح أنهم لم يكونوا يعنون بهذه التسمية سوى أنفسهم من دون باقي المسلمين الآخرين سواء أكان هؤلاء في الصين أو حتى في الجزائر .

نظرا اذن لانخداع بعضهم بحرفية الالفاظ ، تراهم يعتبرون دائما ردود فعل المغاربة ضد الأوربيين منذ مائة سنة وليدة التعصب أو وليدة روح الحرب المقدسة . في

الواقع ، وبالرغم من غياب جميع الخصائص المميزة لدولة عصرية ، فان الأمر يتعلق منذ البدء بشعور كان يعبر عن نفسه حقا في اطار التعارض بين الاسلام والمسيحية ، بحكم التقليد وأيضا بحكم ما كانت تستلزمه الظروف . الا أن مضمونه كان مبنيا على أساس شعور وطني . كان هذا الشعور من القوة والتجاوب بما يكفي لتأجيج قطاعات واسعة من الجماهير والدفع بها الى الالتفاف حول رؤسائها الذين كانت تنتظر اشارتهم للجهاد [31] . عندما أصبح باديا للعيان أن انتظارها بلا طائل ، اهتزت تلقائيا هنا وهناك ، في حركة متوثبة غير منتظمة الا أنها موجهة ، مستنهضة همم رؤساء جدد لاعادة وحدة الصف بينها ، والدفاع على الأقل عن الاستقلال ، وربما أيضا لتحقيق طموحات أخرى غير واضحة تجمع بشكل غامض بين الحرية والعدالة الاجتماعية.

إن ما قمنا هنا بتلخيص خطوطه العريضة هو ما سيكون عليه ، في الفترة الحديثة ، التاريخ النضالي لشعب ان لم نقل لأمة ، وهو الشعب المغربي .

الهـــوامـــش

1) القى هذا الخطاب بمدينة نيم في 3 اكتوبر 1925 .

2) Eugène AUBIN : " Le Maroc d'aujourd'hui " Paris 1904 . Augustin BERNARD : " Le Maroc " F. Alcan 1921. Henri TERRASSE : " Histoire du Maroc " Ed. Atlantiques , Casablanca, 1950 .

3) Robert MONTAGNE : " Les Berbères et le le Makhzen dans le Sud du Maroc " F. Alcan , Paris , 1930 , pp. 402 -404 .

4) R. THOMASSY : " Le Maroc. Relations de la France avec cet empire ", 3e édition , Paris 1859 , p. 93 .

5) فيما يلي التبرير الذي قدمه ميشو بلير من بين آخرين : " إن عجز المخزن عن فرض سلطته الفعلية في جميع مناطق الامبراطورية هو الذي استدعى تدخلنا وإقامة نظام الحماية "

MICHAUX - BELLAIRE :"Le Rif "conférence prononcée au cours des Affaires indigènes , Rabat , 1925 p. 3 .

6) على الرغم من أن فرنسا خاضت حربا حقيقية طيلة عشرين سنة لاتمام غزو المغرب فان الكلمات التي يمكن أن تعبر عن هذه الحالة ، مثل « جبهة» أو «عمليات» ، لم تستعمل عن قصد الا في التقارير العسكرية . كان ليوطي في تقاريره الى وزارة الحرب يتحدث بالفعل عن « مختلف جبهات العملية » . أما بالنسبة للعموم فلم يكن الأمر يتعلق اطلاقا الا « بالتهدئة » ، وهو المصطلح الذي ظل يستعمل للدلالة على الغزو بدون أن يوضع بين مزدوجتين حتى بالنسبة للمؤرخين اليوم

7) جلسة البرلمان بتاريخ 19 نونبر 1903 الجريدة الرسمية ص 2794

8) جلسة 23 نونبر 1903 . الجريدة الرسمية ص 838 , 2 .

9) خلال جلسة 23 نونبر ، تدخل وزير الشؤون الخارجية دلكاسي، ردا على المتلهفين الذين كانوا يريدون التدخل المباشر لدى القبائل ، اما لاخضاعها أو لاغرائها ، صرح أن الحكومة تفضل " سياسة لها أجل ، تلك السياسة التي قد تكون أبعد زمنا على الأقل في الظاهر الا انها أكثر ضمانة وأحسن تحضيرا وأقل تكاليف.....الا أن السياسة لا تكون مع العدم . من البديهي أن هذه السياسة السلمية لا يمكن أن تتم الا مع الحكومة المغربية " . انه لمن الدلالة أن نلاحظ أنه اذا كان المتكلم بلسان الحكومة قد اكتفى بتحديد السياسة الرسمية على هذا الشكل ، فان أوجين اتيين هو الذي تكفل بعده بتقديم الحجج لتبريرها وتمريرها (محضر جلسات المناقشات المنشورة في:

" Renseignements Coloniaux " , Supplément au Bulletin du Comité de l'Afrique Française", année 1903, décembre , pp. 312 sqq.)

10) تضمن الفصل الأول من ظهير 11 شتنبر 1914 : " ان القبائل المعروفة بالعادات البربرية هي التي كانت وما تزال تساس وتدار وفقا لقوانينها وأعرافها الخاصة تحت مراقبة السلطات " . لا تفوتنا هنا ملاحظة أن عدم التحديد المقصود بالطبع في الشطر الأخير من الجملة التي تفادت أن تذكر بالاسم السلطان أو المخزن ، كان من شأنه أن يمكن ، وقد مكن بالفعل ، من احلال السلطات الفرنسية محل السلطات المغربية في ممارسة المراقبة المنصوص عليها .

11) كان ليوطي قد أسس لجنة دراسة لتنظيم القضاء البربري. في محضر جلسة هذه اللجنة بتاريخ 8 اكتوبر 1924 نقرأ ما يلي : " لا ضير بتاتا ... في فصم الوحدة القضائية للمنطقة الفرنسية طالما أن الأمر يتعلق بتعزيز العنصر البربري لتهييئه لدور الموازنة الذي يمكن أن يناط به. بالعكس فان ذلك ينطوي على فائدة مؤكدة من وجهة النظر السياسية ، الا وهي تكسير المرآة ". ان هذه الكلمات التي لم تزد عن التعبير عن وجهة النظر التي أدلى بها ليوطي ومستشاروه في وثائق أخرى ، قد كشفت عنها " مجلة المغرب " ، وأعيد نشرها في مختلف المناسبات في الصحافة المغربية (انظر على الخصوص " عمل الشعب" . في عددها 20 ماي 1937) . نفس هذه الهموم تتجلى لدى جورج سوردون عندما قال : "اذا ما تعرب البربري فان ذلك يعني بالنسبة اليه نوعا من المقاومة ضدنا ".

ان هذا التصريح لأفصح تعبير عن وجود شعور (وقد قلنا سابقا شعورا وطنيا) لدى البربري المشهور بشراسته ، ذلك الشعور الذي كان يقربه من باقي اخوانه المغاربة ضد المحتل الأجنبي . علاوة على ذلك ، أكد سوردون على ضرورة العمل السريع من أجل عرقلة هذا الشعور عن طريق سياسة التفرقة المعروفة ب" السياسة البربرية" :

"اذا لم نأخذ حذرنا من ذلك ، سنكون قد حفرنا هوة سحيقة بيننا وبين البربر".

("Esquisses de droit coutumier berbère marocain ",
conférences données au Cours Préparatoire au Service des Affaires Indigènes pendant l'année scolaire 1927-1928. Rabat Felix Moncho, édit. 1928)

12) ROBERT MONTAGNE : op. cit. p. 414

13) المرجع نفسه ، ص 419

14) حول " السياسة البربرية " ، فان أحدث دراسة وأوضحها هي دراسة :

C.R. AGERON : "La politique berbère du protectorat marocain 1913-1934 " in "Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine", T. XVIII, Janvier-mars 1971,

حول تطور رد الفعل الوطني ، انظر علال الفاسي : "الحركة الوطنية بالمغرب العربي" القاهرة (بدون تاريخ ، ربما عام 1948)،

بالنسبة للتطورات اللاحقة لعام 1947 ، انظر على الخصوص :

Ch. A. JULIEN : "L'Afrique du Nord en marche"

الطبعة الجديدة لهذا الكتاب (باريس 1972) تضيف الى رواية "الأزمة المغربية" بيليوغرافية نقدية غنية.

15) Voir Daniel EUSTACHE : " Les ateliers monétaires , du Maroc " in HESPERIS -TAMUDA, Vol. XI, 1970 (Fascicule unique), pp. 95 -102.

على مجموع 51 معملا نقديا التي تمكن المؤلف من تحديد وجودها بالمغرب في مختلف العهود من تاريخه ، هناك 21 منها استخدمت منذ عهد الأدارسة وهم ملوك المغرب الأوائل ، وكلها أسست من طرفهم . انظر كذلك :

Bernard ROSENBERGER : " Tamdult ", in HESPERIS - TAMUDA , Vol. XI , 1970 (Fascicule unique) , pp. 103-1

16) تمكنا شخصيا من دراسة كثير من محاضر جلسات التحكيم التي تمت في القرن الماضي اما في الحضرة السلطانية نفسها ، واما محليا وباسم السلطان من طرف العامل وبمساعدة قضاة من الشرفاء . وقد ذكرنا بعض الأمثلة في كتابنا "دراسات حول تاريخ المغرب " الرباط 1979 .

17) إ ن ابن رشد عند رنان (Renan) ولو انه الأقدم عهدا (1852) وغير كاف من زوايا متعددة ، هو الذي يبين أحسن الجانب العقلاني لفكر ابن رشد . وهناك حقيقة مؤكدة لم يسجلها رنان ، وهي أن القديس توماس (Saint Thomas) الذي هضم أرسطو لم يتمكن اطلاقا من هضم ابن رشد . وهذا أحسن دليل على أن ابن رشد كان مفكرا له خصوصياته وأصالته وليس مجرد "شارح" كما يعاند بعضهم في نعته.

18) Voir Jean Michel LESSARD : " Sijilmassa : La ville et ses relations commerciales au XIe siècle d'après EL BEKRI " in HESPERIS - TAMUDA , Vol. X , 1969 fasc. 1 - 2, pp. 5 - 36.

19) - EL BEKRI : " Description de l'Afrique Septentrionale", Traduction M.G. de SLANE, Alger 1913.

IDRISSI : " Le livre de Roger ou amusement de celui qui désire voyager autour de la terre ; extrait : Description de l'Afrique et de l'Espagne" , Traduction R. DOZY et J. de GOEJE , Leyde , 1866 . LEON L'AFRICAIN : "Description de l'Afrique" (XVI è siècle) Traduction de l'italien et annoté par A . EPAULARD, Th.MONOD, H. LHOTE et R. MAUNY, A. Maisonneuve, Paris, 1956 .

20) محمد المنوني : « ظهور مقومات الشعور الوطني في عهد المرينيين والوطاسيين » ، هسبرس _ تامودا ، المجلد 11 ، 1985، ص . 219 _ 228 .

21) هذه الأطروحة المقتبسة من ابن خلدون استغلت من طرف :

G. MARÇAIS : " Les Arabes en Berbérie du XI è au XIV è siècle (Paris - Constantine 1913) .

وخاصة :

E . F GAUTIER : " L'islamisation de l'Afrique du Nord : les siècles obscurs du Maghreb " 1927.

22) انظر حول هذه النقطة جرمان عياش " ابن خلدون والعرب "

في " ابن خلدون" ، ندوة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط في ماي 1962 (دار الكتاب الدار البيضاء 1962) . في كتابه المعنون ب "ابن خلدون" (باريس 1966) ، يهاجم ايف لاكوست بحدة ما يسميه "أسطورة" الغزو العربي .

23) Bernard ROSENBERGER : "Autour d'une grande mine d'argent du moyen âge marocain : le Jebel Aouam", in HESPERIS - TAMUDA, Vol.V, 1964, fascicule unique, .pp.15-78

انظر كذلك :

"Les anciennes exploitations minières et les anciens centres métallurgiques du Maroc "in Revue de Géographie du Maroc , Année 1970 n° 17."

إن دراسات روزنبرجي ، التي تعد نموذجية من حيث منهجيتها حيث إنها تزاوج بين دراسة النصوص والأركيولوجيا ، لتسلط أضواء جديدة وكاشفة على الماضي المغربي.

24) B. ROSENBERGER : op. cit.

25) إن المعاهدة التجارية المفروضة من طرف بريطانيا عام 1856 هي التي حظرت على السلطان المحافظة على احتكاراته.

26) يسجل لسار (LESSARD) اعتمادا على ابن حوقل (977) مثال تاجراعترف بدين له يبلغ 42.000 دينار (مرجع سابق ، ص. 14 ، هـ 32) .

27) Voir Robert RICARD : "Le commerce de Berbérie et l'organisation économique de l'Empire portugais aux XVe et XVIe siècles " in Annales de l'Institut d'Etudes Orientales", Faculté d'Alger II, 1936 .

28) حول هذه النقطة ، انظر كذلك :

Vasco de CARVALHO : "La domination portugaise au Maroc du XVe au XVIII e siècle (1415 - 1769), Lisbonne , 1942 .
Damiao de GOIS : " Les Portugais au Maroc de 1495 à 1521" tr. de la chronique du roi D. Manuel de Portugal", tr. par Robert RICARD. Rabat 1937 (Publications de l'I.H. E. M.).

29) On consultera A. COUR : "L'établissement des dynasties des Chérifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs d'Alger " , Publications de la Faculté des lettres d'Alger , 1904. LEVI-PROVENÇAL : "Le Maroc en face de l'étranger moderne " in Bulletin de l'Enseignement Public au Maroc 1925 pp. 95-112. Mohamed HAJJI : "L'idée de nation au Maroc aux XVIe et XVIIe siècles" , in Hespéris-Tamuda, Vol. IX, 1968, fasc. 1, 109-122.

30) Germain AYACHE : Beliounech et le Destin de Ceuta entre le Maroc et l'Espagne , in Hespéris-Tamuda , Vol . XIII, 1972, fasc. unique , pp. 5 - 36 .

31) G. AYACHE : " Le sentiment national dans le Maroc du XIX e siècle," in , " Revue Historique", oct. déc. 1968, fasc. 488, pp. 393 - 410 .

السيطرة الأجنبية

من الثابت أن المغرب مر باضطرابات خطيرة منذ ما قبل السيطرة الفرنسية. الا أن المؤرخين الذين يركزون على هذا الجانب من الأمور ، متحدثين حتى عن الفوضى والفساد العام - وهو أمر مبالغ فيه - لا يكلفون أنفسهم عناء تقصي الأسباب الحقيقية التي أدت الى هذه الحالة . ذلك أنهم يكتفون بالقول أو تراهم يلمحون الى أنها عادة جبلت البلاد عليها ، ونتيجة طبيعية وثابتة لذهنية سكانها ولما يشوب حكومتها من شوائب. بحيث يخيل الينا ، انسياقا مع مثل هذه الأقوال ، أن الدولة المغربية لم تظهر وتنمو وتستمر منذ عشرة قرون الا في ظل الفوضى والفساد العام.

والواقع أن فترة الازدهار والتقدم التي عرفها المغرب في القرون الأولى قد أعقبتها فترة طويلة من الانحطاط ، كما أفصحت عن ذلك الصفحات المتقدمة . على أن البلاد استمرت مع ذلك في العيش وفي الدفاع عن نفسها . لقد كانت حرة ومهابة الجانب . وكان المسيحيون المهاجرون اليها ينصاعون لقوانينها ، ولا يسلم الأسرى المحتجزون لديها الا مقابل أسرى مغاربة. وجملة القول فقد كان السلطان صاحب النهي والأمر في بلده ، باستطاعته فرض الأمن والنظام. وهو ما كان يقوم به على وجه العموم. حقا لقد تغيرت الأمور في بداية القرن . الا أنها حالة مستجدة لم تبدأ في الظهور بالضبط الا في حدود 1850 . كيف لا يمكن اذن أن نرى ثمة علاقة جدلية بينها وبين التأثير العارم الذي مارسته الدول الأوربية العظمى منذ نفس التاريخ ؟

* * *

في نهاية القرن الثامن عشر كان السلاطين قد نجحوا في تحرير كل شواطئ المغرب الأطلنتكية. ومع أن الاسبان ظلوا بمليلية وسبتة حائلين بينه وبين منافذ البحر الأبيض المتوسط ، فانهم لم يعودوا يهددون على الأقل المناطق الداخلية . فقام بذلك نوع من التوازن ، وتمتع المغرب بمهلة من بضعة عقود خيل له معها أنه قادر على العيش منغلقا على نفسه دون الاكتراث بأوربا.

إلا أن أوربا كانت له بالمرصاد . على أن خطرها لم يعد يتجسد في البرتغاليين والاسبان . بقدر ما أصبح يتجسد في انجلترة القوية ومنافستها فرنسا . فمنذ 1800 أظهر الفرنسي بروصوني في مذكرة مفصلة مدى مصلحة بلاده في غزو المغرب قصد فرض هيمنتها على المتوسط واقصاء انجلترة من مياهه [1] . وفي عام 1808 تطلع بونابارت الى أن يتخذ المغرب ميدانا يكرر فيه الحملة التي وجهها الى مصر قبل ذلك

بعشر سنوات [2] . بيد أن التهديد لن يتبلور الا بعد تسوية المشاكل القارية الكبرى. والحقيقة أنه لم يستهدف المغرب في البداية . مع ذلك وجدنا السلطان عندما نزل الفرنسيون بالجزائر عام 1830 يأمر في جميع أقاليم مملكته بتلاوة "اللطيف" ، الذي تجرى به العادة في الأوقات العصيبة . وهذا ان دل على شيء فانما على شعوره العميق بأنه كان طرفا معنيا بالأمر. لذا فقد استجاب لنداء أهل تلمسان المتاخمين لحدود ممكلته عندما طالبوه بالدخول تحت سلطته ضد الغزاة . كما أنه قبل فيما بعد بيعة عبد القادر ، بطل المقاومة ضد الفرنسيين ، وأمده لمدة طويلة بالوسائل لمحاربتهم . الا أن محاولات المقاومة الفعالة هاته سرعان ما باءت بالفشل . وهكذا فقد اضطر المغرب الى الانسحاب من تلمسان بعد فترة احتلال قصيرة. بينما لم يجد الفرنسيون ، الذين طاردوا عبد القادر حتى الى داخل الأراضي المغربية ، صعوبة في تبديد وسحق الجيش المغربي الذي وجهه السلطان ضدهم بواد ايسلي. في الوقت نفسه ، قنبلوا ميناءين من موانئه ، طنجة والصويرة ، دون أية مقاومة .

كشف هذا الحدث المزدوج للعالم وللمغرب نفسه عن مدى التغير الذي طرأ على موازين القوى منذ الوقت الذي جاء فيه سبستيان ليلقى مصرعه مع جميع أفراد جيشه فوق الأرض المغربية . فأمام كتائب بوجو المتمرسة بالحرب وتحت القصف المحكم لمدفعيته ، تم تفكيك حشود القبائل المستنفرة ، وهذا في الوقت الذي لم تكن توجد فيه أية أنية سواء في البحر أو البر قادرة على الرد على أسطول العدو . ومن ثم ساد الاعتقاد لدى رؤساء العصر في المغرب بأن البلاد أصبحت لقمة سائغة أمام أي معتد قادم من أوربا . وهو اعتقاد ترسخ في أذهانهم ولم يبارحها على الإطلاق . كيف لا وقد تعرض المغرب بعد 15 سنة لهزيمة أخرى رغم مقاومته المستميتة هذه المرة والأطول أمدا ، وقد مني بها على أرضه وعلى يد إسبانيا التي نعرف أنها كانت أقل خطورة من فرنسا.

باستغلال هذه الحالة وهذا الشعور بالضعف ، تجندت الدول العظمى لانتزاع تنازلات كانت وبالا على اقتصاد البلاد ووحدتها الترابية وأمنها الداخلي . أما بخصوص السلطان فلم يعد يجد وسيلة أخرى للمقاومة عدا الوسيلة الدبلوماسية باستغلال المنافسة بين خصومه . فضد الفرنسيين والإسبان ، اعتمد على انجلترة ثم فيما بعد على ألمانيا . لكن أية فائدة يمكن أن يجنيها من هذه السياسة التي لم يجد البعض غضاضة في نعتها بالخداع ؟ لقد كانت في الواقع مجرد أوهام . إذ من البديهي أن دعم الغير يكلف في حد ذاته تقديم تنازلات . والحالة أن الإفادة من كل تنازل كانت تتعمم بشكل آلي على

جميع الدول الأوربية بحكم شرط الأمة الأكثر تفضيلا الذي كانت تتمتع به كل منها . وهكذا فقد كان المغرب يزداد تورطا بقدر ما كان يحاول النجاة ، مثله مثل المستجير من الرمضاء بالنار .

بدأت انجلترة اللعبة بأن فرضت تحت التهديد معاهدة 1856 التي حددت بشكل نهائي وكحد أقصى الحقوق الجمركية على المستوردات ب 10 ٪ (3) . ففتحت بذلك الباب على مصاريعها أمام المنافسة الأوربية ، في حين أن السلطان المحروم من حقه في أن يتولى بنفسه تشريع سياسته الجمركية ، أصبح مجردا منذئذ من خاصية هي جزء من الاختصاصات الوطنية .

بعد أربع سنوات جاء دور الاسبان الذين تمكنوا بفضل انتصارهم من إملاء شروط قاسية . لقد طالبوا بأداء تعويض يصل إلى مائة مليون مما شكل استنزافا لن يلتئم جرحه على الإطلاق (4) . أما بخصوص الاتفاقية التي فرضوها بعيد ذلك هي الأخرى ، فقد منحت جميع الاسبانيين حق المجئ والاستقرار بكامل الحرية في المغرب ، مع إعفائهم من الضرائب ، وألا يكونوا مسؤولين عما يرتكبونه من جرائم إلا أمام قنصلهم بدلا من القضاة المغاربة . كذلك فقد تمتع بنفس هذه الامتيازات جميع المغاربة الملحقين بخدمتهم (5) .

كانت هذه الامتيازات بالغة الخطورة سيما لو تذكرنا أنها كانت تتعمم على باقي الأجانب الذين كان لهم الحق جميعا في امتياز الدولة الأكثر تفضيلا . لقد جعلت السلطان يقف عاجزا عن إيقاف أو مراقبة حركة الهجرة الأجنبية . بحيث ان جالية أوربية متكونة من عناصر مشبوه في أمرها ، ستأخذ في النمو بوتيرة متصاعدة ، وستكون قادرة بحكم إعفائها من الضرائب ، وهذا حتى لو بقيت مستقيمة في سلوكها ، على احتجان الثروات أكثر ما كان باستطاعة اهل البلاد . بيد أن اللاعقوبة التي كانت تتمتع بها تحت غطاء قضائها القنصلي سيدفعها ، في سعيرها إلى الاغتناء السريع ، إلى القيام بما لا يعد ولا يحصى من الخروقات والانتهاكات القانونية على حساب السكان . مما زاد الطين بلة تلك الخروقات الأخرى التي كان يمارسها المغاربة من سماسرة الأوربيين وخلطائهم الذين نذروا أنفسهم لخدمة مآرب الأجانب . ذلك أن هؤلاء المغاربة ، أو المحميين بلغة العصر ، كانوا يتمتعون بحكم وضعيتهم بامتيازات الأجنبي، ويحتفظون في الوقت نفسه ، بوصفهم مغاربة ، ببعض الحقوق التي كان المهاجر مايزال محروما منها : نذكر منها حق الملكية العقارية ، وحق التجول في مجموع البلاد. وبالتالي فإن التحام "الحامي" و "المحمي" أفضى إلى تخويلهما معا جميع الحقوق التي

يتمتع بها المواطن العادي ، لكن من دون التزامهما بما عليه حتما من واجبات . بحيث إن هذه الجالية الأوربية المشبوه في أمرها والتي كانت تزداد عددا باستمرار وتتضخم "بمحميين" منقادين لها كل الانقياد ويحمون بدورهم أقاربهم وأصدقاءهم وشركاءهم ، ستشكل ، وقد شكلت بالفعل ، سرطانا ينخر جسم الأمة دون أن يكون للسلطان أو موظفيه أو قضائه أية وسيلة لاستئصال شأفته .

في أقل من عشرين سنة أصبح الداء من الخطورة بمكان إلى حد أن السلطان توجه الى الدول الأوربية مستجديا مساعدتها . وقد استجابت هذه بالفعل لالتماسه ؛ وفي المؤتمر الذي عقدته بمدريد تفضلت حقا في تقريرها النهائي في شهر يوليوز 1880 ، بتوجيه توصية إلى قناصلها بعدم تسليم بطاقات الحماية إلا باعتدال وفي نطاق الشروط بيد أن هذه التوصية الصورية لن تعمل على تحسين مجرى الأمور كما ستبين ذلك الأحداث . على العكس فإن الحماية لم تكن قد استشرت حتى ذلك الحين إلا كنتيجة غير منتظرة لاتفاقيات تم تأويلها بشكل تعسفي . فإذا بها الآن تكتسي صبغة المشروعية بعد أن تم إدراجها في معاهدة خاصة ، فتحولت بذلك من عسف إلى حق مكتسب لا يجوز مسه . وها نحن نرى الدول العظمى تنتزع مقابل هذه الترضية المزعومة حق الملكية العقارية لصالح مواطنيها المقيمين بالمغرب ، ذلك الحق الذي كانوا ما يزالون محرومين منه . والحالة أن هذا التنازل كان حقيقيا وبالغ الخطورة . فباعتبار أن الأجنبي لم يكن مسؤولا من الناحية القضائية أمام قانون البلاد ، فإن الأرض التي يستحوذ عليها كانت تصبح هي الأخرى في مأمن من هذا القانون ، متحولة بذلك إلى أرض أجنبية داخل المغرب . ذلك ما جناه المغرب من وراء لجوئه إلى الدول العظمى التي أظهر مؤتمرها وهو يختتم أشغاله أنها هي التي أصبحت من فوق السلطان تقرر وتشرع في البلاد .

على هذا النحو كانت القضية المغربية مطروحة . وهذا يعني أن المغرب كان محكوما عليه بالوقوع تحت السيطرة الأوربية دون أن يعرف بعد من ستكون الدولة المستفيدة . ففرنسا المتواجدة بالجزائر كانت ترى أن من حقها الترامي فيما وراء الحدود الغربية موسعة بذلك ممتلكاتها . بينما كانت انجلترة المهيمنة على أسواق المغرب ترى هي الأخرى أن من حقها أن تبقى سيدة المضيق بالاستقرار قبالة جبل طارق . أما بخصوص اسبانيا ، المتعللة بحصنيها سبتة ومليلية ، فكانت متمسكة بحق الجوار وبالحقوق التاريخية الموروثة عن إيزابيل . أخيرا فقد كانت ألمانيا المحرومة من المستعمرات ترى أن من حقها الحصول على تعويضات .

بالطبع فقد احتدمت بين الشركاء منافسة حادة . لكن أن نقول ، كما هو متداول ،

إن تنافسها أنقذ مؤقتا انهيار البناء المتداعي ، فذاك معناه أننا نتجاهل إن لم نكن نخفي هذه الحقيقة ، وهي أن كل دولة من الدول المتنافسة كانت هي نفسها بمثابة معول تهديم . إذ الحقيقة أنها بدلا من أن تعمل على تفادي ضربات الدول الأخرى ، كانت تبذل ما في وسعها لتضرب قبل غيرها وبكل قوة . بحيث إن تاريخ المغرب في نهاية القرن الماضي إنما هو سلسلة من الإهانات من قبل الفرنسيين والانجليز والاسبان والألمان ، إما بشكل منفرد ، أو بتآمر الجميع . لقد كانت التهديدات والإنذارات وتوجيه المراكب المسلحة تقود حتما إلى أداء غرامات وتعويضات مزعومة كانت تفرغ الخزينة أو تؤدي ، وهو ما ليس بالأحسن ، إلى تنازلات ترابية .

بالإضافة إلى هذه الانتهاكات الدورية ، كان المغرب يعاني فيما بين ذلك من تلك المعضلة المتأصلة التي شكلت بنية الحياة اليومية ، ونعني بها معضلة المحميين التي لم تفتأ تستفحل منذ مؤتمر مدريد . فقد وصل الأمر بالمحمي ، وهو الشخص الذي لا يجوز مسه ، والذي نال كل الضمانات القانونية ، الى حد أنه أصبح ينتصب حائلا بين السلطة وبين هذا أو ذاك من الرعايا الذين يظلهم بحمايته . يمكن أن نذكر المثال التالي : في عام 1894 كانت قبيلة مديونة وحدها تضم أكثر من 260 من سماسرة الأوربيين أو خلطائهم يحمون بدورهم ضد سلطة بلدهم 1606 خيمة تأوي كل منها عائلة بكاملها (6) . لم يعد أي واحد من هؤلاء يؤدي ضريبة أو يقوم بالخدمة العسكرية . كما أن المدينين منهم لم يعودوا يسددون ما عليهم من ديون . في حين أن آخرين وضعوا رسوم ديون مزورة تولى القنصل الذي يحميهم مهمة تسويتها من طرف السلطان نفسه . ناهيك بأن الكثيرين منهم تحولوا الى نهابين . وكان أكثرهم جرأة من قطاع الطرق . كان كل هذا يتم على حساب السكان الآخرين ويجري على مرأى ومسمع من موظفي السلطان الذين باتوا في الأخير عرضة للازدراء من طرف الضحايا والمجرمين على حد سواء (7) .

لنضف الى أنه كان يوجد بجانب المحميين العاديين محميون آخرون من علية القوم : من ضباط و أعيان بل و حتى من وزراء في المدة الأخيرة ، ناهيك بزعماء الزوايا الذين نعلم أنهم كانوا يلعبون في المغرب دور الوسطاء لسلطة العاهل سواء في الأقاليم أو بين مختلف الفئات الاجتماعية . كان هؤلاء الموقرون قادرين أكثر من أي كان ، بالتحاقهم بخدمة الأجنبي ، على أن يحدثوا رأسا هزات عنيفة في كيان الأمة . يكفي أن نذكر مثال شريف وزان الذي عبد الطريق في توات أمام الفرنسيين و أثار لصالحهم العصيان وسط قبائل الريف (8) . أو مثال شيخ تامصلحت الذي حرض على ثورة الرحمانة الكبرى ، والذي تبين عندما حاول المخزن اعتقاله أنه مستظل بحماية الانجليز (9) .

* * *

ها هي ذي العوامل التي ينبغي أن نرجع اليها جذور الفوضى . وعلى عكس المؤرخين ، فان الشعب كان غير مخطئ في اعتبارها مصدر الداء(10) . من هنا ذلك الشعور الجامح الذي اعتراه ضد المحميين وسادتهم الأوربيين ، ذلك الشعور الذي أوله الكثيرون بكراهية الأجنبي أو بالتعصب الديني ، بينما هو في الواقع مجرد رد فعل مشروع. وبالطبع ، فقد كانت الأنظار متجهة الى السلطان ، المعول عليه عادة بأن يقوم برد الفعل . لكن السلطان وجميع الرجال المتبصرين ، كما كانوا يفضلون نعت أنفسهم ، لم يعودوا يومنون بامكانية الصمود أمام ارادة الدولة العظمى . وقد كتب الناصرى عام 1886 : " فكيف يحسن في الرأي المسارعة الى عقد الحرب مع أجناس الفرنج ، وما مثلنا ومثلهم الا كمثل طائرين أحدهما ذو جناحين يطير بهما حيث شاء ، و الآخر مقصوصهما واقع على الأرض لا يستطيع طيرانا ولا يهتدى اليه سبيلا ، فهل ترى لهذا المقصوص الجناحين الذي هو لحم على وضم أن يحارب ذلك الذي يطير حيث شاء " (11) . للأسف ، فان يد العامة كانت تمتد أحيانا تحت تأثير الغضب الى شخص أو متاع الأوربيين . على أن ذلك لم يكن يحدث الا لعدم تبصرها بعواقب الأمور . اذ أن هذه التهجمات لم تكن سوى الفرصة لعمليات قمع تترك البلاد كل مرة في حالة يرثى لها من الهوان والفقر والضعف . وهل بدأت على نحو آخر الحرب المفجعة مع اسبانيا عام 1860 ؟ لذلك فان أشد ما كان يخيف المخزن هو هذه الفورة الشعبية التي يعمل ما في وسعه لتلافي وقوعها ، ثم يقوم بقمعها عند اندلاعها بمنتهى الشدة لتلطيف غضب الدول العظمى . على أن الشعب كان حينئذ يردد الزئير في صدره متهما السلطان بالتخلي عن رعاياه والانحياز ضدهم الى جانب الأجانب . وبقدر ما كانت الأمور تسير من سيئ الى أسوأ ، بقدر ما كان استياؤه يتحول بسهولة الى فورة عارمة . فقد كان استيراد السلع الأوربية ينزل الخراب بالصناع ، وتصديرالحبوب يؤدي الى ندرتها في الأسواق ، وافلاس الدولة يدفع الى مزيد من الضرائب . فقد كان المال ينقص وقيمة العملة تتدهور في نفس الوقت (12) . ساهمت هذه الظروف في ارساء أرضية متينة للتوتر و في اندلاع العصيان في هذه الجهة أو تلك . وكان العاهل يبذل قصارى جهده و يستنزف كل موارده لاستئصال شأفة هذا العصيان أكثر مما كان يفعل في مقاومة المطامع الأجنبية (13) .

تلك كانت الحالة خلال الاحدى والعشرين سنة من حكم المولى الحسن . ومع أن الأوربيين رأوا فيه آخر السلاطين الكبار في مغرب الأمس ، فانه ترك للسلطان الشاب عبد العزيز عام 1894 عرشا متداعيا . فبغية المحافظة على النظام بقمع رعاياه الذين

كانوا مستائين قبل كل شيء من الغزو المسيحي ، أفضى به الأمر الى عزل السلطة . وهكذا فقد كان شبح الثورة جاثما . لكن علينا أن نفهم جيدا أنها كانت تستهدف ، فيما وراء السلطة العاجزة ، الدخلاء الأوربيين . في ظل مثل هذه الظروف ، كانت الزوايا بالأمس هي التي تتولى استنفار الجماهير وتقترح عليهم قيادات جديدة . أما الآن ، واذا كان نفوذ هذه الزوايا ما يزال كبيرا ، فان زعماءها صاروا مجرد عملاء لانجلترة وفرنسا . لذلك فقد كانوا يبذلون ما في وسعهم لتضليل سبل الكفاح ، ويلعبون دور الأقنية التي يجري فيها العصيان الشعبي الذي يحرضون عليه قصد توجيهه فقط ضد المخزن ليقوم هذا الأخير تلقائيا وقد أمسك رعاياه أنفسهم بخناقه بطلب النجدة الأوربية . أما إذا كانت الغلبة للشعور الوطني ، فإنهم ينتصبون أبطالا مزيفين للقضية الوطنية ، كما هو الشأن بالنسبة للص الريسوني وللمغامر بوحمارة .

بيد أن ضغط الأخطار تلاحق بوتائر قوية . ومن بين جميع المنافسين المتنازعين ظهر أن الفرنسيين ، الأحسن وضعا ، هم أيضا الأكثر عزما على السير حتى النهاية مهما كلفهم الثمن . منذئذ لم تعد سياسة المنافسين الآخرين تتوخى سوى استدراجهم لنيل نصيبهم من غنيمتهم المتوقعة ، أو الموافقة على منحهم تعويضات في مستوى الطموحات التي تخلوا عنها . ففي أبريل 1904 أطلقت بريطانيا العظمى يدهم في المغرب مقابل حصولها على المثل في مصر ، لكن مع تعهدهم أيضا بالتخلي عن الشاطئ المقابل لجبل طارق . إثباتا لذلك كان عليهم في نفس السنة أن يعدوا الاسبان بالتخلي لهم عندما يحين الوقت عن مجموع شمال البلاد . إلا أن ألمانيا وقد تم تهميشها في هذه المعاهدات كشرت عن أنيابها . ومن ثم نزل امبراطورها غليوم الثاني بطنجة ليعلن أمام الملأ عن عزمه على الوقوف ضد المشاريع الفرنسية . والحال أن مؤتمر الدول العظمى الذي قادت إليه هذه المبادرة لم يعمل ، رغم بعض التحفظات ، سوى على تكريس قرار الهيمنة الوشيكة على المغرب لكل من الفرنسيين والاسبان ، بل وأكثر من ذلك عمل على إرساء دعائمها .

إن الرأي العام المغربي القلق من جراء الاتفاقيات السابقة بين الفرنسيين والاسبان والانجليز ، مع أنها لم تكن معروفة بعد بشكل واضح ، اهتزت مشاعره هذه المرة اهتزازا كبيرا للمؤامرة التي حيكت من الخارج والقاضية بمشروع إخضاعه البلاد للسيطرة الأجنبية وتمزيق وحدتها الترابية . لا ريب أنه أنحى باللائمة على السلطان لموافقته واعتبره فاقدا الأهلية في الحكم . مع ذلك فقد ظل الخطر الماثل أمام عينيه هو القادم من الخارج . وبشكل أدق من اسبانيا ، ومن فرنسا على الخصوص . نعم فرنسا

التي تتسرب في الشرق بين وجدة وفكيگ ، والتي احتلت توات ، والتي كانت تزحف في الجنوب عبر الأقاليم الصحراوية . فكان أن انتفض الشعب انتفاضة عارمة جرفت بنصائح السلطان الداعية إلى التزام الاعتدال وبمحاولات التضليل التي قام بها رؤساء الزوايا . وقدثارت ثائرته في مناسبتين على الأوروبيين ، خاصة الفرنسيين ، مما خلق الفرصة أمام فرنسا لتثبيت أقدامها في طرفي البلاد ، في وجدة والدار البيضاء . لكن ذلك كان مؤشرا على بداية مرحلة شعبية من النضال جرت وفق الأنماط التقليدية ، حيث عاينت تأسيس زاوية جديدة على يد الكتاني وظهور مطالب بالعرش ، هو عبد الحفيظ ، ليقوم برتق الفتق الذي أهمله المتربع عليه وقتذاك . على أن عبد الحفيظ اذا كان قد استفاد من التأييد الشعبي على أوسع نطاق ، فانه لم يبايع بايعاز من الكتاني الا بشرط التعهد بصيانة استقلال البلاد و استرجاع المناطق المغتصبة .

بيد أن عبد الحفيظ الذي جسد في شخصه آمالا عظيمة ما لبث أن تنكر لالتزاماته الواحد بعد الآخر ، غير متورع حتى عن تعريض الكتاني الذي أملاها للهلاك جلدا بالسياط. ومن ثم انحطت منزلته لدى الشعب من ذلك البطل الذي تقمص شخصيته في البداية الى "سلطان الفرنسيين " . وبالفعل فقد استنجد بالفرنسيين لتخليصه بعد أن حوصر بفاس من طرف القبائل الثائرة . فكان أن تخلص من شعبه لكن ليصبح سجينا بيد محرريه . وبذلك ألفى نفسه مضطرا في مارس 1912 الى التوقيع على المعاهدة التي أبقته جالسا على العرش ، لكن ليعطي فقط مظهرا من المشروعية للسلطة المطلقة التي استولت عليها فرنسا في البلاد .

ذلك ما اصطلح على تسميته ب " الحماية ".

كانت هذه الخدعة محبوكة بذكاء . ذلك أن السيطرة الفرنسية أحدثت صدمة عنيفة في شعور المغاربة الى حد أنه كان من المتوقع أن تجابه بارادة متصلبة من المقاومة . لكن باعتبار الوظيفة التحفيزية التي كان يقوم بها السلطان ، فانه كان يبدو من الصعب بدونه أن يجد الشعب سبيله الى توحيد صفوفه .

كان يبدو من الصعب لكن ربما من غير المستحيل . وعلى كل حال فقد ظلت المسألة مطروحة لمعرفة هل كان بالامكان بدون السلطان وحتى ضده ، أن تتجمع الطاقات المشتتة وتتجسد ، وهل كانت المقاومة التي يتعين على أية حال توقعها ستظل جزئية " متفرقة ، أم أنها ستكتسح تدريجيا مجموع البلاد . جاء الجواب في الحين من الجنوب مع الثورة التي تزعمها الهيبة هنالك (14) .

* * *

كان السي أحمد الهيبة يتمتع في العصر بشهرة ملحوظة يدين بها لذكرى والده الذائع الصيت ماء العينين ، الذي كان الفرنسيون يعرفونه لكونه هو الذي أجج المقاومة ضدهم في الصحراء . لم يكن ماء العينين رجل حرب . فقد كانت عائلته المقيمة منذ تاريخ بعيد في بلدة شنجيط بقلب الصحراء ، في موريطانيا الحالية ، منصرفة ولدا عن أب الى ميادين التقوى والوعظ وتعليم المعارف التي كانت وقتئذ تؤهل صاحبها لمرتبة العالم . يصعب علينا اليوم أن نتصور مدى النفوذ الذي كانت تمارسه مثل هذه الشخصيات في بيئة اجتماعية لا يطرأ فيها طارئ من دون استشارتهم . وكانت السلطة الدينية تتحول تلقائيا الى سلطة سياسية . وبهذا فان ماء العينين الذي كان تلاميذه في جميع أنحاء الصحراء يعدون بالآلاف ، نال حظوة كبيرة لدى السلاطين منذ عهد مولاي عبد الرحمن ، في حدود منتصف القرن الماضي . انه العهد الذي كان فيه مولاي الحسن يعمل جادا على حماية شواطئه الصحراوية من الاسبان والانجليز . وقد وجد ضالته في ماء العينين ليكون واسطته في تحذير السكان . في العهد التالي ، كان الوزيرالشهير با أحماد وأعيان آخرون يرون فيه قطبهم الروحي . وكانت الحكومة برمتها عند مجيئه الى مراكش تخرج بمعية الشعب لاستقباله . بعد سنوات ، وحينما شرع الفرنسيون في زحفهم في اتجاه فاس انطلاقا من السينغال والسودان ، كان ماء العينين هو الذي تصدى لمقاومتهم بفضل الأسلحة والاعانات التي تلقاها من السلطان . فصارت حينئذ بذكره الركبان في المغرب قاطبة . وتوفي مكرما معززا بسوس حيث كان قد تراجع بعد ضياع الصحراء .

حدث ذلك في نهاية عام 1910 عندما كانت الحاجة ماسة اليه ، نظرا لأن الغزو الفرنسي كان قد بدأ وقتذاك . فكان أن احتجب قبل الأوان على الرغم من أنه توفي طاعنا في السن . الا أن الأنظار استدارت حينئذ الى ولده المفضل الذي اختاره أتباعه ليقوم مقامه جريا على العادة . وبذلك أصبح الشاب الشيخ أحمد الهيبة وهو في الثالثة و الثلاثين من عمره محاطا بنفس التبجيل الذي كان يتمتع به والده الطاعن ، ووجد نفسه مقلدا بمسؤوليات لم يكن قد تمرس بعد ليكون أهلا لها .

في منتصف 1911 كانت سوس في حالة غليان بعد أن زحف الفرنسيون حتى الى فاس . وأصبح حينئذ اسم الهيبة يجري على كل لسان . في السنة التالية ، بعد بضعة أشهر من التوقيع على المعاهدة التي وضعت حدا لاستقلال البلاد ، انعقد مؤتمر يضم قبائل منطقة سوس ، تقرر فيه أن تسند الزعامة للهيبة في حالة الانتفاضة المسلحة ضد الغزاة . وبعد شهر آخر ، وبينما كان عبد الحفيظ يرفض ، بعد توقيعه عقد

الحماية ، أن يلعب دور "سلطان الفرنسيين" ، حدث بتزنيت عند صلاة الجمعة أن تدخلت بعض الشخصيات لتطالب بأن يضاف لاسم الهيبة لقب "أمير المؤمنين" . ذلك ما حدث بالفعل ، وانتشر الخبر مثل نثار البارود . بينما هرع مندوبو القبائل لأداء قسم الولاء.

ويرى البعض [15] أن الألمان ربما كانوا وراء صعود الهيبة عن طريق ما قاموا به من تحريض وذلك في المرحلة الأخيرة من منافستهم لفرنسا . تلك المنافسة التي لم تنته الا مع اتفاقية 4 نوفمبر 1911 . ذلك أمر غير مستبعد . الا أن التأييد الكثيف و التلقائي الذي حظي به الهيبة يظل مع ذلك وليد شعور حقيقي وجد عميق لدى الجماهير . لقد كان الانضمام تحت رايته من الشمولية و الحتمية الى حد أن باشا تارودانت لم يجد مندوحة عن ايفاد ابنه اليه مع أنه كان يمثل في الاقليم عبد الحفيظ ، السلطان الرسمي.

بعد أن جند الهيبة الوحدات العسكرية وعين أفراد حكومته ، قرر احتلال مراكش عاصمة الجنوب لاتخاذها مقرا لسلطته . فكان خروجه عبارة عن مسيرة مظفرة أكثر منه حملة ، من البداية الى النهاية . فقد كان الجميع حريصا على ألا تفوته فرصة المشاركة فيها من علماء وأهل فن و رجال دين . بحيث ان موكبه الصاخب و المزيج من عناصر شتى كان يتضخم باستمرار من مرحلة لأخرى . وفي خضم ذلك نسيت القبائل خصوماتها بعد أن التأم شملها بفضل ايمانها بالهيبة . فقد كان يقال أولا انه سيقوم بطرد الأعداء خارج البلاد ، ويقال أيضا انه ستتم الاطاحة بالقواد في عهده . وكأننا بالناس وقد انقشعت الغشاوة عن عيونهم وانحلت عقدة ألسنتهم ، بحيث لا تراهم الا وهم يدمدمون بالشتائم ضد الكندافي و المتوكي و الكلاوي و العيادي ، هؤلاء القواد الكبار الذين كانوا منذ عشرين أو ثلاثين سنة سيفا مسلطا على الرقاب في كل الجنوب المغربي . وفيما كان الموكب يشق طريقه اذا به يصل بالذات الى أراضي المتوكي بممر امنتانوت . فهل سيقوم بقطع الطريق عليه ؟ ذلك ما كان منتظرا منه منطقيا . الا انه لم يكتف بافساح المجال فحسب ، بل وضع أيضا نفسه تحت أمر الهيبة ، منذهلا من التئام شمل القبائل بهذا الشكل العجيب وغير المألوف ، و متخوفا في الوقت نفسه من أن يجرفه السيل . حينئذ نزل الموكب الى مدينة مراكش التي كانت في حالة هيجان . و بالطبع فقد تظاهر الباشا منو بعزمه على الدفاع عنها . الا أنه عندما دنا من حراسه ، كما روى ذلك بنفسه فيما بعد ، سمع رجاله يصرخون متعجبين : "أيظن الباشا أننا سنساعده ضد اخواننا أهل سوس الذين يدافعون عن البلاد . والله لن نحارب ضدهم " [16] . وفي الآخير خرج منو في موكب فخم متبوعا بكبار القواد لاستقبال السلطان الجديد الذي اختاره الشعب ، ألا و هو الهيبة .

بأدائها قسم الولاء ، كانت جميع قبائل سوس و بعدها مدينة مراكش قد وضعت مصيرها بين يدي الهيبة ، الذي امتلك وحده منذئذ ناصية الحكم المطلق . لقد كانت هذه هي التولية التقليدية المعروفة في المغرب ، ولم يسبق للبلاد أن عرفت صيغة أخرى باستثناء السابقة الفاشلة المتعلقة ببيعة عبد الحفيظ . لكن هل سيكون الرجل في مستوى واجباته في أخطر أزمة كانت تمر بها البلاد ؟ لقد رأينا كيف أن اختياره لم يتم إلا تيمنا بذكرى والده الذائع الصيت . الا أنه لم يكن له من هذا الأخير لا التجربة و لا نفاذ البصيرة و لا قوة الشكيمة . كان هذا الفقيه التقي الذي ترعرع بعيدا عن السياسة ، يرى في الاختيار المفاجئ الذي وقع عليه يد الله التي ستقوده الى تحقيق مفاخر يوسف بن تاشفين . فكانت القوة الآتية من فوق تفسر وحدها ذلك النجاح . وكما قال ذات مرة ملوحا بسبحته " ان هذه هي التي ستمكنني من الذهاب حتى الى دمشق و القاهرة " (17) .

مستقويا بهذه النظرة الى الأمور، اعتصم داخل القصور الملكية بمراكش ، تلك القصور التي كانت أبوابها توصد في وجه نواب من رفعوه حتى اليها. وفي أثناء ذلك كان أصحابه الصحراويون يصولون ويجولون في المدينة بما ينشأ عن ذلك من اجحاف بمصالح الناس وأمنهم. وأخيرا فقد كان كبار القواد والأعيان السامون الموالون للمصالح الفرنسية يتفيأون ظل حظوته ويعملون على مداراته بفضل ما كانوا يقدمون له من هدايا . وكانت النتيجة أن قواته القبلية سرعان ما تشتتت أيادي سبأ ، وكثيرة هي التي عادت الى مقر سكناها تعضها أنياب الخيبة. من جهتهم فان سكان مراكش ضعف حماسهم بل واتخذوا موقفا عدائيا لا هوادة فيه . أما بخصوص الفرنسيين فكانوا يتقدمون في انتظار أن تصبح الأمور ناضجة . كان يكفيهم في 7 شتنبر 1912 ، وبتواطؤ بعض القواد ممن كانوا في المواجهة ، بضع ساعات من رشق المدفعية ليدكوا صرح دولة الهيبة وكأنها قصر من الرمال .

برغم خيبة أمله، فانه لما عاد الى سوس وجد القبائل ما تزال على أهبة الاستعداد لتنضوي تحت رايته ، وسيظل رزما لها تجاه الغزاة خلال سبع سنوات والى غاية وفاته . وسيخلفه أحد اخوته خلال مدة أخرى من خمس عشرة سنة .

لكن فيما كان قد شكل بمراكش شوكة بجنب الحماية ، فانه لم يعد في ملجئه بسوس سوى رجل محاصر من طرف القواد الكبار الذين تزلفوا اليه وأصبحوا من بعد يعملون في خدمة الفرنسيين . فلئن كانت مقاومته بطولية فانها كانت محتبسة ومعدودة الأيام ، كتلك التي كانت تجري في مختلف الجهات الأخرى من البلاد.

ماذا يمكن استخلاصه على أية حال من فشل الهيبة ؟ هل كان هذا الفشل كما اعتقد البعض مكتوبا بطبيعة الأمور، بالنظر الى النزعة القبلية والظغائن بين القرويين والحضريين ؟ حقا لقد كانت هذه تمثل عوامل معوقة. الا أننا رأينا أنها كانت تضمحل أمام الموجه المتدفقة من سوس الى مراكش . فاذا لم يكن المد قد وصل الى مدى أبعد ، واذا كان الجزر قد حدث بشكل جد فجائي ، فما ذلك الا لانعدام القيادة أو ، وهو الاسوأ ، لغباوة القائد . ان الهيبة الذي اختير لمؤهلات لم يكن يتحلى بها هو نفسه وانما والده ، ترك زمام أمره لقواته بدلا من أن يتولى قيادتها. وعندما تدخل في الحكم بعد أن داهنه العدو ، فانه هو الذي أصبح منذئذ يثبط كل العزائم . على أن عدم كفاءته يتيح للمؤرخ امكانية معاينة المنحى الواضح للقوى التي دفعته . فتجاه الغزو الأجنبي ، انتاب قطاعات واسعة من السكان سواء في البادية أو المدينة شعور كان من القوة بما يكفي لتحريكها دونما حاجة الى جهاز دولة سواء لتحريك مشاعرها بادئ ذي بدء أو لتأطيرها ، بل وحاولت على الرغم منه بالعكس أن توجد جهازا جديدا . على أن الفشل كان لها بالمرصاد في هذه المحاولة بالذات لأنها لم تحسن اختيار الزعيم القادر على توجيهها في معترك الأحداث . وكان فشلا وخيم العواقب . اذ كان من شأنه أن يلغم مستقبلا الايمان بنجاح كل محاولة أخرى من نفس النوع. مع ذلك، وبرغم هزيمة الهيبة وانعدام الآفاق ، فان الشعب لم يستسلم و ظل مشتعلا حماسا كما ستظهر ذلك متابعة النضال في المناطق التي لم تكن قد احتلت بعد . لذا وعندما ستتهيأ أمامه ظروف مساعدة ، وعندما سيبرز أيضا زعيم في مستواه ، فان كل شيء يمكن أن يبدأ من جديد ليقود هذه المرة الى نتائج مغايرة تماما .

ذلك ما سيحدث بالفعل بعد تسع سنوات ، وفي الطرف الآخر من البلاد ، في أعقاب سلسلة من التقلبات . وستكون تلك هي حرب الريف .

هوامش الفصل الثاني

1) Jacques P. BROUSSONET : "Mémoire sur la Barbarie" publié par GAILLE in HESPERIS - TAMUDA, Vol. 11, 1961, avec une étude d'ensemble sous le titre "Le vice-consul BROUSSONET et ses "Mémoires" sur le Maroc.

2) Jacques CAILLE : " La mission du Capitaine BUREL au Maroc en 1808", Paris, 1953.

3) الفصل السابع من المعاهدة التجارية والملاحية المبرمة بين المغرب وبريطانيا العظمى في 9 دجنبر 1856 .

4) Germain AYACHE : "Aspects de la crise financière au Maroc après l'expédition espagnole de 1860" in Revue HISTORIQUE T. CCXX, Oct. - Déc. 1958.

5) الفصل الرابع والخامس والتاسع والحادي عشر والخامس عشر من المعاهدة التجارية المبرمة بين اسبانيا والمغرب في 20 نونبر 1861. بالنظر الى أن المعاهدة المغربية الاسبانية المبرمة عام 1861 كانت تتطابق كثيرا مع المعاهدة المبرمة مع بريطانيا العظمى قبلها بخمس سنوات ، فانه عادة ما يلاحظ أنها لم تكن سوى تكرار لصالح اسبانيا. بيد أن هذا ليس صحيحا إلا جزئيا. اذ كيف يمكن التغافل عن الخطوة الكبيرة التي قطعت من وثيقة لأخرى ، عن طريق اضافة فصلين الى المعاهدة الثانية : الفصل التاسع الذي انسلخ بموجبه عن سلطة العاهل حتى مرتكبو الجرائم من الاسبان المقيمين بالمغرب ، ثم الفصل الخامس عشر الذي منح لأول مرة المغاربة "المحميين" جميع الامتيازات التي منحت لمواطني الدول الأجنبية .

6) رسالة مولاى الحسن الى ممثله محمد الطريس في 24 شوال 30/1311 ابريل 1894. وثائق تطوان ، 26/20.

7) كثيرة هي الأمثلة الموجودة في الوثائق المغربية عن مثل هذه المخالفات والجرائم التي لم يكن للمخزن وسيلة أمامها عدا تقديم شكوى الى الوزير الأجنبي المعلى بالأمر وهي وسيلة سخيفة طالما أنها لم تكن تجدي فتيلا.

8) G. AYACHE : "Société rifaine et pouvoir central marocain , 1850- 1921" , in " Revue Historique " , t . CCLIV - 2 1975 .

9) رسالة مولاى عبد العزيز الى محمد الطريس في 12 ذي الحجة 6/1316 يونيو 1895. وثائق تطوان ، 132/13.

10) كما تشهد على ذلك رسائل الطعن المعاصرة.

11) احمد الناصري : "كتاب الاستقصا" ج 9 ص 190 ، طبعة الدارالبيضاء ، 1956 .

12) G. AYACHE : "Aspects de la crise financière . . .op.cit .

13) G. AYACHE : "Le sentiment national dans le Maroc du XIXe siècle" REVUE HISTORIQUE , fasc. 488 oct. - déc. 1968.

14) فيما يخص الشهادات المغربية المتعلقة بانتفاضة الهيبة ،فقد اعتمدنا على المختار السوسي : "المعسول" ج 4 ، وكذلك على العباس بن ابراهيم المراكشي : «الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام" ج 2 ، فاس 1936 .

15) المختار السوسي، مصدر سبق ذكره ، ص 104 .

16) المصدر نفسه، ص 132 .

17) أدلى الهيبة بهذا التصريح لقاضي مراكش وقتذاك ، وهو أبو شعيب الدكالي . وتجدر الاشارة الى أن شهادة هذا الأخيرة المباشرة هي التي سجلها المختار السوسي. مصدر سابق ، 148 .

النجاح الفرنسي

عند الاعلان عن الحماية ، اهتزت فاس بثورة خطيرة ، لا مجال هنا لسرد وقائعها . على أن عنفها ، وهذا ما يهمنا ، أظهر للملأ أنه يتعين بعد أن تم اخضاع السلطان اخضاع المغاربة بدورهم. هذا ما أكدته ثورة الهيبة التي اندلعت بعد ذلك في خضم الموجه الشعبية التي اقتادته في ركابها. ومن ثم اكتسى المشكل الاستعماري صبغته العسكرية من جديد ، وظهر حقا أنه سيحتفظ بها مدة طويلة . لتسوية هذا المشكل في جوانبه المتعددة ، لم يكن يوجد من هو أكثر تأهيلا من الرجل الذي ندب لهذه المهمة ، وهو الجنرال ليوطي. كان هذا الأخير قد تمرس بالحروب تحت راية كاليني (Gallieni) بالهند الصينية ومدغشقر ، وكان سياسيا وعسكريا على حد سواء ، ومرشحا "للحزب الاستعماري" . ومنذ 1903 وجدناه بالجزائر على تخوم المغرب ، حيث أصبح شغله الشاغل طيلة تسع سنوات العمل على غزو هذا البلد. فباستغلال الاتفاقيات التي أصبحت تتيح منذ 1901 امكانية اختراق الحدود المغربية ، وفي اطار رسم "معالم العمل" و"الاسترشاد" في المستقبل (1) ، وضع خطة تقوم على "التسلل البطئ" و "التسرب التدريجي" و " التفكيك المتستر" (2) ، تلك الخطة التي مكنته "عن طريق التوسع كبقعة زيت" (3) ، وعن طريق "انزال الضربات المتكتمة وفي الأراضي التي اكتبست في الخفاء (4) ، من الشروع سرا... في غزو المغرب " (5) . منذ 1906 أمكنه التبجح بقوله : "أشعر بأنني أحكم قبضتي على هذا البلد...هكذا ... كنت أحلم بغزو المغرب... واثقا بآلتي وخطتي" (6) . لذا ، وعندما عين مقيما عاما لفرنسا بالمغرب عام 1912 ، فان ذلك لم يكن ليشرع في العمل وانما ليواصل ويتوج مشروعا مألوفا لديه ويسير سيرا مرضيا.

سيما وأنه الآن وجد أمامه ظروفا ووسائل جديدة . ذلك أن صيغة الحماية خولته جميع السلط ولم تبق للسلطان سوى الحق أو بالأحرى الالتزام باضفاء صبغة المشروعية عليها بختم القرارات المتخذة بطابعه. فبدون أن يكون سلطانا ، فإنه أمسى سيد القصر. وهكذاأفضل . فمثله كمثل ذئب الحكاية الذي تقمص صورة الجدة بعباءتها ونظارتها، تراه وقد ظن أن في مقدوره "هضم" الفريسة وفق خطته القديمة دون عناء اللجوء الى العنف (7) .

على أنه لم تكن تعوزه لا المخالب ولا الأنياب (8) . فساعة وصوله وجد تحت قيادته

47000 رجل مدججين بأحسن الأسلحة ، وسرعان ما صار لديه منهم 000 . 80 ، ذلك العدد الذي لم يكن السلطان ليحلم به بتاتا. زد على هذا أن فرنسا خصصت له حوالي 500 مليون سنويا أي ما يفوق الموارد العادية للدولة المغربية بثلاثين مرة [9] . وذلك ليؤدي رواتب الجند ويبني من أجل تحركاتهم الطرق والمسالك ، وليمول ما أسماه ب"خيالة سان جورج" [10] التي اشترت في المغرب ضمائر القواد والوزراء ورؤساء الزوايا ، كما اشترت في فرنسا على الجبهة الباريزية ضمائر الوزراء و الصحفيين والبرلمانيين [11] .

بفضل مهارته في توظيف مختلف هذه الوسائل ، قضى ليوطي في البدء على ثورة فاس التي ألمحنا اليها آنفا ، ثم خلع عبد الحفيظ الذي أصبح صعب المراس مفضلا عليه أخاه مولاى يوسف الذي بدا له لين العريكة. وباسم هذا الأخير أمكنه أخيرا تفادي الخطر الذي شكلته انتفاضة الهيبة . بعد أن أصبح منذئذ مسيطرا على أكبر مراكز البلاد ومستظلا بمظلة السلطان الذي يدين له بعرشه ، تمكن في ظرف سنتين من مد غزوه الى المغرب الأطلنتكي المتكون من السهول والهضاب فيما عدا الكتل الكبرى المحيطة بها. ذلك ماأسماه بلغته "المغرب النافع" . وهو نافع بالطبع مادام يضم الأراضي الخصبة التي يمكن توزيعها على المعمرين والتي يمكن أن ينطلق منها على الفور الاستيطان الأوربي. هو نافع أيضا لأنه يتيح للفرنسيين امكانية العيش في نفس الوقت الذي يمكنهم على هواهم من تنظيم الهجومات التي يتعين شنها ضد الجبل الثائر في الجهات والأوقات المختارة . انتهت هذه المرحلة الأخيرة في ماى 1912 باحتلال تازة التي تم فيها ربط الاتصال بالجيش الفرنسي بالجزائر . فيما قبل لم يكن الاتصال ب "المتروبول" متيسرا الا عن طريق الدار البيضاء عبر الطريق البحري. أما الآن فقد أصبحت الامدادات تصل أيضا الى مسرح العمليات عبر الطريق القاري وبكيفية أسرع.

أما بخصوص المنطقة التي كانت ماتزال ثائرة ، فهي مجموع الجبال أي مايعادل في المغرب ثلثي البلاد . كانت القبائل المتحصنة بهذه المنطقة تستفيد بالطبع من طبيعة التضاريس للدفاع عن نفسها. الا أن عقبات جمة كانت تقوم بوجهها لوأنها حاولت ربط الاتصالات بينها لتوحيد صفوفها. أضف الى ذلك أنها لم تكن في وضع يخولها محاصرة المحتلين المرابطين في السهول وهذا على الرغم من تواجدها في منطقة هامشية. على العكس كان هؤلاء هم الذين يأخذونها من الخلف انطلاقا من الجزائر أو من الأقاليم الصحراوية . من الناحية الاقتصادية نراها أيضا في حالة تبعية للسهل. فهي مضطرة إلى النزول إليه خلال السنة لقضاء أوطارها ، ناهيك عن فصل الشتاء حيث لا مناص لها من مغادرة مرتفعاتها المكسوة بالثلوج لانتجاع أراضيها الزراعية

ومراعيها في السفح ، فتصبح في هذه الحالة على مرأى من المحتلين و في متناول مدافعهم . أخيرا فقد أصبح هؤلاء يحولون بينها و بين السلطان و هو الحكم التقليدي في خصوماتها والرجل الذي لا غنى عنه لإذكاء جنوة حماسها من أجل عملها المشترك. انها عزلة جغرافية واقتصادية وسياسية جعلت من الصعب على القبائل إن لم نقل من المستحيل القيام بأي عملية على نطاق واسع كما كانت تستلزمها متطلبات الهجوم. هذا في الوقت الذي كانت هذه الظروف تعطي ليوطي حرية التصرف لكي لا يواجهها إلا بالمناوبة وفي الوقت الذي يختاره ، ليلتقطها نوعا ما كما تلتقط ثمار ناضجة .

لقد سد ليوطي منافذ الأودية بواسطة مراكز صغيرة مجهزة بالرشاشات والمدافع. وكانت هذه المراكز قادرة على الصمود أمام المصادمة الأولى في انتظار تدخل تشكيلة متكونة من ستة إلى سبعة آلاف رجل توجد مرابطة في المؤخرة ودائما على أهبة الاستعداد للتدخل . تلك هي "الفرقة المتحركة" التي كانت تضمن في جميع الأحوال التفوق في العدد والعدة . أما إذا لم يبادر العدو إلى الهجوم ، وهي القاعدة العامة ، فقد كان ليوطي بدوره يلتزم جانب السلم في انتظار الوقت المناسب . كان رؤساء مراكزه يغضون الطرف عن الجبليين الخاضعين وغير الخاضعين و هم يخترقون الخطوط في كلا الاتجاهين ، بل ويعملون على تشجيع الاتصالات والمبادلات ، ليخلقوا مناخا مناسبا لالتقاط الأخبار عن القبائل المجاورة ، عن أرضها ، ومواردها ، ووسائلها العسكرية ، وخصوماتها الأسرية . بهذا يتعرفون هنا وهناك على زعماء الزوايا والأعيان الطموحين الذين تكفي بضعة أكياس من الدراهم المشفوعة بالوعود للتمكن من اصطناعهم . عندئذ ، كان على هؤلاء الأعيان ورؤساء الزوايا أن يستغلوا نفوذهم ليوطدوا في المنطقة سلطة أمير المؤمنين الذي لم يكن الفرنسيون والحالة هذه سوى ممثلين لسلطته الزمنية. وعليهم من أجل ذلك بذر الشقاق بين القبائل بل وداخل كل منها لإجهاض كل محاولة للمقاومة الموحدة. تلك هي المرحلة الضرورية لـ "العمل السياسي" (12) .

عندما يعطي هذا العمل المستتر ثماره ، وعندما يتم تلغيم صفوف القبيلة المزمع إخضاعها وإجهاض تحالفاتها ، عند ذلك لا غير ينتقل الفرنسيون إلى استعمال الوسائل العسكرية وهذا دون اللجوء سواء إلى الهجوم أو إلى المواجهات . يبدأ الأمر بالحصار الذي يقطع المرور بين السهل والجبل محرما القبيلة من تمويناتها الأساسية (13) . بعد ذلك تصبح اتصالات القبيلة وباقي الجبل بأسواقها الموسمية مشلولة كذلك من جراء القصف الموجه انطلاقا من المراكز أو عن طريق الطيران . أخيرا تتعرض جميع وسائل عيشها للتدمير الواحدة بعد الأخرى. فحراثوها يقتلون أمام

محراثهم . بينما تمنع المدفعية على قطعانها ارتياد المراعي و مراكز الماء. والا تكفي غارة لفرقة الفرسان لحرمانها منها بكل بساطة. فبين مرتفعاتها المكسوة بالثلوج وفوه المدافع ، كانت القبيلة التي تعاني من الجوع والعزلة والانشقاق الداخلي تستنزف مقومات عيشها وقد تستسلم ذات يوم [14] .

بيد أن استسلامها لا يضع حدا لمحنها. إذ هناك الشروط القاسية التي تفرض عليها. أولا ، عليها أن تسلم بنادقها العتيقة التي تشعر بفضلها أنها حرة وإن تقادم عهدها. ثم عليها أيضا أن تسلم الرهائن وأن تذبح للمنتصر عددا من الثيران متناسبا مع عدد الأسر. وأن تؤدي تعويضا حربيا باهضا ، وأن تقدم أخيرا الرجال المطلوبين من طرف المحتل لخدماته المتعددة في سلاح الهندسة [15] . وها هي ذي حينئذ تتهم بالخيانة أيضا من طرف القبائل المجاورة غير الخاضعة وتصبح عرضة لأعمالها الانتقامية. بحيث لا يبقى أمامها وقد جردت من أسلحتها سوى الارتماء بين أحضان الفرنسيين. أما في مقابل ذلك ، فإن هؤلاء يطالبونها بتقديم "عناصر موالية" تدفع لهم أجرة تصل حتى إلى ثلاثة فرنكات في اليوم للرمي بهم مسلحين ببنادق بمعنى الكلمة ضد القبائل المجاورة بمهمة نهبها وحتى الاحتفاظ بالغنائم. كيف لا يمكن أن ترحب بالعرض وكأنه ربح غير منتظر والحالة أنها تعاني من الهلع والفقر المدقع ؟ [16] بيد أن التباغض الذي يستحكم بعد ذلك بينها وبين جيرانها الأحرار ، ذلك التباغض الذي لا سبيل إلى كبح جماحه ، يدفعها إلى القيام بخطوات جديدة في خدمة الفرنسيين. فتقدم لهم ضمن خدمات أخرى الرماة الذين يستخدمون في الكتائب المعدة في المؤخرة. هنا وفي ظل عبودية مشتركة ، تجري المصالحة بطريقة أو بأخرى مع من مدوا بالأمس يد العون ضدها.

كان إخضاع القبائل بوتيرة متتالية ومتأنية يمكن ليوطي من تثبيت الركائز في الجبل هنا وهناك تبعا لمحور الأودية. وعندما تصبح الثغرات جد غائرة وعملية التضليل التي تقوم بها مصالحه قد أشاعت البلبلة والارتباك في صفوف القبيلة ، كان يقوم بمناورة مزدوجة عن طريق توجيه وحدتين أو ثلاث وحدات من "الفرق المتحركة" التي تندفع كل منها على انفراد . ثم ترتد فجأة نحو نقطة الاتصال المختارة لعزل هذه الكتلة أو تلك عن المجموع. بهذا كان يتم تقسيم الثورة إلى جيوب أو على حد قوله إلى "بقع" تهاجم بعد ذلك على حدة لإخضاعها تبعا دائما لنفس الخطة ، لكن بمزيد من السهولة والنجاح كلما تم تنفيذها.

في عام 1922 عندما دخل الغزو في السنة التاسعة من هذه المرحلة الثانية ، كان

نصف المناطق اللازم إخضاعها ما يزال خارج السيطرة الفرنسية. يتعلق الأمر في الأطلس المتوسط بجيب كبير "بقعة تازة" وكذلك بمجموع الأقاليم الواقعة جنوب الأطلس الكبير ، أي صفرو والأطلس الصغير وتافيلالت. إلا أن الفرنسيين كانوا يحكمون قبضتهم على النصف الآخر خاصة المرتفعات المحيطة مباشرة بالمغرب الأطلنتكي ، كان يكفيهم التحلي بالصبر لمد سيطرتهم ذات يوم على المناطق الأخرى. في انتظار ذلك ، كانوا يحتلون ويستغلون مغربا شاسع الأطراف ، مغربا آمنا وغنيا بما يكفي لتعويضهم عن جهودهم وتطمينهم على توطنهم. وهكذا فقد انتقلت أملاك شاسعة إلى أيدي معمريهم ، واستثمرت رساميلهم في الأراضي ، والعقارات ، والنقل ، والمناجم ، والتجارة. ومن أعلى جهاز الدولة إلى أسفله عين بجانب الوزراء والقواد والباشوات مديرون أو مراقبون بيدهم الحل والعقد . زد على هذا أن التقنيين كانوا من الفرنسيين ، وأن الإدارات والمصالح المستحدثة كانت تعج بموظفين ومستخدمين فرنسيين ، وأنه برزت بجانب كل مدينة حاضرة جديدة فرنسية تتجمع فيها الوظائف الرئيسية. أما مقابل هذه الحواضر الآخذة في النمو ، فقد كان المغرب القديم ، أو بعبارة أخرى المغاربة يبدون وكأنما قدر عليهم الانزواء إن لم نقل الاختفاء ، ولو أن عاداتهم ومعتقداتهم ظلت موضع مراعاة رسمية . لقد تعزز الحضور العسكري بهيمنة اقتصادية وإدارية أكثر تغلغلا ونفاذا ، بحيث صارت كل عودة إلى الوراء من الأمور التي لا يمكن تصورها . ولأشد ما تكون الدهشة لو أن أحدهم قام يذكر بأن ثلث البلاد ما يزال رافعا راية المقاومة . ذلك أن الرأي العام كان يعتبر أن المغرب برمته قد تم غزوه أو كما يقال تمت "تهدئته" . فهو بلد فرنسي مثل الجزائر بل وإكليل يتوج الامبراطورية الفرنسية . كان الصحفيون وكتاب مرموقون يشدون للرحال إليه لإذكاء جذوة قريحتهم ، فيجدون فيه صورة ناطقة بالعبقرية الفرنسية الصرفة التي تزاوج بين القوة والأريحية ، كما كانوا ينوهون بسهولة الغزو الذي تم بزعمهم بدون إراقة دم أو بدونه تقريبا . ذلك أن فرنسا غزت أيضا القلوب والعقول وهو ما كان من شأنه أن يبرر ، حتى بعد فوات الأوان ، ماضي العمل الاستعماري كله بإعطائه صورته الإنسانية الحقيقية. أخيرا فقد كان ليوطي ، صانع المعجزة ، يتبوأ مركز الصدارة في هذه اللوحة المشرقة. وقد كرست الجمهورية الفرنسية مجده بأن رقته إلى مرتبة مارشال شأنه شأن المنتصرين في الحرب العالمية العظمى . ومن ثم فقد أصبح وجها عالميا ، تستقطب مدرسته الأتباع ، ويفد إليه زوار معجبون وعسكريون سامون من إسبانيين وإيطاليين وحتى من الأنجليز لمحاولة الاطلاع على سره. وبدورهم ، وقع رجال الدولة تحت وقع سحره. فقد كتب رئيس الخارجية البريطانية السير استين

تشاميرلان مذكرة سرية بخط يده يقول فيها :

"إن نجاح المارشال ليوطي ... ليثير إعجابي ... إنه جندي وإداري عظيم .. وأحسن تكريم يمكن أن يقدمه له رجل انجليزي هو القول بأن المارشال لو كان أنجليزيا لا ندرج عمله ضمن أسمى تقاليدنا بل ولزاد من بهاء تاريخنا الحافل" [17] .

كما نرى ، فقد طفح الكيل .

* * *

مع ذلك لن يكون بمقدورنا أن نفهم شيئا عن العاصفة التي ستهب بعد حين لو أننا أصررنا على اعتبار ليوطي نجما متألقا في سماء زرقاء انسياقا مع الأسطورة التي نسجت حوله. لا جدال في أنه كان يتحلى بالمؤهلات اللازمة ويجنح جنوحا كليا نحو تحقيق مأموريته. لا جدال أيضا في كونه قد عرف كيف يستغل على أحسن وجه الظروف التي كانت في البدء كلها في صالحه. إلا أنه أصبح شديد الاعتزاز بنفسه ، ومخطئا في تقدير أسباب وأبعاد نجاحه ، كما أنه لم يدرك في خضم اندفاعه الطبيعة الحقيقية للقوى التي كان يكبحها اعتقادا منه أنه يتفادى الاصطدام بها.

كانت توجد بفرنسا مجموعات صناعية ومالية تجني منذ عدة عقود أرباحا متزايدة من المغرب وهو ما يزال مستقلا وقتذاك. وكانت الآمال تداعب هذه الأوساط في تحقيق مزيد من الربح لو أن المغرب اندرج في حظيرة الإمبراطورية الفرنسية الإفريقية [18] . حتى يحين الوقت ، كانت ترى في مجرد غزوه صفقة مربحة لها وذلك عن طريق ما يتطلبه هذا الغزو من لوازم حربية ونقل للجنود. إنه الحافز الذي كانت تقاس قوته بأهمية المصالح الموظفة .

على الصعيد السياسي ، كانت هذه المصالح تتوفر على "حزب استعماري" [19] يعبر عنها ويخدمها . وهو ليس حزبا بمعنى الكلمة ، وإنما فريق نفوذ ، أو خلية شبه سرية ، يمارس نشاطه عن طريق زرع عملائه في مختلف الأوساط. كانت لديه علاقات سرية وصداقات نشيطة في عالم الصحافة وفي مختلف الفرق البرلمانية والمصالح الوزارية. وعن طريقها تمكن من تهييء الرأي العام والضغط على الاختيارات السياسية وزرع عملائه في المراكز الإدارية الأساسية . كان يجتهد على مستويات متعددة ليفوز بالتصويت على القروض والقوة العددية ، ثم يسهر ولو بإكراه المسؤولين على استخدامها لخدمة مصالحه على أحسن وجه . إنه هو الذي اختار ليوطي لمنصب القيادة في الجنوب الوهراني وذلك بفضل جونار (Jonnart) الحاكم العام للجزائر [20] . وهو الذي عينه برتبة جنرال بفضل نائب وهران أوجين اتيين (E. Etienne) [21] . وهو الذي فرضه بعد ثلاث

سنوات ليتولى قيادة كتيبة وهران بفضل جونار أيضا وعلى الرغم من معارضة بيكار (Picquart) وزير الحربية (22) . كان من الطبيعي إذن أن يكون هذا القائد متفانيا في خدمة "رؤسائه وسادته" من جونار إلى تومسون (Thomson) مرورا بأتيين (23) . على أنه كان في المقابل "يستظل" (24) أو قل "يتحصن" (25) بحماهم ويحظى بـ "دعم تام" (26) . ذلك ما جعله قادرا على أن يتحدى بل وأن يستخف بأولائك الذين لم يكونوا رؤساءه إلا بحكم التراتب وهذا حتى على أعلى مستوى . كان يمتنع فعلا عن تقديم البيانات المتعلقة بتوظيف غلافه المالي ، ويدفع وحداته إلى الزحف دونما حاجة إلى إذن (27) ، ويخترق الحدود محتلا داخل المغرب مواقع يرفض فيما بعد الجلاء عنها بالرغم من الأوامر الصريحة التي يتلقاها من حكومته (28) .

بيد أن ليوطي وهو يخدم مخططات سادته بمثل هذه الألمعية لم يغفل منذ اللحظة الأولى عن استقطاب من يخدم سياسته هو الآخر. فكان يدعو إلى مقر قيادته الصحفيين ورجال الأدب مكرما وفادتهم إكرام السادات الكبار. وبجانب مظاهر الأبهة والفخفخة التي يحرص على الظهور بها ساعة استقبالهم ، كان يعرف كيف يوحي لهم بمودته الصادقة. أما وقد ودعه ضيوفه منبهرين ومزهوين ، فقد كانوا يضفرون له الأكاليل في باريس التي سرعان ما أصبح يتمتع فيها بنوع من الشعبية .

هكذا نراه بعد أن كان مجرد مستخدم "للحزب الاستعماري" يرتقي إلى مصاف "السادات" قبل أن يصبح حقا ذات يوم صورة عن الرجل القيدوم . ذلكم إذن هو الشخص الذي اختير بمجرد التوقيع على الحماية لكي يمارس السيطرة الفرنسية في عين المكان . ولئن كان بإمكان "الحزب الاستعماري" والمجموعات التي يخدمها أن تكون متيقنة من أنه سيمضي قدما في خدمتها على أوسع نطاق وعلى نفس النهج الذي سار عليه في الجزائر ، فإنه كان بإمكانه بدوره أن ينطلق قرير العين. لقد كان واثقا بأنه سيحصل من فرنسا بفضل ضغوط أصدقائه على ما هو في حاجة إليه من مال ورجال لكي يستغل على أحسن وجه سلطات العاهل التي استأثر بها في المغرب ، وهذا دون أن يخضع لمراقبة صارمة ، أو أن يكون تحت رحمة تصويت برلماني. وعلى حين أن البرلمان الفرنسي كان ينشئ ويحل الوزارات. وجدنا ليوطي يدشن في المغرب حكما طويلا سيدوم ثلاث عشرة سنة .

من الحق أنه واجه وضعية خطرة ساعة وصوله إلى بلاد تناصب المحتلين العداء بشكل لا هوادة فيه. لكن جميع وسائل النجاح كانت متوفرة لديه. فالوحدات العسكرية التي تسلم قيادتها كانت كثيرة العدد ومتدربة أحسن تدريب ، وبأمكانها في أية لحظة أن تتلقى التموينات والتعزيزات ، كما كانت تحتل جميع المدن الكبرى باستثناء مراكش .

أضف إلى هذا أنه لم يكن يوجد أمامها أي جيش ، إذ أن الوحدات التي كان السلطان يتولى أمرها وحدات متفككة وقتنذ وعليها مبدئيا ، وبالنظر إلى الحماية ، أن تنضوي تحت المراقبة الفرنسية. ولئن كانت هذه الوحدات قد تمردت في فاس ، فقد تطلب الأمر مجرد عملية بوليسية لإخضاعها دون حاجة إلى اللجوء إلى حملة حقيقية. أما القبائل ، فكانت قادرة وحدها على أن تشكل خصما خطرا في حالة انتفاضة شاملة. على أنه كان يلزمها إيجاد الطرق المناسبة من أجل المعركة بما تتطلبه من معرفة جيدة بالعدو ومراعاة التباين الهائل في الوسائل ، سيما وأنها مجبرة على القتال في السهل. والحالة أن الأمر كان بعكس ذلك. فبعد استنفارها على عجل ساعة الخطر ، تراها تهرع مرصوصة الصفوف لتواجه بأسلحتها العتيقة نيران العدو الوابلة . إنها معركة ليست يائسة فحسب ، بل وخاسرة ، وتكفي لكي تقود إلى الاستسلام بالنظر إلى نقص المذخرات ونقص الأرض اللازمة لضمان الانسحاب . بحيث إن درس الهزيمة لم يكن ليجدي القبائل المحتلة نفعا ، هذا فيما كان نفس المصير ينتظر القبائل المتواجدة في المؤخرة ، تلك التي لم تستخلص بعد هذا الدرس لأنها لم تخض بعد غمار المعركة. كانت هذه هي الظروف التي قام فيه جيش الاحتلال منذ خمس سنوات وقبل مجيئ ليوطي بمد الغزو على نطاق واسع . وليوطي نفسه لم يبق أمامه بعد تخلصه من جيش الهيبة على هذا الشكل سوى أن يتم احتلال السهول دون أن تعترضه مقاومة تذكر. بل وكان يقال في الجانب الفرنسي ان القبائل لا تقوم عند كل مواجهة سوى بإطلاق "بارود الشرف" ما دامت نتيجة المعارك تبدو محققة .

* * *

مع ذلك لا يمكن تفسير الأمور كلها بالتفوق في ميدان التسلح . فمن أجل غزو السهول ، والمحافظة بالخصوص على الاحتلال بأقل ما يمكن من التكاليف ، استفاد ليوطي أيضا وفي المقام الأول من الحالة المرتبكة التي صارت عليها العقول بعد الإعلان عن الحماية . فمنذ مدة طويلة ، كان عجز المخزن أمام التسرب الأوربي قد تسبب في وقوع بلبلة عميقة. وفي بداية القرن ، كانت أخطاء عبد العزيز من الخطورة إلى حد أن البلاد قامت أخيرا لخلعه . بيد أن أخاه عبد الحفيظ ، الذي نصبه الشعب على أمل تحرير البلاد ، وجه بنفسه الضربة القاصمة بأن فتح مصاريعها أمام الفرنسيين . في مثل هذه الحالة البالغة الخطورة ، كان تقليد البلاد وواقع أخلاقها ومجتمعها لا يسمح سوى بالالتفاف حول المطالب بالعرش الذي قويت شوكته والقادر بتزعمه النضال على خلع السلطان الذي قصر في القيام بواجباته . بيد أن فشل الهيبة قضى على هذا الأمل

الأخير. وعلى هذا ، ونظرا لعدم وجود البديل ، أصبح السلطان المتربع حينه على العرش الرمز الوحيد للأمة على الرغم من خضوعه الكلي للفرنسيين. بذلك انطرحت مشكلة عويصة على ضمائر الناس وجموعهم. فلئن كانت القلوب تخفق بضرورة الكفاح ولو بالاستغناء عن السلطان ، فإن العقول كانت تظهر لهم أن لا أمل من وراء هذا الكفاح المتشتت الذي قد يؤدي فوق ذلك إلى تفريق شمل الأمة. أين يكمن الداء الحقيقي إذن ، هل في الطاعة أم في التمرد ؟ أين يكمن الواجب ، هل في الانقسام أم في الاتحاد ؟ والحال أن مجرد طرح المسألة يؤشر على وقوع تصدع من شأن العدو أن يجدّ في تكريسه .

وبالفعل سرعان ما وقع الانقسام . فالتجار الذين دأبوا منذ مدة طويلة على التعامل مع أوربا ، أو الذين كان بإمكانهم التعامل مع جيش الاحتلال ، وأولائك الذين كانوا يعيشون من الدولة أوالذين لا يستطيعون الاستغناء عنها ، من أعيان وموظفين وأثرياء ، أو قل بكلمة مختصرة الحضريين ، كل هؤلاء اختاروا جانب السلطان مستسلمين بالتالي ، ولو على مضض ، إلى التعامل مع المحتلين. بهذا فإن المدن التي خضعت بأدنى التكاليف أمدت ليوطي بنقط ارتكاز متينة .

أما القبائل التي تشكل الغالبية الساحقة من السكان ، فقد تملكتها بالعكس إرادة متصلبة للمقاومة ، لكن من دون أن تكون بالإجماع على الإطلاق. فمن بين شيوخ الزوايا الذين لهم سلطة دينية في المنطقة ، هناك من ظل مخلصا للسلطان قلبا وروحا. وهذا الشيخ أو ذاك ممن تم تسليحه وتمويله سرا من طرف ليوطي ، هو الذي كان عليه أن يؤسس حزبا مواليا لفرنسا في هذه المنطقة أو تلك تحت غطاء الولاء والإيمان. وعلى الرغم من أن هذا الحزب كان متكونا من بعض المأجورين ، فإنه قدم ، عن طريق الاستخبارات والتضليل والتفرقة ، خدمات ثمينة لتقليص حجم التكاليف التي كان يتطلبها الغزو. كان يتلقى مكافأته بعد ذلك ، عندما يتم إخضاع القبيلة وتجريدها من السلاح : فأعضاؤه يلجون مناصب القواد ، والشيوخ ، والمقدمين ، و"الشواش" ، مع تخويلهم سلطة استنسابية على الأنفس والممتلكات. وبما أن هؤلاء الرجال ارتقوا إلى مراكز القوة والجاه بتكرم من الفرنسيين وكانوا مهددين بدونهم بأسوأ الأعمال الانتقامية ، فقد كان من الطبيعي أن يتفانوا في خدمة المحتل. لأجل هذا الغرض وضعت تحت تصرفهم فرقة درك متكونة من "مخزنية" منقادين بدورهم ، ومسلحين كما يجب ، ويتقاضون أجرة معتبرة ، وعلى معرفة بالقبيلة وبكل الخبايا والأسرار باعتبار أنهم جندوا من عين المكان . أما رئاسة كل هذا الفريق فقد أنيطت بضابط أو مراقب

فرنسي.

ذلك ما جعل ليوطي في غنى عن تشتيت جموعه بغية المحافظة على احتلال كل قبيلة تم غزوها. ومن ثم فقد تمكن بعد بسط ظل سيادته على السهول من أن يبقي القسم الأكبر من قواته تحت تصرفه في المؤخرة وفي بعض الجهات المختارة ، وألا يدفع حتى مشارف الجبال سوى بعدد محدود موزع على مراكز صغيرة تراقب منطقة العصيان. وفيما بين كل مركزين ، كان القواد و"المخزنية" بالإضافة إلى بعض الضباط يتكلفون له بضمان الأمن .

إنها ترتيبات متقشفة ، وإليها يرجع الفضل بالخصوص في كون السنوات الأربع من الحرب الأوربية لم تخلف انعكاسات تذكر على السيطرة الفرنسية الجاري بها العمل وقتذاك في المغرب. كان من الطبيعي والحالة هذه أن يحظى ليوطي بأكبر تقدير وسط الأوساط الحاكمة. بيد أن الخطأ هو أن نعتبره صانع المعجزات كما لو أن موهبته وحدها وقد فسرت المعجزة ينبغي أن تكون قادرة على تخليدها. إن ما يعزب عن البال هو أن هذه الموهبة ، التي لا مجال لإنكارها ، كان من الممكن ألا تجدي نفعا لو لم يكن ليوطي قد وظف السلطان في لعبته ، ذلك الرجل الذي لم يكن الشعب في المغرب بدونه يعرف بعد سبيله إلى تحقيق الوحدة . فلتفقد هذه الورقة ذات يوم قيمتها الرابحة ، لنرى حينئذ كيف أن الأمور لن تصبح بالسهولة التي كانت عليها. على أن الأحداث كان من الممكن منذ البداية أن تأخذ مجرى آخر لو أن الهيبة ظهر في مستوى الثقة التي وضعت فيه وعرف كيف يقوم بواجبه كسلطان ؛ أو بكل بساطة لو أن عبد الحفيظ عند استعادته رباطة جأشه استقطب حوله إرادة المقاومة في المغرب كما سيتحقق ذلك على يد محمد الخامس. من الحق أن عبد الحفيظ الذي وقع تحت تقريع الضمير قد أبى على نفسه أن يتشبث بالدور الذي التزم الاضطلاع به ، ورفض بالتالي رفضا باتا توقيع القوانين المحضرة باسمه . إلا أن هذا الرفض ، الذي وضع في الواقع ليوطي في موقف حرج بشله الجهاز الذي تفنن في بنائه ، لم يكن سوى واجهة كاذبة. فسرعان ما ظهر كوسيلة لا لإعطاء نفس جديد للنضال وإنما لمساومة الاستقالة . بحيث ان عبد الحفيظ بعد أن أزمع الرحيل ليترك العرش شاغرا ، أعطى ليوطي على أقل تقدير المبرر الشرعي لاختيار خليفة منقاد له كل الانقياد ؛ أو قل إنه بهذه المبادرة أعطى تفويضا مطلقا وبصفة دائمة. وهكذا فإن فرصة ليوطي لا عبقريته تكمن في عدم أهلية الهيبة وتخوفات عبد الحفيظ .

من الحق أنه عرف بوجه عام كيف يستفيد أيما استفادة من الظروف التي كانت

جد موائمة. إلا أن الأمر لا ينطوي على أية مأثرة. إذ لا يكفي حتى القول ، كما قدمنا أعلاه ، بأن الفرنسيين كانت لهم وسائل متفوقة . لقد كانوا في الواقع يحاربون لا ضد جيش منظم وإنما – في كل قبيلة – ضد مجموعات مستقلة من الفلاحين لم يروا من العالم غير محيطهم الجبلي ، ولا يملكون من سلاح غير بنادقهم العتيقة التي تشحن ببطء وتخطئ أهدافها فضلا عن أنها ذات مدى ضعيف. وفي مواجهة هذه المجموعات ، كان ليوطي يبدو وكأنه الصاعقة ، بكتائبه ، وبنادقه الفتاكة ، ورشاشاته ، ومدافعه ، التي كان ينشرها أو يركزها كما يشاء في بضع ساعات من سير شاحنة. أضف إلى ذلك استعمال الهاتف والمذياع والطائرة الشيء الذي مكنه من رؤية ومعرفة كل شيء ، والتواجد في كل مكان ، والضرب في أي وقت. هل معنى هذا أنه أحرز انتصاره بدون خسائر ؟ هيهات أن يكون الأمر كذلك. فلقد تكبد حتى بعض الهزائم المريرة في المرحلة الثانية من الغزو. كما حدث عام 1914 في الهرى ، جنوب خنيفرة ، عندما تعرض ما سمي ب"طابور تأديبي" للاقتصاص هو نفسه على يد موحا أوحامو وقبيلته زيان ، تاركا في الميدان 600 رجل ، و33 ضابطا ، بالإضافة إلى مدافعه. أو كما حدث عام 1919 ، عندما تم إبعاد مقدمة الجيش الفرنسي إلى جنوب ورغة حيث انتظرت خمس سنوات لتأخذ ثأرها بعدما قتل منها 300 رجل وخسرت مدفعيتها. وبينما كانت انتصارات ليوطي تضخم مع الحرص على عدم الكشف عن تكاليفها ، كانت هزائمه تمرر في صمت. ذلك لم يكن متيسرا بالأمس عندما سقط جول فيرى بعد لانغ سون عام 1885 بسبب حادثة أقل خطورة. *أما الآن فقد كان هناك الحزب الاستعماري كأشد ما يكون قوة ونشاطا من أي وقت مضى.* هذا بالإضافة إلى معطى جديد وبالغ الأهمية ، وهو أن الخسائر في المعارك لم تعد تسجل ، إذا ما استثنينا الضباط ، سوى في الفرقة الملونة أو المرتزقة الأجانب. أما العناصر الفرنسية فلم يكن يزج بها مطلقا في جبهة النار.

ذلك ما كان علينا توضيحه لننتهي من رسم ما يحوم في الظل خلف ليوطي ، وليقودنا إلى تقييم أصوب للأمور.

في البدء ، كان ثمة نجاح فرنسي في غزو المغرب. لكن التفسير النهائي لهذا النجاح لا يرجع إلى موهبة رجل أو لمزايا العرق بقدر ما يرجع إلى المجموع الكلي للموارد الاقتصادية والمالية ، والنفوذ السياسي ، والوسائل العسكرية ، والقواعد الترابية ، والمخزون البشري ، تلك الإمكانات التي كانت الأوساط الاستعمارية تتوفر عليها أكثر فأكثر. أو قل بالاختصار كل ثقل امبراطورية قائمة ، منظمة ، وفي أوج عظمتها تقريبا. هذا ما عبد الأرضية أمام ليوطي منذ مدة طويلة ، ووضع بين يديه الوسائل

لاستغلاله بما فيها الجهاز السياسي الممتاز الذي أقامته الحماية. وهذا ما كان من شأنه أن يمده فيما بعد بمساعدة دائمة في مرحلة استعمال مختلف هذه الوسائل.

ثم إذا كان من الصواب الإقرار بهذا النجاح ، فإن ما تقدم لا يتفق بالعكس مع ما نسج حوله من ترهات. فقد قيل إن النجاح المذكور يعكس وحدة القلوب بين المستعمرين والمستعمرين. لكن متى تحققت مثل هذه الوحدة ؟ هل في خضم المعارك ، والحال أن القبيلة كانت تؤثر الموت جوعا أو الاستشهاد أمام طلقات الرشاشات بدلا من الاستسلام ؟ أم بعد استتباب السلم ، عندما كانت ترزح تحت النير المزدوج للأجانب وللطغاة المحليين من شيوخ وقواد معينين من طرف المحتلين ، فتسحق بالغرامات والمصادرات ، وتسلب منها أراضيها لفائدة المعمرين ؟ هاكم ما كان ينشده الشاعر في السهرات البربرية :

"القايد هو رحى المطحنة ،

والفرنسيون هم الماء الحي الذي يقودها ،

"آه ، ويل لنا معشر الحبات المسكينة".

أي ساحر من شأنه أن يخلق المودة بين الحبوب المسحوقة والمجرى المائي الذي يدير الرحى ؟ .

يجيب الشاعر منشدا :

"أنا عطشان للعيش وفق الإيمان ،

عطشان لنعاجي ،

واه ، عطشان لزوجة بهائم لمحرثي ،

عطشان للأيام الغابرة ، وللعيش

بدونك أيتها المطرقة المنصوبة فوق رأسي" (29) .

إن حالة الهلع و اليأس التي يفصح عنها هذا النواح لهي الحالة التي كانت عليها بدرجات متفاوتة المشاعر الحقيقية للمغاربة نحو الغزاة. من هنا ذلك الموقف الحزين الذي من شأنه حقا أن يقود الى الاستسلام . لكن هل يمكن أن يقود الى الرضى و تأليف القلوب ؟ فكيف حصل التبجح باعتقاد ذلك؟ ليأت يوم ينفك فيه القيد بشكل أو بآخر لنرى حينئذ كم بقي متأججا ذلك التعطش الى الايام الماضية. هنا كان الخلل و

التهديد الكامن الذى ستعاني منه السيطرة الفرنسية في المغرب بالرغم من نجاحها.

* * *

علينا مع ذلك الاقرار بأن هذا التهديد كان في حدود 1920 افتراضيا أكثر منه واقعيا .لقد كان في حاجة لكي يتجسد الى قيام وحدة. وعلى جميع الاصعدة : داخل كل قبيلة، بين القبائل المتجاورة ، بين الأقاليم ، بين القرويين و الحضريين . و الحال أن البلاد كانت ماتزال متفككة من جراء الغزو.زد على ذلك أن ليوطي كان يدرك أكثر من غيره أن كل الجهاز الذي يخدمه سواء في فرنسا أو المغرب، والذي يعد الشرط الأول لنجاحه ، قد يبقى مع ذلك قليل الفعالية اذا لم يتوصل بنفسه الى بذر الشقاق و ترسيخه بشكل دائم داخل صفوف الخصم . اذا كان عبقريا على الأقل في ميدان واحد ، ففي هذا الميدان بالذات . فمنذ وصوله الى الجزائر، فيما قبل بخمس عشرة سنة ، أدرك وهو يرنو بنظره الى المغرب أن سياسة التفرقة هي الخطة التي يتعين انتهاجها. وهي خطة ناجعة وسهلة طالما أنه كان يوجد في كل جهة كما لاحظ منذ غشت 1904 : "صفان (حزبان) سيكون أحدهما بجانبنا لأن الاخر سيكون ضدنا. وسنجد في كل جهة قواعد ارتكاز " [30] . ولم يكن من شأن التطبيق الموفق الذي قام به فورا لهذا الاكتشاف الا أن يعززبالطبع تفاؤله .

مع ذلك اضطر بعد سنتين الى إعادة النظر في مجموع المسألة . كان ذلك عقب مؤتمر الخزيرات الذي أدى إلى موجة من الغضب في المغرب . فبالاستناد الى الاستسلام السلبي الذي كان مايزال سائدا في البلاد ، لاحظ وقتئذ بالعكس أنه يكثر الحديث " اليوم" عن قرب اندلاع فتنة" و " عن حرب مقدسة" .

ان ليوطي لم يحاول ايجاد سبب التغير الا في صحوة دينية. لهذا رأى من الواجب أن يؤخذ بعين الاعتبار العامل الديني الذي أهمله لحد الآن. كتب يقول : اذا ما دخل هذا العامل"بصفة نهائية كعلة ، واذا ماقام ذوو النفوذ المتنافسون فيما بينهم لحد الآن بالاتفاق قصد تمثيل السلطة الشرعية (أي السلطان) باعتبارها حارسة الاسلام المهدد ، فانه لن يكون بوسعنا ضمان النتائج" [31] . وبالفعل كان من شأن المجازفة بنسف مجهود التفرقة الذي لا غنى عنه أن يعقد مهمته أيما تعقيد .

على أن العلاج لم يكن منعدما، وكان بالامكان استخلاصه من الداء نفسه . من الحق أن ليوطي سبق له أن احتك بهذا المشكل على نطاق محدود هو نطاق احدى القبائل الجزائرية . فخلال زيارته أولاد سيدي الشيخ مند سنة خلت ، أمكنه أن يقدر هناك مدى

النفوذ الديني الذي كان يتمتع به شيخ القبيلة . أدرك وهو المحترف المقتدر الفائدة التي يمكن جنيها منه . أما الوسيلة فهي كما كتب"مصادرته (النفوذ) لفائدتنا ، و ابقاؤه (الشيخ) في دائرة مصالحنا عن طريق مدارة اعتزازه بالنفس في المقام الاول" [32] . ذلك بالضبط هو الحل المسبق الذي ستمكنه الحماية ذات يوم من تطبيقه في المغرب على نطاق واسع . فبما أنه أصبح "يمسك بجميع الخيوط " [33] في هذا البلد، وبما أن السلطان أصبح صنيعته، فقد كان بامكانه تحقيق كل المكاسب دون أن يتخوف بتاتا من الاحترام الذي يحظى به هذا الاخير وسط رعاياه . لعب اذن الورقة الى النهاية. ففيما لم يعد السلطان يحتفظ سوى بسلطة اسمية ، كان ليوطي ، وهو صاحب السيادة المطلقة و ممثل فرنسا ، يحرص على الظهور علانية بمظهر الاحترام الذي يكاد يصل الى درجة الورع نحو هذا الولي و وريث البيت النبوى . كان على الخاص و العام أن يعلم بأنه ليس سوى سند له ، و صديقه ، و خادمه الأول .

و يالها من فائدة تلك التي جناها من هذا التواضع المصطنع . ففي المناطق المحتلة ، أبقى تحت عصا الطاعة و بكيفة أسهل ساكنة مسلمة تجد عزاءها على الأقل في رؤية أمتها و قد بقيت متمسكة بايمانها . أما بالنسبة للقبائل التي أبت الانصياع لفرنسا ، فلم تكن تعتبر متمردة فحسب بل و منشقة كذلك . إنها ذريعة رائعة لـ "العمل السياسي " . فعن طريق رسل أميرالمومنين ، كان ليوطي متأكدا من امكانية اشاعة البلبلة في الضمائر حتى في القبائل الاكثر اتحادا و الأشد تمردا . ومن ثم انفتح المجال في كل جهة لممارسة هذا النشاط التضليلي الخفي الذي خفف بشكل ملموس من عبء تكاليف الغزو. و لقد نجحت الخطة حقا . فكان بذر الشقاق يجري في المرحلة الاولى ليعقبه الاحتلال في المرحلة الثانية . ان هذه العملية المزدوجة التي كانت تتجدد شهرا بعد شهر ، و من قبيلة لأخرى ، وتتم بشكل دقيق و منتظم كما تتم عملية الحصاد ، جعلت ليوطي يتيه زهوا . و قد وجدناه في نشوة ابتهاجه بخطته يتشوف الى محاولة تطبيقها في العالم بأسره . ألم يصل به الأمر الى حد أنه نصح جديا رئيسه بوان كارى بأن يحرض الأقاليم الروسية و كذلك الألمانية بعضها ضد البعض لجعلها تدور في مدار فرنسا على حساب انجلترة [34] . دون أن نقف بالطبع عند مثل هذه الأحلام ، لا نرى مندوحة عن القول بأن ثمة ما كان يدعو ليوطي على الأقل في نطاق عمله الى الرضى عن نفسه . لكن هل تكفي النجاحات الأولى لتضمن نجاحا نهائيا و سهلا في المستقبل ؟ كان السؤال يفرض نفسه ولو أن أي واحد من المعاصرين لم يكن يرتاب في ذلك النجاح .

من المؤكد أن الحماية التي جعلت السلطان أسيرا بيد الفرنسين مكنت أيضا من اغتصاب سلطته الدينية . بيد أن هذه السلطة لم تكن تعد في حد ذاتها ، رغم أهميتها ، ضربا من السحر ذات مزايا محققة و ثابتة . فقد تضعف أو تتلاشى كما نشأت . كيف لا يمكن و الأمر كذلك ألا تعاني من الظروف المستجدة ؟ لقد قامت على أساس الخدمات التي قدمها السلاطين في الماضي ، بتحقيقهم الوحدة و محافظتهم على السلم الاجتماعي و صيانتهم الاستقلال . فاذا بها تصبح بيد الغزاة أداة تستغل لتحقيق مقاصد هي على النقيض من ذلك . من الحق أن حالة الاستكانة السلبية من شأنها أن تساعدها على الاستمرار في هذه الوظيفة المعاكسة لطبيعة الأمور . لكن الحاجة الملحة لصيانة الاستقلال أو تجديده لابد و أن تقود في النهاية إلى اضعافها وكبحها ان لم نقل الى تحطيمها . اذ ذلك يمكن أن تنطلق العملية التي يتعين عليها أن تقود ، بدون تلك السلطة بل و حتى ضدها ، الى الوحدة ، لكن في ظل الحرية لا العبودية . ذلك ما لم يكن يتصوره ليوطي . لقد فاته أن مشاعر الاحترام التي يكنها الشعب لعاهلهم ما هي الا تعبير على الصعيد الديني لشعور وطني يضرب بجذوره في الأرض لا في السماء . كان يعتقد أنه سيصبح مؤمنا بما يكفي بمجرد اغتصاب نفوذ السلطان الديني ، فيتفادى بذلك خطر مواجهة " الحرب المقدسة " . أما فيما يخص خطر حرب وطنية فلم تكن تخطر بباله . اذ كيف يمكن تصور وجود وطنية مغربية ؟ و الحقيقة أن بعض الوقائع كتلك التي أدت في 1914 و1919 الى هزائم ساحقة و التي سبق الحديث عنها ، كانت كفيلة بتنبيهه . الا أن عناده كان فوق الوقائع . وحتى بالنسبة للحوادث التي ستهز بعد حين كل الشمال ، لتتسبب فيما بعد في سقوطه ، فانه لم يفتح عينيه على الاطلاق .

الهوامــش

1) اوضح ليوطي في رسالة الى القائد (Reibell) بتاريخ يناير 1905 ، ان ما يتم انجازه في الحدود المغربية " سيكون بمثابة معالم و وسائل استرشاد حول الخطة التي يتعين نهجها في جهة أخرى من المغرب . تم نشر هذه الرسالة على يد بيير ليوطي في المجموعة التي تحمل هذا العنوان :

"Vers le Maroc. Lettres du Sud Oranais . 1903-1906", Paris, 1937, p. 165.

2) كتب ليوطي في 3 اكتوبر 1906 رسالة الى جونار (Jonnart) وهو الحاكم العام للجزئر ، يخاطبه بقوله : " ان ما أطلبه...هو أن تدعوني...أواصل التسلل ، و التسرب التدريجي ، و التفكيك المتستر الذي مارسته بنجاح الى اليوم " . المصدر نفسه ، ص 300.

3) "ان اقامة منظومة الحماية .. لن تتحقق بواسطة القوة أو الفرق العسكرية ، و انما عن طريق بقعة زيت ، زحف يتم خطوة خطوة... و باستغلال المنافسات القائمة بين القبائل و كذلك بين رؤسائها ... ان هذا العمل الذي يقوم على بذر الشقاق لمن الأعمال التي يتعين القيام بها منذ الآن ". تعليمات ليوطي الى القائد بيرون (Pierron) ، نهاية نونبر 1903 . المصدر نفسه ، ص 25–26 .

4) " لا أومن الا بالضربات التي تنزل في الخفاء و داخل الأراضي التي نصل اليها في السر" . رسالة الى ا . م . دي فوكى (E. M. de Vogué) بتاريخ 13 يناير 1904 . المصدر نفسه . ص 35 .

5) " ذلك التسرب المتكتم الى المغرب الذي بدأته سرا و الذي أصبح الآن يسير قدما " . الى نفس المرسل اليه ، بتاريخ 17 يوليوز 1904. المصدر نفسه ، ص 81 .

6) الى نفس المرسل اليه . 31 ماي 1906 ، المصدر نفسه ، ص 280 .

7) " ينبغي هضم المغرب لا غزوه " . رسالة الى ماكس لكلرك (Max Leclerc)

بتاريخ 29 اكتوبر 1903 . المصدر نفسه . ص 32 .

8) Les opérations militaires au Maroc, ouvrage collectif publié par le Ministère de la Guerre, Imp. nat., Paris, 1931, p. 53.

9) تقرير ليوطي الى وزير الحربية ماجينو ، بتاريخ 13 غشت 1923 . كان ليوطي يتوفر عام 1921 على 496 مليونا بما فيها مساهمة مؤسسة الحماية . يوجد هذا التقرير ضمن المجموعة التي نشرها بيير ليوطي تحت عنوان :

Lyautey l'Africain, lettres et documents, Paris, 1953-1957, vol . IV, pp. 227-228

كانت مساهمة الحماية وقتئذ ما تزال ضئيلة ، و لم تتجاوز مداخيلها 18 مليونا عام 1912 : انظر :

Albert AYACHE: Le Maroc . Bilan d'une colonisation, Paris, 1956, p. 121.

10) " إن ما نفتقر اليه هنا اكثر من أي شئ آخر هو خيالة سان جورج " . رسالة إلى أوجين اتيين بتاريخ 17 فبراير 1904 . توجد هذه الرسالة في :

Vers le Maroc...p. 38.

كان ذلك عام 1904 ، والا فان الأمور تغيرت ابتداء من عام 1912 .

11) رسالة موجهة من رئيس مكتب ليوطي المدني ، فتان برينيون ، إلى بيير ليوطي ابن أخ المارشال ، في 25 ماي 1925 . ان هذه الرسالة تكشف عن المناورات التي كان ليوطي يلجأ اليها في عالم الصحافة و السياسة ، وقد نشرت في العصر في جريدة "Humanité" نجد نصها في :

Pierre SEMARD : "La guerre du Rif", Paris, 1925, pp. 125-128

12) علاوة على المعلومات التي يعطيها ليوطي نفسه في رسائله و تقاريره ، يوجد أدب غزير حول مناهج هذا " العمل السياسي " . يمكن أن نذكر منه على سبيل المثال :

J. Du TAILLIS : Le nouveau Maroc, Paris, 1923.

Capitaine Pierre VALLERIE: La pénétration militaire au Maroc, Paris, 1934.

13) " لقد قام مبدأ الحصار على أساس منع أي ممثل عن الأفخاذ التي تناصبنا العداء بشكل أو بآخر من القدوم الى المنطقة الخاضعة . كما كنا نعمل فضلا عن ذلك على قطع التموينات عن الجبل من حبوب و مواد أولية " . مذكرة حررها قائد مكتب الاستخبارات بورغة في 1914 تحت عنوان :

Politique suivie depuis 1912, Archives de Rabat, (sans cote).

14) حول أساليب هذه الحرب ، نقرأ بفائدة ما كتبه النقيب كوتار

(COUTARD) Au Maroc contre la montagne insoumise. Méthodes d'action politique, économique et militaire, dans "Revue d'Infanterie", décembre 1920, mars 1921, avril 1922.

لنثبت على الخصوص ما ورد في هذا المقطع : "ان القرى و القصبات التي تختزن فيها المحصولات و يأوي إليها الجبليون خلال أقسى أيام الشتاء ، و ان الأراضي الزراعية في المرتفعات و السفوح ، و قطعان الثيران و الأغنام و الماعز التي لا تنقطع حركة انتجاعها ، و الدواوير التي تقام على التوالي في السهل و الجبل ، و البساتين ، و نقاط الماء ، و الأسواق ، إن كل ذلك يأتي من بين الأهداف التي كانت عرضة للهجوم . . . إن العمل العسكري يعطي الأولية لغزو هذه الأهداف بدلا من المطاردة و الهزيمة" (مارس 1921 ، ص 33) .

هاكم من جهة أخرى مثالا يجسد كيفية الخطة : "بعد أن أصبح المتمردون من قبيلة زيان و واشكرن و ايت اسحاق محرومين من مراعيهم بالضفة اليمنى من وادي الربيع تلك المراعي التي منعتها عليهم منعا كليا مراكزنا بطاكا اشيان و واد أمسين و خنيفرة و زاوية ايت اسحاق ، فإنهم لم يجدوا ملاذا آخر من قساوة الفصل الا بقدم جبالهم في متناول مدافعنا . و في الرقعة الضيقة التي كان بامكانهم أن يتحركوا فيها ، لم تكن قطعانهم التي ضيق عليها الخناق تجد الغذاء الكافي. علاوة على ذلك ، فإنها كانت تتعرض لغارات أتباعناالساندين بوحداتنا المتنقلة والغارات الجوية التي كانت تشكل امتدادا فعالا لعمل مراكزنا. في عملية واحدة بتاريخ 13 دجنبر ، خسرت امزيناتن أكثر من 3000 رأس من البهائم : كشف النقاب عن هذا المثال في "التقرير الشهري للحماية" ، بتاريخ دجنبر 1920 .

قبل أن نطوي الصفحة عن هذه العجالة من الأمثلة ، اليكم نص برقية 1530 الموجهة من الكولونيل كولومبا (Colombat) الى رؤسائه بالمراكز : "المرجو أن تخبروا هل استدعيتم الى إعطاء قادتكم بالمراكز تعليمات مخالفة للتي تسمح بها الفقرة الثالثة من برقيتي 1468 بتاريخ 22 نوفمبر فيما يتعلق برشق الحراثين المتمردين بالرشاشات و المدافع و الذين يبذرون في دائرة عمل المراكز. سيكون بالامكان بعد بضعة أسابيع تعليم جميع الأراضي المبذورة. كما سيكون بالامكان اذا ذاك أن تقدموا بياناتكم عن الكيفية التي جرى بها تنفيذ و على كل الجبهة المبذورة التعليمات الواردة في برقيتي 1468 بتاريخ 22 نوفمبر ، وبرقيتي 1481 بتاريخ 25 نوفمبر". في عام 1925 كشفت جريدة "l'Humanité " للجمهور الفرنسي عن نص هذه البرقية .

15) نقدم فيما يلي ، على سبيل المثال ، الشروط المفروضة على قبيلة مصباح الصنهاجية بعد خضوعها بتاريخ 23 دجنبر 1925 :

1) "ذبح ثور عن كل عشر عائلات .

2) التعهد بتزويدنا بالعمال لتعبيد الطرق و المسالك. و سيكون هؤلاء العمال مأجورين.

3) ترميم مجاني للطرق التي خربتها (القبيلة) .

4) تسليم 35 من الرهائن الذين سيتكلفون بأمن وحداتنا في تراب صنهاجة .

5) اداء بندقية و 300 ف لكل عائلة في ظرف ثمانية أيام ، و الأداء الفوري لـ 12000 ف.

6) التعهد بتزويدنا بالأتباع من أجل العمليات اللاحقة " .

وردت هذه الشروط في :

Bulletin du Comité de l'Afrique française, "janvier 1926, pp. 52-53.

16) انظر دراسة العقيد طاريت (TARRIT) حول "توظيف الأتباع في :

Revue de Cavalerie, t. III, mars-avril, 1923.

مما جاء في هذه الدراسة : "أن الهجوم بغتة على الدواوير غير الخاضعة" و "الاغارة على قطعانها" هو أفضل ما يطيب للأتباع". "اذ أنهم يطمعون في الحصول على الغنائم التي ستكون النتيجة الحقيقية. فأن يعودوا الى الدوار بالثيران و الضأن و الماعز ،

و من يدري بالممتلكات المنهوبة حتى داخل خيام غير الخاضعين . . . ان ذلك ما سيكون وليمة خلال أيام متعددة" (ص 203) .

17) مذكرة مخطوطة مؤرخة في 18 دجنبر 1924 For. Off. 371/10584 - 408

18) المجموعات الرئيسية هي بنك باريس والأراضي المنخفضة وشركة شنيدر وشركاؤه ، والاتحاد الباريزي. إلا أن اللائحة طويلة جدا. انظر :

Albert AYACHE : op. cit. chap. V., et passim.

19) حول رجال هذا الحزب الاستعماري ، انظر :

Henri BRUNSCHWIG : Mythes et réalités de l'impérialisme colonial français , 1871 - 1914 , Paris 1960 .

20) LYAUTEY : Vers le Maroc..., pp. 1 et 2 n. 3.

21) المصدر نفسه ، ص9. رسالة إلى اتيين بتاريخ 1903.

22) المصدر نفسه ، ص 347 . رسالة إلى دي فوكي بتاريخ 28 دجنبر 1906.

23) "إنني مدعم تدعيما كاملا من طرف رئيساي جونار واتيين وتومسون". رسالة ليوطي إلى ج. سيلهول (J. Silhol) بتاريخ 27 نونبر 1904. المصدر نفسه ، ص 269.

24) "إن جونار لعظيم ، وهو يعطيني حق التغطية" . رسالة إلى دي فوكي (E.M. deVogüé) بتاريخ 16 فبراير 1904 ، المصدر نفسه ، ص 37 .

25) "إن صداقة اتيين لتحصنني". رسالة إلى ماكس لكلرك بتاريخ 6 ماي 1906 ، المصدر نفسه ، ص 269.

26) الهامش 23 .

27) بمجرد ما تسلم قيادته ، كتب إلى أخته قائلا : "لقد قررت أمام دهشة ضباطي إنجاز خطتي دون انتظار الإذن" (11 نونبر 1903 ، المصدر نفسه ص 11). فيما بعد بثلاثة أيام ، كتب إلى كاليني قائلا : "على الرغم من العداء الظاهر لكبار الرؤساء العسكريين ... فإنني اتخذت موقفي ووجهت إنذاراتي ... طالبا (من حكومة جونار) :

1) قيادة قواتي العسكرية.

2) الاستقلال الذاتي لشعبتي.

3) التراسل مباشرة معها.

4) تفويضا بالقروض

5) حق تحريك جموعي دون انتظار الإذن.

(المصدر نفسه ، ص 13) .

28) في بداية يوليوز 1902 ، احتل ليوطي رأس العين داخل التراب المغربي. وفي 30 يوليوز ، قرر مجلس الوزراء الانسحاب من رأس العين. إلا أن ليوطي رفض الامتثال. وبناء على ذلك ، وافقت الحكومة في الأخير على بقائه هنالك بصفة مؤقتة. إلا أن ليوطي علق على ذلك بلهجة تهكمية وهو يكتب إلى اتيين. "بتلك الكيفية المؤقتة التي ستدوم أطول منا". (رسالة 31 يوليوز 1904 ، المصدر نفسه ، ص 83) .

29) "أشعار المقاومة البربرية" ، جمعها :

J. ROBICHEZ in "Les temps modernes", décembre, 1946 pp. 973-87

30) رسالة إلى اتيين بتاريخ 6 غشت 1904 ، المصدر نفسه ، ص 87 .

31) رسالة إلى جونار بتاريخ 2 مارس 1906 ، المصدر نفسه ، ص 252 و 254.

32) رسالة إلى أخته بتاريخ 14 يونيه 1905 ، المصدر نفسه ، ص 198.

33) في 2 مارس 1906 ، كتب ليوطي إلى اتيين بأنه لا يتصور سياسة ترتكز على السلطان (اللهم إلا بالإمساك بجميع خيوطه".

هذا الشرط الضروري سيتحقق كلية. المصدر نفسه ص 255.).

34) لا نرى مندوحة عن أن نستشهد بخاتمة خطته كما عرضها على الرئيس بوان كاري : "وها هي ذي وقتئذ الحزمة المتكونة : لتركيا ستدخل في لعبتنا وعن طريقها أقاليم روسيا الجنوبية ومعها البلقان والوفاق المصغر ، وعن طريق أقاليم ألمانيا الجنوبية والرينية سترتبط بنا مجموعة من القوى حول الحوض المتوسطي. ان هذا لجدير بالمراهنة عليه : رسالة فاتح مارس 1922 ، أوردها :

P. LYAUTEY : Lyautey l'Africain ..., t. IV, p. 120.

مشاكل اسبانيا

ماذا ستفعل إذن اسبانيا في مغامرتها الشاقة بالمغرب؟ صحيح أنها كانت ما تزال تحتفظ فيه ببعض المراكز الساحلية على ضفاف البحر الأبيض المتوسط : سبتة على المضيق غربا ، ومليلية شرقا على الطرف الآخر من الهلال الذي تشكله سلسلة جبال الريف ، بالإضافة إلى جُزيرتين من حيث سلّطت المدافع على السواحل القريبة ، إحداهما في خليج الحسيمة ، والأخرى في جون بادس. بيد أن الوجود الذي حافظت عليه بشق الأنفس في هذه الحصون ، التي أصبحت مجرد معسكرات يقيم بها الجنود وعدد من الرهبان ، كان قد عفى عليه الزمان. ولئن ظل يسد على المغاربة منافذ البحر الأبيض المتوسط ، فإنه نهض دليلا أيضا على الفشل المزدوج للبرتغاليين والإسبان في مشروع غزوهما التقليدي [1] .

من الحق أن اسبانيا كانت تتوفر في بداية هذا القرن على وسائل حديثة جدا ، بينما بقي المغرب كبلد قروسطي. لكن هل كانت هذه الوسائل تستند إلى اقتصاد قوي بما يكفي ليجعل من الضروري نهج سياسة توسعية؟ إن التقدم الصناعي لإقليم الباسك أو قطالونيا لم يكن يحجب الطابع الفلاحي والمتأخر لمجموع البلاد. كانت الملكية الكبيرة الخاصة ، والأساليب الزراعية العتيقة ، ومستوى الأجور المتدني ، تمارس تأثيرا له وزنه على استهلاك الجماهير وتكبح بالتالي تقدم الصناعة التي استأثرت المصالح الأجنبية ، فضلا عن ذلك ، بنصيب كبير منها. كما لم يكن يوجد لا فائض للتصدير بتسعيرات منافسة ، ولا فوائض للاستثمار خارج البلاد [2] . في المغرب على الخصوص ، نجد التجارة الإسبانية تأتي جد متأخرة عن تجارة الأنجليز والفرنسيين . ثمة حقيقة أكثر دلالة كذلك ، وهي أن هذه التجارة كانت تعاني إلى حد كبير من النقص ، حيث كانت قيمة مصدرات المغرب إلى إسبانيا تفوق مستورداته منها بحوالي ثماني مرات [3] . أي بالوجه المعكوس للعلاقات الكفيلة بأن تؤدي إلى هيمنة استعمارية. أضف إلى هذا أن اسبانيا ظهرت بعد فقدان الفلبين وكوبا عاجزة عن المحافظة حتى على بقايا امبراطوريتها ، فبالأحرى أن تنصرف إلى الغزوات . وبالتالي فقد كان أورطكا أي كاسيط (Ortéga y Gasset) على حق عندما كتب يقول ، وهو يرى بلاده تقحم نفسها في القضية المغربية ، بأن ذلك "خطأ تاريخي" ، إذ كيف يمكن "محاولة التوسع دون التوفر على قوة توسعية" [4]

ينبغي مع ذلك أن نأخذ بعين الاعتبار أنه لم يكن بالأمر الهين التنصل من الماضي. فهزيمة كوبا كانت قد رمت اسبانيا بين براثين الأزمة . ففقدت الملكية نفوذها شأنها شأن الحزبين المحافظ والليبيرالي اللذين كانت تعمل على إبقائهما في الحكم بالتناوب. وتضرر الاقتصاد من جراء التوقف المفاجئ للطلبات التي تفي بحاجيات الحرب. وأدى تنامي قوة البروليتاريا منذ ذلك الحين إلى اضطراب اجتماعي وسياسي خطر. في قطالونيا الصناعية ، التي لم تكن تحتمل هيمنة قشتالة الفلاحية ، كان الشعب بدون تمييز طبقي يرغب في الاستقلال الذاتي. كذلك الحال تقريبا في بلاد الباسك. إزاء هذه المخاطر المتعددة ، لم يكن النظام المهدد والملك في المقام الأول يريان سبيلا إلى الخلاص إلا في الجيش. غير أن الأزمة كانت ضاربة أطنابها في هذا الجيش بشكل خاص. فبعد أن اكتسى بعار الهزيمة ، احتشد ثانية في شبه الجزيرة محاولا هناك تضميد جراحه وقد زال كل مبرر لبقائه. وبعيدا أن يقوم ضباط بدون جنود وأطر تتقاضى نصف رواتبها بمساعدة النظام ، فإنهم كانوا بالعكس يجازفون بالانقلاب ضده (5) . من هنا الضرورة المحتمة لفتح ميدان عمل جديد أمامهم مع ما ينطوي عليه ذلك من آفاق الحصول على الثأر والتعويض والترقية. والحال أن المغرب القريب كان يبدو يومها مقضيا عليه بالغزو ، وكان يهيج المشاعر الوطنية والدينية داخل اسبانيا حيث كانت ذكريات الحرب على الكفار ما تزال قابعة في الأذهان. ذلك إذن هو البلد الذي رأت فيه اسبانيا إمكانية استعادة عز الجيش التليد وإعادة وحدة الصف داخل الوطن في نفس الوقت .

بيد أن العصر لم يعد عصر سسنروس (Cisneros) وإزابيل. إذ أن الميدان لم يكن خاليا لها كما في الماضي. كان الأنجليز والفرنسيون والألمان يتصارعون فيه من أجل النفوذ. واسبانيا التي لم يكن بمقدورها أن تباريهم ، لم تدخل في الاعتبار لنيل نصيبها منه إلا بفضل المنافسة الأنجليزية. فقد كانت انجلترة لا تقبل بوجه خاص أن تحتل فرنسا الضفة الجنوبية المواجهة لجبل طارق. لهذا اشترطت ، عندما اتفقت معها سنة 1904 على إطلاق حرية العمل لها في المغرب ، أن يؤول شمال البلاد إلى اسبانيا (6). كان على اسبانيا أن تقوم مقام دولة حاجزة بين القوتين. هذا مكسب لها بالطبع ، إلا أنه لم يكن مشرفا ولا خاليا من المجازفات. فبعد أن اقتصر دورها على مجرد دولة حاجزة ، ولمساعدة الأنجليز قبل كل شيء على الاحتفاظ في عقر دارها بقاعدتهم بجبل طارق ، وجدت نفسها أيضا أسيرة فضلهم ، وعليها بالتالي أن تبقى في هذا الوضع الفارق حتى لو اقتضت عليها مصلحتها ذات يوم بالتراجع إلى الوراء.

ما هو الثمن الذي نالته مقابل هذه التبعية؟ في الحقيقة أن فرنسا التي استأثرت بحصة الأسد ، لم تترك لأسبانيا سوى نصيب ضئيل : شريط ساحلي يزيد طوله قليلا عن مائة كيلومتر ، وعرضه 60 ، يمتد في الجهة الغربية من المحيط إلى المضيق ، وفي الجهة الشرقية حتى ملوية على مقربة من الجزائر ، مغطيا في مجموعه ما يزيد قليلا على 20 000 كم 2 ، أي حوالي 25./. من مساحة المغرب الحالي [7] . هذه الرقعة الصغيرة التي تشغلها كلها تقريبا الكتلة الريفية ، تتكون في ثلثيها من أراض جبلية بالحة [8] . أما الأراضي المنزرعة والخصبة فتقتصر على سلسلة الأكمات المروية جيدا في السفح الجنوبي ، وعلى الشريط الضيق الممتد في الساحل الأطلنتكي ، وبعض السهول الضيقة في السفح المشرف على البحر الأبيض المتوسط. صحيح أن ثمة في شرق السلسلة سهولا أكثر اتساعا نسبيا ، إلا أنها أحواض ينكبها الجفاف بمعدل سنة في كل سنتين. ولئن كانت هناك في الأخير آمال كبيرة معلقة على ما قد تختزنه الأرض من ثروات معدنية [9] ، فإن ذلك لم يكن سوى تكهنات سرعان ما تبين أنها مجرد أوهام. الأمر إذن لا يتعلق سوى بمنطقة قادرة لا غير على توفير غذاء القلة لساكنة أصبحت يومها جد كثيفة ، يقدر عددها ب 60 000 نسمة ، تعيش أساسا على منتوج الأرض [10]. هذا ولم تكن توجد في المنطقة سوى ست مدن ، لكي لا نقول جشرات ، متجمعة كلها في الناحية الغربية لا غير ، مع العلم أن طنجة ، الأكثر أهمية والأحسن موقعا ، شكلت مع نواحيها منطقة حبيسة لا تخضع للمنطقة الإسبانية [11] . أمام مثل هذا الواقع ، كيف نأخذ مأخذ الجد وزير الدولة بريطو (Prieto) الذي رأى أن الهدية المقدمة لاسبانيا عملت دفعة واحدة على تلبية كل أماني شعبه ؟ لقد أوضح قائلا : "انها تقدم لامبرياليينا مجالا كافيا لامتصاص طاقاتهم الفائضة منذ عدة سنوات ، في نفس الوقت الذي تعطي الآخرين ، أنصار الانسحاب ، وسيلة لقياس المهمة بالإمكانات التي تقدمها المتروبول ومتطلبات النهضة الإسبانية" [12]. قصارى القول إنه بفضل هذه القطعة من المغرب ستتطابق وتتحقق معا مشاريع الدون كيشوت و سانشو بنصا (Don Quichotte et Sancho Pança). وهذا ما يعني التعامي عن الوضع الإسباني الذي لم نذكر لحد الآن سوى مساوئه الأولى.

منذ أن تعاقدت اسبانيا مع فرنسا ، في نوفمبر 1912 ، لنيل نصيبها من المغرب ، فإنها وضعت نفسها في موقف لا تحسد عليه. كانت فرنسا يومها قد نالت مسبقا ، ومن السلطان نفسه ، امتياز الدولة الحامية بالنسبة لمجموع التراب المغربي. بهذا الامتياز تمكنت ، عوض السلطان ، من أن تسند لاسبانيا إدارة قطعة أرض حرصت

على تسميتها ب"منطقة نفوذ" ، لا بمنطقة "حماية" ثانية. بقبول مثل هذه المهمة ، ومن يد فرنسا ، تكون اسبانيا قد اعترفت طوعا أو كرها بالامتياز الذي نالته شريكتها ، وتقهقرت هي نفسها إلى دور من الدرجة الثانية. أو لنقل ، باستعارة الصورة المستهجنة التي كانت تستعملها الصحف وقتذاك ، إنها دخلت الدار لكن بوصفها مستأجرة لفرنسا.

ليس هذا كل ما في الأمر. فبمقتضى نص المعاهدة "كانت مطالبة بأن تحافظ على الأمن في منطقة نفوذها ... وتقدم المساعدة للحكومة المغربية لتحقيق جميع الإصلاحات ... التي هي في حاجة إليها" (13) . يتعلق الأمر هنا بعبارات مطمئنة من حيث إنها تردد الصيغ التي "تعهدت" بموجبها فرنسا هي الأخرى إزاء السلطان . لكن أي وجه للمقارنة بين فرنسا التي فرضت "حمايتها" على السلطان الذي ألقى مقاليد أموره بيدها ، وبين هذه الدولة الإسبانية الضعيفة التي التزمت إزاء دولة مغربية صارت صنيعة للفرنسيين؟ بماذا يتعلق الأمر بالنسبة للدولة الثانية ، هل بامتياز. أم بالأحرى بخضوع؟ فلكي تشرف تعهداتها ، ألن تقع تحت ضغط شريكها الفرنسي القوي ، الذي تسلمت منه مأموريتها ، لتكون له منفذا متطوعا ولين العريكة ؟

ولقد أدركت الخطر ، ومن أجل تفاديه ، نالت امتياز إقامة خليفة بمنطقتها ، هو بمثابة نائب ملك على قدر رقعة نفوذها الضيقة ، يتولى السلطان مهمة تقليده ، إلا أن اختياره يتم على يدها (14) . ذلك إذن هو الرجل الذي أصبحت تتجسد ، وفي شخصه لا غير ، هذه الدولة المغربية التي كانت على اسبانيا أن تمدها بالمساعدة. وهو ما من شأنه أن يمكنها ، بعزل قضيتها عن قضية الفرنسيين ، من التصرف وفق مصالحها الخاصة .

من هذه الزاوية على الأقل ، كانت الوسيلة مجدية . لكن أي سمعة بالنسبة للمغاربة ستكون لمثل هذه الصنيعة ، أو قل الملك-البديل ، الذي لم يكن لينظر اليه بعين الرضا لا السلطان الشرعي و لا المغاربة الذين فرض عليهم كعلامة مزدوجة على الخضوع الأجنبي و تمزيق شمل الأمة ؟ بل ان الخضوع للفرنسيين كان يبدو أهون نظرا لتواجد السلطان في صفهم ، بحيث كان بالامكان التسليم به عند الضرورة . أما الخضوع للاسبان فهو يعني أيضا الانفصال عن الأمة . و هذا ما لم يكن محتملا بتاتا . و فوق ذلك ، كانت فرنسا نفسها تبدو ملاذا واقيا منه .

ذلك اذن ، و منذ البداية ، هو مأزق اسبانيا : فاما أن تفوض الأمر لتقدير الفرنسيين ، و هو ما لم يكن مستساغا على الاطلاق ، و إما أن تصطدم بالرفض القاطع للمنطقة التي يتعين اخضاعها .

الحقيقة أن الاسبان لم يدركوا مطلقا المسألة على وجهها الحقيقي إذ لم يكونوا في هذا الجانب هو الآخر يومنون بقوة ، و حتى بوجود شعور و طني لدى المغاربة . لم يكونوا يقدرون الاختلاف الكبير الموجود بين المنطقتين ، المنطقة الفرنسية حيث كانت هذه الوطنية تمر يومها بمرحلة ارتباك و فتور من جراء الاتفاقية التي وقعها السلطان مع المحتلين ، و المنطقة الاسبانية حيث كان الأثر المزدوج الذي أحدثه احتجاب السلطان و تجزئة البلاد يعمل بالعكس على اذكائها . و بالتالي فقد توهمت أنها ستحصل على ما حصلت عليه فرنسا في الجنوب بممارسة نفس المناهج في الشمال .

و من وهم زكته على أي حال الانتصارات الأولى ، و لو أنها باهتة و غير ثابتة ، و التي تحققت بوسائل شبيهة بشكل غريب بتلك التي استعملها الفرنسيون . هل سبق للاسبان أن اقتدوا بليوطي وقد كان بإمكانهم مشاهدته منهمكا في نشاطه على مقربة منهم بالجزائر ، أم أنهم وجدوا من تلقاء أنفسهم حلولا لما كان ما يزال مشكلا واحدا؟ . في الحقيقة أنهم عرفوا هم أيضا منذ 1908 ، وبالتالي قبل الحماية ، الانتشار عن طريق "بقعة زيت" ، وعن طريق "تسرب بطيء" ، وعملية "تفكيك خفي" ، وذلك انطلاقا من قاعدتهم بمليلية ، وهذا على الرغم مما تكبدوه من هزائم فادحة سنعود إليها فيما بعد. وكما استحدث الفرنسيون لهذه الغاية " مصلحة الشؤون الأهلية " ، فإنهم استحدثوا في عين المكان "مكاتب الشؤون الأهلية" (15) التي مارست داخل القبائل الرشوة والتضليل والتجسس. وعلى غرار الفرنسيين ، فإنهم استقطبوا في عين المكان ما يضاهي فريق "الاتباع" الذين جندوهم في "الحركات" ، وما يضاهي أيضا فريق "الكوم" و"المخازنية" الذين شكلوا "شرطتهم" (policía) ، وما يضاهي أخيرا "الرماة" الذين استخدموهم في كتائبهم النظامية (regulares). وكما فعل ليوطي ، فإنهم وضعوا في الخطوط الأمامية ، وبقدر المستطاع ، قوة قليلة العدد ليحتفظوا في المؤخرة باحتياطاتهم المتنقلة. وكما سيستخدم ليوطي "كبار القواد" لشق الطريق في الجنوب ، فإنهم عرفوا ، و من الممكن قبله ، كسب دعم الريسوني ، الباشا و قائد الشمال الكبير ، الذي مكنهم من النزول بدون عناء بميناء العرائش ، ثم من الدخول الى أصيلة ، و الذي سيقدم لهم خدمات كبيرة حتى النهاية رغم مواقفه المتقلبة ازاءهم .

فيما بعد و منذ أن تأكد في الجنوب النجاح الفرنسي ، لم يبق شك في أن مثال ليوطي هو الذي أصبح يلازم تفكير الاسبان في الشمال . اليكم كيف كان الجنرال كوميث يتخيل مهمته خلال سنوات 1912-1915 ، عندما كان يحكم بمليلية . يقول :

" أن خطتي تقوم على عدم تعميق الهوة بين المغاربة و بيننا ، و عدم المجازفة بمشاريع حربية دون أن أكون متيقنا من أننا سنحرز على النصر بدون خسائر ، نصر يتم التمهيد له بواسطة النشاط السياسي الذي لا مفر منه . انني لداع مقتنع بهذه الفكرة ، و أنا على يقين من أننا بالتمسك بها و بربط الاهالي بهذه الروابط المادية و الخلقية الناجمة عن حسن المعاملة ، و بهذه العلاقات التي لا مفر من قيامها بين الجيران...سنتمكن من احتلال كل منطقة نفوذنا دون أن يكلف ذلك وطننا تضحيات كبيرة، و من الممكن حتى بدون الجهر بلفظة الحرب " (16) .

عندما عين فيها بعد مندوبا ساميا لا سبانية و رئيسا عاما ، فانه ظل مخلصا الى آخر أيامه لهذه الخطة " التي كان الفرنسيون ينهجونها في منطقتهم ". في 1918 ، قبيل وفاته ، كتب يقول و هو مايزال يزاول مهامه : " بئس الحرب ...التي تزرع الأرض بالحقد و الكراهية ناسفة قنوات التواصل بين الحماة و المحميين . يتوجب علينا الاكتفاء بالعمليات ... اللازمة لشق الطريق أمام الرقي و الحضارة عندما لا يكون هناك سبيل غير ذلك . لأجل هذا يلزم أولا العمل السياسي المكثف الذي يكون بمثابة المخدر. و القيام بعد ذلك بالعملية الجراحية التي يجب أن تقتصر على الحد الأدنى الضروري . ثم تضميد الجرح بفتح المدارس و المستوصفات...الخ " (17) .

أما الجنرال برنكر الذي خلفه في وظيفته أزيد من أربع سنوات ، فقد كان أكثر منه وضوحا . اليكم ما أفصح عنه ساعة تسلمه مهامه :

" أقول لكم منذ الآن إنني أعتبرها بالغة الصواب تلك الخطة التي يطبقها ليوطي الذي يزحف رويدا رويدا ، غازيا بحذر لكن بحزم الاراضي التي تتكفل فرنسا بفتحها أمام الحضارة " .

بعد أن أضاف بأنه سيحاول هو نفسه ألا يستخدم الا فرقا أهلية دون استقدام و لو جندي واحد من المتروبول ، و بأنه سيسند كذلك كل الادارة للأهالي تحت مجرد رقابة عمال اسبان ، بعد ذلك وجه هذه الكلمات التي رنت و كأنها تحدٍّ :

" من قال إنه يوجد بافريقيا الشمالية ... مشكل عسكري ؟ لقد قلت آنفا ان مشكل افريقيا ليس عسكريا " (18) .

كان علينا أن نورد– على طولها – أقوال هذين الرئيسين اللذين مثلا ، و لنذكر بذلك ، اسبانيا خلال الاحدى عشرة سنة الأولى من حمايتها ، لنبين ، على عكس الرأي الشائع ، تجانس وجهات النظر التي كانت توجههما مع وجهات النظر التي طبقتها

فرنسا في منطقتها. لنضف أنهما معا لم يكتفيا بالتعبير عن مقاصدهما ، بل أدخلاها في حيز التنفيذ ، و كان لهما في ذلك باع طويل . لكن حدث فجأة أن خانتهما موهبتهما و انقلب الوضع الذي كانا يحكمان السيطرة عليه بشكل غير مفهوم . لم يبق عند ئذ طوعا أو كرها سوى اللجوء الى الأسلحة على الرغم من المبادىء السامية .

لو أن المشكلة اذن لم تخص سوى الاسبان أنفسهم ، لما اتخذت بالفعل صبغة عسكرية ، أو لا تخذتها فقط بمقدار ما تمت به في الجنوب بالنسبة للفرنسيين ، مقتصرة على مجرد عمليات جراحية تحضر بعناية و تنفذ بسرعة وفق ما تخيله خوردانة . لكن اتفق أن المريضين مختلفان . فما كان أحدهما يحتمله ، كان الآخر يقاومه في النهاية . لذا ، و بالرغم من كلمات برنكر المتبجحة ، فان الغزو لم يكن ليتم بالمشرط و المبضع . انه لن يتم الا بحد السيف .

غير أنه سيكون مشكلا عويصا . فبقدر ما كانت الظروف الجغرافية مناسبة أمام الفرنسيين من أولها الى آخرها ، بقدر ماكانت معاكسة أمام الاسبان . الأولون تمكنوا من النزول في سهول فسيحة جدا ، و انتشروا فيها كما يطيب لهم قبل أن يصلوا الى قدم الجبال في المنطقة الهامشية . ثم تسنى لهم كل الوقت الكافي للشروع في غزو الجبال باختيار الوقت و المكان ، متوفرين في كل عملية على مجموع قواهم ، مع احتمال اللجوء الى مناورات جانبية و حتى من الخلف انطلاقا من الجزائر . أما الاسبان فكانوا بالعكس يواجهون الصعاب أينما حلوا و ارتحلوا . فسلسلة جبال الريف التي تدخل بالذات في اطار حدود منطقتهم و تلفها كلها تقريبا ، تبدأ في الشرق انطلاقا من الشاطىء نفسه ، على شكل مرتفعات منعزلة ، ثم تمتد قطعة واحدة نحو الغرب في كتلة ملتحمة و ارتفاع متزايد ، قبل أن ينحدر ارتفاعها لتنتهي شمالا على المضيق ، حيث تنتصب آخر سلاسلها على ازيد من 800 م . و بحكم الامتداد على 300 كلم ، و قلة وجود الفجاج التي يمكن اختراقها ، ترى القمم تقسم سفوح الشمال و الجنوب الى منطقتين مختلفتين عن بعضها . فالسفح الشمالي، و هوأشد وعورة ، يشرف على الساحل بجرف متصل تتخلله حقا في نقاط متباعدة سهول ضيقة متكونة من منافذ سيول قصيرة . الا أن هذه الاودية السحيقة لا تعدو أن تكون ردوبا لا تفضي الى أية جهة . فلم يكن بالامكان أن يغامر أي مهاجم انطلاقا منها . و بالنسبة للسفح الآخر الواقع في الجنوب ، و هو وعر بدوره ، ويضم أشكالا تضاريسية متماثلة ، فقد كان مدخله عموما لا يشكل خطرا كبيرا . الا أن ولوج هذا المدخل لم يكن ميسرا الا انطلاقا من المنطقة الآيلة للفرنسيين ، و هذا يعني أن الطريق من هذه الجهة كان أيضا مقطوعا

على الاسبان . أما الجزء الأخير المتجه غربا في نواحي المحيط ، فهوالذي كان محفوفا وحده، على امتداد مائة كلم ، بشريط ضيق من السهول الساحلية .

من هذه الجهة على الأقل ، كان بامكان الاسبان تثبيت أقدامهم . و هو ما قاموا به على كل حال اقتداء بالفرنسيين و قبل أن تتهيأ الأجواء للتوقيع على الحماية . في يونيو 1911 ، نزلوا بحرا بمرفأ العرائش ، ثم احتلوا القصر الكبير و أصيلة ، و هما المركزان الوحيدان الآخران في المنطقة . و منذ ذلك الحين أصبحوا متواجدين بالقرب من مكان العمل على الساحل الأطلنتكي غربا ، و في مواجهة الجبل . هذا ما كان عليه الأمر كذلك لكن في السفح الآخر حيث كانت سبتة في الشمال الغربي و مليلية في الشرق تشكلان سلفا بالنسبة اليهم رأس جسر على البحر الأبيض المتوسط في ثنايا القوس الذي يرسمه الريف هنالك . بيد أن هذا هو كل ماكان يتوفر عليه الاسبان من أجل مباشرة الغزو . أي حصيلة قليلة و ذات أهمية لا تذكر .

لنلاحظ بدءا أن هذه القواعد الثلاث ، و كل منها في قمة رباعي أضلاع ممتد ، كانت ترغمهم من أجل ابقاء ثلاثة فيالق احتلال على تجزئة قواتهم في نفس الوقت الذي تزيد ثلاثة أضعاف من أعبائهم و حاجيات تأطيرهم . زيادة على ذلك ، فان حكامها المحليين الذين تفصلهم مسافات بعيدة أو قمم لا يمكن اختراقها ، لم يكن بامكانهم بتاتا ، في مناسبات جد مختلفة ، ألا يديروا حركتهم في اتجاهات متعارضة أحيانا ، و هذا على الرغم من خضوعهم للرئيس العام. من جهة أخرى كانت سبتة ومليلية قابعتين بين الجبل والبحر مما جعل من الصعب جدا القيام بالخطوات الأولى نحو الداخل. ولئن تم القيام بهذه الخطوات الأولى في مليلية ، ليجد الإسبان أنفسهم مؤقتا في السهل ، فذلك في أرض عديمة الزرع والماء ، من الأفضل أن تكون أمام جيشهم لا من ورائه. أما بالنسبة للعرائش وأصيلة على الأطلنتكي ، فقد كانت الأراضي الزراعية منعدمة بهما أيضا . وبما أنهما كانتا منعزلتين في آن واحد عن طنجة في الشمال وعن المنطقة الفرنسية في الجنوب ، فقد كانتا تعيشان على حياة الكفاف ولا تسدان أود المحتل من أجل حاجياته الحربية .

زد على ذلك أنه كان يتعين أن يتم الزحف انطلاقا من هذه القواعد تبعا لخط العرض. بناء على ذلك ، فإن محوره لن يلبث أن يتكسر تدريجيا ، وفي كلا السفحين ، في أودية جد متعمقة وفي الدعائم الجبلية التي يقطعها تبعا لخطوط الطول.

ليس هذا كل ما في الأمر. فعلى الرغم من أن جبال الريف وعرة بما يكفي لخلق

حواجز كبيرة أمام جيش زاحف ، وتتميز بمناخ قاس محرق في النهار وشديد البرودة في الليل لخلق كثير من المتاعب أمامه ، فإنها تختلف مع ذلك عن جبال الأطلس ، فهي أقل منها عرضة للثلوج مما يجعلها تتلاءم مع حياة الاستقرار. لذا ، وفيما كان بإمكان الفرنسيين رصد القبائل في قدم جبالها التي يطردها منها فصل الشتاء ، كان الإسبان يضطرون بالعكس إلى شد رحالهم بحثا عن عدوهم في المرتفعات أو السفوح ، في بطون الأودية وفي أية جهة يتحصن بها مهما كان الفصل .

أخيرا فقد سبق أن رأينا كيف أن الفرنسيين كانوا يتوفرون في الحصار على سلاح فتاك. والحال أن الإسبان لم يكن بإمكانهم اللجوء إليه فحسب ، بل كان السلاح يستغل ضدهم . ذلك أن القبائل التي يحاربونها ، كانت تتمون باستمرار من المنطقة الفرنسية في الجنوب. هذا في الوقت الذي كانت فيه القواعد الإسبانية تشتري القوت من القبائل.

تلك هي المعطيات الطبيعية للمشكل العسكري الذي سيصطدم به الإسبان بالرغم منهم . على أنه بالإضافة إلى هذه المعطيات الطبيعية ، هناك معطيات أخرى لم تكن مواتية أيضا . بعضها يتمثل في الطبيعة الخاصة المتعلقة بالخصم الذي واجهه الإسبان في هذه المناطق. وسنعود بعيدا إلى الحديث عنها . والبعض الآخر يكمن في حالة الغزاة أنفسهم. وينبغي أن نخصها ببضع كلمات .

* * *

لن نتوقف طويلا عند الانتقادات التي انهالوا بها على الجندي الإسباني وقادته. فنحن نعرف بالتجربة أنه يمكن دائما تفسير انهيار جيش ، مهما بلغت هيبته ، بما لا يعد ويحصى من الأمثلة الدالة بعد انقضاء الأمر على عدم الكفاءة والجبن والفساد. ذلك ما تلذذ الفرنسيون – منافسو الإسبان – بترديده غداة كارثة أنوال ، وما ردده الإسبان أنفسهم بعد فترة مؤلمة من الذهول ، عندما تعين عليهم إماطة اللثام عن المسؤولين عن هذه الكارثة. لكن علينا حينئذ أن نفسر لماذا تمكن نفس الجنود مع قادتهم من تحقيق الانتصارات حتى ذلك الحين ، رغم الشوائب المتعذر إصلاحها التي ينتبه لها والتي لا ينقطع مفعولها ، ثم لماذا تمكنوا بعد أن استردوا رباطة الجأش من تحقيق بعض الانتصارات الأخرى. لو أمعنا النظر ، فإن هذا النوع من التعليل يقتصر على مجرد إثبات الهزيمة دون إبراز مكامن الضعف حيث لا تحدث القطيعة إلا إذا تداخلت من الخارج قوة غير منتظرة لتكريسها. لا شيء يسمح بالقول ان القوات الإسبانية لم تكن

لتبلو البلاء الحسن في حرب أخرى ، خاصة بصدد حرب وطنية. إلا أنها كانت تواجه في المغرب غزوا استعماريا. فهل كانت مستعدة للمغامرة بالرغم من كل ماضيها البعيد ؟ إنه السؤال الذي يتعين طرحه .

سبق أن رأينا كيف تمتع ليوطي دائما في ميدان عمله بحرية التصرف إزاء السلطة والمؤسسات العسكرية. بيد أننا سنرى على وجه أحسن فيما بعد كيف كان يتصور ويقود سياسته ويضع مخططاته مع مساعديه وحدهم ، دون أن يخبر باريس إلا بعد إدخالها في حيز التنفيذ ولم يعد بالإمكان إيقافه . كيف كان كذلك يختار بنفسه مساعديه العسكريين و المدنيين الذين تودد اليهم بفضل الترقيات السريعة ليجعل منهم فريقا متجانسا ، مخلصا ، كله رهن اشارته . كيف كان في الأخير يعمل على اظهار انتصاراته حريصا كل الحرص بالعكس على اخفاء هزائمه . قلنا ان هذا كان ممكنا لوجود حزب استعماري في فرنسا " يحميه و يدعمه كل الدعم و يمسك على "الجبهة البارزية " بقطاعات حساسة في الوزارات و البرلمان و الرأى العام . كان ذلك ممكنا أيضا لأن فرنسا كانت تتوفر على جيشها الاستعماري ، جيش شمال افريقيا و السينغال و المرتزقة الأجانب ، ذلك الجيش الذي يغني عن الزج بالعناصر الوطنية .

فمن هذا المنظور المزدوج ، كيف كانت الحالة في اسبانية ؟ صحيح أنه كانت توجد بها منذ نهاية القرن الماضي عصبة افريقية تقوم بحملاتها بغية دفع اسبانية الى نهج سياسة نشيطة في المغرب . لكن ما هي بالضبط هذه السياسة ؟ من الصعب جدا معرفتها . لأن الذين تحدثوا عنها لم يكونوا هم أنفسهم يعرفونها على وجهها الحقيقي . يتعلق الأمر بمفكرين مكتئبين آلمهم انحطاط بلادهم و أصروا ، كل من جهته ، على أن يجدوا في المغرب مفتاح الاصلاح . و لئن كانت أحلامهم تستجيب أيما استجابة لأغراض النظام ، فانها تبقى مع ذلك مجرد أحلام (19) ، و لا يمكن مقارنتها بالافكار الواضحة و العزيمة الراسخة والحركة المنظمة المسجلة في فرنسا . بعبارة أخرى ، لا وجه للشبه ، فيما عدا المقاصد ، بين الاستعماريين الفرنسيين و أفارقة اسبانيا .

ان ما كان يفتقر اليه هؤلاء الأخيرون هو القاعدة التي كان من الممكن أن يوفرها لهم وجود مصالح اقتصادية قوية . فالمجموعات المالية و الصناعية الكبرى الاسبانية كانت ما تزال في حاجة الى تركيز قواها داخل حدود بلادها ، على عكس مثيلتها في فرنسا . و بالتالي فانها لم تكن ناضجة من أجل سياسة استعمارية . و بدون أن تقف مباشرة و بلا مداراة حول هذه المسألة ضد نظام هي في حاجة اليه ، فانها رأت مع ذلك ، و على مضض ، المراهنة على مشروع يمتص الملايين التي يمكن توظيفها بشكل أفضل

في الخارج . بمرور الوقت ، أفضى بها الأمر الى الانفتاح علانية على المشروع . الا أن المغرب لم يكن يهمها منذ البداية . فالمصالح التي حاولت زرعها به خلال الغزو ، في التجارة و المناجم و أراضي الاستعمار ، ظلت عموما من عمل مقاولين متوسطين . أما الرأسمالية الكبيرة فقد بقيت عموما غائبة . هذا ما يفسر في الحقيقة ضعف الحركة الافريقية الاسبانية و عقمها الكلي [20] .

بالاستناد الى المثال الفرنسي ، نتبين ما يمكن أن تتمخض عنه كل العوامل مجتمعة من نتائج بالنسبة لكلا القطبين اللذين كانت القضية المغربية تقع بينهما : المغرب و اسبانيا .

في المغرب نفسه و على الميدان ، لم يكن الحاكمون يجدون من يحميهم و يستخلصهم نوعا ما من الوصاية المزدوجة التي كانت تمارسها عليهم القيادة العامة العليا و الحكومة . عندما لم يكن ليوطي سوى منفذ متواضع الشأن ، وجدناه يجرؤ منذ ذلك الحين على الوقوف علانية ضد الأوامر التي يتلقاها . فشتان بينه وبين مارينا (Marina) القائد العام للجيش و الحاكم بمليلية ، الذي كان عليه أن يلتمس الاذن بواسطة برقيته موجهة الى مدريد – و يرى طلبه يقابل بالرفض – ليحتل على أبواب المدينة مرتفعا يحميه من هجوم الخصم . بعيد ذلك ، و عند قيامه بصد الهجوم ، لأنه حدث بالفعل ، نراه يضطر الى تجديد برقيته ليحصل أخيرا على الاذن بالاحتفاظ على الأقل بالارض المحتلة [21] . ماذا يمكن انتظاره من استراتيجية معوقة الى هذا الحد ؟ و الحال أن الامور كان لا بدلها من أن تجري على هذا المنوال . اذ حتى الجنرال سلفستري ، الذي اعتُقد أن له ورقة بيضاء بوصفه صديق الملك ، حتى هو نفسه لم يتسن له القيام بكل ما كان يود القيام به . كانت مخططاته تعرض على الموافقة الأولية التي يتعين أن يعطيها دوريا الرئيس العام في الطرف الآخر من المنطقة ، ثم الحكومة فيما وراء المضيق [22] . بهذه الوتيرة تكون الفريسة قد احتجبت عن الانظار عندما يصل أخيرا الاذن برشقها بالنار .

لنلاحظ فضلا عن ذلك أن ثمة أسبابا أخرى وراء هذه الحالة . لأنه اذا لم يكن يوجد باسبانية حزب استعماري ، فقد كان من المفروض أن يتولى الملك و الحكومة تزويد ممثليهما بكل الوسائل اللازمة ، و قبل كل شيء بحرية العمل ، باعتبار أن المبادرة جاءت منهما . و اذا أحجما عن ذلك ، فلأنهما بدورهما لم يكونا طليقي الأيدي . و هذا ما يدعونا الى القيام باطلالة أخرى على الحالة في اسبانية حيث ينبغي أن نضع في

الحسبان عنصرين هامين و معاندين معا ، كل منهما بطريقته ، و نعني بهما الجيش و الرأي العام .

قد يبدو من المفارقات في هذا الشأن أن يطرح موقف الجيش مشاكل ، لأن الاسبان ما اتجهوا الى المغرب الا من أجل ارضائه على وجه الخصوص . الا أن هذا المغرب لم يكن في نهاية الأمر سوى متنفس محدود جدا بالنسبة لهذا الجيش الذي ظل معظم ضباطه مقيمين باسبانيا . و تجاه " المغاربة " الذين كانوا يترقون بوتيرة أسرع ، و يجعلون الناس يلهجون بأسمائهم ، ساد عداء مكشوف وسط عسكريي شبه الجزيرة الذين لم يكن بامكانهم التباهي على الأقل ، مثل جيرانهم الفرنسيين ، بما يضاهي " خط الفوج الرهيب " . لذلك فقد ركزوا أنظارهم على سبتة و مليلية : الضباط أولا ، ليتأكدوا من عدم توجه أي واحد اليهما الابدوره ، ومن عدم اطالة مقامه بهما لينجح في مهمته على حساب أقرانه . ثم القيادةالعامة ثانيا ، لتذكر و تبرر وجودهاعن طريق ممارسة امتيازاتها في هذا الميدان الوحيد الذي تبقى أمامها . و هو موقف أفضى الى معارضة مكشوفة من قبل هيئات الضباط التي راحت تنتقد القادة المتطوعين في المغامرة و تقترح مرشيحها الخاصين كبديل لهم . أما فيما يخص القيادة العامة ، فكانت تمحص المخططات ، و تكثر من عمليات التفتيش ، و تدقق في التعيينات و الانتقالات . هذا في الوقت الذي لم يكن باستطاعة لا الملك و لا الحكومة استخلاص القادة المعينين من قبلهما من هذا الأخطبوط دون تأليب جيش شبه الجزيرة . و الحال أنهما كانا في أمس الحاجة الى هذا الجيش لتلافي ردود فعل الرأي العام . وهنا نصطدم مرة أخرى بعدم مبالاة أوساط الأعمال القوية بنقص الخلايا الاستعمارية النشيطة .

لقد كانت المعارضة في فرنسا تنتقد سياسة الحكومة في االمغرب . الا أن صوتها كان يذهب سدى وسط الحملة التي كان الحزب الاستعماري يشنها في المواجهة . و كان الرأي العام يهتم و يضطرم حماسا ، و ينقسم حول العلمنة ، الا أنه يعود فيتلاحم للدفاع عن راية فرنسا في افريقا . على العكس من ذلك ، كان الاشتراكيون و الفوضويون و النقابيون في اسبانيا لا ينفخون في رماد ، بل كانت هناك أصوات تتجاوب مع أصواتهم ، و يرتفع بعضها أحيانا من جهات بعيدة تقع خارج العالم العمالي ، و غالبا ما تكون أكثر وضوحا وحزما . مثال ذلك صوت الجمهوريين الذين طالبوا ، على غرار مارسلينو دومنكو (Marcelino Domingo) ب"تخل تام عن العمل بإفريقيا" (23) ، أو أكثر من ذلك صوت بريمو دي رفرا (Primo de Rivera) ، الرئيس العام وحاكم المنطقة العسكري، الذي ظهر علانية بمظهر البطل لما سمّاه ب "سياسة

التخلي المجيدة" (24). هل يمكن تصور لحظة واحدة مثل هذا في فرنسا؟

إلى هذا ينبغي أن نضيف عنصرا أخيرا ذا أهمية قصوى ، وهو افتقار اسبانيا إلى جيش استعماري. من الحق أنها حاولت تأسيس نوع من هذا الجيش على النمط الفرنسي ، مؤملة أن تشكل هذه الوحدات ذات يوم ، وبالنسبة اليها أيضا ، القسم الأعظم من قواتها بالمغرب . وهكذا فقد جدّت ابتداء من 1911 في تجنيد المرتزقة من القبائل لتكون منهم "الوحدات النظامية" (regulares) و "الشرطة" (policía) ، أو القوات الإضافية من أجل "الحركات" (25). إلا أن المشروع جاء متأخرا ، ولم يكن لينمو نموا حقيقيا في رقعة ضيقة كالمنطقة الإسبانية التي لم تكن اسبانيا قد احتلت منها بعد سوى جزء صغير. ولئن كان دعاة التجنيد يغامرون في الجنوب بمنطقة الفرنسيين ، فقد كانوا يصدون بكل صرامة (26) . في حدود 1919 ، تمكن الإسبان أخيرا من إنشاء بعض الوحدات مستغلين حالة البؤس الناجمة عن توالي سلسلة من السنوات العجاف. إلا أن هذه الوحدات لن تشكل إطلاقا سوى جزء صغير من مجموع قواتهم ، بحيث انها لم تكن كافية لتوفر بشكل محسوس دم الجندي الإسباني (27) . سيما وأنه لم يكن موثوقا بها على الإطلاق. لقد كان الفرنسيون لا يستخدمون في الغالب "أتباعهم" المجندين محليا إلا من أجل التغطية وغارات النهب. بينما كانت الفرق الأجنبية ، الجزائرية أو السنيغالية ، هي التي يقدمونها أمامهم في المعارك الحقيقية. أما بخصوص أهل البلاد ، فقد استخدموهم في إقليم الراين. ذلك ما لم يكن متيسرا للإسبان. فقد كانوا مرغمين على استخدام وحداتهم النظامية (regulares) في نفس المكان الذي تم تجنيدها فيه. ولم يكن بوسعهم استخدام أية فرقة أخرى. لذا فإن اللقب المشترك الذي أطلق على "الفرق الأهلية" كان يخفي اختلافا كبيرا بينهم وبين منافسيهم الفرنسيين. ف "أهالي" السينغال أو الجزائر كانوا أجانب تائهين في الأرض المغربية. ورغم أن فرقتهم كانت تحت رئاسة قادة فرنسيين ، فقد كانت بمثابة واحة بالنسبة إليهم في المغرب. بحيث إنهم كانوا مرغمين في هذا البلد المعادي لهم على أن يؤلفوا كلا لا يتجزأ مع أطرهم. بيد أن الأهلي الريفي كان أهليا بالفعل في الريف ، ويجد نفسه في عقر داره أينما حل وارتحل. لقد كان ملزما بأداء المهمة المنوطة به طالما أنه كان مؤطرا تأطيرا تاما بالفرق الإسبانية ، ونقول بفرق وليس بالرؤساء فحسب . لكن بمجرد ما تتراخى القبضة عليه ، فما عليه إلا أن يرجع أدراجه ، ليختلط بذويه الموجودين قبالته .

وهذا ما كان فضلا عن ذلك يحصر دوره في مجرد خدمة إضافية. ومن ثم مست الحاجة إلى أن يؤسسوا أيضا فرقة أجنبية على غرار ما فعل الفرنسيون. بيد أنها لم

تستقطب ، كضرب من سخرية القدر ، سوى المرتزقة الإسبان. بحيث ان هذه الفرقة التي عرفت ب "الترسيو" (Tercio) والتي شكلت في الحقيقة "فرقة وطنية" منذ تاريخ تأسيسها سنة 1920 ، لم تسهم هي الأخرى إلا بقدر متواضع في حل المشكل (28). وهكذا فقد بقي جيش الاحتلال متكونا في مجمله من مجندين إسبان. وكانت كل خسارة في صفوفه تقابل بالامتعاض داخل البلاد . نعم تقابل بالامتعاض ولا تهضم لأن أصواتا مسموعة في مختلف الأوساط كانت تجاهر بأن لا طائل من ورائها. لذا، فمن الملفت للنظر أن نلاحظ كم كان الرأي العام في اسبانيا يبدو أكثر عنادا بكثير منه في فرنسا بصدد المسألة المغربية ، مع أن الطبقة العاملة الإسبانية كانت ما تزال تقل بكثير عن مثيلتها الفرنسية من حيث العدد والوحدة والتنظيم ، وكذلك من حيث التمثيل داخل البرلمان. ففيما لم يسجل بفرنسا خلال هذه الفترة أي احتجاج – اللهم إلا في البرلمان - ضد الاحتلال الذي انطلق آنذاك ، شهدت اسبانيا في يوليوز 1909 انتفاضة رهيبة خلفت أحداثا دامية في مدينة برشلونة طيلة أسبوع بمجرد ما بلغها نذير المعارك. منذ ذلك الحين ، حرص القادة على تتبع العمليات بالمغرب خطوة خطوة ، يلاحقهم ، حسب تعبير الرئيس كنلخاس (Canalejas) (29) ، هذا الرعب من "الاضطرابات العنيفة لرأي عام أسيئت قيادته". فكان أن توافقوا على العجّة لكن بدون تكسير البيض. وبالتالي فقد كان الرئيس العام ومساعدوه في مسرح العمليات يجدون أنفسهم مشلولين قبل اتخاذ أدنى مبادرة ليسوا متأكدين – وأنّى لهم ذلك – من أنها ستتم بدون خسائر.

جيش مغرر به في حرب استعمارية ، بدون الدعم اللازم وحتى بدون التأييد الصريح من قبل طبقات الأمة التي كان من المحتمل أن يعنيها الغزو ، تلك هي باختصار ملامح الورطة التي سيتخبط فيها القادة العسكريون الإسبان لإنجاز مهمة تكتنفها علاوة على ذلك مصاعب طبيعية. هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا يجهلون أن منافسيهم الفرنسيين سيحبكون لهم الدسائس على نطاق واسع. وهو ما سنعود إلى الحديث عنه في إبانه . كما لم يكن بإمكانهم أيضا التكهن بتلك الطاقة التي سيكون خصمهم قادرا على بذلها ؛ خصم كانوا يعتقدون مع ذلك أنهم يعرفونه حق المعرفة . أو لم يكونوا محتكين به منذ قرون؟ لكن من كان وقتئذ لا يختلط عليه الأمر بصدد هؤلاء السكان المقيمين بشمال المغرب؟ ومن كان بالخصوص ، في المقام الأول من هؤلاء السكان ، يعرف حقا الريف والريفيين؟

الهوامـــــش

1) انظر :

2) Germain AYACHE : "Beliounech et le destin de Ceuta entre le Maroc et l'Espagne", in HESPERIS-TAMUDA", VOL. XIII, 1927.

2) في أبريل 1912 ، كتبت دورية "La Correspondancia de España" تقول : "إن نظام الباب المفتوح [بالمغرب] لن يساعدنا على بيع منتوجاتنا التي هي أقل جودة من المنتوجات الأجنبية وأكثر غلاء منها". (نقلا عن نشرة لجنة افريقيا الفرنسية ، 1912 ، ص 137). حول حالة اسبانيا في بداية القرن ، انظر :

Gerald BRENAN : "Le labyrinthe espagnol, Origines sociales et politiques de la guerre civile", édition française, traduite de l'anglais, Ruedo IBERICO, Paris, 1962.

انظر كذلك اللوحة التي قدمها :

Manuel TUÑON DE LARA : "La España del siglo XX", Paris, 1966.

3) في عام 1904 ، ارتفعت قيمة المبادلات الإسبانية المغربية ، المقدرة بالفرنك ، إلى 725 173 7 ، منها فقط 795825 ف كقيمة للصادرات الإسبانية مقابل 000 377 6 ف للواردات. في نفس السنة بلغت قيمة المبادلات الإنجليزية المغربية المقدرة بالفرنك كذلك ، 575 445 43 ، بينما قدرت قيمة المبادلات الفرنسية المغربية ب 000 000 45 ، أي ما يفوق عموما ، وفي كلا الحالتين ، المبادلات الإسبانية المغربية بست مرات. مع العلم أن قيمة الصادرات المغربية في هاتين الحالتين كانت تقل في كثير من المناسبات عن قيمة الواردات . لقد ارتفعت قيمة الصادرات الأنجليزية إلى 550 161 31 مقابل 025 184 12 من الواردات . أي ما نسبته 5 مقابل 2 لفائدة انجلترا. أما بخصوص فرنسا ، وإذا ما اكتفينا بالمبادلات التي كانت تجريها مع المغرب اما من الطريق البحري ، وإما عن طريق الجزائر (إذ كانت توجد طرق أخرى لا نتوفر بصددها على أرقام مفصلة) ، فإن الأرقام هي التالية : صادرات فرنسا : 425 676 19 ، وصادرات المغرب : 650 766 9 ، أي بنسبة 2 مقابل واحد تقريبا لفائدة فرنسا. (وردت هذه الأرقام في :

André LEBLANC : "La politique européenne au Maroc", thèse , 1906 .

4) في مقال ظهر في "EL IMPARCIAL" سنة 1912. وقد ورد بدون تحديد للتاريخ في "نشرة لجنة افريقيا الفرنسية"، 1912 ، ص 137.

5) في سنة 1900 كان الجيش الإسباني يضم 705 24 ضابطا بينما كان مجموع قوته العددية يصل إلى 000 80 رجل. أي ما يقل عن أربعة رجال لكل ضابط. هذا وقد كان كثير من الضباط العاطلين يزاولون مهنة ثانية. اقتبسنا هذه الأرقام من :

Stanley G. PAYNE : "Los militares y la política en la España contemporánea", édition espagnole, traduite de l'anglais, Ruedo IBERICO, Paris 1968, p. 76.

الفصل السادس من هذا الكتاب مخصص بكامله لحالة الجيش الإسباني في بداية القرن.

6) "إن الحكومتين اللتين تعملان بوحي من عواطفهما الودية الصادقة نحو اسبانيا ، تاخذان باعتبار خاص المصالح التي يخولها لها موقعها الجغرافي وأملاكها الترابية على الساحل المغربي من البحر الأبيض المتوسط ، تلك المصالح التي ستتشاور بصددها فرنسا مع الحكومة الإسبانية. وسيتم تبليغ حكومة صاحبة الجلالة البريطانية بالاتفاقية التي قد يمكن التوصل أليها في هذا الموضوع بين فرنسا وإسبانيا". الفصل الثامن من اتفاقية 8 أبريل 1904 الفرنسية الأنجليزية.

7) وهذا دون أن ناخذ بعين الاعتبار أقاليمها الصحراوية. وقد كانت مساحة المنطقة الإسبانية بالشمال تصل بالضبط إلى

20 312,94 كم2. وهو رقم رسمي قدمه :

Rafael DE RODA JIMENEZ dans "Economía marroquí : los problemas del campo", Imprenta Imperio, Ceuta 1941, p. 9.

8) 000 300 1 هكتار من الأراضي الجبلية وغير المزرعة. وعلى مجموع 100 681 هـ التي كانت تعتبر صالحة للزراعة ، هناك فقط 000 351 هـ صالحة للزراعات العشبية. أما الباقي فلم يكن يصلح إلا للمغارس (أقيمت هذه الأرقام بعد الغزو من طرف المصلحة الزراعية للمنطقة ، وقد أوردها :

R. DE RODA JIMENEZ, op. cit., pp. 9 et 10).

9) في عددها الأول الصادر في يناير 1924 تحت عنوان :

"Revista de Tropas coloniales" كانت دورية "Es necesario llegar a Alhucemas"

ما تزال تردد أن جميع الرحالة ، بدءا من رولاند فرجوس (R. Fréjus) في القرن السابع عشر إلى أوغست موليراس في نهاية القرن التاسع عشر ، نوهوا بالثروة المنجمية المدهشة في منطقة الحسيمة بقلب الريف. وقد أشارت الدورية إلى أن الأمر يتعلق ، بالنسبة لموليراس ، بترانسفال جديد لا أقل ولا أكثر.

10) إحصاء مؤقت أجراه الإسبان عام 1927. أورده :

Le gérénal GODED dans "Marruecos : las etapas de la pacificacíon", Madrid, Barcelona, Buenos-Aires, 1932.

11) تعمدنا هنا عدم الإشارة إلى الأقاليم الصحراوية التي منحت أيضا لإسبانيا جنوب المغرب. لأنها لا تهمنا هنا من جهة ، ولأن اسبانيا ، من جهة أخرى ، لم تفكر في احتلالها مطلقا قبل 1934. هذا وسيتم تعيين الحدود بين المنطقتين الفرنسية والإسبانية ، أولا ، بمقتضى الاتفاقية الإسبانية في 27 نوفمبر 1912 ، ثم سيقع ضبطها وتثبيتها في 25 يوليوز 1925 و 10 يوليوز 1926.

12) أورده :

Carlos HERNÁNDEZ HERRERA et Tomás GARCÍA FIGUERAS dans "Acción de España en Marruecos", Madrid, 1929, t. 1, p. 197.

فيما لم يرد بيان مخالف ، فإن النصوص الإسبانية المعتمدة هي من ترجمة المؤلف.

13) 'إن حكومة الجمهورية الفرنسية تقر بأنه من حق اسبانيا في منطقة النفوذ الإسبانية أن تسهر على أمن المنطقة المذكورة ، وتقدم مساعدتها للحكومة المغربية من أجل إدخال جميع الإصلاحات الإدارية والاقتصادية والمالية والقضائية والعسكرية التي هي في حاجة إليها'. الفصل الأول من اتفاقية 27 نوفمبر 1912 بين فرنسا واسبانيا.

14) 'ستتم إدارة هذه المناطق ، وتحت رقابة مندوب سام اسباني ، من طرف خليفة يختاره السلطان ضمن لائحة بمرشحين تقدمها الحكومة الإسبانية. ولن يتم استبقاء وظائف الخليفة أو سحبها من المرشح إلا بموافقة الحكومة الإسبانية . وسيقلد الخليفة بتفويض عام من السلطان ، وسيزاول بمقتضاه الحقوق التي يختص بها هذا الأخير – وسيكتسي هذا التفويض صيغة دائمة'. الفصل الأول من الاتفاقية المذكورة سابقا .

15) بدأت مكاتب الشؤون الأهلية تزاول مهامها عام 1908. حول أنشطة هذه المكاتب ، راجع الشهادة التي أدلى بها العقيد ركلمي (Riquelme) – الذي كان رئيسا لها لمدة طويلة – أمام لجنة التحقيق المعينة من طرف الكورتس لتقصي المسؤوليات المتعلقة بهزيمة أنوال ، هذا وقد أدرجت هذه الشهادة من جديد ضمن محاضر جلسات اللجنة المذكورة والمنشورة تحت عنوان :

De Anual a la República. El expediente Picasso. Las responsabilidades de la actuación española en Marruecos, Javier Morata, Madrid, 1931.

16) أورده :

HERNÁNDEZ HERRERA y GARCIA FIGUERAS op. cit., t. I, p. 227.

17) المصدر نفسه ، ص 249 .

18) نفسه ، ص 266 .

19) مجموعة عينات هامة يقدمها لنا :

Simon LEVY dans "La guerre du Rif sous le règne d'Alphonse XIII", mémoire pour le diplôme d'Etudes Supérieures, Institut d'Etudes Hispaniques de la Faculté de Paris, mars 1958.

20) في 7 غشت ، لاحظ قنصل فرنسا العام ببرشلونة ، في برقية إلى وزارة الخارجية الفرنسية بباريس ، ما يلي :

"إن نشاط اسبانيا بالمغرب لا يحظى إلا بشعبية جد محدودة في قطالونيا. فرجال الأعمال بمنطقتي يرون أنه يقاد بطريقة سيئة ، وأن النفقات التي يتسبب فيها لا تتناسب مع الفوائد التي يمكن جنيها منه. بينما يرى الوطنيون أسفين ما يكلف منطقتهم من تضحيات في الرجال والمال وذلك من أجل أهداف لا تهمهم. ولا يوجد سوى التجار المرتبطين بعلاقات تجارية بالمنطقة الإسبانية وحزب الاتحاد الملكي الذين لا يتقاسمون حول هذه النقطة مشاعر القطلانيين الآخرين ، الأولون بدافع المصلحة ، والآخر لأسباب وطنية. في المدة الأخيرة ، تبنى المجلس العام (Diputación) لإقليم خيرون (Gerona)اقتراحا يطالب بإدانة الاتفاقية الدولية "التي أسندت للدولة مهمة دائمة بإفريقيا" والتخلي "دون تمييز ولا تحديد...عما يسمى بالممتلكات الإسبانية بشمال افريقيا". في 6 شتنبر التالي ، أشار القنصل العام فــي برقية جديدة إلى أن المجلس العام لطاراكون (Tarragone) في 20 غشت ، ومجلس صباديل في 27 ، كانا قد أعربا – بعد مجلس خيرون – عن أمنية تنادي بالتخلي عن المنطقة الإسبانية بالمغرب". (وثائق الشؤون الخارجية ، باريس ، المغرب 2-11 الوثيقة 90)

في ابريل 1924 ، وجه المجلس الأعلى للغرف التجارية باسبانيا ، وقد كان مشغولا بانخفاض قيمة البسيطة ، اقتراحا إلى مجلس الإدارة ، نقرأ فيه :

"لن تجد الخزينة مطلقا في المغرب ما يقابل النفقات التي فرضت عليها [لنلاحظ استعمال الماضي في الجملة الموصولة ، فهو يدل بما يكفي من الوضوح على أن شجب السياسة الإسبانية في المغرب لا يقتصر فقط على مرحلتها الراهنة]. بيد أنه إذا كان علينا البقاء في المغرب إلى ما لا نهاية لتشريف التعهدات الدولية أو لسبب آخر مهم ، فسيكون من اللازم و من المستعجل تعديل الوضع القائم وألا يكلف البقاء في المغرب وطننا تضحية تتجاوز 100 مليون بسيطة سنويا خلال السنوات الخمس الأولى القادمة ، و50 مليونا فيما بعد". ثم بعد أن نعت التقرير المسألة المغربية بكونها "مشروعا عقيما" ، ختم بهذه الكلمات : "لا يتعلق الأمر بالنسبة إلينا في المغرب بتاتا بمسألة كرامة وشرف" ، هناك – كما يضيف الاقتراح – الضرورة الأسمى في أن نفكر أولا في "الوطن الأب" وأن نعيش ونعمل من أجل اسبانيا". (أوردته في ترجمته الفرنسية" نشرة لجنة افريقيا الفرنسية" ، ابريل 1924 ، ص 250-51).

21) Jeronimo BECKER : "Historia de Marruecos", pp. 507-16.

22) يمكننا أن نتأكد من ذلك عندما يحين أوانه في الفصول التالية.

23) "إن غالبية الجمهوريين ... تناضل من أجل تخل تام عن نشاطنا بافريقيا"، أورده :

HERNÁNDEZ HERRERA et GARCÍA FIGUERAS, op. cit., t. I, p. 258.

24) أوضح بريمو دي ريفرا موقفه لأول مرة سنة 1917 في خطاب استقباله بالأكاديمية الملكية الإسبانية الأمريكية بقادس ، حيث صرح قائلا : "إذا كانت ثمة بالأمس سياسة إفريقية مجيدة ، فقد كانت هناك أيضا سياسة التخلي عن افريقيا التي لم تكن تقل عنها مجدا" :

(La cuestión del día : Gibraltar y Africa, discurso del general Miguel Primo de Rivera y Orbaneja, Cadiz, Alvarez, 1971)

خلف هذا الخطاب ، بعد إلقائه ونشره فيما بعد ، تأثيرا كبيرا. وقد أقيل الجنرال من قيادته ، إلا أن ذلك لم يمنعه من المعاودة ، مما أدى إلى عزله مرة ثانية.

25) راجع مقال : Emilio MORA : " Los primeros regulares"

في : " Revista de tropas coloniales", juin 1924.

26) في برقية بتاريخ 30 مارس 1914(no 899. CM) (26، قدم ليوطي بيانا عن المباحثات التي أجراها لساعته مع الملك الفونسو الثالث عشر. وجوابا على الشكاوى التي تقدم بها ليوطي ، أقر الملك بأن التجنيد السري الذي كان يقوم به العملاء الإسبان بالدار البيضاء غير جائز . الا أنه طلب من الفرنسيين أن يتحلوا بالارادة الحسنة ، مصرحا بأنه يمكن للفرنسيين أن يجندوا بقدر ما يريدون في منطقتهم ، في حين ان الاسبان لا يتوفرون الا على منطقة صغيرة جدا ، لم يحتل سوى جزء صغير منها ، و يقيم بها بربر جبليون يصعب تجنيدهم . و في رسالته الى الوزير ، أقر ليوطي بمايلي : حقا

" إننا نحن أنفسنا لا نقوم بالتجنيد داخل مثل هذه المجموعات ، ولا نجد المتطوعين إلا ضمن قبائل السهل أو سكان الجنوب". ثم أضاف : "من جهة أخرى ، نحن نجند بسهولة في منطقتنا بقدر ما نريد ، ويمكننا أن نجد بما يزيد عن حاجياتنا". هذا وقد وعد ليوطي الملك بالعمل على إيجاد صيغة ترضي الإسبان. لكن بعد 10 سنوات ، وعندما كان الإسبان يتخبطون في أسوأ المصاعب ، صدر منشور عن الكتابة العامة للحماية بالرباط بتاريخ 30 يونيو 1924 ، مذكرا بأنه "يمنع على أهالي منطقتنا الالتزام ... بالتطوع في القوات المساعدة للمنطقة الإسبانية" :

"Recueil des Actes internationaux et à incidence internationale concernant le Maroc",Rabat, Imprimerie officielle, 1936, pp. 114-115.

27) في اكتوبر 1924 ، كانت القوات المنضوية في قطاع سبتة/تطوان تضم 143 52 رجلا ، ومن هذا العدد الإجمالي ، كانت هناك فقط فرقتان نظاميتان تضمان معا 484 4 رجلا ، بما فيهم الأطر الإسبانية. أي ما يزيد قليلا عن 12/1. (قائمة الفيالق والوحدات الدائمة والمتنقلة لقطاع سبتة/تطوان ، وقد تم تسليمه إلى الرئيس العام في 29 اكتوبر 1924 :

Archivo Histórico Militar, Madrid, Comandancia general de Ceuta, 1924, legajo 71).

28) وهذا دون أن نأخذ بعين الاعتبار أن "الترسيو" ، حتى لو كان متكونا في غالبيته من اسبان ، لم يمثل ، مثل الجند النظاميين ، سوى نسبة ضئيلة من عدد القوات الإجمالي . وبالنسبة إلى القائمة المذكورة في الإحالة السابقة ، فإنه لم يزد عن 131 4 رجلا على مجموع 143 52 . أي ما يزيد قليلا عن الجزء الثالث عشر لا غير .

29) تصريح لكورتس في 7 مارس 1912 ، أوردته "نشرة لجنة افريقيا الفرنسية" ، أبريل 1912 . هذا وسيهلك كانالخاس نفسه مقتالا بعيد ذلك.

الريــف والريـفيـون

كانت القبائل المقيمة بالمنطقة الآيلة لاسبانيا ، وعددها ست وستون قبيلة ، تنشطر إلى أربع مجموعات متحدّرة من مختلف بطون السلالة البربرية ، تقطن كل واحدة منها في قطاع خاص من الكتلة الريفية. منها مجموعتان تعيشان في السفح الأطلنتكي وتتقاسمانه مناصفة بينهما ، هما صنهاجة في الشرق وجبالة في الغرب. أما بالنسبة للسفح المتوسطي المأهول بغمارة في نصفه الغربي ، فهو الجزء المتبقي الذي كان يشكل في الشرق الريف بحصر المعنى ، أو بلاد الريفيين.

في حمى شاطئهم الشديد الوعورة ، لم يحس الغماريون بالتهديد الإسباني إلا في وقت متأخر. كذلك الحال فيما يتعلق بصنهاجة في القمة المواجهة ، لأن الريفيين في الشمال ، وجبالة في الغرب ، كانوا ينتصبون حائلا بينهم وبين الغزاة. لذلك فإن الغزو لم يستهدف في بدايته سوى جبالة والريفيين. إلا أن الأولين كانوا وقتئذ خاضعين للباشا والقائد الكبير أحمد الريسوني ، الذي مد الجسور بينه وبين الإسبان ، ومهد لهم الطريق، مجهضا منذ البداية تنظيم كل مقاومة منسقة . على العكس من ذلك ، كانت القبائل مستقلة بالريف وتعرف الإسبان حق المعرفة. فمنذ قرون كان هؤلاء يحتلون أو يراقبون جميع النقاط السهلة البلوغ من شاطئهم. زيادة على ذلك ، كانت النزاعات الدامية قد تعددت بين الطرفين منذ ما قبل الحماية بمدة طويلة . كانت هذه إذن هي الجهة التي يمكن أن يندلع منها الحريق. ومنها اندلع بالفعل .

في الحقيقة ، لم يكن الريفيون يشكلون سوى ساكنة متواضعة لا يتجاوز عدد أفرادها 300 000 نسمة ، ومجموع قبائلها ثماني عشرة قبيلة (1) . مع ذلك تناقل العالم فجأة أخبارهم في القرن الماضي بوصفهم قراصنة متوحشين ، يتجاسرون على مهاجمة السفن الأوربية ، ويفقون في نفس الوقت في الإفلات من عقوبتها. أما إذا قامت الدولة المعنية ، بعد عجزها عن ردعهم ، بمطالبة مولاهم السلطان بضمان الأمن في شواطئه ، فإن هذا الأخير يقف مكتوف اليدين ، بحيث ان هذه القبائل كانت تتحدى في آن واحد كلا من العالم المتمدن والسلطة المتغيبة لعاهلها ، الذي لم تكن تعترف إلا بسلطته الاسمية ، هذا في الوقت الذي كان مجرد وجودها يخلق وضعا شاذا على أبواب أوربا.

بما أن الأمور كانت مطروحة على هذا الشكل ، فقد نشأ تيار حقيقي من التخيلات حول موضوع شراسة الريفيين. إذا صدقنا موليراس ، الذي كتب سنة 1895

فإن الريفيين كانوا يذبحون بلا رحمة ، وبنسبة تسع مرات على عشرة ، ذلك المسيحي التعس الذي يقع بين أيديهم .

إنه ادعاء ينسجم على أية حال مع ما يشاع عنهم من خطورة وشراسة. إلا أن موليراس ما لبث أن أظهرهم في الوقت نفسه ، بدون الانتباه إلى وجه التناقض ، بنفس الضراوة في علاقاتهم بعضهم ببعض ، تمزقهم الحروب الداخلية ، والحال أن هذه الحروب من شأنها أن تؤدي بهم إلى الانقراض تماما بدلا من أن تجعل منهم خطرا على غيرهم . وانسياقا مع مزاعم موليراس ، فإن هذه السوق أو تلك ، من الأسواق التي تعقد عادة كل أسبوع في كل قبيلة ، تعتبر عادية جدا إذا لم يحص بها سوى عشرة قتلى إثر المعارك التي غالبا ما تكون مسرحا لها ، بدل الخمس والست دزينات التي يستوجبها النصاب (2) . ثم ظهرت بعد كتابات موليراس روايات ملحمية من نفس الطينة ، تتعلق ب "حروب السنوات السبع" التي كانت تندلع لا بسبب إيلين الحسناء ، وإنما بسبب مقتل كلب (3) . من جهة أخرى ، هناك من لاحظ أن المسكن الريفي المجهز ببرجه الصغير إنما هو في الواقع مركز على أهبة الاستعداد للمعركة. لإجمال القول في الأخير ، نشير إلى أن الكثيرين من الكتاب تبنوا ذلك التأكيد الغريب الذي جادت به قريحة وسترماك ، معتبرين إياه حقيقة مسلما بها ، ومفاده أن الريفي لم يكن في نظر إخوانه كامل الرجولة ان هو تزوج دون أن يقتل على الأقل مرة واحدة في حياته (4) . نرى إذن تبعا لهذه المزاعم أن المجتمع الريفي كان مصابا بسعار من الشراسة و يعيش حياته اليومية ، إن صح التعبير ، في حركية انتحار دائم .

إنها بالطبع لوحة لكاتب في علم الأخلاق. لكنها تفتقر إلى ميتافيزيقي ليضفي عليها بعدها المأساوي. تلك كانت مؤخرا مهمة دافيد هارت. كان هذا الأخير يرنو بنظره إلى الماضي والمدى البعيد. بالنسبة إليه ، لم تكن شراسة الريفيين وراء مجازرهم. إذ الحقيقة أنهم لا يعدون أن يكونوا لعبة بأيد خفية. ذلك أن الريف ، وهو إقليم يعيش في فقر مدقع ، لم يكن قادرا على ضمان الغذاء لجميع أبنائه . فكان على المجتمع الريفي أن يقدم ، بلا وعي منه ، ضريبته اليومية للموت قربانا لامتصاص الفائض من سكانه (5). من هنا قانون الثأر الذي يعد بمثابة مؤسسة رئيسية (6) . فباستثناء حالات محدودة في الزمان والمكان ، لم تكن ثمة – فيما يقول – عقوبة اجتماعية على القتل الذي كان مباحا على هذا الأساس بل ومنصوصا عليه ضمنيا (7) . لنقل جملة ، لتلخيص نظرية هارت دون تشويه مضمونها ، إنه بدلا من وصية (لا تقتل) السائدة لدى القبائل الموسمية ، فإن القبائل الريفية ، أبناء عمومتها ، أحلت بشكل ضمني وصية (تناحروا

فيما بينكم) . على أن تاريخ هذه الوصية لا يرجع إلى الأمس القريب . ذلك أن منظومة الثأر نفسها كانت ، حسب اعتقاده ، تنيخ دائما بكلكلها على الريفيين. هذا ما دفع هارت إلى أن يصحح ، فيما اعتقد ، خطأ وقع فيه الريفيون أنفسهم عندما ذكر له شيوخهم أن قلاقلهم حديثة لا ترجع إلا إلى نهاية القرن الماضي في الظروف التي استعرضوها. كلا ، لقد عانى الريف من الفوضى - فيما يقال - منذ ألف سنة على الأقل [8] . وهي فوضى تنهض دليلا في حد ذاتها على أنه لم يسبق له أن خضع للمخزن. لأن هذا الأخير كان من الممكن لا محالة أن يضع حدا لها لو كانت له في عين المكان أدنى سلطة فعلية.

تلك هي آخر كلمة عن مسألة قادت إليها تدريجيا ، وإلى هذه النتيجة ، الأعمال المتقاربة لمختلف السوسيولوجيين. وبما أنه سبق لنا أن تناولناها في موضع آخر [9] ، فإننا لن نعود هنا إلى المآخذ التي يمكن صياغتها حول المنهاج الذي اتبعوه ، ذلك المنهاج الذي يستقصي موضوع البحث مهملا الظروف المحيطة به ، والذي يرسم الماضي السحيق على ضوء ماض قريب تم استحضاره بدوره بدون حذر انطلاقا من روايات مشكوك فيها أو من أقوال شهود ذوي أفق محدود. على أنه من واجبنا بالمقابل ، أن نحاول تقديم رؤية أقل خيالا وفي الوقت نفسه أقل جمودا عن العالم الريفي الصغير. ذلك أنه كيف أمكن لهذا المجتمع أن يعيش بدون نظام داخلي ، وبدون الدولة التي يشكل طرفا منها؟ ثم كيف تمكن أخيرا من أن يلتئم من جديد ويشكل ، لما فيه صالحه هذه المرة ، قوة مذهلة لا تتناسب بتاتا لا مع موارده ، ولا مع مستواه ، ولا حتى مع رقعته ؟

* * *

من الثابت أن المجتمع الريفي كان بدائيا جدا. صحيح أننا نجده متكونا من مزارعين مرتبطين بالأرض ، منهم الفلاحون المتعاطون لزراعة الحبوب والخضروات ، وغراسو الأشجار المثمرة ، ومربو الماشية ، والمهرة في أعمال السقي. إلا أن وسائل العمل كانت ما تزال بدائية ، أساسها المحراث الخشبي العتيق ، والفأس ، والرحى اليدوية ، والطاحونة المائية ، والمغزل ، والخزانة الخشنة. أما الطرق ، فمنعدمة ، وكذا الأمر بالنسبة للعربات . وبما أن الدواب قليلة ، فإن النقل على ظهر الإنسان هو الشائع .

لا ريب أن مثل هذا التأخر كان يسود أيضا في باقي جهات المغرب. إلا أن المستوى المتدني في عديد من المناطق الأخرى اقترن بتركيز أكبر لوسائل الإنتاج . يضاف إلى هذا أن التجارة بعيدة المدى ساعدت في جهات أخرى على ازدهار مدنية

حضرية . على العكس من ذلك ، ظل التعمير زراعيا في الريف ، وهو إقليم هامشي جبلي ، سبق للأسبان فضلا عن ذلك أن سيطروا على منافذه البحرية لعدة قرون . فإذا كان هذا التعمير مركزا في سهل من السهول الشاطئية ، فإنه كان متناثرا بصفة خاصة في بطون الأودية ، وعلى جوانب السفوح. كما أن المدن منعدمة ، باستثناء حصن مليلية ، وهو موقع إسباني كان يعيش مستقلا . بيد أن المؤشر الحقيقي على الخصوصية الريفية يكمن في الصيانة القوية للهجات البربرية بصورة لا يكاد يشوبها انفصام ، بحيث لم يكن يوجد سوى بعض النساخ الذين تقتصر معرفتهم للغة العربية على المبادئ الأولية اللازمة لتحرير العقود الشرعية [10] .

بمثل هذا المستوى ، وعلى الرغم من وجود ملكية خاصة للأراضي الزراعية ، وعلى الرغم أيضا من كون الأنشطة موسومة بتقسيم ملموس للعمل ، فإن القبيلة البدائية تظل هنا ، أكثر مما هي عليه في أية جهة أخرى ، الإطار المتين لكل المجالات الحياتية [11] . كانت هذه القبيلة مقسمة إلى أفخاذ ، ومتفرعة إلى مجموعات من الأسر ، يجمع بينها الشعور بالانتماء إلى رابطة القرابة ، مما جعلها تشكل كيانا اجتماعيا متميزا. وهي أيضا وحدة اجتماعية تتوفر على مقاطعة واضحة المعالم ، تتكون حسب رقع متوازنة من الأراضي المنزرعة والغابة والمراعي. ضمن هذا الإطار ، وحول مختلف الأسواق الأسبوعية ، كانت الحياة الاقتصادية تجري بين القبيلة أولا ، إلا أن المبادلات كانت تقوم أيضا مع القبائل المجاورة ، وتمتد تدريجيا حتى إلى مدينة فاس. نتج عن ذلك أن الحياة السياسية انحصرت بدورها في نفس الإطار ، إلا أنها كانت تتدرج حسب مختلف المستويات المتميزة داخل القبيلة ، أي الأفخاذ ، ثم مجموعات الأسر في مستوى أدنى.

أما بالنسبة لأشكال هذه الحياة السياسية ، فكانت تقوم على توزيع الأراضي بين أعضاء القبيلة . وحيث إن هؤلاء لم يكونوا كلهم ملاكا في الفترة المعاصرة ، فقد كان الفلاحون المحرومون من الأرض مجرد أتباع لمشغليهم. من جهة أخرى ، فإن الملكيات كانت متفاوتة من حيث مساحتها. إلا أنها لم تؤد إلى ظهور ملاك كبار وإنما إلى وجود فلاحين ميسورين ، نظرا لضيق المساحات المتوافرة ولكثرة الملاك ، الشيء الذي أضفى على المجتمع الريفي طابع الاتزان والاستقرار ، أو طابع الركود إن جاز التعبير. ذلك أن الملكية العقارية كانت تنتقل في الغالب من يد إلى أخرى ، خاصة في زمان الأوبئة عندما تضرب الموت بطريقة عشوائية ، فنجد أن هاته الأسرة أو تلك من الأسرة المالكة تصبح بدورها تابعة لأسرة أفقر منها أبقى عليها الوباء ، لكن دون أن تؤدي هذه الحركية إلى

إحداث تغيير في الوضعية العامة. فالحركة تسير ، لا في خط مستقيم ، وإنما على شكل دورة (12) . فقد كان الفلاحون الميسورون ، المعضدون بوفرة ذريتهم وثلة أتباعهم ، يتقاسمون السلطة داخل المجالس التي يؤسسونها ، وغالبا ما كانوا يتنازعونها ، سواء عن طريق المشاركة الجماعية ، أو عن طريق التفويض ، وذلك في المستويات المشار إليها أعلاه ، أي مجموعة الأسر ، والفخذ ، ومن الممكن أحيانا القبيلة بأسرها.

تساعدنا مجموعة من الوثائق المكتوبة ، هي عبارة عن محاضر جلسات الاجتماعات ، على تسليط أضواء كاشفة على المنظومة. فعلى أدنى مستوى ، كانت جميع المشاكل التي تواجه مجموعة الأسر من اختصاص "الجماعة" ، وهي مجلس يضم جميع الملاك من رؤساء الأسرة . فالجماعة هي التي كانت تشرع القوانين ، فتحدد مثلا العقوبات المفروضة على الإخلال بحرمة الجوار أو واجبات الضيافة ، وهي التي تقلد أيضا سلطتها للشيخ المكلف بتمثيلها أو تطبيق إرادتها . كان هذا الأخير ، الذي يختار من بين أعضاء الجماعة ، يسلم مهامه بمجرد انتهاء مدة صلاحيتها (13) .

على مستوى أعلى ، فإن مجلسا آخر هو الذي كان يدير المصالح العامة لمجموع الفخذ. كان يضمن على الخصوص في كل أسبوع انعقاد السوق التي من الواجب أن تمر في جو من النظام. وباستثناء بعض الأعيان ، كان يتألف أساسا من شيوخ تنتخبهم مجموعات الأسر (14) .

هذا التسلسل المنطقي للمنظومة يفترض حسب الظاهر أن نجد أيضا ، في مستوى أعلى ، وهو مستوى القبيلة كلها ، إدارة من نوع جماعي ، يتم انتخابها هذه المرة على ثلاث درجات. إلا أن الوثائق أو الشهادات الأخرى ، لم تساعدنا على الإطلاق على تجاوز مستوى الفخذ المتوسط هذا ، سواء عند معاينته على انفراد أو في الحالات العرضية التي يكون فيها مرتبطا بفخذ مجاور. يمكن أن نفترض أن هذه الهيئة العليا قد انحلت في وقت ما ، على الأقل كجهاز منتظم ، بعد أن كانت موجودة بالفعل في الماضي . ذلك أن القبيلة تشكل بالتأكيد وحدة متميزة ، لكنها توجد مندمجة منذ زهاء عشرة قرون داخل الدولة المغربية ، تلك الدولة التي مهما قيل عن ضعفها فإنها بقيت صامدة إلى يومنا هذا وإن تغيرت قيادتها. ومن ثم وجدت سلطتان سياسيتان متعارضتان ، يتوقف عليهما في الواقع مصير القبيلة : السلطة الأولى ، وهي محلية محضة ، تنبع من القاعدة ، أما الثانية ، وهي واردة من الخارج لمقابلتها ، فتصدر عن المخزن ، أي عن الدولة. أما الالتحام بين السلطتين ، فيتم في شخص القائد. هذا الأخير الذي يعينه السلطان ، أو يختاره من أعضاء القبيلة ، هو الذي شغل المكان الذي أصبح

شاغرا بعد انحلال المجلس الحاكم في الماضي.

نرى مما سبق أن هذا الارتباط ، الذي سنعود إلى الحديث عنه ، لم يكن يلحق على أية حال أي مساس بأساس المنظومة السياسية داخل القبيلة. فقد كانت مجالس ابتدائية هي التي تشرع القوانين على الصعيد الداخلي ، وتفوض سلطتها لشيوخ يتولون الحكم باسمها وتحت إشرافها ، ويمثلونها في مجلس الفخذ للإسهام داخله ، على قدم المساواة ، في الإدارة الجماعية. إن الأمر يتعلق هنا بمؤسسات جمهورية على غرار ما قاله البعض عن قبائل مغربية في مناطق أخرى [15] . إلا أنه يمكننا أن نضيف ، فيما يخص الريف على الأقل ، أننا أمام نوع من الديموقراطية ، ديموقراطية الفلاحين الميسورين. وهي بالطبع ليست بديموقراطية مطلقة ، إذ نجد أولا – كما يتسنى لنا استنتاج ذلك من المستندات – أن رؤساء الأسر وحدهم هم الأعضاء الرسميون في المجالس ، من دون أبنائهم حتى الكبار منهم . ثم ثانيا ، وعلى الأخص ، لعدم مشاركة الفلاحين الذين لا أرض لهم. مع ذلك فهي ديموقراطية واسعة نسبيا ، لأن تقارب المصالح على صعيد الأسر أقوى من التناقضات ، ولأن اتخاذ القرارات على الصعيد العملي يتم حسب الروايات بصورة جماعية داخل تلك الأسر. أما بالنسبة للفلاحين المعدمين ، فلا يمثلون أكثرية تجاه أقلية من كبار الملاك. فالملكيات كثيرة ومتواضعة إن لم نقل مفتتة ، ولا يمكنها بالتالي أن تشكل القاعدة الاقتصادية للعسف الفظيع الذي يتطلبه كل استغلال فاحش . فعلى عكس ما كان عليه الأمر في أثينا أو روما ، فإن الفلاح الذي لا أرض له كان تابعا دون أن ينحط إلى مستوى القنانة . حقا فقد كان مستغلا لاشتراكه فقط مقابل الخمس من الإنتاج ، إلا أنه يظل شريكا. فهو تابع خضوع ، ولكنه يشعر بأنه حليف لسيده عندما يقوم بمساعدته. فتلك علاقات أبوية تذكرنا رأسا بجمهورية ساكني الكهوف التي تخيلها بالأمس منتسكيو . هل هذا يعني أن الريفيين لم يستلهموا سوى المبادئ الفاضلة في تسيير جمهوريتهم ؟ كلا ، بيد أننا لا نفهم كيف يمكن أن تنطبق عليهم صورة "الهمجي الشرير" التي اختلقها مؤخرا أقطاب الإديولوجية الاستعمارية . وهذا يعني أيضا أن الريفيين ، ودون محاولة إضفاء صبغة الكمال المثالي عليهم ، لابد وأن يكونوا قد احتفظوا بتلك الخصال الإنسانية التي ثبت وجودها لدى كثير من الشعوب البدائية ، والتي تجرّد منها عموما إنسان المجتمعات العصرية. من ذلك هذا الشعور الذي يجعل من الضيف رسولا من السماء ، حتى لو كان غريبا ، يتوجب إكرامه مهما كانت الظروف. ولم يكن ذلك يعني بالنسبة للريفيين ، وبشهادة الوثائق ، مجرد واجب وإنما فريضة يعاقب من تملص منها أمام الجماعة كما لو تعلق

الأمر بجنحة [16] . لقد صرح الفرنسي دي طايي (Du Taillis) حتى في حدود 1923 ، عندما كان متجولا بالريف ، وبدون تحيز أو إديولوجية مسبقة ، بأنه لم يلاحظ إلا الوفاء بالعهد ، وحسن معاملة الضيوف وأمن التجوال [17] . وإلى اليوم ، ما يزال المسافر الضمآن يجد في مسالك الجبال ما ينقع به غلته من الماء هنا أو هناك ، لكن بعيدا عن أي منبع مائي ، حيث توضع جرة ماء في مخبأ من أشعة الشمس ، تتولى أيد خفية مهمة ملئها في كل يوم . أما إذا توقف على عتبة كوخ طالبا جرعة ماء ، فيلزمه الدخول لتناول وجبة كاملة [18] . إن هذه المبادرات لم تكن تتخذ ، وبشهادة أصحابها ، إلا في سبيل الله. وباعتبار أنها ليست سوى من بقايا تقاليد الماضي ، فإنها تتنافى مع الفكرة القائلة بأن هذه التقاليد كانت مرتكزة على كراهية القريب . على كل حال ، فإن حكايات موليراس تبدو سخيفة وهي تتحدث عن تلك الجثث المتراكمة في السوق كل أسبوع ، إذ تكفي على هذه الوتيرة بضعة عقود لينقرض جميع الريفيين . أما أطروحة هارت التي تجعل من السوق ، بالعكس ، مكانا آمنا ، لكن في وسط عالم تسوده بمقتضى القانون نفسه روح الثأر والتناحر ، فهي لا ترتكز بدورها على أي أساس. فقد كان كل قتل يستوجب عقابا اجتماعيا ، سواء أتم في السوق أو في جهة أخرى. وهو عقاب قاس يصل إلى حد إنزال الخراب بالقاتل وبنفيه مع أسرته جمعاء . وكانت العقوبة بالإعدام هي وحدها التي لا يجري العمل بها . وهذا استثناء ملفت للانتباه بالنسبة لمجتمع يقال عنه إنه كان في حاجة إلى امتصاص دم أبنائه [19] .

علينا إذن بالاختصار أن نتخلص من الرؤية الرهيبة التي كانت تسود منذ 24 سنة. لقد عرف الريف كأي مجتمع آخر صراعات داخلية . لكنه عرف كأي مجتمع آخر كذلك كيف يجد سبيله إلى مواجهتها . كما أنه كان يفرض عقوبته على الجرائم والجنح ، ويرعى السلم الاجتماعي على الرغم من المصاعب . فبهذه الوسيلة عرف الريفيون على الأقل كيف يحافظون على وجودهم إن لم يكونوا قد تطوروا بشكل ملموس. حقا لقد عرفوا في عهد قريب من السهل تأريخه قلاقل خطيرة. إلا أن هذه القلاقل كانت بمثابة أزمة طارئة قطعت بصورة مفاجئة المجرى العادي للحياة التي عاشها الريف في السابق ، مما جعلها توسم في عقول الأجيال الحديثة بطابع مأساوي وتعطى لها تأويلات ملحمية. والحال أن السوسيولوجيين لم يأخذوا هذه الحكايات الأسطورية كأحداث تاريخية فحسب ، بل وأصروا كذلك على أن يفسروا على ضوئها تاريخ الريف كله منذ العهود الغابرة ، ضاربين عرض الحائط بشهادات الريفيين أنفسهم. فتعين عليهم إذن إرجاع سبب الفوضى إلى إحدى الشوائب الأصيلة الكامنة على الدوام في قلب

الرجل الريفي أو في مجتمعه ، مما جعلهم يمررون في الظل التدخل الأوربي الذي تغلغل مع ذلك في جميع الشؤون المغربية خلال القرن الماضي ، ووجد في الريف بالذات إحدى الأماكن المفضلة لممارساته. ولم ينتبهوا إلى هذا التدخل إلا في نهاية المطاف ليصرحوا بأنه هو وحده الذي وضع حدا لهذه الفوضى المزمنة. إن هذا الطرح يعني تقديم صورة معكوسة تماما عن الواقع. لقد عاش المجتمع الريفي وبقي قائما على الرغم من ركوده بمستوى جد متدني . ولئن كان يدين بذلك ، كما أسلفنا القول ، إلى مؤسساته الداخلية الملائمة ، فإننا سنرى أنه يدين بها أيضا إلى انتمائه إلى الدولة المغربية . أما الضغط الأوربي فهو الذي أدى إلى اختلال المنظومة بأسرها وهو الذي تسبب في الأزمة التي سبقت الإشارة إليها ، والتي سنحاول في الختام التعرض لها لبلورة جوانبها الرئيسية .

* * *

إن مثال الريف لمن الأمثلة التي عادة ما يستشهد بها لتجسيد تلك الأطروحة المتداولة التي تجعل سيادة السلطان في المغرب القديم مقصورة على بلاد "المخزن" ، من دون بلاد " السيبة ؛ التي كانت قبائلها ، مع اعترافها بسلطته الدينية ، ترفض الخضوع لحكمه ، كما ترفض أداء الضرائب . اذ حتى لو غضضنا الطرف عن الفوضى الضاربة أطنابها دوما هناك ، كيف يمكن تعليل وجود هذه السلطات الواسعة التي تتولى ممارستها في ميادين متعددة ، بما فيها الميدان القضائي ، مجالس منبثقة من السكان المحليين ؟ سيما و أن السلطان نفسه كان يتعلل بعجزه عن إخضاع هذه القبائل وذلك خلال النزاعات التي قامت منذ 1860 بين الأوربيين والقبائل الريفية. قبل الإجابة ، يجدر بنا أن نعيد النظر عن كتب في المسألة.

إن الكثيرين من الكتاب المعتادين على أمور العصر الحاضر لا يسلمون بوجود دولة إلا إذا كان حضورها مجسدا بجانب كل جشرة في شخص الدركي والقاضي والجابي والموظفين الآخرين المعينين مباشرة من العاصمة. بيد أنهم يتناسون أن هذه المركزية القوية ما هي إلا بذخ حديث ، أثارت منذ بدايتها ردود فعل قوية. كما يتناسون أن كثيرا من المدن ، حتى في أوربا وفي دول جد منظمة ، كانت بالأمس تتمتع بالبراءات الإعفائية، وأن كثيرا من الأقاليم حافظت على مجالسها ، التي كانت تساوم الملك في مساهماتها سنة بعد أخرى. لقد استنتج الكثيرون على ضوء الحرية التي كان الريفيون يديرون بها مقاليد حياتهم اليومية ، أن السلطان ، وهو مستبد في التعريف الذي أعطي له ، قد عانى الأمرّين في محاولة إخضاعهم. ولم يتفطنوا إلى أن المخزن الذي كان يقوم بوظائف اجتماعية إيجابية ، كان قادرا على كسب القبائل بدون اللجوء إلى العنف من

أجل إخضاعها. وإن السلطان كان يرى أن من مصلحته احترام مؤسسات تستجيب أيما استجابة لحاجيات شعبه في نفس الوقت الذي تعفيه من عناء تولي الإدارة بنفسه، شريطة أن يتحقق هدف كلا الطرفين. ما هي متطلبات السلطان من قبائله الريفية؟ إنها الضريبة أولا وبكيفية منتظمة. وهي ثانيا، ولكن عندما تدعو الحاجة إلى ذلك، تقديم مساهمة عسكرية. أما بالنسبة للقبائل، فما هي متطلباتها؟ إنها تريد سلطة قوية لحسم مادة النزاعات القائمة بينها، والقابلة للانفجار، وتريد دعما للبلاد في مواجهتها للمسيحيين الذين يحتلون شواطئها، حيث لم يكن بإمكانها إيقاف زحفهم بالاعتماد لا غير على قوتها. فهل التزم كل طرف بشروط هذا العقد؟ هذا هو الطرح الحقيقي والوحيد للسؤال. فإذا لم يكن الأمر كذلك، وأقررناه معززين بالوثائق، سيحق لنا الكلام حينئذ عن السيبة والعصيان وحتى عن الاستقلال. لكن الوثائق تفيدنا كلما عثرنا عليها أن الأمر كان على النقيض من ذلك، وهذا إن لم يكن دائما، فعلى الأقل إلى فجر هذا القرن، كما سبق القول. تفيدنا هذه الوثائق بادئ ذي بدء أن السلطان كان ينتدب دائما في الريف عاملا من أجل تمثيله، وأنه كان يتوفر على مجموعة من القصبات، هي عبارة عن ثكنات محصنة. كيف كان إذن بإمكان الريف "المستقل" أو "المتمرد" أن ينظر بعين الارتياح إلى وجود هاتين العلامتين اللتين كانتا تكرسان حضور السلطة المخزنية في عقر داره؟ لنضف أن هاتين العلامتين لم تكونا رمزيتين. فقد كان العامل يمارسهما بالفعل بمقتضى السلط التي يتقلد مهامها. فقد كان يمارس سلطات عسكرية تجاه الوحدات الإسبانية المرابطة على الشاطئ، والتي تراقب تحركاتها نصف القصبات. في حين كان النصف الآخر الموجود في قلب المنطقة، يزوده بالجند من أجل ممارسة سلطاته المدنية. فما هو الطابع الذي اتسمت به هاته السلط؟ ثمة مثالان سيفصحان لنا عنه.

قام ذات مرة نزاع حول تقسيم مياه السقي بين ثلاثة أفخاذ من قبيلة بني ورياغل. فكان أن سارع الفخذان اللذان اعتبرا نفسيهما متضررين من طرف الفخذ الثالث، إلى إيفاد ممثلين عنهما إلى العامل. بعد أن استدعى هذا الأخير الأطراف المتنازعة، قام بحسم مادة النزاع بينهما بمساعدة مجلس من القضاة، ثم تعهد الجميع باحترام الاتفاق الذي تم التوصل إليه [20].

في مرة أخرى قام نزاع بين قبيلتين متجاورتين، إحداهما ريفية، وهي متيوة، والأخرى تنتمي إلى اتحادية غمارة. فقد ساورت مجموعة أسر داخل القبيلة الثانية فكرة الاحتماء بمتيوة المجاورة لها، وحتى بالانضمام إليها مع أراضيها، نظرا لأنها كانت

مسؤولة عن جريمة قتل اقترفها أحد أفرادها. وهكذا فقد حاولت الانسلاخ عن السلطة القضائية لقبيلتها المحضة. إلا أن هذه ، وندرك سلفا ضغينتها ، استدارت ضد متيوة التي ساعدت على حبك الدسيسة . فها نحن إذن أمام مشكل يهدد باندلاع الحرب. بيد أن عامل غمارة تدخل باسم القبيلة المتضررة ، لا بشكل مباشر وإنما بإحالة القضية على السلطان نظرا لأن متيوة لا تندرج ضمن سلطته. وقد أصدر هذا الأخير فور اشعاره أوامره إلى عامله بالريف ليقوم بإلزام متيوة باحترام جيرانها الغماريين [21].

في كلا الحالتين ، كان الأمر يتعلق بقضايا تواجهت فيها إما أفخاذ أو قبائل. وهذا هو المستوى الذي ينحصر عنده بالفعل تدخل العامل الذي كانت مهمته تقوم علي السهر على السلم العام دون التدخل ، على مستوى أدنى ، في الشؤون الداخلية للقبائل. وهذا يجعلنا نفهم كيف أن عاملا واحدا كان كافيا للقيام بهذه المهمة إلى حدود 1880. وباستثناء الحالة المتعلقة بالقبائل الصغيرة جدا ، فقد كانت له علاقة مع الأفخاذ عن طريق أحد الشيوخ الذي أصبحت له بمقتضى ذلك حظوة بل وحتى سلطة ميزته عن نظرائه. ومما لا شك فيه أن العامل كان يلجأ إلى جنده لتسوية النزاعات ، لكن هؤلاء كانوا فيما يبدو أشبه بالمرسولين بالنظر إلى قلة عددهم. أما حقيقة قوته ، فتكمن في السلطة التي يجسدها في نظر الجميع بوصفه ممثلا للسلطان ، تلك السلطة التي تلتمس القبائل تدخلها تلقائيا عند الحاجة. كان بإمكانه أيضا أن يعتمد داخل قبيلة على بعض "الشرفاء" أو "الطلبة" ممن لهم شهرة دينية ، والذين كان تأثيرهم في المجتمع المغربي القديم أشد وقعا من جيش بكامله. إنها بالطبع سلطة على جانب كبير من المرونة والتقشف ، لكنها سلطة على كل حال. وإذا كان قد حدث تغيير على عهد مولاي الحسن ، فما ذلك إلا من أجل تقريب السلطة المركزية من القبائل ، عن طريق تعويض العامل الوحيد بقائد ، وأحيانا بأكثر ، على رأس كل منها. ففي أي وقت إذن حدث ثمة تنكر من جانب المخزن لامتيازاته؟

أما بالنسبة للريفيين ، فلم يثبت أحد إلى اليوم أنهم لم يكونوا يؤدون ضريبتهم إلى الدولة، إما نقدا أو جنودا. على العكس ، وأثناء حرب تطوان ضد اسبانيا سنة 1860 ، وجدنا وحدات الريفيين تتقاطر على جبهة سبتة على الرغم من بعدها عن الريف [22] ، بينما كان إخوانهم في عين المكان يضطلعون بعبء جبهة مليلية ، ويوجهون فيها للعدو ضربات قوية. هذا ما دفع بمحمد الخطيب ، النائب السلطاني ، عند تبليغه أخبار هذه الحوادث ، إلى أن يقترح تعبئة جيش ريفي بكامله ولو اقتضى الحال مكافأة الريف عن ذلك بإعفائه من الضرائب لمدة عشر سنوات [23] . فنرى من خلال هذا أمرين : أن

الريفيين كانوا يرتضون بالتضحية من أجل الذود ليس فحسب عن إقليمهم الضيق الرقعة ، وإنما عن مجموع التراب المغربي. وهذا ذو دلالة في حد ذاته. أما فيما يخص رفضهم دفع المال ، فينبغي أن نقتنع إن كانت تلك هي عادتهم ، بأنها على الأقل لم تكن شائعة ، طالما أن ممثل السلطان نفسه كان على غير علم بها ، كما يتبين من اقتراحه المتعلق بإعفاء الريفيين من الضرائب .

وبالفعل فقد كان على علم بها لأنها مجرد افتراء . ففي 1889 . أي بعد 29 سنة حدث أن بعض القبائل الريفية لم تمتثل للأمر بتوجيه جنودها للالتحاق بالمحلة السلطانية التي كانت تقوم بحركة عبر مجموع الشمال الغربي من البلاد . وعلى الرغم من أن امتناعها كان لعامل الزمن الذي انطبق مع موسم الحصاد ، فإن السلطان قام بمعاقبتها عن تخلفها ، بأن فرض غرامة على كل منها (24) . أليست مثل هذه المواقف ، من أولها إلى آخرها ، دليلا على أن السلطان كان يعامل الريفيين كما يعامل رعاياه الآخرين ، وأنه كان قادرا على القيام رأسا بذلك ؟

* * *

هذا مع العلم أن الحادثة الأخيرة وقعت في فترة تميزت بوقوع هزات عنيفة زعزعت مشاعر السكان الريفيين. لقد كان الشعور بالتبعية والولاء لدى هؤلاء السكان البسطاء يظهر حيال سلطانهم فيما يكنون له من تقدير ديني . وهكذا وحتى بداية هذا القرن ، كان يقال في الريف عندما يحتبس المطر: "إن سيدنا غاضب علينا". لنشر في سياق حديثنا إلى كم هو طريف أن نسمع البعض يردد أن سلطة العاهل في بلد متمرد ، كالريف ، لم تكن تكتسي سوى طابع ديني ، كما لو أن هذه السلطة الدينية ، الممارسة إزاء سكان مطبوعين بالطابع الديني ، لم تكن تتجاوز السلطة الزمنية. ولكن ، لاستئناف الحديث عن الريفيين ، المستعدين بكامل الخضوع لتقبل غضب سيدهم الذي يحبس عنهم المطر بسبب معاصيهم ، نقول إن هؤلاء الريفيين سيقعون في الحيرة لو قدم السلطان بالعكس لمعاقبتهم بما هم أهل له. وبالتالي كيف كان بإمكانهم أن يفهموا بوجه آخر المجرى الجديد للأحداث بعد 1860 ؟ لقد كانوا حتى هذه السنة بالذات قدحالوا دون تقدم الإسبانيين المحاصرين في مليلية وراء أسوارهم ، كما فعل أجدادهم منذ ثلاثة قرون. فإذا بالسلطان نفسه يلزمهم ، بعد استتباب السلم ، بالتخلي للعدو عن جزء من أراضيهم ، من حقول ومساكن ومسجد. وكما لاحظ ذلك شاهد عيان اسباني :"كان أمرا مقلقا للغاية بالنسبة للقبائل وهي ترى جيوش السلطان ، وعلى رأسها أمير ، تصل

لفرض إرادة أمة أجنبية عليهم. إنه لمشهد لم يسبق له نظيرفي هذه المملكة" [25] . كان حقا قلقا عميقا وجد معقد بلا ريب ، نجم عن حدة الغضب ضد الغزاة ، وكذلك عن الشعور بالألم من جهة ، وبخيبة الأمل من جهة أخرى ، حيال السلطان ، عندما ستتجدد مثل هذه الحوادث حتى نهاية القرن. ذلك أن جيوش السلطان ستعود إلى الريف في أربع مناسبات لقتل الناس وتحطيم المساكن [26] . وكان ذلك في كل مرة بسبب النزاعات المحلية مع الإسبان. فهل يصح القول بناء على ذلك ان الريفيين أصروا على ألا يكونوا مغاربة؟ أو أن نقول بالأحرى أنهم كمغاربة لم يرتضوا بالغزو الإسباني ؟

* * *

نحن على يقين بأننا سنصطدم في هذا الصدد بوجهة النظر التقليدية التي نجد بمقتضاها أن الشعب الريفي كان ، على العكس ، يثير بشكل إلزامي رد فعل الإسبان ، ومعهم الدول الأوربية الأخرى. إلا أن الحجة الرئيسية التي تقدم لتدعيم هذه الأطروحة تكمن في هذه القرصنة الشهيرة التي تكلمنا عنها في البداية ، والتي أثارت ضجة كبيرة أنذاك. بيد أن الوثائق المغربية التي أهملت إلى اليوم ستساعدنا ، كما سنرى ، على تسليط أضواء جديدة على هذه القضية .

لقد كانت التجارة البحرية في المغرب تتم عن طريق الساحل الأطلنتكي وحده تقريبا ، نظرا لأن النقاط المتوسطية سهلة البلوغ كانت ، لمدة عدة قرون ، بيد الإسبان أو تحت مراقبتهم. لذلك وعلى الرغم من وقوعه بمحاذاة بحر يعد من أكثر بحار العالم رواجا ، فإن الريف ، طريق المغرب المسدودة ، كان يعيش منعزلا عن العالم. لا ريب أن سبب تأخره الكبير راجع إلى هذا الوضع أكثر مما هو راجع إلى جباله أو تربته المجدبة. لكن مع 1860 ، عندما احتدمت المنافسة بين مختلف الدول الأوربية طمعا في غزو السوق المغربية ، فإن الريف الواقع تجاه جبل طارق وملقا قدم شواطئه المهجورة لتجارة تهريب هامة في عدة مجالات. فقد كان يعفي بالطبع من الرسوم الجمركية ، لكنه يفتح المجال أيضا لترويج البضائع المحظورة ، خاصة الأسلحة عند الوصول ، والماشية عند الإقلاع. أخيرا فقد كان يتيح إمكانية حبك الدسائس وسط القبائل الساحلية وفتح المجال أمام التسرب الأوربي. وكان التهريب ، بالإضافة إلى الأضرار التي يلحقها بمالية البلاد واقتصادها ، يتسبب في قيام اضطرابات داخلية تلغم سلطة الدولة ، كما كان يتسبب في وقوع اصطدامات تعمل على تبرير التدخل الأجنبي. وكل هذا كان يسهم في بلورة ما يسمى بالقضية المغربية .

أثار هذا الوضع الشاذ قلق السلطان الذي وجه نداءات ملحة ومتكررة إلى الحكومات الرئيسية المعنية لتكف عن تغطية المهربين الذين ينتمون إلى كل منها. لكن دون جدوى [27]. كانت العمليات تتم في الغالب في جون الحسيمة. في هذا الجون، على مسافة قريبة من الشط، كان يوجد محل إسباني تم تشييده فوق جزيرة. وتحت إشراف القبطان، تقوم السفن القادمة من ملقا أو من جبل طارق بإفراغ شحناتها من البترول، والشموع، والبنادق، والرصاص. بعد ذلك تتم إعادة نقل البضائع حتى الشط على متن بعض القوارب يمتلكها أفراد من قبيلة بقيوة، لا يتجاوز عددهم 12 رجلا. هؤلاء هم الذين كانوا يتقاسمون احتكار هذه التجارة [28]. أحيانا قد يحدث ما لم يكن في الحسبان. قد يُدفع ثمن بضاعة مسبقا دون أن يقع تسليمها بتاتا، أو أن يتم العثور على أحد الريفيين مقتولا على الحرشف بعدما كان انطلق إلى الجزيرة حيا يرزق. فنظرا لانعدام أي ملاذ، كان يتعين حينئذ أن يصفي المرء بنفسه حساباته بالوسائل التي تسنح بها الفرصة. أحسن وسيلة هي أن يقوم بأسر بعض رهائن مركب أوربي صغير قد يكون انحبس على مقربة من الشاطئ بسبب ضعف الرياح، ثم المساومة فيهم للحصول أخيرا على التعويضات [29]. حقا لا يتم ذلك إلا بعد ضجة صاخبة. من جهة، كانت الصحافة الأوربية تقوم بشن حملة مسعورة، ومن جهة أخرى كانت القطع البحرية تحضر أمام مرسى طنجة، في حين ينتاب القلق السلطان فينفجر مهددا، ويفاوض، ويتوسل، وينتهي به الأمر إلى تسديد الفاتورة على أن يحمل جميع أهل بقيوة وحتى جيرانهم على أداء ثمنها، يوما ما، دفعة واحدة، عندما تسنح له الفرصة بذلك.

ذلك هو السيناريو الذي كانت الأمور تجري بمقتضاه في الغالب في التسعينات، إلى أن تعقدت المسألة سنة 1896. في هذه السنة احتجز الإسبان ثلاثة عشر ريفيا، بينما احتجز أهل بقيوة فرنسيا ويونانيا، بالإضافة إلى بعض البرتغاليين. في هذه المرة، لم يحصل السلطان من البقيويين على أي تنازل، على الرغم من رصيده الدبلوماسي. ولكم كانت دهشته عندما اكتشف أن هؤلاء المتمردين لم يكونوا يعملون من تلقاء أنفسهم. ذلك أن جزائريا، يتقلد سلطات قنصلية من قبل دولة أوربية، قدم إلى عين المكان لتأجيج مقاومتهم، بالاشتراك مع الفرع المحلي للزاوية الوزانية، التي كانت محمية بدورها من طرف نفس الدولة، ومنقادة لخدمتها. لم يقتصر الأمر على هذا، إذ عندما لم ير السلطان منفذا إلا باستعمال القوة، ووجه حملة تأديبية إلى عين المكان، كان المجرمون قد لاذوا بالفرار " فهؤلاء القراصنة الذائعو الصيت، وعائلاتهم، وبطانتهم، أبحروا بسلام في اتجاه الجزائر، على متن سفينة بخارية قدمت حتى إلى

ديارهم لتنقلهم على متنها (30) .

إن هذا ما يعطي القرصنة أبعادها الحقيقية ومدلولها الصحيح. ففي ديار أزمورن وهم فخذ من قبيلة بقيوة الصغيرة ، كان حوالي اثني عشرة من المجرمين يضطلعون في عقر ديارهم بحركة التهريب الأوربي ، الذي كانوا ثمرة له ، تغطيهم وتحركهم دولة هي أيضا أوربية ، لخدمة أغراض الغزو . فإلى هؤلاء يدين الريفيون قاطبة بالضراوة التي اشتهروا بها ، والتي كرسها المؤرخون وأورثوها من بعدهم للسوسيولوجيين كإحدى معطيات العمل .

* * *

حوالي نفس الوقت تقريبا ، عندما تزعزعت في البلاد الريفية الثقة بالمخزن تحت تأثير الأحداث المذكورة أعلاه ، طرأت تغيرات هامة حتى وسط القبائل. فيما مضى كان كل رجل في الريف ، كما هو عليه الأمر في باقي جهات المغرب ، على الأقل في القبائل ، يقتني بندقيته بمجرد ما تتوفر له الوسائل بذلك ، بيد أن البندقية العتيقة ، التي كانت تفتقر من الناحية العملية إلى أسلوب التصويب ، والتي تسند بمشقة إلى الكتف لتخطئ هدفها على بعد عشرين قدما ، كانت ملائمة جدا في حرب بين فريقين تتوخى إسماع دوي البارود دون إراقة الدماء ، ولإنقاذ شرف الطرفين لا غير ، وإتاحة الفرصة حينئذ لتدخل الوسطاء المصالحين.

بيد أن الأمر سيختلف عن ذلك كثيرا عندما ستبدأ البندقية الحربية الأوربية ، التي تقتل ، ومن بعيد ، في التسرب عن طريق التهريب ، ابتداء من الثمانينات . بامتلاك هذا السلاح ، كان بإمكان أي شخص أن يتحدى الإرادة الجماعية داخل الفريق الذي ينتسب إليه. بالطبع ، وبعد ظهور بنادق أخرى بأيدي أفراد آخرين ، كان يتم إعادة التوازن. إلا أنه توازن من نوع خاص ، لا باعتباره غير قار ككل سلم مسلح ، وإنما لأنه كان يلزم ، بالنظر إلى الثمن ، أن يكون المرء غنيا لاقتناء السلاح الجديد والحصول على الذخائر بقدر كاف . بالتالي كانت أخطار الحرب محدودة. والظاهرة الحقيقية المستجدة هي أن الأقلية من الأغنياء لا يمكنها ، بعد التسلح ، إلا أن تدرك أن من مصلحتها التفاهم ، رغم أسباب النزاع بينها ، لتفرض إرادتها الجماعية على الأغلبية الساحقة من "إخوانها" العزل أو ناقصي التسليح. بالفعل ، وحتى في أشد الفترات اضطرابا ، والتي ينبغي حصرها – كما سنرى – بين 1910-1920 ، وهو الوقت الذي لم تعد فيه البندقية أداة نادرة في البلاد ، لم يحدث إطلاقا ما يذكر بالمجازر التي رواها أو أوحى

بها موليراس ووسترمارك (Mouliéras- Westermarck) . ظلت السوق بالنسبة لهؤلاء الجمهوريين المتأصلين ساحة للنقاش حتى في الوقت الذي احتدمت فيهم أهواؤهم السياسية ، تتخذ فيها المعركة شكلا كلاميا ، ولا يلجأ إلى السلاح إلا في الحالات القصوى. على العكس فإن جمهوريتهم هي التي اتخذت الآن شكلا مخالفا ، وجه أولغارشية تمكنت فيها الفئة الأكثر غنى ، والتي استقوت بأسلحتها ، ولكن أيضا باتفاقها ، من أن تزداد ثراء على حساب الكتلة الساحقة . استطاعت بدون تغيير المؤسسات ، وبتحريف مجراها لا غير ، أن تحول نفوذها إلى سلطة سياسية حقيقية [31] . أما بالنسبة للفلاحين الميسورين سابقا ، فقد انتقلوا إلى حالة أتباع بعدما تقلصت وضعيتهم الاقتصادية والسياسية .

* * *

نتصور مدى البلبلة التي تمكنت في هذه الظروف من الاستحواذ على عقول الريفيين في بداية هذا القرن. فعلى مستوى القمة والقاعدة من حياتهم تزعزعت كل مفاهيمهم التقليدية. إذ بينما كان السلطان ، في المستوى الأول ، قد تركهم وشأنهم ، ويبدو لهم منحازا ضدهم إلى جانب اسبانيا ، كان عليهم ، في المستوى الثاني ، هم الرجال الأحرار ، أن يطأطئوا الرأس أمام عدد قليل ممن كانوا أندادا لهم في الماضي. أي شيء إذن يحمل على الدهشة إذا كان الريف قد استجاب بسرعة وعلى نطاق واسع لنداء بو حمارة الشهير ، بوكاشتيف المغربي (Pougatchev) ، الذي انتصب ضد المولى عبد العزيز سنة 1902 ؟ لم تكن هذه الاستجابة بالنسبة للريفيين ، كما قيل فورا ، بدافع من الميل إلى الانشقاق ، ذلك أن الدعي كان يمثل في نظرهم الوريث الشرعي ، الإبن الأكبر للعاهل الراحل ، وكانوا يعتقدون أنهم سيجدون سلطانهم بالضبط في هذا البطل المزيف للقضية الوطنية. ولم ينبذوا عنهم هذا الوهم إلا ليعلقوا آمالهم ، مع جميع المغاربة ، على ابن آخر من أبناء المولى الحسن ، هو عبد الحفيظ ، الذي كان الأمل معقودا عليه لإنقاذ البلاد. لكن ها هو ذا السلطان بدوره ، بعد أن تركهم وحدهم يقارعون الإسبان ، لا يتدخل في نهاية المعارك إلا لقبول الهزيمة بالتوقيع على اتفاقيات 1910 . ثم بعد سنتين ، كان هوالذي وقع أيضا معاهدة الحماية التي سلمت البلاد كلها. بالتأكيد ، لقد انهارت كل الآمال المعقودة على هذا الجانب.

هل كان بإمكان القبائل على الأقل أن تعتمد على نفسها بالنظر إلى الحالة الجديدة السائدة في كثير منها ؟ إن صغار الأوليغارشيين ، الذين فرضوا منذئذ أنفسهم عليها بأسلحتهم ، ومتاعهم ، وأتباعهم ، لم يكونوا آخر من استخلص العبر من فشل

الملكية المغربية. فبما أن الهيمنة الآتية لاسبانيا على الريف ، لم تعد توضع موضع شك ، فان آفاقا وأسعة انفتحت أمام أولئك الذين سيساعدون ، وبشكل فعال ، على مجرى الأحداث. مسبقا ، حدث بينهم تنافس حول الامتيازات والمكافآت التي كان الإسبان يغدقونها قبل الأوان ، وقدموا أنفسهم لهم كأعوان نشيطين.

منذئذ لم يبق أمام عامة الشعب ، الذين لم يكونوا يتوسمون أي خير في الإسبان ، ويقفون بقوة ضد سيطرتهم ، إلا أن ينضموا لمقاومتهم ، تحت راية أي قائد جديد يظهر على مسرح الأحداث. وهكذا فقد ظهر بالفعل منذ 1910 محمد أمزيان ، الذي بدأ معه تكتل أولائك الذين سيطلق عليهم "فريق عامة الناس". إلا أن وفاة أمزيان في المعركة في ماي 1912 أحدث فراغا كبيرا كان الإحساس به شديدا خاصة وأن المخزن كان قد ارتمى حقيقة هذه المرة في أحضان الحماية ، وترك بصفة نهائية هذه الوحدات القبلية وشأنها ، بعدما كان دائما عنصر تماسكها. كان يتعين على هذه الدويلات أن تتلمس طريقها بحثا عن بعضها البعض ، وأن تجد من الآن فصاعدا سبل الوحدة. بيد أن الفئة القليلة من الأعيان ، المأجورة من طرف اسبانيا ، والتي تتلقى الأوامر من مليلية ، كانت تعمل بالعكس على تأجيج الخلاف ، مستغلة نفوذها الذي تزايد شأنه. إذا ذاك ، إذ ذاك لا غير ، أخذ الريف يتسم بالمعالم المشابهة ، ولكن من بعيد – وهذا ما ينبغي توضيحه – للصورة الرهيبة التي يود البعض رسم خطوطها العريضة. سنورد في هذا الصدد شهادتين لا يمكن أن نجد ما هو أوثق منهما. الأولى صادرة عن ضابط قاد بنفسه ، ولحساب اسبانيا ، أعمال التخريب التي نحن بصدد الحديث عنها. ففي التوضيح الذي قدمه فيما بعد أمام لجنة التحقيق المعينة من طرف الكورتس ، صرح هذا الضابط ، وهو العقيد ريكلمي ، متحدثا عن أحد عملائه من أعيان قبيلة بني ورياغل :

"كانت الخطة ترتكز على العمل بشكل تصبح معه قبيلة بني ورياغل في حالة حرب مستمرة ، عن طريق تحطيم المنظومة المسماة ب "منظومة الغرامات". لقد كانت القبيلة تفرض غرامة عندما تقع جريمة قتل ، وبذلك يستتب السلم. إلا أن الخطة التي اعتمدتها كانت تقوم بالضبط على الحيلولة دون أداء هذه الغرامة. منذئذ وقع اللجوء إلى التراشق بطلقات النار في الأسواق التي تعطل جمعها ، وتمخضت عن ذلك المطالبة بالثأر ، وبديون الدم. كان القتل يتم من قرية لأخرى ، ولم تتمكن القبيلة إطلاقا من التوصل إلى اتفاق بينها للإلتحاق بأولائك الذين كانوا يحاربوننا. لقد تمكننا من الحفاظ على هذا الوضع طوال سنوات عدة. كانت الحرب دائما بينهم ، ولم تكن أبدا ضدنا" (32).

الشهادة الثانية صادرة عن مستوى أعلى . إنها رواية كوميث خوردانة Gomez Jordana الذي كان قائدا عاما خلال ثلاث سنوات لوحدات الاحتلال في قطاع مليلية ، ثم وإلى غاية وفاته سنة 1918 رئيسا للحملة الإسبانية في المغرب. في 1914 كتب إلى السيناتور الدون توماس ميستيري (Don Tomás Maestre) متحدثا عن الريف الذي كان يعمل جادا لغزوه :

"إن هذا الفريق الموجود رهن إشارتي في مجموع أراضي العدو ، هو الذي يتيح بسهولة تفكيك التكتلات المسلحة التي كانت قد احتشدت في جو حماسي لإبادتنا. فأعضاء هذا الفريق لا بد وأن ينفذوا داخل هذه التكتلات لكي يزرعوا فيها روح الهزيمة قبل أن نتعرض لأي هجوم. وهذا الفريق هو الذي يثير أيضا بينها ، وحسب رغبتي ، صراعات دامية ، كتلك التي تمزق مثلا ، في هذه الآونة ، قبيلتي بقيوة وبني ورياغل بغية شل الريف عن إرسال أي وحدة للقتال على وادي كرت. فبالنسبة لهؤلاء الأهالي تبقى الحرب المستمرة دائما مثلا أعلى. لا أدل على ذلك من أنهم لا ينفكون عن القتال فيما بينهم ، قبيلة ضد قبيلة ، أسرة ضد أسرة ، رجلا ضد رجل. لكن ما يلاحظ هو أن نشاطنا السياسي يعمل على تحريف إرادتهم عن الهدف الذي ارتضوا بأنفسهم أن يكون مخصصا لها. لذلك فإنهم يقضون كيانهم ويحطمونه بأنفسهم ، بلا وعي ، وكضرورة أولية للكفاح الذي يريدون خوضه فيما بعد ، في حين أننا نتابع طريقنا بعزم وسكينة" (33) .

* * *

في التصريح الذي قرأناه الساعة نجد حقا إشارة إلى " مثل أعلى لحرب مستمرة"، من شأنه أن يعمل على إشغال الريفيين ، وهو يشابه كثيرا ما ذكره جميع المؤلفين الذين نخالفهم في الرأي. لكن ، لنلاحظ أن الجنرال خوردانه لا يعبر ، عند تقديمه ، إلا عن رأي لا نجد مندوحة عن القول بأنه يفتقر إلى التفكير الرصين ، نظرا لأن شهادته نفسها مناقضة له من أولها إلى آخرها ، ولأن الشهادة المتطابقة للعقيد ريكلمي تناقضه أيضا في جميع النقاط. يبقى إذن أن الشاهدين المذكورين يضعاننا ، بصراحتهما الجديرة بالتقدير ، أمام عنصر تعمد البعض تجاهله ، مع العلم أنه يشكل المفتاح نفسه للقضية. إن دراسة المجتمع الريفي بمعزل عن التدخلات الأجنبية سيكون بمثابة التقوقع داخل البيضة والتغافل عن الدجاجة التي تحضنها. عندما يخبرنا هارت بأن أهل الريف يفضلون إشاعة دين الدم بدلا من قبض ثمنه (34) ، فإنه لم يكن يعلم أن هذا كان من عمل العقيد ريكلمي. من هنا جاء تفسيره القائم على التربة الجدباء ، والإنجاب الريفي

المفرط. إن أميليي بلانكو إيزاكا (Emilio Blanco Izaga) يرق قلبه لمجتمع تعجز مؤسساته، كما يقول ، عن انتشاله من الفوضى[35]. ويزايد دافيد هارت ، نظرا لأن هذه المؤسسات ما وجدت في نظره إلا لتكريس الفوضى. أما العقيد ريكلمي الذي كان يوجدفي مكان مناسب ، ويدفع الثمن ، بالمعنى الحقيقي للكلمة ، لمعرفة ذلك ، فقد أعاد وضع الأمور في نصابها : "كانت القبيلة تفرض غرامة عندما تقع جريمة قتل ، وبذلك يستتب السلم". بكلمة أخرى ، فإن القبيلة لم تكن تستهدف سوى صيانة السلم الاجتماعي ، وفق التحليل الذي قمنا به أعلاه به ، وكانت تصونه بالفعل في الظروف العادية. لهذا لم يكن بالإمكان زرع الفوضى إلا بشل المنظومة من الخارج. بكلمة أخرى ، لكن هذه المرة من وجهة النظر المتعلقة بالتسلسل التاريخي ، كان الريف يعيش في سلام، ولم تشتعل الحرب تدريجيا إلا بعدما حل فجأة الأجنبي. وهذه النتيجة تلتقي مع ما سبق أن قلناه عن الطابع الحديث للاضطرابات ، وأيضا مع ما يقوله الريفيون .

من أجل تأريخ أحسن للأحداث ، ينبغي القول اننا لا نعني بالأجنبي هنا الإسباني وحده ، خاصة في البدايات. فكما رأينا ، كان الممثل الرسمي لفرنسا هو الذي نظم منذ ما قبل 1900 قضية القراصنة الشهيرة. وعلى فرض أن نشاط الفرنسيين توقف يوما ما ، فإنه استمر على الأقل زهاء عشر سنوات أخرى. تجدر الإشارة في هذا الصدد ، فضلا عن ذلك ، إلى أمر غريب. فمن أجل الدلالة على هذه الفترة ، التي تهمنا، اختار الريفيون لفظا غريبا ، هو "ريبوبليك". كيف نفذ إلى المنطقة ولكي يلعب هذا الدور؟ إن دافيد هارت لم يندهش كثيرا عند اكتشافه إياه. مع ذلك فمن الأهمية بمكان استجلاء هذه النقطة التي تدخل ضمن علم الدلالة والاشتقاق. من الواضح أن الريفيين لم يتمكنوا من تلقاء أنفسهم من الغوص وراءه . أما فيما يخص معرفة من الذي أوحى إليهم به في عين المكان ، فذلك أمر ليس بالسهل . لكن من بين جميع الألفاظ الدخيلة المشتقة في العصر من اللغات الأوربية ، يلاحظ أن هذا اللفظ وحده ، أو وحده تقريبا ، كان لا ينطق على النبرة الاسبانية ، وانما على الطريقة الفرنسية ، كما وقف على ذلك هارت : "ريبوبليك" ، وكما وقفنا عليه نحن بأنفسنا "ريفوبليك".

لنوضح مع ذلك أن الاضطرابات الواقعة قبل 1910 لم تكن سوى مؤشرات ، بالرغم من أهميتها سواء أتم توظيفها لصالح الفرنسيين أو لمنافسيهم الاسبان. بالمقابل، فقد تم تأسيس "مكاتب الشؤون الأهلية" (Oficinas de Asuntos Indigenas) سنة 1908 ، وابتداء من هذا التاريخ تحددت الأزمة ، واتخذت بسرعة طابعا حادا ، الى درجة أن الجنرال خوردانة سيتبجح بعد ست سنوات بأنه أذكى نيران الحرب حسب مشيئته هنا

وهناك . هذه هي الحقيقة . وسيستمر الوضع على هذا المنوال الى غاية 1920 .

أما بخصوص الفريق الذي كان الاسبان يستخدمونه لهذه الأغراض ، فاننا سنراه يقوم بعمله في الصفحات التالية . لنكتف بالقول الآن ان الاسبان كانت لهم منذ ما قبل 1908 بكثير علاقات متصلة مع صغار الأوليغارشيين الذين برزوا في غضون العقود الأخيرة . ونعرف فيما يخص هؤلاء الأخيرين أن ظهورهم جاء متزامنا مع ظهور البندقية العصرية وبالتالي مع التهريب والتدخل الاجنبي . لم يفت الاسبان من جهتهم ، تدعيم نفوذ هؤلاء بواسطة امتيازات متعددة ، خاصة عن طريق السماح لهم باقتناء الأسلحة من اسبانيا ، وجعلهم وسطاء الزاميين بينهم وبين السكان الريفيين في علاقات الجوار ، الحسنة منها والسيئة ، تلك العلاقات التي كانت تنمو شيئا فشيئا . وعلى الاعيان (Hombres de prestigio) ستتوزع قريبا ، على قدر الاستحقاق ، المعاشات الشهرية لتشكيل فريق أصدقاء اسبانيا وتعاطي النشاط الذي نحن على علم به .

ماكان هذا ليحدث بسهولة لولا الفراغ الذي طرأ في الريف لسلطة العاهل . وهو فراغ فعلي نجم ، بادئ ذي بدء ، كما رأينا ، عن ضعف الدولة المغربية المتزايد من جراء الاغتصابات الأجنبية . وهو فراغ رسمي بعدما فصل شمال البلاد عن سلطته التشريعية سنة 1912 . فبعد غيابها لم تعد السلطة المذكورة قادرة ، كما كانت عليه في الماضي ، على سد الطريق أمام كل علاقة غير قانونية بين اسبانيا وبين أمثال تلك الفئة من رعاياه. وهكذا لم يعد بامكانها أن تقوم بدور التحكيم في النزاعات والحيلولة دون وقوع الاصطدامات وتحذير المحرضين على الفتن . لذلك ، وعلى عكس الرأي الشائع ، لم تكن فوضى الريفيين المزعومة هي التي أدت الى حركة عصيان مزمنة ضد المخزن ، بل بالعكس كان العجز الذي اعترى هذا الأخير في الفترة الحديثة هو الذي فتح المجال أمام فوضى حقيقية .

يبقى أن نحدد على كل حال المضمون الحقيقي لوضع ننعته تساهلا ، كما فعل أخرون ، بكلمة الفوضى هاته والمأخوذة بمفهومها العام . انه وضع تصورناه حتى اليوم كفوضى ضارية أطنابها لا تخضع وقائعها لاي منطق بشري ، لا هدف لها ولا اتجاه لها ، الا أنها تقود المجتمع الى حافة الدمار وتحطيم كيانه بنفسه . كانت أتفه حادثة تؤدي الى نشوب الحرب فتنتشر نيرانها انتشار النار في الهشيم بمقتضى منظومة بالغة التعقيد من التحالفات التي نجد مشقة في استجلاء تشابكاتها السلالية العويصة. أما بالنسبة للأفراد ، وهم أدوات مسخرة بيد الأقدار ، فلم يبق لهم الا القتل أو الاستلام

للقتل حتى الفناء . نرى أن الصورة أجيد رسمها لتذكيرنا بمأساة أشيل (Eschyle) - ومن الممكن أن الامر هنا لم يكن مجرد صدفة - بيد أن روابطها بعيدة أشد البعد و الحقيقة التاريخية . أولا ، وقد سبق أن أفصحنا عن هذا ، انها تنطوي على كثير من الغلو . ففي التقارير الوافية الموجهة في طراوتها من طرف ضباط المخابرات الاسبانية لا نجد أي أثر لهذه المذابح . أحيانا ، كان يتم احراق عدد من المساكن . لكن القتل كان يحدث بدرجة أقل . وعلى سبيل المثال ، فقد ترك اغتيال الشريف بورجيلة أثرا عميقا الى حد أن الناس لا يزالون الى اليوم يتحدثون عنه في الريف . وثانيا ، وهذا هو الأهم ، لم تكن الحرب الحقيقية تنشب بسبب هلاك كلب ، ولا بسبب مشاكل الجوار ، كما أنها لم تكن بلا هدف . انما كانت دوافعها توجد في مستوى أعلى . يقول خوردانه : " ان الهدف الذي ارتضاه الريفيون هو خوض الكفاح ضدنا". فالأمر يتعلق هنا لا أقل ولا أكثر بطموح وطني . وهو شعور شائع على نطاق واسع مادمنا نرى ، حسب نفس الشاهد ، أن " التكتلات كانت قد احتشدت في جو حماسي لابادتنا" . من ثم ضرورة العمل السياسي عن طريق العملاء الريفيين الذين عملوا جادين على اثارة صراعات هامشية . وهكذا فقد انتقصوا بالطبع من مستوى الكفاح في نفس الوقت الذي لفوا أهدافه بهالة من الغموض . فكان الريفيون يتقاتلون فيما بينهم بدلا من التوجه إلى القتال على وادي كرت. لكن، إذا كان عدد كبير قد انساق وراء الدعوة إلى الفتنة ، فإن عدداً كبيرا آخر قد أماط اللثام عنها وانتصب ضد محركيها : "فإنهم يقضون بأنفسهم كيانهم كضرورة أولية للكفاح الذي يريدون خوضه ضدنا فيما بعد". لنعدل قليلا من حدة الغلو التي تنطوي عليها بداية الجملة هاته ، باعتبار أن الريفيين لم يفن بعضهم بعضا ، ولننتبه كما يدلنا على ذلك الجنرال خوردانه ، ولكن بعبارات أخرى ، إلى أن الكفاح الوطني الذي تعين شنه ضد اسبانيا قد واكبه كفاح سياسي تعين خوضه في الداخل ، بادئ ذي بدء ، أو جنبا لجنب ، ضد دعاة الفتنة .

إذا كانت روح الانتقام قد طغت بإغراء من هذه الفئة الأخيرة ، مؤلبة جماعات بكاملها بعضها ضد البعض الآخر ، بمقتضى منظومة التضامن ، فإن العناصر الواعية كانت تتدخل أكثر فأكثر لإعادة استتباب السلم. حينئذ كانت النزاعات القائمة بين الأفراد أو العشائر تختفي لتحل محلها بالتأكيد أعمال عنف ، لكنها تقوم ضد هذا أو ذاك من الأعيان الموجودين في خدمة اسبانيا ، ضد متاعه الذي ينهب ، أو ضد شخصه ولكن بدرجة أقل في الغالب . كانت مثل هذه الأعمال تؤدي بدورها إلى اضطرابات ، إلا أن هاته بالذات قوبلت بعدم الرضى من طرف اسبانيا. وبعدم التمييز بينها وبين

الاضطرابات الأخرى ، تلك التي كانت هي نفسها تحرض عليها ، سنكون في موقف يتعذر معه علينا تماما استيعاب التحول العميق الذي طرأ داخل القبائل الريفية ، والنتائج التاريخية المتمخضة عنه. في الخلافات المحبوكة من طرف مأجوري اسبانيا ، فقد تم توظيف الروابط القديمة لتضامن المجموعة أو الفخذ. لكن في الكفاح ضد اسبانيا ، فإن مقياسا جديدا ذا طابع اجتماعي سياسي هو الذي قاد التجمعات. من جهة ، هناك فريق الأعيان ، إن لم يكونوا في مجموعهم فعلى الأقل في غالبيتهم ، سواء أكانوا ينتمون إلى مجموعة أو فخذ أو قبيلة . في الجانب المقابل ، هناك فريق "حزب عامة الناس" ممن يسعون إلى ربط الصلات بينهم ، ويجدون بعضهم بعضا فيما وراء حدود المجموعات. وبين الفريقين ، تنتصب كتلة مترددة ما تزال خاضعة لمنظومة التضامن ، وتدخل إذن في إطار لعبة الأعيان. لكنها تستيقظ تحت ضغط الظروف لتعي الواقع الجديد ، وستقابل بآذان صاغية أكثر فأكثر نداءات الفريق المعارض. إنها حالة مضطربة بالطبع ، نظرا لأن الكفاح السياسي كان على أشده . وهي حالة يشوبها ظاهريا الغموض ، لكن بالنسبة لملاحظ تعوزه الخبرة. إلا أنها لم تكن غامضة لا بالنسبة للإسبانيين ، ولا بالنسبة لكلا الفريقين الذين كانا يتجابهان بصددهم. وهي أيضا حالة كفاح غير منظم في ظاهره ، لأنه غالبا ما يتكرر ، مع ذلك فقد كان يتجه نحو منفذ بمقدار ما كانت الكتلة المترددة تتحرر من هيمنة الأعيان لتنقلب يوما ما إلى جبهة المعسكر الآخر. ولقد حل هذا اليوم . فبعد سبع سنوات من التصريحات الشافية التي أدلى بها خوردانة ، وعلى الرغم من الآثار التي خلفها عجز المخزن وخيانة أعيانهم ، فان جميع الريفيين وجدوا أنفسهم متحدين في مختلف أطراف الاقليم ، وبدون تمييز قبلي. فاذن لم يكونوا قد أفنوا بعضهم بعضا ، بل بالعكس فان وحدتهم أعطتهم قوة كان أعداؤهم هم الذين اختبروا فعاليتها في النهاية ، على الرغم من أنها تمت في ظروف جد مستجدة .

وبهذا يكون الدليل قد أقيم على الحيوية وعلى فضائل التكيف التي كانت تنطوي عليها منظومتهم العتيقة .

الهوامـــش

1) حسب احصاء تقديري بالطبع أجرته حكومة محمد بن عبد الكريم الخطابي خلال حرب الريف ، وقد استند اليه محمد أزرقان في مخطوطه : "الظل الوريف في محاربة الريف" ، ص 3 و 4 .

2) Auguste MOULIÉRAS : Le Maroc inconnu, Oran , 1895 , pp .132 et 83.

3) Jacques DUMAINE : Les éléments du problème rifain ; in Renseignements Coloniaux " , fév. 1926 ; Robert MONTAGNE : Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc , pp . 238-241 ; (Paris, 1930) , et " La vie sociale et politique des Berbères (Leçons professées à la Faculté des Lettres de l'Université de Paris ; nov-déc. , 1930) Paris 1931 , p. 32.

4) Edward Westermarck : Ritual and belief in Morocco ; 2 vol. ; Londres , 1928 , vol. II , p. 12.

5) "In the last century the Ait Wuryaghil found blood feuding a sure outlet to reduce their over-population" ; David MONTGOMERY HART : An ethnologic survey of the rifian tribe of Ait Wuryaghil, in Tamuda, II, 1954, pp. 51-86.

وفي موضع آخر :

كان الريف الأوسط دائما منطقة مكتظة بالسكان. ولمعالجة هذا المشكل كان يلجأ دائما الى حلين :

1) الهجرة العمالية الى الجزائر... 2) شريعة النحل ، الانتقام ، أخذ الثأر ، وديون الدم ، التي كانت سائدة على الارجح لدى بني ورياغل أكثر مما كانت عليه في سائر القبائل المغربية الأخرى :

De Ripublic à République : Les institutions socio-politiques rifaines et les réformes d'Abdelkrim , communication présentée au Colloque international d'Etudes historiques et sociologiques tenu à Paris du 18 au 20 janvier 1973, pp. 36-37, des Actes dudit colloque publiés sous le titre "Abdelkrim et la République du Rif" , Maspero , Paris : 1976.

6) De Ripublik à République ; p . 37

7) الهدف الرئيسي من هذا القانون هو جعل السوق ويوم السوق اليوم الوحيد و المكان الوحيد للسلم داخل أسبوع يكون مشحونا باعمال الانتقام "، (المرجع نفسه، ص 37) .

8) أضاف هارت بعد أن ذكر بأن كلمة :"ريبوبليك" Ripublik تعني عند الريفيين حالة "الفوضى القبلية" : " اذا كان بعض مخبرينا قد الحوا على أن "ريبوبليك" بدأت بعد الحملة التي قامت بها المحلة الشريفة على الريف بقيادة بوشتة البغدادي لتاديب القراصنة البقيويين سنة 1898.... فاننا نعتقد شخصيا أن شعار ريبوبليك يلخص القسم الاكبر من تاريخ الريف الاجتماعي.." (المرجع نفسه، ص 35) . وفي موضع آخر حدد بداية هذه المرحلة من الفوضى بتحطيم مملكة النكور من طرف يوسف بن تاشفين عام 1084م (نفسه ، ص 36) .

9) Germain AYACHE : "Société rifaine et pouvoir central marocain, 1850-1920", in Revue Historique, CCLIV 2 ; 1975.

10) لانتوفر على معطيات كتابية عن ظروف الحياة الاقتصادية في الريف فيما قبل الحماية . بيد أنه قد ظل بالامكان رصد جوانبها حتى بعد الاحتلال الاسباني والتغيرات التي تمكن من احداثها ، خاصة فيما يتعلق بمستوى الانتاج ، وتوزيع الأراضي ، والعلاقات المرتبطة بالانتاج . ينظر في هذا الصدد :

Emilio BLANCO IZAGA : La vivienda rifeña (curso de perfeccionamiento de oficiales del Servicio de Intervención , Revista" Africa" , Ceuta 1930), Andres SANCHEZ PÉREZ : Aprovechamientos comunales y formas de cooperacíon en las Yemaas del Rif , "Africa", Madrid, nov. 1947, et G. MAURER, Les paysans du Haut Rif central, in "Revue de Géographie du Maroc", n 14, 1968.

11) في الحدود الضيقة لهذه الدراسة التي تكتسي طابعا تاريخيا أكثر منه سوسيولوجيا ، نقتصر على ابراز السمات العامة للحياة الاجتماعية والسياسية ، متحاشين على وجه الخصوص ، فيما عدا بعض الاستثناءات الضرورية أو المناسبة ، استعمال المصطلحات العربية أو البربرية ، للدلالة على المؤسسات . لمزيد من التفاصيل ينظر أساسا :

Robert MONTAGNE , op. cit. ,

الذي قدم شروحا عديدة حول الريف ، وخاصة : هارت David HART الذي يعد بحق أفضل خبير بالحياة الريفية بفضل دراسة الميدانية الطويلة لها . هذه الدراسة موجودة حاليا تحت الطبع [صدرت تحت عنوان :

The Ait Waryaghar of the Moroccan Rif. An ethnography and history ; Tucson , the University of Arizona Press , 1976 , in 4, 556P.]

الا أن المؤلف تفضل بتزويدنا بفصول من مخطوطه تهمنا مباشرة .

هذا وقد أذاع المؤلف وجهة نظره من المسألة في الدراسات التي أشرنا اليها سابقا وكذلك في الدراسات التالية :

"Emilio Blanco Izaga and the Berbers of the central Rif", in "Tamuda", VI, 1958, pp.171-237, et "Clan, lignage et communauté locale dans une tribu rifaine" , in "Revue de Géographie du Maroc" no 8, 1965, pp. 25 -33.

أخيرا فقد اعتمدنا على مجموعة من الوثائق المكتوبة بالعربية وهي نفيسة ، جمعها في الريف اميلو بلانكو ايزاكا ونشرها بنفسه مع ترجمتها الاسبانية وتعليقات عليها ، تحت عنوان :

El Rif, 2a parte : La ley rifeña , II. Les canones comentados, Ceuta, 1939 .

وان اعادة التمحيص المباشر لهذه الوثائق النفيسة ، التي قمنا بها شخصيا ، ثم الانكباب على تمحيص وثائق مغربية أخرى غير منشورة هو الذي مكننا من التوصل الى النتائج المخالفة لتلك التي استخلصها كل من بلانكوايزاكا و دافيد هارت .

12) في دراسة حديثة ، أظهر الباحث المغربي المقتدر أحمد التوفيق ، وعلى أحسن وجه هذه الدورة التي تفضي الى تطور ، وذلك بخصوص اينولتان ، القبيلة المغربية المقيمة بجبال الأطلس الأوسط والتي تذكرنا حالتها من بعض الوجوه بحالة القبائل الريفية : "مساهمة في دراسة المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر : اينولتان ، 1850-1912" ، منشورات كلية الآداب و العلوم الانسانية بالرباط ج1 ، 1978 ، ج2 ، 1980 .

13) الوثيقة رقم 4 من المجموعة السابقة الذكر التي نشرها اميليو ابلانكوايزاكا .

14) المصدر نفسه (Canon de los Ait Jattab)

15) Robert MONTAGNE : Les Berbères et le Makhzen...:

ch. IV et V du livre II.

16) نفس المصدر المذكور في الهامش 13.

17) J. du TAILLIS : "Le nouveau Maroc" ; Paris ; 1923 ; p. 327.

18) شهادة شخصية للمؤلف .

19) لمزيد من التفاصيل تستسمح للاحالة على دراستنا السابقة الذكر :

Société rifaine et pouvoir central marocain...

حيث قمنا بتقديم المشكل ومناقشته من مختلف جوانبه .

20) الوثيقة المنشورة من طرف بلانكو ايزاكا ، مصدر سبق ذكره ، ص 120.

21) رسالة أحمد بن مرزوق ، عامل غمارة ، الى السلطان المولى عبد الرحمن ، بتاريخ 5 ربيع الأول 22/1263 فبراير 1847 ، مع الملاحظات المثبتة على ظهرها (مجموعة الوثائق المصورة الموجودة في حوزة المؤلف) .

22) رسالة محمد الخطيب الى محمد الزيدي ، بتاريخ 27 جمادى الأولى 20/1276 دجنبر 1859 ، أوردها : ابن زيدان "اتحاف أعلام الناس" ج 3 ، ص429 ، 430 ، الرباط 1931 .

23) رسالة محمد الخطيب الى السلطان سيدي محمد ، بتاريخ 8 شعبان 21/1276 مارس 1860 . الوثائق الكتانية ، الرباط ، 1 ،5 ، زي .

24) بيان الغرامات المفروضة على القبائل الريفية ، وثيقة مؤرخة في 14 ربيع الثاني 8/1307 نونبر 1889 . الوثائق الملكية بالرباط، محفظة ب ، غير مرقمة .

25) رسالة ميري اي كولون (Merry y Colon) ، الوزير المقيم لاسبانيا بطنجة ، الموجهة الى وزير الدولة بمدريد ، في 19 نوفمبر 1863 ، أوردها :

J.BECKER :" Historia de Marruecos" ; p. 286.

26) في 1864 جردت حملة تأديبية ضد سكان الحسيمة بناء على استرعاء الاسبان ، بعد احتجاز زورق اسباني وقتل بحارته . في 1871 اضطر السلطان الى تجريد جيش الى نواحي مليلية لارغام قلعية على قبول تحويل مجرى مائي بمحاذاة المدينة ، من طرف الاسبان . في 1893 وبعد احتجاز سفينة صغيرة من طرب بقيوة ، كانت في الظاهر تتعاطى تهريب الأسلحة ، تم ارسال حملة تأديبية جديدة . أخيرا ، جردت حملة أخرى سنة 1898 في ظروف سنتعرض اليها فيما بعد .

27) في 9 نوفمبر 1896 أصدر أحمد بن موسى تعليمات المخزن الى محمد اللبادي ، من أعضاء دار النيابة بطنجة ، لاحاطة وزير بريطانيا علما بحركة التهريب التي تتم انطلاقا من جبل طارق ، والتي كان هذا الأخير على حد قوله على علم تام بها (رسالة مؤرخة في 3 جمادى الثانية 9/1314 نوفمبر 1896 . وثائق تطوان ، 26/23) . وتفيدنا رسالة مؤرخة في 27 يوليوز موجهة أيضا من أحمد بن موسى الى اللبادي بأن هذا الأخير كان قد أجرى مباحثات جديدة مع وزيري اسبانيا وبريطانيا اللذين نصحاه بأن يتولى السلطان بنفسه حراسة الساحل المغربي ، في الوقت الذي كان مطلوبا منهما أن يتدخلا لدى جبل طارق وجزيرة الحسيمة (حجرة النكور) لوضع حد لتجارة التهريب بين هاتين النقطتين (رسالة 26 صفر 27/1315 يوليوز 1897 ، تطوان 29/24) .

28) في 16 غشت 1897 كتب أحمد بن موسى الى النائب السلطاني بطنجة ، محمد الطريس ، ليخبره خاصة بوصول مراكب من جبل طارق في 13 يوليوز المنصرم المصرم الى جزيرة الحسيمة حيث يوجد المحل الاسباني ، وأنه أنزل به أكثر من 700 برميل من البترول ، وكمية كبيرة من النسيج . تم نقل كل هذه المواد على متن مركب ريفية" ولو كان ذلك كله محصنا عنهم لما أفضى بهم الحال الى مالكر" - (رسالة 17 ربيع الأول 16/1315 غشت 1897 ، تطوان 39/24) . في 19 يوليوز 1898 أخبر أحمد بن موسى محمد الطريس بوصول مركب الى الساحل الريفي من حيث شحن خفية 300 ثور سلمها مهربو قبيلة بقيوة (رسالة أحمد بن موسى الى محمد الطريس ، متم صفر 19/1316 يوليوز 1898 ، تطوان 28/28).

29) "وأول ما يصدر منهم أهل الريف انما ينشأ عن المنازعة مع من يخوض معهم من الأوروبيين في أمور الكطربانض" (أحمد بن موسى الى اللبادي ، 3 جمادى الثانية 9/1314 نوفمبر1896 ، تطوان 26/23) . "ولايخفي أن منشأ فساد هؤلاء هو ترويج باركيات الصبنيول التي تتصارف معهم ويتعاملون مع رؤسائها في الكطربانض ويغبنون عن أهل الريف بالبعض من أعيانهم وبالدراهم التي يتصارفون بها معهم فيترتب على ذلك ترصد أهل الريف لأخذ الثار منهم وقد صرحوا في هذه القضية بأن السبب فيها هو مالهم عليهم من التباعات كقضية الرجل الذي قتل من أغنيائهم ببلاد الصبنيول وأخذوا متاعه داخل حجر النكور ولم ينقادوا لاعطاء حق لأولاده بعدما أكثروا من الشكايات عليهم وكقضية أحد أغنياء أهل الريف الذي تقاعد له أحد رياس الصبنيول على خمسة آلاف ريال فيما كان تعامل معه به من الكطربانض ولم يجدوا سبيلا للانصاف منه.". (رسالة أحمد بن موسى الى الطريس ، 17 ربيع الأول 6/1315 غشت 1897، تطوان 39/24) . "اذا صدر من أرباب المراكب تقاعد عن الوفاء من حقوق أهل الريف المترتبة لهم عليهم يحمل ذلك أهل الريف على ترصد مركب جنس المطالبين بحقوقهم فينشأ عن ذلك ما يكدر الخواطر بدليل أن هؤلاء [أهل الريف] لا يمدون اليد في شئ من الموسوق بتلك المراكب ولا بشئ من حوائجها وانما يلخذون بعض الأشخاص الذين بها كفافا في حقوقهم ولو وقف نواب الأجناس الذين تروج مراكبهم بتلك الناحية في منعها من المعاملة مع أولئك القبائل الفساد لبقي هم وجانب المخزن في الراحة وبقيت خواطر الجانبين سالمة من شوائب المكدرات بما يدعي تجارهم وبما يلحق جانب المخزن من الضرر بكثرة الغرامات" . (رسالة أحمد بن موسى الى محمد الطريس ، بتاريخ 7 ربيع الثاني 5-4/1315 شتنبر 1897 ، تطوان ،48/24) . لنلاحظ أنه كان من السهولة بمكان الاستجابة لطلب المخزن ، لأن السفن المهربة كانت تفرغ بضائعها حتى في مركز الحسيمة نفسه .

30) توجد مجموعة كاملة من الرسائل تدعنا نتتبع كيف تمكنت الحكومة المغربية تدريجيا من اماطة اللثام عن الدور الذي لعبه في هذه القضية كل من : 1) الفرع المحلي للزاوية الوزانية . 2) الزاوية الام التي تشكت منها الحكومة المغربية لدى حاميها ، هو سفير فرنسا . 3) المدعو علال العبدي الذي كان يتقلد وظائف قنصلية والذي أقل الى عين المكان على متن طرادة فرنسية . 4) وزير فرنسا نفسه . ينظر على الخصوص : رسائل أحمد بن موسى الى محمد الطريس ، 16 جمادى الأولى 13/1315 أكتوبر 1897 ، تطوان 69/24 ، 23 جمادى الأولى 20/1315 أكتوبر 1897 ، تطوان ، 76/24؛ 17 جمادى الثانية 13/1315 نوفمبر 1897 ، تطوان 88/24 ؛17 شعبان 11/1315 يناير 1898 ، تطوان 125/24 ؛ 10 شوال 10/1315 مارس 1898 ، تطوان 143/24 ؛ ربيع الأول 22/1316 يوليوز 1898 ؛ تطوان 37/25 . في هذه الرسالة الأخيرة يسترعي انتباهنا على وجه الخصوص أن وزير فرنسا كان قد أكد خلال سفارته الى أنه منع علال العبدي من مواصلة حشر أنفه في هذه القضية :

"غير خفي عن جناب الباشدور ما أنجر اليه الكلام معه فيهم فساد [قبيلة بقيوة] بسبب ما دار معه في شأن العبدي الى أن ذكر أنه رده عن الخوض فيهم... وانما الذي كان في بال المخزن أعزه الله لما تبرأ الباشدور منهم وفروا من القبيلة بسبب نزول المحلة عليها أنهم

دائمين وأن المخزن في طلبهم حتى يظفر بهم ولم يخطر ببال المخزن من جهة القانون النظامي أن يقبلهم أحد على ما هم عليه اذا فروا حتى توجه المدد الأول بعد الأوامر الشريفة اليهم بالتحذير والانذار ولما وصل المدد الثاني وجدهم فروا وعند الضرب فر المتكلم عليهم وقبلهم البابور وحملهم لوهران مع أنهم من أكابر العتات وفيهم رؤساء أصل الفساد بل فيهم الذين كانوا قابضين على مساجين النصرى (من بينهم ربان سفينة فرنسية) تحت أيديهم ومنهم الحاج على عمر وزيان والحاج عمر شعيب وبادي ابن سعود الذي كان يغريهما على عدم تسريح النصرى حتى يسرح اخوانهم المسجونون على يد المخزن أعزه الله حيث تكفل العبدي بتسريح اخوانهم... ولهذا أشكلت هذه القضية على جانب المخزن أعزه الله كما استشكل موجب التكلم فيها أصالة فضلا عن اظهار التعرض فيها على طائفة من رعية المخزن في بلاده وأرضه وقد شاع بغييها وعلم فسادها الخاص والعام وأرادت سريان فسادها في الأقاريب والأباعيد ودفع في المغارم المترتبة على فسادهم أموال عريضة ولما وجه المخزن لمعاقبتها وردها للجادة أريد ايقاعه في الحرج والتشغيب بزيادة القيل والقال والتعرض على رؤساء الفساد بسبب الباشدور نفسه بضمن ذلك لما رفعت اليه الشكوى بالأعتاب الشريفة حيث صرح بكونه على علم من أنه... صدر منه ما لا يصدر من العقلاء مع أنه هذا الباشدور قد رفع لجانب المخزن... في سفارته هذه قضايا عديدة كلها ساعد المخزن فيها وراعى خاطره في مباشرتها ... .

31) ليس من قبيل الصدفة أن نرى ابتداء من هذه الفترة ظهور كبار القواد في جنوب المغرب . وقد سبق لروبر مونتاني أن لاحظ وجود علاقة بين قيام هذه القيادات الكبرى في الجنوب وظهور البندقية العصرية :

Les Berbères et le Makhzen.., p.355.

ولكنه في نفس الوقت الذي لاحظ أن تهريب الأسلحة كان يتم في ان واحد على سواحل الريف وسوس ، لم يكلف نفسه عناء التساؤل حول أثر هذه الظاهرة داخل المجتمع الريفي .

32) شهادة العقيد ريكلمي أمام لجنة التحقيق التابعة للكورتس بتاريخ 29 يوليوز 1923 ، في :

De Anual a la República , Documentos relacionados con la información instruida por la llamada : Comision de Responsabilidades acerca del desastre de Anual ; Madrid ; Javier Morata ; 1936.

33) نفس المرجع ، رسالة موجودة بين الوثائق الملحقة ، ص 28 ومابعدها .

34) D.M.HART : An ethnographic survey..;p.63.

35) E. BLANCO IZAGA : op.cit.; Commentaire du document n° .1.

الـريـفـيـون والاسـبـان

ذلك ما يمكن أن يساعد على كشف الغموض عن الوضع الريفي . فالى اليوم ، لم يفهم المؤرخون كيف حل الاتحاد والنظام ، اللذان أثارا انتباه جميع المراقبين خلال حرب الريف ، محل الفوضى السابقة . ذلك أنهم لم يكونوا على بينة من مصدر الفوضى . والا فان الحياة في الريف كانت دائما مرهونة بحضور الاسبان الذين كانت كل طاقات الريفيين معبأة بالأمس ضدهم بدعم من باقي كل المغاربة . كانت الأمور يومها بسيطة للغاية ومغزاها واضحا . لكنها التبست على الأجيال الأخيرة . ومنذ ذلك الحين ، تبلور التهديد الاسباني في مجموعة من المخاطر تداهم من كل جانب ، وهذا في الوقت الذي تراخت فيه الروابط التقليدية بين الريف وباقي أنحاء البلاد . طرحت هذه الظروف أسئلة تتميز بحدة خاصة : هل مايزال النضال ممكنا ؟ وضد من ، وبمعية من ينبغي خوضه ؟ كان من شأن التجربة وحدها أن تساعد على الإجابة عن هذه الأسئلة ؛ ولم يتأت استخلاص هذه التجربة خطوة خطوة الا بفضل تراكم سلسلة من المحاولات الفاشلة ، وسط المجادلات والمصادمات والصراعات الداخلية . لكنها حالما أصبحت مكتسبا ،فانها فرضت نفسها على الجميع ، وانقطع معها دابر الفوضى .

فالأمر اذا لا يتعلق بقطيعة ، كما اعتقد الكثيرون ، وانما بتعاقب منطقي ، وكان مد قنوات التواصل بين هذه المرحلة أو تلك أمرا ممكنا تماما ، بل ومحتما . اننا سنتبين بشكل أوضح بكثير حقيقة حرب الريف اذا ما نحن تتبعنا في البداية مرحلة نضوجها في خضم الاضطرابات السابقة .

* * *

كان الاسبان قد تمكنوا بين نهاية القرن الخامس عشر ومنتصف القرن السابع عشر من تثبيت أقدامهم في ثلاثة أماكن رئيسية من الساحل الريفي . يتعلق الأمر في البدء بحصن مليلية الواقع في الشرق على شبه جزيرة صغيرة ؛ ثم بجزيرتين تنتصب كل منهما مباشرة قبالة الساحل ، احداهما غربا في الجون الذي كانت تقوم فيه مدينة بادس ، والأخرى وهي (صخرة النكور) في قعر الخليج الأوسط الكبير الذي تكونه الحسيمة (1) .

من الحق أن الاسبان لم يكن في مقدورهم ، انطلاقا من هذه القواعد غير الهامة في الظاهر ، شن غارات عميقة داخل البلاد . لكن هذا شريطة ألا تتهاون مطلقا القبائل

المتاخمة في الاضطلاع بواجب الحذر والاحتراس . من جهة أخرى ، كانت المنافذ البحرية محظورة ، وهو الأمر الأكثر خطورة . ففي الشرق ، كان الطريق القادم من الصحراء عبر وادي زيز ونهر ملوية يصطدم بحاجز مليلية ؛ بينما كانت النكور في الوسط تسد خليج الحسيمة أمام تجارة تازة ؛ أما في الغرب ، فلم تعد بادس المتقوقعة في جونها بقادرة على أداء وظيفتها كهمزة وصل بالنسبة الى ريفها ، مع العلم أنها تعرضت للتخريب باكرا (2) .

ندرك اذا كيف بذل السلاطين قصارى جهودهم لتحرير هذه المراكز . غير أنهم لم يظفروا بطائل نظرا لافتقارهم الى اسطول بحري . ففيما كانوا يحاصرون عدوهم عن طريق البحر ، كان هذا الأخير يتمون بفضل عمائره التي تدعمه أيضا بمدافعها . والمحاولة الأخيرة ، التي جرت عام 1774 ، باءت بالفشل مثل سابقاتها (3) من ذلك الحين ظهر أن لا مناص من التسليم بوجود هذه الحصون ، لكن مع الحرص على الأقل على حصر ضررها . من ثم تكفلت قبائل الناحية بألا ترفع عنها الحصار مطلقا ، وهي المهمة التي قامت بها خير قيام ؛ بحيث بات على الحصون أن تستورد من اسبانيا كل ما هي في حاجة اليه ، بما في ذلك الماء عندما تنضب صهاريجها .ذلك ماأذكى في كل أرجاء الريف جوا من الحماس الوطني . وكانت قبائل قلعية الخمس المقيمة حول مليلية ومعها قبيلة بني ورياغل الكبرى قبالة النكور تختزن للاسبان بالخصوص حقدا لا يشفى غليله . ولا غرو ، فقد كان ثمة شعور يخامر القبائل بأنها تضطلع بواجب الدفاع عن الجماعة في الواجهة الأمامية (4) .

ظل الوضع على حاله خلال نصف قرن . فالاسبان لم يرحلوا ، لكنهم لم يتقدموا . وإلا ، اذا حاولوا ، فان القبائل كانت تقف لهم بالمرصاد بموافقة ودعم السلطان . غير أن حالة جديدة طرأت بعد 1830 مع احتلال الجزائر وتقدم الزحف الفرنسي . لقد شكل هذا الغزو تهديدا بالنسبة للبلاد بأسرها ، كما ظهر ذلك بوضوح في معركة ايسلي التي اندحر فيها جيش السلطان . الا أنه دفع بالريف مرة أخرى الى مركز الصدارة من الأحداث . ذلك أن الريف هو الملجأ الذي استجار به عبد القادر بعد انهزامه ، وفيه تمكن بفضل رجال القبائل ومالها من انشاء القاعدة التي استأنف منها غاراته في الجزائر (5).

كان الدعم الراسخ الذي قدمه الريفيون على هذا النحو للقضية الجزائرية يرتبط في أنظارهم ارتباطا وثيقا بنضالهم الخاص ضد الاسبان . فكيف يشكون والحالة هاته

في أن اخوانهم كانوا يرمقونهم بعين الاجلال على كلا الواجهتين ؟ بالفعل كان عبد القادر يحظى بشعبية كبيرة وسط جميع المغاربة . وكان فوق ذلك يتمتع بكفالة السلطان . الا أننا وجدنا هذا الأخير يقدم ذات يوم على توجيه جنده لطرده من الريف وارغامه بذلك على الاستسلام للفرنسيين (6) . كانت الصدمة قوية على نفس الريفيين الذين سبق لهم أن أجاروه . ومع أنهم امتثلوا لأوامر سلطانهم ، كما يقتضيه واجبهم ، فان السؤال هو هل كان في مقدورهم أن يتبرأوا من سلوكهم الأخير ؟ وهل كان في مقدورهم بفكرهم البسيط أن يفهموا كيف تأتى للواجب أن يتمخض عن مستلزمات متناقضة الى هذا الحد ؟ كان ذلك بمثابة الصدمة الأولى التي هزت الضمائر .

بيد أن أنظارهم سرعان ما استدارت الى جهة أخرى . فقد أخذت اسبانيا تعمل من جديد على تثبيت أقدامها في المنطقة ، تستحثها فيما يظهر المشاريع الفرنسية . في أبريل 1845 ، أوجبت على السلطان توسيعا لحدود سبتة ، وهي القاعدة التي تحتلها على الساحل الغربي عند مدخل المضيق (7) . وماهي الا فترة يسيرة حتى انتزعت منه أيضا الجزر الجعفرية الثلاث التي تحمي في الشرق حصن مليلية ، قبالة ملوية . بالتدريج أصبح تهديدها أكثر جلاء ، ليفضي عام 1860 الى حرب اجتياحية . بفضل النصر الذي ناله في أعقاب ستة أشهر من المعارك ، فرضت على المغرب تعويضا ساحقا وضم قطعة أرض بمحاداة سبتة (8) . وهكذا فقد تمخضت القضية عن حرب خاسرة . الا أن الريفيين وجدوا فيها السلطان ثانية بجانب الشعب ضد أعدائهم كما كان دأبه في الماضي . وكانوا بالتالي ، كما رأينا (9) ، قد ألقوا بأنفسهم في المعركة بكل قواهم ، وأبلوا فيها البلاء الحسن بشكل ميزهم عن الوحدات القادمة من مناطق أخرى . لذا فقد عادوا الى ديارهم تحدوهم روح الانتقام بدلا من روح الاستسلام لقوم منهزمين .

لكن بمجرد عودتهم علموا أنهم مطالبون بالتخلي بدورهم ، وبدون معركة ، عن أرض بجوار مليلية ، وذلك بناء على اتفاقية بين الاسبان والسلطان (10) . فكان أن أثار الخبر زوبعة من الغضب ، الى حد أن الاسبان وقد غامروا داخل الأرض قصد رسم حدودها ، اضطروا بسرعة الى العودة على أعقابهم . ثم كان عليهم الانتظار طيلة سنة قبل أن يقرر السلطان توجيه أخيه على رأس قوة مسلحة لفرض الطاعة على قبائل قلعية الخمس . فكان أن خضعت القبائل . غير أن شاهدا اسبانيا يسجل مدى المرارة التي استولت على القبائل . فقد صرحت قائلة :

"لم نكن نعلم أن اسبانيا يمكنها أن تكرهنا على التنكيل بنا بأيدينا ذاتها" (11) .

على أن هذا لم يكن بالنسبة للريفيين سوى بداية عملية ترويض طويلة ستستمر الى نهاية القرن . كان يغيب عنهم أن السلطان ، المنهزم ، والمفلس ، والغارق في الديون ، سينقاد أكثر فأكثر الى الاذعان أمام التهديدات والانذارات ، وأن ذلك سيؤدي الى سلسلة جديدة من التنازلات على حسابهم . وبوقوفهم بعناد واصرار ضد هذه التنازلات فانهم سيجبرون السلطان على الاختيار المر الذي لا مفر منه ، وهو التنكيل بهم ليقودهم بعصا الاكراه الى الرضوخ في عقر ديارهم لارادة أجنبية .

في يوليوز 1866 علموا أن السلطان تنازل للاسبان عن اقامة مركز جمركي كان هؤلاء يطالبون به منذ مدة طويلة . وهذا يعني ، بعبارة أخرى ، رفع الحصار الذي تكفلوا بمهمة ابقائه في مليلية . لذا فقد انبروا طويلا يعارضون الاجراء وبكل ما أوتوا من قوة ، بحيث أفضى الأمر في الأخير ، بعد مضي سنة واستنفاذ كل الوسائل ، الى اقامة المركز الجمركي - وهو مركز مغربي- داخل مليلية ، في مأمن من نيرانهم [12] . كان ذلك تراجعا من دون شك . لكن يبقى أن الحصار ألغي قانونيا ، وأن المعاملات ستتوطد لا محالة مع مرور الزمن بين الحصن والقبائل .

بعد ثلاث سنوات طرأت قضية جديدة . فقد شرع الاسبان في تحويل مجرى الوادي الذي يجري في الأرض المتنازل عنها مؤخرا ، خارقين بذلك التعهد الذي يلزمهم بعدم ادخال أي تغيير فيها . استشاط الريفيون حينئذ غضبا ، فحفروا الخنادق ، وحاصروا ورشات العمل ، مجمدين بذلك الأشغال [13] . أما السلطان الذي تم الاستنجاد به من جديد ، فقد تردد في التدخل . لكن بعد أن قض الاسبان مضاجعه انطلاقا من مدريد خلال سنتين ، وبعد أن رأى الانجليز يحشرون أنفسهم في القضية ، فانه وجه في الأخير قوة من ثلاثة آلاف رجل لردم الخنادق المغربية ، مما مكن الاسبان من انهاء الأشغال [14] .

* * *

رغم الاطار الضيق الذي كانت فيه هذه الحوادث ماتزال منحصرة ، فمن الخطأ التقليل من أهميتها واعتبارها وليدة العقلية الضيقة والمتأخرة للريفيين المعادين - كما يقال - لكل تجديد . ان اسبانيا ، الدولة الأروبية ، لم تكن لتهدد بالدخول في الحرب جريا على عادتها ، بسبب خصومات تتعلق بقرية أو بأخرى [15] . الحقيقة أن كلا من الطرفين كان على بصيرة بالمرامي الحقيقية للصراع ، والتي تتجاوز بكثير علته الآنية . لنقتنع بذلك ، حسبنا أن نورد شهادة سبق أن ذكرنا بعض مقاطعها ، وهي لسفير

اسبانيا بالمغرب ميري اي كولون (Merry y Colón) . ففيما كان يجري بحضوره طرد الريفيين من الأرض المتنازل عنها قرب مليلية ، وجه اليه أحدهم هذه الكلمات :

"اننا معشر المغاربة سنصبح كلا شيء . لن يبقى علينا سوى الانعزال في الصحراء" .

إلى هذا أضاف الدبلوماسي في تقريره التعليق التالي :

"ان هذا العجوز يتذكر بلا ريب ذلك الخفير ، الذي كان منذ أربع سنوات خلت يطل برأسه سهوا فوق أسوار مليلية ، ويسقط من حينه صريعا . وبمعاينة المرحلة التي طوتها اسبانيا ، فانه يستشعر أن أحداث اليوم ما هي الا بداية لما سيتحقق حتما ذات يوم : امتداد ممتلكات اسبانيا على سواحل... هذه الامبراطورية الافريقية...التي عليها وقد صارت منهارة وخائرة القوة... أن تنهي حياتها في رمال الصحراء " (16) .

هكذا وفيما وراء حامية مليلية الوديعة ، كانت ترابض اسبانيا الغازية ؛ وفيما وراء الريفيين ، كان الغزو يستهدف المغرب قاطبة . وعليه ، كيف يمكن أن ندعى بأن هؤلاء الأخيرين كانوا ينفعلون لأسباب تافهة ؟ إن مالم يكونوا يحتملونه في قضية التخلي عن قطعة أرض للاسبان لا يرجع الى تخوفهم من أن تسلب منهم بعض أراضيهم ، سيما وأن السلطان أظهر استعداده لتعويضهم عنها ، وانما الى ادراكهم أن مليلية ستتوفر ضدهم في المستقبل على حادور ؛ كانوا يدركون أيضا أن الحامية سيزداد عدد قواتها أضعافا بممارسة التجارة وبالتالي بالتمون في عين المكان واستغلال ماء الوادي ، وأن خلق روابط اقتصادية سيعمل من جهة أخرى على تشتيت صفهم بأن يجتذب عددا منهم الى الفلك الإسباني؛ وكانوا في الأخير يستشعرون أن الحادور الجديد ، المخصص مبدئيا لمنعهم من الاقتراب ، سيزود ذات يوم بقلاع من حيث يمكن للعدو أن يهاجمهم عن قرب . فبعد أن كانوا محاصِرين ، سيصبحون وقتئذ محاصَرين ، وهذا دون ان تكون لهم ، مثل الاسبان ، حتى تلك الأسوار المنيعة التي يمكنهم الاحتماء بها . من ثم رفضهم ادخال أي تغيير في الأرض المتنازل عنها . وبحرصهم على الكشف عن أدنى خطوة يقوم بها العدو نحوهم ، وبرفعهم في وجهه راية المقاومة ، فانهم كانوا يدافعون أولا عن أنفسهم وممتلكاتهم ، لكنهم كانوا فيما وراء ذلك يحاربون أيضا في سبيل البلاد . لأجل هذا فان حوادث مليلية التي بدت وكأنها لا تهم سوى قبائل قلعية المجاورة ، ستستقطب بالتدريج اهتمام كل القبائل الريفية .

بيد أن هذا الاستقطاب الواسع كان يتطلب إن لم نقل رئيسا ، فعلى الأقل

مرشدا أو ملهما . وكما هي العادة ، فقد آل الدور الى رجل صالح أهله نفوذه الروحي للمهمة . يتعلق الأمر بالمدعو الشيخ ميمون ، الذي نعرف اسمه من دون صورته ، لكنه أثر فيما يبدو في الاحداث طيلة الأربع السنوات من حياته النضالية . لم يكن يتمتع في البداية سوى بنفوذ محلي في اتجاه النكور و بادس ، و بالتالي في جهة بعيدة جدا عن مليلية . في 1889 احتجز أتباعه مركبا يتعاطى للتهريب . و حسب السيناريو المألوف ، قامت اسبانيا بالاحتجاج بينما تكفل السلطان بانزال العقاب . و هكذا فقد أحرق بيت الشيخ ميمون و قتل ابنه و نفر من رجاله [17] . الا أنه تمكن من الفرار و انتقل الى جهة أخرى لا ستنفار القبائل . و قد بث أنصاره بالفعل ، و بشهادة الاسبان ، روح الانتقام في كل جهة تقريبا . الا أن هذا ا لا نتقام كان موجها ضد اسبانيا لا ضد السلطان ، و هي ملاحظة ينبغي أخذها بعين الاعتبار [18] . بعد سنة ، وجدناه على أبواب مليلية . و عندما هاجم الريفيون فرقة من الخيالة و قد توغلت بعيدا ، عرف الاسبان أنه من وراء الهجوم . و سيعرفون دوره هذا بمزيد من الوضوح غداة حوادث خطيرة ستقع بعد ثلاث سنوات .

في 1893 ، و كما توقع الريفيون منذ مدة طويلة ، أخذت اسبانية في بناء قلعة في حدود الحادور . غير أن رد الفعل لم يتأخر بتاتا . فاندلعت معركة انتهت بانهزام الفرقة التي خرجت من مليلية . كان ذلك ، و بشكل أخطر ، صورة لما حدث منذ 23 سنة في نواحي سبتة وقذف يومها المغرب و اسبانيا في أتون الحرب . هل ستتكرر إذاً المواجهة ؟ ذلك ما ساد اعتقاده مدة معينة ، سيما بعد دخول اسبانيا في المواجهة . ففيما نشبت أيضا معارك ضارية بين الحامية و الريفيين ، وجدناها تنزل جيشا حقيقيا بمليلية بقيادة قائد عسكري كبير . الا ان السلطان تغيب عن الميدان . أو بالأحرى ان جيشه رفع راية بيضاء ساعة وصوله ؛ و اذا بهذا الجيش يستديرضد الريفيين ، ويطاردهم ، و يخرب خنادقهم ، و يعتقل الشيخ ميمون و يسلمه للاسبان . من جهته ، تعهد السلطان بالتكفير عن خطأ رعاياه بواسطة تعويض من 20 مليونا [19].

من الملفت للنظر أن نلاحظ أن الريفيين المشهورين بقوة شكيمتهم ، و كانوا كذلك بالفعل أمام الاسبان ، طأطأوا الرأس بوداعة أمام جند السلطان . لكن مهما كان كبيراً الولاءالذي أظهروا مرة أخرى بعد حدوده ، فان هذه المحنة كانت كفيلة دون شك بزعزعته بشكل عميق . تنهض دليلا على ذلك حوادث مماثلة وقعت في نفس السنة في ناحية أخرى من البلاد . ففي 1893 قام الفرنسيون قرب فكيك بدفع بعض القبائل الخاضعة لهم الى داخل التراب المغربي بعد أن طردوا منه سكانه الأصليين . ولما حج هؤلاء لانذار

السلطان ، اكتفى هذا الأخير بمحاولة تلطيف مخاوفهم و تقديم التطمينات حول حقيقة نوايا الفرنسيين . بيد أنه كتب يقول ، مشيرا الى عدم جدوى هذه المساعي :

" و لكنهم على يقين من أن مخاوفهم مبنية على أساس . و قد استشاطوا غضبا ضد الجزائريين كما استشاطوا غضبا ضد مخزننا ، لأنهم يعتقدون أنه على اتفاق مع الجزائريين و سلطاتهم التي طردتهم من أرض أجدادهم " .

هذا بالنسبة للحاضر . أما بالنسبة للعواقب المتوقعة ، فقد أضاف العاهل :

" اذا لم تعمل فرنسا على اعادة الأمور الى نصابها ، بحمل القبائل على التزام جانب النظام ، فان قبائلنا ستنقلب لا محالة ضد مخزننا ، بأن تحمله محمل السوء . وبشقها عصا الطاعة ، فانها ستضرب عرض الحائط بنداءاتنا كلما دعوناها الى التبصر لتتكفل بنفسها بالدفاع عن حقوقها " [20].

ذلكم تحليل يمكن سحبه حرفا بحرف على الريفيين ، باستثناء أن السلطان في مثالهم ذهب الى حد بعيد في المجازفة بسمعته ، و باستثناء أيضا أنهم أخذوا مسبقا على عاتقهم مهمة الدفاع عن أنفسهم ، و قاموا بها بنجاح ، فكبدوا العدو خسائر فادحة ، بل و قتلوا منه جنرالا [21] و بقوا سادة الميدان . فلو لم يكن المخزن ، لأمكن للريفيين تحقيق النصر بالاعتماد على النفس :ذلك ما يمكن أن تعتقده القبائل مستقبلا ، سواء عن خطأ أو صواب .

و الحال أن قضية بالغة الخطورة طرأت كذلك بعد خمس سنوات لتدفع بغضب الريفيين الى مداه. سبق أن رأينا كيف تحولت المراكز الاسبانية في السنوات الأخيرة من القرن ، خاصة النكور ، الى مراكز تهريب . و حول هذا التهريب ، انضافت قضية " القراصنة الريفيين " المحركين من الخارج ، و الذين يرفضون تحرير اسراهم الأوربيين مستخفين بأوامر سلطانهم . في نهاية المطاف ، تمكن هذا النفر من الاشرار المنتمين إلى قبيلة بقيوة من الافلات من القصاص بفضل سفينة فرنسية أقلتهم على متنها [22] . بيد أن المغامرة التي انتهت بالنسبة إليهم لم تكن سوى بداية بالنسبة لإخوانهم الأبرياء . فقد أمر السلطان مغضبا بتجريد حملة تأديبية ضدهم أسند قيادتها إلى ابن بوشتة بن البغدادي . ومنذ وصول هذا القائد المعروف بشراسته ، كشف لرؤساء القبائل المجاورة عن عزمه على اعتقال المجرمين ، لكن مع القيام بالخصوص بجولة صاعقة ليظهر للدول العظمى أن السلطان هو صاحب السيادة في الريف ، تلك السيادة التي كانت تتظاهر بتشككها فيها . على أنه كان مفهوما ، و ان لم يصرح بذلك ، أنه سيسعى قبل كل شيء

الى ارضاء الاسبان بانزال عقاب يكون عبرة [23] . أما و قد أفلت المجرمون الحقيقيون من بين يديه ، فلم يبق له –بالغضب الذي نستشفه – سوى تنفيذ ما تبقى من برنامجه و هو ما قام به الى حد أن الأسطورة تناولت حركته فيما بعد لتقصي تفاصيلها مضخمة وقائعها [24] . مهما يكن ، فقد أوقع البغدادي في شباكه بحوالي 200 رجل من زعماء الأسر و جرجرهم الى سجون الداخل . حتى ذلك الحين ، كان المخزن يكتفي بالحيلولة بين الريفيين و الاسبان ولم يسبق له أن نكل برعاياه ، باستثناء بعض الخواص منهم الذين ثبتت ادانتهم . أما الآن فقد أوقع على العكس ، بالجملة ، بأناس لا سبيل الى اتهامهم بأية تهمة . ناهيك باقدامه على نفيهم . و يا له من عار بالنسبة الى الريفيين ذلك السجن الذي لا عهد لهم به ولا مكان له في مؤسساتهم ! إذا أضفنا أن السجن المغربي كان حينئذ عبارة عن محنة تنفطر لها القلوب ، فإننا ندرك مدى القلق الذي أثارته روايات المسجونين الأشقياء لدى عودتهم بعد سنة أو سنتين [25] . فلا بدْعَ إذا كانت الذاكرة الشعبية في الريف تُرجع إلى هذا العصر ، الذي تحدد تاريخه بالضبط ، نهاية عالم وبداية عهد من البلايا العظمى [26] .

* * *

علاوة على ذلك فقد أخذ المغاربة قاطبة يتقاسمون الشعور ، بدرجات مختلفة ، بأن بلادهم تمر يومئذ بمنعطف في حياتها. ففيما قبل ببضع سنوات ، عندما توفى مولاي الحسن فجأة دون أن يتمكن من تسوية مسألة ولاية العهد ، فإن صبيا من أصغر أبنائه ، مولاى عبد العزيز ، هو الذي وُلي على العرش ، بإجحاف حقوق ورثته الراشدين ، وذلك بتدبير من الحاجب الداهية أحمد بن موسى [27] . وهوالأمر الذي مكن هذا الأخير من السيطرة على زمام الأمور طيلة ست سنوات. لكن عند وفاته عام 1900 ، وجد عبد العزيز نفسه وحيدا ، بدون خبرة ، وسلطته فوق ذلك موضع نزاع ، ليتحمل أعباء تتجاوز بكثير إمكاناته. والحال أن الظرفية كانت تكتسي طابعا خاصا من الخطورة. ففيما كان المغاربة يستشعرون استشراء التغلغل الأجنبي في جميع شؤون البلاد الداخلية ، لم تتردد فرنسا في الترامي علانية على الأراضي المغربية. وهكذا فقد احتلت غورارة في الوقت الذي لفظ فيه أحمد بن موسى أنفاسه. ثم بعد ستة أشهر استولت على توات. وبُعيدها أوجبت على المخزن التخلي لها عن ززفانة [28]. من جهتها ، طالبت اسبانيا بافني وتشوفت إلى ضم الساقية الحمراء [28م]. ومع أن جميع وسائل الإخبار العصرية كانت منعدمة وقتذاك ، فإن هذه الوقائع كانت معروفة وكانت تثير في كل جهة موجة من القلق والاضطراب . وقد أُلقيت تبعيتها شخصيا على عبد العزيز. كان

الناس يعرفون حياته الطائشة. وكان يقال بأنه منحاز للعدو المسيحي ، بل وراجت إشاعات تقول إن الفرنسيين تمكنوا من أن يحلوا محله شخصا يشابهه تماما [29] .

في هذا المناخ من الهياج ، حيث كان الرأي العام مهيأ لتصديق أي خبر كان ، ألّت الطامة الكبرى الكفيلة أكثر من غيرها بإثارة البلبلة في العقول. في نهاية 1902 ترامى الخبر إلى الناس بأن مولاي امحمد ، الأخ الأكبر لعبد العزيز ، وهو الأمير الوريث المحروم من العرش ، تمكن من الفرار بعد أن ظل سجينا طيلة ثماني سنوات ؛ ومن ملجئه وسط القبائل المقيمة بين تازة وفاس ، أعلن أنه سيطرد عبد العزيز المغتصب ، ويسترد عرش أجداده للدفاع عن بلاده وإنقاذها [30] .

الحقيقة أن الأمر يتعلق بمجرد خدعة ، فالوريث المزعوم ما هو إلا رجل من عامة الناس ، يدعى الجيلالي الزرهوني ، وسيلقب فيما بعد ببوحمارة. لكنه رجل جرئ ، على جانب من الدهاء والحنكة ، وعلى معرفة بالمخزن ورجالاته بفضل خدمته في السلك المخزني مدة طويلة. ولم يكن من المستبعد ، بابتكاره في هذه الظروف المواتية جدا نفس الخدعة التي ابتكرها بوكاتشيف (Pougatchev) في روسيا ، أن يستقطب المخدوعين في بلد لا يعرف فيه الرعايا ، ولو عن طريق الصورة ، لا السلطان ولا أي أمير من الأسرة المالكة. لذا ، وعندما شمر المخزن عن ساعد الجد لإثبات الحقيقة ، فإنه تمكن إلى حد ما من فضح أمره. لكن ليس في كل جهة . بحيث إن الأمير المزيف تمكن من أن يضم إليه عددا من الأنصار ؛ مما ساعده على فرض نفسه كدعي خطير ، والصمود في وجه جيوش السلطان طوال ست سنوات.

ذلك ما يعود بنا إلى الريف. لأن الريف هو الإقليم الذي وجد فيه الدعي بسرعة أنصاره الأشد تحمسا. وفيه وجد الموارد والرجال لخوض الحرب. وفيه أخيرا تمكن من إنشاء قاعدة لمخزنه بعد أن حاول ذلك عبثا في جهات أخرى. منذ نهاية يناير 1903 ، ولمّا يمض وقت قصير على ظهور الزرهوني ، كتب القائد بوزيان بن على السعيدي إلى السلطان يقول :

«لقد وجدنا الناس ، ونحن نقترب من الريف ، في حالة قصوى من الهيجان من جراء الأخبار الصادرة عن الثائر الذي فتن المسلمين ... وعند وصولنا أردنا تأنيب جماعتنا لكن مسعانا لم يسفر إلا على تأجيج روح التمرد ... وخلاصة القول ، انه لم يعد يوجد اليوم في المنطقة شريف ، أو قاض ، أو عدل ، إلا وقام بزيارة الفتان ، أو كاتبه على الأقل » [31] .

في 12 أبريل ، أي بعد شهرين ، نتبين من تقرير للقائد ابن سناح ، أن الوضع الذي كان بالأمس ما يزال غير مستقر ، أصبح منذئذ متبلورا ؛ نقرأ فيه :

«إن كل الريفيين انحازوا كرجل واحد إلى جانب الفتان الجيلالي الزرهوني ، وعبثا حاولنا ان نبين لهم وجهه الحقيقي والأغراض التي ينشدها »[32] .

بالفعل ، وفي اليوم التالي بالذات ، أي في 13 إبريل ، تخلصت قبائل قلعية من قائد السلطان ابن سناح ومن الحامية التي يقودها ، ورحبت بالزرهوني [33] . من ذلك الحين أصبح في أنظارها السلطان الحقيقي . وسوف تحارب بجانبه أكثر من سنتين لتمكنه من الاستيلاء على وجدة . بعد فشل المحاولة ، فإنها ستأويه بين ظهرانيها وسترتضي خلال ثلاث سنوات أخرى بأن تبقى من رعيته.

ليس من المعقول تماما أن ندعي ، كما هو شائع ، أن اختيار الريفيين جاء بالمناسبة بدافع من الرغبة في الاستقلال عن السلطان. لو جاز افتراض ذلك ، فلماذا سيتحرقون هم وحدهم شوقا للحرية من دون الآخرين ؟ كأنكاد وبني يزناسن على سبيل المثال ، وهم جيرانهم بالشرق الذين وجدهم المتمرد دائما في مواجهته ؟ أو كأنجرة وآخرين من جيرانهم بالغرب ، الذين توصلوا بنداءاته لكنهم بعد إمعان النظر ، لم يستجيبوا لها [34] ؟ ثم لماذا سيستبدلون عاهلا متنائيا ، وقليل الطلبات ، ويترك لكل فرد منهم ضمن قبيلته استقلالا ذاتيا على أوسع نطاق ، بطاغية فظ ، يعيش منهم وبينهم ، متدخلا مع مرتزقته من سفالة القبائل الأخرى في شؤونهم الداخلية ، جامعا باستمرار الضرائب والوحدات من أجل تجريد حملاته ؟

الحقيقة على طرف نقيض من ذلك . لقد شددوا النكير على السلطان لأنه أصبح بالعكس متنائيا عنهم ، ولأنه تركهم يقارعون الإسبان وحدهم ، إن لم يتدخل بعد فوات الأوان وبجانب العدو لا بجانبهم. لقد تحملوا مع الجيلالي الزرهوني تضحيات جسيمة. لكن ذلك هو الثمن الذي يتعين دفعه من أجل توحيد صفوفهم . وطيلة المدة التي سيكون فيها هناك ، في سلوان ، قبالة مليلية ، فإنه سيوقف الإسبان عند حدهم. إن استقلال البلاد ، لا استقلال القبائل ، لهو الفصل الذي استهواهم من برنامجه. وهو الذي أحبط تماما الدعاية المضادّة التي قام بها عبد العزيز. هل يمكنهم اعتبار الزرهوني دجالا ؟ كغالبية المغاربة ، كان من الممكن أن يقروا بذلك ، إلا أنهم لم يقبلوا. فبما أن اختيارهم كان مرهوناً بالمنازعات القائمة بينهم وبين الإسبان ، وبالتخوف الذي كان ما يزال يساورهم من اسبانيا ، تراهم قد ظلوا وحدهم في البلاد يعاندون في ضلالهم . سيما

وأن عبد العزيز ، بدلا من أن يستعيد رباطة الجأش، بدا متقاعسا أكثر فأكثر أمام أوربا. وكان عقد الجزيرات الذي رسم منذ 1906 *الخطوط العريضة لتجزئة المغرب* بين فرنسا واسبانيا ، قد استقبل في مجموع البلاد كأنه ناقوس خطر. على أن الريفيين اعتبروه بالخصوص تخليا لا أكثر ولا أقل عن الريف لأعدائهم التقليديين الإسبان. كيف يمكنهم أن يروا ظلا من الشك في هوية وبالتالي في مشروعية زعيمهم امحمد المزعوم ، الضمانة الأخيرة لاستقلالهم ؟

* * *

على الأقل كان ينبغي على هذا الأخير أن يضطلع فعلا بهذا الدور. وهو ما أوهمهم به أمدا طويلا من الزمن. فقد ربط علاقات وطيدة مع فرنسيي الجزائر ، تلك العلاقات التي لم يتم حتى الآن استجلاؤها ، والتي مكنته من الحصول على السلاح والمعدات [35] . على أنه تعلل بأن الغرض منها إنما هو بالذات إيقاف الأجنبي عند حده. والحال أنه لم يحرك ساكنا عندما احتل الجيش الفرنسي وجدة في مارس 1907 ، وهي على أبواب الريف نفسه. فكان ذلك أول ضربة تعرضت لها سلطته ، ولو أن أمرها لم يظهر في حينه . بيد أن حوادث أخرى أكثر خطورة تلاحقت فيما بعد. في يوليوز ، تنازل الزرهوني شخصيا للإسبان والفرنسيين عن منجمين يقعان في قلب أراضي قلعية [36]. وبعيدها بدأت فيهما الأشغال وبدأ العمل أيضا في بناء خط حديدي لربط المنجمين بمليلية. ووجدنا رجال الزرهوني أنفسهم يتولون السهر على أمن مجموع الأشغال. وكما لاحظ دلبرل (Delbrel) الذي شغل لدى هذا الأخير وظيفة مستشار رسمي ، فقد كان ذلك بالنسبة إلى الريفيين كدلالة كاشفة . فقد كتب يقول :

"إن التنازل عن المناجم ... وإدخال العنصر الأوربي في المنطقة ، لم يصادفا هوى في نفوس الفريق المتعصب الذي أخذ يعتبر منذئذ الدعي (محمد المزعوم) حليفا خطيرا للمسيحيين" [37].

بيد أن هذا لم يكن سوى الاندهاش الأول. بعد ستة أشهر ، في يناير 1908 ، تجرأ الإسبان على الخروج من مليلية بقوة كبيرة ، وهو ما لم يقوموا به طيلة قرون من تواجدهم. وخلال زحفهم بمحاذاة الساحل ، على بعد عشرين كيلو مترا ، استولوا على منشآت مرفا [38] . كان هذا بشكل لا جدال فيه الخطوة الأولى في الغزو. ولو أن الحادث وقع من قبل ببضع سنوات ، عندما كان الريفيون لا يخضعون إلا لسلطان فاس ، لتكفلت القبائل حتما بإعادة الأمور إلى نصابها. إلا أن الزرهوني ، المنوط به استنفارها لطرد

الغزاة ، لم يقم حتى بمبادرة احتجاج. كلا ، إن القبائل لم تخضع لسلطته لكي تؤول الأمور إلى هذا المآل.

* * *

في نفس الوقت الذي استسلم فيه الريفيون للندامة ، واستشعروا دبيب الغضب المتصاعد ، طرأت أحداث خطيرة في الجنوب ستحفزهم إلى إعادة النظر في موقفهم . في نهاية يوليوز 1907 ، عندما تنازل الزرهوني عن المناجم للأجانب في عقر ديارهم ، كانت الدار البيضاء قد انتفضت ضد تنصيب مراقب فرنسي في المصالح الجمركية بالميناء (39) . وبعد سقوط المدينة في أيدي الفرنسيين ، فإن قبائل الشاوية المجاورة – التي كان في تقاعس سلطانها ما خيب آمالها – رنت بأنظارها إلى أخيه عبد الحفيظ ، الذي توطدت شهرته بفضل وظيفته كنائب ملك بمراكش. منذ 16 غشت ، رحب عبد الحفيظ بطلبها ، وكتب يقول :

"لقد نهضنا لنستمع إلى شكاوي المسلمين ونأخذ مصالحهم على عاتقنا ، وذلك ليبقوا في بلادهم مستقلين عن الكفار" (40).

في 4 شتنبر ، نادت به سلطانا منطقة مراكش برمتها. وبالجملة ، فقد وجدنا نفس التجربة التي قام بها الريفيون أو توهموا القيام بها مع أخ السلطان الآخر ، تتكرر بعد انسلاخ خمس سنوات ، بهذا الفارق وهو أنه لم يكن هناك الآن من يجادل في هوية عبد الحفيظ ، وأن الترحيب الذي خُص به من أول مرة يمكنه لا محالة أن يمتد إلى مجموع البلاد. وبالفعل فقد انضمت إليه المدن أو المناطق الواحدة تلو الأخرى. في 5 يناير 1908 ، جاء دور فاس. وجاءت بيعتها مشروطة بصفة صريحة بالتزام المرشح بإبطال عقد الجزيرات واسترجاع الأراضي المغتصبة (41) . منذئذ بدا عبد الحفيظ بالنسبة إلى الريفيين البديل البشير لسلطانهم المحلي الذي انزلق هو الآخر في نفس المنحدر الذي انزلق فيه عبد العزيز ، والذي تحققوا أخيرا ، وبكل طيبة خاطر ، من أمره القائم على التدليس والبهتان.

لكن ما حيلتهم الآن لكي يرفعوا عن كواهلهم كابوس وصايته ؟ لقد كانت له فرقة من المرتزقة ، وله في القبائل أنصار متعصبون ، استمالهم عن طريق الروابط الشخصية ، وعن طريق منحهم امتيازات أو وظائف في مخزنه. وهو ما مكنه طوعا أو كرها من أن يجرد الوحدات المجندة من القبائل ويمسك بزمام الكل بمساهمة كل واحد. هذا ولو يكن من المتوقع أن يقوم عبد الحفيظ نفسه بمقارعته ، فقد كان في شغل شاغل مع عبد

العزيز. من ثم التباطؤ والتردد في اختيار موقف .

مع ذلك كان نفوذ الزرهوني يضعف شهرا فشهرا ، وكان كل نصر يناله منافسه الجديد يولّد الإحساس حتى في الريف بأن مصير المغرب سيتقرر بدونه ، وبالتالي ضده. ذلك ما دفعه فيما يبدو ، بعد دخول عبد الحفيظ إلى فاس في يونيو 1908 ، إلى القيام برد الفعل وتشديد قبضته من جديد وبصرامة على قبائله الريفية المترددة . على أنه تشوف بالخصوص إلى قبائله بالغرب التي صار يصعب التمكن من أعنتها بفعل تنائي المسافة ؛ خاصة منها قبيلة بني ورياغل . من الحق أن هذه القبيلة ، الأوفر عددا والأكثر قوة ، كانت قد خضعت لسلطته. لكنها لم تقلع أبدا عن نزعة تجنح قليلا إلى العصيان. هذا علاوة على أن أغنى مناجم الحديد كانت تُحدد في أراضيها بجبل الحمام ، تلك المناجم التي من شأن التنازل عنها للأوربيين أن يملأ خزينته. وهو سبب آخر لضرورة ترسيخ سيادته المطلقة هنالك (42) .

في غشت 1908 ، وفيما كان عبد الحفيظ في الجنوب يتخلص للمرة الأخيرة من أخيه عبد العزيز ، أنفذ الزرهوني نحو الغرب جيشا بقيادة قائد مرعب يدعى مول ودو. وعند وصول هذا الأخير إلى بني توزين ، قام فيما يقال بمجزرة ضد موكب أطفال خفوا لاستقباله (43) . إذ ذاك ، وتحت وقع الرعب الذي زرعه على هذا النحو بالمنطقة ، جمع الضرائب والوحدات في بني توزين أنفسهم ، ثم في تافرسيت ، وبني أوليشك ، وبني سعيد ، وأخيرا في تمسمان. بعد ذلك عسكر مع قواته وإمكاناته المتزايدة في ديار هؤلاء الأخيرين ، على أبواب بني ورياغل أنفسهم ، لأنهم هم المستهدفون من حملته. لكن ما هنا سيتغير مجرى الأمور.

بالفعل ، فقد احتفظ بنو ورياغل برباطة جأشهم أمام الترهيب. وبما أنهم كانوا متأكدين من أن مول ودو إنما جاء لقمعهم مهما كانت الكيفية التي سيستقبلونه بها ، فقد بادروا إلى إخبار عبد الحفيظ بالدخول في طاعته ، طالبين منه العون (44) . إلا أن العون لم يصل ، ولم يبق لهم إلا أن يدافعوا عن أنفسهم بالاعتماد على النفس ، مجازفين بالكل في مجابهة على أكثر ما يمكن من المخاطرة .

كان خصمهم كثير العدد ، منظما ، مسلحا ، يتوفر على المدفعية وعلى عدد كبير من الفرسان ، لا يفصله عنهم سوى وادي النكور الصغير الذي يسهل اجتيازه حتى في هذه النقطة القريبة من مصبه. وكانوا هم أنفسهم قد تجمعوا في السهل الساحلي بين نكور في الأمام ووادي غيس الذي يقع مجراه الموازي وراءهم : وهو موقع تمتد فيه

البساتين ، ويتميز بتربة خوّارة ، وتتخلله قنوات السقي في كل جهة. كانوا كلهم مشاة ولا يتوفر سوى عدد قليل منهم على بنادق جيدة. إلا أنهم عرفوا كيف يعتصمون من وراء الوادي ، ولم يطلقوا النار إلا من قرب. زيادة على ذلك ، فقد عمدوا إلى إغراق الأرض عندما عبر عدوهم وادي النكور ، بأن فتحوا عيون القنوات. فكان أن تورطت الخيول وأبيد فرسانها أو اعتقلوا ، بينما تم طرد باقي الجيش إلى ما وراء الوادي. ومع حلول المساء ، جاء دور القبيلة لتتقدم نحو الأمام ، لتهاجم ليلا المعسكر الذي لم يستطع مول ودو الخروج منه. في الفجر التحق بمرابضه (45).

بالطبع كان جيش الزرهوني ما يزال قادرا على استئناف القتال. لكن لم يحدث حتى الآن أن تجرأت القبائل الخاضعة له على الوقوف ضده. وهو ما تجرأت عليه قبيلة بني ورياغل. وقد كللت معركتها الأولى بالنصر. كان للحادث صدى كبير. ومنذ الشوط الثاني من المعركة ، التحق محاربو بني توزين بمحاصري المعسكر. وفي اليوم التالي ، بدأت الوحدات الأخرى تنفض من حول مول ودو ، الذي قرر الانسحاب في الأخير بعد أن أصبح غير واثق من مؤخرته. والحال أن الانسحاب جرى بخوض معارك وسط القبائل التي لم تكن تتوفر ، من يمن طالعه ، على الأسلحة تقريبا ، لكنها ظهرت منذئذ معادية له علنا. بسرعة دخلت في العصيان حتى قبائل قلعية المخلصة. في 6 أكتوبر 1908 ، وفي سوق بني سيدل ، تمت إبادة مرتزقة الزرهوني المتواجدين هنالك مع صاحبه المكلف بجباية الضرائب (46) . فكان أن قام الزرهوني برد فعل قوي. لكن بعد بضعة أيام ، وجد أمامه مجموع القبائل التي مر مول ودو عبرها وقد خفّت إلى المعركة. وبالنظر إلى ضعف وسائلها النارية ، فإنها اكتفت باحتلال المرتفعات المشرفة على سلوان مقر حكومته ، والبقاء فيها لتسد عليه مدخل مليلية في الشمال ، وأراضيها في الغرب . وقد اضطر الزرهوني إلى التخلي عن اقتحام هذا الحاجز بعد حوالي شهرين من المعارك الضارية. كان ذلك نهاية لدولته في الريف ، ولم يبق له إلا أن يُولّي الأدبار. في 4 دجنبر شدّ رحاله مع مرتزقته ميمما وجهه شطر الجنوب ، حيث كانت تنتظره خاتمة مطافه في سجن عبد الحفيظ .

* * *

كان فشل الزرهوني فشلا أيضا للتجربة التي حاول الريفيون القيام بها عندما مدوه بيد المساعدة. كان هدفهم حينذاك أن يجدوا في مخزن مجدد الزعامة التي كانت قبائلهم في حاجة إليها للدفاع عن نفسها متحدة ضد الإسبان. كان الهدف أيضا ،

وبنفس المناسبة ، تجديد الروابط مع مغاربة المدن والبوادي الذين كان من حقهم انتظار الدعم منهم. بيد أن النتيجة جاءت بالوجه المعكوس. فقد وجدوا أنفسهم خلال خمس سنوات يتصرفون وحدهم. وإذا كانوا قد اختاروا لهم زعيما في شخص الزرهوني ، فإن هذا لم يعمل إلا على إثارتهم ضد إخوانهم المغاربة ، في حين أن الأمر انتهى باسبانيا إلى مدّ غزوها في ديارهم أكثر بكثير مما فعلته في الماضي.

بيد أن شخصية الزرهوني هي التي كانت دون شك ، وفي نظرهم ، العلة الكامنة وراء هذا الفشل. إنه لم يكن ابن العاهل الراحل كما أفلح في إيهامهم. ولم يكن في مقدوره بالتالي ممارسة وظيفة أمير للمومنين. أما وقد ظهر مرشح آخر يتحلى بدون منازعة بالمؤهلات اللازمة ، فقد كانوا على يقين من النجاح بتجديد الرهان على اسمه. ذلك هو مغزى المبادرة التي قامت بها قبيلة بني ورياغل في الغرب منذ شهر أكتوبر ، عندما انضمت إلى عبد الحفيظ. ولما تمردت قبائل قلعية بدورها في الشرق ، فإنها اعتصمت به هي الأخرى [47] . وعليه ، وبرؤية الريفيين يعاودون تجربتهم السابقة على حالها ، فقد يخيل إلينا أنهم سيجدون أنفسهم وقد عادوا لا أكثر إلى الوراء بخمس سنوات. لكن هذا ليس سوى مظهر . في الواقع أن تجربتهم غيرتهم كثيرا من حيث لا يعلمون ، ولو أنها انتهت بالفشل . بالأمس ، إذا كانت القبائل في مشادات مع الحامية الإسبانية ، أو إذا ما كانت قبيلة معينة تقوم هنا أو هناك بهجمة ضد الإسبان المهربين ، فإنها كانت تعمل منفردة. ورغم الاهتمام الذي أثارته ، كانت كل القبائل غير المعنية مباشرة لا تشارك في حركتها. لكن شتان بين الأمس واليوم. لقد كان الزرهوني يطمح إلى البقاء سيدا في الريف حتى بعد انفضاح أمره . وبعد أن أحس بتصاعد موجة العداء وسط القبائل ، فإنه عمد إلى السلاح ليقوم بقمعها في عقر دارها الواحدة تلو الأخرى. وهذا إلى الوقت الذي جمعها كلها ضده خلال انسحابه بعد أن فشل أمام أكثرها بعدا. فبدون تشاور فيما بينها ، ولمجرد مطاردة جرت من طرف المنطقة إلى طرفها الآخر ، فإنها وصلت إلى نهاية الجولة – وكلها خليط من عناصر شتى – حيث ستقوم خلال شهرين بالقتال سويا وتحقيق النصر. كل هذا جرى تلقائيا وبوسائلها الخاصة ، وبدون العون المألوف الذي كان من الممكن أن يقدمه المخزن لها ، بل وحتى بدون تعليماته. وفوق ذلك ، وفيما كانت تترقب عبثا هذه التعليمات أو هذا العون من عبد الحفيظ ، فإنها هي التي مكنته من الوسيلة التي كرست فوزه عن طريق إيقاعها في شباكه بسلطانها المزيف المنبوذ . منذئذ ، ألا يمكن للوحدة التي تحققت عفويا تحت ضغط الأحداث ، ومن أجل هزم الزرهوني الذي كان يتعين عليه مبدئيا أن يكون زعيمها

ضد الإسبان ، ألا يمكنها أن تتحقق من جديد ، بدونه مرة أخرى ، وبدون عبد الحفيظ ، لكن بشكل منظم وطوعي ، لخلق جبهة واحدة ضد الإسبان أنفسهم ؟

بالطبع كان هذا يتطلب زعامة. إلا أن الأحداث الأخيرة أظهرت أيضا أن القبائل تستطيع من تلقاء نفسها إنجاب رجال قادرين على الاضطلاع بها ، بل وكشفت هذه الأحداث عن الرجل الذي سيظهر منذئذ ، وخلال أربع سنوات ، كمجسد لروح وإرادة الجميع ، ألا وهو محمد أمزيان .

محمد أمزيان الذي ما يزال ، خارج الريف ، مجهولا من طرف مواطنيه ، كان يومها رجلا في الخمسين . إنه سليل أسرة من "الشرفاء" أسس أحد أجدادها ، وهو أحمد بن عبد السلام ، زاوية أزغنغان على مقربة من مليلية. تمتع دائما في قبيلته بني إيفرور بالصدارة التي تمنح لمن يتصل نسبه بالرسول . كان يشرف على العقود الجماعية ، ويقصده الناس لتسوية النزاعات. غير أننا نستشف ، بالطريقة التي يثير بها الريفيون ذكراه ، أنه تحلى فوق ذلك بمجموعة من المزايا الشخصية ، من ذكاء واستقامة وحب لبلاده وقوة العزيمة وعبقرية في التنظيم ومعاشرة الناس ، أي كل الخصال التي تميز شخصية فذة. مع ذلك ، فإنه لم يجد لجميع هذه الخصال ، لمدة طويلة ، سوى مجال ممارسة متواضع في إدارة أملاك أسرته. إلا أن التجارة كثيرا ما قادته إلى الجزائر منذ حداثته. وطوال طريق رحلته ، كان يستقبل بمنتهى التبجيل كما هو الشأن في قبيلته ذاتها. لذا ، فإن العمال الموسميين المتقاطرين من كل أنحاء الريف ، في طريقهم إلى الجزائر للحصاد وجني العنب ، كانوا يوثرون السير في ركابه لضمان أمن سفرهم. وتلك هي بالفعل الكيفية التي كان يتم بها المحافظة على أمن الطرق تحت إمرة نوتي العبور ، المعروف وقتذاك ب "الزطاط". ونظرا لأن أمزيان قام بهذه الوظيفة مدة طويلة ، فإنه تمتع في مجموع الريف ، منذ السنوات الأولى من القرن ، بشهرة على أوسع مدى (48) .

يحكى اليوم أن أمزيان ، عندما انضم الريف إلى الزرهوني منذ 1903 ، تمرد بالعكس عليه. غير أنه لا يوجد ما يثبت ذلك ، وهو على كل حال بعيد الاحتمال. إذ أنه قد يغرّر بنفسه لو وقف ضد الدعي الذي كان قد قوي سيله وقتذاك. لكن من المؤكد أنه من الأوائل الذين تفطنوا إلى تواطؤ الزرهوني مع الأجانب وعملوا على فضحه. وقد اضطر حينذاك إلى الفرار لكي لا يقع في الأسر ، والتحق بجند السلطان – وهو يومئذ عبد العزيز – الذين احتلوا مؤخرا – في ماي 1907 – موقعا مجاورا لمليلية. بعد ثمانية شهور ، عندما اضطرت هذه الوحدات ، وقد جاعت وتركت وشأنها ، إلى طلب المأوى من

الإسبان ، فإنه دخل معها إلى الحصن. ولن يبارحه إلا في شهر أكتوبر 1908 [49] عندما تدفق كل الريفيين في أعقاب مول ودو المهزوم . وبسرعة اضطلع بالأدوار الأولى ليوجه وينظم كل هذه الجموع ، ليتولى التحكيم بين ممثلي مختلف القبائل ، ليحضر أخيرا ويقود بنفسه المعارك. بعد شهرين ، عندما أخلى الزرهوني المكان ، كان الريف الذي وجد نفسه ثانية وحيدا تجاه الإسبان ، يعرف أنه له في أمزيان الزعيم القادر على استقطاب الجميع تحت رايته. بحيث انه في نفس الوقت الذي عاد فيه الريفيون إلى حظيرة الجماعة بجانب عبد الحفيظ ، تبلورت في أذهانهم إمكانية اللجوء إلى الاستقلال الذاتي إذا ما اقتضت الظروف ذلك في المستقبل .

* * *

مرة أخرى كان حسم الموقف مرهونا بالإسبان .

في الحقيقة أن كثيرا من التحولات كانت قد طرأت بين هؤلاء وبين الريفيين بفضل العلاقات التجارية التي تمت منذ أربعين سنة بين حصن مليلية والقبائل المجاورة. فبعد أن كانت بالأمس مجرد مركز تأديب و مدينة حامية مقطوعة عن الخارج ، استحالت إلى مدينة تجارية تمارس جاذبية لا جدال فيها [50] . كان الفلاحون الريفيون يرتادونها يوميا لبيع منتجاتهم وشراء الحبوب والسلع الأوربية. أما أفضلهم مركزا ، أولائك الذين حققوا ثروة في هذه التجارة واكتسبوا من هنا بالذات نفوذا متزايدا وسط قبيلتهم ، فقد تضاءلت كثيرا في نفوسهم حوافز الجفاء ضد اسبانيا. فاتخذوا شركاء وأصدقاء لهم من بين تجار مدينة مليلية وعسكرييها ، ناهيك بأن المدينة أصبحت تضم ضمن سكانها عددا من المغاربة. إنها حالة مستجدة ساعدت الإسبان على التوفر داخل القبائل على شبكة من الأنصار ، الذين و إن كانوا ما يزالون متكتمين فإنهم كانوا من ذوي النفوذ ، يقوم الإسبان باستشارتهم وتكليفهم بتلطيف ردود الفعل العنيفة لعامة الناس ضد مشاريعهم. إنه – كما سبق أن رأينا [51] ، عنصر لن يظهر كل تأثيره إلا في السنوات اللاحقة. إلا أنه كان يمارس بعض التأثير منذ نهاية عام 1908 .

في 6 أكتوبر ، أي في نفس اليوم الذي رفعت فيه راية العصيان ضد الجيلالي الزرهوني ، هاجمت قبائل قلعية الإسبان المستخدمين في المناجم المتنازل عنها ، وطردتهم طرداشرسا واضعة بذلك حدا لكل استغلال [52] . وهكذا ظهر منذ البداية أن الثورة موجهة في الحقيقة ضد اسبانيا التي شكلت المناجم وقتئذ رهان الشجار معها. فهل سيرضى الإسبان بفشلهم ، أم أنهم سيحاولون فرض استئناف الأشغال ؟ الحقيقة

أنهم آثروا في الوقت الحاضر العمل بحذر بعد أن استشاروا أصدقاءهم في القبائل. كانوا يريدون أن يتركوا العاصفة تمر [53] . لكن ها هي ذي العاصفة لم تهدأ. على العكس فإن الزرهوني ، الذي تكفل حتى الآن بالدفاع عن الأشغال ، احتجب من الميدان بعد أن جرفه التيار. بقيت إذاً محاولة إصلاح ذات البين عن طريق تفاهم مباشر مع أهل المكان. لكن إذا كان التفاهم سهلا مع "أصدقاء اسبانيا" الذين يتمتعون هم أنفسهم ببعض النفوذ ، فكيف سيكون رد فعل الكتل أمام نداءات أمزيان ؟ ذلك لأن هذا الأخير كان معاديا كما نعلم [54] . مع ذلك حاولوا الحصول على موافقته . إلا أنه صرح بعدم صلاحيته ، معتصما بسلطة عبد الحفيظ ، العاهل الجديد الذي خضع له الريف مؤخرا . علاوة على ذلك ، فقد أرسل في بداية 1909 رسلا إلى فاس لطرح القضية. إلا أن الشهور مرت ولم يصل الجواب [55] . لذا فقد عيل صبر الإسبان سيما وأن الفرنسيين كانوا يستحثونهم مهددين بأن يحلوا محلهم لاستئناف الاستغلال المنجمي [56] . زد على ذلك أن الصحافة في اسبانيا كانت تشكو من الكساد الذي تعاني منه مليلية [57] . بحيث إن مدريد قررت في 31 ماي 1909 وبموافقة فخذين يهمهما الأمر مباشرة ، هما فرخانة وبني امزار ، قررت التخلص نهائيا من القضية بأن أعطت أوامرها باستئناف الأشغال حتى لو اقتضى الأمر حمايتها بجيش اسباني [58] . كان ذلك امتحان القوى. بيد أن فرنسا كانت على كل حال قد احتلت وجدة والدار البيضاء ومنطقة الشاوية . كل ذلك مر بدون إشكال . قد يقوم عبد الحفيظ بالاحتجاج ليس إلا ، إذ كانت تعوزه الوسائل للقيام برد فعل . أما بالنسبة للريفيين ، فلم يكن هناك أيضا ما يدعو إلى التخوف منهم في الوقت الحاضر ، بالنظر إلى أن كثيرا منهم كانوا في طريقهم وقتئذ نحو الجزائر حيث من المنتظر أن يبقوا حتى فصل الخريف. من جهة أخرى فقد تعززت مليلية ببضعة آلاف رجل تحسبا للطوارئ. في حين اتخذت الترتيبات في اسبانيا لتوجيه النجدات إذا اقتضى الأمر.

هكذا فقد تم استئناف العمل سواء في المناجم أو في السكة الحديدية التي كانت في طور الإنجاز. وكان الجيش من جهته على أهبة الاستعداد للتدخل في الميدان من حين لآخر. بيد أنه لم تحدث أية مقاومة كما كان متوقعا. على الأقل في الوقت الحاضر. إذ سرعان ما بدأ الهيجان في ديار بني سكار أولاد سطوط ، حيث كان أمزيان قد طاف بالأسواق مستنفرا الناس. في 5 يوليوز ، تقرر حمل السلاح عقب اجتماع عام انعقد في قبيلة مزوجة. ومنذ 9 يوليوز هاجم المحاربون فريقا من سلاح الهندسة يعمل بأرض بني يفرور ، وأجلوه بعد أن فتكوا بستة أفراد من رجاله. حينئذ ، وفي اللحظة ذاتها ،

تدخلت حامية مليلية بقوات كبيرة وكأنها كانت تنتظر الإشارة ، وأفنت المهاجمين ، وأبقت الأرض محتلة تحت مراقبتها [59] .

بانفراج القضية على هذا النحو السار ، فإنها أبرزت في الظاهر صورة لما يجب أن يحدث ثانية في المستقبل. فقد كان ثلثا الريفيين لا يتوفران سوى على دبابيس مسمرة. ولئن كان الباقون منهم يملكون بنادق ، فقد كانت تعوزهم الذخائر. وهي عموما عبارة عن رصاص مستعمل يحشونه بأنفسهم بمسحوق أسود وبطانة من رصاص [60] . بحيث لم يكن من المنتظر أن يغرروا بأنفسهم ليصطلوا بنيران الرشاشات والمدافع. من الحق انهم قد يهاجمون هنا أو هناك عمالا عزلا . لكن يكفي الرد بمنتهى الصرامة ، كما حدث هذه المرة ، والبقاء في الأرض المجتاحة.

في الواقع لم يحصل شيء مما كان المنطق يدل مسبقا عليه. منذ المساء نفسه ، اشتعلت على جميع المرتفعات مواقد هي عند الريفيين أشبه ما تكون بناقوس الخطر ، وبإمكانها نشر الإنذار حتى في أقاصي البلاد. وهكذا تقاطر المحاربون من كل حدب وصوب ، وتجمعوا في بضعة أيام في قبيلة مزوجة. ومع ما لهم من المعدات أو الذخائر التي اقتنوها بأموالهم في السوق المحلية ، كانوا يتسلقون الجبل المطل على مليلية من جانب سفحه المتوارى ، وينزلقون ليلا من السفح الآخر ، ويحفرون الخنادق في أسفل ، من حيث يمكنهم الوقوف بالمرصاد عندما تصل قوافل تموين المراكز الأمامية. وإلا فقد كانوا يهاجمون هذه المراكز الأمامية نفسها تحت جنح الليالي البهيمة ، ويقتلون أفرادها وهم نائمون ، ويستولون على الأسلحة [61] .

لم يكن الأمر يتعلق بعد بحرب حقيقية. مع ذلك كان الإسبان ملزمين بوضع حد لهذه الغارات المرهقة. لذا قرروا القيام برد الفعل. وفي 23 يوليوز ، اندفعوا في هجوم قوي شنوه قبل الفجر لخلق عنصر المباغتة. بيد أن الريفيين كانوا عينا لا تنام. انتظروا في قعر خنادقهم ولم يظهروا إلا عندما أصبح عدوهم فوقهم بحيث لم تعد المدفعية تجدى نفعا. فحينئذ أثخنوا في العدو ببنادقهم عن قرب ، ثم هاجموه بالسلاح الأبيض. وبعد أن طما سيلهم أمـــامه ، طردوه حتى إلى أسوار مليلية و قاموا في صفوفه بمذبحة حقيقية .

ما كاد خبر هذه النكبة الأولى بالغة الخطورة يصل إلى اسبانيا ، حيث كان الرأي العام مناهضا للحرب ، حتى أثار موجة خطيرة من الاضطرابات. في برشلونة حدثت انتفاضة حقيقية كانت من الحدة والامتداد إلى حد أنها سميت فيما بعد ب "الأسبوع

الدامي". أما بالنسبة إلى الريفيين ، فقد تشجعوا ولما تترام إليهم أصداء هذه الانعكاسات ، وبعد أربعة أيام كبدوا العدو ، في معركة واد الذيب (Barranco del Lobo) نوعا من الهزيمة سقط فيها الجنرال بنطوس (Pintos) ، الذي يقود الجيش ، وقسم من أركان حربه.

مكن هذا النصر الجديد أمزيان من رفع مستوى المعركة ، بفضل ما غنمه من ذخائر وبنادق. لكن اسبانيا ، وقد قضت على المعارضة ، حشدت ووجهت أكثر من أربعين ألف رجل. منذئذ ، ورغم حمية الريفيين ، ورغم الهزائم المريرة التي سيلحقونها من جديد بالعدو ، كما حدث في 30 شتنبر في معركة سوق الخميس ، أصبح يخيل أن الأمر سينتهي بهم إلى التراجع خطوة خطوة بعد أن طما السيل أمامهم . سيما وأن كل شيء لم يعد يسير وفق ما يرام في صفوفهم. كان عليهم في إبان الابذار أن يفكروا في العودة إلى الحقول إن هم أرادوا ضمان قوتهم في السنة القادمة. في الجزء من الأرض الذي وقع في أيدي العدو ، لم يعد هناك من ينتصب في وجه هؤلاء الأعيان من "أصدقاء اسبانيا" القدامى، الذين أصبحوا يعملون علنا على تثبيط العزائم. وعندما انضمت قرية أولى إلى الإسبان ، قرية فرخانة ، قامت قرى أخرى تحدو حدوها. بينما عمل أعيان من قلعية على تحريض إخوانهم على التطوع كمرتزقة في صفوف العدو . في المنطقة المستقلة ، حيث شاع الخبر بهذا الارتداد ، طلب المحاربون القادمون من جهات نائية الانصراف إلى حال سبيلهم وقد عضتهم أنياب الخيبة . أما القادمون منهم من القبائل التي انقلبت إلى جانب العدو ، فلم يعودوا يعرفون أي جانب ينحازون إليه . وكان الجيش يتفكك . وعندما احتلت اسبانيا شبه جزيرة قلعية في نوفمبر 1909 ، فإن أمزيان الذي تراجع إلى غرب وادي كرت في قبيلة مطالسة المجاورة ، لم يعد يحتفظ بجانبه سوى بآخر تربيعة من المخلصين .

تلك محصلة ثقيلة بالنسبة إلى الريفيين بعد جولة من أربعة أشهر قاموا فيها مع ذلك ببطولات رائعة. لم يبق لهم جنود بعدما تفككت صفوفهم. ناهيك بانضمام بعض القبائل إلى اسبانيا ، وهو الأمر الذي لم يكن تصوره بالأمس ممكنا. أخيرا ، فإن الآمال المعقودة على السلطان الجديد انهارت بكل مرارة. فبدلا من أن يمدهم عبد الحفيظ بالعون الذي كانوا ينشدونه ، وجه إليهم رسولا يستحثهم على عقد السلم ؛ أو قل ، بعبارة أخرى على الاستسلام [62] .

لكن هل يتعين أن يتوقف الكفاح بسبب ذلك ؟ إن الأرض المفقودة لا تمثل شيئا

بالمقارنة مع باقي الأراضي الأخرى المستقلة. وأن التكاليف والوسائل التي استعملها العدو لتتجاوز الحدود : 100 مليون بسيطة ، وجيش من 000 43 رجل [63] . أما خسائره فكانت مريعة حتى بين الضباط ، وهذا دون استثناء القادة. دون شك لم يكن الناس في الريف يعرفون بعد تفاصيل الاضطرابات التي عانت منها أيضا شبه الجزيرة [64] . إلا أن إعادة ترحيل الجنود الإسبان ، التي تمت على نطاق واسع ، تدل بوضوح على أن الإسبان لم يكونوا مستعدين في الوقت الحاضر للمضي قدما. هذا وكانت "اللصوصية" التي أخذوا يندون بها في المنطقة المحتلة منذ ذلك الحين ، مؤشرا على أن المقاومة بدأت ، وأن التحاق بعض القبائل بصفوفهم بتحريض من الأعيان يظل واهي الأساس. أخيرا فإن رجلا كأمزيان لم يكن ليجهل كم كانت الحياة في الريف متأثرة بدورة الفصول ، وأن الصيف يمكنه أن يصلح ما أفسده الشتاء . لم يكن لتفوته بالخصوص ملاحظة كون كل القبائل وجدت نفسها ملتحمة لقطع الطريق أمام الغزو ، وهذا بدون زعيم آخر إلا هو بالذات ، زعيم مختار من طرفها ومنبثق من صفوفها . وإذا كانت الوحدة التي تحققت تلقائيا قد تعرضت للانحلال تحت ضغط قوي للأحداث ، فمن واجبه ، وهو الزعيم المختار ، والمؤتمن على الفكرة ، أن يعمل من جديد على إيجاد ظروف بعثها ويسهر على ضمان استمراريتها من الآن فصاعدا. لكن عليه هذه المرة أن ينبذ كل وهم. فعلى الريف أن يدافع عن نفسه بالاعتماد على النفس ، بدون الدعم الذي يمكن أن يقدمه له السلطان. الأسوأ من ذلك أن نتائج المفاوضات الجارية بين الإسبان والمغرب أسفرت في نوفمبر 1910 عن وضع المنطقة المحتلة تحت المراقبة المشتركة للإسبان والسلطان [65] . معنى هذا أن الريفيين عندما سيشهرون السلاح من جديد في وجه الإسبان الذين ظلوا في الواقع سادة الموقف في المنطقة المجتاحة ، سيدخلون على نحو ما في حالة تمرد ضد سلطانهم بالذات ، وهو الأمر الأكثر خطورة من بقائهم وحدهم في الميدان ، إذ أنه يجازف بفراقهم للجماعة. والحال أن الحجة ستكون ذات وزن كبير بالنسبة للأعيان المنحازين للإسبان ، وهذا حتى في القبائل التي بقيت مستقلة . فالآن وقد بدا أن الأمور تقررت ، تراهم لم يعودوا يذخرون حميتهم لخدمة الأجنبي بإثارة الفُرقة ، وهذا في الوقت الذي كانت فيه ضرورة الساعة تتطلب الاتحاد أكثر من أي وقت مضى . بحيث إن الريفيين وقد أصبحوا وحدهم ، ومقصيين عن الجماعة ، سيكون عليهم أيضا أن يعانوا من الانشقاق عن طريق أولائك الأعيان .

* * *

لقد شنت اسبانيا حربا من أربعة أشهر ، مع أن حالة السلم كانت مستتبة قانونيا

بينها وبين المغرب ، ومع أن أية "حماية" كذلك لم تكن تبرر بعد الغزو سواء في نظر الدول العظمى أو في نظر الإسبان أنفسهم. فوق ذلك ، وبعكس الحروب التقليدية التي لا يكون فيها عموما على المنتصر سوى احتلال الأراضي التي تخلى عنها العدو ، كان ما يزال باستطاعة كل قبيلة في الريف أن تختار مواصلة الكفاح في أرضها بعد فشل المقاومة المشتركة. لذا فإن الغزاة ، بعيدا عن أن يستفيدوا من تفوقهم بعد انسحاب أمزيان ، أوقفوا الحرب وشرعوا حينا في ترحيل جندهم لتهدئة الرأي العام . مع ذلك فقد حددوا عدد القوات الدائمة لجيش الاحتلال بمليلية في 000 25 رجل. كذلك فقد اجتهدوا في تجنيد العناصر الأولى من الجند الأهالي وفي تنظيم المنطقة المجتاحة بغية عمليات لاحقة. في انتظار ذلك ، أحلوا العمل السياسي محل العمل العسكري . بقيامهم بفضل الأعيان بعمليات اخضاع محلية ، فانهم زحفوا عن طريق " بقعة زيت " ، حسب صيغة ليوطي ، خلال سنة 1910 و الأشهر الأولى التالية (66) . لكن بمقدار ما كانوا يقتربون من واد كرت ، بمقدار ما كانت تنطرح أمامهم مسألة أمزيان مع المجاهيل التي تتضمنها .

ليس بوسعنا خلال هذه الفترة الوقوف مباشرة على حقيقة نشاط أمزيان . من الجانب المغربي فان المصادر تعوزنا . أما بالنسبة الى اسبانية ، فلم يكن لها هي الأخرى في هذا التاريخ ما يكفي من المجسات لتموضع خصمها في أية لحظة ، أو لتزن بالضبط مدى نفوذه . لكنها لم تكن تعدمها و بما يكفي لتحس به دائما حاضراً و مؤثرا بوزن متزايد على اختيار القبائل . كانت تتوفر ، كما رأينا ، فيما وراء كرت بكثير ، و بجنب البلاد التي تسعى بالذات الى اخضاعها ، على القاعدتين الجزيرتين اللتين كانتا لها بمثابة مرصدين ، و هما صخرة بادس المعروفة بالاسبانية بفلث ، و صخرة النكور ، وتعرف بالاسبانية بالحسيمة . من هذه الصخرة الأخيرة على الخصوص الى أراضي بقيوة و بني ورياغل القريبة مباشرة ، أفضى الأمر الى قيام حركة مكشوفة من تنقل البضائع و الأشخاص في كلا الاتجاهين ، تلك الحركة التي بالاضافة الى الأخبار التي تمكن الاسبان من التقاطها ، قامت في حد ذاتها بوظيفة مضغاط بما يطرأ عليها من مد و جزر . فاذا لم يعد الأعيان يقدمون الا فرادى ومتسللين خلسة ، أو اذا ما جرت المعاملات بوتيرة متحفظة ، فهذا يدل على أن نفوذ أمزيان في الجهة المقابلة آخذ في التنامي . على هذا النحو علموا بتزايد نفوذه اثر الارتباك المحتم الناجم عن الهزيمة . و عندما قام قائد جبهة مليلية بزيارة الحسيمة في يناير 1910 ، خصص له الأعيان المنحازون للاسبان استقبالا حارا ، بل و ذبحوا له ثورا كعلامة على الخضوع (67) . لكن لما وصل خلفه بدوره في أكتوبر ، فانه لم يحظ سوى باستقبال فاتر و متحفظ ، و عاد

أدراجه يخامره الشعور بأن أي انزال للقوات الاسبانية في هذه المناطق ، لتشكيل جبهة إنما هو سابق لأوانه (68) . ذلك ما لا شك فيه . غير أنه لم يكن يخطر بباله فيما يبدو أن عليه بدلا من الهجوم ، أن يكابد مصادمة الجيش الجديد الذي حشده أمزيان . في الحقيقة أنه راجت اشاعات تفيد بأن الوحدات تحتشد داخل القبائل . و في ماى 1911 تعرضت فرقة من المدفعية تابعة للقوات الاسبانية لهجوم شُن انطلاقا من الساحل الذي كانت تسير بمحاداته مباشرة . بينما اغتيل في ديار بني ورياغل القائد عمار ، وهو " صديق " لا سباتيا (69) . ان هذه الوقائع و هذه الاشاعات تدل حقا على تنامي موجة العداء ضد الغزاة . لكن أن يكون هذا الشعور قد تمكن من افراز مقاومة قوية ، فذلك ما لم يكن الاسبان يومنون به بتاتا . لذا ، و في 24 غشت عندما تعرضت بعثة طوبوغرافية تعمل في اتجاه واد كرت للهجوم انطلاقا من الضفة الأخرى ، و طوردت و ألحقت بها خسائررغم القوات التي كانت تحميها ، فانهم نسبوا الهجوم الى "لصوص " تجاوزت جرأ تهم الحد المعتاد ، واعتقدوا أنه يكفي القيام بعمليات قمع تكون من القوة للحيلولة دون تكرره . وبالفعل فقد عبر الاسبان الوادي و عاثوا فساد في البلاد دون أن يصطدموا بمقاومة تذكر ، و سلبوا الزرع و البهائم و أضرموا النيران في القرى و تركوها قفرا بلقعا (70) . بعد انجاز المهمة ، التحقوا بقواعدهم و هم على يقين بأنهم أصبحوا في مأمن لمدة طويلة . بيد أنهم لم يعملوا في الحقيقة الا على التعجيل بمجرى الأمور و تسريع بداية مواجهة جديدة كان من الممكن طوعا أن يكفوا أنفسهم مشقتها .

لم تكد تمضي سوى ثمانية أيام حتى ظهر جيش ريفي من حيث لا ندري ، و عبر في 7 شتنبر واد كرت و انقض كالصاعقة على كل الجبهة التي يحتلها الخصم . بعد أن أوقف الهجوم بجهد جهيد و تم ابعاده بمشقة ، فانه تكرر مرتين في أقل من أسبوعين و بشكل أعنف . بفضل الا نجادات الموجهة بسرعة انطلاقا من شبه الجزيرة ، تمكن الاسبان الى النهاية من الاحتفاظ عموما بمواقعهم (71) . لكن كيف لا نرى الاتجاه الجديد الذي اتخذه الوضع بالنسبة اليهم ؟ ففيما قبل بسنتين ، و رغم ما تكبدوه من هزائم كبرى خاصة في البداية ، كانت لهم المبادرة الى النهاية ، و لم يكن الريفيون حتى فى الهجوم المضاد يقاتلون إلا متراجعين . في حين أن أمزيان هو الذى أخد الآن يشن الحرب عليهم ، وهي حرب حقيقة ، هجومية ، و قوية . صحيح أنه لم يتمكن بعد من زحزحتهم من مواقعهم ، الا أنه أرغمهم على موقف دفاعي .

اعتبرت الحالة في مدريد خطيرة بما يكفي لتستلزم ارسال وزير الحرب ألى عين

المكان ، الذي درس مع الأركان العامة خطة شاملة للقيام برد الفعل . من ثم تقرر تنظيم عملية مزدوجة : بادىء ذى بدء ، شن هجوم جبهي ، ثم انزال القوت العسكرية في منطقة الحسيمة التي عليها في أوج المعركة أن تباغث الريفيين من الخلف . الا أن هذه الخطة باءت بالفشل . فالهجوم الجبهي الذي شن في 9 أكتوبر ، تم ايقافه منذ البداية ، و اضطر المهاجمون الى عبور كرت من جديد بعد أن اجتازوه في نفس اليوم . أما بالنسبة الى الانزال ، فقد ألغي بكل بساطة بعدما لم يبق هناك مبرر له (72) .

هكذا فان الاسبان لم يتمكنوا مرة أخرى من أخذ زمام المبادرة . لكن هل كان بامكان أمزيان في المواجهة الاحتفاظ بها ؟ ألن يتفكك جيشه في موسم الابذار كما حدث منذ سنتين ؟ ذلك ما كان بالامكان توقعه . غير أن شيئا منه لم يحدث . و هذا عنصر جديد آخر ، و دليل قاطع على حدوث تقدم كبير في مستوى التنظيم و توزيع الأدوار داخل المجموعة القبلية . و اذا كان أمزيان قد أرخى قبضته حقا خلال شهرين ، فما ذلك إلا لتحضير هجوم شنه في قلب الشتاء عند نهاية دجنبر . إلا أن الهجوم باء بالفشل رغم شدته المتزايدة ، نظرا لان الاسبان عرفوا مقدما كل ترتيباته (73) . بعبارة أخرى ، إذا كان الريفيون قد أخذوا في التمرس بخوض الحرب ، فإن عدوهم احرز تقدما هو الآخر .

النتيجة إذ ذاك هي ان أمزيان أصبح يتحرك بكل حرية على ضفتي كرت و ان لم يتمكن من اختراق جبهة العدو ، و كانت الضربات المتكررة التي ينزلها بالاسبان تذكي ارادة التحرر في المؤخرة داخل المنطقة المحتلة . هذا فيما كانت الاتصالات قد تمت بالمنطقة التي بقيت مستقلة ، و بدأت الاستعدادات من هذه الجهة و تلك من أجل القيام بانتفاضة كبرى . بحيث ان وضع الاسبان تدهور بما يكفي ليرى القائد الاسباني الحاكم بمليلية في 6 أبريل 1912 ضرورة توجيه نداء الى قبيلة قلعية و الى قبائل كرت الخاضعة ليناشدها بالوقوف ضد رعيانها الأشرار (74) . لكنها محاولة سخيفة لم تكن لتسفر عن أي نتيجة . و عليه فانه لا يمكن التكهن بما كانت ستؤول اليه الأمور لو لم يطرأ حادث مفاجىء ليوقف مجراها .

ففي 15 ماى اصطدم أمزيان ، وهو يقوم فيما يظهر بجولة استطلاعية ، بجند من العدو لم يكن بامكانه مواجهتهم أو تفاديهم نظرا لكثرة عددهم . على أنه لما تفطن الى أنهم ريفيون ، من هؤلاء " النظامين " المجندين من طرف اسبانيا ، تقدم نحوهم وهو يقوم باشارات كبيرة كأنما ينوى التحدث اليهم . غير أنه سقط صريعا قبل أن يتسنّى

لهم التعرف عليه أو الاصغاء اليه . وبعد ذلك لا غير اقترب منه أحد النظاميين ، و تفحصه ، و تعرف عليه (75) . بعد التأكد من هوية الجثة ، تم نقلها في الحين الى مليلية حيث عرضت على الجمهور حسب ما تقول الرواية الريفية (76) . الا أن القائد ألدافي (Aldave) لم ينتظر حتى هذا الحين ، اذ قام منذ اليوم التالي ، أي في 16 ماى ، بتوجيه خطاب الى القبائل أذيع على نطاق واسع ، يقول لها فيه :

" ان الله سيد الكون قضى البارحة بأن يميت في ميدان المعركة الشريف أمزيان الذي كان يحرضكم على الحرب . فكأنما به تعالى ينصحكم على العكس بالسلم . أذعنوا اذا لمشيئته و تقبلوا ما قدره " (77) .

وكانت نظرة ألدافي سديدة . فقد أدرك أن أمزيان هو الرجل الذي كانت تتجسد فيه وحده آنذاك حاجة الوحدة و الروح الهجومية للقبائل ، و أن الريفيين بعده لن يأنسوا قط من أنفسهم القدرة على الحفاظ على تماسكهم و بالتالي على ابقاء الكفاح في مستواه . و بالفعل فقد ترجمت وفاته عمليا و منذ 16 ماى بنهاية جولتهم الحربية التي و إن لم تبلغ غايتها فانها فتحت مع ذلك آفاق النصر بعد ثمانية أشهر من الهجومات المتكررة .

سيما وأن الإسبان لم يقوموا من جهتهم بشيء لاستغلال الحادث في الميدان ، بل قاموا بما هو عكس ذلك . فقد أوقفوا فجأة تنفيذ خطتهم الحربية بعدما كانت قد انطلقت منذ اليوم الذي قضى فيه أمزيان نحبه تلك الخطة التي استهدفت احتلال الضفة اليمنى من واد كرت . إنه قرار يدعو إلى الاستغراب . على أن كوميث خوردانه (Gomez Jordana) الذي خلف الجنرال الدافي ، سيحاول تعليله بعد سنتين ؛ فبعد أن ذكّر بهذه الخطة المقررة والتي كان العمل بها قد بدأ ، كتب يقـول :

"إلا أن وفاة أمزيان خلال هذه المعركة الأولى ، والأثر الذي خلفه هذا الحادث داخل المنطقة المحتلة التي بقي فيها الأهالي أياما طوالا متحيرين مترددين في الموقف الذي ينبغي عليهم اتخاذه لفرط ما ألمّ بهم من وهن ، بل ومن ذهول من جراء فقدان أمزيان ، ذلك المعلم الأكبر الذي يعتبرونه مبعوثا من الرسول لتخليص المسلمين من احتلالنا ، وكذلك ذكرى المعارك الأولى التي كان فيها العدو يدافع بضراوة عن الأرض متسببا لنا في خسائر كبيرة وسط الاستنكار الشديد للرأي العام عندنا ، وأخيرا يقيننا شبه التام بأن الأمور كانت ستسير على هذا المنوال لو أننا غامرنا بمشروع شائك كالذي كنا نعتزم القيام به ، كل هذا أظهر وقتذاك ... أنه من غير الحكمة الإقدام عليه

وأدى إلى إلغائه ليس إلا" (78) .

على الرغم من أن هذا التعليل يبدو للوهلة الأولى غير واضح وضوحا كافيا ، وأنه يخطئ من حيث عدم دقته في بيان بعض الوقائع ، فإنه يوضح لنا الأمور. في الحقيقة أن الجنرال الدافي كان قد شرع في تنفيذ الخطة رغم ما يحيط بها من مخاطر ، ولئن أوقفها فجأة إثر وفاة أمزيان ، فذلك لا يرجع إلى كون هذه الوفاة شكلت بالنسبة إليه ظرفية غير مواتية. على العكس فإنه حاول كما رأينا أن يجني منها في الميدان كل الفوائد الممكنة عن طريق تحطيم معنوية الريفيين. إلا أنها فوائد ذات صبغة سياسية. ولم يكن تحقيقها ممكنا إلا شريطة عدم دفع القبائل إلى المواجهة ، إذ أن ذلك سيرغمها على ترصيص صفوفها بينما كام من المفروض أن تؤدي وفاة أمزيان إلى زعزعتها . كان الإسبان يعرفون أو يستشعرون أن زعيما مثل أمزيان لم يظهر إلا لكي يستجيب لحاجة الوحدة هاته التي كان حضورهم الاجتياحي يزيدها حدة في القبائل . فبالنظر إلى وضعهم المهزوز سواء في المؤخرة أو المقدمة ، وهي حقيقة لا تخفيها بأي حال شهادة كوميز خوردانه ، فقد كانت الحكمة تقتضي بألا يعملوا تهورا على تعميق حدة الحسرة على أمزيان في قلوب الريفيين ، بل بالأحرى أن يتركوا ذكراه تنطمس ، مع العمل في الوقت نفسه على تشجيع الفتور المحترم الذي نجم عن احتجابه. هذا ما جعل الجانب الإسباني يوقف بدوره المعارك منذ 16 ماي ، ويستعيض عنها بعمل سياسي محض يقوم على الاستخبارات والرشوة والتخريب. وعلى حين أن "الحماية" التي طرأت بعد ذلك فتحت لهم البلاد – وهذه نتيجة غير متوقعة – وعلى حين أنهم زحفوا بالفعل في الطرف الآخر من جهة العرائش وسبتة ، واحتلوا تطوان ، فإن كرت في الريف سيظل بالعكس الخط الأقصى أمام زحفهم ، متخذا بمرور الوقت طابع حدود ممتنعة بينهم وبين كل الريف تقريبا الذي بقي مستقلا .

* * *

بفقدان أمزيان فقد هدأ الريف المستقل مباشرة كثيرا من حميته. فالضغط الجماعي المنظم ، المتزايد ، الذي مارسه منذ ثمانية شهور ، توقف كما رأينا منذ 16 ماي . إلا أن الشهور الثمانية من المعارك الهجومية لا يمكن أن تمر دون أن تترك بصماتها . فقبائل الساحل والجبل والسهل التي كانت تتجاهل بعضها البعض بالأمس ، وجدت نفسها تقف مختلطة على طول جبهة من بضعة كيلومترات ، مما أدى إلى مدّ جسور التواصل فيما بينها. وبالخصوص سيظل كرت مستقبلا مسألة تهم جميع

القبائل ، وسيعتبر التوجه للدفاع عنه واجبا قوميا مشتركا . كذلك فإن الشهور الثمانية من الحرب التي قضتها في جبهة النار كانت بالنسبة إليها كلها مدرسة حافلة علمتها مجابهة عدو مجهز بالرشاشات والمدافع ، دون أن تترك له التفوق بسبب ذلك . أخيرا فإن تلك الشهور الثمانية من الحرب عجلت بازدياد تسلحها بشكل كبير . ففي ميدان المعركة ، ومن أيدي العدو أو أحزمته ، كان الريفيون ينتزعون البنادق ويحتجنون الرصاص من أجل معاركهم اللاحقة بعدما كانوا في البداية لا يتوفرون إلا على السكاكين والدبابيس (79) . فلئن كان الريف قد تعرض حقا لخسارة جسيمة في شخص أمزيان ، فإن الريفيين من بعده لم يعودوا كما كانوا عليه من ذي قبل .

سيما وأنهم بعيدا عن نسيانه ضخموه في ذاكرتهم. فهذا الرجل الذي عرف كيف يجد الكلمات للتأثير عليهم واستخلص منهم أفضل ما فيهم ، هذا المرشد ذو اللهجة الآمرة بكثير من الوداعة ، هذا الزعيم المغوار الذي وقف دائما في الصف الأول ساعة المعركة ، هذا الشهيد الذي حرمته الموت من النصر ... دخل بسرعة إلى الأسطورة وأصبح بمثابة رولان (Roland) بالنسبة للريفيين. يحكى في السهرات الريفية كيف عبر واد كرت مخفورا بعدد كبير من الحرس وأقام في قرية عند بني سيدل لقضاء ليلته . فإذا بالإسبان يكتشفون أمره عن طريق أحد جواسيسهم ، ويتقاطرون من كل جهة تحت جنح الظلام ويطبقون عليهم الدائرة . ولما فطن أمزيان للأمر ، جمع رجاله وطلب متطوعين ليستشهدوا معه في معركته الأخيرة. وهكذا فقد بقي معهم، ثم قاتل في الصباح منتظرا الموت. وعندما همّ العدو بنقل جثمانه وجد - ويا للمعجزة - فرسه يبكي عليه ولا يريد فراقه (80) . يقال أيضا إنه لم ينبت شيء مطلقا حول المكان الذي استشهد فيه لأن الطبيعة لم تجد عزاءها في حدادها عليه (81) .

إن ملحمة أمزيان لهي حلم بوحدة تلاشت في نفس اللحظة التي تحققت فيها . حلم سيظل يراود أذهان الريفيين لأنهم لم يفقدوا الأمل في تحقيقه مرة أخرى. لكن متى ؟ وعلى يد من ؟ من الحق أن هناك رجالا كانوا يقومون خطباء في إخوانهم كل أسبوع في كل جهة داخل الأسواق ، داعين إلى السلام بين المسلمين للتوجه سويا إلى محاربة العدو الكافر ؛ فيقابلون بالتصفيقات ؛ بل وتتكون بناء على تحريضهم جماعات صغيرة تتولى مناوبة الحراسة في مخافر الحدود بكرت. ثم تحدث فجأة تجمعات كبيرة مسلحة كذي قبل. إلا أنها سرعان ما تنحل - دون أن نعرف كيف - قبل التوجه إلى الجبهة. وهكذا وبصورة إجمالية كان كل واحد ينشغل بشؤونه الخاصة ، سيما وأن الخطر

ابتعد على ما يظهر. فباستثناء الغارات التي تشن من وقت لآخر ومن طرف الريفيين أنفسهم على مراكز العدو ، ساد هدوء كبير هنالك في الجبهة. إلى حد أنه كان بالإمكان عبور الخط بكل حرية في كلا الاتجاهين. وهكذا فقد كان بإمكان الحصّاد التوجه إلى الجزائر تماما كذي قبل . بحيث ظهر الإسبان في نهاية الأمر جيرانا متساهلين. لماذا التخوف منهم والحال أنهم أوقفوا زحفهم ؟ هذا على الأقل هو رأي فريق له كلمة مسموعة جدا ويتفوه بكثير من الثناء على رؤوس الملأ عند الحديث عنهم. خاصة وقد أصبحوا الآن على ما يظهر أصدقاء للسلطان. وعليه ، من سيصدق الريفيون وأي رأي سيستقرون عليه ؟ ثم كان ينبغي عليهم قبل محاربة الإسبان إعادة تنظيم صفوفهم بذاتها. والحال أن ثمة ما كان أشبه بروح شريرة أخذت فجأة في إثارة الأسر والأفخاذ والقبائل بعضها ضد البعض الآخر ، وكل خصومة بين الجيران ، حتى التافهة منها ، كانت تحتد وتتزايد كما لو أن الناس فقدوا رشدهم. بحيث يخيل أن الريفيين بعد أن فقدوا أمزيان وبقوا وحدهم لم يعودوا يصلحون لشيء .

وإذا كانوا ما يزالون يصفقون لأولائك الذين يحاولون المحافظة على الحماس ، فقد أصبح ذلك من باب الرتابة ليس إلا. إذ أن الكثيرين أحسوا بانسياقهم في تيار آخذ في الانحسار . وبعبارة أخرى ، فإن الريف سيصبح بالأحرى ميدانا مناسبا لنشاط عكسي : وهو الذي كان يقوم به مسبقا وبشكل علني "أصدقاء اسبانيا". إلى متى ولأية نتائج ؟ ذلك ما كان من الصعب جدا التنبؤ به آنذاك .

الهوامش

1) احتلت مليلية عام 1497 . انظر :

Sources inédites de l'Histoire du Maroc , 1ere série Espagne , t.1. l' introduction

تعرف صخرة بادس بالإسبانية بينيون دي فلث وقد احتلت عام 1564 : المصدر نفسه ، ج 3، ص 59 وما يليها. أما صخرة النكور لتعرف بالإسبانية بالحسيمة ، وقد احتلت عام 1673 : المصدر نفسه ، السلسلة الثانية ، فرنسا ، ج 1، ص 391 ، ه .1.

2) بدأ الإسبان في تخريب أسوارها منذ بداية احتلال الصخرة :

Sources inédites de l'Histoire du Maroc, 1ere série, Espagne, t.III, p. 27.

3) قام بها سيدي محمد بن عبد الله. ويرجع المؤرخون المغاربة تاريخها خطأ إلى عام 1771 ، كما فعل مثلا الزياني والناصري. انظر :

- Germain AYACHE : "Beliounech et le destin de Ceuta entre le Maroc et l'Espagne", in "Hespéris-Tamuda", vol. XIII, 1972.

- Ramon LOURIDO DIAZ : "Estrategia militar y diplomática previa al asedio de Melilla 1774-1775", in "Revista de Historia militar", año XVIII, n 36 (1974).

4) لا نتوفر على شهادات مكتوبة حول حالة القبائل الذهنية هاته.´على أنه يمكن أن نستنتجها من سلوكها العام ومن الذهنية السائدة حول سبتة حيث كانت الحالة مماثلة وحيث نتوفر بصددها على إحدى الشهادات. يحكي أحمد الغزال الذي رحل إليها عام 1766 أنه كانت توجد على مرمى حجرة من هذا المركز مواقع يرابط بها باستمرار محاربو القبائل المجاورة. هؤلاء المحاربون الذين يسميهم بالمجاهدين كانوا يقومون بمحاصرة المدينة سعيا وراء البركة : "كتاب نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد" ، النص العربي ، نشر فريد البستاني ، 1941 ، ص 13. ومما هو جدير بالذكر أن الشاطئ المواجه لصخرة الـنكور يحمل هو الآخر اسم المجاهدين.

5) انظر :

Philippe DE COSSÉ BRISSAC : "Les rapports de la France et du Maroc pendant la conquête de l'Algérie, 1830-1847", in "Hespéris", t. XIII, 1931, fasc. I et II .

6) نفس الدراسة ، الفصل 10.

7) هذا ما لا يستخلص من قراءة أولية لنص اتفاقية 6 مارس 1845. ونقرأ بالفعل في الفصل الأول منها : "اتفق الوكيلان [المغربي والفرنسي] على إبقاء الحدود بين ايالتي المغرب والجزائر كما كانت سابقا بين ملوك الترك وملوك المغرب". وبصورة إجمالية نجد وكأنما الأمر لا يتعلق بتوسيع وإنما بإعادة إقامة الحدود الموجودة سابقا. هذا وقد سبق أن أظهرنا في إحدى الدراسات (بليونش ومصير سبتة... مرجع سابق) مدى التحريف الذي تضمنه هذا النص للحقيقة التاريخية.

8) انظر :

- Germain AYACHE : "Aspects de la crise financière au Maroc après l'expédition espagnole de 1860", in "Revue historique", t. CCXX, oct-déc., 1958 ; et "Beliounech et le destin de Ceuta ...", loc. cit.

9) انظر ما مر في صفحتي 105 و 106 .

10) نص على هذا التنازل بمقتضى اتفاقية أبرمت منذ ما قبل الحرب في 24 غشت 1859. بيد أنه لم يتحقق في حينه بعد بدء الحرب. ثم جددت معاهدة الصلح الالتزام به عام 1860 ، وتم بالفعل تحديد الحدود في 26 يونيو 1862 ، وحرم تماما خمسة أخماس من القبائل من أراضيها. أخيرا فإن التنازل تم عمليا في نونبر 1863 بفضل تدخل جيش مغربي أجبر القبائل على إخلاء المحل. انظر :

Jeromino BECKER : "Historia de Marruecos", Madrid, 1915, pp. 286-290 '

انظر كذلك رسالة مولاي العباس أخ وخليفة السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن ، إلى محمد بركاش النائب السلطاني بطنجة بتاريخ 2 يونيو 1862 ، ورسالة سيدي محمد إلى بركاش بتاريخ يونيو 1869 ، وقد نشر محمد نهليل صورتي هاتين الرسالتين في "رسائل شريفة" باريس 1915 ، الوثيقتان 10 ، 25.

11) برقية وزير اسبانيا فرنسسكو ميري دي كولون إلى وزير الدولة بمدريد ، مليلية 19 نوفمبر 1863 : بكر (J. BECKER) مصدر سبق ذكره ، ص 290.

12) بكر (J. BECKER) ، مصدر سبق ذكره ، ص 350.

13) في الرسالة السابقة الذكر الموجهة من سيدي محمد إلى بركاش بتاريخ 29 يونيو (انظر الهامش 10) تم التذكير من جديد بأن قلعية لم تقبل التنازل عن جزء من أراضيها إلا بشرط ألا يقوم الإسبان بإدخال أي تغيير فيه. حول ردود فعلها وتفاصيل الحادثة ، انظر : بكر ، مصدر سبق ذكره ، ص 309 .

14) بخصوص الضغط الأنجليزي على السلطان ، راجع محضر الجلسة المحرر من طرف وزير انجلترا دروممنت هاي والذي سجل فيه النتائج التي أفضت إليها وساطته بين الإسبان والمغاربة في 12 يونيو 1871 (انظر محمد داود : "تاريخ تطوان" ، المجلد 6 ، ص 152–154.) والوزير المذكور هو الذي دافع عن وجهة النظر الإسبانية وطالب بإرجاع الريفيين إلى جادة الصواب إذا ما أصروا على عنادهم.

15) في 19 شتنبر 1863 ، وجه ميري اي كولون باسم حكومته الإنذار التالي إلى محمد بركاش : "إذا لم تستجب الحكومة المغربية بسرعة وحرفيا لجميع مطالبنا لتقديم ترضية للإسبان عن الإهانات الوقحة التي قامت بها القبائل تجاه فرق صاحب الجلالة الملكة ، فإن الحكومة الإسبانية ستعطي الأمر إلى الجيش الذي يوجد على أهبة الاستعداد للإبحار في ملقا باكتساح الريف دون إبطاء (وثيقة محررة بالعربية وكذلك محضر الجلسة السابق الذكر لدروممنت هاي ، والذي أعيد نشره في محمد داود ، مصدر سابق ، المجلد 6 ، ص 139) .

16) برقية إلى وزير الدولة موجهة من مليلية بتاريخ 19 نوفمبر 1863 ، وردت في : بكر (J.BECKER) ، مصدر سبق ذكره ، ص 290 .

17) حول هذه الحادثة وتسويتها ، انظر : بكر ، ص 370–376 .

يضيف هذا المؤلف ، وهو مؤرخ اسباني ، إلى روايته التعليق التالي : "نمتنع كليا عن إبداء رأينا حول هذه الحادثة . لكن يحق لنا كل الحق أن نلاحظ بصورة إجمالية أن الحكومة الإسبانية وجدت نفسها مرغمة تحت ضغط رأي عام عديم التبصر على أن تصبح بشكل ما شريكا لأناس يتعاطون تجارة مجرمة محتمين بالراية الوطنية لنيل تعويضات عن الخسائر التي لحقتهم في عملياتهم غير المشروعة" ، مصدر سبق ذكره ، ص 372 ، هـ 2 .

18) بكر ، مصدر سبق ذكره ، ص 382 .

19) حول أحداث 1893 ، راجع : بكر ، الفصل 39 .

أما بالنسبة إلى الرواية المغربية عن المعارك الأولى ، فنقدمها فيما يلي كما وقفنا عليها في رسالة من السلطان مولاي الحسن إلى نائبه بطنجة محمد الطريس بتاريخ 22 جمادى الأولى 1311/ فاتح دجنبر 1893 ، والرسالة المذكورة تكرر ما جاء في التقرير الذي أرسله عامل الريف إلى السلطان في 25 ربيع الأول 1311/ 6 اكتوبر 1893. يقدم هذا العامل ، وهو أحمد بن شنافة الجامعي ، بيانا عن زيارته مع وفد من الأعيان لحاكم مليلية بعد أن تناهى إليه عزم هذا الأخير على بناء قلعة. فكان أن طلب منه تأجيل المشروع ريثما تصل تعليمات السلطان. لكن طلبه قوبل بالرفض. وبعد ذلك اقتحم الإسبان ضريح سيدي أورياش وشرعوا في اغتراف الماء والتصرف هنالك كما لو كانوا في بلدهم ، إلى حد أنه اندلعت مشاجرة في السوق المجاورة ، جرح خلالها كثير من المغاربة ، بينما أطلقت مدافع مليلية نيرانها وحطمت عددا من المساجد والمساكن بالإضافة إلى الضريح. ثم بدأ الإسبان في بناء قلعتهم متمادين في سوء معاملتهم للمغاربة. وبعدما تجمعت قبائل قلعية من جديد في نفس السوق ، أطلقت المدافع نيرانها من القلاع وقتلت منها أربعة أشخاص. فكان أن اتفقت مع الإسبان على بدء الأعمال الحربية. وأمدتها قبيلة أولاد سطوت بجميع فرسانها. واجتمعت خيالة القبيلتين واختبأت في منعرج أرض ، بينما نصب المشاة كمينهم في منعرج آخر. ثم تقدم فريق من الفرسان في أرض مكشوفة. فخرج الإسبان من مليلية لمقابلتهم رافعين الراية السوداء. بعد تبادل طلقات النيران ، عادت قلعية أدراجها ولاذت بالفرار والإسبان يطاردونها. وعندما

تجاوز هؤلاء المنعرجيْن ، برز فجأة الخيالة والمشاة. ففر الإسبان بدورهم نحو مدينة مليلية التي وجدوا أبوابها موصدة. فحينئذ فتكت بهم عن آخرهم (وثائق تطوان ، 22/20).

20) رسالة مولاي الحسن إلى محمد الطريس بطنجة بتاريخ 22 شعبان 11/1310 مارس 1893. (وثائق تطوان ، 16/20).

21) خلال معارك 27 و 28 أكتوبر 1893 ، قتل الجنرال ماركايو (Margallo) حاكم حصن مليلية : بكر ، مصدر سبق ذكره ، ص 386.

22) انظر ما مر في صفحات (107 - 109) .

23) محمد أزرقان : "الظل الوريف في محاربة الريف" ، ص 7 من المخطوط. على الرغم من أن أحمد السكيرج هو الذي حرر هذا المخطوط ، فإننا ننسبه إلى أزرقان لأنه هو الذي أملاه.

24) ذلك ما ردده دافيد مونتكومري هارت في مؤلفه الهام :

D. M. HART : "The Aith Waryagher of Moroccan Rif" ;

تفضل المؤلف فسلمنا نصا مخطوطا قبل نشره يتعلق بالفصلين الثاني والثالث من الجزء الأول الذي يحمل عنوان : "A history".

25) محمد أزرقان ، مصدر سابق ، ص 12 من المخطوط.

26) ذلك ما لاحظه بكثير من الوضوح د. هارت ، إلا أنه رفض تصديقه. انظر ص ، 97 . كذلك يمكن أن نقرأ في المؤلف الإجمالي المشار إليه في الهامش 24 ما نصه : "إن الكثيرين من مخبري المسنين صرحوا لي بأن آيت ورياغل قبل هذا التاريخ عاشوا في جو يسوده الاحترام والوفاق المتبادلين".

27) راجع الرواية المتعلقة باستئثار أحمد بن موسى بالسلطة المطلقة في : ابن زيدان "اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس" ، الرباط 1929 ، ج 1 ، ص 373 وما يليها.

28) احتلت كورارة في ماي 1900 ، وتوات في يناير – فبراير 1901. أما بخصوص واد ززفانة الذي يربط فكيك بتوات فقد ألحق بالتراب الجزائري بمقتضى الفصل الرابع من اتفاقية 20 يوليوز 1901 بين المغرب وفرنسا.

* 28 م) انظر :

Germain AYACHE : "Les visées sahariennes de l'Espagne en 1900 : la question de la Saquia el Hamra", in "Hespéris-Tamuda", vol. XVI, 1975.

29) يذكر مارتان أن وفدا عن قبيلة أيحمد في توات الموفد إلى السلطان عبد العزيز ، عاد إلى إقليمه حاملا الخبر بأن "السلطان افتتن بامرأة أوفدت من طرف الفرنسيين ، وبواسطتها تم وضعه في صندوق نقل إلى باريس بينما عوض السلطان بليم".

30) أخذ يدعي أنه مولاي محمد (فتحا) ، ابن السلطان الراحل مولاي الحسن ، وأخ السلطان الحالي ، مولاي عبد العزيز ، وأنه إذا ما تنكر تحت اسم مستعار ، فذلك من أجل الاحتزاز لا غير من الرجل الذي اغتصب عرش والده ، والذي يستغل مركزه لاستعباد رعاياه ، والحال أن الله يأمر بحمايتهم ، والاهتمام بهم ، والدفاع عنهم ، والعمل من أجلهم . إلا أن هذا الرجل ، كما يقول ، يضرب عرض الحائط بالأخلاق والدين منساقا كليا وراء أهوائه ورغباته ونزواته . أما هو ، فسيقوم بالعكس بإعادة الأمور إلى نصابها بضمان الحقوق والعدل ». ابن زيدان ، مصدر سبق ذكره ، ج I . ص 401 - 402 .

31) رسالة من القائد بوزيان بن علي السعيدي إلى السلطان مولاي عبد العزيز بتاريخ 2 قعدة 31/1320 يناير 1903. الأصل العربي للرسالة محفوظ بخزانة القصر الملكي بالرباط ، وهو غير مفهرس ، نقله المؤلف بنفسه.

32) رسالة من القائد البشير بن سناح إلى السلطان مولاي عبد العزيز بتاريخ 14 محرم 12/1321 ابريل 1903. وثيقة غير مفهرسة محفوظة بوثائق القصر الملكي بالرباط ، نقلها المؤلف.

33) Eduardo MALDONADO : "El Rogui", Tétouan, 1940, p.138.

34) في رسالة إلى السلطان بتاريخ 14 حجة 14/1320 مارس 1903 ، اخبر الصديق بن محمد بركاش من طنجة بأن قبائل المنطقة من أنجرة وبني مصور وبني يدر وغيرها اتفقت على الاجتماع في ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش للنظر في اقتراحات الجيلالي الزرهوني التي قدمها لها مؤخرا الدعي قصد الالتحاق بصفوفه : وثائق القصر الملكي بالرباط. وثيقة غير مفهرسة ، نقلها المؤلف. هذا وإن القبائل المذكورة لم تنضم إلى الدعي.

35) انظر على الخصوص ، في المرجع المذكور في الهامش 33 ، الفصل الأول (ص 285-310) المتعلق بإنشاء وكالة في أركمان (الحسيمة) على يد الفرنسي سي (Say) مؤسس ميناء سي في الحدود المغربية الجزائرية ، بمساهمة فرنسي آخر يدعى دلبرل (Delbrel) الذي كان أليفا للزرهوني ومستشاره النافذ الكلمة.

36) منح الزرهوني رخصة استغلال مناجم حديد الوشان لجماعة مدريدية ، تلك التي أسست الشركة المعروفة باسم

"Sindicato español de Minas del Rif"

أما رخصة استغلال مناجم الرصاص ببوعزة ، فقد منحت ل : "Compania Norte Africana"

ويوجد مقر هذه الشركة أيضا بإسبانيا ، إلا أن جل رساميلها فرنسية. انظر بكر (J.BECKER) مصدر سبق ذكره ، ص 507-516 ، وكذلك ملدونادو (E. MALDONADO) . مرجع سبق ذكره ، ص 346-351 .

37) أورده ملدونادو ، مرجع سبق ذكره ، ص 349 .

38) يتعلق الأمر بوكالة رستنكة التي اقامها سي (SAY) ودلبرل (DELBREL) في هور أركمان (Mar Chica) احتلها جند السلطان ، وعندما غادروها في 18 فبراير 1908 ، خرج الإسبان من مليلية للاستيلاء عليها. انظر : ملدونادو ، مرجع سبق ذكره ، ص 341 .

39) انظر .

Germain AYACHE : "Le sentiment national dans le Maroc du XIXè siècle," in "Revue historique", fasc. 488, ect. -déc., 1968.

في هذه الدراسة تبدو رواية هذه الأحداث كما هو الشأن بالنسبة إلى مغزاها بصورة مختلفة اختلافا كبيرا عن الروايات التقليدية المتعلقة بها.

40) أورده ج ب مرتان (A.G.P. MARTIN) ، مصدر سبق ذكره ، 446 -47 4 .

41) انظر الشروط التي تضمنتها بيعة فاس عند ابن زيدان ، مصدر سبق ذكره ، ص 449-453 .

42) السبب الثاني هو الذي يركز عليه دلبرل لتعليل الحملة ضد بني ورياغل ، حيث يقول : "وجه الدعي [الزرهوني] أنظاره نحو مناجم الحديد والرصاص بجبل الحمام في ديار بني ورياغل اعتقادا منه ... بانه سيضاعف مداخيله ثلاث مرات بفضل استغلال الأوربيين لمناجم جديدة..وقد قرر قبل كل شيء توجيه حملة ضد قبيلة بني وورياغل ، التي كان موقفها لا يتجاوب بتاتا مع أغراض الدعي... ليجبرها على الطاعة ويخترق ديارها بالحديد والنار" أورده : ملدونادو ، مرجع سبق ذكره ، ص 351 .

43) يروي الواقعة القاضي العربي محمد الورياشي في كتابه غير المنشور : "الكشف -الإبان من سيرة الشريف الغازي بطل الريف الأول سيدي محمد أمزيان" الذي تفضل المؤلف بإطلاعنا على نصه المخطوط. لكن بما أن ملدونادو لا يشير إلى الواقعة ، فبوسعنا أن نتساءل فيما إذا لم تكن هي الأخرى مجرد واقعة أسطورية. وهو الأمر الذي يؤكد على كل حال طابع العنف المفرط الذي اكتسته حملة مول وبو منذ البداية.

44) نشر ملدونادو في كتابه "الروكي" ، وفيما بين صفحتي 418-419 . صورة لرسالة موجهة من مولاي عبد الحفيظ إلى محمد أخمليش ، أحد الشرفاء الذي كان يمارس نفوذه على بني ورياغل ، وقد جاء فيها : "توصلنا بالكتاب الذي تخبرنا فيه بأن قبيلة بني ورياغل سارعت إلى الدخول تحت سلطتنا وأنها أعلنت في الأسواق التحاقها بجانبنا... ملتمسا منا فيها كذلك تقديم الدعم العسكري... هذا! وقد كنا قد علمنا بأن القبيلة المذكورة قدمت ولاءها في المكاتيب التي كتبتها إلينا بنفسها". الرسالة مؤرخة في 3 شعبان 30/1326 غشت 1908 .

45) لم يتسنّ إقامة هذه الرواية إلا اعتمادا على الروايات الشفوية ، كما نجد لدى ملدونادو نفسه أو لدى العربي الورياشي في مخطوطه المذكور سابقا. إلا أننا لم نثبت منها إلا ما ظهر لنا مؤكدا بالفعل من خلال التطابق بين روايتي هذين المؤلفين

والروايات التي التقطناها بنفسنا. وبالنسبة لملدونادو ، وهو أكثر اطلاعا ويتوفر على نقاط معالم كرونولوجية ، فإنه يرجع تاريخ المعركة الحاسمة إلى 9 شتنبر 1908 .

46) نظرا لأن هذه الوقائع وما تلاها من أحداث جرت مباشرة على مقربة من مليلية ، فقد أحيط الإسبان علما بها على الفور ، وظل تاريخها عندهم مدونا خطيا. الأمر الذي مكننا من ذكرها عن يقين : ملدونادو ، مصدر سبق ذكره ، ص 433. أما الورياشي ، فقد ذكر بدوره الواقعة ، إلا أنه لم يتمكن من إثبات تاريخها.

47) ذلك ما أعلنته صراحة خلال مقابلة أجراها بعض أعيانها مع الجنرال مارينا (Marina) حاكم حصن مليلية : "إنهم عازمون على أن يتكفلوا بالمركز الجمركي متذرعين بأنهم أصبحوا الآن الأكثر قوة ، وبأنهم قضوا نهائيا على الدعي [الزرهوني]. ولما سألهم الجنرال عن السلطان الذي يدينون له بالطاعة ، أجابوه بصوت واحد : إنه مولاي عبد الحفيظ". كانت المسألة واضحة : ملدونادو ، مرجع سبق ذكره ، ص 439 .

48) من المؤكد أن محمد أمزيان كان شخصية عظيمة. بيد أننا لا نكاد نعرف عنه شيئا. وجل المعلومات التي تسنى لنا جمعها عنه قدمها القاضي الورياشي في كتابه السابق الذكر والمكرس بالذات لذكرى الرجل ،مع العلم أن هذا الكتاب ما يزال مخطوطا. هناك معلومات أخرى تستخلص من الإشارات المتفرقة التي يقدمها الإسبان. لكن من الواضح أن هذه المعلومات الأخيرة ليست سوى معالم كرونولوجية. وفي الفترة التي احتك فيها الإسبان بأمزيان ، لم يكن هذا الأخير بالنسبة إليهم سوى شخصية لا شأن لها.

49)سبق له في الواقع أن خرج لمدة معينة من مليلية بإذن من الإسبان قصد التوجه إلى رأس الماء الذي كان هؤلاء قد احتلوه مؤخرا. وعلى العموم فقد كان هنالك في مأمن أيضا من سلطة الزرهوني. وحيث إن الإسبان كانوا يؤاخذونه على القيام بدعاية ضدهم ، فقد أرجعوه إلى مليلية. وهنالك دافع عن نفسه متعللا بأن دعايته موجهة في الحقيقة ضد الزرهوني. لكن على ماذا كان بوسعه مؤاخذة هذا الأخير ، اللهم إلا على تواطئه بالذات مع الإسبان ؟ هذا ويدعي ملدونادو الذي يروي هذه الوقائع (مرجع سبق ذكره ، ص 413 ، هـ 1 ، وص 450) أن الإسبان حصلوا له آنذاك على عفو الزرهوني. على أننا لا نفهم كيف يكون الإسبان ، الذين كانوا يؤاخذونه على موقفه المعادي لهم ، قد تشفعوا له لدى الزرهوني والحال أنه صرح لهم بنفسه باتخاذه موقفا معاديا له" .

50) أخذت مليلية حتى في القيام بدور همزة وصل مع المناطق الداخلية في اتجاه تازة ومكيك. ونظرا للمنافسة التي أصبح يقوم بها الميناء لتجارة المستعمرة الفرنسية ، فإن شركات فرنسية بالجزائر أقامت به فروعا لها : ملدونادو ، مرجع سبق ذكره ، ص 368 وما يتبعها .

51) انظر ما مر معنا في الفصل المتعلق ب "الريف والريفيين"

52) ملدونادو ، مرجع سبق ذكره ، ص 433.

53) المرجع نفسه ، ص 438.

54) "لا يوجد في الوقت الحاضر من يقف ضد استئناف أشغال بناء السكة الحديدية ولا حتى أشغال المناجم. لكن من ذا الذي يمكنه حماية هذه الأشغال من دون أن تتولد الأخطار عن ذلك ؟ إذ أن الصوت المتعصب لسيدي محمد أمزيان أصبح يرتفع في المجالس" : ملدونادو ، مرجع سبق ذكره ، ص 450.

55) شهادة الشريف محمد التباع ، ابن أخ محمد أمزيان ، وهو من بين أعضاء الوفد المبعوث إلى فاس. التقطت روايته مباشرة منه من طرف القاضي العربي الورياشي الذي دونها في مخطوطه : "الكشف والبيان". وبخصوص هذا الوفد ، فقد تكفلت به السلطة ساعة وصوله إلى فاس ، إلا أنه تلقى الأوامر بانتظار التعليمات. وبعد انتظار طويل لم تحدد مدته ، استدعى السلطان عبد الحفيظ النواب واكتفى بالتصريح لهم بقوله : "إن إخوانكم دخلوا في الحرب مع الإسبان ، فعودوا إلى بلادكم" ، وهذا بدون أية تعليمات أخرى.

56) بعد قدومه من الجزائر في ماي 1909 ، تقدم الفرنسي مسني (Massenet) داخل التراب المغربي مع فرقة مسلحة ،

ثم عبر ملوية ووصل حتى إلى جهة لا تبعد إلا ببضع كيلومترات عن سلوان وعن موقع المناجم مظهرا ، حسب "نشرة لجنة افريقيا الفرنسية" أن بإمكانه الوصول إلى المنطقة المنجمية انطلاقا من الحدود الفرنسية. أورد الرواية : بكر (J.BECKER) ، مصدر سبق ذكره ، ص 510 .

57) في كراسة تحت عنوان "المشكل الريفي" (كتب لوبرا(Candido LOBERA) – مدير "تلغرامة الريف" - اليومية الصادرة آنذاك بمليلية – ما نصه : "إن النشاط الذي بدا للعيان والرواج الكثيف الذي كان موجودا قبل أحداث بني بو يفرور تحولا إلى ركود ممل. فالتجار لا يبيعون ، والقوافل لم تعد تصل خوفا من الفوضى السائدة في الريف، والعمال يوجدون عاطلين بالمئات. وحتى الأشغال البلدية تعاني من الركود العام. إن الأمر لا يتعلق هنا بحماية أشغال المشاريع المنجمية فحسب ، وإنما بحماية كثير من المصالح المتواجدة التي من حقها أن تجد من يحميها". أورده : بكر (J.BECKER) ، مصدر سبق ذكره ، ص 510 – 509 .

58) برقية من وزير الدولة إلى حاكم مليلية العسكري : "إن المشاريع المنجمية..ستكون محمية عند الإقتضاء من طرف حكومة مليلية العسكرية بالكيفية اللائقة والتي لك بشأنها حرية التصرف الكاملة" : الكتاب الإسباني الأحمر لعام 1911 ، ص 251 ، أورده : بكر (J.BECKER) مصدر سبق ذكره ، ص 251 .

59) بالنسبة إلى أحداث 1909 التي سبق ذكرها أو التي سترد فيما بعد ، فقد اعتمدنا على : بكر (J.BECKER) ، مصدر سبق ذكره ، وكذلك على :

Général DE TORCY : "Les Espagnols au Maroc en 1909", Paris-Nancy, 1910.

Eduardo GALLEGO RAMOS : "La campāna del Rif", 1909, Madrid, 1909 ?

Simon LÉVY : "La guerre du Rif sous le règne d'Alphonse XIII", Mémoire de D.E.S. à l'Institut d'Etudes hispaniques de Paris, mai 1958.

60) ملدونادو ، مرجع سبق ذكره ، ص 440 .

61) توضيحات يقدمها "الكشف والبيان" للقاضي العربي الورياشي.

62) وهو القائد البشير بن سناح ذاك الذي طرده الريفيون منذ ست سنوات خلت عند وصول الجيلالي الزرهوني. وقد ظهر على الفور عميلا للسياسة الإسبانية ، وسيبقى كذلك إلى عام 1912. بكر (J.BECKER) مصدر سبق ذكره ، ص 520 . انظر كذلك :

Carlos HERNÁNDEZ HERRERA Y Tomás GARCÍA FIGUERAS : " Acción de España en Marruecos" , 2 vol., Madrid, 1929, vol. I, ch, XI, pp. 133 et 140

63) قدم هذه الأرقام :

HERNANDEZ HERRERA Y GARCIA FIGUERAS, op. cit., pp. 85 et 88 du vol. I.

64) حسب النقيب :

BARBETA : "Gronica artillera de la campāna de Melilla",

فإن انتفاضة برشلونة تم التعرف عليها في شهر غشت عن طريق يهودي من تطوان ، وقد علق الناس عليها بحمية وحدة. ذكر ذلك : سيمون ليفي (Simon LEVY) مرجع سابق ، ص 66 .

65) نص الفصل 13 من اتفاقية 16 نوفمبر 1910 بين المغرب واسبانيا على أن الموظفين في المنطقة التي يحتلها الإسبان وكذلك في القبائل الهامة الثلاث من المنطقة المحتلة سيعينون سويا من طرف مندوبين ساميين أحدهما إسباني والآخر مغربي. من جهة أخرى تقرر الإبقاء على الإحتلال الإسباني إلى أن يتيسر تعويض الجيش الإسباني بقوة مغربية يتولى ضباط اسبان مهمة تدريبها وتأطيرها. وهذا يعني من الناحية العملية إضفاء صبغة المشروعية على احتلال دائم. انظر . بكر (J.BECKER) ، مرجع سبق ذكره ، ص 525 .

66) اعتمدنا بالنسبة إلى أحداث 1910-1912 على :

Teniente Coronel CALVO GONZALO : "España en Marruecos Cronicas de las campañas del Rif de 1911-1915", Barcelona, 1913 -1914

وخاصة على : هرنندث هيرره وكرسيا فيكرس ، مصدر سبق ذكره (HERNÁNDEZ HERRERA Y GARCÍA FIGUERAS)

اللذين يعطيان عرضا مفصلا تفصيلا دقيقا عن الأحداث كما تيسر للإسبان معرفتها ، وكما كان بودهم الكشف عنها أو تقديمها.

67) هرنندث هيررة (HERNÁNDEZ HERRERA) ، مصدر سبق ذكره ، ص 94 من الجزء الأول.

68) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 106.

69) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 106.

70) "مغيرين على القرى ، مصادرين الحبوب التي كانت قد تركت في المطمورات ، مضرمين النيران في الدور التي أتم تخريبها رجال الهندسة العسكرية". هرنندث هيرر (HERNÁNDEZ HERRERA) ، مصدر سبق ذكره ، ص ج 1 ، ص 133 .

71) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 133-140 .

72) إن فشل الإسبان بالطبع هو الذي دفعهم حتى بعد فوات الأوان إلى إخفاء وجود هذه الخطة العامة. فالهجوم الجبهي قدم على أساس أنه مجرد عملية قمع بسيطة ومنعزلة كان من الممكن أن تتجح نجاحا بينا باعتبار الهدف جد المحدد الذي يكون قد خصص لها. بيد أن القيام بمجرد عملية قمع في الوقت الذي كانت فيه الحالة تتطلب هجوما مضادا حقيقيا لا يعدو أن يكون ضربا من العبث. علاوة على ذلك فإننا لا نفهم لماذا كان من المفروض أن يتم التخطيط لمثل هذه العملية العابرة بتنسيق مع عملية إنزال ضخمة تأخذ الريفيين من الخلف ويشترك فيها أزيد من 6 000 رجل. من الأكيد جدا أن هذا الإنزال الفاشل لم يكشف عنه النقاب رسميا. بيد أنه لا مجال للشك في أن هذا المشروع وُجد ، وأنه ألغي في آخر لحظة. أما تفاصيله فقد استقاها هيرره وفيكرس كرسيا من دراسة :

E . QUINTANA : "La marina de gerra española en Africa" . التي رجع فيها المؤلف إلى وثائق الوحدات العسكرية التي كان عليها أن تشارك في المشروع. وإنه لمن الدلالات الكاشفة أن قائدين ساميين كالعقيد ركلمي ، رئيس مكتب الشؤون الأهلية في السنوات التالية ، والجنرال برنكر الذي سيصبح فيما بعد مندوبا ساميا وقائدا لمدة عشر سنوات ، واللذين اضطرا إلى التحدث عنه (الإنزال) ، قدماه معا كما لو أنهما لم يحاطا علما به إلا عن طريق السمع ، مصرحين بأنهما عاجزان عن تفسير السبب الذي دفع إلى إلغائه فجأة رغم النتائج السياسية الوخيمة التي قد تترتب عن ذلك. أما بالنسبة لهيرره وكارسيا فيكرس ، فلم يضعا موضع شك لا مشروع الإنزال ولا وجود الخطة المنسقة التي شكل جزءا منها. بحيث إنهما اضطرا كذلك إلى التساؤل عن الأسباب التي دفعت إلى إلغاء الإنزال ، فإنهما عبرا عن رأيهما بأن ذلك راجع على الأرجح إلى أن عنصر المباغتة لم يراع بصورة كافية. وهذا يعني أنهما يريدان إغماض العين عن إخفاق الخطة برمتها. مصدر سبق ذكره ، ج 1 ، ص 145-147 .

73) هرنندث هيرره ... ، مصدر سبق ذكره ، ج 1 ، ص 150 .

74) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 163.

75) نفسه ، ص 153.

76) يروي الواقعة محمد أزرقان في "الظل الوريف" (المخطوط) ، والعربي الورياشي في "الكشف والبيان" ، وهو مخطوط كذلك.

77) نشر نص هذه الاتفاقية من طرف هرنندث هيرره ، مصدر سبق ذكره ، ص 166-167

78) اقتبس هذا النص من رسالة وجهها الجنرال كوميز خوردانه إلى السيناتور ميستري توماس (Tomás Maestre) بتاريخ 29 أكتوبر 1941 ، والتي سيستند إليها سنة 1923 أمام لجنة تحقيق تابعة للكرتس. نشرت قرارات أشغال هذه اللجنة تحت عنوان :

De Anual a la República ; Documentos relacionados con la información instruida por la llamada Comisión de Responsabilidades acerca del desastre de Anual , Javier Morata , Madrid, 1931.

هذا وتوجد الرسالة في الملحق ، ص 32.

79) منذ أن أصبح من اللازم على الريفيين أن يتجهزوا بالمعدات بشكل أقوى ليتمكنوا من مواجهة حرب حقيقية ، لم يعد التهريب يفي إلا جزئيا بحاجياتهم من السلاح. لذلك اعتبرت المعركة في حد ذاتها الوسيلة الرئيسية للتسلح. كانت الأسلحة تنتزع بالخصوص خلال الهجومات الليلية ضد المراكز المنعزلة ، وخلال المناوشات ضد العناصر المنعزلة أيضا. كان المهاجم يظهر فجأة من مخبئه ويعمي خصمه بحفنة من الرماد ويطعنه ويجرده من السلاح. إليكم على كل حال ما يمكن أن نقرأه في تقرير إسباني رسمي : "إن قبائل الريف خاصة قبائل منطقة مليلية والحسيمة لتبرهن على حس سياسي عسكري كبير حيث إنها تسعى جاهدة دائما للتوفر على الأسلحة وبإمكانها أن تستعمل نفس الرصاص الذي يستعمله جنودنا... إن التجربة علمتها أن مركز ذخائرها يمكن أن يوجد في حزام خرطوش الجنود وفي مخازن الحصن. إن الريفيين يتوفرون حاليا (1920) على كمية كبيرة من سلاح موسر (Mauser) ، وقد أخذ قسم هام من هذا السلاح من جنودنا خلال المعارك ، حينما يؤخذون على حين... كما أن قسما آخر لا يستهان به يأتيهم عن طريق الأهالي الفارين من الجندية ، بينما يصل بعض القطع عن طريق التهريب". وبعد أن لاحظ كثرة الرصاص من نوع موسر وانخفاض ثمنه في الأسواق الريفية ، ثم بعد أن فسر ذلك بكونه "يسقط في ساحة المعركة ، ويحمله الفارون من الجندية ، ويحول من المخازن ، ويدخل عن طريق التهريب" ، أضاف صاحب التقرير موضحا : "إن المصدر الأول (ساحة المعركة) هو الأهم بكثير. إن ثمن رصاص موسر يهبط ب 75٪ على إثر بعض المعارك ، مما قد يبدو من المفارقات ، إذ أن "الحركة" [الجيش الريفي] تكون قد استهلكت هي الأخرى كمية كبيرة من الرصاص في المعركة . تقرير كارلوس دي لاملا (Carlos de Lamela) ، رئيس مكتب المغرب بالوزارة الحرب الإسبانية ، بتاريخ 27 غشت 1920. وثيقة أوردها وزير الحرب الفيكونت دي إيثا :

Visconde De EZA : " Mi reponsabilidad en el desastre de Melilla como Ministro de la guerra", Madrid ; 1923 ; pp . 91 et 140 .

80) وهي الرواية التي يقدمها العربي الورياشي في "الكشف والبيان." ، السابق الذكر.

81) صورة عن الأسطورة أوردها أحمد البوعياشي : "حرب الريف التحريرية ومرا حل النضال" ، طنجة 1974 ، ج 1 ، ص 416.

القاضي عبد الكريم وولده محمد

إن فقدان أمزيان ونهاية المعارك على كرت سيمكنان الإسبان من إعطاء الأولوية من جديد للعمل السياسي على العمل العسكري ، سيما وأن الحماية التي أقامها الفرنسيون مؤخرا كانت تعطيهم مبدئيا الوسيلة للتدخل وإن بشكل غير مباشر كمنتدبين عن السلطان. وكان جون الحسيمة ملائما كل الملاءمة للقيام بمساعيهم الجديدة. فكما سبق أن رأينا ، فقد كانوا يتوفرون سواء في الجون نفسه أو على مقربة منه نحو الغرب على القاعدتين الجزيرتين بادس والنكور ، اللتين كانت علاقاتهما مع النواحي المجاورة قد نمت منذ أزيد من ثلاثين سنة. فحركة التهريب التي أصبحت تمارس الآن علانية في كلا الاتجاهين كانت قد أفرزت علاقات أعمال وصداقات سياسية. وبتنمية هذه العلاقات ، كان "مكتبا الشؤون الأهلية" (Oficinas de asuntos indigenas) العامل كل منهما في إحدى الجزيرتين منذ 1908 ، قد استقطبا وسط القبائل ثلة من الأتباع على استعداد لتعبيد الأرضية أمام المحتل القادم . وفيما يخص الإنزال ، كان الجون يقدم شواطئه الجميلة ، كما كانت السهول المجاورة تساعد على ترسيخ الاستيطان وتشكل في قلب الريف منطقة متميزة بخصوبتها وبأهمية سكانها وبموقعها الذي من شأنه أن يساعد في المرحلة الأولى على تصفية جبهة كرت بمهاجمتها من الخلف ، ثم بعد ذلك على تعزيز الوحدات التي قد تزحف نحو الشرق انطلاقا من العرائش وسبتة . أخيرا ، وإذا كانت القبائل المتاخمة تحتضن عددا من الأنصار المتحمسين للاحتلال الإسباني ، فإنها بالمقابل هي التي كانت تواجهه في مجموعها بأعنف مقاومة تلك المقاومة التي كانت قبائل الداخل تحذو حذوها. ومن ثم كان إخضاعها يكتسي أهمية قصوى خاصة قبيلة بني ورياغل ، وهي أقرب القبائل وأوفرها عددا والتي نتذكر مدى الصيت الذي اكتسبته قبل أربع سنوات بطردها جيش الزرهوني .

في هذا الوقت كان الريف قاطبة قد أعاد ربط الصلة بعاهله في شخص مولاي عبد الحفيظ معلقا الآمال على دعمه. وبعد أن خابت آماله وترك وشأنه ، تمكن من إعادة توحيد صفوفه تحت سلطة أمزيان. لكن بعد وفاة هذا الأخير لم تبق في الجزء غير المحتل من الريف أية زعامة عامة سواء على الصعيد الوطني أو الإقليمي ، بل ولم تبق حتى زعامة جزئية ذات امتداد معين. وهكذا لم تكن توجد في المنطقة المتاخمة لجون الحسيمة أية سلطة مؤهلة لاستنفار أية قبيلة فأحرى جمع القبائل لمواجهة أي إنزال

محتمل . ففي أعلى مستوى ، لم تكن مجالس الأفخاذ تبسط سلطتها إلا على قسم من القبيلة الذي تعبر عن إرادته . بيد أننا لاحظنا مدى النفوذ الذي اكتسبه في حضنها منذ بضعة أجيال الأوليغارشيون الصغار الذين غالبا ما أصبحوا أصدقاء لاسبانيا [1] . وبالتالي ، فقد كان يكفي الإسبانيين أن يكفلوا تواطؤ بعضهم داخل الأفخاذ المقيمة مباشرة بالساحل لكي ينزلوا ويمدوا رأس جسر دون أن يصطدموا بمقاومة موحدة. وبالفعل ، كان ثمة ما لا يقل عن عشرين أو ثلاثين رجلا من بين البقيويين وبني ورياغل ممن يقبلون على الرغم من كونهم أعيانا المعاش الشهري البالغ 75 بسيطة الذي تخصصه اسبانيا لمن يتعهد بخدمتها . من أبرزهم في قبيلة بقيوة دادي بن مسعود الذي سبق له أن عمل مدة طويلة لصالح فرنسا إلى أن أصبح الريف من نصيب اسبانيا ، ثم شريكه صبيرة . وكان هذا الأخير ، الذي انضم هو الآخر في أواخر العمر بعدما ساند أمزيان على أيامه ، قد أصبح بعد ذلك حليفا موثوقا به. وسيقول عنه فيما بعد رئيس "مكتب مليلية" : "إن هذا "المورو" ، الحازم ، القوي الشكيمة ، النافذ الكلمة ، والذي كان فيما مضى قرصانا (أي مهربا) ، والذي غدا اليوم ملاكا ثريا ، قد أصبح محافظا حسب الناموس الطبيعي وبوده أن تحتل اسبانيا بلاده ليستثمر ثروته التي اكتسبها سواء بالطرق النزيهة أو الدنيئة . لذلك ، وبالنظر إلى مصالحه ، يمكننا الاعتماد على تعاونه الصادق " [2] . يمكن أن ينطبق نفس الرأي على زعماء حزب "أصدقاء اسبانيا" في بني ورياغل ، وبشكل أدق في فخذ آيت خطاب حول جشرة أجدير المقابلة بالضبط لجزيرة النكور . لنذكر منهم أربعة " بوسلهام ، وبوبكر ، وبلحاج هاشم وخاصة محمد أبو كواي ومحمد شدى [3] .

مع ذلك ، كانت سلطة هؤلاء الرجال محدودة للغاية شأنها شأن ثروتهم التي تعد سندا لها. وكان نفوذهم يتضاءل بشكل محسوس خارج فخذهم ويزداد تضاؤلا خارج قبيلتهم. ولم يكن بإمكانهم بالتالي تقديم مساعدة كبيرة في عملية احتلال موسعة تستهدف قبائل بكاملها . في هذه الحالة كان بإمكان الأفخاذ ، وإن كان كل منها لا يتخذ إلا القرارات التي تهمه ، أن تتحد من أجل المقاومة الجماعية ضد غزو جار فيه العمل ويهددها قاطبة ، كما حدث هذا آنفا في قطاع مليلية. ولحثها على ذلك ، أو لمساعدتها عليه ، كانت ثمة في المنطقة كذلك عائلات الشرفاء المتحدرة من سلالة الرسول والتي تحظى بالاحترام بموجب هذه الميزة وتتقاسم فيما بينها ولاء القبائل . ونتذكر أنها كانت تمارس نفوذها جريا على العادة كقوى مساعدة لسلطة العاهل على الصعيد المحلي . ونظرا لعجز هذا الأخير ، فقد أصبحت مهمة حشد الطاقات تقع منذئذ على عاتقها ،

وكان على المحتل أن يحسب لها حساباته . فمن أجل الزحف والبقاء في البلاد بدون مخاطرات كثيرة ، كان على الإسبان أن يعملوا على شل نفوذها ، وهو ما لم يكن بالأمر الهين ، أو بالأحرى على توظيفه لصالحهم . لقد جربوا كلا الوسيلتين بدءا بالوسيلة الثانية أسوة بمثال الفرنسيين. فنجحوا بدون كبير عناء في الحصول على مساندة أحد هؤلاء الشرفاء وهو عبد السلام بورجيلة الذي تبنى منذئذ مع ابنه أحمد قضيتهم علانية وبدون مراء [4] . بيد أن عائلة بورجيلة لم تكن تتمتع سوى بنفوذ محدود في منطقة أجدير وهي المنطقة بالذات التي كانت تتوفر اسبانيا فيها على حزب قوى ومنظم . فعلى الرغم من أن انضمامه كان ذا قيمة كبيرة على الصعيد المحلي ، فإنه سيبقى ضعيف المفعول على صعيد أوسع ما لم ينضم أيضا الشرفاء الآخرون أولائك الذين كانت قبائل الداخل تتبعهم بشكل أوسع . كانت توجد منهم عائلتان. الأولى منهما تقيم بسنادة ، وهي جشرة على حدود بقيوة وبني يطفت في الممر الذي يصل جون الحسيمة بشجرة بادس ، وتتمتع مع رئيسها السي حميدو بسلطة كبيرة بين القبائل الشاطئية المحادية لبادس ، إلا أنها كانت مرتبطة عن طريق العمومة بالشرفاء الوزانيين الذائعي الصيت. وكما هو معروف ، فقد كان هؤلاء الذين تتلقى منهم التعليمات منقادين كل الانقياد لفرنسا . لذلك فقد خدم فرع سنادة في الريف ، وإلى حدود الحماية ، المصالح الفرنسية ضد المصالح الإسبانية [5] . صحيح أنه أصبح الآن بعد تقسيم المغرب ضمن المنطقة الإسبانية . لكن كان يبدو من غير المحتمل أن ينضم زعيمه حميدو إلى الإسبان نظرا لأن وزان ظلت مع الزاوية الأم في المنطقة الأخرى التابعة لفرنسا. وبالفعل فقد اختار في الوضع الجديد جانب العمل ضدهم ولم يخرج عن إجماع القبائل [6] . فلم يغضب بذلك لا الفرنسيين ولا السكان المحليين .

أما بالنسبة للعائلات الأخرى ، وهي عائلة أخمليش – وبالجمع خمالشة – فكانت تقيم في زرقت بالجبل غير بعيدة عن منابع ورغة ، وكان رئيسها محمد الصديق أخمليش يحظى بنفوذ كبير وسط مجموع كنفدرالية صنهاجة على سفح السلسلة وحتى في بني رزاغل الجبل. إلا أن محمداً الصديق كان من هؤلاء الشرفاء المتواجدين في الداخل الذين لم تفلح بعد أية دولة أجنبية في ارتشائهم. وكان أجداده قد خاضوا دوما غمار الكفاح ضد الكفار ، كما قاتل أبوه ضد الإسبان في حرب تطوان سنة 1860. وبدوره فإنه لم يكن يفكر الآن إلا في طرد الغزاة دون التمييز بين الفرنسيين والإسبان. وستتاح الفرصة للأولين في الجنوب لمعرفته عما قريب. أما الآخرون في الشمال فكانوا يعرفون الدور الفعال الذي لعبه تحت راية أمزيان. فلم يكن بالإمكان إذن أن يؤملوا في الحصول

على مساندة منه (7).

لذلك ، ونظرا لتعذر التوصل في أخمليش والسي حميدو إلى اجتذاب القوى الروحية التقليدية ، فإن الإسبان واتاهم الحظ في توظيف رجل في لعبتهم كان قد اكتسب على الرغم من أنه لم يكن شريف النسب نفوذا كبيرا بفضل ممارسة وظائف ذات طابع ديني وهو القاضي عبد الكريم.

لا ينبغي الخلط بين عبد الكريم هذا وبين ذاك الذي سيصبح فيما بعد ذائع الصيت بتزعمه حرب الريف. إن التجانس الاسمى بينهما لمن شأنه أن يضللنا بقدر ما كان الرجلان معا قاضيين ، وأبا وابنا، وبقدر ما كان الابن وطيلة 15 سنة وإلى وفاة الأب اليد اليمنى لهذا الأخير. لنلاحظ مع ذلك ، لكي نرى الأمور على حقيقتها ، أن هذا التجانس الإسمى المزعج لم يكن موجودا في الأصل وأنه لم يوجد مطلقا بالنسبة للمعنيين بالأمر. فالأب هو وحده الذي كان يسمى حقا عبد الكريم ، وهو اسم كان يعرف به وحده من دون أبنائه على غرار الاسم الشخصي الفرنسي. أما ولده ، فله اسم آخر وهو محمد . وبتحديد النسب حسب الصيغة العربية فإن النتيجة التي نصل إليها هي محمد بن عبد الكريم وهو ما يترجم بولد عبد الكريم. إن الإسبان هم الذين جعلوا من "ابن عبد الكريم" الولد عبد الكريم على الطريقة التي يقولون بها "الولد كارسيا" أو "الولد برناندث". فبتحويل اسم الأب إلى اسم أسرة ، فإنهم سموا الابن بمحمد عبد الكريم ثم اقتصروا على عبد الكريم . وكان التغيير تاما . وهذا الاسم هو الذي أشاعوه في العالم.

أما وقد دخل اليوم هذا الاسم الأخير حيز التاريخ ، فإنه فات الأوان بلا ريب لإخراجه منه. إلا أن هذا لا ينفي كون الريفيين لم يعنوا مطلقا بعبد الكريم سوى الأب ، وأن الابن من جهته كان بالنسبة إليهم هو السي محمد أو السي محند ، وهو التصغير الريفي للاسم ، ليصبح مولاي محند في عز مجده أي مولاي محمد.

هذا أيضا جزء من التاريخ ولا مناص من أخذه بعين الاعتبار. وسنكون أمام مفارقة تاريخية صرفة إن لم نعط كل واحد اسمه في الحقبة التي نلجها عندما كان الأب والابن ما يزالان غير معروفين إلا في الريف. وعلى كل حال فإن من شأن ذلك أن يجعل مهمتنا بالغة التعقيد طالما أنه يتعين علينا التحدث بإسهاب عن كل واحد منهما في آن واحد . فمنذ 1912 كان القاضي عبد الكريم وولده محمد يشاركان جنبا إلى جنب في جميع ما يحدث وسط القبائل مؤثرين على الأحداث وموجهين لها. بحيث يتعذر علينا استجلاء مغزى الأحداث لو قمنا بالفصل بين شخصيتهما. وسيلزم تسليط كثير من

الأضواء عليهما بقدر ما أن الأمر لا يتعلق فحسب برسم صورتهما وإنما بإعادة إنشائها بكاملها نظرا لأنها لم ترسم لحد الآن إلا عن طريق الخيال .

* * *

كما هو الشأن في جهات أخرى من المغرب ، كان يوجد عدد قليل من العائلات المنبثة في قبائل الريف يتوارث أفرادها مشعل العلم ابنا عن أب. وكان العلم في هذا المستوى وفي وسط ناطق بالبربرية يعني أولا اللغة العربية ، اللغة الوحيدة المكتوبة التي لا غنى عنها بالتالي في المراسلة وتحرير الرسوم أو محاضر الجلسات. فمعرفة القراءة والكتابة بالعربية ، ومعرفة القراءات السبع كان يشكل رصيدا معرفيا هاما يخول صاحبه الحصول على لقب طالب مع إجازة في التعليم. فإذا أضيف إلى ذلك الحساب والنحو ونبذ من الآداب ومبادئ الشريعة الإسلامية فإن المرء ينتقل إلى مرتبة الفقيه أي العالم والمفتي.

كان الدور الاجتماعي للفقيه من الأهمية بمكان. ذلك أن العرف الذي يفصل في النزاعات البسيطة كان عديم الجدوى في الحالات المعقدة. ومن ثم اللجوء إلى الفقيه كمستشار أو كحكم ، وهو المؤتمن المحلي على الشرع أي على الشريعة الإسلامية المكتوبة والمهيأة بعناية . وفي الحياة الاجتماعية ، كانت مجالس الأفخاذ أو مجموعات الأسر تقوم هي الأخرى باستشارة الفقيه سيما وأنه معروف على وجه العموم ، زيادة على كفاءته ، بالحصافة والفطنة. لكي يصبح المرء عالما إلى هذا الحد رغم ظروف الدراسة البدائية جدا ، كان عليه أن يتحلى فعلا بعقل ثاقب واستعدادات فكرية سليمة ؛ حتى أنه كان بإمكان الفقيه ، باعتباره مندمجا في القضايا العمومية منها أو الخاصة ، وفارضا نفسه بما يتحلى به من مؤهلات خاصة ، أن يصبح ذا تأثير كبير على إخوانه ، وأحيانا على من سواهم وسط القبائل المجاورة .

كان القاضي عبد الكريم أحد هؤلاء الفقهاء ، وكانت عائلته أيضا من تلك التي كانت تنجب في كل جيل أحد أفراد النخبة. فعمه سيدي زيان كان ، على ما قيل ، قد عين بفضل أهليته عاملا للسلطان على منطقة الريف المحادية لجون الحسيمة ؛ وأخوه السي محمد الذي بلغ من نجابته أن عائلته تحملت عبء إرساله الى فاس لاستكمال دراسته العليا ، كان قد أثار هناك الانتباه أيضا إلى حد أن السلطان اختاره لتدريس أبنائه (8) . وهو أخيرا ، أي عبد الكريم ، كان مثار إعجاب لذكائه. وسيقول عنه صحفي من مليلية تعرف عليه جيدا ، إنه أذكى الريفيين (9) .

قبل 1911 ، فإن معلوماتنا عنه محدودة. لقد ولد حوالي 1860 في جشرة أجدير المجاورة للجون في أراضي آيت خطاب ، فخذ قبيلة بني ورياغل . ومن ثم جاء الاشتقاقان الخطابـي والورياغلي اللذان ألصقهما باسمه ، عبد الكريم ، الشائع البسيط ، تجنبا لكل خلط. لم يكن ذلك سوى طريقة في تحديد الهوية بالانتساب إلى المجموعتين اللتين ينتمي إليهما ، تماما كما هو الشأن في الأصل بالنسبة لاختيار اسم لدوبيي (يعني الجبلي Dupuy) أو دو شاطو (القصري Duchâteau) انتسابا إلى بعض المعالم. إنها طريقة أو أخرى للدلالة على هوية المرء . بيد أن المسألة أفرزت أسطورة لم تنقطع آثارها إلى يومنا. فبما أنه لم يحتفظ إلا بأول هذين النسبين وهو الخطابي ، فقد زعم البعض أنه مشتق من الخطاب ، النسب الذي حمله قديما عمر ، أحد صحابة الرسول ومؤسس الإمبراطورية الإسلامية. ومن هنا ارتفعت الأصوات منددة بالخديعة. لأن هذا الاسم ، الذي انتحل عمدا على ما قيل من طرف محمد بن عبد الكريم ، أي من طرف الابن ، سيمكن هذا الأخير بانتحاله نسبا شريفا من تعزيز ادعاءاته في السلطنة [10] .

نجهل أين ومتى زاول عبد الكريم دراساته التي ارتقت به إلى منزلة فقيه. إن الشهادة الأولى المتعلقة به تقدمه وقد أصبح قاضيا محددة بأن تعيينه جاء على يد مولاي الحسن. وهذا ما يجعلنا نرجع تاريخ تعيينه في مثل هذه الوظيفة الهامة إلى 1894 أو إلى ما قبل ذلك [11] . في ذلك الوقت لم يكن قد ناهز الأربعين من عمره ، مما جعل ترقيته مبكرة بالنسبة لمغرب العصر ، خاصة وأنه لم يكن يتوفر على ركائز قوية داخل المخزن . ويمكننا أن نستنتج من ذلك أن عبد الكريم الفقيه ، كما كان ينعت دائما حتى بعد تعيينه قاضيا ، قد عرف كيف يفرض نفسه منذ وقت مبكر على أقرانه في المنطقة . في الحقيقة ، لم يكن من شأن التعيين المذكور أن يؤدي إلى نتائج عملية . فقد رأينا أن اختيار الفقيه مستشارا أو حكما يتم تلقائيا من طرف السكان . وكان الطرفان المتخاصمان يتعهدان ضمنيا بالخضوع لحكمه بالتجائهما إليه لحسم مـادة النزاع بينهما . إلا أنه لم يكن يتوفر على أية وسيلة لإرغامهما على الرضوخ في حالة ما إذا قاما ، بالرغم من ذلك ، برفض أحكامه . وبهذا فقد وجد نفسه معضد الجانب مبدئيا بهذا الامتياز الجديد. لكن ، أية سلطة حقيقية يمكن الاستعانة بها في الريف ؟ فلئن كان العامل يتقلد فعلا السلطة التنفيذية على الصعيد الإقليمي ، فإنه لم يكن يهتم عموما إلا بالنزاعات التي تحدث بين الأفخاذ والقبائل لا بين الأفراد. أما بالنسبة للمجالس التي تسير على كل مستوى الحياة الداخلية للقبيلة ، فكانت تعاقب هي نفسها ، بعد الإدانة ، على الجنح والجرائم. غير أنه لم يكن متوقعا منها أن تقوم بتنفيذ أحكام القاضي.

وبالتالي فإن اللقب الجديد لم يخول عبد الكريم أية سلطة حقيقية لتدعيم السلطة الروحية التي كان يتمتع بها بفضل دوره في ميدان التحكيم والمصالحة. وهذا ما يمكن أن يفسر من جهة أخرى كيف بقي دائما في نظر الريفيين فقيها أكثر منه قاضيا.

مع ذلك فمن الواضح أنه إذا لم يكن قد تغافل مطلقا عن التجاهر بلقبه "قاضي بني ورياغل" (12)، فذلك لما وجده فيه من امتيازات. فاختياره من طرف حاشية السلطان كرس وضعيته المحلية على صعيد البلاد. وهو تكريس يشرفه بالطبع إلا أنه يجعله بالخصوص في نظر الجميع وسيطا لدى السلطان. وكان مندوبو هذا الأخير يقومون بإخباره واستشارته عند قدومهم إلى الريف كما حدث غداة حملة البغدادي الشهيرة ضد بقيوة (13). زيادة على ذلك فقد كان يتقاسم مع العامل والشرفاء المرموقين وبعض القواد الامتياز الجليل الشأن ألا وهو القدرة على الكتابة إلى السلطان بأن يرفع إليه تقارير عن كل شيء وعن كل شخص (14).

هذا ما كان يخول للرجل أهمية خاصة في المنطقة. لقد كان الأعيان المحليون يبنون نفوذهم على الجاه وعلى إنجاز مهام سياسية. أما بالنسبة إليه، فإنه لم يكن بالغ الثراء ولو أنه لم يكن معدما. ففي 1917، وقبل وفاته بثلاث سنوات، قدر مجموع ثرواته ب 25 000 بسيطة، بما فيها بيته بأجدير وثلاث ملكيات قروية (15). وهذا شيء قليل جدا حتى في الريف بالنسبة لمن له طموح في أن يصبح رجلا من المقام الأول. أما على الصعيد السياسي، فإن وثيقة مؤرخة في 1907 تخبرنا بأنه لم يكن في هذا التاريخ ضمن مجلس الفخذ المنتمي إليه (16). بيد أن كل هذا لم يكن في حالته علامة على انحطاط الشأن. وعلينا أن ننتبه إلى أن الثروة الكبيرة لم تكن بالنسبة لقاض علامة مرضية. من جهة أخرى، هل كان بإمكان قاضي القبيلة كلها، ذاك الذي ينفرد بهذا اللقب في المنطقة، أن تكون له مكانته داخل مجلس الفخذ؟ إن تواضع الثروة والترفع عن المزاولة المباشرة للوظائف السياسية لا يمكن إلا أن يرفع بالعكس من شأن القاضي عبد الكريم في نظر جميع الريفيين، ويجعله قادرا إن اقتضى الأمر وإن قرر بنفسه ذلك على أن يلعب دورا من الطراز الأول.

يبدو من الجلي الواضح أنه هو نفسه لم يكن من ذوي الطموح أو الدسائس. فلمدة طويلة لم يعكف إلا على شؤونه المهنية والعائلية. كان له ولدان وعدة بنات يسهر على تربيتهم، وهذا ما نهض به أيضا تجاه أخ صغير له في سن ولده البكر بقي تحت كفالته. وحسب تقاليد العائلة كان عليه أن يتولى تعليم هؤلاء الأولاد بعد حفظهم القرآن.

اضطلع بهذا الواجب في آن واحد تجاه الابن البكر محمد والعم الصغير عبد السلام الذي ترعرع في المنزل. نقل إليهما على مر السنين ما تعلمه هو نفسه من توحيد ونحو وتاريخ وشريعة ، وهذا بجانب إشراكهما مبكرا وعن قرب في مباشرة جميع شؤون الحياة الريفية. على هذه الوتيرة سارت الأمور إلى غاية 1902 عندما رحل الولدان إلى الجامعة بفاس بعد بلوغهما سن العشرين (17).

كانت هذه السنة ، كما نتذكر ، هي السنة التي بدأت فيها ساعة الاحتضار بالنسبة للمغرب المستقل . فثورة الزرهوني الذي استقبله الريف بالذات كسلطان ، والعقد النهائي للجزيرة الخضراء الذي كان بمثابة مؤشر على نهاية المولى عبد العزيز واستقرار الأجانب في البلاد ، وثورة المولى عبد الحفيظ ضد أخيه ، كانت ثلاث هزات زعزعت المشاعر في ظرف خمس سنوات ، وأرغمت كل منها على ضرورة اختيار جديد .

لا نعرف شيئا من اليقين عن موقف القاضي عبد الكريم خلال المغامرة التي دفعت بالريف إلى السير في ركاب الزرهوني. بناء على الشهادة المتأخرة التي سيرويها عنه ولده ، فقد يكون ناهض الثائر مناهضة لا هوادة فيها إلى حد أن تأثيره كان حاسما على نتيجة الصراع (18). والحقيقة أن الأمر يتعلق هنا بإعطائه حصة الأسد. فأن يكون قد بقي في دخيلة نفسه مخلصا للعاهل ، باعتباره منتميا هو نفسه إلى جهاز الدولة ، وأن يكون وجه له خلال الأزمة تقارير سرية ، فهذا أمر غير مستبعد . لكن أن يكون قد شارك حقا مشاركة فعالة في المعركة ، فإننا لا نفهم لماذا لم يصلنا صدى عن ذلك. ألم يقل بالعكس ان قبيلته تسارعت إلى سلاحها في اللحظة الحاسمة ، بدونه ورغما عنه ، لمجابهة جيش الزرهوني (19) ؟ مهما يكن من أمر هذا الادعاء - الذي قد يكون عدائيا - فيبدو جيدا أن دوره في هذه الحوادث المضطربة - هذا إذا كان له دور - اتسم بالحذر والتستر حتى لا يظهر موقفه مطلقا مملى عليه ، وهو ما كان عليه الأمر ، من زاوية المصلحة وحدها ، تلك المصلحة التي كانت تربطه قبل كل شيء بشخص المولى عبد العزيز ما لم يصل به الأمر بالطبع إلى التضحية بنفسه. إن الحمية التي كانت تثير عامة الشعب ضد الإسبان وتحفزهم إلى الانضمام تارة إلى الزرهوني وطورا إلى المولى عبد الحفيظ لم تكن لتجرف وجيها حريصا قبل كل شيء على المحافظة على وضعيته ، وحريصا بالتالي على الاتجاه عبر الأعاصير في الوقت المناسب نحو جهة المنتصر المحتمل في المعركة الجارية (19 مكررا) .

بيد أنه يتعين إزاء هذه النقطة أخذ الأجانب بعين الاعتبار من فرنسيين واسبان علاوة على المتنافسين الثلاثة في الداخل : عبد الحفيظ والزرهوني وعبد العزيز. فإذا

كانت العامة غير الواعية تعتقد إمكانية الاحتراز من هؤلاء الأجانب باختيار زعيم عوض آخر ، فإنه لا عذر للنخبة في أن تبقى متعامية عن الحقيقة. إن المغرب العتيق سيرضخ لا محالة إن طوعا أو كرها أمام علم أوربا وقوتها ، ومهما يكن سلطان الغد فلن يكون سوى سلطان تحت الوصاية. فينبغي فيما وراء شخصه الذي ما يزال مجهولا أن يخطو المرء الخطوات الأولى نحو الوصي [20] . إن التبصر ليقتضي ذلك بقدر ما تقتضيه الحكمة. أولا يمكن بربط علاقات ودية منذ البداية أن نجعل من المحنة التي يبيتها القدر للبلاد وسيلة للخلاص والإصلاح ؟

بالنسبة للفقيه عبد الكريم فقد كف الإسبان منذ مدة طويلة عن أن يكونوا بمثابة وحوش. فلم تكن توجد في جزيرة النكور الثكنات لا غير. كان يوجد بها بعض الحوانيت الزاخرة بالبضائع من حيث تقتنى الحبوب والمنسوجات والأجهزة أي كل ما يجعل الحياة أكثر يسرا ونعومة. كيف لا تتملك المرء الرغبة في التوجه بنفسه لقضاء أوطاره منها ؟ إن غالبية الأعيان لم يجدوا غضاضة في ذلك . ومع أن الأمر كان أكثر إحراجا بالنسبة لقاض ، فإن عبد الكريم أذعن في الأخير للتقليد. فتم استقباله هناك بحفاوة وأصبح بسرعة في بلد صديق. ارتبط في الجزيرة ارتباطا وثيقا ببعض التجار. منهم المسيحيان لاس ادراس وأنطونيو إيباكوس ، ثم اليهودي مسعود بنحيم [21] . ومن جانبهم ، قابله العسكريون بمنتهى اللباقة وعاملوه باعتباره رجلا ذا سمعة كبيرة. ثم شجعوه على القيام بخطوة أخرى بالتوجه إلى مليلية حيث لا يخلو بريق مدينة إسبانية من الأخذ بلبه مهما بلغ من تواضعها . ومنذ 1902 أديت له حتى تكاليف السفر [22] .

لكن يبدو أن فرنسسكو مارين (Francisco Marín). هو الذي تولى مهمة فتح آفاق جديدة أمامه بأن أطلعه على الوضع العالمي وأظهر له كل ظروف وملابسات المسألة المغربية. كان مارين هو المترجم العسكري لقاعدة النكور. فكان بإمكانه إذن أن يجري مذاكرات مباشرة ومطولة مع ذاك الذي سرعان ما أصبح صديقه الحميم . استطاع أن يبين له كيف كان المغرب موضوع مساومة بين الفرنسيين والأنجليز والإسبان ، تلك المساومة التي لا تترك مجالا للشك حول مستقبل البلاد. لكنه تمكن أيضا من أن يبلور له مدى مصلحة الريفيين في أن يجدوا أمامهم بعد التقسيم ليس دولة قوية مثل فرنسا وإنما اسبانيا المتواضعة التي ستكون مضطرة من أجل الاستقرار إلى اللجوء إلى الوسائل السياسية بدلا من القوة والعنف. من هذا المنظور ألمح له إلى ذلك الدور البارز الذي سيسند لأمثاله ممن يعرفون كيف يجنبون إخوانهم ويلات حرب ميؤوس منها ، ويقررون هم أنفسهم السير بهم في معارج الرقي التي ستنحصر مهمة اسبانيا فيما يخصها على

مجرد رسمها لهم. وبما أن هذه هي الاحتمالات ، فلماذا لا يرسي منذ الآن ، وأيا كان الأمر ، الركائز الأولى عن طريق ولديه اللذين بإقامتهما في مليلية سيتكونان بها ، هما أنفسهما ، من أجل مهام الغد ، ويحيطانه علما في كل حين بما يستجد من أحداث (23) ؟

لم يكن عبد الكريم تاجرا أو مهربا ، وكان صاحب مبادئ . فندرك كيف أن هذه الأحاديث في نفس الوقت الذي أسالت لعابه ، أوقعته في قلق عميق. لأن ما عبرت عنه كان بديهيا إلا أنه سيفضي به إلى التنكر للمقدسات. فما مصير الدين والمؤسسات ؟ وألا يصبح منبوذا من طرف الجماعة بتورطه في المغامرة ؟

لا ندري كم مضى عليه من الوقت وهو فريسة لهذا التردد. إلا أن تردده زال فجأة منذ 1906. ففي هذه السنة انعقد مؤتمر الجزيرة الخضراء ، واتخذت الدول المجتمعة فيه من أجل تسوية القضية المغربية إجراءات استقبلتها البلاد قاطبة تقريبا بسخط وكأنها نذير بالخضوع الوشيك للأجانب. بيد أن النخبة الواعية لم تر فيها من جانبها سوى تأكيد لحتمية كانت تتوقعها منذ مدة طويلة وعرفت كيف تهيئ نفسها لها . وفضلا عن ذلك فقد كان المستقبل يلوح في نظرها أخف وطأة مما كانت تخشاه. فقد اكتفى الأجانب بإرسال مدربين لطابور بوليس سيكون مغربيا وخاضعا لسيادة السلطان. وتعهدوا بالمقابل بتقديم رساميل لإنشاء بنك لخدمة الدولة المغربية (24) . فإذا أمعن المرء النظر ، فإنه سيرى أن ما كانت أوربا تقدمه للمغاربة لانتشالهم من البؤس والفوضى التي كانوا يتخبطون فيها هي كفاءتها التي لا جدال فيها ، وثرواتها التي طالما تاقت النفوس إليها. وأن تكون هذه الإجراءات ثمرة لإرادة جماعية ، وأن تكون وضعت بالتالي ، على مستوى التنفيذ ، تحت إشراف الأمم ، فذلك ما كان يحول أخيرا دون إقدام إحداها على تجاوز حدودها. فبالنظر إليه هكذا من الجانب الملائم لمساعدة أوربية في دائرة الاحترام ، وحتى مع ضمان الاستقلال الذي تمت المحافظة عليه ، فإن عقد الجزيرة الخضراء لم يترك أي شك للقاضي عبد الكريم في صحة وجدية الآمال التي ألمحوا إليه بها . وبما أن السلطان شارك في تحضير هذا العقد النهائي وطالب بالتالي ، بالمصادقة عليه ، بمساعدة اسبانيا على الخصوص ، فلم يبق مانع أمام خادمه عبد الكريم من قبول عرض التعاون الذي قدمه له الإسبان بالذات في قطاعه ، بل أصبح ذلك من واجباته .

بالفعل ، ومنذ هذا الوقت ، وجدناه يسلك مسلكا جديدا. والمؤشر الدال على ذلك هو أولا اختياره المفاجئ للدراسات التي جعل ابنه الثاني امحمد يزاولها . فبينما كان محمد ، الابن البكر ، قد توجه منذ أربع سنوات إلى فاس لاستكمال دراسته العربية

والإسلامية التي كان هو نفسه قد لقنها إليه ، اتجه الابن الأصغر إلى مليلية ليبدأ بها دراسته الإسبانية وهو ما زال في صدر شبابه. ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد . لأن الابن الأكبر الذي عاد من فاس بقي عاطلا بجانب والده لمدة سنتين . وفي هذه السنة بالذات ، بعد مؤتمر الجزيرة الخضراء ، قرر توجيهه هو الآخر إلى مليلية التماسا للرزق في خدمة الإسبان [25] . ونتصور التأثير الذي أحدثه هذان القراران . فبالنظر إلى حالة الرأي العام في الريف ، فلابد وأن يستقبلا كمبادرة في اتجاه العدو من شأنها أن تخلف وقعا مؤلما جدا بقدر ما كان صاحبها شخصية مرموقة . ولم يكن عبد الكريم ليتجاهل ذلك . وإذا كان بالتالي قد قبل أن يصدم بهذا الرأي العام فلأنه اختار موقفه النهائي . فبما أن الإسبان لم يعودوا أولائك الغزاة الذين كان الناس يتصورونهم ، وإنما قدموا فقط بموافقة السلطان لمساعدة النخبة المغربية على أن تجعل من بلادها وطنا عصريا ، فينبغي له باعتباره من هذه النخبة أن يرحب بهم بل وأن يساعدهم على الاستقرار. وكان من شأن هذا أن يتسبب له في بعض المتاعب . فلئن كان يعلق الآمال على اجتذاب بعض الأتباع ممن يشاطرونه الرؤية ، فقد كان واضحا بالمقابل أن الكتلة الجاهلة غير مستعدة للتخلي عن معارضتها القوية . وكانت سياسة الأمر الواقع هي الكفيلة وحدها بأن تجعلها ، بالنظر إلى النتائج ، ترجع عن ضلالها. لذلك ، وعلى الرغم من اللاشعبية التي لا مفر منها والتي عليه تحمل مخاطرها ، فإنه يتوجب تسخير كل الإمكانات للوصول إلى هذا المآل .

هذه هي ما أصبحت عليه منذ ذلك الحين طريقة تفكير عبد الكريم كما تشهد على ذلك شهادة ابنه محمد ذاتها [26] والسلوك الذي سينهجه إلى النهاية تقريبا. لكن منذ متى بالضبط كيف سلوكه وفق هذه الطريقة الجديدة في الرؤية ؟ باستثناء توجيه ولديه إلى مليلية ، فإنه لا علم لنا بذلك. أولى معلوماتنا الأكيدة ترجع إلى نوفمبر 1907 وهو التاريخ الذي تسلم فيه تذكرة دائمة للسفر مجانا على متن سفينة بريد تربط النكور بحرا بمليلية. هذه التذكرة الدائمة ، القابلة للتجديد بعد انتهاء أجلها [27] لا تترك مجالا للشك في كون علاقات عبد الكريم مع قاعدة النكور عرفت على الأقل منذ 1907 منعطفا جديدا. لقد تحول صديق الأمس إلى عميل.

وكما سبق أن رأينا ، فإنه بانسياقه جر معه ولديه في المغامرة. كان أحدهما وهو امحمد الذي لا يتجاوز عمره 12 سنة ، ما زال صغيرا لكي يتمخض عن ذلك نتائج على المدى القريب. إلا أن الابن البكر كان يبلغ 24 سنة. وكان قد أكد شخصيته في نفس الوقت الذي بقي تحت سلطة والده كما هو شأن كل ريفي. لذلك فإن النشاط الذي دشنه

الأب حتى وسط القبائل ، واكبه في الخارج وبسرعة فائقة النشاط التوأم للابن محمد الذي كانت شهرته وإمكاناته في مليلية تسير في خط متصاعد باستمرار. ومنذئذ لا يمكن الحديث عن أحدهما دون الحديث عن الآخر.

* * *

ولد محمد – السي محند في الريف – سنة 1882 [28]. بيد أننا لا نعرف عن سنوات صباه وشبابه سوى أنه أنفقها بمنزل أجدير في كنف والده مما جعله يحتك عن قرب بحياة الريفيين ولو أن ثمة ما كان يحمله على الشعور بأنه متميز عنهم بفضل دراساته. أما أن يكون قد توجه منذ هذه الفترة للتجول على هواه – كما قيل – في قاعدة النكور ، راصدا الطريقة التي يصوب بها مدفع ، وواقفا هنا أو هناك على أحاديث انهزامية حول عجز اسبانيا بعد كوبا عن القيام بمأمورية استعمارية [29] ، فهذا ما يستحيل تصديقه. إنه ينم عن الرواية التي لفقت فيما بعد للتنديد بالخيانة المبكرة لرجل لم تكن صداقته إطلاقا إلا ستارا . وعلى فرض أن محمدا الطفل زار النكور مرتين أو ثلاث مرات ، فلا يمكنه أن يعود منها إلا بانطباع عابر قائم على مجرد المشاهدة حيث إنه كان يجهل الإسبانية [30] . من جهة أخرى فإننا لا نرى ما يدعو إلى الشك في التقدير الحقيقي الذي لابد وأن يكون قد تقاسمه مع أبيه حيال اسبانيا كما صورها أصدقاء النكور . على أن هذه نقطة أخرى كان من المفروض أن يشعر معها – بوضوح أكثر أو أقل – بأنه متميز عن إخوانه في القبيلة .

مما لاشك فيه أن المنعطف الكبير في حياته هو إقامته سنتين طالبا بفاس . ما زلنا لا نعرف بالضبط طبيعة الأفكار الرائجة بفاس في سنوات 1902–1904 [31] . ولكن في أية جهة عدا فاس كان بإمكان الريفي الشاب ذي الأفق الضيق أن يكون هذه الفكرة الإجمالية ، الواضحة ، المتسقة ، والتي لن يتأخر عن صياغتها بعد قليل من عودته ، والتي سيبقى مخلصا لها في كثير من نقاطها إلى النهاية ؟ كان عليه أن يكون في فاس ليرى أن مناهضة الإسبان وحدهم ، كما كان يفعل الريفيون ، يعني تجاهل الخطر الحقيقي باعتبار أن العدو هو فرنسا. فبينما لم تحتل اسبانيا في ظرف أربعين سنة سوى بعض الفدادين من الأرض المغربية لحماية قواعدها ، كانت فرنسا قد ضمت أقاليم بكاملها في ظرف سنتين لا غير ، وتراها الآن وقد جاءت حتى إلى فاس ممارسة ضغوطها على السلطان لاستعجاله بتسليمها ما تبقى من البلاد. كان عليه أن يكون في فاس ليمعن النظر مع زملائه وبعض أساتذته في أسباب البون الحضاري الشاسع الذي

جعل المغرب تحت رحمة هذه الدولة أو تلك من الدول الأوربية. ومن بين هذه الأسباب هناك المعرفة التي بانتشارها في كل أرجاء أوربا أدت إلى ازدهار الصناعة والحرية بها ، في حين كان النصيب المحتوم بالنسبة للمغرب الغارق في الجهالة والظلمات هو الاستبداد والبؤس (32) . ومن ثم وجود شعور مزدوج وبالغ التناقض إزاء أوربا المأخوذة في مجموعها : شعور عدائي بسبب ما تمثله من خطر ، وشعور انبهاري بسبب ثقافتها ومؤسساتها. وبما أنه لا يمكن البقاء على طرفي نقيض ، وبما أنه لا يمكن كذلك ، كما فعل بروميتي Prométhée انتشال مشعل النور من أوربا القوية ، فبالإمكان إيجاد منفذ بأن يحاول في حضن أوربا ، وعلى ضوء المظاهر ، إيجاد الدول الوصية لضرب الدول الشريرة . بوقوفه موقف العداء من هذه ، فإنه أصبح يتمنى ويبارك تدخل الدول الأخرى

ستستوفي النظرية كامل أبعادها بمجرد عودة محمد من فاس عندما سينزل الإمبراطور غليوم الثاني بطنجة وينقذ المغرب من الكابوس الفرنسي. وهكذا أقيم الدليل على أنه إذا كان كل شيء يدعو إلى التخوف من أوربا ، فإنه يمكن أيضا انتظار الكثير منها . من هذه الزاوية أيضا قيم محمد في السنة التالية نتائج مؤتمر الجزيرة الخضراء معتبرا إياها حاجزا منصوبا أمام الهيمنة المباشرة لفرنسا . إنه رأى مخالف لرأي والده الذي كان فيما يبدو أقل منه قلقا من الخطر الفرنسي . غير أن تسليط نقمته على فرنسا ، تلك النقمة التي كان عليه أن يضمرها كريفي أصيل للإسبان ، جعل محمدا يصنف هؤلاء ضمن الأوربيين "الأخيار". إذ أنهم كانوا هم أيضا ، كما كان ملحوظا ، معارضين لفرنسا . صحيح أن هذه المعارضة لم تكن توازي معارضة الألمان في قوتها وصخبها ، إلا أنها كانت حسب طريقتهم ووفق إمكاناتهم . بحيث ان الابن انتهى بخصوصهم في الواقع إلى نفس النتيجة التي انتهى إليها والده ولو أنه سلك مسلكا آخر : إن التعاون مع الإسبان بعيد عن أن يكون غير مشروع ، سيكون وسيلة فعالة لخدمة بلاده .

هل ثمة في هذه التقديرات حيز مخصص للطموح الشخصي ؟ وهل كان الفتى يدرك إلى أي حد يمكن أن يقوده اختياره ؟ ما من أحد يستطيع الإجابة. ولكنا ندرك أنه لم يصدر في موقفه عن نزعة ماكرة بقدر ما صدر عن إيمان صادق. لأنه لم يكن في سلوكه ، على الأقل في البداية ، ما من شأنه أن يصدم مثله الأعلى .

في هذا الوقت كان الإسبان قد شرعوا في سياسة الاستقطاب المألوفة لدى الفرنسيين. وكانوا قد فتحوا مؤخرا في مليلية مدرسة صغيرة لأبناء المغاربة المقيمين بالمدينة وجلهم من التجار . ولاختيار مدرس مغربي بها، رشحوا لهذا المنصب ولد القاضي عبد الكريم . فهل يمكن أن يتردد محمد وهو الذي كان يرى في التعليم مفتاح

الإصلاح بالنسبة لبلاده ؟ لقد وافق ، وسيتولى تعليم مواطنيه الفتيان من 1907 إلى 1913 يغمره الشعور بالقيام بأقدس الواجبات [33] .

لكن ها هي ذي على الفور مهمة جديدة تعرض عليه. لقد كانت تصدر في مليلية يومية تدعى "تلغرامة الريف" مخصصة إلى هذا الحين لاسبانيي المدينة. بيد أن محررها لوبرا ساورته فكرة جريئة بالنسبة لذلك العصر وهي اجتذاب قراء مغاربة كذلك عن طريق إدراج أخبار يومية في أول صفحة محررة بالعربية . فوقع اختياره بدوره على محمد بن عبد الكريم بغية تأمينه .

لكي نقيم مدى تأثير مثل هذا الاقتراح على الفتى ، تجدر الإشارة إلى أنه لم تكن توجد وقتئذ في المغرب كله سوى صحيفة باللغة العربية ، وهي "السعادة" الصادرة بطنجة. إلا أن السفارة الفرنسية هي التي كانت تصدر هذه الجريدة . فكانت بالتالي تخدم في البلاد أبغض قضية في نظر الوطنيين دون أن يتمكن أي واحد من الرد عليها . لقد طالما حاول بعض المثقفين تأسيس جريدة سنة 1902 ، جريدة مغربية من شأنها أن تجهر بالحقيقة . إلا أنه اصطدم بالحظر السخيف من قبل سلطة مستبدة. وبالتالي ساد الاعتقاد فيما بعد بضرورة التخلي عن المشروع [34]. فماذا إذن عن الفرصة المتاحة أمام محمد ؟ ألا يمكنها أن تزيل ولو قليلا رداء الظلمات الذي كانت بلاده تختنق تحت وطأته ؟ لقد رأى ضرورة القيام بالتجربة [35] .

ليستهل عمله ، اقتصر على نشر العجالات غير الشخصية لسرد أبرز الوقائع عن الحياة المغربية. لكن بالنسبة للريف حيث لا تتسرب إلا أخبار نادرة ومتأخرة فإن الخبر في الوقت المطلوب كان في حد ذاته خطوة هامة تتيح إمكانية الإسهام بشكل فعال في الحياة الوطنية. وهذا ما أحست به "السعادة" واستاءت منه. لذلك فقد هاجمت انطلاقا من طنجة كاتب مليلية الرديئ الذي كان يسيء إلى أهل الذوق بتشويهه اللغة العربية. لأنه ينبغي القول إنصافا للحقيقة ان مؤلفنا لم يكن يعتني بالمحسنات البديعية. بيد أن النقد كان له الفضل في أن مسه في الصميم . فأجاب بأنه بإمكانه لو أراد زخرفة أسلوبه كأي كاتب آخر ، لكن ، بما أن الكتلة الساحقة من الريفيين ليست مثقفة ، فقد نزل إلى مستواها ليكون متأكدا من فهمها له ، وهذه هي الحدود التي يقف عندها طموحه [36] .

بمقارعة "السعادة" على هذا النحو ، فإنه استطرد ، من حيث لا يدري في الحديث عن ذاته فيما يكتب . لقد عبر عن هدفه ، وبتعبيره عنه ازداد وعيه وضوحا.

علاوة على ذلك ، فقد أمكنه أن يلاحظ كون الهجوم لم يأت من جهته وإنما من جهة الخصم . أي خصم ؟ الأحرى أن نقول الفرنسيين. إنهم إذن قلقون. يا لها من دلالة. لقد كان على صواب في محاولة القيام بالتجربة وسيواصلها. فبما أنه ضايق الفرنسيين وبدون وعي منه فماذا سيكون عليه الأمر مستقبلا لو أنه كرس جهده لذلك ؟

لكن كيف ينسى أنه وجد وسائل عمله في مليلية في كنف الإسبان ؟ هل كان بمقدوره في قبيلته ، وحتى في فاس ، أن يجد حواليه تلاميذه مع كتب ومقاعد وسبورة ؟ هل كان بمقدوره هناك أن ينشر فكرته لتبليغها إلى مواطنيه ؟ إن مصيبة المغرب أنه يسير حتما إلى الهاوية إن لم يستنر بنور الفكر المعاصر ، بل ومصيبته أن السلطة الاستبدادية تنيخ عليه بكلكلها للحيلولة دون بزوغ فجره. والأدهى أنه يجهل ، ما دام أعمى البصيرة ، أنه عاجز بإمكاناته وحدها على إيجاد سبيله إلى الخلاص. ومن هنا هذا العناد الملحوظ خاصة في الريف في طرد الإسبان دون التمييز بينهم وبين الفرنسيين. والحال أن اسبانيا إذا ما كانت ترى بالطبع أن مصلحتها القدوم إلى المغرب ، فذلك لا بهدف السيطرة عليه وإنما للبيع والشراء لصالح الطرفين . وكانت تحمل معها خبرات أوربا التي كان المغرب في أمس الحاجة إليها. ألم تسمح لمحمد وإن كان ريفيا بأن يستغل لفائدة إخوانه أحسن هذه الخبرات : الجريدة والمدرسة ؟ هذا ما كان ينبئ بما سيكون عليه المستقبل في كل جهة تمكن الحضور الأسباني من الامتداد إليها في البلاد انطلاقا من مليلية . وإذا كان أبوه عبد الكريم يخطئ خطأ فادحا بالثقة بالفرنسيين ، فإنه بالمقابل على كامل الصواب في أن يفتح ذراعيه للإسبان . ففرنسا تعني العبودية. في حين أن الأمر مع الإسبان يتعلق بإنقاذ الأهم وشق الطريق نحو الإصلاح. فلماذا إذن لا يكون المرء منطقيا بأن يساعد هو الآخر على استقرارها بكل الوسائل الممكنة ؟

* *

بيد أن سلسلة من الأحداث المؤلمة ستتعاقب على الحياة الريفية وسترغم محمدا لمدة معينة على مراجعة مخططه بكامله .

حقا ، كان من شأن الوقائع في البداية أن تثبت بالأحرى صحة وجهة نظره. وهكذا فإن الإسبان ، بعدما نالوا امتياز استغلال منجم للحديد بقلعية في يوليوز 1907 ، شرعوا في مد سكة حديدية لربطه بمليلية [37] . أفلا ينبغي أن يكون المرء ممتنا للإسبان عن هذا المشروع الذي يشكل منطلقا لتحديث كان المغرب للأسف عاجزا عن القيام به

بإمكاناته وحدها ، والذي سيكون مع ذلك أكبر مستفيد منه ؟ وكانت الدار البيضاء في نفس التاريخ مسرحا لفتنة دموية اندلعت بسبب تواجد مراقبين قدموا لمراقبة الجمارك. وكان رد فعل فرنسا على الفور احتلال المدينة [38] . وهكذا انتهى الأمر إلى تسليم العدو الثغر مع أن الهدف كان هو مدافعته عنه . أفليس هذا دليلا ، وبعد احتلال وجدة في نفس الظروف ، على أن المغرب الجاهل الفقير لا قبل له في الظروف الراهنة بمواجهة الجهاز الجهنمي لدولة أوربية ؟ وحيث انه لا يمكن الخروج من هذا الوضع اعتمادا فقط على النفس ، ألا يتعين ، مثلما فعل مع اسبانيا محمد وأبوه عبد الكريم ، التماس مساندة دولة أقل خطورة من الفرنسيين وبالطبع مع ارتضاء تعويضها عن ذلك ؟

هذا مما لا ريب فيه. لكن ، على عكس ما كان متوقعا ، ظهر فجأة أن المغرب قد يكون متوفرا في حد ذاته على إمكانات أوفر مما يعتقد. وبدءا ، وعلى عكس الهجمة الشرسة التي أعقبت احتلال وجدة ، أربعة أشهر من قبل ، فإن ضربة الفرنسيين الجديدة لم تمر دون أن يدفعوا الثمن ، حيث ان قبائل الشاوية المجاورة للدار البيضاء انتفضت مرغمة العدو على حملة عسكرية حقيقية. كان هذا في حد ذاته رائعا جدا بالنظر إلى ميزان القوة. على أن ثمة مظهرا آخر لا يقل فجائية بدوره وهو أن قبائل الشاوية دخلت الحرب ضد أوامر السلطة الشرعية. وفوق ذلك ، فإنها خلعت بيعة السلطان عبد العزيز المتربع على كرسي الحكم لتختار هي نفسها أخاه عبد الحفيظ مرشحا للعرش [39] . إنها لضربة قاسية أن يأخذ السكان مقاليد مصيرهم بهذا الشكل حتى ولو بدا اختيار المناسبة قابلا للطعن. لقد زعزعت الحكم المطلق الذي كانت البلاد تحتضر في ظله. فإذا تمكن خلف المولى عبد العزيز من الوصول إلى العرش فإنه سيكون مرشح الشعب. وهذا ما كان يفتح بالتالي آفاقا بعيدة . وبالفعل ، فقد هب نسيم الحرية على المغرب . والحدث الذي لا مثيل له في تاريخه أن عبد الحفيظ لم يتمكن من الحصول على بيعة العاصمة فاس إلا بشروط تحدد حقوق الأمة وواجبات السلطان .

فبالإضافة إلى الشروط المتعلقة بإدانة العقد النهائي للجزيرات ، واسترجاع الأراضي المحتلة من طرف الجيوش الأجنبية ، ألزم السلطان ببرنامج عمل من الإصلاحات يتضمن ، ضمن نقاط أخرى ، ضرورة استشارة الأمة في جميع ما يتعلق بالشؤون الخارجية ، وحماية الفرد في شخصه وأملاكه ، وضمان استقلال العدالة من عسف السلطة ، وإعادة تنظيم الدفاع عن البلاد ، وأخيرا إصلاح التعليم وتعميمه [40]

كان هذا نصرا لأفكار لم يكن يجرؤ الوطنيون إلى هذا الحين على التعبير عنها إلا في الخفاء . وفي خضم الفوران السياسي الكبير الذي واكبه ، خاصة في فاس ،

برزت شخصية محمد الكتاني الذي تمكنت فيه النزعة التقليدية من الاستحالة إلى طموح متعطش للتغيير. لقد نسبت إليه ، وهذا أمر صحيح بلا ريب ، الشروط المدرجة في وثيقة البيعة ، وكان معروفا عنه أنه كان يمطر السلطان الجديد عبد الحفيظ بنداءات متوالية للقيام بالواجبات التي يلزمه بها ميثاقه . أخيرا ، فلم يكن هناك من يجهل أنه كان يلهم من بعيد "لسان المغرب" ، الجريدة الجديدة التي ظهرت مؤخرا في طنجة بفعل الظروف لترد على "سعادة" الفرنسيين. وفيما يلي نقدم نموذجاً لما كان يقرأ في هذه الجريدة :

" بما أن الوقت قد دعا إلى الإصلاح ، والشبيبة العصرية قد هللت قلوبها ، وانشرحت صدورها له ، وجلالة سلطانها الجديد (عبد الحفيظ) يعرف لزومه . فنحن لا نألوا جهدا في المناداة بطلبه على صفحات الجرائد من جلالته ، وهو يعلم اننا ما قلدناه بيعتنا ، واخترناه لامامتنا، وخطبنا وده رغبة منا وطوعا من غير أن يجلب علينا بخيل ولا رجال ، إلا أملا في أن ينقذنا من وهدة السقوط التي أوصلنا إليها الجهل والاستبداد ، فعلى جلالته أن يحقق رجاءنا ، وأن يبرهن للكل على أهليته ومقدرته على ترقية شعبه ، وعلى رغبته في الاصلاح ، وجدارته بإرادة ما قلدته أمته .

والذي نرجوه منه قبل كل شئ هو فتح المدارس ونشر المعارف ، وأن يكون التعليم الابتدائي إجباريا ، وأن يولي ذوي الكفاءة والاستحقاق والاهلية ويقرب إليه ذوي العقول الراجحة والافكار الحرة الراقية ، ويحترس من الوشاة والجواسيس الذين يشوهون له رعاياه ، ويحولون بينهم وبينه ، وفي بلاطه الشريف من هذه الميكروبات القتالة جيش كبير ، فإن لم يحترس منها ويقاومها نقلت إليه جراثيم وبيئة معدية . وبما أن يدا واحدة لا تقدر على إنهاض شعب من وهدة السقوط ولا على إصلاح إرادة مختلفة كإرادة حكومتنا فيجب أن تكون الايدي المتصرفة والعقول المفكرة والافكار المدبرة كثيرة متكاثفة على العمل . وعليه فلا مناص ولا مجيد لجلالته من أن يمنح أمته نعمة الدستور ومجلس النواب ، ومن إعطائها حرية العمل والفكر لتقوم بإصلاح بلادها اقتداء بدول الدنيا الحاضرة المسلمة والمسيحية . والدول الحاضرة يوم كانت مستبدة ، وكانت سلطتها مطلقة لم تكن لها كلمة مسموعة ، ولا ما يدل على أنها دول قديرة ، وحيث خلص الله تلك الارواح من شبكة الاستبداد والرق نهضت تلك الدول من وهدة سقوطها ، وتنقلت في أطوار الكمالات حتى وصلت اليوم إلى ما وصلت إليه ، وكفى حجة على هذا أمة اليابان ، تلك الشمس المشرقة في آفاق اسيا التي كانت في مؤخرة الدول قبل أربعين سنة ، وأصبحت اليوم في مصاف الدول العظيمة ، وانتصرت ذلك الانتصار العجيب الذي حصل في دولة تركيا العلية اثر منح جلالة أمير المؤمنين لشعبه الدستور ، وأمره بجمع (مجلس

المبعوثين). فعسى أن تقتدي به ونقوم بخدمة بلادنا ونسعى جهدنا في إصلاح حالتها" (41).

أجل من يدري بالفعل ؟ لقد كانت جميع العقول المستنيرة تطرح نفس السؤال. في مليلية ، كان تحرير جريدته مرصدا ممتازا بالنسبة لمحمد من حيث كان يواظب على تتبع المسار الجديد للأحداث. يا لها من أحداث مدهشة ، ويا لها من عبرة بالنسبة لجميع الذين يئسوا مثله من بلادهم ! لقد اعتقد مثل كثيرين آخرين أنه لا يمكن القضاء على الاستبداد من الداخل. فإذا به ينهار تلقائيا في بضعة أشهر. دون شك ، كان الناس ما يزالون ينتظرون صدور دستور حقيقي . بيد أن عقد البيعة كان يتضمن صيغته الأولية ، ومنذئذ كان الشعب قاطبة يطالب به. لأن هذا الشعب الذي اعتقد بأنه أصيب بسكرة الموت ، فتح عينيه هو الآخر ، وإذا به ، فضلا عن ذلك ، يجد في حضنه رجلا في قوة محمد الكتاني منيرا له السبيل .

ليس بمقدور أي واحد تحديد الجبهة الجديدة التي كان سينحاز إليها محمد لو أن الأحداث تابعت المجرى الذي توقعه لها. ولكنه في الوقت الذي كان غارقا في أحلامه المستقبلية على هذا النحو ، كان لا يعرف أن عبد الحفيظ الحريص في آن واحد على إرضاء القوى العظمى وعلى ألا يتخلى عن امتيازاته ، لم يكن ينتظر سوى الفرصة للانتقام من الكتاني وحزبه. وهكذا علم فجأة في أحد الأيام أن الرجل الذي يعني اسمه الاستقلال والعظمة والحرية جُلِدَ بالسوط جلدا فظيعا ، وهلك تحت وقع التعذيب. وبعد بضعة أسابيع من هذه الحادثة الفظيعة ، حكم على "لسان المغرب" بدورها بالاحتجاب . ولكن ما الجدوى من بقائها بعدئذ ؟ فبما أنه كان فجرا بالذات ، فإن البلاد غرقت من جديد في لجج ظلامها الأزلي (42) .

كانت الخيبة في مستوى الآمال الضائعة. وها هو ذا محمد وقد عاوده تشاؤمه القديم. حقا لا ينبغي تعليق أي أمل على المغاربة طالما بقوا كما كانوا أعينا معصوبة وأيادي مصفدة بالأغلال. إنهم لا يعرفون إلا المقاومة بصورة عمياء دون القدرة على النيل من أعدائهم ، بل يتضاغون في أغلالهم ويصدون الدولة التي كان بإمكانها أن تخلصهم وتحررهم . على أن تعاطف محمد مع اسبانيا استحال إلى انبهار ، سيما وأنه أصبح الآن يقرأ الإسبانية ويحسن نسبيا التحدث بها (43) .

كانت الصحف المدريدية خاصة المجلات الجميلة المزدانة بالصور تثمله وكأنه أعمى رد إليه بصره. ذلك أنه انتقل فجأة عن طريق النص والصورة إلى عالم يتجاوز

واقعه بعشرة قرون. هذا العالم الذي حاولْ لحد الآن تمثله بدون جدوى ، ها هو ذا الآن يسبح فيه ويتأقلم معه ويحس بأنه مواطن فيه. لقد أصبح على الأقل رجلا آخر. وإذا كانت اسبانيا أحدثت فيه مثل هذا التغيير بمجرد الاحتكاك ، فماذا سيكون عليه الأمر بالنسبة لبلاده لو أنها تمكنت من استغلال كل وسائلها ؟ لقد أصبحت اسبانيا أكثر من أي وقت مضى ، بعد الانتكاسة المؤسية التي نكبت بها البلاد ، الوسيط الذي لا غنى عنه للتجديد ، إن لم نقل صانعه.

ذلك عموما هو المناخ الفكري الذي كان فيه محمد عندما حدث هجوم كومندو ريفي على زوارق إنزال اسبانية في يوليوز 1909 مشكلا نقطة انطلاق لحملة من العمليات الدموية استغرقت أربعة أشهر (44) . ما من أحد يمكن أن يكون أكثر تأثرا منه بما وقع نظرا لأن قلبه كان موزعا بين الطرفين. مع ذلك فعلى إخوانه ألا يعولوا على رضاه فأحرى على مؤازرته. فما دامت اسبانيا قوية وقادمة كصديق ، فمن الحماقة ومن الخطأ الجسيم الوقوف ضدها. وسيكون النصر حليفها. وهو ما حدث بالفعل.

والواقع أن الأمور لم تتم كما هو معروف بمنتهى السهولة. لأن الريفيين كانوا ذوي شجاعة ما نظن الحديث عنها يحتاج إلى توضيح أو بيان. وكانت اسبانيا هي التي أبانت بالعكس عن معالم الضعف سواء على ساحة المعركة أو في شبه الجزيرة. فماذا يقال خاصة عن فتنة برشلونة التي اندلعت منذ الإعلان عن المعارك ؟ هل كانت إذن اسبانيا تعاني الأمرين من النكبات التي كان يعتقد بأن المغرب هو الذي يكابدها وحده ؟

كان لابد وأن يمر محمد من جراء ذلك بلحظات من التردد ، إلا أنها لم تدم طويلا. لأن فتنة برشلونة تم قمعها قمعا تاما. كما تم بسرعة السيطرة على الوضع من جديد في عين المكان. كلا إن الأمور في المغرب قد تحدث على غير هذا الوجه. وهكذا فقد كان الأمر يفضي بمحمد كل يوم إلى تبني قضية الإسبان في الصراع الذي كان لا ينبغي ألا يحدث مطلقا بينهم وبين الريفيين. هل يعني هذا أنه كان من الممكن أن يحمل السلاح ضد إخوانه ؟ إنه لم يصل إلى هذا الحد . ولكن ألا يمكنه بالعكس أن يسدي إليهم معونة بصرفهم عن اختيار الحرب ؟

* * *

في هذا الحقل الصغير المسيج الذي كانت تبدو عليه مليلية في ذلك العصر ، كان من السهولة بمكان على السلطات الإسبانية أن ترصد المسلك الذي سلكه ابن القاضي عبد الكريم منذ وصوله. وعلى الرغم من رأسه المعمم ، وجلبابه الخشن ، وقدميه الحافيتين في نعليه ، فإنها سرعان ما نظرت بعين الاعتبار إلى هذا الريفي الشاب الذي كانت تميزه على أية حال أهليته ووضعيته : ابن قاض وهو نفسه صاحب دبلوم. كان يبدو متواضع الشأن ومن الممكن زري الهيئة ،إلا أن نظرته كانت حادة على نحو غريب (45).

وفي نفس الوقت الذي نهض فيه بدوره التربوي الصغير ، انكب على تعلم الإسبانية وما

لبث أن استوعبها . وكذلك عرف أن الأخبار العربية المنشورة في "التلغرامة" كانت من إنجازه وإن لم تحمل توقيعه. ولم يفت مدير هذه الجريدة ، لوبرا ، التبجح هو نفسه بموظفه الجديد : إن هذا "المورو" الذي كان على ما يظهر فظا ، أدرك من الوهلة الأولى ما هو مطلوب منه ، إنه لصحفي بالفطرة ، وعلى كل حال فهو مثابر ومنضبط وصدوق ، وما أكثرها من مؤهلات لا تتوفر في بني جلدته . ما القول أيضا عن نهمه في معرفة كل ما يتعلق بالحياة الإسبانية وحياة أوربا والعالم ؟ أو عن استعداده لإبداء رأيه فيها في اعتدال وحصافة ؟ كان الإسبان ينسون أنهم أمام مغربي عند مجاذبته أطراف الحديث .

كان هذا في الوقت الذي تم فيه تنظيم "مكاتب الشؤون الأهلية". وكان دور هذه المكاتب يقوم على جمع المعلومات المتعلقة بالوضعية داخل القبائل وتسريب النفوذ الإسباني إليها. إلا أنه لم يكن تحت تصرفها وقتئذ سوى مترجمين باللغة العربية بينما كان العملاء أو المخبرون يتكلمون باللغة البربرية. وباعتبار ما هو معروف عنه ، فقد تفطنت اسبانيا إلى أن ابن القاضي عبد الكريم هو الرجل الذي تتوفر فيه الشروط المطلوبة. فبالإضافة إلى أهليته المزدوجة سواء باللغة البربرية أو الإسبانية ، فقد كان على معرفة وثيقة بالرجال ومؤسساتهم ، ويسعى هو نفسه إلى الأهداف التي كان الإسبان يرمون إليها. وبالفعل ، فقد قبل محمد بصدر رحب وظيفة المترجم المعروضة عليه (46) . وبناء على ثناء رؤسائه وعلى ترقياته المستقبلية ، فمن الواضح أنه نهض بها لا بوصفه وسيطا سلبيا ، ولكن بوصفه شريكا إن لم نقل مستشارا. بيد أنه لم ينصرف لا عن مدرسته ولا عن جريدته. بل بالعكس ستستأثر هذه المدرسة بنصيب متزايد من اهتمامه إذ أنها كانت تزوده بأداة ثمينة للنهوض بمهمته الجديدة على أحسن وجه .

على أنه كيف نشك في كون هذه المهمة نفسها زادت وإلى حد كبير من تفاقم مشاكله الوجدانية ؟ فإلى هذا الحين لم تكن اسبانيا قد ملكت سوى قلبه بينما كان يكرس جهده لإخوانه عن طريق المدرسة والجريدة. فإذا به يصبح الآن ملزما حقيقة بخدمة اسبانيا. دون شك ، كان هو نفسه مقتنعا بأنه سيبقى على هذا النحو وفيا لمصالح بلاده الحقيقية ، إلا أن كتلة الريفيين لم تكن مؤهلة لفهمه على هذه الحالة إلا بعد مدة طويلة. وسيبقى بالتالي في الحالة المزرية لرجل يتنازعه في القيام بواجبه مفهومان متناقضان ، إن لم يتخلص ويحسم باختيار حكيم. إلى ههنا يتعين دون شك إرجاع بواكير فكرة أقل ما يقال عنها انها محيرة . ذلك أن محمدا ، المعروف تاريخيا بعبد الكريم ، ذلك الذي سترى فيه اسبانيا ألد أعدائها ، ذلك الرجل قرر ، على ما سيعتقده البعض ، التحول هو نفسه إلى اسباني. وإذا لم تر الفكرة النور ، فإن المسؤولية لا تقع عليه بتاتا وإنما

على الإدارة التي احتفظت بملفه مدة طويلة قصد دراسته بمدريد ، إلى الوقت الذي تبدل فيه الوضع تبدلا محسوسا وظهر من الأنسب للذين يوظفونه أن يتركوه على حاله بدلا من تغيير جنسيته (47) .

ماذا كان سيحصل لو أن الطلب قوبل بالترحيب ؟ هذا ليس من اختصاصنا. لأن التاريخ لا يهتم إلا بالواقع. لكن بما أن الطلب نفسه قدم بالفعل ، فهو يستأهل على الأقل أن يثير انتباهنا. لقد أرجعناه إلى هواجس رجل يحاول أن يعيد السكينة إلى ضميره باعتبار أنه قدم في غضون سنة 1910 (48) ، أي في الوقت الذي كان فيه هذا الرجل محجورا عليه في دوامة الخدمة الإسبانية. على أنه كان بوسعنا اللجوء إلى فرضيات أخرى. وعلى سبيل المثال فقد كتب فيما بعد في "التلغرامة" :

" أكادت الشمس أن يعمي نورها من كثرة فتن التي عمت هاته النواحي المغربية ... و لا يملك الرجل في هاته المدة راحة لنفسه الا اذا دخل تحت حماية و الا من تفنى نحبه " (49) .

ألا يمككنا أن نستنتج أنه اذا كان قد لاذ على هذا النحو بالملاذ الاسباني ، فلكي يبتعد ايثارا مفرطا للنفس عن سفينة تبدو له مشرفة على الغرق ؟ ألم يكن كذلك مدفوعا بطموحات مهنية ؟ و بشكل أبسط ، ألم ينصع لتعليمات أبوية ؟ ذلك أنه حدث عن طريق اتفاق لا يمكن أن يكون وليد الصدفة أن الفقيه عبد الكريم قدم طلبه حوالى نفس التاريخ للحصول هو نفسه على الجنسية الاسبانية (50) . هذه الفرضيات جائزة.تماما . لكن حتى لو سلمنا بأنها تكونت على درجات مختلفة فلا يمكنها أن تشكك في الرصيد الوطني الكامن في محمد ، ذلك الرصيد الذي كان يملي عليه في نهاية الأمر مواقفه مهما بدت لنا هذه المواقف شاذة من بعيد و بعد انقضاء الأمر . و الا فاننا لن نفهم كيف أنه تمكن من ايجاد سبيله الى الخلاص ، كما فعل ذات يوم عوض أن يبقى الى النهاية أداة تنفيذ طيعة في يد اسبانيا أو في يد أي كان يجزل له العطاء .

إن مثل هذه الرؤية قد تبعث على الضحك. كيف نجترىء على اضفاء هالة من المشاعر الوطنية على رجل أنذر نفسه لخدمة إسبانيا و هي الدولة التي تحتل بلاده ؟ فثمة نقيضان لا سبيل اليوم الى التوفيق بينهما . لكن من واجب المؤرخ استحضار نظرة العصور الماضية . فمنذ ستين سنة خلت كانت كثير من المفاهيم أقل وضوحا مما هي عليه اليوم . لقد كان المغربي المطلع على الوضع العالمي يرى جميع المنافذ مسدودة أمام بلاده ما لم يأتها مدد قوى من الخارج ، و كان بوسعه أن يمني النفس بالأوهام

حول استعداد هذه الدولة أو تلك من الدول الأوربية لتقديم هذا المدد بالذات . و عليه ، وبما أن الكتلة الساحقة من المغاربة تقابل هذا المدد بالرفض ، ألا يقضي الواجب بأن تُقاد إليه بعصا الاكراه ؟ لقد عرفت أوربا عصرا أمن فيه الناس بالمستبد المستنير لضمان مصلحة الشعوب ، تلك المصلحة التي ما كانت لتعرف سبيلها من تلقاء نفسها . و بشكل مماثل ، كان محمد يعتبر أن القوة المستنيرة لا سبانيا ستعطي المغاربة ، ولو ضد ارادة الأغلبية منهم ، المدلول و الوسائل لاصلاح يجنبهم الوقوع تحت السيطرة الفرنسية أو يخلصهم من الكارثة إن هم ابتلوا بها . لقد لجأ أوليس (Ulysse) الى القوة لتخليص رفقائه من سحرسرسي (Circé) .

* * *

كما نتذكر ، كان الاسبان قد طردوا حوالي نهاية 1909 أمزيان و أتباعه حتى فيما وراء كرت ، و تمكنوا من اخضاع أغلبية القبائل في هذه المنطقة . و بعد أن أوقفوا آنذاك زحفهم ، كرسوا كل جهودهم على امتداد المنطقة المحتلة من أجل العمل على اخضاع القبائل التي ظلت معادية لهم ، وارساء الدعائم لادارتهم (51) . ففي هذا الاطار، تم ترشيح محمد في يونيو 1910 لمنصب القاضي في " مكاتب الشؤون الأهلية " التي كانت توجه من مليلية كل النشاط السياسي (52) .

بالنظر اليها عن كثب ، فانها لم تكن ترقية و انما تحولا . لم يكن محمد المترجم سوى مستخدم لدى المصالح الاسبانية ، بينما تحول مع منصبه الجديد الى موظف للدولة المغربية . كان التحول ذا مدلول كبير ، لأنه إذا كان يحق للإسبان توظيف محمد أو أيا كان في مصالحهم الخاصة ، فإنه لم يكن بمقدورهم مد اليد إلى الأطر المغربية دون اغتصاب اختصاصات السلطان في عقر داره . كان محمد يدرك ذلك. وبتسلمه لقب القاضي من ملك اسبانيا لا من السلطان ، فإنه أقر لا أقل ولا أكثر بأن المنطقة استبدلت عاهلها . وهذا صحيح إلى حد أنه لم يكتف بمجرد اعتقاده ، بل كتبه علانية خصيصا لأولائك الذين كانوا ما يزالون يقاومون المحتل متذرعين بالسلطان. فذكر :

"كانت قلعية في ذلك الوقت من غير حكومة والآن تحكم عليها الدولة الصبنيولية. ونحن والدولة المذكورة تصافحنا على الصلح والفصال" (53).

مع التجنس أو بدونه ، ها إلى أين كانت تقوده جدليته وجها لوجه حيال اسبانيا.

مع ذلك ، فمن المثير للاستغراب أن نلاحظ أن ما كان يملك عليه حسه وشعوره هو مستقبل بلاده وأن المغاربة ، أو المسلمين حسب التعبير الذي كان هؤلاء يتعارفون به ،

ظلوا محور أفكاره المتحمسة . "أصلحوا أنفسكم ، حدثوا بلادكم على النمط الأوربي" : ذلك ، حسب صيغ مختلفة ، هو مدار وعظه في "التلغرامة" :

"هذه نصيحة للمسلمين أيها الإخوان أن أريد الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بلله عليه توكلت وإليه أنيت ولا تظن أننا أردنا النصيحة لكم والإصلاح لبلادكم لكي تستفعوا بها كثيرا كثيرا لأنكم رأيناكم أجل منكم ضعفا ولأجله أردناكم أن تستمعوا لما نحن قد واضعناه لكم قبل هذا وبعد وما يأتي ذكره لأن بلادكم لو كانت مثل بلاد أوربا لراجعت عليكم بضاعات الربح أقل من لمح البصر لأن بلادكم تأملنا ما فيها من كثير المنافع وما أحسن تربتها وأطيب بلادها لولا كانت مخدومة بما تخدم به بلاد الوربيون لأنكم مثل ما تخدمون به أنتم اليوم مثل الزوايل والمحاريث وغير ذلك" (54).

بالطبع ، فإن هذا المرافع عن قضية الرقي كان بعيدا عن ألا يروق المحتل الجديد الذي كان يقدمه في صورة مشرقة ، سيما وأن محمدا كان في الغالب الأكثر يبحث عن نموذجه الأوربي في اسبانيا. وكان بوسع قرائه المغاربة أن يمنوا النفس بالآمال عند قراءة الموازنة التي أقامها في لحظات أخرى بينهم وبين الإسبان :

"لأن الاصبنيول سعى في تسهيل طريقته فمد السكك الحديدية من مكان إلى مكان لأن في ذلك رواج التجارة واحكام العلائق بين قطر وآخر . والمسلمون إذا أجادوا قنطرة هدموها أو طريقا مطروقة خسروها أو محجا سلطانيا قطعوها فتعدم المواصلات وتنفد التجارة وتقل الخيرات . اصبنيول إذا وجد في بلاده مفسدة قطعها أو فتنة أخمدها . المسلمون يوقدون الفتن فتأكل أحشاهم وتفني أولادهم وتهلك أموالهم فيصبحون على بساط الذل وبين أنياب الفقر والجوع" (55) .

نستنتج أن مهمة الإغراء التي نهض بها محمد على هذا النحو كانت تعود بفوائد جمة على المحتل الإسباني. على أنه هو نفسه لم يكن ينكر ذلك. بالعكس ، لم يكن بوسعه إلا أن يقر به عينا . إلا أننا نجازف بألا نفهم شيئا مما سيأتي ذكره إذا لم ننتبه كذلك إلى أنه كان هو نفسه ضحية الأوهام التي روّجها . لم يكن من الممكن أن يكون إلى هذا الحد مساعدا متحمسا لاسبانيا ، وإلى هذا الحد مخلصا لها ، لو لم يكن عميلا لها بالمعنى العامي للكلمة. في اليوم الذي سيتبين له بعد مدة طويلة أنه ضل الطريق ، فإنه سيقلب لها ظهر المجن . ذلك أن حبه لوطنه لم يفتأ في المدة الفاصلة ، على طريقته دون شك ، وليس دون معاناة كثيرة ، يحمي حميته ويأخذ بلبه .

* * *

بالنسبة لمحمد بن عبد الكريم ، فإن الخطر الحقيقي يكمن ، وهذا ما رأيناه ، في الجانب الفرنسي. وكان الشعور بضعف المغاربة وهم يواجهون وحدهم هذا الخطر الداهم هو الذي حمله على السعي بحثا عن مساعدة اسبانيا بدلا من أن يحاربها هو الآخر كما فعل أمزيان وأصحابه بدون تبصر. ولئن لم تكن الأحداث قد كذبت تحليله في أية لحظة ، فإن سنة 1911 جاءت بالعكس لتقدم له الدليل القاطع. فبعد مدة من التسرب المقنع الذي مكنها من السيطرة على المرافق الأساسية للدولة المغربية ، رأت فرنسا في هذه السنة أن الساعة حانت لتسديد ضربتها الكبرى. فانطلاقا من الدار البيضاء توغلت وحداتها في الداخل واستولت من ماي إلى يوليوز على فاس ومكناس والرباط. كان هذا غزوا حقيقيا رغم التكذيبات والتعليلات (56) . وكان محمد ، وفي قلبه ما فيه من غضب ، ولكن فيه أيضا ما فيه من شعور بالعجز ، يتأمل في الهزيمة من بعيد مثل كثيرين آخرين. لقد تحقق من وقوع ما كان يرتاع له أيما ارتياع.

مع ذلك كان عزاؤه في هذه المحنة أن استوثق على الأقل من صداقة الإسبان. ذلك أن هؤلاء لم يكتفوا بالاحتجاج بل تحركوا بقوة ، فنزلوا هم أنفسهم بالعرائش حيث كان الريسوني في انتظارهم ، ليمدوا بعد ذلك غزوهم إلى القصر الكبير ويوقفوا زحف الفرنسيين . من جهة أخرى ، فقد أظهرت صحفهم استنكارها القوي (57) . كما أن لوبرا نفسه سمح لمحمد بصدر رحب بأن يصب جام غضبه في "التلغرامة". وهكذا ارتفع صوت مغربي ضد الغزو ، صوت واحد على الأقل ، وهو إن كان ضعيفا لا يقوى بالطبع على تغيير مجرى الأحداث ، فإنه كان مسموعا وسيبقى بالنسبة للتاريخ وثيقة ثمينة (58).

في "تلغرامة" 9 يوليوز 1911 ، نشر محمد نداء إلى جميع إخوانه المسلمين وبخاصة إلى المغاربة. فقال تحت عنوان "فرنسا والمغرب" :

"هذه هي الدولة التي عزمت على ضم قطرنا العزيز إلى مستعمراتها الأخرى في افريقيا وغيره. هذه هي الدولة التي تصدرت للقضاء على العالم الإسلامي لتكون لها عليه السيادة . عملت دولة فرنسا لهاته الغاية سنينا طويلة فلم تفلح في مساعيها ولم تنجح في أعمالها بما يعترضها خلال ذلك من تزاحم الدول الأوربية غيرها رغما من اختلاقاتها التي تختلقها للحوق هاته لم تصل دولة فرنسا لغرضها فيما مضى ولكن قد تقدمت خطوة طويلة إلى الأمام قطعت فيها عقبات شتى وحصلت فيها على درجة كبيرة من ضالتها.. لم تكتف دولة فرنسا في مسألة اختلاس مملكة المغرب الأقصى بسياستها التي أست حملتها (استعملتها) في استعمار البلاد الإسلامية الأخرى من المعاملة بالقسوة والشدة

والضرب على يد زعماء الإسلام وتحريش بعضهم على بعض وتمزق جموعهم وآثار الشقاق والعداوة بين القبائل وبث الجواسيس في الأنحاء واستطلاع أسرار المسلمين وتضليل أكابيرهم وترغيبهم في موالاتها وإغراقهم وإغرائهم بالدراهم ووعدهم بالمراتب السامية والدرجات العالية لمن دان لها واختار مودتها وأجاب دعوتها وبالعكس لمن جفاها وأعرض عنها. فما لبثت أن أسست في هذه الايالة جريدة عربية (59) . وجلبت لها كتابا لا يعرف نسبهم ولا ديانتهم ووضعتها باسم مخزن المغرب. وقد حاولت بذلك أن تستهوي الطبقة العالية من المغاربة وتستميل قلوب الخاصة من العلماء والأكابر والأشراف ببدع العبارات وزين الجمل والمقالات. وقد فات أولائك الكتاب أن هاته الفئة الغربية التي يوجهون إليها سهامهم المملوة سما قتالا هم فية قليلة ولكن يحلون عقولهم عن أن يعيبها سحر الساحرات وقلوبهم عن أن تؤثر فيها مغازلة الباغيات لا تبرح عن فكر أحد منا نحن معاشر المغاربة قصة المغفور له العلامة الجليل الشريف سيدي محمد بن الفقيه البركة السيد عبد الكبير الكتاني مع تلك الجريدة زمن انقلاب الحكومة لما تصدى للرد على خزعبلاتها الساقطة وخرافاتها الواهية في هذا السيل استشهد ذلك الرجل الغيور والبطل الغيور وبهذا السبب قد فقدت الأمة المغربية ركنا من أركان دولتها وخسرت رجلا وطنيا من رجالها".

وكتب يقول في مقال جديد مهاجما الجريدة التي سماها الفرنسيون في نظره ب "السعادة" من باب تسمية الشيء بضده :

"يا صاحب السعادة إذا كان قد غرك جهلنا نحن المغاربة وانفسح لك الميدان في هاته الايالة فرشقت نحونا سهام التدليس والغش والسخرية والتهكم فهؤلاء علماء الشرق وكتاب جرايد مصر والشام والقسطنطينية العظمى الذين نهضوا ليستصرخوا ويحملوا على السياسة الفرنصوية بالمغرب. هذه جريدة «المويد» قد كررت لهجتها وأسفها الشديد على صفا الجو لفرنسا في المغرب وهاتان جريدتا "العمل" و "اللوا" ينتقدان على دولتك وأنت نفسك قد أدرجت من مقالهما في جريدتك على سبيل الرد وفي معرض الانتقاد وحرت في أمرك حتى نسبت مقالتي الرصيفتين إلى كتاب صغار حملهم على ذلك التعصب الديني كما رميت وبهذا الكلام أيضا لمدير جريدة الاتحاد العثماني. هاته أربع جرائد إسلامية تعد في مصاف الصحف الكبرى قد رمت بسهم واحد ورأي متفق على أن دولة فرنسا خاينة للمغرب فاغرة فاها لابتلاعه وجعله من أملاكها الخاصة ولعل هاته الصحف قد أخطأت الصواب ولم تدر من السياسة الفرنصوية شيئا أو حملها على ذلك التعصب الديني" (60).

لم يمر هجوم محمد دون إثارة الانتباه في الأوساط المعادية حيث خلف بوجاهته وحدته ما يكفي من التأثير لكي ترى جريدة "الحقيقة" من تونس ، وهي موالية بدورها للفرنسيين ، ضرورة التعقيب عليه برد أعيد نشره فورا في "سعادة" طنجة. هذا الرد ، الموقع من طرف المسمى عثمان ، جمع بين التنويه بالعمل الاستعماري الذي أنجزته فرنسا ، وبين التعريض بشخص محمد الذي تعامل مع صحيفة اسبانية. وكانت فرصة ثمينة بالنسبة لهذا الأخير ليصوغ علانية وجهات نظره من المسألة ويعبر عن المبادئ الجليلة التي تملي عليه اختياراته :

قال التونسي : "إن دولة فرنسا أينما مرت تركت المدنية والعلم والأمن العام". وأجاب محمد :

"إذا كانت فرنسا حقا بلدا متمدنا ومثقفا فإننا "نرى الجزائر وتونس مرت عليهما دهور وأعوام تحت سلطة فرنسا.. فلم نشاهد أثرا لما يتملق به المتملقون ويكتبه المتشدقون وما ثمرة التمدن والعلم إذا لم تتدرج به الأمم إلى معرفة إدارة أحكامها وإصلاح أمورها واستقلالها بمصالح بلادها والتمتع بخيراتها. لا أعرف كيف يترجم الكاتب الغيرة الوطنية ولا كيف يشرح الحرية التي تطالب بها الأمم حكومتها وهي متحدة الجنس والدين فكيف بها وهي متباينة فيما بينها (لعله) يقول دع عنك الوطنية والحرية التامة وهلم بنا إلى المدنية والعمران والتمتع بالأكل والشراب ونتقلب في الملاذ النفسانية غير مبالين بما وراء ذلك فأقول ما سر الاستقلال حينئذ وما حكمة تألف الحكومات واجتماع الأفراد حول الملوك والوزارات ومباهاتها بقواتها ومنافستها" (61).

أما فيما يخص كلام الكاتب الذي زعم أن محمدا ليس ب "المسلم الغيور" حيث إنه اتخذ للدفاع عن مصالح وطنه جريدة اسبانية ، فإن هذا الادعاء لم يضايقه بتاتا :

"هل علمت يا عثمان أن في ايلة مراكش جريدة وطنية تدافع عن مصالح المغاربة وتنشر آراء الساسة وتدون تصاريح الوزارات أو هل سمعت يا كاتب أن حكومتنا سمحت لأحد بذلك فيما مضى من الزمان. نهضت فيه فئة من الأدباء وأبطال المغاربة عام 1318 لتأسيس جريدة وطنية فتصدى لها الاستبداد وأشهر سيفه في وجهها محتجا بأن التعصب الديني لا يخولها ذلك وأنها من لهو الحديث بقيت في يدها وقالت لننتظر ساعة أخرى يلتل (يزيل) الله فيها الاستبداد والتعصب . عرفت يا عثمان أنه حتى الآن لم يكن بإمكانيتنا نحن معشر المراكشيين أن نباري الأمم المتمدنة طالما لم نوفق لفتح المدارس الوطنية لتهيء فينا (كذا) شبيبة عسى أن تتدرج في معارج التقدم ونصعد إلى

أفق العلى والمجد والكرم. عندئذ يا عثمان نؤسس جرايد غير مشوبة بدسيسة ولا بتهمة جاسوسية ولا مقيدة بقيود أجنبية مثل جريدتك" (62) .

أدرك التونسي أيما إدراك أن محمدا بانفجاره غضبا ضد فرنسا كان يخدم أيضا دون أن يبوح بذلك مصلحة اسبانيا ، الشريك والمنافس في القضية المغربية. كيف امتنع عن مسها في هذا الجانب الحساس ؟ وعلى حد قوله : لنفرض أننا نخدم فرنسا وأن هذه آفة ، لكنك تخدم اسبانيا وهو ما ليس بالأحسن ، على العكس ، عند الاختيار ، فإن فرنسا متحررة ومتجردة عن القضايا الدينية كما أنها تحترم عقيدتنا الإسلامية ، هل بوسعك قول مثل هذا عن الإسبان ؟ تذكر اضطهادهم لإخواننا في الأندلس .

أمام مثل هذا الاستفزاز ، كان على محمد أن يعلن عن رأيه ، وهو ما قام به بالفعل. ولكن بدون أدنى ارتباك لأنه لم يؤخذ على حين غرة باعتبار أنه لم يكن يرسل الكلام على عواهنه. فأجاب :

عندما نقارن ، ينبغي أن تكون الأمور قابلة للمقارنة. إنك تستشهد بالأندلس. أو نسيت أن المسلمين كانوا يومئذ هم الذين يشغلون مكان الغزاة ؟ وبالتالي ، إذا كان الإسبان قد عمدوا إلى القوة لاسترداد ما أخذ منهم بحد السيف فلا يحق لأي كان أن ينحي عليهم باللائمة. هذا فضلا عن أن المسألة تضرب بجذورها في العصور الخوالي بنحو أربعة قرون :

"إن ذاك الزمن كان زمن جهل وهمجية وهذا عصر العلوم والمدنية فلا تصح مقابلتهما فالمعاملات حينئذ كانت تقضي على التعصب الديني أما اليوم فالسياسة الدين من جميع الوجوه" (63) .

على الرغم من طولها ، لم نر بدا من سرد هذه الفقرات المثيرة بحماسها وقوتها ووضوحها. فبفضلها يرتسم بجلاء الوجه الأول لرجل ظل إلى هذا الحين مغمورا تقريبا برغم دوره التاريخي المستقبلي. لقد كتبت ، ولنذكر بذلك ، سنة 1911. وكان صاحبها يبلغ 29 سنة ، لم يسبق له أن تعرف بعد خروجه من دشرته سوى على فاس ، المدينة القروسطية ، وعلى مليلية ، التي كانت معسكرا محصنا أكثر منه مدينة. في ذلك الحين ما من أحد كان قد أفشى بعد الروح الحقيقية للمستعمر ومناهجه. في فرنسا وحتى في صفوف المعارضين ، كانت الصيغ اللطيفة ما تزال رائجة ملبسة الغزو لباس "التسرب السلمي" و "الدفاع عن المصالح الفرنسية". فإذا بهذا الفتى ، شبه الفلاح ، يميط اللثام عن المستعمر ، ويكشف عن مناهجه : الرشوة ، الشقاق ، الجاسوسية، التهديد،

استعمال العنف، ثم الإشادة الريائية بالقيم الدينية لتنويم إرادة الحرية. إنها مسبقا مبادئ ليوطي الأكثر مكرا وتسترا .

أليس من المفروض أن يكون المرء ذا موهبة فذة لكي يتوصل رأساً إلى مثل هذه النتيجة ؟ أجل ، لقد استبان محمد نابغة منذ هذا التاريخ. وكانت روح نبوغه هنا هي محبة بلاده. صحيح أن مواقفه المناهضة لفرنسا كانت تسير في معظمها - وقد قلنا هذا - في نفس اتجاه المصالح الإسبانية. إلا أنها كانت تتجاوز على نطاق واسع الحدود التي رسمتها لها اسبانيا على فرض أن هاته هي التي كانت قد حرضت عليها. على أن ثمة حول هذه النقطة نبرات لا يمكن أن يخطىء معها ظننا. إن وطنية حقة لهي القادرة وحدها على أن توحي بها.

إن الوطنية هي الكلمة الملائمة لأن الأمر يتعلق بالوطن لا بالدين. وهذا لا يعني نبذ الإسلام. بالعكس ، إنه يخلق بين الشعوب التي تدين به تآزرا بات لابد منه بقدر ما باتت جميع هذه الشعوب خاضعة أو مهددة بالخضوع لنفس السيطرة الأوربية. إلا أن لكل منهما وجوده الخاص . وإذا كان السكان في المغرب مسلمين بالطبع ، فهم على الخصوص مغاربة من جهة التاريخ . وهذا ما كان عليه إحساسهم حتى عندما كانوا فيما مضى يتمادون تجاه أوربا في نعت أنفسهم باسم "المسلمين" لا غير. كانت هذه الكلمة التقليدية تفي بالمعنى وحدها وقتذاك لأنه لم يكن يشغلهم سوى مشكلهم ولم يكونوا يتحدثون عنه إلا فيما بينهم . أما وقد اتسعت الآن دائرة أفقهم ، وتعرفوا على مشكل الشعوب الإسلامية الأخرى ، وتوجب التحدث معها عنه ، فإن الاقتصار على هذه الكلمة أصبح من شأنه أن يخل بالمعنى المقصود . وترى محمدا الذي كان يستعملها منذ عهد قريب قد أصبح يميز الآن ، كلما أراد الدلالة عليهم ، بين المغاربة والمسلمين الآخرين. وإن كلمات "وطن" و "أمة" و "وطنية" المتعاقبة بقلمه، لتزيل في نهاية الأمر كل التباس بصدد الموضوع الحقيقي لفكره ومشاعره .

سيما وأن الوطن بعيد لديه عن أن يكون غامضا تتركز فيه ما لا ندري من التحسرات على الماضي. إن الوطن بالنسبة إليه هو بالعكس مفهوم عقلاني متجه نحو المستقبل . وبصورة أوضح ، فإنها الأرض التي يمكن فيها لجميع المغاربة ، الملاك بالاشتراك ، التمتع الكامل والقسرى بها ، لكي يجنوا منها لأنفسهم لا لغيرهم كل الفوائد التي تتيحها اليوم التقنية والعلم. هذا هو المهم. أما فيما يخص الدين ، فبئس ما يترك لك إن أنت سلبت الباقي.

وبالتالي ينبغي الفصل بين المسألتين. فعلى كل فرد أن يضبط بنفسه علاقاته مع خالقه. لكن على الجميع أن يتحد ويعمل أولا على انقاذ الاستقلال ثم على المضي بعد ذلك في معارج التقدم. من سوء الحظ ، فإن المشروع ميؤوس منه تقريبا في الحالة التي كان عليها المغاربة ، لأن الشعب غير قادر على فك الحصار الذي ضربه الفرنسيون ، وهو ما زال غارقا في جهالته . وبدلا من الأخذ بيده نحو المنافذ ، كما هو المفروض ، فإن سلطة مستبدة تعمل جادة على أن تعمي بصيرته عنها. أنّى السبيل إلى تكسير الطوق ، وأنى السبيل إلى تعليم الشعب ومنحه حريته اللهم إلا بفضل عنصر طارئ ؟.

هذا العنصر الطارئ هو المدد السماوي الذي جاء فجأة في صورة اسبانيا الوصية. من اسبانيا لم يسبق لمحمد أن رأى إطلاقا سوى وجه ودي واحد ، وذلك منذ طفولته لدى المدنيين ولدى العسكريين الذين كانوا يستقبلون والده ، وفي مليلية على الخصوص ، حيث زود بجميع الوسائل ليصبح ما هو عليه الآن وحيث قدر حق قدره وعقد في أحسن وسط صداقات حقيقية. على أنه كيف يمكن لاسبانيا أن تبيت نوايا عدوانية ضد بلاده ؟ إن هذا لضرب من الأوهام. إذ أن فرنسا كانت في المواجهة. على أنه يمكنها بالمقابل أن تطمح إلى الفوز بامتنان المغاربة لها إذا ما هي ساعدتهم على التكيف بمتطلبات عصرنا ، وبعبارة أخرى إذا ما هي ساعدتهم على التمدن وجعلتهم بالتالي قادرين على الإفلات من قبضة فرنسا ، أو إذا فات الأوان ، على التخلص منها في يوم من الأيام.

وإلى ذلك الحين ، فإن كل شبر من الأرض استقرت فيه سينجو على الأقل من السيطرة الفرنسية. ومن ثم الثناء على الريسوني الذي مكن الإسبان من النزول واحتلال العرائش والقصر الكبير وأصيلة دون طلقة نارية واحدة. لكن كيف لا يجب التنديد بالمقابل بقصر نظر أمزيان الذي انقلب في الشمال مناهضا بكل ما أوتي من قوة حليفه الوحيد الطبيعي في الوقت الذي كان العدو الحقيقي ينتشر في الجنوب بلا حسيب ولا رقيب ؟

إن مثل هذا المنطق ، ولنردد ذلك ، يمكن أن يبدو مستغربا بعد مرور ثلاثة أرباع قرن على الحادثة. على أنه ينبغي أن نتذكر ، بالنسبة لعصر أقرب منا ، الخلاف الذ ي نشب خلال الحرب الأخيرة بين الفرنسيين إزاء الحلفاء ، عندما كانت جميع الأمور أكثر وضوحا وبنحو لا نظير له ، وسنفهم حينئذ كيف أن مغربيين ، محمد أمزيان ومحمد بن عبد الكريم ، اللذين كان يباعد بينهما فارق السن والتكوين ، مع أنهما يضطرمان بعاطفة واحدة ، كيف قدر لهما بالأمس في خضم محنة وطنهما أن يجدا نفسيهما بدون

لعب على الحبلين ولا خيانة ، مناهضين أحدهما للآخر. أمام التاريخ ، كان الصواب بجانب أمزيان. فهل علينا لهذا أن نسبغ على محمد بن عبد الكريم لباس الخيانة لبلاده ؟ أو نقول بالعكس ، كما فعل في الماضي الأوربيون الذين كانوا يحطون من شأنه ، أو كما يفعل اليوم مادحوه المغفلون والسذج ، إنه لم يخدم اسبانيا إلا ليتعلم كيف يحاربها ؟ لن نأخذ لا بهذا ولا بذاك. قبل كل شيء ، كان محمد يحب بلاده . وإذا ما خدم اسبانيا ، فلأنه اعتبرها صديقة وحليفة وبإمكانها مساعدة المغاربة على النجاة. كان يومن بذلك بل وفي حاجة إلى الإيمان به . ولولا هذا الإيمان ، لعضته أنياب اليأس. ولكنه كان متسلحا به ، كما أنه لم يكن بالرجل الذي يقف في منتصف الطريق. ما دام متمسكا بتحليله للوقائع ، فإنه سيثابر بدون أن يرف له جفن إلى أقصى النتائج التي ستفرض نفسها فورا على أية حال .

* * *

بعد بضعة أسابيع من الجدل بين محمد وزميله عثمان ، استؤنفت الحرب بين الريفيين والإسبان. فقد خرج أمزيان من السرية التي كان يتحرك في ظلها منذ سنة ونصف ، وشن في بداية شتنبر 1911 هجومه على كرت مجبرا العدو على تعبئة جميع إمكاناته . وبالفعل فقد قدم وزير الحرب بنفسه من مدريد لدعم خطة هجوم مضاد يجمع بين هجوم جبهي وإنزال ضخم على مؤخرة الريفيين . وكانت الجهة المختارة للإنزال هي بالطبع جون الحسيمة حيث كانت المهمة المنوطة في هذه الحالة بأصدقاء اسبانيا هي العمل برا على إحباط أو شل كل محاولة للمقاومة . وبوصفه رئيسا للحركة ، بذل القاضي ما في وسعه ليفي بالغرض المنوط به. وكضمانة لعدم تحرك الأفخاذ الشاطئية ، توصل إلى أن يتم تسليم الإسبان قبل العملية ثلاثين رهينة من أبناء الأعيان. إلا أن السر لم يبق طي الكتمان ، وسرعان ما نظم أنصار أمزيان صفوفهم للمقاومة إلى الوقت الذي تم فيه إلغاء الإنزال كما نتذكر (64).

كانت نتيجة غير متوقعة وتركت القاضي عبد الكريم بلا ملاذ للقصاص الشعبي . ففي 6 نوفمبر احتشدت الجموع أمام بيته ، ولئن لم تعتد لا على حياته ولا على حياة أهله ، فإنها أضرمت النيران في البيت ونهبت الأملاك الأخرى . ولم يبق أمام القاضي المنكود اختيار آخر عدا الاحتماء مع جميع أفراد أسرته بأصدقائه في قاعدة النكور (65) . وهناك تقرر أن يرحل للإقامة في تطوان ، وهي يومئذ ما تزال غير محتلة من طرف الجيش الإسباني ، ليستأنف بها من جديد المهمة التي لم يعد بإمكانه النهوض بها في

الريف .

كانت محنة قاسية بالنسبة له . فبدون موارد عدا معاش 75 بسيطة الذي يتقاضاه من اسبانيا ، فإن حالته ساءت وأدى به الأمر إلى أن ينحط إلى مرتبة السائل اللجوج. ففي غشت 1912 ، وجه إلى كوميز خردانه ، حاكم مليلية ، ملتمسا مثيرا للشفقة :

"إنها لغبطة لا ريب فيها أن يضحي المرء كما فعلت بكل ثروته في سبيل خدمة هذا البلد العظيم ، ألا وهو اسبانيا. إلا أنني أوجد مع ذلك في عوز كبير ، سيما وأن جميع المواد في تطوان غالية الثمن والمتطلبات كثيرة. وتراني مع عائلة بكاملها على كاهلي بينما لا يكفيني معاشي لوحدي. فهل هذا إذن جزائي عن مودتي الصادقة التي جعلتني منذ مدة طويلة أنحاز إلى قضيتكم ؟ مع ذلك فإنني أرى أعداء لم يقاسوا (ما قسيت) إلا أنهم يستفيدون من نعمكم ؟ إنني لم أعد سوى أضحوكة لمن هم أعداؤكم بقدر ما هم أعدائي. وعليه ، فإنني أتوسل إليكم في أن تنظروا في أمري" [66].

وقد صادف النداء أذنا سميعة ، حيث أن كوميز خردانه كتب في الحين إلى مدريد : "إن هذا الشيخ ليتمتع بصيت كبير ونفوذ كبير. حتى أن الفرنسيين حاولوا اجتذابه إليهم عارضين عليه 225 بسيطة معاشا شهريا. هذا فضلا عن أنه كان في جميع المناسبات مخلصا لقضيتنا بشكل راسخ ، على حساب ثروته ومصالحه" [67].

إثباتا لذلك ، تمكن من الحصول على 250 بسيطة عوض 75 [68]. وبعد بضعة أشهر منحت له ميدالية الاستحقاق العسكري مقرونة بمكافأة هي الأخرى شهرية تبلغ 75 بسيطة [69] . وبعبارة أخرى ، فإن الجانب الإسباني لم يتباخل عن مكافأة خدماته.

لنلاحظ مع ذلك أن الإسبان في نفس الوقت الذي اعترفوا فيه بتفانيه الراسخ ، كانوا يرمقون بعين شزراء الاتصالات التي كان يجريها معه في تطوان اما الفرنسيون [70] واما الألمان كما راجت الإشاعة بذلك [71] . كما قابلوا بالاستياء سماحه لابنه الصغير امحمد بالاختلاف إلى مدرسة الرابطة الإسرائيلية لتعلم الفرنسية [72] . وعلاوة على ذلك ، فقد لاحظوا بأنه عندما طابت له العودة للإقامة في النكور ، كان يطيل بها مقامة بدون سبب متصرفا تصرفات مشبوها فيها. وكانت الأسرار التي تسر إليه لا تلبث أن تتسرب. وحتى الأعيان كان يبدو أنهم يترددون في القدوم من القبائل وكأنهم يخشون أن تقع عيناه عليهم [73].

من المؤكد أن بعض الجوانب من الحقيقة كانت وراء هذه الشكوك. كيف نتصور أن نكبة عبد الكريم لم تزعزع ولو قليلا ثقته باسبانيا ، تلك الثقة التي كانت عمياء إلى

هذا الوقت ؟ لقد كشف عن نفسه بشكل متهور أمام الريفيين متأكدا من الحصانة التي سيضمنها له هؤلاء بعد نزولهم، فإذا بالارمادة المنتظرة تغيب عن الأنظار في اللحظة الحاسمة.

أما بخصوصه في القضية فقد خسر كل شيء، أملاكه وسمعته، بل ووجد نفسه تحت رحمة أولائك الذين انهارت فيهم ثقته. ولئن أصبح منذئذ مرغما على السير في ركابهم، بعدما كان في السابق هو الذي يقرر وحده ذلك، فإنه كان يتشوف في ظروف منفاه القاسية إلى الوسائل الكفيلة باسترجاع حريته ووضعيته السابقة. دون شك فإنه بعد تمكنه من ذلك سيواصل تعاونه مع اسبانيا، لأنه لم يعد هناك سبيل آخر. سيما وأن المغرب خضع بعد وقت وجيز من محنته للحماية والتقسيم بين الفرنسيين والإسبان. إلا أنه في هذه المرة سيتصرف بحكمة مع الحرص بوجه خاص على الاحتراز من العاصفة الشعبية. سيسلك إذن مسلكه الخاص به. أو قل بكلمة مختصرة إنه سيلعب على الحبلين. وهو ما كان عليه أن يقوم به دون أدنى انتظار، باعتبار أن المسألة الأكثر إلحاحا هي أن يتقبل الريفيون عودته.

وهكذا يتضح سلوك أصبح منذئذ ملتويا، لن ينفك يطمئن أصدقاءه الإسبان تارة ويقلقهم تارة أخرى. كان يحيطهم في الفترة التي تهمنا بكل ما يطرأ في تطوان التي كانوا يخططون لاحتلالها. ثم بعد الاحتلال، كان يسدي لهم نصائحه الوجيهة (74).

من جهة أخرى كان يغتنم كل فرصة ليثبت لهم أنه يساهم أيما مساهمة، وإن لم يكن حاضرا، في مشروعهم بالريف حيث كانت تحزنه انتكاساتهم عند الاقتضاء، وحيث كان على الخصوص يصفق لانتصاراتهم. ولكي لا نورد إلا مثالاً واحدا، إليكم ما كتب إلى الجنرال ألدافي (Aldave) عندما كان الريف قاطبة يبكي وفاة أمزيان:

"عرفنا بمزيد المسرة انتصاركم على الريفيين ومن كمال السعد عثوركم على زعيم الحركة أمزيان. بهاته المناسبة نهنئ لسعادتكم بهذا الفوز الباهر ونتمنى لكم دوام الترقي والنجاح وتمام السلامة والعافية لكم ولعائلتكم" (75).

إنها وثيقة من شأنها أن تخزي ذكراه لو أن دورنا كان يقوم على محاكمته. بيد أن الرجل نفسه، وفي الوقت عينه، كان يعمل على إعادة ربط الصلة بالريف حيث كانت استخباراته ترد لمساعدة المناضلين. بالطبع، فقد كان يحاول تبرئة ساحته ليحمل الريفيين على تقبل عودته.

ولئن توصل بدون عناء إلى تبديد الشكوك الإسبانية، فقد كان عليه أن يتحلى

بمزيد من الصبر والحذر لإخماد العداء الذي بقي متقدا ضده في الريف. في مارس 1913 ، أي بعد أكثر من سنة على فراره ، كان يرى أن ظهوره ثانية ما زال محفوفا بالأخطار بالنسبة إليه. صحيح أن الإسبان كانوا وقتئذ يفضلون استبقاءه بتطوان حيث يسدي لهم مؤقتا مزيدا من الخدمات (76) . إلا أن رأيهم ما لبث أن تغير بعدما استأنفوا مشروع إنزالهم بالجون في ماي 1913. وبالطبع ، فإنه لم يكن بوسعهم التفكير في هذا المشروع إلا بفضل تجدد نشاط حزبهم في المنطقة بعد سنة من وفاة أمزيان . فبالنسبة لهم كانت هذه الظروف تجعل عودة القاضي عبد الكريم ممكنة بقدر ما تجعلها محبذة. وعليه فقد جاءت المبادرة منهم. فعملوا على إعادة بناء بيته ، ثم حملوه على العودة إلى اليابسة رغم تحفظاته. ولدى اقترابه ، كان ما يزال يوجس في نفسه خيفة من أن يكون خصومه قد اجتذبوه إلى كمين (77) . إلا أن شيئا لم يحدث ، و ما لبث أن استعاد الثقة بالنفس . مع ذلك ، وبما أن الإسبان وقعوا في نفس الخطأ بالتخلي في آخر لحظة عن مشروع إنزالهم المقرر (78) ، فإنه رأى من الحكمة أن يلتزم أكثر من أي وقت مضى بنهجه الجديد : خدمة المشروع الإسباني بالطبع ، لكن مع إبقاء رجل هنا وأخرى هناك حتى لا يزل مرة أخرى. فما وجه الغرابة إذن لو تم بعد مدة وجيزة توزيع منشور بين القبائل بخط يده لإذكاء المقاومة ضد الإسبان ؟ لكن قبل أن يعلم أي شخص من هؤلاء تولى بنفسه إخبارهم. فأوضح بأنها مجرد مراوغة تمكنه ، بكسب ثقة الريفيين ، من خدمة الإسبان على هواه. إنه تعليل مقبول (79) . مع ذلك ، وبما أن نفس اللغة يمكن أن تستعمل كذلك مع الريفيين ، فمن كان بوسعه أن يقرر فيما إذا كان عبد الكريم القاضي عدوا أو صديقا صرفا ؟

* * *

إن مصاب والده ونكبات أسرته زاد من التقدير والثقة التي لم يفتأ محمد هو نفسه يكتسبها في مليلية. فقد تميزت السنتان التاليتان بالنسبة إليه بنجاحات شخصية وامتيازات تشريفية وترقيات يحسد عليها. "فلذكائه واجتهاده" في مهامه التربوية تراه بدءا يحصل على وسام من رتبة فارس في هيئة تتولى رئاستها – يا لها من سخرية – إيزابل الكاثوليكية (80) . وتراه بعد انصراف ثلاث سنوات ، في مارس 1912 ، يقلد هذه المرة وسام الاستحقاق العسكري لدوره الحاسم في إطلاق سراح أسرى اسبان لدى أمزيان (81) ، ثم يحصل في ماي 1913 ، ودائما في وسام الاستحقاق العسكري ، على ترقية تخوله حقا في المعاش (82) ، وهي في آن واحد مكافأة عن الخدمات التي أسداها بفضل علاقاته الطيبة مع القبائل الخاضعة وتعويض عن الخسائر التي لحقته مع والده.

أخيرا ، وفي نفس السنة ، جاءت ميدالية افريقيا في أكتوبر لتكرس كل نشاطه منذ انحيازه إلى جانب القضية الإسبانية [83] . ولعدم توافر الوقت ، فقد تخلى من ذي قبل عن مهامه التعليمية ، إلا أنه بالمقابل تقلد في غشت 1913 مهمة في منصب استحدث من أجله ، منصب القاضي الأول المختص بالنظر في القرارات الصادرة في المنطقة الإسبانية [84] . وإذا أضفنا أن شركة عقارية ببلباو اختارته كرجل أعمال لاقتناء الأراضي في الريف [85] ، فإننا نرى أن محمدا اكتسب مكانة مرموقة وأن كل شيء كان يحثه ، ضد المثل الأعلى الذي كان يهدف إليه في شبابه ، على أن يحتجن لا أقل ولا أكثر الامتيازات التي ما انفكت توفرها له علاقاته باسبانيا . سيما وأنه كان من اللازم وقد أناخت الحماية بكلكلها على بلاده بعد ذلك أن يستسلم ويتكيف بالتالي وفق وضعية كانت تبدو تسير لمدة طويلة في خط لا رجعة فيه. ولا شيء يدل على أن محمدا لم يستسلم في بعض اللحظات لليأس استسلامه للنزوة. فبما أنه لم يعد بإمكانه خدمة اسبانيا بأمل إنقاذ بلاده ، فإنه سيخدمها على الأقل لما فيه صالحه و صالح المغاربة القاطنين بالمنطقة التي ستستقر فيها .

لكن مهما كانت المبررات التي تمكن من أن يجدها لنفسه ، فإن طعم نجاحه لم يخل من مرارة بقدر ارتسامه وفق منحنى الرفض الذي كان يقابله به أصدقاؤه. فمهما كان المرء على حق ، فمن العسير عليه أن يكون وحيدا ضد الجميع وأن يتحمل عبء الازدراء العام . من كان بمقدوره أكثر من والده أن يتباهى بالتكريم الذي كان محاطا به ؟ لكن ها هو ذا وقد طرد طردا مخزيا بعد أن نهبت أملاكه. ولئن لم تكن الضربة قد أصابت محمدا هو نفسه ، فإنها كانت قاسية عليه وأعطته فكرة أكثر دقة عن حاجز كان يتوهم سهولة التغلب عليه . أما فيما يخص ثقته بتفوق القوة الإسبانية فقد خابت هي الأخرى بعد فشل مشروع الإنزال. ناهيك بأنه أصبح يشك حتى في مزية ومغزى المنجزات الإسبانية. فبعد سنوات طويلة من الاحتلال ، لم تظهر بين القبائل الخاضعة أية علامة من شأنهاأن تدل على التغيير المنشود. فلا مدرسة ولا ورشة عمل باستثناء بعض الأشغال العسكرية. وبدلا من تنظيم الحياة العمومية وفق روح عصرية ، فإنها تركت لغطرسة الضباط الصغار الذين كان عسفهم معروفا لدى الجميع [86] . وكان أبوه يوافيه أيضا من تطوان ، التي احتلت دون أدنى معركة ، بتظلمات السكان المضطهدين [87] . دون شك كان ينبغي مزيدا من التريث قبل إصدار أي حكم ، إلا أنه لا مفر من أن يلاحظ المرء بأن البداية لم تكن حسنة .

وهكذا ، عندما قدم في غضون صيف 1913 للسلام على والده الذي عاد أخيرا

من منفاه ، فإن محمدا كان مهيأ لينضم إلى وجهة نظر هذا الأخير الذي آلى على نفسه عدم خدمة الإسبان مستقبلا إلا على طريقته بنهج أسلوبه الخاص ، إلى حد أن الناس سمعوه بعد مدة وجيزة ، وفي الوقت الذي تم فيه تحضير مشروع إنزال جديد ، سمعوه يوصي فجأة إخوانه المشدوهين بالمقاومة وعدم تسليم بلادهم على الإطلاق (88) . كيف أمكنه اعتماد هذا الوعظ الجديد بينما كان هو نفسه يتأهب للعودة إلى مليلية ؟ ذلك يبقى من أسراره . إلا أنه يمكننا أن نكون متأكدين من أنه توصل إلى ذلك ، كما فعل والده ، على الأقل بما فيه الكفاية لإعادة ربط علاقات محتملة مع المناضلين .

وكانت النتيجة جد ثمينة إذا ما علمنا أن "أصدقاء اسبانيا" على الرغم من عودتهم بقوة لم يكونوا سادة الموقف . فقد ظل "المتعصبون" ، كما يسمون في المعسكر الإسباني ، قوة فاعلة وقادرة كل المقدرة على أن تثير على حين غرة الكتلة التي كانت ما تزال مترددة . وهكذا فقد نجحوا بعد شهرين ، أثناء إقامة محمد من جديد في القبيلة ، في التصويت على قرارات خطيرة : كل من ضبط متوجها إلى النكور ، سيعاقب بالموت ؛ كل من قتل من أجل الثأر ، منسفا بذلك الاتحاد الذي تحتاج إليه القبيلة ، سيعدم هو نفسه ؛ أما بالنسبة للمدفع المحتجز من الإسبان على سفينة كانت مشرفة على الغرق ، فسيبقى دائما جاهزا للاستعمال وعلى أهبة لإطلاق نيرانه (89) .

ضد اسبانيا التي ستستعمر البلاد إن عاجلا أو آجلا ، فقد كان من الواضح بالنسبة لمحمد أن هذا المدفع المصوب إنما هو تهديد تافه . ولكن ضد أولائك الذين يعيشون أو يقيمون في الغالب في القبيلة ، والذين عليهم ، كما هوالحال بالنسبة لعائلته وبالنسبة لــه ، أن يكونوا على اتصال بالإسبان ويحرضوا على التفرقة للتعجيل بمجرى الأحداث ، فإن القرارين الأولين كانا يكتسيان طابعا جديا في حالة ما إذا تأخر وقوع هذه الأحداث. كان بوسع الإسبان كما يطيب لهم أن يرجئوا نشاطهم ويتراجعوا ، كما فعلوا ، عن تنفيذ مشاريع إنزالهم الأول بعد الآخر. فبالنسبة لهم لم يكن هذا يؤدي إلى عواقب . إلا أن "أصدقاءهم" في اليابسة كانوا في وضع غير آمن باستمرار وينطوي مع الزمن على أخطار متزايدة (90) . ولئن كان اللعب على الحبلين الذي كان يقوم به كل من محمد ووالده يشكل ضمانة لهما ضد هذه الأخطار ، فإنه لم يكن ليحميهما مع ذلك إلى الأبد .

* * *

بعد عشرين شهرا من الركود في قطاع مليلية ، فكر الإسبان مع اكتمال سنة

1913 في القيام بقفزة جديدة لتأمين تغطية المواقع المعرضة كثيرا لنشاط الريفيين. في الحقيقة ، كان الأمر يتعلق بزحف حذر موجه نحو الجنوب لتجنب مجابهة مع مجموع القبائل. مع ذلك ، ورغم جميع الاحتياطات ، كان من المتوقع أن تتوافد قبائل الغرب إلى المعركة لو تدخل بنو ورياغل أنفسهم ، وهم نواة تكتلها ، واقتادوها ساعة مرورهم . وبما أن قبيلة بني ورياغل كانت بالذات هي قبيلة القاضي عبد الكريم ، فمن ذا الذي يمكن اختياره ليعمل هناك على خلق ظروف معاكسة للتدخل في القتال المرتقب ؟ وكانت النتيجة تفوق كل التقديرات. ففي كل فخذ من القبيلة ، نجح محمد بالفعل في استمالة مجموعة من الأعيان لصالح القضية الإسبانية ، وصل عددهم الإجمالي إلى 28 رجلا وضعوا أنفسهم تحت إمرة والده [91] . وبعد ذهابه ، في بداية 1914 ، جاء هذا المدد الكبير لمساعدة القاضي عبد الكريم في المهمة التي كان يجهد فيها نفسه منذ مدة طويلة والتي أتاح لنا فصل سابق فرصة التعرف على طبيعتها [92] . ذلك أنه كان هو بالذات الذي أشارت إليه شهادة العقيد ريكلمي المذكورة آنفا . فهو الذي ، بسوء استعمال وظائفه القضائية ، حال دون تسديد الغرامات التي كانت النزاعات عادة ما تهدأ عن طريقها في المنظومة القبلية. ومن ثم ضرورة الانتقام وما يتبعها من قتل وحروب لا يمكن التكفير عنها بين الأسر والمجموعات والأفخاذ : "إن القتل يتم من قرية إلى أخرى ولا تتمكن القبيلة مطلقا من التوصل إلى اتفاق لتلتحق بأولائك الذين يحاربوننا" [93] . وإذا ما كان المقاتلون يتمكنون مع ذلك من الاتفاق ، والاحتشاد للتوجه إلى كرت ، فإن القاضي عبد الكريم كان يوفد إليهم رجاله. ولكن ، كما شرح الجنرال خردانه بدوره : "من أجل زرع روح الهزيمة فيهم قبل أن يبدأ أي عمل ضدنا" [94] . يمكننا القول إذن بدون مبالغة إنه إذا كان الجنرال خردانه نفسه قد تمكن فيما بعد بأربع سنوات من إنجاز زحفه نحو الجنوب بأدنى ما يمكن من الخسائر ، فإن القاضي عبد الكريم وولده محمد لم يكونا غريبين عن هذا النجاح السار .

من جهة أخرى ، ولتأكيد هذا الحكم ، إليكم كيف قيم العقيد كاريكو، (Garrigo) ، في السنة التالية ، في تقرير سري حول محمد ، نشاط الحزب الذي أنشأه. فقد كتب يقول :

"لقد بقي هذا الحزب منظما زهاء سنتين. ومن بداية الفترة إلى نهايتها ، تمكن من التوصل إلى هذه النتيجة وهي أن أي حامية لم تقدم من الريف الغربي ، ولم يتم أبدا الإعلان عن التعبئة في بني ورياغل. ومن هنا التحول جد المحسوس لهذه القبيلة نحونا بعدما كانت تبدو لنا لا تقهر".

وهي نتيجة رددها حرفيا لصالحه قاضي التحقيق الكولونل سانث (SANZ) ، ولكنه زاد عليها بقوله :

"هذا ليس كل ما في الأمر. لأنه إلى جانب نشاط هذا الحزب ، ينبغي كذلك أن نأخذ بعين الاعتبار مفعول السياسة التمهيدية الهادفة إلى تمكيننا بدون إراقة دم من إخضاع القبيلة بالقوة" (95).

وهكذا ، وعلى الرغم من خيبة الأمل التي استولت على محمد ووالده ، فإنهما ما فتئا ظاهريا ، يستحقان كلاهما في هذا التاريخ ، 1915 ، امتنان الإسبان. مع ذلك ، وفي الساعة التي بقيا فيها معا بالتالي موضعا لمثل هذه التنويهات ، كانت اسبانيا قد قطعت مع الأب ، وكان محمد يوجد سرا في زنزانة إحدى القلاع. لقد اتهموهما في مليلية بالخيانة .

الهوامش

1) راجع أعلاه 110 - 111

2) تقرير العقيد موراليس Morales إلى الجنرال سلفستري بتاريخ 13 فبراير 1914 ، أورده :

Luis DE EZA :Mi responsabilidad en el desastre de Melilla como Ministro de la Guerra , Madrid , 1925 , p.323.

أما بالنسبة لهادي بن مسعود ، فإن أزرقان يذكر أنه هو الذي توجه باسم القبيلة ، غداة حملة ابن البغدادي ضد بقيوة سنة 1898 ، ليلتمس مساعدة قنصل فرنسا بوهران ("الظل الوريف في محاربة الريف" ، ص 10-11 من المخطوط).

3) راجع على وجه الخصوص وثيقة 30 ماي 1914 الموقعة من طرف ثلاثة منهم ، وحيث تعهد هؤلاء على البقاء يدا واحدة لمواصلة خدمة اسبانيا : "المصلحة التاريخية العسكرية بمدريد" ستكون الإحالة فيما يلي على الشكل التالي : .(S.H.M) وثائق مليلية ، مجموعة 1 ، ملف 7 ، وثيقة 57 ,Mel 1, 7, 57

راجع تقرير حاكم مليلية إلى الحاكم العام ، بتاريخ 29 يناير 1917 :

S.H.M. Mel. III, 9, 14,1917.

4) راجع تقرير 29 يناير 1917 المشار إليه في الهامش 3 .

5) راجع أعلاه (ص 113) الدور الذي لعبه الفرع المحلي للوزانيين في "مسألة القراصنة".

6) تقرير حول النشاط السياسي المنجز في الحسيمة بين 20 ماي -10 يونيو 1915 : S . H . M., Mel. II, 9 , 68

7) حول محمد أخمليش وخمالشة ، راجع :

E. LÉVI PROVENÇAL : Les influences religieuses au Rif et chez les Djbala de l'est,

مذكرة غير منشورة أعدت لإدارة الشؤون الأهلية لدى الإقامة العامة لفرنسا بالمغرب ، ص 12 و ما يليها ، يناير 1926 (وثائق الرباط ، غير مفهرسة)، راجع كذلك :

Robert MONTAGNE , Notice sur les Khemlalcha

المصلحة التاريخية للجيش بفرنسا بفانسين (سنرمز لها فيما يلي ب S.H.A) وثائق فاس ، مجموعة 156. راجع أيضا التقرير المذكور أعلاه ، الهامش 6 .

8) استقينا هذه المعلومات من المذكرة التي وضعها محمد بن عبد الكريم في بداية منفاه بجزيرة لارنيون والتي لم نتمكن من مراجعتها إلا من خلال الترجمة الفرنسية غير المنشورة تلك التي أنجزها المرحوم التهامي الزموري. سنشير إليها فيما يلي ب "مذكرة لارنيون"

9) Candido LOBERA : Abdelkrim el Khettabi a muerto, in "Telegrama del Rif" du 11 août 1920.

10) هذه الشائعة التي تم ترويجها في كل جهة تقريبا غداة حرب الريف ، أكدها من جديد دافيد هارت الذي زاد فنسب إلى فخذ آيت خطاب بكامله الادعاء بانتسابه إلى الخليفة عمر. بيد أنه أضاف :

"this claim...was.. very strongly supported by Abdelkrim himself"

(الفصل 15 من المخطوط الذي تفضل صاحبه بتسليمه لنا قبل نشره والذي استندنا إليه أعلاه ص 104، هامش11) وهذا ما أباح لدافيد وولمان (David S. Woolman) تبني نفس الرأي في كتابه الحديث :

Rebels in the Rif , Oxford University Press , London 1969 p. 75.

أما المارشال ليوطي فقد أعطى صورة أخرى عن هذا الادعاء : "بما أن التقاليد الدينية ما تزال تستوجب في المغرب أن يكون السلطان من نسب شريف ، فها هو ذا عبد الكريم ينتحل نسبا إدريسيا". تقرير الجنرال إلى الرئيس هريوت 20 دجنبر ("الوثائق الخاصة للرئيس بانلوفي" ، وثائق فرنسا ، مجموعة 3/205 ، وثيقة ملحقة برسالة 2403 المؤرخة في 21 دجنبر 1924 . هذه الوثائق (أوراق بانلوفي) سنرمز لها فيما يلي ب .P.P.

11) أزرقان ، مصدر سبق ذكره. ص 8 من المخطوط. والحقيقة أننا عثرنا بعد كتابة هذه السطور على وثيقة جديدة مكنتنا ليس فحسب من تأكيد شهادة أزرقان التي اعتمدنا عليها ، وإنما كذلك من أن نرجع إلى الوراء بإحدى عشرة سنة التاريخ المسجل هنا . ويتعلق الأمر برسالة مولاي الحسن الموجهة إلى "عبد الكريم بن محمد الورياغلي" المخاطب بالفقيه والقاضي. هذه الرسالة مؤرخة في 2 رجب 9/1300 ماي 1883 ، وزارة الشؤون الخارجية بفرنسا (A.E.P.) المغرب ، 520 ، 154.

12) وهو الاسم الذي يذيل به توقيعه في الوثائق التي تمكنا من قراءتها بخط يده.

13) أزرقان ، مصدر سبق ذكره ، ص 8 من المخطوط.

14) كانت هذا الحالة العامة. إلا أن ولده يؤكد هذا بالنسبة إليه بشكل خاص في "مذكرات لارنيون" حيث يقول : "كم من مرة وجه نصائح إلى السلطان وإلى عمال مختلف الأقاليم" . بل ويقول محمد إن والده كلف من طرف مولاي عبد العزيز بمراقبة نشاط قواد بني ورياغل وانه أصبح "رجل ثقة السلطان في الريف". "مذكرة لارنيون" ، فصل : "والدنا سيدي عبد الكريم". كما أننا عثرنا بعد كتابة هذه السطور على وثائق تؤكد هذه الأقوال ولو أنها خففت قليلا من غلوها. وثمة على الخصوص ظهير عزيزي بتاريخ 20 حجة 4/1324 فبراير 1907 يعين عبد الكريم "أمينا" أي أنه يوليه ثقة السلطان ليكون واسطة بين قبيلة ورياغل والسلطة :

A.E.P. Maroc 520 , 4.

تنبغي الإشارة إلى أن هذا الظهير يرجع إلى الأشهر الأخيرة التي سبقت سقوط عبد العزيز.

15) ملتمس قدمه محمد بن عبد الكريم لتعويض والده عما أتلف له من أملاك :

S. H. M. , Mel . II , 2 , 216.

16) محضر جلسة مجلس أيت خطاب الذي قام في 11 يونيو 1907 بتأسيس سوق الأربعاء. نقله اميليو ازاكا في كتابة المذكور أنفا ، ص 99 :

Los Canones Rifeños comentados doc. n° 7 .

17) "عندما بلغنا سن العشرين ، أرسلنا والدنا إلى فاس حيث تمكنا خلال سنتين من متابعة دروسنا التكميلية بجامعة القرويين على يد مختلف الأساتذة خاصة منهم المرحوم الشريف سيدي محمد القادري والمرحوم سيدي التهامي كنون :"مذكرة لارنيون" ، فصل : طفولتي وشبابي.

18) محمد بن عبد الكريم : "لقد رأيناه حينئذ يهمل شؤونه الخاصة ويضحي بثروته الشخصية ويكرس جميع جهوده للقضاء على الانشقاق. ونعرف المصير النهائي الذي لقيه الثائر بعد انهزامه على أرض بني ورياغل" . فصل "والدنا سيدي عبد الكريم".

19) "El fakih Abdelkrim el Jatabi que capitaneaba el llamado partido españolista y, por lo tanto, se inclinaba a la paz, ahora no se mostraba fuera de la casa y procuraba pasar desapercibido" Eduardo MALDONADO : EL Rogui, Instituto General Franco, Tétouan , s.d. p. 427.

19 مكرر) حول هذا السلوك الانتهازي للقاضي عبد الكريم ، تساعدنا وثيقة جديدة في حوزتنا على تجاوز التخمينات . فمن رسالة وجهها إليه السلطان عبد الحفيظ في 5 حجة 29/1326 دجنبر 1908 ، نعلم بالفعل أنه اضطر إلى تقديم تقرير أمام إخوانه عن موقفه وأنه فرضت عليه عقوبة على شكل غرامة : .A.E.P. Maroc 520, 100

20) "بيد أنه.. كان يرى بوضوح أن الدولة في المغرب..أدركت مرحلة الشيخوخة والهرم وأن التدخل الأجنبي بات فيها محتما. وقد قادت هذه الرؤية والدنا..إلى الاهتمام بمستقبل هذه المنطقة (الريف) بالنسبة للدولة الأوربية المنتدبة من قبل الدول الأخرى لإدخال الإصلاحات فيها وفق المعاهدات التي نعرف". "مذكرة لارنيون" ، مصدر سبق ذكره.

21) هكذا كان أندري سانشيث بريث بريث يسمي الأولين :

"Selección de conferencias y trabajos realizados por la Academia de Interventores durante el curso 1949-50" , Imprenta del Majzen, Tétouan, 1950.

أما بالنسبة لمسعود بنحيم ، فيشار إليه في الوثائق ب "صديق كبير لسيدي عبد الكريم"

(gran amigo de Sidi Abdelkrim)

راجع خاصة : S.H.M. Mel, I, 7, 38.

S.H.M.,Mel,,I,4, 19 (22

23) يخبرنا أزرقان (مصدر سابق ، ص 13 من المخطوط) عن الجانب الذي كان دي مرين يؤثر في اتجاهه على القاضي عبد الكريم : "يا صديقي العزيز ، إذا كانت لي من نصيحة غالية إليك ، فهي أن تختار ما يؤمن مستقبلك ومستقبل أولادك. ستحدث في البلاد تحولات كبيرة". ويضيف المؤلف : "نبهه إلى المشاكل السياسية" . وهو ما ساهم في القرار الذي اتخذه بإرسال ولديه (إلى مليلية) لتعلم اللغة (الإسبانية) وربط علاقات مع السلطات الإسبانية (ترجم عن النص العربي. باستثناء بعض البيانات المخالفة ، فإن الترجمة الفرنسية للنصوص والوثائق العربية والانجليزية والإسبانية هي من وضع المؤلف). [نصوص "التلغرامة" الواردة في هذا الفصل نقلت من أصلها العربي : المترجمان] . ويتحدث سانشيث (مصدر سابق) عن مترجم يدعى فرنسسكو مرتين ، لامرين . وهذا خطأ. فباستنطاق الوثائق العسكرية ، نجد أن ثمة مترجمين عملا في قطاع مليلية في نفس الحقبة . أحدهما هو فرانسسكو مرين ، صديق القاضي عبد الكريم ، والآخر دومنكو مرتين. ومن هنا الخلط الذي وقع فيه سانشيث برث بريث . وقد ساعدنا على توضيح هذه المسألة الكولونيل رامون سانشيث دياث (Ramón Sánchez Díaz) من إدارة المصلحة التاريخية بمدريد.

24) الفصلان الأول والثالث من العقد العام لمؤتمر الجزيرة الخضراء .

25) راجع أعلاه (ص 21) العناصر التي مكنتنا من إثبات هذا التاريخ. ننبه القارئ أولا وأخيرا إلى أن الأحداث والتواريخ التي أوردناها أعلاه تستند فيما عدا بعض الاستثناءات إلى فحص نقدي للوثائق ، الشيء الذي سيغنينا عن مناقشة العدد الكبير من الروايات المختلفة التي أعطيت عن هذه الأحداث مع اختلافات مستمرة في تحديد تواريخها.

26) نقرأ في "مذكرة لارنيون" : "لا أرى من الحكمة والفطنة مساعدة اسبانيا في المهام التي أنيطت بها تطبيقا لمقررات الجزيرة الخضراء... إلا أن هذا الموقف جلب عليه أسوأ المتاعب بالنظر إلى أن الريفيين لم يفهموا شيئا من العقد الدولي". فصل "والدي سيدي عبد الكريم". وأيضا :"لم يكن والدنا يرى مصلحة مواطنيه في مقاومة الإسبان وإنما في الخضوع للحماية. وبالنظر إلى الأمور على هذا النحو ، فإنه قدم خدمة كبيرة للإسبان بمقدار ما كان نشاطه يحول دون اتحاد الريفيين من أجل مقاومة مسلحة". فصل "نشاط والدنا في الحرب مع اسبانيا".

27) S.H.M. Mel., III, 3, document du 9.11.1907

28) يرجع أزرقان (مصدر سابق ، ص 85 من المخطوط) تاريخ ازدياده إلى 1304 من الهجرة أي بين 30 شتنبر 1886 و 18 شتنبر 1887. إلا أنه أورد هذا التاريخ اعتمادا على الذاكرة ، وكثيرا ما أخطأ في مثل هذه الحالة. أما ليون كبريال Léon GA-BRIELLI الذي كان مكلفا بجمع المعلومات عن الريف وزعمائه لحساب سلطات الحماية الفرنسية فإنه يرجع تاريخ ازدياده إلى حوالي 1883 :

(Abdelkrim et les événements du Rif, Casablanca, 1953 p. 42.)

وقد أخبرنا إدريس الخطابي ، ابن محمد بن عبد الكريم ، أن عائلته تجهل تاريخ ازدياده بالتدقيق إلا أنها ترجعه إلى 1882. انظر كذلك أعلاه ص 31.

29) أندري سانشيث بريث في المحاضرة المذكورة سابقا هـ 21.

30) يخبر (أزرقان انظر أعلاه هـ 23) أن القاضي عبد الكريم أرسل ولديه إلى مليلية "لتعلم اللغة" ، أي اللغة الإسبانية. ويخبر محمد نفسه بأنه "حاول" في مليلية تعلم الإسبانية (مذكرة لارنيون ، فصل دخولي إلى الإدارة الإسبانية).

31) في "مذكرة لارنيون" يخبرنا محمد بأنه توجه في سن العشرين للدراسة بفاس حيث بقي هناك سنتين (فصل طفولتي وشبابي). وبإرجاع تاريخ ازدياده إلى سنة 1882 ، فإن هذا يرجع تاريخ دراسته إلى سنوات 1902-1904. بالطبع ، إذا قبلنا تاريخ ازدياده الذي يعطيه أزرقان أي 1887 ، فإن هذا سيفضي بنا إلى سنتي 1907-1909. وهو أمر مستحيل لأن محمدا كان في نهاية 1907 ، قد وصل آنفا إلى مليلية. من جهة أخرى ، يخبرنا محمد كذلك بأنه بعد سنتين من انتهاء دراساته ، عاد إلى فاس مكلفا من قبل والده ب "مهمة سياسية متعلقة بالثائر الزرهوني". وبقبول التاريخ الذي يقدمه أزرقان ، فسيكون علينا أن نرجع هذه المهمة إلى سنة 1911 ، وهو التاريخ الذي كان فيه الزرهوني قد اختفى منذ مدة طويلة. على أن هذا يؤكد اختيارنا لسنة 1882 كتاريخ لازدياده.

32) سنرى في بقية هذا الفصل كيف أخذت هذه الرؤية العامة دلالتها بقلم محمد نفسه.

33) "كنت في هذا العهد ممتلئا حماسا وأملا. لذا فإنني لم أتنبأ إلا بالخير العظيم لمشروع المدرسة هذا البالغ الأهمية والذي كان يمثل في عيني النشاط الوحيد الذي يليق بالأمم المتمدنة تجاه الناس وأشرف وسيلة لنيل العطف والتقدير، بشكل يعمل على نشر الوفاق ، وعلى تشجيع الصداقة بين الأمم وتقارب الشعوب .. إلخ". لم نتمكن من إثبات تاريخ دخول محمد إلى مدرسة مليلية على وجه الضبط ويكتفي

هو نفسه بالقول : "عينت مدرسا قبيل 1809" ، المصدر نفسه. ويتضح من حالة خدماته التي تمكنا من العثور عليها (S.H.M Mel, II, 9, 37) أنه "زاول مهمة الأستاذ المساعد بمدرسة التعليم الابتدائي في يوليوز 1907". إلا ان هذه الإشارة من سوء الطالع غير صحيحة لأن التاريخ كان جد متأخر. وبالفعل ، وعلاوة على أنه لا يمكننا أن نتصور كيف يمكن لمدرسة أن تفتح أبوابها في شهر يوليوز ، فقد عثرنا على وثيقة (S.H.M Mel. II, 8, 64) تدل حرفيا على أن الأستاذ "المورو" السي محمد بن عبد الكريم من مدرسة الأهالي طلب في 17 يوليوز بالضبط إجازة التوجه إلى قبيلته". كيف أمكنه أن يأخذ إجازة في نفس المدة التي التحق فيها بوظيفته ؟ علينا ان نعتبر أنه بدأ في بداية السنة المدرسية التي كانت تنصرم وقتئذ ، أي حوالي اكتوبر 1906 ، أو في الأشهر الأولى من 1907 ، وهو التاريخ الذي نحن فيه متأكدون بأنه كان في مليلية. انظر أسفله هـ 35.

34) انظر ص 182من هذا الفصل.

35) أول مقال من هذه المقالات التي ذكرناها – يرجع تاريخها إلى مارس 1907. إن مسألة هذه المساهمة في "التلغرامة" طرحت علينا مشكلة. لقد أشار إلى هذه المساهمة كثير من المؤلفين ولكن بتلميحات جد غامضة أو جد متباينة من حيث الدقة مما يحق لنا أن نعتبر أن الأمر يتعلق بأسطورة. وبالتالي فقد بحثنا وعثرنا في مليلية من حسن الحظ على المجموعة الكاملة للجريدة. وهي لا تشتمل بالفعل على "صفحة عربية" كما كتب ، ولكن على مقال يومي في الصفحة الأولى ذي مقطع متغير. وهذا فيما بين مارس 1907 وأبريل 1915 ، أي لمدة ثماني سنوات. بيد أن أي مقال من هذه المقالات لم يكن موقعا. فما الذي يسمح لنا بإسنادها إلى محمد بن عبد الكريم ؟ من جهة أخرى فإن لها حسب الأوقات نغمتين متنافرتين إلى حد أن البادرة الأولى كانت هي الاستنتاج بتعاقب محررين على الأقل . في هذه الحالة ، وإذا كان أحدهما هو ابن عبد الكريم ، فأيهما يمكننا اختياره ؟ هذه الأسئلة لم تتضح إلا تدريجيا. في 1970 سلمت لنا صديقتنا المؤرخة السوفياتية Nathalie Loutskaia محضر جلسة المقابلات التي أجرتها مع ابن عبد الكريم في القاهرة عام 1958. وقد أكد لها وقتئذ هذا الأخير دون تحفظ أنه كان محررا في القسم العربي من "التلغرامة". ولكن حتى بالنسبة لشهادة من هذا الوزن فإنها تبقى شهادة شفوية ومتأخرة . فكان أن وقفنا في "التلغرامة" نفسها على الشهادة المكتوبة والمعاصرة لمدير الصحيفة وهولوبرا . فقد كتب هذا الأخير في مقال خاص بالوفيات ، مخصص في 11 غشت 1920 للقاضي عبد الكريم ، والد محمد : "الابن الأكبر لعبد الكريم [محمد] شغل في مليلية مهام هامة. فقد كان القاضي الأول في "مكتب الشؤون الأهلية" والمحرر العربي ل "تلغرامة الريف". إن هذه الشهادة الحقيقية لتزيل الشك بصفة نهائية. لقد كان محررا ، ولا شيء يحمل على الاعتقاد من خلال تعبير لوبرا بأنه كان مجرد "أحد المحررين". أخيرا ، فإن النقد الداخلي لمختلف المقالات مكننا تماما من هدم الفرضية المتعلقة بثنائية المحررين بأن أبرز الخيط الرابط بين المراحل المتعاقبة لنفس التطور. على أن هذه النتيجة لم يتسن الحصول عليها إلا بفضل مصاعب أخرى. انظر أسفله هـ 58.

36) "تلغرامة الريف" عدد 1 نونبر 1907.

37) انظر أعلاه ص 131 .

38) راجع جرمان عياش . "الشعور الوطني في مغرب القرن 19".

39) انظر أعلاه ص 132.

40) نص هذه البيعة منشور لدى ابن زيدان. "إتحاف أعلام الناس بجمال وأخبار حاضرة مكناس" الرباط 1939 ، مجلد 1 ، ص 449 وما يليها .

41) للأسف أصبحت اليوم المجموعة المحدودة من "لسان المغرب" مفقودة. أما هذا النص الفريد فقد أعيد نشره في جريدة حزب الوحدة والاستقلال الصادرة بتطوان على عهد الحماية. ثم نقله ثانية الباقر الكتاني في مؤلفه المخصص لترجمة حياة والده محمد الكتاني : "الشيخ محمد الكتاني الشهيد" ، بدون ذكر الناشر (الرباط دون شك) ، 1962 ، ص 205–206. بيد أن تاريخ هذا المقال الهام لم يوقع من طرف ناشريه ، ويمكن القول فقط انه سابق ل 19 يوليوز 1908 ، وهو تاريخ الإعلان عن الدستور التركي المشار إليه هنا .

42) الكتاب المذكور في الهامش 41 لصاحبه الباقر الكتاني يعد مصدرا هاما لمعرفة الحركة السياسية التي كان والد هذا المؤلف ، محمد الكتاني ، المحرض عليها.

43) يخبرنا في "مذكرة لارنيون" بأنه لم يوفق كثيرا في تعلمه الإسبانية ، ثم يضيف قائلا : "اللهم أنه كان بإمكاني التحدث بها لحاجاتي الخاصة". هذا وقد عثرنا على رسالة طويلة بالإسبانية بخط يده في العصر ، تناقض تماما هذا الحكم المعاكس :

(S.H.M., Mel. II , 8 , 28 du 23 février 1919).

44) انظر اعلاه ص (138)

45) بعد ثلاث عشرة سنة ، عندما كان في عزشبابه ، وبعد مسيرة تميزت بنجاحات مستمرة ، وبعد مضي سنة على زعامته لحرب الريف ، كان ما يزال يحافظ على الزي نفسه وعلى هيئته المتواضعة ونظرته الحادة. وفي هذا التاريخ ، التقطت له بالفعل أحسن القطان من الصور النادرة التي لنا عنه في هذا العصر. التقطها المصور لويس دي أوطيثة Luis de Oteyza

مصور جريدة"Libertad" المدريدية.

46) حسب قائمة خدماته ، فقد تقلد وظيفته الكاتب المترجم في اكتوبر 1910 ، إلا أن هذا خطأ مطبعي أخر. (انظر أعلاه هـ 33) . وبالفعل ، وحسب نفس قائمة الخدمات ، فقد كان تخلى عن هذه الوظيفة في يونيو 1910 ، وعين قاضيا في نفس التاريخ المشار إليه المرة الثانية. هذا التاريخ المذكور مرتين بنفس الكيفية لا يمكنه إذن أن يكون هو التاريخ الذي وقع نقله خطأ. فنستنتج أنه تقلد وظيفته ككاتب مترجم قبل يونيو 1910 حتى يتسنى له الوقت الكافي لنيل تقدير رؤسائه .

47) جواب قيادة مليلية على طلب التحقيق الذي تقدم به المقيم العام بتطوان في تاريخ 14 غشت 1915.

48) تشير الوثيقة المذكورة في الهامش 47 إلى أن الطلب قدم "منذ خمس سنوات" ، على أن الوثيقة مؤرخة في غشت 1914.

49) "تلغرامة" 1910.10.14.

50) S.H.M. Mel., I , 5 , 7

مذكرة بتاريخ 1 اكتوبر 1912 ، تنص على مزيد من التحقيق بصدد طلب التجنس للقاضي عبد الكريم .

51) انظر اعلاه ص 139 - 140 و 141 - 142

52) انظر اعلاه الهامش 46

53) "تلغرامة" 12 اكتوبر 1910 .

54) "تلغرامة" 4 اكتوبر.

55) "تلغرامة" 11 اكتوبر 1910 .

56) راجع رواية وتحليل هذه الحوادث في : Jean - Claude ALLAIN : Agadir 1911, Publications de la Sorbonne, Paris, 1976, ch. 8.

57) جان كلود الان ، مرجع سابق ، ص 10 .

58) إن ما ساهم في إضعاف تأثير هذا الصوت أنه كان يصل عبر مقالات يتم طبعها بشكل رديئ تماما. فقد كانت تسند إلى طبيع اسباني يجهل مطلقا معنى النص العربي ، فيخل بذلك بترتيب النسخة ويخلط السطور ساعة التركيب. والنتيجة أن بعض المقالات ، وهي في الغالب الأكثر طولا وأهمية ، تخرج بعد طبعها على شكل لحم مفروم حقيقي. فكان يلزم صبر أيوب للتحقق من الفكرة الأصلية وإعادة إنشاء المفاصل.

59) "السعادة" ، راجع أعلاه ص 170 .

60) "جريدة فرنسا بالمغرب" ، "التلغرامة" ، عدد 11 يوليوز 1911

61) "التلغرامة" 26 يوليوز 1911.

62) "التلغرامة" 27 يوليوز 1911.

63) "التلغرامة" 29 يوليوز 1911.

64) انظر اعلاه ص143 - 144

65) خلال إدلائه بشهادته سنة 1923 أمام اللجنة البرلمانية المكلفة بالتحقيق في مسؤوليات هزيمة أنوال ، قام العقيد ركلمي بعرض هـذه الأحداث على الشكل التالي : ذات مرة ، وقد يكون ذلك سنة 1912 أو 1913.. تم إلغاء مشروع إنزال قبل تنفيذه ب 48 ساعة . وبالنظر إلى أن عملاءنا في اليابسة كانوا متورطين في القضية ، خاصة منهم عملاء أجدير ، وقبل الجميع والد عبد الكريم باعتبار تورطه بصفة أخص بتسليمه رهائن إلى الجزيرة ، وبالنظر أيضا إلى أن السر ذاع بعد أن تم التراجع عن العملية وعلم الجميع

بما كان مدبرا ، فإن عبد الكريم اضطر إلى الالتجاء إلى الجزيرة بجميع أفراد أسرته بينما قتل بعض أقاربه وخرب منزله ، وقد لحقه ضرر عظيم بسبب قضيتنا" :

De Anual a la República : Documentos relacionados con la información instruida por la llamada "Comisión de responsabilidades" acerca del desastre de Anual, Madrid, Javier Morata, 1936, p. 117.

وواضح بلا ريب أن العقيد ركلمي يعني في الواقع بوالد عبد الكريم والد من ما زال مجرد محمد بالنسبة لنا . وبعبارة أخرى القاضي عبد الكريم . وبإدلائه بدوره بشهادته أمام اللجنة نفسها ، فإن الجنرال Damaso Berenguer المقيم العام السابق والقائد الأعلى ، قدم نفس الرواية إلا أنه أرخها بشكل أدق في 1911 موضحا أن عدد الرهائن (وهم أطفال) يبلغ زهاء 30. نفسه ، ص 328. أخيرا ، فإن تاريخ 6 نوفمبر 1911 كتاريخ لإحراق أملاك القاضي عبد الكريم يعطيه لنا :

66) Carlos HERNANDEZ HERRERA et Tomás GARCIA FIGUERAS dans Acción de España en Marruecos, Madrid, 1929, t. I, p. 141.

66) رسالة بالعربية موجهة من تطوان بتاريخ 16 غشت 1912 :

S . H . M., Mel., 3 .

67) رسالة من حاكم مليلية إلى وزارة الدولة بتاريخ 28 غشت 1912 :

S . H . Mel., 1 , 2 .

68) الرسالة نفسها .

69) أمر ملكي بتاريخ 21 ماي 1913 : S . H . Mel., I , 6 , 13

70) انظر أعلاه رسالة كومز خوردانة التي تشير إلى محاولة الفرنسيين ، سواء أكانت ثابتة أو لم تكن ، الرامية إلى جذب القاضي عبد الكريم إلى قضيتهم .

71) رسالة من حاكم مليلية إلى الجنرال الفو (Alfau) ، الحاكم العسكري بتطوان ، بتاريخ 22 مارس 1913 ، المطالبة ، بتمحيص الأخبار الواردة حول الاتصالات المحتملة بتطوان بين القاضي عبد الكريم وممثلي شركة مانزمان Mannesmann :

S . H . M., Mel . I , 6 , 7

72) « مذكرة لارينون » فصل : « مقام أخينا بتطوان . » . وقد اضطر الأب إلى إخراج محمد (بالفتح) من المدرسة . ويبدو أن هذه الواقعة كانت، بعد سنتين . من وراء الاتهامات التي وضعت محمداً بنفسه بأنه «محمي فرنسي» ؛ رسالة المقيم العام إلى قائد مليلية ، بتاريخ 27 فبراير 1915 ، وجواب هذا الأخير بتاريخ 6 أبريل 1915 : . S . H . M . Mel., II ', 8

نقرأ في جواب حاكم مليلية : «المرة الوحيدة التي اتصل فيها بالفرنسيين [يتعلق الأمر بمحمد بن عبد الكريم] ، حدثت عندما كان أخوه الأصغر ... يحضر في الدروس الفرنسية بمدرسة الرابطة الاسرائيلية بتطوان أثناء عطلة فصل الصيف » .

73) رسالة حاكم الحسيمة (النكور) إلى حاكم مليلية ، بتاريخ 10 يناير 1913 ، : S . H . M ., Mel., I , 6

74) الرسالة السابقة الذكر ، الموجهة من حاكم الحسيمة (النكور) إلى حاكم مليلية ، 10 يناير ، 1913 (هـ 73) ، والرسالة الجوابية بتاريخ 26 مارس 1913 : S . H . M ., Mel., I , 6 , 47

75) رسالة بالعربية : , S . H . M ., Mel , I , 3 , 16

76) الرسالة السابقة الذكر ، الموجهة من حاكم مليلية إلى حاكم الحسيمة (النكور) ، 26 مارس 1913 (هـ 74) .

77) برقية من حاكم الحسيمة (النكور) إلى حاكم مليلية ، وهي غير مؤرخة ، إلا أنها تجد ما يزكيها في رسالة تلقتها مليلية بتاريخ 24 ماي 1913 : S . H . M ., Mel ., I , 6 , 6 . et 49

78) تعوزنا المعلومات حول مشروع الإنزال الثاني هذا . لا نعثر ، هنا وهناك ، إلا على تلميحات تشير إليه ، بعد مدة طويلة ، وبصورة غير دقيقة . بيد أنه توجد إشارة دقيقة وموثوق بها باعتبار أنها صادرة عن قائد قاعدة النكور ، العقيد كافيلا . ففي شهادة أدلى بها أمام قاضي التحقيق العسكري ، تثبت هذه العبارات : «منذ سنتين ونصف ، عندما تم التخطيط للإنزال ...» (شهادة أدلى بها أمام قاضي

التحقيق الكولونيل لوبز سانز Lopez Sanz بتاريخ 5 نوفمبر 1915 :

S . H . M ., Mel ., II . 12 , 32 à 38 .

وبما أن الشهادة المذكورة ترجع إلى نوفمبر 1915 ، فإن « المشروع » ، أو قل قرار انجاز عملية الإنزال ، يرجع إذن إلى ماي 1913 كان كافيلا وقتها بمركزه بالنكور ، وكان ما يزال فيه ساعة الإدلاء بشهادته . فلا يمكننا بالتالي الشك في روايته . أما فيما يخص بالتاريخ المقرر لعملية الانزال ذاتها ، فيقع على الأرجح بين يونيو وغشت و هي فترة مناسبة جدا . [نعرف الآن أن عملية الإنزال تقرر بالضبط في يومي 14 و 15 يونيو 1913 ، وأنه الغي في 9 يونيو . هذا التأكيد ، وهذا التوضيح الإضافي زودنا بهما كتاب الجنرال كومز خوردانة ، ابن المقيم العام الذي يحمل نفس الاسم ، والذي كان وقتها قد شارك مباشرة في تحضير خطة العملية المذكورة :

Teniente General Francisco Gómez- JORDANA SOUZA : La tramoya de nuestra actuación en Marruecos, Editoria nacional, Madrid, 1976, pp . 28 et 99-100]

79) برقية من حاكم الحسيمة (النكور) إلى حاكم مليلية ، بتاريخ 28 غشت 1913 : S . H . M ., Mel , 7 , 6 , 14.

80) لائحة خدمات السي محمد بن عبد الكريم الخطابي المعدة في 30 أكتوبر 1915 لفائدة الكولونيل لوبز سانز ، قاضي التحقيق العسكري : S. H. M., Mel., II , 9 , 27 à 40 .

81) المصدر نفسه .

82) المصدر نفسه ، والأمر الملكي بتاريخ 21 ماي 1913 :

S . H . M .Mel., 6 , 5 .

83) لائحة الخدمات السابقة الذكر.

84) لائحة الخدمات السابقة الذكر ، تشير إلى 11 فبراير 1914 كتاريخ لصدور الظهير الذي رقاه إلى رتبة " قاضي فرخانة ، مع اختصاص النظر في الأحكام التي يصدرها القضاة الآخرون في المناطق [غير المحتلة] بناء على دعوة من أحد الطرفين المعنيين " . في الحقيقة ، إذا كان الظهير يحمل حقا التاريخ المشار إليه ، وهو ما نجهله ، فقد صدر بعد عدة أشهر من تسلم القاضي الجديد وظيفته . توجد بالفعل ، رسالة بالعربية من القاضي عبد الكريم ، الوالد ، إلى الجنرال خوردانة ، بتاريخ 23 غشت 1913 ، يشكره فيها لأن الخير وافاه ، كما يقول ، بترقية ولده وتعيينه « من طرفكم في وظيفة قاضي مليلية » :

S . H . M ., Mel ., I , 3 , 37 .

85) برقية من حاكم الحسيمة (النكور) إلى حاكم مليلية (S. H . M., Mel., II , 2 , 138)

وهذه البرقية غير مؤرخة إلا أنها تجيب على السؤال الذي طرحته مليلية فيما إذا كان السي محمد قد توسط في شراء الأراضي لفائدة الألمان أو لفائدة الفرنسيين . هذا ما يرجع بنا إلى شتنبر 1915 ، عندما سيخضع محمد ، كما سنرى ، لتحقيق قضائي . وحيث إنه تم العثور لديه في هذا التاريخ على حوالي 300 رسالة تتعلق بعمليات شراء الأراضي ، فمن الواضح أن هذه المراسلات امتدت ، على الأقل ، على مدى سنتين أو ثلاث سنوات ، وبالتالي ابتداء من 1912 أو 1913 على أبعد تقدير . لنلاحظ أن البرقية المذكورة تنفي بكل وضوح تدخل محمد في عمليات شراء الأراضي لفائدة الألمان أو الفرنسيين . وهذا ما يدحض تماما ادعاء روجته على نطاق واسع المصالح الفرنسية فيما يخص تفانيه في خدمته شركة مانزمان الألمانية .

86) سيقول في «مذكرة لارينيون» ، بعد أن يذكر بمدى الأمل والحماس الذين انتاباه من جراء مشروع فتح مدارس من طرف الاسبان : " إلا أن أملي ضعف تدريجيا ، لأن الحكومة ، بدلا من أن تظهر كل التشبث اللازم بهذا المشروع الهام ، فضلت عليه وسائل أخرى : وهي وسائل العنف » . (دخولي في الإدارة السبانية) . بعد سنة من هذا التاريخ ، سينساق إلى القول لضابط اسباني ، في فورة غضب ، إنه لا يتمنى أن تتعرض قبيلته للاحتلال « لأنه يرى جيدا كيف يتصرف الاسبان في القبائل التي تم احتلالها » (تصريح النقيب سست ، 15 غشت 1915 : S . H . M ., Mel ., II , 9 ,)

87) «مذكرة لارينيون» : فصل : والدنا بتطوان .

88) شهادة حاكم الحسيمة (النكور) ، العقيد كافيلا ، أمام قاضي التحقيق ، العقيد لوبز سانز في نوفمبر 1915 : « منذ سنتين ونصف [ماي - يونيو] ، عندما تم التخطيط لعملية الإنزال ، قدم القاضي [محمد] إلى الحسيمة ، إلا أن المصرح اضطر إلى أن يطلب من الجنرال إرجاعه إلى مليلية ، لأنه علم حسب ما توصل به من أخبار - وهذا ما كان كل واحد يتحدث عنه على أية حال - أن القاضي يحرض الريفيين على إقامة حرس للوقوف ضد الزحف الإسباني . منذ هذا التاريخ ، لم يعد المصرح يومن بإخلاص هذا الموظف» :

S . H . M ., Mcl , II , 12 , 32 à 38.

89) تقرير محمد ، لدى عودته من إجازته باجدير ، بتاريخ 18 نونبر 1913 :

S . H . M ., Mel., II, 2 , 132 .

90) سنعود إلى الحديث عن ذلك فيما بعد .

91) مذكرتان متعلقتان بالمهمة التي أنيطت بالقاضي محمد بالتوجه لتشكيل حزب إسباني في «الريف الغربي» ، إحداهما بتاريخ 27 ، والأخرى بتاريخ 31 يناير 1914 :

S . H . M., Mcl., I . 9 .

وكذلك :

Mcl ., II , 2 , 148

وأيضا لائحة خدمات محمد ، بتاريخ 30 أكتوبر 1915 :

S . H . M ., Mel., 9 , 37 à 40

92) المصدر نفسه .

93) نفسه

94) نفسه

95) لائحة خدمات القاضي محمد المذكورة في الهامش 91 .

الخلاف مع اسبانيا

على الرغم من أن الريف كان يعيش في عزلة كبيرة عن العالم ، فإن أصداء الحرب الأوربية ملأت دياره حماسا وتوثبا منذ الأسابيع الأولى من بدايتها. فقد ترامت إليه الأنباء باكرا بأن فرنسا التي تعد وحدها صاحبة السيادة الحقيقية في المغرب تعرضت هي نفسها للغزو وكتبت لها الهزيمة في أرجح الظن (1) . بناء على ذلك بات من المتوقع أن ترخي قبضتها على البلاد. ألم يكن يقال من يومئذ انها اضطرت إلى الجلاء عن تازة وعن جهات أخرى (2) . أما إذا ما انسحبت فرنسا بالفعل ، فأي شأن سيكون للإسبان حتى في الحالة جد المحتملة من بقائهم هم أنفسهم في الحياد من المواجهة الأوربية ؟ وعليه فقد آن الأوان لإذكاء الكفاح من جديد بعد أن دخل في مرحلة من الفتور منذ 1912. تلك هي الأقل الفكرة التي أصبحت تشغل بال القطاع العريض من الريفيين. لذا ، وقبل نهاية هذا الشهر التاريخي (شهر غشت) ، وعلى الرغم من أن الناس كانوا في منتصف شهر الصيام ، فإن مندوبي مختلف قبائل كرت حجوا سويا إلى قبيلة بني ورياغل ، تلك القبيلة التي لم يكن ممكنا بدونها القيام بأية خطوة هامة في الريف ، غير أن "أصدقاء اسبانيا" كانوا يعملون على شل طاقتها عن طريق زرع الفرقة فيما بينها. هنا تمكن هؤلاء المندوبون فورا من تسوية النزاعات الداخلية ، الشيء الذي أتاح من يومئذ توجيه وحدة أولى من المتطوعين إلى الجبهة (3) . بعد انطلاقهم ، تواصل العمل داخل القبيلة حيث ارتفعت الأصوات منادية بالجهاد والانتفاضة كتلة واحدة ضد الإسبان بمجرد انتهاء شهر رمضان (4) .

حيال هذه الموجة من اهتياج الخواطر ، وجد "أصدقاء اسبانيا" أنفسهم في وضع لا يحسدون عليه. لكن ما من أحد كان أشدهم قلقا من زعيمهم الرئيسي القاضي عبد الكريم ، خاصة وأنه كان عن طريق ولده السي محند المقيم بمليلية أكثر اطلاعا من الجميع بالأوضاع الأوربية. كيف سيكون مصيره في حالة ما إذا انهزم الفرنسيون حقا وهو الذي يساند قضية شركائهم الإسبان ؟ صحيح أن مساندته لهم أصبحت متسترة الآن من وراء اللعب على الحبلين. لكن كيف يكون على يقين من المحافظة على الدوام على دوره المبهم بهذا الشكل ؟ ولمَ تجشم كل هذه المخاطر إذا ما كانت حظوظ اسبانيا قد أصبحت غير أكيدة ؟ فبدون أن يقلب ظهر المجن لأصدقائه بالأمس لأجل هذا ، أليس حريا به بالأولى أن يقلع نهائيا عن مساندتهم ؟ كان يكفي مطارحة السؤال ليتضح

الجواب. غير أن اتخاذ القرار كان أسهل من إبلاغه إلى حسن الختام كما سيتفطن إلى ذلك.

أمام دهشة الإسبان ، بدأ يمتنع عن اتخاذ أدنى مبادرة من شأنها عرقلة التجنيد أو تجمع الوحدة التي صعدت بعد ذلك إلى الجبهة [5] . ثم أخذ يباعد بشكل ظاهر بين مواقيت زياراته لقاعدة النكور ، متعللا فجأة بتقدمه في السن وبمتاعب شهر الصيام [6]. من الحق أنه قام بزيارتها في آخر يوم من رمضان ، لكنها كانت هذه المرة زيارة وداع. إذ أخبر حاكم الحصن ، العقيد كافيلا (Gavila) ، بأنه عازم أشد العزم على قطع صلته بالإسبان في المستقبل. بوده ، كما صرح له ، مواصلة إخباره إذا دعت الضرورة إلى ذلك. لكن لا أقل ولا أكثر. لماذا هذا التحول المفاجئ ؟ هل فقط بسبب النفقات الباهظة التي يتطلبها العمل السياسي ؟ إنها بالطبع مجرد ذريعة.

عندما سرد كافيلا على رؤسائه وقائع المحادثة ، فإنه عمل في نفس الوقت على طمأنتهم ، فقد صرح لهم بأنه عرف كيف يقنع القاضي بمدى الأضرار التي ستلحق به هونفسه من جراء قراره. وبالفعل ، وعلى الرغم من أن حجج الحاكم الإسباني لم تحدد بكيفية واضحة ، فإننا نستشف بعضها. ألن يخاطر القاضي عبد الكريم ، عن طريق مبادرته ، بمركز ولديه ، ومن يدري حتى بحريتهما ، علما بأنهما يقيمان معا بمليلية ، الأكبر منهما يتقلد بها وقتئذ وظائف مرموقة ، والأصغر وهو محمد (بالفتح) يبني بها مستقبلا زاهرا عن طريق متابعة دراسته هنالك ؟ لقد اعترف القاضي بواقع الحال. وليعطي الدليل ، فإنه لم ينصرف لشأنه إلا بعد أن أفشى لكافيلا أسرار الإجراءات المتعلقة بالانتفاضة الجماعية الوشيكة ضد الإسبان . زيادة على ذلك فقد قام بقراءة نداء محرر بهذا المعنى على زعماء أميين وذلك بناء على طلبهم. وهو تصريح أبى كافيلا إلا أن يعتبره بمثابة اعتراف متهور من قبله بتواطئه مع الطرف الخصم [7] . نرى إذن أن القاضي عبد الكريم حاول حقا استعادة حريته ، لكنه بدلا من أن يبلغ مراده لم يعمل في الواقع ، بعد أن كشف عن حقيقة نواياه بشكل أوضح ، إلا على دفع الإسبان إلى أن يظنوا به الظنون ، مضيقا بذلك مجال عمله الخاص .

* * *

في الحقيقة أنه كان مراقبا منذ مدة طويلة ، على الأقل من النكور. لم يكن لسلوكه المشبوه فيه ليبقى هناك دون إثارة الريبة ، وهذا بمقدار ما كان محاطا بالحساد حتى وسط "أصدقاء اسبانيا" ، خاصة منهم المدعو شدي الذي كان يعتقد بفضل ثرائه أنه

مؤهل كل التأهيل ليكون الرجل الأول ولا يهضم أن يبز من طرفه (8). لذا راح يرصد حركاته وسكناته ويفشيها لكافيلا أو للنقيب سست (Sist) ، رئيس الاستخبارات بالجزيرة. كان عبد الكريم على علم بالأمر ، ويصرح في محاولة لتبرئة نفسه بأنه يعمل على مخادعة الريفيين حتى يتسنى له خدمة الإسبان على أحسن وجه. لكن من كان المخدوع في نهاية الأمر ؟ ذلك ما لم يكن في الميسور معرفته.

إن ما كان يسم المسألة بطابع أكثر إزعاجا كذلك هو أن محمداً ، الابن الأكبر للقاضي عبد الكريم ، كان يوجد هو نفسه في"المكتب المركزي" بمليلية (Oficina Central) ، أي في المكتب الذي يراقب عموما كل مصالح الاستخبارات والعمل السياسي . كان يتمتع فيه بوضع لا غبار عليه. وكان الرئيس الأول نفسه (العقيد ركلمي) يوليه بالتقدير ويخصه بالثقة والصداقة كما لو تعلق الأمر بأقرب وأفضل مساعديه الإسبان . لم يكونوا هناك يخفون عنه شيئا. وكانوا بالخصوص يأخذون بنصيحته . لذلك فإن أي ادعاء صادر من الحسيمة ، وبعبارة أخرى من النكور ، لإثارة الريبة حول إخلاص القاضي عبد الكريم ، لم يكن ليؤخذ هناك مأخذ الجد . كان يدرج في عداد ضغائن كافيلا ومحكوميه المذاهنين من طرف منافسين حساد يقلون موهبة عنه . ألم يحاول كافيلا على كل حال ، وبدون الاكتفاء بإثارة الشكوك حول الأب عبد الكريم ، ألم يحاول إثارتها أيضا في غضون 1913 ضد الابن (القاضي محند) الذي كان كل واحد في مكتب (Oficina) مليلية على وفاق معه ؟ لقد اتهمه وقتذاك وبمناسبة إقامة له بأجدير بتحذير الريفيين من عملية إنزال كان من المتوقع أن تتم في تلك السنة (9). إن هذا ليعطي الدليل حقا على مدى عداوته.

بما أن الأمور كانت على هذا النحو ، فقد فكرت الأوساط العليا في إيجاد حل عن طريق شطر الفريق الموالي للإسبان في أجدير إلى تشكيلتين يقود إحداهما المدعو شدي والأخرى الفقيه عبد الكريم. الأولى وحدها بقيت على الصعيد المحلي تحت رئاسة قاعدة النكور . في حين تقرر أن ترتبط الثانية مباشرة بمركز مليلية عن طريق محند (10) .

لم يكن من شأن هذا الإجراء إلا أن ينظر إليه ، على الصعيد العام ، بعين الرضى والارتياح . سبق أن رأينا بالفعل كيف أن الفريق الذي شكله محند في بداية 1914 ، ثم قاده والده فيما بعد ، كيف عمل في شهر ماي على تيسير زحف الجنود الإسبان ، وكيف قام فيما بعد ولمدة طويلة بإجهاض المقاومة في ديار بني ورياغل (11) .

على العكس من ذلك فإن نفس الإجراء لم يصادف هوى في قاعدة النكور التي

حرمت من جانب من اختصاصاتها ، والتي أخذت تبدو فيها نجاحات محمد ووالده وكأنها تحد كبير. ذلك ما نستشعره بوضوح من خلال اللهجة الحانقة التي راح يستعملها كافيلا للتقليل من أهميتها. تقول بالاختصار برقية موقعة من طرفه : انطلق القاضي مؤخرا إلى مليلية حيث سيقدم في أغلب الظن تقريرا عن الدور الذي قد يدعي أنه لعبه وحده في الأحداث خلال الشهر الذي قضاه هنا. عليكم ألا تثقوا به. أؤكد لكم أن الآخرين اللذين سيلوكهما بالسوء - شدي وبوكراي ، وهما منافسا ولده - قد جدا كثيرا في العمل بدورهما [12] .

بيد أن هذا الحقد الذي كان يختزنه كافيلا انطلاقا من دوافع شخصية محضة ، كان مقترنا لديه أيضا باعتبارات وطنية . وهذا بمقدار ما كان يشعر بأن هذين الرجلين (محمداً ووالده) لا يتعاملان معاملة صريحة. وحيث إن كل نجاح من نجاحاتهما كان يعزز الثقة العمياء التي يوحيان بها في الحقيقة في مليلية ، فإن خيانتهما في يوم من الأيام لن تكون إلا أشد وقعا. من اللازم إذن ، وقبل أن تتكرس ، كشف القناع عنهما. تلك هي المهمة ، وهو الذي تولى أمرها. فبهذه العقلية كان قد استقبل يوم 21 غشت القاضي عبد الكريم الذي كانت تحدوه الرغبة ، كما رأينا ، في وضع حد لخدمة اسبانيا [13] . وبدلا من أن يستجيب لهذه الرغبة ، أو على الأقل أن يأخذ بعين الاعتبار الصراحة التي عبرت بها ، فإنه ناهضها دون أن يسترعي نظره شيء لدى الرجل الذي يخاطبه عدا الجانب الذي رآه قمينا بتوريطه أمام السلطات التي يخضعان لها معا.

لكن الأوان لم يكن قد حان بعد لبلوغ هذه الغاية. إذ جاء الرد سريعا من مليلية بأن اسبانيا في حاجة الآن أكثر من أي وقت مضى إلى القاضي عبد الكريم الذي كانت دبلوماسيته وحنكته في إدارة دفة الأمور قادرتين وحدهما على التغلب على الأزمة الراهنة [14] . من جهة أخرى فإن محند ، الذي نزل بأجدير ليعيِّد بها بعد انتهاء شهر رمضان ويغتنم فرصة إجازته لشد أزر والده ، سلم لهذا الأخير رسالة شخصية من الجنرال خوردانه يثني عليه فيها الثناء العاطر وينعم عليه فوق ذلك بمنحة إكرامية [15] . وكما هو الشأن في الأخير بالنسبة لمحند الذي كان يرى هو نفسه أن لا سبيل ممكن لعائلته إلا في خدمة اسبانيا [16] ، فإن عبد الكريم تخلى على الأقل في الوقت الحاضر عن رغبته المترددة في الاستقلال. وباستئنافه العمل ، فإنه قام به بمساعدة ولده على أحسن وجه ، بحيث تم إجهاض التدابير المتخذة من أجل التجنيد ولم يلتحق أي رجل في الجبهة بالوحدة المتواجدة هنالك في عين المكان. والحال أن الفضل في هذا النجاح نسب إليه حقا في مليلية على حساب كافيلا ، إذ أن خوردانه الذي كان يحكم كل المنطقة ، ولنتذكر

ذلك ، تفضل من جديد بالكتابة إليه بنفسه ، مخاطبا إياه ب "الصديق الحميم" :

"إنك تعرف بنفسك حالة الاضطراب التي توجد القبائل الريفية مسرحا لها. وتعرف أن الريفيين يريدون إرغام بني بو ياحي على الدخول في الحرب ضدنا. لأجل هذا تكون كل سوق فرصة لدعوتها إلى حمل السلاح. لذا فإنني أكلفك بإلحاح بأن تواصل عملك للحيلولة دون تجنيد قبيلتك مهما كلف الأمر ، تماما كما علمنا بتمكنك من ذلك في المناسبة الراهنة. وإننا لمدينون لك بامتنان لا حد له" [17] .

علاوة على ذلك ، فإن محاباة خوردانة هاته ومداهناته ومظاهر ثقته ستتكرر مرارا مشفوعة بالإنعامات . فبمناسبة عيد الأضحى وجه إليه متمنياته مع مبلغ مالي معتبر [18] . في مناسبة أخرى ، وقد احتدم التوتر من جديد بين أجدير والنكور ، فكر ثانية في معاودة هديته ، مدخلا عليهاعنصرا جديدا هو أن يتولى كافيلا نفسه مهمة تقديمها بيده كما لو أن المبادرة جاءت منه. بحيث إنه لم يتردد من أجل ملاطفة "صديقه الحميم" في إذلال أحد ضباطه [19] .

لم يكن القاضي عبد الكريم يرى منفذا له إلى الخلاص وهو مقيد على هذا النحو بولديه الرهينتين وبالعناية المتيقظة لخوردانه . سيما وأنه كان يتخبط أيضا في غمرة من الارتباك فيما سيفعل بحريته إن هو استعادها . فلئن أصبح الآن يرى من الأفضل عدم مساعدة المشروع الإسباني شخصيا ، فإن فكرة محاربته كانت تبدو له اليوم ، كما بدت بالأمس ، فكرة غير معقولة . إذ لو رحلت اسبانيا ذات يوم ، فإن دولة أخرى ستحل محلها ، غير أنه لن يكون في مقدور الريفيين بتاتا طردها لا هي ولا أولائك الذين قد يقصونها. فبينها وبين الريفيين كان يفكر إذن في اتخاذ موقف الحياد. لكن هل كان مسموحا له بهذا الاختيار ؟ ألن يشترط الفريق المواجه له تبرئة ساحته بواسطة الأعمال ؟ وهل يقبل أن يصبح مجهولا وهو الرجل الذي لم يتخل قط عن احتلال الواجهة الأمامية من الأحداث ؟

مستغرقا في هذا الضرب من التفكير ، كان لا بد وأن يشعر بأن وضعه حيال الريفيين سيزداد تدهورا ، إذ حتى نجاحه الأخير الذي كلفه تحقيقه الشيء الكثير ، لا يمكن أن يوذن إلا بالعاصفة. بالأمس كانت ردود الفعل من جانب المعارضين تقتصر على إضرام النيران في البيوت. أما الآن فقد قتلوا رئيسي شبكته في بني بو عياش ، حماد ابن محمد ابن الحاج وحمادى مونة [20] . كانت العقوبة شديدة. وساعة الاقتصاص منه آتية لا ريب فيها .

* * *

في هذه الأثناء وقع حادث حاسم مع دخول تركيا الحرب بجانب ألمانيا. كان من شأن هذا الحادث أن يعمل رأسا على إعادة النظر في الأمور بشكل محسوس. من قبل ، عندما لم تكن الحرب تهم سوى الدول الأوربية ، لم يكن من الميسور جني فائدة منها ضد الهيمنة الفرنسية بالمغرب إلا بدعم من دولة أوربية أخرى . وكانت هذه الدولة آنذاك هي ألمانيا التي لم تعد تخفي منذ بضع سنوات ما تضمره بدورها من مطامع. بحيث إن المتعامل معها وقتذاك كان يجازف كثيرا بأن يتهم بالتواطؤ مع هذا السيد الجديد. خاصة إذا سبق له مثل الفقيه عبد الكريم أن خدم اسبانيا. أما وقد دخلت تركيا بدورها الآن في الحرب ضد فرنسا ، فإن العون الذي يمكن انتظاره منها سيكون مدعوما بالضمانة الإسلامية . وهذا حتى لو كان مصحوبا بكفالة برلين. وبغض النظر عن مشكلتهم مع فرنسا ، ألم يكن المغاربة ملزمين بحكم الروابط الدينية بأن يساعدوا بدون تردد تركيا المسلمة ؟ ذلك بالذات ما طالبت به السلطة العثمانية في نداء وجهته منذ الأسبوع الأول إلى كافة المسلمين في العالم [21] .

هل كان للقاضي عبد الكريم ، ومن تلقاء نفسه ، تصور واضح عن هذه المعطيات الجديدة ؟ ليس بوسعنا تقرير ذلك. إلا أنه كان مستعدا على كل حال لاكتساب هذا التصور شريطة مساعدته عليه. هذا ما حصل عندما قام ضابط تركي كمبعوث سري بزيارته في أجدير في شهر نوفمبر من عام 1914 في أرجح الظن. كان الزائر يريد أن يعرف هل يمكن الحصول في المغرب نفسه على دعم من أجل القيام بعمل ضد فرنسا. وذلك انطلاقا من الأقاليم التي لم تكن اسبانيا قد احتلتها بعد في منطقتها. وقد أجيب بأنه سيكون من السهل جدا إثارة الريف بالمساعدة المادية التي قد تقدمها تركيا [22] . وهو جواب مشجع ويظهر حقا لدى صاحبه ما سيبذله من حماس لدعم المشروع شخصيا. لماذا اتخذ القاضي فجأة مثل هذا الموقف والحال أنه لم يسبق له إلى الآن أن أظهر ضد فرنسا هذا العداء الذي كان يذكي بالعكس ولده محمد ؟ هل تمكن هذا الأخير في نهاية الأمر من التأثير عليه ؟ من المحتمل جدا ذلك. على كل حال فإن محمدا سيقوم بنفسه بعد بضعة أشهر بتوضيح المسألة مع رئيسه وصديقه ركلمي . فقد أسرّ إليه حينئذ "بأنه هو و والده على السواء سيقدمان عن طواعية مساعدتهما من أجل القيام بعمل ضد فرنسا التي يبغضانها لشراستها حيال المغاربة" [23] .

لنقرر إذن أن بغض فرنسا ساهم كثيرا كما يقول محمد في إقناع والده هو الآخر. بيد أن هناك تفسيرا ثانيا أكثر توضيحا في الحقيقة ولو أننا لم نتمكن من أن نحدد هل هو صادر عن محمد نفسه أم هو من صنع العقيد ركلمي . يقول النص في

سياق سرده المحادثة بين الرجلين : "دون أن نأخذ في الحسبان أنه إذا ما شارك الأب مع ولده في هذه الانتفاضة ذات الطابع الإسلامي البارز – ولو أن الملهمة في الحقيقة هي ألمانيا بوصفها حليفة للأتراك – فإنهما سيتمكنان من أن يستعيدا جزئيا الاعتبار والسمعة اللذين تمتع بهما دوما عبد الكريم وأفراد أسرته بين إخوانهم" [24] .

ها هو ذا مفتاح القضية . فرغم تستره باللعب على الحبلين ، فإن القاضي عبد الكريم أخذ يدرك أكثر فأكثر أنه فقد الاعتبار وأصبح عرضة للازدراء بل وللتهديد وسط إخوانه الريفيين بوصفه عميلا للإسبان. لتفادي الكارثة ، واسترجاع سمعته ، لم يكن بوسعه في الحالة التي هو عليها التماس راحة البال في الاعتزال. فإن الريفيين لن يبرئوا ساحته إلا إذا غير معسكره وقام بوجه مكشوف بضرب أولائك الذين خدمهم بالأمس. وحيث إنه كان يفتقر إلى الرغبة والوسائل لاتخاذ مثل هذا الموقف ، فإن العمل ضد فرنسا ، وهي عدوة للمغرب ولكنها عدوة أيضا للإسلام منذ اللحظة التي حاربت فيها الأتراك ، من شأنه أن يشكل بديلا ممتازا إذا ما عرف كيف يلعب في آن واحد على الشعور الوطني والديني. علاوة على ذلك فإن هذا العمل سيكون عبر تركيا وسيلة لإثارة اهتمام ألمانيا العتيدة التي لم يكن انتصارها ليوضع موضع تشكك ، والتي ستكون إرادتها مهيمنة بعد انعقاد الصلح . أما بالنسبة لاسبانيا فلا يسعها إلا أن تقر عينا إذا ما وجدت طبيعة الريفيين الحربية ، التي كان عليها وحدها أن تكابدها ، منفذا آخر في اتجاه الفرنسيين . والحال أنه كان على القاضي لتمكين أصدقائه من هذا الامتياز الكبير أن يكف بالذات عن تعاونه المباشر معهم. ها هو ذا إذن الحل الذي يجعل من الممكن ومن المقبول ضرورة الانفصال ، وهو الذي سيدأب منذئذ على تطبيقه شيئا فشيئا .

كان الأمر الأكثر استعجالا هوالانغماس في مجرى المقاومة الذي ما انفك يتضخم. وكانت العملية ما تزال ممكنة رغم ما بذله من جهود لعرقلة هذه المقاومة . فلعبه على الحبلين ساعده بالفعل كما رأينا على المحافظة منذ ثلاث أو أربع سنوات على نوع من الإبهام [25] . زيادة على ذلك فقد كانت الحاجة ماسة من أجل التسيير وفرض الهيبة على الجميع إلى شخصيات مرموقة ، مع العلم أن المقاومة لم تكن قد استقطبت في الأساس سوى عامة الناس. والحال أنه بغض النظر عن الشريفين الأكثر احتراما في المنطقة ، وهما محمد أخمليش وحميدو الوزاني ، فإن هذه الشخصيات كانت على وجه العموم قد تورطت كثيرا مع الإسبان. فبما أن للضرورة أحكاما كما يقال ، فإنه لم يكن بالإمكان أن يتشدد الريفيون كثيرا بصدد صدق نوايا المنضوين المتأخرين. وعلى كل حال إذا كان التيار قويا بما يكفي لفرض هذه الانضواءات ، ألن يكون قويا أيضا بما

يكفي لإلزام المنضوين ، وقد احتلوا أماكنهم وأصبحوا مؤطرين ، بالقيام أخيرا بواجبهم ؟ ذلك ما كان عليه الأمر خلال الأشهر الأولى من عام 1915 بالنسبة للشريف بورجيلة الذي كان دوما من أخلص أصدقاء اسبانيا . وهذا ما سيكون عليه بالنسبة لصديقهم الأقل إخلاصا ، وهو القاضي عبد الكريم .

في ماي من هذه السنة لم تكن ثمة بعد أية علامة تؤشر على احتمال تدخل الأتراك الذين كان عبد الكريم قد راهن عليهم منذ ذلك الحين. بيد أن الحمية التلقائية ضد الإسبان التي نجح في تحطيمها بمساعدة ولده في فصل الخريف (26) ، استؤنفت في فصل الربيع على قدم وساق. والحال أنه لم يحاول هذه المرة إيقافها. ذلك أنه كان قد أدخل قراره في حيز التنفيذ بفضل ما بذله من جهد لوضع حد لتردداته الأخيرة. في اليوم الثالث من الشهر ، قبل مرة أخرى المال الإسباني . إلا أن يده لم تمتد إليه موطدا العزم على إعادته. ثم توجه بعد ذلك إلى النكور لزيارة كافيلا . ولئن لم يجرؤ على مصارحته بشيء ، فإنها كانت مع ذلك زيارة وداع بالنسبة إليه ، كما أفصح عن ذلك بعد زمن يسير إلى صديقه القديم بنحاييم وبحضور ولده محمد. بل ووصل به الأمر إلى أداء القسم بأن كل شيء انتهى بالنسبة إليه مع اسبانيا (27) . كان هذا بالطبع بنيّة أن يتولى بنحاييم إبلاغ قراره إلى النكور التي كان يمارس فيها تجارته . هذا فيما يخص الجانب الإسباني من موقفه الجديد.

أما بخصوص الجانب الريفي ، فكانت الأمور في نفس الأثناء تسير وفق ما يرام. في الأسبوع الأخير من ماي والأيام الأولى من يونيو (1915) ، قام الشريفان محمد أخمليش وحميدو الوزاني ، اللذان لم تتمكن اسبانيا أبدا من تدجينهما ، بعمل مشترك نجح في وضع حد للنزاعات التي كانت تفرق هنا وهناك شمل القبائل التي كانا يمارسان نفوذهما مباشرة عليها : صنهاجة ، بقيوة ، بني يطفت ، بني بوفراح. وقد أقر هذا العمل المشترك التصويت على أداء مساهمة حربية خلال ثلاثة أشهر ، وجمع ألف رجل على أساس خمسين رجلا لكل فخذ انطلقوا نحو الجبهة. زيادة على ذلك فإن العمل المنسق نجح بفضل إلحاحه الشديد في إقناع بورجيلة ، وهو شريف آخر لكنه معروف فيما يخصه بكونه من أخلص خدام اسبانيا ، بأن يقوم بنفس العمل في ديار بني ورياغل بالنظر إلى أن كلمته كانت نافذة هنالك (28) .

من البديهي أن بورجيلة كان في هذا الطرف الأقصى قد بث في الفرقة التي جندها عددا لا يستهان به من أصدقاء اسبانيا وذلك من أجل شلها. لكن العنصر

الأساسي الذي سارع هو نفسه إلى إحاطة كافيلا علما به هو أنه لم يستطع أمام الإنذار لا الرفض ولا المراوغة. وما هذا بالطبع إلا لأن السيل كان جارفا. ثمة أمر آخر هام جدير بأخذه بعين الاعتبار هو أن أحمد بورجيلة فكر قبل الإذعان في استشارة سادته بالنكور. غير أنه تخلى عن الفكرة. من الذي صرفه عنها ؟ إنه القاضي عبد الكريم (29) .

كان من المحتمل فيما مضى أن ينغمس القاضي عبد الكريم في المعترك موظفا جميع وسائله لتسكين هذا الغليان المقلق . لكنه الآن ، وأمام دهشة كلا الطرفين ، بقي ساكنا بعزم وإصرار. على أن حضوره كان ملموسا وإن لم يظهر للعيان . كان بيته يعج بالزائرين من "أصدقاء اسبانيا" ، أصحاب المعاشات ، من كبار وصغار ، الذين كانوا ينتظرون منه التعليمات وهم في منتهى الارتباك . لم يسبق مطلقا أن جرت ممارسة مثل هذه الضغوط القوية لجمع الأموال وتجنيد المحاربين. بأية وسائل جديدة يتعين مواجهة هذه الزوبعة ؟ إلى جموعه المتحيرة ، كان عبد الكريم يصرح بأن لا علم له بهذه الزوبعة التي يحدثونه عنها. إن كل شيء بسيط في نظره وفي غاية السهولة. هل تم إنذار بورجيلة بتجنيد المقاتلين ؟ علام الاستياء إذن. ما عليه إلا الإذعان. هل يتلهف الناس للتجنيد ؟ لتتجندوا إذن. ذلك ما كان يقوله لهم عبد الكريم. وعندما كانوا يسألونه هل من المفيد كما جرت العادة نسف التجنيد من الداخل ، كان يجيب بصدر منشرح : "لماذا ؟ ألا تعلمون أنه ينبغي معاملة الإسبان بوضعهم بين المطرقة والسندان ؟ " (30) .

بسرعة لم يعد الحديث يجري إلا عن التحول المفاجئ الذي طرأ على موقف القاضي عبد الكريم. كان المقاومون يفدون عليه للاستخبار. فيظهر في حضورهم تفاؤلا كبيرا ويخاطبهم بقوله : "إن مليلية هدف معروف جدا بالنسبة إلينا. إنها في متناول أيدينا" (31) . ومن بين المستمعين إليه كان هناك من يعود شاكا مرتابا. ومنهم من كان بالعكس يجهر بأنه لم يفاجأ لأنه كان يحس منذ مدة طويلة بأن المحتال يخدع في الحقيقة الإسبان. تماما مثل ولده السي محمد – ويسمونه بالأحرى "السي محند" – الذي أخذت الإشاعات تجري عن عودته الوشيكة من مليلية ، كما هو الشأن بالنسبة لمحمد (بالفتح) وهو الابن الأصغر ، وذلك للمشاركة في المعركة بل ولقيادتها ، لأن هذا الرجل كان يفرض هيبته على الجميع من خصوم وأصدقاء بمقدار ما كان أبوه إن لم يكن أكثر (32) .

* * *

في يوليوز كان بإمكان القاضي عبد الكريم أن يعتقد أنه أصبح مقبولا مع جميع أفراد حزبه المنظم من طرفه في صفوف من كان بالأمس يبذل قصارى جهوده لتشتيتهم. بل وكان بإمكانه أن يتيقن من أن كلمته ستكون نافذة بينهم ، إذ أن بعض الجماعات ، كأهل إيزفرافن من بين آخرين ، انضوت من يومئذ تحت لوائه تحدوها الرغبة في أن تأتمر بأوامره (33) .

لا نعلم في أية لحظة وبأية طريقة حصل على الإيضاحات اللازمة المتعلقة بالعمل الذي كلف بالقيام به وفقا لاتفاقه مع الأتراك. لكننا نعرف أنه منذ الأيام الأولى من يوليوز (1915) طمأن المترددين الذين كانوا يتخوفون ، إن هم ساروا في ركابه ، من أن تنقطع عنهم المعاشات التي يتقاضونها من الإسبان (34) . وحيث إنه أكد لهم بدون أية إيضاحات أخرى أنهم لن يخسروا هذه المعاشات ، فما ذلك إلا لأنه كان ينتظر فيما يبدو الحصول من مصدر آخر على الاعتمادات التي تمكنه من مواصلة دفعها. من جهتهم علم الإسبان في يوليوز أن من كان يسير من عملائهم وراء عبد الكريم أصبح الآن منهمكا في نشر نداءات متعددة يحث فيها محمد رشيد الخامس انطلاقا من القسطنطينية القبائل على طرد الفرنسيين من المغرب (35) . أخيرا ، وفي هذه الأثناء بالذات علم الفرنسيون أنفسهم بظهور شخص أصبح بشغلهم في حدود منطقتهم الداخلية ، هو عبد المالك بن محيي الدين .

وعبد المالك هذا هو حفيد عبد القادر ، الزعيم الجزائري المعروف ، الذي دافع في القرن الماضي عن استقلال الجزائر. نشأ بسوريا في الإمبراطورية العثمانية ، عمل على ما قيل في فيلق تركي ، قبل أن يعود في بداية القرن ليجرب حظه في الجزائر في وقت لم يعد قادرا على إقلاق الفرنسيين . من هنا انتقل إلى المغرب وقدم خدماته إلى المتمرد الجيلالي الزرهوني وساعده على محاربة مولاي عبد العزيز ، لكنه بعد أن تخلى عن الزرهوني بعد زمن يسير تمكن من الالتحاق بجيش السلطان الذي عينه فيما بعد مفوضا لقوات الأمن التي أنشئت في الموانئ المغربية بمقتضى عقد الجزيرة الخضراء . ظل متقلدا هذه الوظيفة حتى بعد 1912 لكن بالنسبة إلى منطقة طنجة وحدها ، التي بقيت بمقتضى قانون خاص غير خاضعة لنظام الحماية . كان ما يزال يتقلدها عندما اختفى فجأة في مارس 1915 لمدة ثلاثة أشهر . عندما شوهد فيما بعد في المنطقة الآيلة لاسبانيا ، ليظهر ثانية في يوليوز وسط القبائل المجاورة لتازة ، فإنه أثار عن حق قلق الفرنسيين . فقد وصل من أجل أن يتزعم ضدهم الكفاح المسلح الذي كان القاضي عبد الكريم يحاول من جهته إقحام الريفيين في غماره (36) .

* * *

سيتبين على كل حال أن الأمر يتعلق بالخصوص بمشروع ألماني مستظل بالراية التركية ؛ لأنه في الوقت الذي حاول عبد المالك الاستقرار في اتجاه تازة ، وجدنا رجلا ألمانيا يدعى فارل (Farle) يعود ثانية إلى مليلية ، وكان معروفا من قبل لأنه عمل قبل الحرب مهندسا في مناجم بني بو يفرور [37] . بعد أن اتصل بالسي محمد ، ناشده بادئ ذي بدء بإعلان قدومه ومصاحبته إلى والده عبد الكريم بأجدير [38] . لكن من الواضح أنه اغتنم هذه الفرصة ليخبره كذلك بالعروض التي يحملها بغية تسليح وأداء أجور ألفي رجل من الريفيين الذين عليهم أن يضعوا أنفسهم رهن إشارة عبد المالك [39] . هذا بالطبع على أساس أن يكافأ الريف عن مشاركته ، بحيث ان معاهدة الصلح ستحافظ على الأقل على استقلال القبائل التي لم تكن اسبانيا قد أخضعتها بعد [39 مكرر] . من الحق أنه لا توجد أية وثيقة تثبت أن الوعد صيغ على هذا النحو من طرف فارل. لكن كيف نفسر بشكل آخر أن محمدا قام بعد بضعة أسابيع ، وسنرى هذا ، بإدراج الاحتمال المذكور ضمن المخططات السياسية التي كان ينوي في المستقبل إدخالها في حيز التنفيذ [40] .

عندما استقبل القاضي عبد الكريم بدوره الرجل الألماني ، فإنه لم ينزعج هو الآخر من ظهور هذا الأخير في الجولة كما تم طرحها من قبل. فمنذ أن أحيط علما باستعداداته ، استضافه لدى أحد أقربائه ، المدعو أحمد الحاتمي ، ليمكنه هناك على مهل من استقبال الأعيان الرئيسيين من بني ورياغل. وخلال 18 يوما سارت الأمور على هذا النحو إلى الوقت الذي تلقى فيه الحاتمي تحذيرا شخصيا من الشريف بورجيلة [41] . أمن بو رجيلة ؟ الأولى بنا القول إن كافيلا في النكور علم بالأمر واستنكره .

* * *

رأينا أن كافيلا كان يضمر أشد الشكوك خطورة للأب عبد الكريم ولولده محمد على حد سواء. فإذا بالأب على الأقل يتصرف منذ شهرين وكأنما يريد بنفسه تبرير هذه الشكوك . كان كافيلا إذن يسجل مظاهر تصرفاته غير المتوقعة الواحدة تلو الأخرى ، ويقوم بإبلاغها إلى مليلية عن طريق التلغراف . هنالك أدت في الأخير دقة الشهادات وخطورتها وتراكمها إلى تزكية الارتياب السائد هنالك حول القضية . كان ثمة على الخصوص العنصر الجديد للدعاية التركية التي لم يكن بالإمكان نفيها بالنظر إلى الأدلة التي تم الحصول عليها من رسائل ومنشورات . غير أن الحديث أخذ يجري الآن حتى عن حضور ألماني. وبالنظر إلى أن الجنرال خوردانه رقي إلى مقيم عام ، علينا أن

نلاحظ في الأخير أن خلفه بمليلية ، أيثبورو (Aizpuru) كان لابد وأن ينظر منذ منتصف يونيوز (1915) نظرة جديدة وأقل انتقائية إلى مختلف المشاكل التي أحيلت عليه. كل هذا دفع في الأخير ركلمي ، رئيس "المكتب المركزي" ، إلى أن يقوم في 3 غشت باستفسار مساعده وصديقه محمد عما يعرفه عن الحركة الموالية للأتراك الملحوظة في الريف.

بمظهر رجل لم يكن هو نفسه ليهتم بالحركة إلا اهتماما عارضا ، فإن السي محند – وكذلك كانوا يسمونه هنالك – أدلى بقدر لا يستهان به من المعلومات. كل هذه الضجة في نظره إنما هي إنجاز لمشروع ليس وليد الساعة ، إذ أن مبعوثا تركيا سبق له منذ تسعة شهور أو عشرة أن قدم لاطلاع والده عليه. والأمر يتعلق بخصوص الريف بالرمي بالريفيين في اتجاه الجنوب ضد المواقع الفرنسية ، وذلك في إطار خطة شاملة تستهدف إثارة الثورات ضد فرنسا وانجلترا في مستعمراتهما المأهولة بالمسلمين. لأجل هذه الغاية انتدب زعيم يدعى عبد المالك تقديرا لسوابق كان محمد على علم بها. في ذلك الوقت كان يحوم في نواحي تازة بمساعدة أتراك أو حتى بمستشارين ألمان حسب بعض الإشاعات .

كانت لهجَة محمد ترمي إلى الإيهام بأنه لم يشارك لحد الآن في هذه الحركة ، لا هو ولا والده. لكن ليس في الوسع القول إن الأمر سيبقى على ما هو عليه في المستقبل. إذ كمغاربة أخيار – وعندئذ ثارت حمية محمد – كيف نضيع هذه الفرصة لخلع النير الفرنسي ؟ زد على ذلك أنه إذا لم يشارك في الحركة إلا أولائك الذين يبغضون الإسبان من بين الريفيين ، فبإمكانهم أن يعملوا على مهل على قلبها ضدهم [42] .

حاول إذن محمد بعد أن أرغم على الكلام ، وبدون أن ينكر مع ذلك أي شيء ، إبقاء الشك حول دوره الفعلي ودور والده . وحيث إنه كان متيقنا من كون الحقيقة ستنكشف في نهاية الأمر ، فإنه أحاطها مقدما بالحيثيات التي من شأنها وحدها أن تجعلها مستساغة .

بالفعل فإن غاية ما كان يريده العقيد ركلمي على ما يظهر هو دفعه إلى الاقتناع من الممكن بحكم الصداقة ، لكن بالخصوص بحكم العوامل السياسية . في الحقيقة أنه لم يكن مستاء من احتمال حدوث انحراف قمين بإزاحة العبء عن الإسبان وإلقائه على الفرنسيين الذين كانوا في نظره ، لا شركاء ، وإنما منافسين محظوظين بشكل وقح. فإذا اضطر حقا في سياق تقريره إلى أن يظهر دور القاضي عبد الكريم كدور أكيد في هذه القضية ، فإنه تغافل ببساطة عن أن يورط أيضا ولده الذي كان على بينة بالأمر

منذ عدة شهور ويلتزم مع ذلك حول كل شيء بصمت حقيقي يبعث على الحيرة. عندما تساءل بالمقابل عن الموقف الذي ينبغي أن تتخذه بلاده كدولة محايدة ، فإنه لم ير ، حسب قوله ، بأية صفة قد تقوم اسبانيا بمنع تركيا من محاربة فرنسا والتضييق على خصمها انطلاقا من المناطق التي بقيت غير محتلة إلى اليوم. أما إذا ما فكرت على الرغم من ذلك في اتخاذ هذا الموقف ، فينبغي أن تعرف حق المعرفة أن المشروع سيكون محفوفا بالمخاطر. إذ ما لم تستقطب صفوف الحركة أصدقاء مخلصين ، قادرين على فرض هيبتهم ، فإن كل ما سيتم الحصول عليه لن يسفر ، حسب تعبيره ، إلا عن "اجتذاب هذا المد الثوري ضدنا بما ينطوي عليه ذلك من فائدة جمة بالنسبة إلى نشاط الفرنسيين ومضرة كبيرة بالنسبة إلى نشاطنا" (43) .

وجملة القول إما البقاء مكتوف اليدين – وهذاأنسب – وإما المجازفة بوضع حد للحركة. كان من الواضح في كلا الحالتين ، وعلى الرغم من عدم الإفصاح عن ذلك ، أن حضور القاضي عبد الكريم في الحركة المشجوبة حضور مجد إن لم يكن ضروريا . أخيرا ، وبالنظر إلى أن القرار كان يستوجب مزيدا من المعلومات ، فإن العقيد ركلمي ختم تقريره برغبة أفصح عنها محمد الذي رشح نفسه للقيام بتحقيق دقيق في قبيلته خلال إجازته الرمضانية الوشيكة (44) . وهكذا فقد أفضت جدلية ركلمي نوعا ما إلى إعطاء القاضي عبد الكريم وكذلك إلى السي محند ورقة بيضاء ليراقبا سرا ولصالح اسبانيا الحركة المضادة للفرنسيين التي أوحى بها الأتراك .

* * *

كان الاقتراح واضحا للغاية. إلا انه وصل متأخرا قليلا. إذ أن خيارا مخالفا كان قد تبلور من يومئذ على الصعيد الذي تتخذ فيه القرارات. فإن الخطر المباشر ، كما تم إدراكه على هذا المستوى ، هو رؤية الأتراك يحصلون على ولاء الريفيين بما ينتج عن ذلك من انهيار المؤهلات الإسبانية. وإذا كان ينبغي اتخاذ تدابيرمعجلة لتفادي الضرر ، فإن الوسيلة الوحيدة إذن هي فرض الحفاظ على الحياد بكيفية صارمة. تلك هي أحسن وسيلة في نفس الوقت لتحافظ اسبانيا أيضا على حظوظها بالنسبة إلى المستقبل. لقد كانت تمارس منذ عقد الجزيرة الخضراء مهمة كلفتها بها وقتذاك الدول الأوربية بدون تمييز ، تلك الدول التي دخلت فيما بعد في الحرب فيما بينها. لن يكون إذن بوسع برلين في حالة انتصار ألمانيا ألا تسامح الإسبان إن هم لم يرتضوا خيانة المأمورية التي تسلموها من أوربا جمعاء. أما إذا ما انتصر الحلفاء ، فلا يوجد ما هو أخطر من إتاحة الفرصة لفرنسا لتلصق باسبانيا هذه الخيانة بذاتها.

كانت هذه هي القناعات التي جاء مزودا بها مفوض اسباني ، هو الجنرال اندافي (Indave) الذي تم إيفاده إلى مليلية ليصلح ما اعتور الحالة من فساد.

بعد وصوله في 6 غشت ، كتب منذ اليوم التالي رسالة إلى القاضي عبد الكريم بخط يد ولده محمد ، وهي رسالة يظهر بجلاء أنها مملاة ، ومعبرة في تفصيلها عن موقف اسبانيا الرسمي. تطالعنا في خاتمتها الأوامر التالية :

"من الضروري إذن ، لأن هذا أمر يوجهه إليك الجنرال ، أن تمتنع عن مساندة أي عمل سواء لفائدة تركيا أو لفائدة أية دولة أخرى. عليك بالعكس أن تناهضه بكل ما أوتيت من قوة ، وأن تحث أصحابك على أن يفعلوا نفس الشيء ، مكرسا نفسك بثبات وإصرار وبدون تقصير للقضية الوحيدة التي هي القضية الشرعية في المنطقة المحددة للحماية الإسبانية ، ألا وهي قضية اسبانيا. هذا ما ينتظره منا الجنرال" (45) .

نرى من خلال الجملة الأخيرة أن محمدا يوجد هو الآخر مع والده ، وبشكل عرضي ، طرفا معنيا بالشجب والتحذير العام . معنى هذا أن الدوائر العليا لم تعد من يومئذ وديعة حياله بنفس ما كان عليه رئيسه المباشر العقيد ركلمي. أما بالنسبة إلى والده ، فلا يفوتنا أن نلاحظ الصرامة شبه الجافة التي اتسمت بها اللهجة المستعملة معه والتي تنم عن فارق أكيد بين الاستعلام الإسباني والحالة الحقيقية. فإن القاضي عبد الكريم لم يعد بتاتا ما كان عليه بالأمس مجرد منفذ يكفي توبيخه. لقد عرف منذ أربع سنوات خلت ، وبعد أن تمرس أولا بمزاولة اللعب على الحبلين ، عرف كيف يجعل نفسه صعب المنال بعض الشيء. وعلى الخصوص فإن هذا اللعب على الحبلين كان يدل في حد ذاته على المقاومة المتصاعدة التي يصطدم بها المشروع الإسباني بين القبائل ، وعلى أن الوسائل الموظفة من أجل التغلب عليها أخنى عليهاالزمان تدريجيا . وفيما عدا بعض الاستثناءات القليلة ، ومنها العقيد ركلمي ، فإن الإسبان لم يدركوا هذا التطور الرئيسي. لذا لم يروا في السلوك الراهن للقاضي عبد الكريم سوى هفوة ، بينما كان يستجيب لحاجة لا يمكن كبحها.

ماذا نقول حينئذ عن هذه الحقيقة ، وهي أن القاضي عبد الكريم لم يعد في الساعة الراهنة مهتما، وهو يساند الأتراك ، بمحاولة استرجاع شهرته المفقودة ؟ ذلك أن اتصالاته بالألماني فارل ، مع ما فتحته من آفاق جديدة ، بعثت في نفسه وطنيته القديمة التي كانت ما تزال كامنة في أعماقه. فبما أن ألمانيا قدمت نفسها للمحافظة على استقلال الريف ، فإن الحرب ضد فرنسا لم تعد مشروعا تضليليا لأنها ستساعد حقا ،

وبفضل النصر الألماني ، على إيجاد الظروف الكفيلة بجعل إنجاز الوعد أمرا ممكنا. وإذا لم تعد إرادة الاستقلال لدى الريفيين ضربا من الخيال ، فإنه لم يعد بالإمكان الاقتصار ، كما جرى لحد الآن ، على مداراتها للعمل أكثر على تضليلها. كان من اللازم إذكاؤها تمهيدا للهزيمة الفرنسية التي لابد منها ، ولكن تمهيدا أيضا ، وفي غضون ذلك ، لتوجيه ضربة قاسية للزحف الإسباني في الريف.

لم يكن من شأن هذا التحول الجديد الذي لم يتكهن به أحد بعد في مليلية إلا أن يقود إلى القطيعة مع اسبانيا. بيد أن القاضي عبد الكريم ما كان ليكشف عن نواياه ، ويقطع علاقاته من تلقاء نفسه ، إما دهاء منه أو لعدم توفره على الضمانات الكافية ، وهذا في الوقت الذي كان فيه ولداه ما يزالان بين يدي خصمه المقبل. لذلك رد بجواب معتدل على الأوامر التي نقلت إليه. فبما أن سيادة الجنرال طلب منه البقاء في الحياد ، فإنه وعد بالامتناع عن كل تدخل مباشر مكشوف في الحملة التي يساندها الأتراك. بيد أنه لم يجد مندوحة عن القول ، وبصراحة ، إنه قد لا يتمكن من التنصل منها تماما : أولا ، لحاجته هو نفسه إلى تطبيع علاقاته مع رجال قبيلته. وثانيا ، لاقتناعه بأنه يخدم في الحقيقة اسبانيا بحمايتها من عواقب هذه الهيجان الذي آلى على نفسه أن يبقيه موجها ضد فرنسا (46) . وهكذا وبمزجه بلباقة بين روح التمرد وإرادة الخضوع فإنه كان في أرجح الظن يأمل في كسب الوقت. إذ أن تمرده نفسه الذي أظهره كنتيجة لصداقته الخالصة كان يتوخى إحداث التأثير أكثر من إثارة القلق. كان يفسح مجال الأمل لبلوغ الهدف عن طريق الصبر والحجج المعقولة. وهذا ما قد يفضي به إلى غاية شهر الصيام ، حيث يمكن أن يلتحق به ولداه بمناسبة إجازتهما ، وحينئذ سيكون في مقدوره مع ولده الأكبر أن يقرر بحرية ما يتعين عليه أن يسلك من طريق .

لكن ما غاب عن باله هو أن الإسبان في مليلية كانوا ينوون من يومئذ عدم تمكين ولديه من الفرار تحت غطاء إجازتهما وأن القرار بذلك سرعان ما اتخذ بالفعل (47). كما أنه لم يأخذ في الحساب أن المواجهة التي كانت محصورة بينه وبين مليلية ستتسع بالتدخل المفاجئ للمتباري الإضافي الحاد الطبع الذي سيمثله كافيلا انطلاقا من النكور .

من المؤكد أن كافيلا لم يكن يعرف شيئا هو الآخر عن كل النوايا الأخيرة التي أضمرها عبد الكريم وولده محمد ، تلك النوايا التي ستقودهما ، للمرة الأخيرة ، وبعد سنوات طويلة من التعاون الذي ظل صادقا دائما حتى بعد تلاشي الحماس ، إلى الوقوف بالمرصاد في الطريق الذي حددته اسبانيا لنفسها. إلا أنه (كافيلا) كان قد جعل

منذ مدة طويلة من قضية هذين الرجلين قضية شخصية. كانت عداوته لهما تحثه على ألا يرى في اللعب على الحبلين الذي تعين عليهما نهجه إلا ما يظهر عداءهما لبلاده. والحال أنه لاحظ بالخصوص في هذه الأشهر الأخيرة تجدد نفوذهما فجأة وسط المقاومين. وبعيدا عن أن يرتقي إلى بعد نظر العقيد ركلمي ، فإنه لم يدرك إمكانية إبعاد الحريق عن طريق تأجيج النار. من هنا الذعر الذي أوقعه فيه تدخل الأتراك الذي أخذ فوق ذلك زمام الموقف كله من يده. وهو ذعر تضاعف بعدظهور مبعوث ألماني في الريف. ناهيك بأن القاضي عبد الكريم نفسه هو الذي استضاف هذا المبعوث وشمله برعايته [48] . كيف يبقى مجال للشك في المؤامرة ، في أبعادها ، في تمحورها حول القاضي عبد الكريم الذي كان ولده محمد يحميه ويواصل مهمته إلى آخر لحظة في قلب "المكتب المركزي" ، أو قل في دماغ الاستعلام الإسباني ؟ فإذا لم يؤخذ محمد كرهينة قبل التحاقه بالثورة ، وإذا تمكن في الوقت الذي يريد من قطع علاقاته بمليلية ، فإن الكل سيصبح في حصن حصين. ذلك ما كان يخشاه كافيلا قبل كل شيء. وقد عبر عنه منذ فاتح يوليوز (1915) بهذه العبارات : "تؤكد لي معلومات جديرة بالثقة أن الفقيه عبد الكريم ينتظر قدوم ولده محند قاضي مليلية ، لكي يعمل هذا الأخير علانية ضد اسبانيا. لأنه لن يعود مطلقا إلى مليلية. وقد أظهروا لي الخطر الذي يمثله قدوم السي محند إلى بني ورياغل بمثل هذه النوايا نظرا للنفوذ الذي اكتسبه وسط المتعصبين" [49] .

كان كافيلا يجهل أن تحذيره سيكون له مفعوله هذه المرة على الأقل. لذلك بقي متيقظا. فقد انصرم شهر يوليوز حاملا مجموعة جديدة من الشهادات عن دسائس الوالد دون أن يظهر بعد أي رد فعل وسط الدوائر العليا . وها هو ذا شهر غشت قد بدأ متطابقا مع شهر رمضان . معنى هذا أن الابن بعد أسبوع أو أسبوعين ، وعلى أية حال قبل العيد ، سيأخذ بكل بساطة إجازته العادية ، اللهم إلا إذا اتخذت اجراءات فورية . ومنذئذ سيصبح في مأمن مثل والده . ولن يعود بالإمكان مطلقا رتق الفتق. ينبغي إذن العمل دون اضاعة مزيد من الوقت . تلك هي الغاية من المهمة التي سيتولى القيام بها في مليلية النقيب سست (Sist) .

* * *

منذ وصوله من النكور حيث كان يشغل منصب رئيس للاستخبارات ، سارع سست زوال يوم 15 غشت إلى بيت محمد ، وأخذ بتلابيبه ، ممطرا إياه بالأسئلة والتلميحات ليخلص منها إلى الاتهامات الصريحة . وعلى ما يظهر فإن محمدا الذي اعترته الدهشة وفقد برودة دمه ، أظهر حيال الاستفزاز كل ماهو قادر عليه : كل ما يعرفه سست ، ولكن أشياء أخرى تتجاوز بكثير شكوكه [50] . وهو ما صاغه سست في تقرير وجهه مباشرة إلى الجنرال ايثبورو . نقرأ في هذا التقرير الكلمات التالية .

«إن الضابط الموقع أسفله ، أجرى .. مقابلة مع القاضي السي محند من "المكتب المركزي " ، والتقط من لسانه الكلمات التالية .

1) إنه يبغض الفرنسيين ، ويسعى بالتالي إلى محاربتهم بجميع الوسائل التي هي في متناول يده .

2) إنه يحلم بعظمة الأمة الاسلامية ويتمنى من أعماق قلبه استقلال الأقاليم الريفية التي ما تزال غير محتلة .

3) إنه يمكن بالتأكيد مع نهاية الصراع الأوربي الحالي إدخال تعديلات على المنطقة وشكليات الحماية الاسبانية : فالمنطقة ستصبح محدودة وستقتصر الحماية على الأقاليم المحتلة لحد الآن .

4) إن حزب " تركيا الفتاة" يبذل جهده لاثارة كل العالم الاسلامي ضد الحلفاء .

5) الانتفاضة تعني إعلان الحرب المقدسة ضد جميع أولئك الذين يحاولون اضطهاد الاسلام .

6) إن والده ، الفقيه السي عبد الكريم ، وهو نفسه ، انضما إلى الفكرة تحمسا لها وجعلا من نفسيهما بطلين لها ، ولا شئ يمكن حملهما على التخلي عن عزمهما .

7) إن المهمة الأولى التي يجب إنجازها تتمثل في تعيين حكومة في المنطقة غير المحتلة يكون بإمكانها التفاوض مع اسبانيا بمجرد تشكيلها .

8) إن النتيجة الأولى للعمل الذي سيقوم به مع والده هي فرض مساهمة حربية على بني ورياغل وسائر القبائل .

9) ثم سيتم إنشاء جيش قصد توجيهه ضد فرنسا دون أن ينطوي هذا على أي

تهديد لاسبانيا . من الحق أن قوة كبيرة من الحرس ستتمركز في كرت . إلا أنها لن تقوم بأية مباردة مناوئة ما دامت قواتنا تُمسك عن الزحف . إنها لن تقف إلا ضد هذا الزحف على أمل أن تعترف إحدى المعاهدات الموقعة بعد استتباب السلم في أوربا باستقلال الريف غير المحتل .

10) إن والده لن تطأ له قدم مطلقا شبه جزيرة الحسيمة (النكور) ، كما أنه لن يقدم أبدا إلى مليلية لزيارة سيادتكم .

11) إنه يعتبر هو نفسه أن الاحتلال سيكون بمثابة ضربة قاتلة بالنسبة لبني ورياغل . وسينتصب ضده .

12) على اسبانيا أن تكتفي بالأرض المحتلة وتتخلى عن الباقي" (51) .

كان لهذه الكلمات طنين مخالف تماما للاعترافات الحذرة المحصل عليها لحد الآن . فهي تبين أولا أن محمدا كان شريكا لوالده على طول الخط . وتظهر ثانيا مدى تورط الوالد بما لا يرقى إليه شك . حيث انه كان منهمكا من يومئذ في جمع المقاتلين . نحتى لو جاز الافتراض ، انسياقا مع مزاعمه ، أنه لن يوجّه هؤلاء المقاتلين إلا ضد الفرنسيين . فإنه لن يتيسر له جمعهم إلا بوضعه حدا في القبائل للانشقاقات ، هذه الانشقاقات التي تقوم مهمته بالذات على التحريض عليها . وكان سست ، الذي أحس طبعا "باختفاء هذه الصراعات الداخلية التي تمزق شمل القبائل" . يتخوف بالذات من الخطر الدائم " الذي سيتمخض عن ذلك " في صورة أعمال حربية ضد اسبانيا (52) .

لكن ما الفائدة على كل حال من طرح هذه الأسئلة ؟ إذ أن الأمر لم يعد يتعلق بتقدير ما يمكن أن يسفر عنه المشروع المدبر ضد فرنسا من انعكاسات داخل منطقة النفوذ الاسباني . ألم يصرح محمد ووالده بأنهما سيأخذان على عاتقهما قضية الريف الذي ما يزال مستقلا ؟ صحيح أنهما لن يضعا موضع جدال الحضور الاسباني داخل القبائل التي سبق إخضاعها . لكن إذا كانت خطتهما هي الوقوف ضد مواصلة الغزو المنصوص عليه من طرف الحماية ، فهذا لأنهما على الرغم من تأكيداتهما لن يلبثا أن يوجها ضرباتهما في البداية إلى اسبانيا . كيف لا يمكن إذن الموافقة على توصيات سست الذي طالب منددًا ب " الموقف الخطر لعائلة الفقيه عبد الكريم" باتخاذ" إجراءات من أجل وضع حد ، للمرة الأخيرة ، للنشاط الهدام الذي تقوم به هذه الأسرة" (53) .

مهما يكن فقد اعتبرت القضية خطرة ، إذ أن ايثبورو أحالها فورا إلى خوردانه - المقيم العام - الذي قام من جانبه بتحذير وزارة الدولة بمدريد . ما من شك في أنه

كان من اللائق تمحيص أقوال سست المعروف عنه مشاطرته كافيلا بغضه لعبد الكريم وولده . لكن كان من اللازم بالنظر إلى خطورة التهم اتخاذ إجراءات احتياطية دونما ابطاء . وإن رفض منح الاجازة لمحمد ولأخيه لواحد من هذه الإجراءات الذي سبق اتخاذه . لكن كم هو مجدٍ الإجراء المتعلق بإلقاء القبض على القاضي عبد الكريم نفسه والذي تم التفكير بالفعل بالقيام به في 24 غشت بمناسبة زيارة الجنرال أيثبورو إلى النكور . فإذا قدم من بين " أصدقاء اسبانيا " القاضي عبد الكريم للسلام على الزائر جريا على العادة ، فإن التعليمات التي أعطيت لأيثبورو هي القبض عليه والمجئ به إلى مليلية [54] . إلا أن عبد الكريم الذي خامره الشعور بوجود الفخ لم يوجه تحياته إلا عن طريق الغير . إذ أنه لم يكن ليقبل ، كما أسرَّ بذلك ، بأن يعتقل بدون سبب مثل ولده [55]

سيؤدي إخفاق هذا السعي إلى وضع معقد لن يتراشق فيه الطرفان مع ذلك إلا في حدود معينة . كان الاسبان يرون في محمد ضمانة تفوق التقدير . إلا أن الفائدة الوحيدة التي كانوا يسعون إلى جنيها منه هو وضع حد لنفور الأب لكي ترجع العلاقات إلى سالف عهدها . كان عليهم إذن أن يتجنبوا بخصوصه ما من شأنه أن يصل بالأمور إلى مرحلة يتعذر معها رتق الفتق . أما بخصوص الأب عبد الكريم ، فقد أصبح شغله الشاغل هو التوصل إلى تحرير ولده . وليتسنى له مفاوضة الاسبان في الأمر ، كان عليه بحق إزعاجهم أكثر من أي وقت مضى بتهديدهم بتوجيه أقســى الضربات لهم باستمرار ، لكن دون أن يتجاوز هو الآخر نقطة اللا رجعة . إنه بالاختصار امتحان القوي . لكن مع رغبة كل طرف في التوصل إلى اتفاق .

* * *

على هذه الوتيرة جرت الأمور طيلة سنة تقريبا .

كان من اللازم أن يقوم الجانب الاسباني بدءا بتحقيق في قضية محمد . في البداية استدعى العقيد ركلمي صديقه للإدلاء بروايته عن الحديث الذي دار بينه وبين سست . فأقر له محمد بأنه في غمرة احتداد الغضب الذي أوقعته فيه اتهامات سست أظهر استياءه من الجحود الذي قوبلت به خدمات عائلته بعد سنوات عديدة تعرضت فيها لشتى الخطوب . فإذا كانت اسبانيا تكافئ على هذا النحو أصدقاءها الأكثر اخلاصا ، فماذا تهيئه لأولئك الذين كان من الممكن أن يحاربوها إلى النهاية بأعداد وافرة ؟ كيف لا يتخوف على الريفيين من فقدان استقلالهم ؟ من الحق أن هذه الكلمات كانت فلتات لسان ، لكنها لم تنزلق إلا بتأثير الغضب لأنها لا تتمشى مع اعتقاداته . فلئن كان

يتحسر كسائر المغاربة على خضوع بلاده للمسيحيين ، فإنه يدرك بكل أسف أن هذا هو الأمر المحتوم الذي لا مفر منه في المستقبل . وبما أنه يتعين في كل الاحوال الخضوع لسيد أجنبي ، فإنه يفضل اسبانيا ولن يخونها أبدا . صحيح أنه تحدث إلى سست عن حكومة مستقلة في الريف أو اللجوء إلى مساهمة حربية . إلا أن الأمر يتعلق بمجرد أفكار كانت تناقش بالفعل بين القبائل ولا ضلع له ولا لوالده في الأمر . وجملة القول ، فقد أبدى تكذيبا قاطعا (56) .

من كان بوسعه ، باستثناء العقيد ركلمي ، أن يومن بمثل هذا التكذيب ؟ سيما وأن محمدا بدا ضعيف الذاكرة بشكل غريب . فأن تكون قد أثيرت مثلا مسألة " تركيا الفتاة " فذلك ما لا يتذكره . إنه ينكر على كل حال . ومن ثم وجه خوردانه من تطوان أوامره إلى الجنرال أيثيورو باستقدام سست مرة أخرى إلى مليلية ومواجهة الرجلين . هذا وقد اعتبرت نتيجة المواجهة في غير صالح محمد كما يثبت ذلك التقرير الذي وجهه إلى مدريد المقيم العام خوردانه والذي نقرأ فيه :

"بالفعل ، ظهر جليا أن (السي محند) يكن لألمانيا عطفا عميقا ولفرنسا حقدا متأصلا . وحيث إن دسائس والده عبد الكريم لا تقف بكل أسف عند البوح بهذا التعاطف ، ولا عند العمل في حدود ما يوحي به هذا الحقد ، بل تستهدف أيضا مسائل تعنينا كثيرا ، مثل تحقيق الاستقلال في المستقبل لكل الريف الذي ما يزال إلى اليوم غير محتل من طرف اسبانيا ، فإنه لا مجال للشك في أن الابن شريك في كل هذه الدسائس ولو أنه ما يزال في غير المستطاع القول إلى أي حد ، وتتأكد بذلك صحة تصريحات النقيب سست . إن الموقف المتكلف للسي محند ، الذي كان متضايقا خلال المواجهة ، اللهم إلا عندما كان يعبر عن عواطفه المتحمسة التي يكنها لألمانيا أو عن عداوته لفرنسا ، لا ينطلق إلا من تخوفه من أن تتأكد أيضا المسائل المتعلقة بنشاطه الهادف إلى المحافظة على استقلال الريف ، وهي مسائل تهم اسبانيا ، لا الدولتين الذكورتين وتشكل ذيلا للمخططات المضادة لفرنسا التي يحضرها سيدي عبد الكريم وأصحابه " (57) .

الخلاصة التي استخلصها خوردانه من كل هذا هي استحالة السماح لمحمد بالاستمرار في وظائفه أو المحافظة على حريته . من ثم قرر إقالته ، واتهامه بالخيانة العظمى ووضعه في معقل في انتظار محاكمته ، وهذا مع كامل الاعتبار الذي يليق بمقامه (58) . في هذا الصدد . وجه في 6 شتنبر (1915) أوامره عن طريق التلغراف إلى مليلية مبينا ضرورة اخبار حاكم الحسيمة (النكور) ليتم بذلك ارغام القاضي عبد الكريم

نفسه على العودة إلى جادة الصواب (59) . في نفس هذا اليوم تم اعتقال السي محند ، وكان العقيد ركلمي نفسه هو الذي كلف بتنفيذ العملية " رغم صداقته الحميمة " (60) . مما كان شجبا مذلا للثقة العمياء التي أظهرها حيال المتهم حتى النهاية .

كما نرى ، فإن السبب الحقيقي في سوء بخت محمد يكمن فيما نسب إليه وإلى والده على حد سواء من إرادة الوقوف منذئذ ضد الزحف الاسباني في الريف . إنه سبب مرتبط بالسياسة الداخلية لاسبانيا ولا علاقة له البتة بالمطالب المزعومة التي تكون الرباط قد تقدمت بها وفق ما تقوله أسطورة اختلقت مؤخرا (61) . الحقيقة أن ليوطي كان يجهل في هذا الوقت كل شئ عن محمد ، وسيظل فوق ذلك على غير علم بأمر اعتقاله (62) .

من المؤكد أن الإجراء كان قمينا بأن يوافق هوى الفرنسيين شريطة تزكيته بالمبررات المناسبة . وقد بادرت مدريد إلى الاستظهار به أمام فرنسا متحاشية مع ذلك الاشارة بالاسم إلى المعنى بالأمر (63) . بيد أن تلك طريقة لاصابة عصفورين بحجرة واحدة . إن هذا لا يعني بالمقابل أنه يتوجب علينا تصديق احتجاجات ليوطي المتعلقة بتعاطف الاسبانيين بل وبتواطئهم مع النشاط المضاد للفرنسيين في الريف (64) . إن الأمر بخلاف ذلك بكثير . فبعد مرور عشرة أيام على اعتقال السي محمد ، قام خوردانه خلال زيارة له إلى الرباط بتقديم التأكيد التالي لليوطي :

" سأبذل كل طاقتي لمنع عناصر المنطقة التي تمارس فيها اسبانيا حمايتها من احداث أدنى اضطراب في السبيل المتبع من طرف فخامتكم " (65) .

إن الموقف المتخذ لحد الآن حيال القاضي عبد الكريم ليظهر لنا أن هذه الكلمات ما هي إلا تعبيرصادق عن ممارسة فعلية حددت بكامل الحرية . وكل ما سيطرأ من أحداث فيما بعد سيؤكد ذلك كما سنرى .

* * *

لقد فوجئ القاضي عبد الكريم وولده محمد وتأثرا تأثرا واضحا من جراء حدة وقساوة رد الفعل الاسباني ، مع العلم أن الأول ظل متمتعا بحريته في أجدير بينما أصبح الثاني معتقلا بإحدى القلاع التي تحمي مليلية (Cabrerizas altas) . وكان الأب منذ أن علم بمدى الغضب الذي استولى على أيثبورو بسبب تهربه من ملاقاته يوم زيارته التفقدية لقاعدة النكور قد رأى من المناسب توجيه رسالة إلى الجنرال للاعتذار وطلب العفو . وهي رسالة مرتبكة لم يكن بالوسع الافصاح فيها عن كل شئ ، كما لم يكن

مسموحا فيها حتى فيما يخص العموميات إلا بالتلميحات .

فعندما حاول صاحبها مثلا تبرير تغيبه ، فإنه تعلل ب " الحسد ، والتعصب ، والجور و والجهل " الذي يسود وسط القوم الذين يعيش بينهم ، وكتب يقول : " يلزم هناك كثير من المراوغة والدهاء ، وكثير من الدعم ، لكي يحمي المرء نفسه ومتاعه ويصون شرف أسرته " (66) . فكيف كان في مقدوره القول : إن "التعصب والجور " إنما هما الحمية الوطنية وإنه هو نفسه استسلم أمام مدّ المقاومة المتصاعد بعد أن عجز عن الوقوف ضده ؟

والحال أن ذلك ما كان عليه حقا أن يحاول توضيحه ويطلب الصفح عنه . ولئن ذكر في هذا الصدد بخدماته الجليلة الماضية ، فإنه لم يشر مع ذلك بما يوحي بأنه سيقدم خدمات أخرى في المستقبل . والالتزام الوحيد الذي التزم به ، سواء بالنسبة إليه أو إلى ولده محمد ، هو عدم الانقلاب أبدا ضد اسبانيا : " إن الخيانة ليست من شيمتنا ولا من عادتنا . وعندما جئنا نحوكم ، فإن ذلك لم يكن تصرفا يكافأ عنه مكافأة مالية . إننا لم نحاول خيانة بلادنا ولا ديننا . وإن الظروف هي التي اقتضت الأمر وقتذاك" . وهذا نوع من التلميح إلى أن الظروف تغيرت اليوم .

ويقول المؤلف في الختام : " لكن مهما رأيتمونا نسلك من طريق ، فإن ذلك سيكون في مصلحتنا ومصلحتكم في آن واحد ، أو على الأقل في مصلحتنا دون الاجحاف بكم " (67) .

لم تكن هذه الكلمات - وهيهات ذلك - لتعمل على تسكين الغضب الاسباني . إلا أن طلب العفو ، والرغبة المتكررة في إبقاء روابط الصداقة القديمة في حالة سالمة ، بل والحاجة إلى توضيح موقفه وتبرئة نفسه ، كل هذا يبين إلى أي حد كان القاضي منزعجا منذ ذلك الحين لمجرد الغضبة الاسبانية . فندرك إذن حيرته عندما وافاه الخبر الصاعق المتعلق بالزج بولده في السجن والتهمة العظيمة التي عليه أن يتحمل مسؤوليتها . وقد كتب في الحين إلى الجنرال أيثبورو قائلا :

"خلال مناسبتين سلمتك ولدي كرهينتين لتتمكن من النزول بساحل قبيلتي . لقد أحرق بيتي ، وأديت الغرامات ، ووجدت نفسي مضطرا إلى الهروب بعيدا مع كافة أسرتي ، كما احتقرت علنا ، وطردت من جميع القبائل . وسلبت بلا موجب من نتاج أرضي ، وحرمت من حق استيفاء ديوني ، وهذا دون اعتبار أعمال أخرى باعثها الحقد كذلك " . ذلك هو الجزاء الذي هيأته له اسبانيا الآن . ويضيف معترفا : " لا يمكن لي

نفي مشاركتي في الأحداث الراهنة ، لكنني لم أكن أعلم أن ذلك سيلحق ضررا بكم " (68) .

إن اللهجة المريرة ، الشاكية ، المشوبة بمسحة من الندامة ، أظهرت للاسبان أن ضربتهم أصابت أهدافها كاملة . ودفعتهم بالتالي إلى الاكتفاء بالخطة التي رسموها . وهكذا فإن أيثبورو لم يتفضل حتى بالإجابة . أما بالنسبة إلى المقيم العام خودانه ، فقد ترك المبعوث الذي أوفده " صديقه الحميم " عبد الكريم حتى إلى تطوان ، ينتظر أمام بابه مدة شهر بدون جدوى (69) .

* * *

بالنسبة إلى محمد هو الآخر ، شكل الحادث صحوة قاسية . إن أهميته الذاتية ، وصداقاته ، ونفوذه على الصعيد المحلي ، كل ذلك كان قد أثمله وأوهمه بأنه رجل له وزنه في حد ذاته . فإذا بجدران سجنه تذكره فجأة بأن وضعيته ، وحريته ، وحتى حياته ، متوقفة في نهاية المطاف على حسن إرادة الاسبان . على أنه لم يكن يختزن لهم أي بغض . على العكس كان يمني النفس ، وسيمنيها كذلك لمدة طويلة ، بهذا الأمل الساذج وهو أن مشاريعه يمكن أن تتحقق في ظل الوفاق عن طريق تعزيز عرى الصداقة القديمة . كل هذا دفعه عبر مزيج من الندامة والغيظ الحقيقي إلى أن يدافع عن نفسه ضد تهمة الخيانة . هل يمكن لبضع كلمات انزلقت في نوبة غضب خلال محادثة خصوصية أن تمحو تلك الخدمات الجمة الحقيقية المتراكمة منذ عدة سنوات ؟ أو بالأحرى هل عليه أن يعاقب بسبب هذه الخدمات نفسها حيث إنها هي التي أثارت قلق حاكم الحسيمة الذي ظهر الآن المدبر الحقيقي للمكيدة وراء سبست ؟ مهما كان الأمر فإنه كان على استعداد ، كما أخبر الجنرال أيثبورو ، لتقويض التهمة الملصقة به من أساسها عن طريق دعوة والده إلى الكف عن كل عمل سياسي سواء في هذا الاتجاه أو ذاك ، وأن ينزوي ليعيش عيشة خاصة في مليلية أو في تطوان أو في أي مكان يعين له (70) .

نتذكر أن الأب لما وعد الاسبان بعدم الوقوف ضد مصالحهم ، كان قد أومأ مع ذلك إلى أنه لن يتخلى عن خوض الكفاح المسلح ضد فرنسا تحت رعاية الألمان أو الترك . فإذا به مهيأ الآن لهذا التخلي طالما أنه سيحتجب نهائيا عن الحياة السياسية كما وعد ولده باقتناعه بذلك . إنه تنازل هام من شأنه أن يطمئن الاسبان سواء فيما يخص أمر الحياد في الصراع العالمي أو فيما يخص المشاريع الحقيقية أو المفترضة للقاضي عبد الكريم والمتعلقة بوقوفه في سبيلهم . لكن بالرغم من كونه مطمئنا فإنه لم يكن ليرضيهم .

فلئن كانوا ينتظرون من عميلهم التخلي عن كل نشاط مستقل ، وأكثر من ذلك عن كل نشاط معاد ، فإن هذا لا يعني إحالته على المعاش . كانوا في حاجة كبيرة إليه . ورغم نفوره الذي بات واضحا منذئذ ، فإنهم كانوا يؤملون لا أقل ولا أكثر أن يحملوه على استئناف خدمته معهم . أما عروض محمد المخيبة لهذا الأمل فلم تؤخذ بعين الاعتبار ، ولم توقف أو تعرقل التحقيق في القضية .

هوامــــش

1) "تجري إشاعات مفادها أن ولد عبد الكريم كتب لوالده مصرحا له بأن الألمان هم الذين يحققون النصر في الحرب " . برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليلية بتاريخ 18 غشت 1914 (S .H . M . I , 7 , 37)

2) "ذلك أن الفرنسيين تخلوا عن تازة ومواقع أخرى " . برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليلية بتاريخ 21 غشت 1914 تتعلق برواية الأخبار الرائجة بين القبائل (S .H . M . I , 7 , 42)

3) رسالة بالعربية من محمد بن عبد الكريم إلى العميد خوصي بربتا (Jose Barbeta) بتاريخ 29 غشت 1914 (S .H . M . I I , 2)

رسالة غير مفهرسة في الملف الفرعي ، ولكنها مسجلة تحت رقم 897 عند وصولها إلى مكتب مليلية

(Subinspección de tropas y Asuntos indigenas)

انظر كذلك برقية من الحسيمة إلى مليلية بتاريخ 18 غشت 1914 المشار إليها في الهامش 1 .

4) نفس المصدر الوارد في الهامش 2 .

5) " إن سيدي عبد الكريم مصر على الانعزال ولم يقم بأية محاولة لمنع الرجال من التوجه إلى كرت " . برقية من الحسيمة إلى مليلية بتاريخ 18 غشت 1914 ، وهي مذكورة في الهامش 1 .

6) تقرير شفوي لمحمد بن عبد الكريم ، مسجل في " المكتب المركزي " بتاريخ 18 غشت 1914

(S .H . M .,Mel . I , 7 , 43)

7) برقية من الحسيمة بتاريخ 21 غشت 1914 (S .H . M ., Mel I , 7 , 217)

8) شهادة النقيب خوصي بربتا ، وهي مدرجة في ملف التحقيق المتعلق بقضية محمد بن عبد الكريم . في نونبر 1915 (S .H . M ., Mel , II , 12,32 à 38)

في برقية الجنرال ايثبورو (حاكم مليلية) إلى المقيم العام خوردانة بتاريخ 28 يناير 1917 نقرا كذلك مايلي : " يؤكد لي ركلمي مناورات شدي لبث التفرقة بين الخطابي (عبد الكريم) وبوزجيلة وإثارة أصحاب المعاشات القدماء التابعين لفقيه (عبد الكريم) ضد هذا الأخير وضد السي محند (ولده) " (S .H . M ., Mel, II, 10,43)

في شهادته أمام لجنة التحقيق التابعة للكورتيس بتاريخ 29 يوليوز 1923 ، عزا العقيد ركلمي عداوة حاكم الحسيمة (النكور) للقاضي عبد الكريم إلى دسائس منافسه "شدي" الذي كان يتمتع بامتياز التحدث بالاسبانية ويقض مضاجع حاكم القاعدة بالوشايات :

De Anual a la República ... ; op. cit .; p. 17 .

9) شهادة العقيد روبرتو (Roberto) ، وهي مدرجة في ملف التحقيق المتعلق بقضية السي محمد بن عبد الكريم ، والمشار إليه في الهامش 8 .

10) شهادة النقيب بربتا المشار إليه في الهامش 8 .

11) انظر ما سبق ذكره في ص (192 - 193) .

12) برقية الحسيمة إلى مليلية بتاريخ 20 شتنبر 1914 (S .H . M . ; Mel.; II , 2 ; 129)

13) انظر ما تقدم في 202 - 204 .

14) برقية من خوردانه ، الحاكم العام لمليلية ، إلى الحسيمة (النكور) بتاريخ 23 غشت 1914

(S .H . M ., Mel., I , 7 ; 33)

15) رسالة من القاضي عبد الكريم (بالعربية) إلى الجنرال خوردانه بتاريخ 13 شوال 1332 / 4 شتنبر 1914 .

(S . H . M . ; Mel.;....). لا نعرف لسوء الحظ رقم الملف الذي استخرجت منه هذه الرسالة لتصويرها . إلا أننا نتوفر على هذه النسخة المصورة وأصلها مسجل عند وصولها إلى (S . T . A . I) بتاريخ 8 شتنبر 1914 تحت رقم 0909 من " الرسالة العربية" .

16) " يصرح السي محمد بن عبد الكريم .. بأن عائلته تعمل اليوم أكثر من أي وقت مضى بكل إخلاص لصالح القضية الاسبانية ، لأن ذويه مقتنعون كل الاقتناع بأن لا سبيل آخر لهم إلا العمل في هذا الاتجاه " . تقرير شفوي سبقت الإشارة إليه في الهامش 6 .

17) رسالة الجنرال خوردانه إلى القاضي عبد الكريم بتاريخ شتنبر 1914

(S .H . M ., Mel., I , 7 , 20)

18) رسالة بالعربية من القاضي عبد الكريم إلى الجنرال خوردانه بتاريخ 29 ذي القعدة 1332 / 18 نونبر 1914 ، وهي مسجلة في (S . T . A . I) بتاريخ فاتح اكتوبر 1914 تحت رقم 1083 ضمن ملف " رسائل عربية " وتوجد محفوظة في (S . H . M) بنفس الحالة التي سبق ذكرها في الهامش 15 .

19) قرار القطاع الثالث من القيادة العامة لمليلية (Comandancia general de Mellila) بتاريخ 15 فبراير 1915

(S. H . M ., Mel . , I , 8 , 4 et 6)

20) نفس المصدر المذكور في الهامش 18 .

21) تم التصريح بهذا القرار في 7 نونبر 1914 من طرف شيخ الإسلام في الامبراطورية العثمانية ، وجدد في ميثاق موجه إلى العالم الإسلامي في 23 من نفس الشهر تحت كفالة السلطان : George ANTONIUS : The Arab Awakening

الطبعة الثالثة من الترجمة العربية " يقظة العرب " ، بيروت 1969 . ص 222 .

22) تقرير حول تصريحات محمد بن عبد الكريم إلى العقيد ركلمي بتاريخ 3 غشت 1915 .

(S . H . M ., Mel ., II, 9, 15)

23) المصدر نفسه .

24) المصدر نفسه .

25) انظر ما تقدم في ص193 - 194 : 195 : 197 .

26) انظر ما تقدم في ص 205 - 206

27) رسالة من كافيلا (حاكم قاعدة النكور -الحسيمة -) إلى الجنرال خوردانه بتاريخ 15 ماي 1915

(S . H . M ; Mel ., II, 6, 38)

تفضل بنسخ هذه الوثيقة لمؤلف الكولونيل الدون رامون سانشيس دياث (Ramón Sánchez Díaz)

من المصلحة التاريخية العسكرية بمدريد (Servicio Histórico Militar de Madrid)

28) تقرير حول العمل السياسي المنجز بالحسيمة (النكور) بين 20 ماي و 10 يونيو 1915

(S . H . M ., Mel., II, 9, 68)

29) المصدر نفسه .

30) نفسه .

31) برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليلية بتاريخ فاتح يوليوز (S . H . M, Mel . II, 9, 81)

32) المصدر نفسه .

33) برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليلية (S . H . M ., Mel . , II, 14, 8)

هذه البرقية غير مؤرخة ، لكن حسب مضمونها يمكن إرجاعها إلى ما بعد 15 ماي وبالضبط قبل 3 غشت 1915 .

34) نفس المصدر المذكور في الهامش 28 .

35) شهادة التقطت من طرف مصلحة الاستخبارات بالحسيمة (النكور) بتاريخ يوليوز 1915

(S . H . M . Mel . II , 14,8) انظر كذلك المصدر المشار إليه في الهامش 22 .

36) كثير من المؤلفين ، وكذلك عدد من المصادر المتنوعة ، يقدمون عبد المالك على أساس انه ابن للزعيم الجزائري عبد القادر . وهو نفسه ادعى ذلك . إن الأمر يتعلق دون شك بخطأ لدى البعض وبمخادعة من جانبه . هناك ما يؤكد بأنه كان في الحقيقة ابنا لمحيي الدين الذي كان هو نفسه ابنا لعبد القادر . فقد وجهت إليه رسالة رسمية من طرف مولاي عبد الحفيظ عثرنا عليها في " تلغرامة الريف " وقد نشرتها في حينها بتاريخ 6 أبريل 1911 ، وخاطبه فيها السلطان بقوله :" محبنا وخديمنا الأرضى وكيل وزيرنا في القوات الأمنية بمراسي مملكتنا الأسعد الطالب عبد المالك بن محيي الدين " . حول بداية حركة عبد المالك انظر " نشرة لجنة افرقيا الفرنسية" ، غشت - شتنبر 1915 ، وبناير 1916 . وكذلك محمد أزرقان : " الظل الوريف في محاربة الريف " ص 18 و ما يليها من المخطوط (مصدر سبق ذكره) . وكذلك عبد الرحمن ابن زيدان " اتحاف إعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس " ، الرباط 1929 ، ج 1 ، ص 407 و 410 . هذا وقد تم اشعار الفرنسيين في يوليوز 1915 بمجيء عبد المالك إلى نواحي تازة : " التقرير الشهري للحماية " ، يوليوز 1915 .

37) في 7 يونيو نبهت مصالح الاستعلامات الفرنسية إلى وصول رجل إلى ملقا ، ذلك الذي عرفته " ب" المهندس الالماني (Lang) المدعو فارل " : Lyautey l'Africain, op. cit., p. 285 note du vol .III

وكان الريفيون بالفعل يسمون هذا الشخص بالاسم المختصر "فار" . انظر كذلك مخطوطة " لارينون" ترجمة التهامي الزمروي ، مصدر سبق ذكره ، فصل : " وصول فارل" .

38) رواية شفوية لأحمد الحاتمي بأجدير ، التقطها المؤلف بنفسه . و الحاتمي هذا هو أحد أقرباء القاضي عبد الكريم ، وكان عليه هو نفسه أن يستضيف الالماني ويراقبه في تنقلاته ويسميه " قنصل ألمانيا المسمى فر" .

39) يخبرنا محمد ازرقان انه تدم بالفعل هذه الاقتراحات إلى قبيلة بني سعيد ، مصدر سبق ذكره ، ص 18 - 19.

39 مكرر) في 11 يناير 1916 سلمت الاقامة العامة بالرباط باريس نص منشور تقول إنه ضبط عند بني مستارة ، وهي قبيلة بمنطقة وزان ، جاء فيه أن ألمانيا وتركيا تضمنان الاستقلال للمغاربة (المصلحة التاريخية للجيش بفانسين ،

(S . H . A ., E . 12 bis)

40) في مخطوطة " لارينون" (مصدر سبق ذكره) ، سيؤكد محمدبن عبد الكريم جزئيا لا غير زعمنا متحاشيا القول بالطبع ، بالنظر إلى الظروف التي كتب فيها المخطوط ، بأنه حاز باقتراحات الالماني : " لقد استخدم هذا الرجل (فارل) كمهندس في بني يفرور من طرف شركة ألمانية قبل الحرب العظمى . إلا أننا لم نكن نعرفه . عندما سألته عمّا ينتظره منا ، قال لي : " أريد أن تساعدني على السفر إلى الريف وعلى أن أقوم هنالك بدعايتي ضد فرنسا " . وقد بينت له أن الريفيين ، بالنظر إلى حالة الريف بمنطقة الحماية الاسبانية ، لن يستجيبوا لنشاط من هذا القبيل وأن عدوهم الوحيد هو اسبانيا التي جاءت لاحتلال بلادهم . فقال : ووالدك ؟ فأجبته بأن تصريحاته والأخبار التي تلقيتها في هذا الموضوع ، كل ذلك على حد سواء يدعو إلى الاعتقاد بأن والدي يريد أن يحافظ على موقف الحياد . " (وصول فارل) . هذا التحفظ المزعوم لمحمد أمام اقتراحات فارل يكذبه تكذيبا قاطعا كل ما سنورده فيما بعد والذي أقمناه بناء على مجموعة وثائقية لا يمكن الطعن فيها .

41) شهادة أحمد الحاتمي المشار إليها في الهامش 38 .

42) تقرير العقيد ركلمي حول التصريحات التي قدمها له محمد بن عبد الكريم بتاريخ 3 غشت 1915

(S . H . M., Mel., II, 9, 15)

43) المصدر نفسه .

44) نفسه .

45) رسالة من القاضي محمد إلى والده عبد الكريم بتاريخ 7 غشت 1915 (S . H . M., II, 9, 22 à 29) الترجمة الاسبانية

46) محضر المحادثة التي دارت بين السي محمد والعقيد ركلمي بتاريخ 21 غشت 1915

(S . H . M, Mel . II, 9, 5)

47) الوثيقة رقم 18 الملحقة بتقرير ركلمي حول تصريحات محمد بتاريخ 3 غشت 1915

(S . H . M, Mel . II, 9, 15)

هذه الوثيقة تتضمن طلب الرخصة الذي تقدم به محمد . لكننا نقرأ فيها الملاحظة التالية المكتوبة بقلم الرصاص : " رخصة مرفوضة

من طرف سيادة المقيم العام " . هذا يعني أن المسألة رفعت من يومئذ إلى أعلى سلطة .

48) " عندما سألت ابن أخ السي عبد الكريم فيما كان عمه حقا قد أجرى اتصالات مع الالمان ، قال لي إنه في ليلة وصولهم نزلوا عند السي عبد الكريم ثم رحلوا في اليوم التالي عند الحاج السي محند بن علي حيث ظلوا إلى اليوم ، وهو تاريخ انطلاقهم ... كان عددهم ثلاثة " . رسالة من انطونيو إيبنكوس Antonio Ibancos ، تاجر بالنكور وصديق القاضي عبد الكريم ، موجهة إلى الجنرال ايشبورو بتاريخ 31 غشت 1915 (S . H . M, Mel . II, 12, 13) .

49) برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليلية بتاريخ فاتح يوليوز 1915

(S . H . M ., Mel ., II, 9 , 81) .

50) سيصرح العقيد ركلمي فيما بعد أمام اللجنة البرلمانية للتحقيق حول " المسؤوليات" بصدد هذه المقابلة الغريبة . " ان رئيس المكتب بالحسيمة (سست) ظهر بمليلية التي قدم إليها في بشكل لا جدال فيه في مهمة مطاوية ... ليلتقي فيها بعبد الكريم (السي محند) ليحاول أن ينتزع منه الاعترافات حول أفكاره وعواطفه الخاصة المتعلقة بالحماية وبعمل الاسبان " .

De Anual a la República , op. cit . ; p. 118 .

51) تقرير النقيب سست حول تصريحات القاضي السي محند بن عبد الكريم بتاريخ 15 غشت 1915

(S . H . M ., Mel., II, 14, 10)

52) المصدر نفسه .

53) نفسه .

54) عندما سأل ايشبورو المقيم العام في برقية يوم 22 غشت فيما بعد إذا كان عليه عندما يأتي القاضي عبد الكريم للسلام عليه في الحسيمة (النكور) أن يقوده إلى مليلية أو فقط أن يثق بوعده بالتوجه إليها من تلقاء نفسه ، أجاب المقيم العام في اليوم التالي . " خذه إلى مليلية وانتظر تعليماتي " ، مذكرة حول قضية محمد بن عبد الكريم

(S . H . M ., Mel ., II, 10) أعطت لدينا رقم هذه الوثيقة في الملف الفرعي .

55) نفس المصدرين المشار إليهما في الهامشين 49 و 55 .

56) تقرير العقيد ركلمي حول الشروح التي قدمها السي محند بن عبد الكريم بخصوص تبليغ سست ، بتاريخ 21 غشت 1915
(S. H. M. , Mel., II, 9, 5.)

57) رسالة من المقيم العام خوردانة بتطوان إلى وزير الدولة الماركيز دي لما (de Lema) بمدريد بتاريخ 7 شتنبر 1915

(S . H M : Mel . ; 12 ; 104)

58) المصدر نفسه .

59) مذكرة حول قضية السي محند بن عبد الكريم وقد سبقت الاشارة إليهما في الهامش 55 .

60) المصدر نفسه . وكذلك شهادة العقيد ركلمي أمام لجنة التحقيق البرلمانية :

(De Anual a la República, op. cit., p. 118)

61) أسطورة متداولة لدى عديد من الكتاب الفرنسيين والاسبان . وهكذا فإن سنشس برز (Sanchez Perez) الذي يعرف عنه أنه يأخذ الخبر من مصدره صرح في محاضرة تدريب عبد الكريم وأمام ضباط اسبان للشؤون الأهلية : « إن البيوطي بعد أن علم بالأقوال المضادة للفرنسيين تفوه بها علنا السي محند ، عمد إلى قلمه ليطالب الاسبان باتخاذ الاجراءات التاديبية ضده ، كاتبا "كاتبها بهذا الصفحة الأولى من مأساة أنوال " :.

Andrés Sánchez Peréz : Abdelkrim ; in " Selección de conferencias y trabajos realizados por la Academia de Interventores durante el curso 1949 - 50", Imprenta del Majzen, Tetouan, 1950 .

62) سيظل ليوطي ومصالحه على نفس هذه الحالة من الجهل التام بأمر محمد بن عبد الكريم وهذا إلى أن يصبح معروفا على الصعيد العالمي بعد معركة أنوال . من الحق أن بعض الإشارات وردت بصدده في الوثائق الفرنسية قبل هذا التاريخ ، لكن لنبث فيما : " الأولى مؤرخة في 28 يونيو 1960 أي بعد زهاء سنة من الأحداث التي ترويها . وفيما يلي نصها الكامل : " تم نقل 600 بندقية من نوع موسر (Mauser) وستة بغال محملة بالرصاص إلى عبد المالك من طرف ولد سيد السي عبد الكريم ، كاتب المخزن بمليلية " .

(تقرير الحماية الشهري " ، يونيو 1916 . إنه بالتأكيد خبر لا يترك أي مجال للشك فيه بالنظر إلى دقته . لكن من سمي هنا بولد عبد الكريم ونعت خطأ بوصفه " كاتب المخزن " ، كان في 28 يونيو 1916 قد اعتقل منذ عشرة شهور . ذلك ما يؤكد لنا هذا الجهل الذي تحدثنا عنه ويظهر في نفس الوقت حدود الثقة التي ينبغي أن نوليها في القضية لادعاءات ليوطي في المستقبل والمتعلقة بالحالة في المنطقة الاسبانية .

63) " لقد بينت مسبقا أمام سفير فرنسا أنكم اعتقلتم زعيما ، لكن دون أن أشير إلى من هو " . رسالة من وزير الدولة إلى المقيم العام خورداته بتاريخ 11 شتنبر 1915 (S . H . M, Mel ., II, 13, 1)

64) منذ 11 ابريل 1915 أبرق ليوطي إلى باريس : " منذ بضعة أيام ، فإن النشاط الالماني يمارس على جميع العناصر المنشقة ويجد في المنطقة الاسبانية كل التسهيلات إن لم تقل الدعم "

(télégramme n° 118 G ., S . H . A ., à Vincennes, 12, bis)

في مناسبة أخرى سيتحدث عن " لا مبالاة أو تواطؤ السلطات الاسبانية " برقية إلى الشؤون الخارجية

(n° 138 du 25 juin 1917 ; S.H.A. ; Vincennes ; E ; 12 bis)

ذلك ما سيكون عليه المحور الثابت لتقاريره عن المنطقة الاسبانية حتى نهاية الحرب العالمية .

65) B . C . A. F., Septembre 1915, p. 262

66) رسالة بالعربية من القاضي عبد الكريم إلى الجنرال ايثبورو بتاريخ 30 غشت 1915

(S . H . M, Mel ., II , 12 n 118)

67) المصدر نفسه .

68) رسالة (بالترجمة الاسبانية) من القاضي عبد الكريم إلى الجنرال ايثبورو 9 شتنبر 1915

(S . H . M ., Mel. II, 12, 91)

69) شهادة شفوية من المبعوث المعني بالأمر السي أحمد الحاتمي . التقطها المؤلف .

70) تصريحات السي محند التقطت في السجن من طرف العقيد ركلمي وأبلغت بواسطته إلى الجنرال ايثبورو

(S . H . M, Mel ., II, 9, 35, 36)

القطـــيعـــة

كان السي محند متهما بخيانة القضية الاسبانية وذلك بتحريضه الأهالي على مقاومة اسبانيا فيما تبذله من جهود لاحتلال الريف وإدراجه ضمن حمايتها ؛ صحيح أن والده كان يقود هذا العمل بين القبائل ، إلا أنه هو الذي كان يذكي لهيبه ويوجهه انطلاقا من مليلية [1] .

على أي أساس قام الاتهام ؟ في الحقيقة أنه لم يستند سوى إلى تقرير سست (Sist) الذي لم يأت أي عنصر مادي لتدعيمه . فانه لم يتم العثور على ما يستحق الذكر لدى المتهم عدا بعض منشورات "تركيا الفتاة" التي لا علاقة لها بالقضية ولا يمكن أن يشكل وجودها في حد ذاته اثباتا للتهمة [2] . من الحق أن هناك شهادة تقول ان السي محند قام منذ سنتين بتحريض القبائل ضد عملية انزال بحرى . لكن هل يمكن أن يكون لهذه الشهادة اليتيمة الصادرة عن كافيلا ، رئيس سست ، وزن كبير ؟ سيما وأنها ليست مباشرة ولا تعدو أن تكون تذكيرا بمعلومات لا سبيل الى التأكد من صحتها [3] .

على عكس سست وكافيلا ، فان الذين كانوا أكثر تأهيلا منهما لتقييم نشاط السي محند ، بحكم تواجده بجانبهم أو تحت اشرافهم ، لم يترددوا في الدفاع عنه .

فرئيسه العقيد ريكلمي كان يذكر بالنكبات التي أدت بها أسرته ثمن تفانيها في خدمة اسبانيا ، ويؤكد أن السي محند قام دائما بمهامه بذكاء واخلاص . ومما أضافه في هذا الصدد : بالطبع أن بعض التغيير انتابه منذ الحرب العالمية اذ انحاز بكل عواطفه لصالح ألمانيا وضد فرنسا بعد اندلاعها ببضعة شهور ، بل وأبدى حتى استعداده للتخلي عن وظيفته القضائية لينضم بكل حرية إلى جانب الألمان ؛ بيد أننا أقنعناه بالعدول عن موقفه هذا وحملناه على التعهد بالتزام الحياد التام ، وقد وفى بوعده ؛ أما بخصوص اخلاصه للقضية الاسبانية فانه لم يطرأ عليه تغيير من جراء تأييده هذا لألمانيا ؛ ولئن تذرع بالدعاية الجرمانية التركية فلأنها كانت دائما في نظره وسيلة لتخفيف العبء عن اسبانيا والقائه على كاهل الفرنسيين [4] .

أما بالنسبة للنقيب بربطا (Barbeta) ، وهو أيضا عضو في "المكتب المركزي" ، فانه لم يستبعد أن يكون السي محند قد مارس نوعا من التأثير على والده لكن من دون أن يخاطر بممارسته ضد اسبانيا ؛ لقد كان اخلاصه صادقا كل الصدق كاخلاص أي

رجل اسباني قح ؛ بيد أنه كان ضحية مع والده لحسد قديم تفاقم أمره منذ أن شجعت مليلية بشكل ظاهر القاضي عبد الكريم على حرية العمل بدون رقابة من سلطات النكور ؛ فمن عدم الحكمة اذن أخذ الأقاويل الرائجة حول الرجلين بدون تبصر كما فعلت هذه السلطات[5] .

تلك كانت أيضا أطروحة السي محند الذي كان يحتج بأن نجاحه الشخصي في مليلية ساهم كثيرا في استثارة الحسد بين اخوانه الريفيين ؛ صحيح أن والده لم يحجم عن تقديم مساعدته لألمانيا ؛ صحيح أنه لم يكن ليتعاطف مع فرنسا التي جزأت بلاده واستعبدت أهلها ؛ لكن مادخل كل هذا في موقفه من اسبانيا التي سيواصل خدمة قضيتها بنفس الاخلاص الذي بذله الى اليوم ؟ وحتى لو سولت له نفسه أن يخونها حقا ، فمن ذا الذي سيصدقه بين الريفيين ، ناهيك بقبوله بين صفوفهم ؟ لقد كان اخلاصه اذن ضرورة بقدر ما كان واجبا وتعبيرا عن الاعتراف بالجميل [6] .

من كل هذه المعطيات ، من تصريحات وشهادات ، استخلص القاضي المكلف بالتحقيق في 5 نوفمبر 1915 أن القاضي محند ، الذي انساق وراء فكرة احتمال النصر الألماني السابقة لأوانها بالطبع ، لم يتحل بما يلزم من الفطنة والحذر المفروض توفرهما في رجل ملحق بخدمة دولة محايدة . على أن هذا في نظره لا ينفي كون التهم الملصقة به لا ترتكز على أساس سليم باعتبارها كلها معلومات واتهامات صادرة عن مغاربة يناصبونه ووالده العداء . اثباتا لذلك ، قرر قاضي التحقيق أن ملف القضية لا يتضمن أية جنحة أو مخالفة ينص عليهما قانون العدالة العسكرية ، وعبر بالتالي عن وجهة نظره بامكانية وضع حد لمتابعة التحقيق [7] .

إذا كان قاضي التحقيق قد بدا مرتاحا لتمكنه من التوصل الى نتيجة تتمشى في هذا الاتجاه ، فإن القاضي "المستمع" وقد تسلم ملف القضية ، رأى نفسه بالعكس مضطرا وعلى مضض الى تقرير نفس النتيجة . اذ أنه كان ملزما بوصفه رجل قانون بعدم تجاوز الميدان القانوني . إلا أنه رأى أن القضية تكتسي في الواقع طابعا سياسيا . وهو ما قاده الى صياغة أحكام مثيرة جدا أصبحت تكتسي اليوم مظهرا تنبئيا .

لاحظ في البداية أنه لا مجال للشك في كون السي محند :

" يجمع أبرز الصفات التي تميز أبناء جلدته . فهو داهية ، ثاقب الفكر ، تظهر

تصريحاته أنه لا يقول إلا ما يطيب له قوله ، وكلما طرح عليه سؤال محرج إلا وتهرب وجر مخاطبه إلى عكس ما ينتظره منه تماما . لم يكن بالامكان إذن التوصل إلى نتيجة تساعد على الحسم فيما إذا كان السي محند ولد السي عبد الكريم مخلصا أو غير مخلص لاسبانيا " (8) .

إذا لم يكن بإمكان القاضي المضي الى مدى أبعد ، فقد كان له مع ذلك رأيه الشخصي ولم يتردد في التعبير عنه ، إذ تابع تقريره قائلا :

"كيف يمكن الشك في كون السي محند ولد السي عبد الكريم كان قد اتخذ موقفه بكامل الوضوح ، مقاربا حتى حدود التعصب ، من مغزى حضور قوة أوربية مسلحة في المغرب ؟ فانه لم يخف تعاطفه مع "تركيا الفتاة" ومع الألمان في الصراع الأروبي الحالي . بالطبع كلما جرى على لسانه اسم اسبانيا إلا وأظهر حيالها كامل الاحترام والاجلال مصرحا بأنه لن يخونها أبد الدهر ، ولن يقف في وجهها اطلاقا لا هو ولا والده . انه يزعم أن والده ، وقد شارك في الحركة المضادة للفرنسيين الملحوظة اليوم في المغرب ، لم يكن يستهدف سوى فرنسا التي من حقه أن يبغضها كأي مسلم قح بيد أن السي محند مخطئ لو أنه تصور امكانية القيام بهذا العمل ضد فرنسا دون الاجحاف بالقضية الاسبانية . فتلك نقطة بالغة الخطورة ، تمارس مفعولها في غير صالحه . إذا كان حقا يبغض فرنسا كما يدعي ، واذا كانت مصالح هذه الدولة مرتبطة في المغرب بمصالح اسبانيا ، فهل يمكن الشك في أنه بتآمره ضد الفرنسيين في المغرب انما يتآمر أيضا ضد اسبانيا رغم كل ادعاءاته بالاخلاص والوفاء ؟ اذا كان قاضي "المكتب المركزي" يكن حقا لاسبانيا تلك المحبة العظيمة التي يتذرع بها ، لكان أحجم عن رعاية هذه الحركة أو المشاركة فيها . والحال أن العكس هو ما يقوم به . فهو يعترف بكل صراحة أنه يدلي بدلوه ليزيد اللهيب اشتعالا ضد فرنسا ، حامية المغرب . من هذا يتضح اذن أنه لا يكن لاسبانيا ما يدعيه لها من محبة . انه بالعكس يختزن رغبة دفينة تتحين الفرص لتتحول الى بغض وحقد ضد الفرنسيين وضدنا نحن الاسبان على حد سواء ، تلك الرغبة التي يمكن أن تهيء الأجواء في نفس الوقت لنهوض كاسح ضد جميع الأروبيين بدون أي تمييز بينهم . على أنه لا سبيل لنا في حدود القانون الى فرض العقوبة على هذا . فقوانيننا لا تنص عليه " (9) .

لقد صدرت القرارات بناء على هذه النظرة المزدوجة الاتجاه . ففي 20 نوفمبر 1915 أعلن الجنرال أيثبورو عن انتهاء المحاكمة القضائية(10) . بيد أن المقيم العام تدخل بعد عشرة أيام كسلطة عليا وأمر بابقاء السي محند رهن الاعتقال الى أن يبث بنفسه في أمره بحكم آخر أو يقوم الجنرال أيثبورو باقتراح اصدار العفو عنه ان اقتضت الظروف ذلك (11) . في انتظار ذلك ، ألغي الراتب الشهري المخصص للقاضي عبد

الكريم كما ألغيت المنحة التي كان من المقرر أن يستفيد منها ولده الأصغر محمد ليتوجه الى مدريد قصد متابعة دراسته في الهندسة (12) .

أقرت وزارة الدولة كل هذه التدابير ، الا أنها سرعان ما نصحت "بتجنب كل عنف مفرط في الأقوال والأفعال من شأنه توليد الحقد والرغبة في الانتقام وبالتالي سد الباب الى الأبد أمام احتمال المصالحة" (13) . معنى هذا ان اعتقال السي محند كان يعتبر سواء في مدريد أو مليلية أو تطوان اجراء مؤقتا يرمي الى ارجاع القاضي عبد الكريم ذات يوم الى جادة الصواب . الا أن هذا الأخير مع ولده السي محند لم يكونا يريان سوى آفاق مسدودة . ولا غرو فقد اصطدمت مساعي الأول لحد الآن بجدار من الصمت بينما بقي الثاني دائما في سجنه رغم استفادته من عدم المحاكمة . من ثم سلوكهما المطبوع بالارتباك والمتأرجح بين الانتفاضة والاستكانة كما يحدث عادة في الحالات الميئوس منها.

كان اليأس بالفعل هو الذي حفز السي محند إلى التفكير في الفرار رغم ما ينطوي عليه فراره من مخاطر . حاول تنفيذ العملية في 23 دجنبر باستعمال حبل شده الى احدى شرفات السجن . لكن الحبل انقطع لسوء الحظ وهوى صاحبنا الى خندق يبدو أنه كان مفروشا بالشظايا . وقد قام أصحابه الذين كانوا في انتظاره بانتشاله وهو بلا حراك ، قد لطخته الدماء وأصيب بكسر في ساقه الا أنهم لم يجرؤوا على حمله على هذه الحالة التعساء فتركوه قرب الحصن في مكان باد للعيان الى أن التقطته دورية الحراسة (14) . بعد شهور من العلاج ، خرج من المغامرة بساق معطوبة سيعرج عليها مدى الحياة . أما بخصوص حريته ، فقد أصبحت أكثر من أي وقت مضى رهنا بمشـيئة الاسبان . فكان لا مناص له بالتالي ، هو ووالده ، من استدرار عطفهم في خـضم محنـتـهما .

ما نعرفه هو الملتمس الذي تقدم به والده بعد خمسة أسابيع من محاولة الفرار الفاشلة مقترحا فيه القدوم شخصيا الى مليلية للمثول أمام الجنرال أيثبورو ، شريطة أن يتم أولا إطلاق سراح ابنه (15) . أما الملتمس الذي اضطر السي محند الى تقديمه قبل ذلك فلا نعرفه الا من خلال التلميحات الواردة في المراسلات التي دارت بشانه . المهم انه قُدِّم بالفعل . المهم أيضا أن نعرف أن حرية السي محند كانت لا بد وأن تمر في نظر أيثبورو بجملة شروط في مقدمتها أن يقوم والده بتصريح علني مؤيد لاسبانيا وأن يتعهد هو بنفسه بعدم العمل لصالح ألمانيا (16) . المهم في الأخير أن خوردانة قرر ابقاءه رهن الاعتقال في انتظار معرفة موقف الوالد بكل وضوح (17) .

كان ذلك في 19 فبراير 1916 .

بيد أن القاضي عبد الكريم كان في هذا التاريخ يعمل على قدم وساق وبشكل علني لدعم قضية الألمان بتنسيق مع عميلهم عبد المالك . ولئن كان عمله هذا متوافقا مع الخيار الذي حدده لنفسه قبل اعتقال ولده ، فانه أصبح الآن يقوم به ليبين للاسبان كم هي كثيرة المتاعب التي يمكنه خلقها لهم . تمشيا مع هذا الاتجاه ، ورط نفسه في دوامة لن يكون من السهل عليه مرة أخرى الخروج منها .

كما نتذكر فان الصراع المسلح ضد فرنسا تحت اشراف تركيا كان في البداية قد لاح له كوسيلة يطوي بها ماضيه في طي النسيان ، وهذا دون أن يكون ملزما بمناهضة اسبانيا التي اعتقد أنه سيواصل مساندتها حتى بهذا السلوك . ثم جاء الظهور الفجائي للألمان ليغير موقفه من الاسبان حيث بدا له حينئذ من الأفضل ابقاؤهم في الحدود التي يوجدون فيها . بيد أن هذا الهدف يبقى ثانويا أمام أولية العمل ضد فرنسا التي كان كل شيء متوقفا على هزيمتها . كان الألمان حاضرين في عين المكان ليذكروه بهذه الأولوية ان هو تغافل عنها صدفة . فإن المال الذي كانوا يقدمونه له لم يكن موجها إلا لاستمالة قدماء أصحاب الرواتب الاسبانية قصد تعبئتهم في كتائب عبد المالك . بالفعل ، فإن دوره كرئيس يقوم بجمع المتطوعين وبالدعاية للقضية الألمانية هو الذي كرس لـــه جهوده حصرا منذ سنة 1915 ، وذلك قـبل زمن يسير من اعتقال السي محند [18] . وحتى بعد هذا الاعتقال ، كان من الممكن أن يركز نشاطه على هذا الدور بعد أن تبين له شدة اقلاقه للإسبان . لكنه ما لبث أن تفطن أيضا الى أنه كان يثير حفيظة الريفيين ، وهذا في الوقت الذي كان يفكر في العودة الى صفوفهم.

ذلك أن الريفيين رفضوا بحس سليم وإرادة عنيدة تحويل أنظارهم عن عدوهم الحقيقي . منذ غشت 1915 ، عندما بدأ ظهور الألمان في المنطقة ، كتب كافيلا من النكور مخبرا بزحف وحدات كبيرة في اتجاه كرت : "لقد قرروا قبل انطلاقهم أنهم عند وصولهم الى جبهة كرت سيطلبون من الألمان المتواجدين هنالك أن يوضحوا لهم الغاية من مهمتهم على أن يشترطوا عليهم ارغامنا [نحن الإسبان] على الجلاء من الأقاليم المحتلة . أما اذا رفضوا فانهم سيقومون ضدهم بأعمال انتقامية" [19] .

بعد زمن يسير حلّ الألماني فارل ، إثر تفاهمه مع القاضي عبد الكريم ، بقبيلة بني سعيد ، وهي قبيلة ساحلية تقع تجاه الخطوط الإسبانية . لكنه لم يفلح في اقناعها بالتنازل عن مرفأ لافراغ الأسلحة المخصصة لعبد المالك ، على الرغم من أنه وعدها

بتسليح أفرادها : "ففي هذا ، كما صرحت له ، ما سيصرفها عن مقاومة عدوها المستعد للانقضاض عليها " (20) .

أخيرا فإن عبد المالك جاء بنفسه إلى قلب الريف لجمع المتطوعين . جرى ذلك بتفرسيت ببني توزن ، في غضون شتنبر 1915 على أرجح الظن . غير أن مساعيه أخفقت هو الآخر . إذ خاطبه الزعماء الذين خفوا لسماع أقواله : "أننا لا نفهم الفرنسي الذي تريد الوصول إليه هنالك في الداخل بينما يوجد الاسبان هنا وعلى مقربة منا متأهبين لاحتلال أراضينا" (21) .

ليس بغريب في مثل هذه الظروف أن يصبح القاضي عبد الكريم عرضة للتشهير بين المقاومين بعد أن سبق لهم الاحتفال بانضمامه إليهم طيلة شهرين أو ثلاثة أشهر. فقد اشتطوا عليه بالغض منه والازدراء له في أهازيج من هذا القبيل :

ان عبد الكريم لعندليب بقوائم النخام.

كان اسبانيا البارحة مساء وإذا به ألماني هذا الصباح (22) .

لكن هل كان عبد الكريم قد تحول حقا ؟ ذلك ما لم يكن الريفيون يومنون به. كانوا في غالبيتهم يعتقدون خطأ - وهذا ما ينبغي توضيحه - أنه بانغماسه في دسائسه التضليلية الداعية إلى مقاومة فرنسا إنما يعمل سرا مرة أخرى على تنفيذ أوامر اسبانيا(23) . كانت النتيجة غير متوقعة. فإنه أصبح هدفا مشتركا لكل من الفريق الموالي للإسبان الذي أمكنه هذه المرة أن يجد آذانا صاغية ، وللمقاومين الذين كانوا يهددون بمداهمة داره (24) . بحيث لم يسبق للقاضي أن وجد نفسه وحيدا بهذا الشكل وبالتالي ضعيفا إلى هذا الحد عندما احتدم الصراع بينه وبين اسبانيا ، ذلك الصراع الذي شكلت رهانه حرية ولده السي محند. ومن يدري لعله كان يتوهم أن دعم ألمانيا سيكفيه للدفاع عن نفسه في كل الجبهات ؟

مهما يكن فقد تورط ووصل إلى حد اللارجعة. إذ أنه جرّ وراءه شبكة من المأجورين الذين ، وقد تخلوا عن الرواتب الإسبانية ، كانوا ينتظرون بلهفة الحصول على ضعفها ، وهو ما أخذ بنفسه في تسديده لهم فيما بعد (25) .

هكذا وبعد أن أصبح رسول الألمان والترك تراه يحتفل بصمودهم في معركة الدردنيل (26) . وفي سعيه لاستئناف مشروع فارل الفاشل تراه يلتمس مساعدة تمسمان ، وهي قبيلة ساحلية أخرى ، قصد الحصول منها على المرفأ اللازم لإيصال الأسلحة حتى إلى عبد المالك (27) .

* * *

يظهر مع ذلك أنه سرعان ما أدرك مدى الأخطار التي قد تحدق به إن هو لم يخرج من عزلته. لذا راح يبذل مساعيه قصد التقرب من المقاومة طالما أن التقارب مع الإسبان أصبح مستبعدا الآن. لأجل هذا وجدناه ابتداء على الأقل من منتصف يناير 1916 يكيل الضربات أكثر فأكثر لاسبانيا دون أن يتوقف عن توجيهها ضد فرنسا. وسنجده بعد زمن يسير يستنفر القبائل ضد عملية إنزال ، تلك العملية التي خططت لها اسبانيا فأمكنه بثاقب بصره إماطة اللثام عنها. حينئذ وجد نفسه يعمل يدا في يد مع "المتعصبين" للحصول على الاعتمادات من أجل تسليح الحامية التي وكلت إليها مهمة الدفاع عن السواحل وكذلك لتسليح وحدات أخرى قصد إرسالها إلى جبهة كرت [28] . وهكذا قادته الحكمة التي تعامى عنها لحد الآن إلى أن ينتصب علانية ضد اسبانيا بعناد وإصرار. لكن على الأقل فإن التهديدات التي كان المقاومون يوجهونها إليه بالأمس لم يعد يوجد ما يبرر بقاءها. أخيرا فإنه أصبح يتوفر ضد اسبانيا التي رفضت الإفراج عن ولده على وسيلة ضغط حقيقية.

على أن ردود فعل الجانب الإسباني سرعان ما تبلورت ضده. في النكور ، حيث كانت قضية عبد الكريم تستثير الأعصاب ، بلغ القلق حدا دفع بسلطاتها حتى إلى التفكير في اغتياله أو اغتيال ولده الأصغر امحمد الذي ارتكب الأسبان - في نظرها - خطأ فادحا بشأنه عندما تركوه ينصرف لحال سبيله ؛ إذ أنه أصبح الآن بفضل تكوينه الإسباني يضاعف من وسائل عمل والده [29] . بيد أن المقيم العام خوردانة أظهر امتعاضه منه على الفور. كذلك سارع أيثبورو من مليلية إلى شجب المبادرة ملقيا مسؤوليتها حصرا على "المكتب" المحلي لقاعدة النكور [30] .

ذلك أن فكرة خوردانة كانت تقوم لا على التخلص من القاضي عبد الكريم بل بالعكس على استمالته من جديد. إذ أن الإنزال الذي تمكن هذا الأخير من إفشاء أمره للقبائل تم التخطيط له من جديد على أساس تنفيذه في غضون فصل الصيف. لم يكن بالإمكان بالطبع إنجاح المشروع إلا إذا لم يكن القاضي عبد الكريم في المعسكر المضاد. على أنه كان يلزم ما هو أكثر من ذلك لتنفيذه بأقل ما يمكن من التكاليف ومن الممكن حتى بدون عناء . لأجل هذا كان الإسبان ما يزالون يعتقدون بأن لا غنى لهم عن المشاركة الفعلية لعبد الكريم وبدون قيد ولا شرط [31] . آن الأوان إذن لا لاغتياله - والعياذ بالله - وإنما للتوصل إلى مصالحته لقاء حرية السي محند الذي يمكن آنذاك إعادته إلى وظيفته .

بما أن العقيد ريكلمي كان هو الشخص الأكثر تأهيلا للنجاح في هذه المهمة ، فإنه هو الذي قدم شخصيا إلى النكور حيث تطلب الأمر ما لايقل عن شهرين من الجهود للحصول على مقابلة سرية مع القاضي عبد الكريم أسفرت عن نتائج حاسمة . تعهد الاسبان بالإفراج عن ولده وإلحاقه بوظيفته ، كما تعهدوا بتنحية المسؤولين بقاعدة النكور الذين أصبح التفاهم بينهم وبين القاضي عبد الكريم مستحيلا [32] . مقابل هذه التعهدات ، تخلى هذا الأخير عن فكرة الريف المستقل ، تلك الفكرة التي داعبته في وقت من الأوقات ولينهمك كسابق عهده في جمع شتات الفريق الموالي للاسبان . حينئذ أصبح بالامكان تحديد التدابير التي من شأنها تيسير استقبال الجنود المنتظر انزالهم على الساحل الريفي. كانت لائحة الرهائن المطلوبين من أجل هذه العملية قد تحددت عندما تم أخيرا الافراج عن السي محمد في بداية غشت 1916 وفي الوقت المناسب ليقضي بجانب أسرته عيد الفطر [33] .

انتهت الأمور إذن على أحسن ما يرام على الأقل فيما يخص هذا الجانب . على أنه كان من الواضح أن مشكلا جديدا سينشأ من هنا بالذات . إذ كان يتعين إخفاء الانقلاب الجديد عن الريفيين ، ذلك الانقلاب الذي بفضله أمكن الحصول على هذه النتيجة . فعندما كتب القاضي عبد الكريم في 6 غشت الى الجنرال أيثبورو لتقديم تشكراته وطمأنته على ما يبذله من حماس في اتخاذ كل الترتيبات المتعلقة بعملية الانزال البحري ، أضاف قائلا : "لكن يتعين لأجل هذا التسلح بمنتهى الحذر وبأقصى ما يمكن من الحذق حتى لا يتفطن أحد إلى الدور الذي أقوم به في العملية إلى أن يكلل مشروعكم بالنجاح بعون الله " [34] .نرى إذن أنه كان واعيا بما يكتنف موقفه من صعاب ؛ إلا أنه كان يعتقد أن مدتها لن تطول ؛ فإنه بمجرد ما سيضع الاسبان أقدامهم في اليابسة لن يعود في حاجة في ظل أسلحتهم إلى الاحتفاظ بالقناع .

من سوء طالعه أن الغزاة ترددوا من جديد ، وللمرة الثالثة في ظرف خمس سنوات ، مما أدى إلى انهيار هذه التوقعات . فإنهم ألغوا مشروع انزالهم مع أن كل شئ كان مهيأ في اليابسة لتعبيد الطريق أمامهم [35] . معنى هذا أن المصاعب التي كان يواجهها ، والتي اعتبرها عابرة ، ستستمر في الحقيقة إلى ما لا نهاية . من ثم أحس بضرورة اتخاذ تدابير فورية لتأمين نفسه .

بالفعل شاع خبر في نهاية شهر غشت ارتاع له الاسبان ، مؤداه أن القاضي عبد الكريم خرج لمقابلة عبد المالك عدو الفرنسيين بمعية مائة إلى عدة مئات من المقاتلين

- لم يكن عددهم معروفا بدقة - [36] . هذا ما لم يسبق له أن قام به اطلاقا حتى في فترة الخلاف معهم . لماذا إذن أقدم عليه الآن وبعد المصالحة ؟ .

لم يفت أيثبورو أن أشعر السي محند المتواجد وقتئذ بأجدير بأنه غير مرتاح تماما [37] . ولم يستعد اطمئنانه إلا عندما عاد هذا الأخير إلى مليلية وأجرى معه مقابلة قدم له فيها تفسيرا رويت وقائعه في الحين بهذه العبارات :

"صرح لي السي محند أن والده عازم الآن على وضع حد لكل نشاط مع أية دولة أخرى ليعمل معنا ، ومعنا لا غير . انه لا ينتظر لتنفيذ هذا القرار سوى الظروف المناسبة التي تمكنه من العمل بدون إثارة المتعصبين الذين قد يبعدونه من صفوفهم مما يجعل تعاونه معنا مستحيلا ، وهذا دون اعتبار الأخطار التي يتعرض لها في أملاكه وربما حتى في شخصه . إنه يعمل لحسابنا منذ أن قدم سرا لاستئناف اتصاله بنا . لكن عليه أن يتخذ التدابير لكي يوهم إخوانه بأنه ما زال متفانيا في خدمة مصالح الألمان والترك " [38] .

من جانبه ، حرص القاضي عبد الكريم ، بعد عودته من زيارة عبد المالك ، على أن يطمئن أيثبورو حيث كتب إليه بأن عليه ليبقى مخلصا لتعهداته حيال اسبانيا" اللجوء إلى الحيلة والسياسة" [39] . وما الحيلة هنا سوى توظيف عبد المالك والألمان والأتراك لذر الرماد في العيون قصد حجب تعاونه المتجدد مع الاسبان .

لكن مع مرور السنين انفضحت هذه الأحابيل ولم تعد تنطلي سوى على قلة قليلة :

"إن عبد الكريم الأجاديري يشكل في الساعة الراهنة الموضوع الوحيد لثرثرة القبائل المجاورة كلها . فبعضها يراه صديقا لاسبانيا ، بينما بعضها الآخر يراه صديقا للألمان نظرا لزيارته الأخيرة لعبد المالك محيي الدين . لكن الرأي السائد منذ عودة ولده [السي محند] هو أنه صديق لنا" [40] .

نرى إذن أن سياسة التضليل أخطأت هدفها فيما يخص الأهم . وحتى لو كانت قد أصابته ، فإن بقية البرقية تقودنا إلى الاعتقاد بأن الفشل كان تاما في جميع الأحوال . نقرأ فيها بالفعل :

"إن الرأي السائد يوم الاثنين بسوق الرواضي هو أن جميع المسيحيين أعداء بغض النظر عن انتمائهم إلى هذه الدولة أو تلك . والريفيون إذن ينتظرون عودة عبد الكريم وجميع من رافقوه إلى عبد المالك . وإذا تبين لهم آنذاك أنهم متواطئون مع المسيحيين فسيعاقبونهم كلهم وستضرم النيران في منازلهم" [41] .

ظهر بالتالي أن الرأي العام الريفي خطا خطوة جديدة على درب تطوره . فبعد أزيد من سنة على تردده بشأن الألمان تراه فجأة ، وقد انقشعت الغشاوة عن عينه ، ينبذهم نبذه للاسبان وبكل عزم وإصرار . لقد تقادم الزمن على موقف اللامبالاة الذي استفاد منه عبد الكريم لحد الآن عندما كان يساندهم . قد يغض الريفيون الطرف عنه إن هو استمر في تعامله مع الأتراك أو مع عبد المالك . لكن إذ ا تبين لهم أن وشائج هذا التعاون تشمل الألمان فلا بد آنذاك من معاقبته . معنى هذا أن القاضي عبد الكريم ، وقد أعلن عن رهانه الجديد وأقام الدنيا وأقعدها ، إنما خاض لعبة لا طائل من ورائها .

* * *

على أنه ما لبث أن تلقى تحذيرا من الريفيين . ففيما كان يتباهى أمام أيثبورو بالحيل التي يجيد حبكها ، أقدم هؤلاء على هدم بناية له قرب الشاطىء لمجرد ماجرت اشاعات بأنه سيخصصها للألمان (42) . هل من المعقول والحال هاته أن يتمادى في حمل القناع الذي لم يعد يجدي نفعا في أحسن الأحوال ، بل ومن شأنه بالخصوص أن يجر عليه مزيدا من الأخطار ؟ الأولى له أن يزيحه عنه ويواجه المقاومين بوجه مكشوف بالاعتماد على الأقل على تنظيم الفريق الموالي للإسبان .

يبدو من المؤكد أن خبر انقلابه أصبح معروفا منذ منتصف نوفمبر 1916 . هذا ما تفصح عنه برقية صادرة من قاعدة النكور ، وقد جاء فيها :

" إن المتمردين مايزالون عازمين على إضرام النيران في منزل الفقيه السي عبد الكريم ، إلا أنهم لا يجرؤون على الإقدام على العمل علما منهم بأنه يستطيع الاعتماد على جماعة بورجيلة [رئيس الفريق الاسباني] الذي لن يذخر وسعا للحيلولة دون تنفيذه ، وكذلك لأنهم لاحظوا أن أصدقاء اسبانيا تكتلوا وأخذ بعضهم بتلابيب البعض للدفاع عن أنفسهم" (43) .

بعد مرور شهر لم يبق هناك مجال لأي شك . إذ أصبح القاضي عبد الكريم يصرح علانية بأنه لم يعد يساند قضية الألمان والترك . أشعر بذلك عبد المالك بنفسه معلنا لرجال شبكته بأنه لن يتكفل قط بتسديد رواتبهم (44) . وحيث ان الريفيين كانوا يعرفون المأزق الذي وقع فيه بين القضية الألمانية والقضية الاسبانية ، فإنهم لم يكونوا في حاجة بتاتا إلى تحديد الجهة التي سيكرس نفسه منذئذ لخدمتها . على أن الأمر لم يعد يتعلق نهائيا ، بالنظر إلى ما وصلت إليه الحالة ، بالعمل في الخفاء كما فعل بالأمس ، أو بذر الرماد في عيون الريفيين. فبما أن هؤلاء اكتشفوا أمره بكامل الوضوح ، فإنه

لم يبق له من سبيل سوى مواجهتهم بوجه مكشوف ، وينحط بلا حياء إلى مستوى بورجيلة الذي لم يخف مطلقا أنه يعمل على تحضير الاحتلال الاسباني . سنرى القاضي عبد الكريم يحضر شخصيا إلى السوق محفوفا ببورجيلة وزمرته من المأجورين لاسكات الخطباء الذين يتحدثون عن المقاومة أو لاستعمال القوة ضدهم . أما بالنسبة لولده محند ، الذي سيصبح بعد خمس سنوات رمزا للريف المستقل فيتوجب القول ، وإن كان في هذا القول ما يشوه صورته المشرقة ، بأنه لم يكن فحسب يحذو حذو والده بل وكان يرشده إلى الطريق . كتب في ذلك العصر الجنرال أيثبورو قائلا "لدي أخبار مفادها أن الفقيه يعتزم اليوم العمل علانية لصالح اسبانيا كما فعل ويفعل ولده السي محند" (45) .

أين هو إذن ذلك الخطاب المتبجح الذي وجهه إلى سست منذ ستة عشر شهرا ، والذي أطلق فيه النفير ببناء التحصينات العسكرية على كرت وتأسيس دولة مستقلة بالريف تتولى التفاوض مع اسبانيا ؟ إن أحد عشر شهرا من الاعتقال في الحصن العسكري ، وإصرار الريفيين على عدم الثقة بالقوة الألمانية عندما اتضح لهم أن الحرب الأروبية لا تعنيهم في شئ فضلا عن كونها تعثرت في معركة فردان ، وإن الآمال العظيمة التي انهارت منذ الأمس البعيد والقريب إثر ثورة عبد الحفيظ ، وإن الشعور بكونه بات معزولا عن الجميع وعن كل شئ ، وبأنه يدور في حلقة مفرغة ليقع دائما في يد الاسبان الذين بيدهم الحل ، حلوه ومره ، كل هذا وذاك أرغم هذا الرجل الذي أنفق خمسا وثلاثين سنة من عمره ، والذي كان واقعيا رغم انفعاله ، إلى الإذعان للظروف ليجني منها ما يستطيع جنيه من فوائد شخصية .

* * *

كان الاسبان مرتاحين أشد الارتياح من نتائج الضغوط القوية التي مارسوها على عائلة عبد الكريم . فإن إعادة تدجين الفقيه وولده مكن من إعادة تنظيم الفريق الموالي لهم بالناحية المقابلة لنكور التي كان ما يزال من المقرر أن تتم فيها عملية الانزال . تكون هذا الفريق من مجموعتين : أما أكثرهما عددا ، تلك المجموعة التي ضمت عناصر من كل قبيلة بني ورياغل تقريبا ، من بينها عائلتا شدى والبقيوي من أجدير ، فكانت خاضعة للشريف بورجيلة الذي كان ولده عبد السلام يشد عضده .لم تكن هذه المجموعة تخفي بشكل من الاشكال تفانيها في خدمة اسبانيا . أما المجموعة الأخرى التي ترأسها القاضي عبد الكريم مع ولده محند ، فكانت بالعكس قد حاولت على الأقل في البداية ، الإيهام بأنها تساند القضية الجرمانيه التركية . كانت تتلقى على أية حال

الاعتمادات من عبد المالك .

وهذا ماأدى إلى تقليص أهمية الخدمات التي تؤديها للإسبان ، لكنها الآن ، أمام فشل مناورتها ، اضطرت بدورها إلى رفع الراية الاسبانية بدون أي تستر . بحيث ان المجموعتين لم تعودا تخفيان جهودهما المتضافرة ، وستتدخلان في الاسواق وفي التجمعات بفعالية أكثر . أضف إلى ذلك أنه كان بإمكان القاضي عبد الكريم الحصول أيضا على الدعم من الرجال الذين كان عبد المالك ينقدهم عن طريقه ليعملوا فقط لصالح الألمان والترك ، وهذا في حالة ما إذا تكفلت اسبانيا بتسديد رواتبهم . وهكذا وبعد أن اتضحت أكثر آفاق العمل السياسي أصبح بالإمكان الاعتقاد بأن الانزال الذي فشل في الصيف المنصرف قد توفرت له كل حظوظ النجاح عام 1917 .

في ظل هذه الظروف المواتية ، اعتقد الجانب الاسباني ضرورة تكريس المصالحة التامة مع عائلة عبد الكريم . لأجل هذا تقرر الانعام عليه من جديد براتبه الذي حرم منه منذ 1915 ، بل وتقرر مضاعفة قيمته . كما اتخذت الاجراءات اللازمة لرفع العقوبات المتخذة ضد ولديه ، والسماح للابن الأصغر بالتوجه إلى مدريد بمنحته الدراسية ، بينما تقرر أن يعود الابن الأكبر إلى مليلية ليستأنف وظيفته داخل "المكتب المركزي" . أما وقد تم من جديد استقطاب الولدين ، فإنهما سيكونان بمثابة رهينتين من شأنهما ضمان التعاون الفعال لوالدهما الفقيه ، سواء أكان هذا التعاون صادقا أو غير صادق (46) .

* * *

ما كاد يمضي شهر على إلقاء الفريق الموالي للاسبان بكامل ثقله في المعركة ، بعد أن أعاد تنظيم صفوفه ، حتى لحقت به هزيمة لم يسبق أن عرف لها نظيرا من قبل ، كانت بمثابة ضربة قاصمة له . حدث ذلك في أوائل عام 1917 عندما هاجمت جماعة مدججة بالسلاح الشريف عبد السلام بن أحمد بورجيلة ، الرجل المعروف بطول باعه في ممارسة القيادة ، وأردته قتيلا . لم نتمكن من استجلاء ظروف هذه الحادثة بكامل الوضوح . كل ما نعرف هو اسمي فخذي بني ورياغل اللذين ينتمي إليهما المهاجمون واسمي الرئيسين اللذين قاد كل منهما جماعته (47) . بيد أن هذا يكفي لابراز الطابع المبيت والمنظم للهجوم الذي نفذ عل يد عدد وافر من الرجال للتمكن من السيطرة على فرقة الحرس التي عادة ما ترافق السي عبد السلام . أما بخصوص دواعي الاعتداء ، فلم تكن لتخفى عن أحد . حسب ما سيخبرنا به السي محند ، فإنه "لم يقع إلا لكون

الريفيين رأوا في الشريف السي عبد السلام صديقا لاسبانيا وركيزة فعالة لخطتها الهادفة إلى بسط حمايتها ، وهذه الحقيقة مسلم بها" [48] .

كانت هذه الحادثة في حد ذاتها بالغة الخطورة من حيث انها حرمت الفريق الموالي للاسبان من رئيسه الأكثر شهرة ونشاطاً ومن حيث إنها أظهرت بالمقابل ، قوة وإصرار المقاومة النضالية . على أنها كانت مؤشرا على تصاعد وتائر العنف التي تعرض لها ، بدرجات متفاوتة ، جميع "أصدقاء اسبانيا" . كان القاضي عبد الكريم وولده مستهدفين أكثر من غيرهما . وهذا ما تأكد بالفعل عندما احتشدت جماعة من الريفيين تنتمي إلى قبائل الناحية حول أملاكهما ثم أضرمت فيها النار وتركتها قاعا صفصافا [49] . إنها حادثة تذكرنا بالهجوم الذي تعرضا له منذ ست سنوات ولو أنها تقع على مستوى آخر . فيا لخيبة أملهما من تحالفهما العلني مع الشريف بورجيلة ! وأكثر من ذلك ، بينت لهما الحادثة أن اختيار الموقف كان صعبا إن لم نقل مستحيلا . ففي البداية ، وأمام موجه المقاومة المتواصلة والمتصاعدة ، حاول القاضي عبد الكريم وولده التحرر من اسبانيا بالنهوض ضدها ولو بالبحث عن ركائز من الخارج . إلا أنهما تلقيا غلى يدها ضربة قاصمة . ثم بعد أن عادا إلى الارتماء بين أحضانها ، تلقيا ضربة قاصمة أخرى ، لكن على يد الريفيين ، وهذا على الرغم من المدد المنتظر من بورجيلة .

فلماذا والحال هاته وجدنا عبد الكريم يخرج فجأة لزيارة عبد المالك الذي أكد أنه قاطعه بصفة نهائية ؟ أليس ليجد لنفسه مخرجا من تلك الورطة التي وقع فيها [50] ؟ ان المعطيات تعوزنا للإجابة . لكن كيف يمكن الشك في الأمر ولو أنه يصعب علينا أن نفسر لماذا سيغامر من جديد في طريق مسدودة مع أن محاولاته السابقة لو لوجها باءت بالفشل ؟ هل اندفع في هذا الاتجاه تحت تأثير اليأس ، أو أنه اندفع فيه عمدا بغية إقلاق الاسبان الذين تباطأوا كثيرا في تنفيذ وعودهم ؟

مهما يكن فقد قام هؤلاء برد الفعل دونما ابطاء . أخبر خوردانة أن هذه الزيارة تعرقل سياسته بصورة جدية وتنسف الاتفاقيات التي انبنت على أساسها مسألة إعادة السي محند إلى وظيفته . بعد ذلك صرح بضرورة اقناع عبد الكريم بأن يعود أدراجه في الحين . وفي الأخير أمر بالاعتقال الفوري للرهائن الذين كان السي محند قد سلمهم عند اطلاق سراحه والذين كان الاسبان قد احتفظوا بهم في مليلية [51] .

يبدو أن الاسبان صمموا على منع عبد الكريم من استئناف اتصالاته بعبد المالك . على أن عبد الكريم من جهته لم يكن يستهدف أن يتحداهم في الحقيقة . لهذا اقتنع

فيما يظهر بما أثاره فيهم من فزع وأذعن فورا لانذارهم ، متظاهرا في الوقت نفسه بأن نيته حسنة (52) .

لاندري كيف تمكن ، بعد عدوله عن التسلل من المعسكر الاسباني ، من إعادة السيطرة على الوضع المضطرب الناجم عن تصفية عبد السلام بورجيلة وإحراق ما في حوزته هو نفسه من أملاك . لكن بما أن السي محند التحق أخيرا بمنصبه في 15 ماي 1917 (53) فهذا يدل على أن الاسبان كانوا مرتاحين في هذا التاريخ من سلوكه .

بالفعل ، كان الفريق الموالي للاسبان قد استرجع خلال هذه الفترة ما يكفي من القوة بأجدير ونواحيها لمواجهة بقية بني ورياغل التي كانت تحاول عن طريق التهديد منعه من تموين قاعدة النكور بالماء الذي لا غنى لها عنه (54) . وبعد شهر كان بمقدور حاكم هذه القاعدة أن يكتب في أحد تقاريره :

" ان الحالة بأجدير تبعث على كثير من الارتياح . فقد تم تدريجيا تصفية الرجال الذين قاموا بإشعال الحرائق أو باغتيال السي عبد السلام [ولد بورجيلة] . إن الفكرة التي تترسخ في الأذهان والتي تقوم على أن أجدير والسواني تحظيان بالدعم اللامشروط لاسبانيا لتخلق حاجزا وقائيا بين جيراننا [سكان أجدير] والأفخاذ الجبلية" (55) .

* * *

من الحق أن هذه العبارات توحي بهدوء لم يكن يومن به القاضي عبد الكريم . بالطبع ، كان هذا الأخير يفضل ، بدلا من هذا الحاجز الوقائي المزعوم ، الحضور الفعلي للجيش الاسباني القادر وحده على وضع حد نهائي لمتاعبه . وبالفعل فإنه منذ ست سنوات لم يكن يعيش إلا على أمل أن يتحقق هذا الانزال الوهمي الذي تم الاعلان عنه مرارا ، ووقع تأجيله في كل مرة . في هذه السنة أيضا تقرر من جديد . إلا أن فصل الصيف بدأ دون أن تتخذ أية إجراءات لتحضيره . لذا فقد نفذ صبر القاضي كما تجلى ذلك خلال مقابلة له مع الحاكم الجديد لقاعدة النكور سيفنتوس (Civantos) . يقول هذا الأخير : "أخبرني أنه يرى أن الظرفية الراهنة ممتازة جدا لتحقيق مقاصدنا بسبب حالة التفسخ التي تعاني منها القبائل ، وأن علينا اغتنام الفرصة قبل أن تطرأ طوارئ من شأنها عرقلة مخططاتنا" (56) .

واضح إذن أن صبر عبد الكريم كان قد نفذ ، وما ذلك إلا من جراء تخوفه من الأعمال الانتقامية المحتملة جدا في ظل تنامي نشاط الريفيين الهادف إلى مقاومة

العدوان . بيد أن صيف 1917 مر هو الآخر من دون أن تكون للاسبان الجرأة أو الوسائل لاغتنام الفرصة .

عثرنا بخصوص هذا الموضوع على وثيقة نفيسة تمكننا من التعرف على واقع الأحاسيس والافكار التي كانت تعتمل في الفقيه عبد الكريم ، والتي كنا قد أحسسنا باختمارها فيه فإذا به يعبر عنها بنفسه بعد أن حنكته التجربة . حدث ذلك خلال مقامه بتطوان وأثناء مذاكرته مع العقيد كوكولودو (Cogolludo) بديوان المقيم العام خوردانة . سجل هذا الضابط محضرا لهذه المذاكرة نرى من الواجب أن نثبت فيما يلي مقطعا منه على طوله : «صرح لي الفقيه بأنه عازم كل العزم على العمل لفائدة اسبانيا بجد ونشاط ، بدون قيد و لا شرط ، وبوجه مكشوف ؛ على أنه علينا ، إن كنا نريد التوصل إلى نتائج ملموسة ، أن نقوم باحتلال الخليج لنمد منه نفوذنا إلى القبائل الأخرى ، مستغلين فيه الظروف المواتية الناشئة عن ضعف المحصول الفلاحي في الريف هذه السنة والنقص النسبي في ذخيرة الريفيين .

"ولما تبين لي أنه متمسك بضرورة تدخلنا السريع والاحتلال العاجل بما يترتب عليه من واجبات ، فإنني رأيت من واجبي أن أذكره بأنه علينا أن نتقدم بحذر ونقتصر في الساعة الراهنة على تقوية ركائز الفريق الموالي للاسبان ومد إطار نفوذه إلى المداشر والقبائل الأخرى تمهيدا لاخضاع القبائل تدريجيا لسلطة المخزن دون أن نكلف أنفسنا عناء اللجوء إلى استعمال العنف . لأن هذا ما ترمي إليه اسبانيا .

"عند سماعه هذه الكلمات ، بدا منزعجا أشد الانزعاج وصرح قائلا : أصغ إلي إنني منذ اتصالي بكم وأنا أسمع النغمة ذاتها : لا ينبغي استعجال الأمور . إنكم بهذا تضيعون وقتكم وأموالكم . إذا كنتم تريدون منع الريفيين من الالتحاق بعبد المالك من دون أن تحركوا ساكنا ، فاعلموا أن عليكم دفع أموال طائلة ، وإلا فإنهم سيحصلون عليها منه ، وحينئذ ستضيع أموالكم ، إذ لن تحصلوا على طائل من ورائها . ناهيك بما سيقال عنكم بين القبائل من أن القوة والأموال تعوزكم لبسط سيادتكم في الريف . إن هذا بالضبط هو ما فتئ الناس يسمعونه من أفواه الفرنسيين . إذا كنتم ترغبون حقا في توطيد سلطة المخزن في الريف ، فلا توجد وسيلة أخرى إلى ذلك سوى أن تعجلوا بالتدخل مغتنمين الفرصة السانحة ، وأن ترفعوا من أجور من يخدمكم ، وتضربوا بقوة على أيدي من يعاديكم ، وتظهروا قوتكم باستمرار على الملأ . أما من جهتي ، فإنني على كامل الاستعداد للعمل . لكنني لا أريد مخادعة الجنرال خوردانة . وأقول لك هذا ليكون هو بنفسه على علم بالأمر . إذا لم يعطني الأمر بجمع رجالي لتعبيد الأرضية

لاحتلال هذه الجهة أو تلك ، فما عسى أن أقوم به ؟ هل أظل مكتوف اليدين ؟ ليكن . بيد أنني لن أقوم والحال هاته بشئ ذي طائل لصالح اسبانيا . وإذا قال لكم أحد بأنني أقدم لكم خدمات في ظل هذه الظروف ، فإنه يسخر منكم" .

"تلك هي الكلمات ، وبالحرف تقريبا ، التي أدلى إلي بها بلهجة قوية ورنة عميقة من الانزعاج . لقد ناشدته أن يتحلى بالصبر إلى أن يحين الأوان الذي يمكن فيه أن يجد مجالا لنشاطه . غير أنه أجابني بأنه سينصرف على أسوأ حال من انشغال البال ، لأنه يرى أن اسبانيا لن تقوم أبدا بعمل يشفي الغليل في الريف طالما لم توطد العزم على توظيف الوسيلتين اللازمتين ، وبما فيه الكفاية ، وهما القوة والمال ، والوقوف دوما على أهبة الاستعداد للانقضاض كلما لاحت ظروف مناسبة . وفيما عدا هذا لا ينبغي أن نعول على وضع أقدامنا على شاطئ الحسيمة . ناهيك بأن الفريق الموالي لنا سيأخذ في الضعف باستمرار بالنظر إلى أن الزعماء الريفيين لن يجرؤوا على توريط أنفسهم من أجل قضية ليسوا متأكدين من نجاحها في الغد القريب" (57) .

من هذا الدرس السياسي الشيق ، علينا أن نسجل بالخصوص هذا التحذير الصريح ، أو قل المتكتم بعض الشئ ، الموجه من صديق لاسبانيا قد أعياه النزول وحيدا إلى عرين أسود . فكأنما لسان حاله يقول : "إما أن تقدموا في الحين لانتشالي من هذا العرين وإما لن أكون مسؤولا عن عدم الوفاء لكم" . لكن ينبغي ألا يعزب عن بالنا ان الاسبان كانوا يتوفرون وقتذاك على رهينتين آخرين لضمان إخلاصه ، ويتعلق الأمر بولديه اللذين كان أكبرهما ، وهو السي محند ، قد التحق بمنصبه في مليلية ، بينما أصبح الوالد الأصغر محمد في مدريد منذ أكتوبر (58) . فبسماحه لولديه معا بالعودة إلى سابق وضعيتهما كرهينتين ، يكون قد قيد يديه بنفسه ، ولم يبق له من سبيل للخروج من ورطته إلا على يد الاسبان ان هم قرروا في الأخير ضرورة التدخل .

* * *

على أن الأحداث المحلية تداخلت لتزيد من همومه وأتعابه . فمنذ نوفمبر ، ولمايمض سوى سبعة أشهر على إحراق جميع أملاكه ، أصبح من جديد عرضة للتهديد بالأعمال الانتقامية . وثمة حقيقة تسترعي الانتباه ، هي أن هذا التهديد تصاعد من أجدير نفسها . معنى هذا أنه أصبح الآن وحيدا حتى في عقر داره وبين أقربائه (59) .

كل هذا حفزه إلى استباق الأحداث . لماذا لا يحاول إكراه الاسبان على التدخل طالما أنهم لم يوطدوا العزم عليه من تلقاء أنفسهم ؟ لقد تركز مشروعهم لحد الآن على

ناحية أجدير ، وهي وإن كانت ملائمة جغرافيا ، إلا أنها وكر للمقاومة التي تنتعش دائما فيها بعد أن يكون الاعتقاد قد ساد بخمودها . ذلك ما يفسر كيف أن الاسبان تراجعوا مرارا عن مشروعهم وفي آخر لحظة . على أنه بالإمكان شحذ عزيمتهم لو اقترح عليهم النزول في ناحية أبعد في اتجاه الشرق ، وفي شاطئ بلوغه سهل جدا ، يقع في أراضي قبيلة أقل عتوا من بني ورياغل ، وبالإمكان كسب تعاملها .

هكذا وبعد أن سدت في وجهه جميع الأبواب داخل قبيلته ، اتجه القاضي عبد الكريم بأنظاره ، في بداية 1918 ، نحو قبيلة تمسمان المجاورة ، التي أصبح أقرب أفخاذها إلى الشاطئ ، وهو فخذ تروكوت ، هدفا لدسائسه . كانت النتيجة أنه تمكن من التوجه إلى قاعدة النكور حاملا معه عروضا لا تدع مجالا للتردد ، مؤداها أن فخذ تروكوت يطالب الاسبان ، بناء على اتفاق جماعي ، بإنزال جنودهم بشاطئه ، مقترحا تقديم دعمه المتمثل في 900 مقاتل ، بالإضافة إلى رهائن يقدمون كضمانة لتعهداته ، ومؤكدا في الأخير أنه لا ينتظر سوى الجواب ليشرع في اتخاذ الترتيبات اللازمة في عين المكان (60) .

جاء الرد الاسباني بالموافقة . فإن خوردانة بعد إشعاره ببرقية مؤرخة في 4 أبريل ، أجاب منذ اليوم التالي بأن الاقتراح هام وسيوضع قيد البحث . وكلت هذه المهمة إلى السي محند المتواجد وقتذاك في إجازة له بأجدير . في 24 أبريل أبلغ هذا العقيد ركملي بنتائج تحرياته . صرح له في البدء بأنه بالامكان في نظره وضع الثقة في جميع شيوخ فخذ تروكوت وقائده علال الذين اقترحوا أن يتم الانزال على شاطئهم . ثم قدم قائمة بأسماء المواقع المتعين احتلالها ، مشفوعة بتوضيحات حول الرهائن المفروض أخذهم ، وعدد المقاتلين من سكان الشاطئ الذين سيقدمون دعمهم ، والمبالغ التي ستخصص من أجل مكافأتهم وكذلك من أجل كسب حياد المتعاطفين من سكان أجدير . أما إذا حدث هيجان في باقي قبيلة بني ورياغل والقبائل المجاورة الأخرى ، فلن يكون له ، فيما يرى ، تأثير كبير نظرا لعدم توفر هذه القبائل سوى على عدد محدود جدا من البنادق (61) .

أهم تعديل أدخله العقيد ركملي على خطة السي محند هو اختيار يوليوز لادخالها في حيز التنفيذ بدلا من يونيو . إذ أن العمال الريفيين سيكونون في هذا الشهر (يوليوز) قد التحقوا بالجزائر من أجل الحصاد ، مما سيقلص كثيرا من قوة المقاومين . لأجل هذا قام الاسبان حتى باستأجار السفن لنقلهم بحرا على أساس أن تجلي سفينتان

ركابهما في اتجاه ملقا لكي يحتجزوا هنالك كرهائن [62] .

نرى إذن أن الأمور قد بدت على أحسن ما يرام فيما يخص هذا المشروع الانزالي الخامس الذي كان من المفروض أن يضع حدا لطول انتظار القاضي عبد الكريم . مع ذلك ، وفيما كان كل شئ جاهزا مرة أخرى على اليابسة لاستقبال " الحماة" ، تكرر نفس الموقف بما ينطوي عليه من حسرة وأسى بالنسبة للقاضي عبد الكريم ، إذ جاءت الأوامر مرة أخرى بإلغاء العملية [63] ..

هل كان بوسع القاضي ، عندما انتصب بطلا للقضية الاسبانية منذ اثنتي عشرة سنة ، أن يتصور أنه سيورط نفسه في مغامرة طويلة بهذا الشكل ؟ الحقيقة أنه كان يعتقد ، بالعكس ، وبالنظر إلى الهيبة التي كانت أوربا تتمتع بها في نظر المغاربة " المستنيرين" ، أنها سيرورة ستقود اسبانيا بين عشية وضحاها إلى أن تغمر منطقتها بالمزايا التي توفرها الحضارة اليوم ، وتلقي في نفس الوقت بمقاليد الحكم بين أيدي النخبة الصغيرة التي ينتمي إليها . ذلك ما يفسر تحمسه وتحمس ولده السي محند . سيما وأنهما معا لم يقوما في البداية سوى بأنشطة هامشية أو سرية غير قادرة على إثارة زوابع الغضب الصريح ضدهما . إلا أن السنوات مرت ، وكان سراب الغزو الذي يتلاشى دوما ساعة الاقتراب منه يفسح المجال في كل مرة لواقع صعب محفوف بالعقبات والشدائد . بناء على ذلك ، وصل القاضي عبد الكريم تدريجيا إلى مرحلة الإعياء والسأم إلى حد أنه قرر ، غداة الحرب الأوربية ، قطع صلته بالاسبان ليجرب حظه في اتجاه آخر ، مع الأتراك والألمان ، وهذا من دون أن ينقلب ضدهم . بيد أن محاولته هاته أوقعته فيما هو أشر وأدهى ، إذ انتهى به الأمر بعد شتى المحن إلى مزيد من التبعية نحو الاسبان الذين تسببوا من جديد في تعريضه لنقمة الريفيين دون أن يحسموا الموقف بالتدخل مباشرة ليستظل بمظلة حمايتهم الموعودة . إنها إذن حالة يائسة تلك التي عاشها بعد فشل مشروع الانزال الأخير بتروكوت . فإنه هو الذي دعا إلى هذا المشروع وعمل على توفير حظوظ نجاحه . بحيث ان عمله هذا ، وقد ذاع أمره ، شكل عنصرا جديدا لا بد وأن يضيفه الريفيون إلى ملفه .

وهكذا فقد بات أمنه جد محفوف بالمخاطر في أجدير نفسها إلى حد أنه طلب من الاسبان ، وبدون جدوى ، السماح له بالإقامة في قبيلة أخرى [64] .

وفيما كان على هذه الحالة التعساء ، غارقا تقريبا في قاع الشرك ، حدث أن انتهت الحرب الأوربية فجأة بالهزيمة الألمانية . معنى هذا أنه كان خاسرا حتى في هذا

الرهان بما يترتب على ذلك من مخاطر جديدة ، ألا وهي الأعمال الانتقامية التي ستقوم بها فرنسا ضده وضد ولده . إن فشله المزدوج مع الاسبان والألمان لم يعد يسمح له بتاتا بتصدر الأحداث وتعريض نفسه للخطر في سبيل خدمة هذه الجهة أو تلك . الأولى له إذن أن يحتجب وينوب بين الجماهير ليتصالح مع إخوانه الريفيين ان هو استطاع إلى ذلك سبيلا . ثم عليه فيما بعد ، إذا ما صفت له الأيام وابتسم له وجه الحظ ، أن يتدبر أمره من جديد .

* * *

هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن هذه القناعة تولدت لديه بمجرد ما علم ، في نهاية يوليوز على أبعد تقدير ، بتأجيل عملية الإنزال البحري . لكن يظهر أنه لم يترجمها عمليا إلا فيما بعد . فإنه لم يكن بالامكان اتخاذ القرار في هذا الشأن ما دام ولداه الرهينتان لم يعودا إلى مسقط رأسهما ، وقد كان أحدهما بمدريد والآخر بمليلية . على أن الأمور تصبح متيسرة بمجرد تواجدهما معا بأجدير بمناسبة إحدى الإجازات ، حيث يمكن أن يقوم والدهما باستبقائهما . على أننا لا ندري لماذا لم تستغل الفرصة الأولى التي جاءت مع اجازة عيد الأضحى . مهما يكن فقد تمكن السي محند في منتصف دجنبر من مغادرة مليلية لقضاء عيد المولد النبوي مع أسرته . في أثناء ذلك جاءت الهزيمة الألمانية مضفية على الوضع بالريف طابعاأشد اقلاقا . فزيادة على الاقتناع التام أو شبه التام بأن اسبانيا ليست مؤهلة للاضطلاع بمأموريتها في الريف ، فإن الفكرة التي سادت بعد استتباب السلم في أوربا وحسب شهادة الجنرال أيثبورو نفسه هي أن الاسبان على كامل الاستعداد للتخلي عن منطقتهم للفرنسيين (65) . لقد ازدادت الآفاق اكتظاظا بالغيوم أمام السي محند ووالده المعدودين ضمن أصدقاء الألمان ، سيما بعد أن أقدمت اسبانيا ، بدون روية ، على تسليم الفرنسيين ستين رجلا من أتباع عبد المالك الملتجئين بمنطقتها . ولئن لم تكن هذه الحادثة ، كما اعتقد البعض ، السبب الرئيسي فيما سيطرأ من جديد ، فإنها ساهمت على الأقل في تسريع مجرى الأمور (66) .

بعد عودة السي محند إلى أجدير ، كان من اللازم أيضا انتظار عودة أخيه من مدريد . بيد أن الظرفية لم تكن مناسبة بتاتا ، إذ تم وقتها بالضبط قبول محمد بالمدرسة المعدنية للمهندسين (67) . مع ذلك ، تمكن هذا الأخير من الحصول على رخصة استثنائية بالتغيب . وفي منتصف يناير ، التأم شمل العائلة بجميع أفرادها بأجدير ، بعيدا عن متناول يد الاسبان (68) .

في هذا الوقت وقد مر شهر على غياب السي محند ، أخذ المسؤولون في "المكتب المركزي " بمليلية يستغربون أمر تأخره ، هذا التأخر الذي أصبح مدعاة للقلق بسبب الزيارة التفقدية للقطاع المنتظر أن يقوم بها المقيم العام برنكر في شهر فبراير ، والتي تستلزم تواجد جميع كبار الموظفين في مراكز عملهم في 8 فبراير ، وحيث إن السي محند لم يكن قد عاد بعد ، فقد وجه الجنرال أيثبورو استدعاء له ولأخيه ، عن طريق برقية إلى قاعدة النكور ، للقدوم على جناح السرعة قصد تحية الضيف المنتظر (69) . ثم بعد أن لم يرد جواب بشأن هذه البرقية ، وردت برقية جديدة في 19 فبراير (70) أجاب عنها قائد القاعدة في 20 فبراير 1919 بما نصه :

"أخبرني الفقيه عبد الكريم ، عن طريق أحد أقربائه الموفد من قبله ، بأن الذي حمله على عدم السماح لولديه بالالتحاق بمقر شغلهما هو كون الأفخاذ الثلاثة ، وهي فخذ آيت علي ، وفخذ المرابطين ، وفخذ آيت يوسف أو علي ، أوفدت إليه رجالها لتحذيره من مغبة السماح بخروج ولديه في اتجاه النكور ، بحجة أن الاسبان ينوون احتجازهما كرهينتين . وبما أنه تخوف من التعرض من جديد للأعمال الانتقامية على يد قبيلته ، فقد منع ولديه القاضي السي محند والطالب المهندس من مغادرة البلد . بحيث إنها يمكثان بجانبه كمجرد شخصين عاديين ، دون أن يحركا ساكنا ضد الاسبان . إنها - فيما يقول - لضرورة تبعث على الأسى بالنسبة لهم جميعا ، خاصة بالنسبة للولدين " (71) .

بعد أن أرهق سيفنتوس المبعوث باستجواباته ، علم منه أن عبد الكريم وولديه يتخوفون من التعرض للاعتقال ان ظهر لهم أثر في مليلية . ثم استخلص أن السي محند يخالجه الشعور بارتكاب خطيئة يخشى أن يحاسب عليها . على أنه كتب إليه في الحين ، من دون إظهار شكوكه ، منا شدا إياه بتقدير العواقب التي ستتمخض عن حدوث القطيعة طالما أنها لم تتكرس بعد (72) . بيد أن المسعى لم يجد فتيلا ، إذ أجاب السي محند منذ اليوم التالي مؤكدا كتابة أقوال والده . وها هي ذي رسالته المترجمة عن الأصل الاسباني ، وسنقدمها بنصها الكامل نظرا للمنعطف التاريخي الذي تؤشر عليه وللأضواء التي تسلطها على حيثيات هذا المنعطف :

"جناب السيد دون مانويل سيفنتوس ، وصديقي الحميم

تلقيت رسالتك التي وجهتها بالأمس وتوليت ترجمتها لوالدي . لقد تبادلنا وجهات النظر حول المشكلة المطروحة ، وإليك الآن جوابي .

أشكرك في البدء جزيل الشكر على كل نصائحك الحكيمة والأخوية . إنه لمن

دواعي الأسف الشديد بالنسبة لوالدي وبالنسبة لي أن ينقطع أخي عن متابعة دراسته ، وأتخلى أنا بدوري عن منصبي . بيد أن هذا هو قرار والدي الذي اتخذه بناء على الأسباب التالية :

إننا بالنظر إلى علاقاتنا الوطيدة باسبانيا ، وإلى أن أي عائلة أخرى في كل الريف لا توجد على هذه الحالة ، نتوقع ما سيحل بنا من خطوب وما سنتجشمه من تضحيات كبيرة كتلك التي سبق أن تعرضنا لها . وهذا في الوقت الذي نرى فيه أن اسبانيا لا تقدم لنا ما يكفي من المساعدة والحماية لمجابهة العداء المتنامي الذي يجره علينا موقفنا السياسي المحرج بين الريفيين والاسبان . إنها الضرورة إذن هي التي تفرض علينا القرار الذي نتخذه .

تبصر في الأمر مليا وقل لي ماذا يستطيع حتى أحد منكم القيام به في مكاننا ؟ لقد نصحتني في رسالتك بأن أقدر الامور حق قدرها قبل اتخاذ القرار . وأجيبك بأن مبادرتنا ليست نزوة من النزوات ، بل هي مرتبطة بمشكلة درسناها بعناية بالغة ، اللهم إلا إذا قامت اسبانيا بتصحيح سياستها في هذه المنطقة . على أنه من المفروض ، فيما أعتقد ، أن تكون السلطات الاسبانية بهذه المنطقة على علم بوضعيتها .

على أية حال ، فنحن الآن كما سنكون دائما من أنصار الرسالة الحضارية التي تضطلع بها اسبانيا ، وهذا ما تعرفه حق المعرفة . أما بخصوص الكيفية التي سيقيِّم بها إخواننا سلوكنا ، فإننا لا نحفل بها ، لأنهم أناس متأخرون ، ذوو أفق محدود ، يتقولون دائما على الغير .

إننا لنتأسف كثيرا لعدم التشرف باستقبال المقيم العام . أما من جهتك ، فليس لدينا بتاتا ما نؤاخذك عليه . نحن بالعكس أصدقاء حميمون ، عملنا معا من أجل قضية مشتركة . وبإمكانك أن تعتبرنا رهن إشارتك كأصدقاء حقيقيين ، دائما وأبدا .

هذا هو كل ما لدي أن أقوله لك الآن . وتقبل تحيات صديقك .

محمد عبد الكريم » (73) .

* * *

من الجانب الاسباني ، لم يقبل المسؤولون أن يأخذوا مأخذ الجد الأسباب التي قدمها السي محند ووالده . فإنهم لم يكونوا يتصورون أن تقدم العائلة على التضحية بما تتمتع به حقيقة من امتيازات وفوائد بحكم تعاملها مع الاسبان ، بسبب أخطار وهمية

يبدو أنها ضُخمت فوق الحد والتي توجد على أية حال حظوظ لتبديدها نهائيا بمجرد ما يقوم الحلفاء بتسوية القضية المغربية . إن السبب الحقيقي في نظرهم هو تخوف العائلة ، وهو تخوف حقيقي هذه المرة ، من أن تقدم اسبانيا على تسليم السي محند إلى الفرنسيين . فلقد لاحظوا أن هذا الأخير حرص في ختام رسالته على القول بأنه مع والده سيبقيان مخلصين للقضية الاسبانية . معنى هذا أنه ترك الباب مفتوحا ليقوموا بالتوسل إليه بالعدول عن قراره . آنذاك يمكنه أن يضع كشرط التزام الاسبان بضمان عدم تسليمه إلى الفرنسيين إن هم طالبوا به . وبما أن تقديم مثل هذه الضمانة لم يكن وارداً ، وأن العهد لم يعد عهد خوردانة وريكملي للاشادة بمزايا التعاون مع عبد الكريم وولده ، فقد قر قرار سلطات مليلية على وجوب اقالة السي محند وأخيه من المهام التي تخليا عنها ، إن هما لم يلتحقا بمقرها في الأجل المحدد [74] .

إن هذا التفسير الذي ساد بين الأوساط الاسبانية لبعيد عن اقناعنا . فأن يكون السي محند قد رأى من باب الحذر العودة إلى قبيلته حتى لا يقع بين أيدي الفرنسيين ، فذاك أمر محتمل جدا . لكن لماذا سيضحي بنفس المناسبة بكل المكانة الامتيازية التي تتمتع بها عائلته ؟ ألم يكن بمقدور الوالد الاستمرار في دعمه للاسبان انطلاقا من أجدير ؟ وهل كان محمد (الولد الأصغر) مجبرا على التخلي عن دراسته ؟ على ماذا كان يؤاخذه الاسبان ؟ وحيث إن السي محند ووالده ، تركا الباب مفتوحا لتطبيع العلاقات ، فقد كان أمر استرجاع مكانتهما التي يحسدان عليها مناطا بهما وحدهما ، إن كانت لهما الرغبة بعدما تبين لهما مع الشهور أن الفرنسيين ، بدلا من أن يعبأوا بهما ، كانوا يجهلون حتى وجودهما . لكي ندقق في الأمور ، يتعين القول إن ثمة مسعى على الأقل سيقوم به القاضي عبد الكريم ، كما سنرى ، يمكن تأويله كآخر محاولاته للتقرب من اسبانيا .

بيد أن الشرط الوحيد الذي سيضعه من أجل احتمال عودة العلاقات إلى سابق عهدها ، هو أن تقوم اسبانيا ، لا كما قيل بتقديم ضمانتها ضد الفرنسيين ، وإنما بتغيير سياستها في الريف [75] . لذا لا يوجد ما يدعونا إلى تبني أطروحة الاسبان واعتبار الأساليب التي قدمها المعنيون بالأمر بأنفسهم مجرد حجج ملفقة . سيما وأن هذه تتوافق أيما توافق مع الوقائع التي تتبعنا مجراها منذ بدايتها .

* * *

على أننا نتوفر على وثيقة أخرى تبين هذا التوافق بكيفية أدق وأكثر تفصيلا من

جميع الوثائق السابقة . يتعلق الأمر برسالة من محمد (بالفتح) إلى مدير " دار الطلبة" التي أقام بها بمدريد ، والتي برر فيها القرار الذي اتخذه والده باستبقائه بجانبه . إن هذه الرسالة ، التي تم تحريرها على مهل بعد رسالة السي محند السابقة الذكر ، تعطينا فكرة مختصرة عن المسار الطويل الذي اتبعه عبد الكريم وولداه في ركاب الاسبان . وفيها يفسر محمد ، استنادا إلى الضغوط التي مارستها القبيلة على القاضي عبد الكريم قصد اقناعه بالعدول عن ارسال ولديه إلى الاسبان ، كيف اضطر هذا الأخير تدريجيا إلى الإذعان لمثل هذه الضغوط :

"قبل مؤتمر الجزيرة الخضراء حول حماية المغرب ، كان والدي مقتنعا بأن المغرب غير قادر على المحافظة على استقلاله نظرا لتدني مستواه الثقافي . بيد أن موقعه على الخريطة ، وعلاقته بالجزء الأكبر من اسبانيا ، وأوجه التشابه الكثيرة في نمط العيش ، كل هذا قاد والدي إلى الاعتقاد بأن الدولة التي يحتاج إليها المغرب ، خاصة شماله ، لتكون حليفة له ، أو بعبارة أوضح حامية له ، هي اسبانيا لا غيرها .

لذا وعندما تم التوقيع على معاهد الجزيرة ، انهمك والدي في العمل بكل ما أوتي من قوة وذكاء ، وبكل امكاناته ، لصالح العمل الحضاري لاسبانيا ولنفوذها الاقتصادي والسياسي . وقد قام بذلك رغم ما تعرض له نفوذه من تدهور في الريف بسبب الصداقة المخلصة التي تربطه بكم . وإلى اليوم لم يتوان عن الاضطلاع بهذا العمل بحماس ، وسيستمر في الاضطلاع به كما سنستمر نحن بدورنا . إلا أن هذا العمل لم يعط النتائج المرجوة منه لأن المسؤولين الاسبان ، الذين أنيطت بهم دوريا مهمة تنفيذ سياسة الحماية ، كانت لهم وجهات نظر ضيقة وقاموا بأنفسهم ، بسبب انعدام القيادة الرشيدة ، بتعويق مجهودات الدعاية لصالح اسبانيا .

إليك مثالا توضيحيا : عندما يدرك شيخ من شيوخ القبائل جدوى العمل الاسباني ، يقع بالطبع استدعاؤه إلى أقرب قاعدة منه ، وهناك يقوم المسؤولون بعقد اتفاقيات معه . لكنه بمجرد ما يتورط ، ترى نفس المسؤولين يتركونه وشأنه دون أن يقدموا له أي عون لاخراجه من ورطته ؛ وإذا بهذا الشيخ يفقد نفوذه ، وغالبا ما يفقد أيضا مسكنه ومتاعه ، ويتحول من غني إلى فقير ، بل ويفقد أحيانا حياته . على هذه الوتيرة تنهار سياسة التسرب . أما النتيجة فهي أنكم تنفقون كثيرا دون أن تحققوا أي تقدم .

لقد تعرضنا من جهتنا لأضرار جسيمة في إطار هذا الوضع . لكنني أعتقد أن

والدي ضاق ذرعا اليوم بهذه السياسة المترددة التي لا تعطي أية نتيجة ، بينما تترتب عليها عواقب وخيمة . إننا نريد ، نحن الآخرين ، أن نعمل من أجل تعبيد الأرضية في هذا البلد أمام حضارة أوربا ، خاصة حضارة اسبانيا . نريد أن نعمل من أجل ازدهاره الفلاحي والصناعي والتجاري . غير أن الدولة الحامية لا تمدنا ، للأسف ، بالوسائل الكافية وبالمساعدة الضرورية التي من شأنها أن تضفي صبغة الفعالية على مجهوداتنا . لقد التمست ، أنا شخصيا ، من وزارة الدولة مساعدة لاقامة بناء عصري هنا يكون بمثابة حصن صغير قادر على صد غارات الريفيين المستعدين دائما لصب حمم غضبهم على اسبانيا وعلينا . فقوبل مشروعي بالترحيب ، لكن من دون أن تتخذ أية مبادرة لتنفيذه .

إنها حالة أوردتها على سبيل المثال لا الحصر .

لأجل هذا وجد والدي نفسه مضطرا إلى اعتزال السياسة ، كما اضطررنا نحن إلى البقاء بجانبه . إن الريفيين متأخرون جدا . وقد أقضوا مضاجعنا بضرباتهم لأننا نساند اسبانيا . وبما أن هاته الأخيرة تتركنا وشأننا تجاههم ، فقد بات من المستحيل علينا تحمل العبء على كلا الواجهتين " (76) .

إن هاته الكلمات في غاية الوضوح . فإن القاضي عبد الكريم كانت له دائما نفس النظرة عن الريفيين العاجزين ، في نظره ، عن الخروج من تلقاء أنفسهم من حالة التأخر التي يوجدون عليها . وبالتالي فقد كان يرى أن التدخل الأوربي يبقى دائما أمراً لاغنى عنه ، باعتبار أنه لا يستهدف بالطبع الغزو ، وإنما تمكين هذه النخبة التي يمثلها من تقلد مقاليد الحكم ومدها بالوسائل لتنمية البلد . لكن بما أن الريفيين وقفوا ضد هذا التدخل مستمرين في ضلالهم ، فقد كان من اللازم منذ البداية قمعهم بواسطة عمل سريع وحازم . والحال أن الاسبان تمادوا في ترددهم منذ سبع سنوات على الأقل ، مؤكدين ما يشاع عنهم من ضعف ، ملهبين بالمقابل جذوة حماس المقاومين . بالنسبة إليه (عبد الكريم) ، وهو الذي كان يناصر قضيتهم بين إخوانه ، فقد هدمت وأحرقت أملاكه ثلاث مرات . على أنه ما كان ليتحمل هذه النكبات لولا ايمانه بالنصر الوشيك للجيوش الاسبانية . فإذا به هذه المرة يفقد هذا الإيمان ، وفي الوقت الذي تعاظمت المخاطر المحدقة به . كيف يستمر إذن في تعريض نفس للتهلكة ؟ الواجب عليه أن يتخلى عن قضية أصدقائه القدامى وإن لم يوافق ذلك مزاجهم . لقد فكر طويلا في هذا الأمر ، بل وقام بالمحاولة . إلا أنه لم يفلح في التخلص لافتقاره إلى التجربة . أما هذه المرة ، فقد اتخذ كافة الاحتياطات . فإن ولديه أصبحا الآن بجانبه ، وسيبقيان معه . صحيح أن

بقاءهما سيكلفهما تضحية كبيرة . إلا أن ذلك هو ثمن الحرية التي ستمكن على الأقل من انقاذ المهم .

إنها إذن مجرد عملية انقاذ لا تنال بتاتا من المشاعر التي كان القاضي عبد الكريم وولداه يكنونها للاسبان منذ مدة طويلة . وإذا كانوا ما يزالون يعبرون عن امتنانهم لاسبانيا عما أغدقته عليهم من نعم ، فهذا راجع لا إلى رغبتهم في إبقاء الباب مفتوحا أمام المساومات كما اتهموا بذلك ، وإنما لكون قلوبهم ما تزال تنبض بحبها . تمشيا مع هذا الاتجاه ، فإنهم لم يكونوا ينوون الالتحاق بصفوف المقاومة التي لم يحتكوا بها سابقا إلا في إطار مناورتهم السياسية . أما بالنسبة لمشروع الريف المستقل ، ذلك المشروع الذي لم تكتب له الحياة والذي كان من المفروض أن يتولى التفاوض مع اسبانيا لتعيين الحدود بين الطرفين ، فقد أقبر في المهد قبل أن تقضي الهزيمة الألمانية نهائيا على كل أمل في إحيائه . كلا ، لن تلتمع تباشير المستقل إلا إذا صممت اسبانيا على نهج الأساليب الملائمة لفرض حمايتها .

ومن يدري ؟ فعلها تصمم على ذلك ذات يوم . آنذاك ، وخاصة إذا ما زودت أصدقاءها بالتغطية اللازمة لمقاومة غضب " المتعصبين" سيكون بإمكان القاضي عبد الكريم وولديه العودة من جديد إلى الميدان ليضعوا أنفسهم رهن إشارتها . أما في حالة الارتباك التي يوجدون عليها الآن ، فلا مخرج لهم إلا بمحاولة الانزواء ، والانصراف إلى شؤونهم الخاصة ، بعيدا عن الصراع المتجدد دوما بين الاسبان والريفيين .

ونقول إنها حقا "محاولة الانزواء" . إذ هل كان في مقدورهم ، بعد أن أصبحوا في مأمن من الاسبان ، أن يجدوا راحة البال أمام هيجان محيطهم الريفي ؟

الهوامـــــش

1) تقرير قاضي التحقيق ، الرائد أنريكي لوبيث سانث (Enrique Lopez Sanz) . يوجد الملف الكامل لقضية القاضي عبد الكريم في :

Mel.; II ; 12 , 32 à 38 ,

وهذا الترقيم صالح لجميع الوثائق التي يتكون منها الملف ، والتي لن نذكر بها إذن في الهوامش اللاحقة التي يحيل إليها . يتضمن الملف الوثائق التالية :

ا) تقرير الرائد لوبيز سانث الذي أجرى التحقيق بين 8 شتنبر و5 نونمبر 1915.

نذكر من مواده : عناصر الاتهام ، شهادات شهود الاثبات والنفي ، استخلاصات القاضي .

ب) تقرير القاضي المستمع سنتي فابركاس (Sente Fabregas) الذي وجه في 13 نونمبر 1915 إلى الجنرال أيثبورو تقرير قاضي التحقيق ، وهو التقرير الذي قدم بصدد كل ما ورد فيه وجهات نظره الخاصة .

جـ) رسالة الجنرالة أيثبورو بتاريخ 19 دجنبر 1915 والتي استندت إلى القرار المتخذ في فاتح دجنبر 1915 من طرف المقيم العام خوردانة على الصعيد السياسي .

هـ) رسالة وزير الدولة إلى المقيم العام ، التي أقرت في 20 دجنبر الاجراءات التي اتخذها هذا الأخير .

2) تقرير قاضي التحقيق .

3) شهادة حاكم قاعدة الحسيمة (النكور) إلى العقيد روبرتو كافيلا أمام قاضي التحقيق ،

4) شهادة الملازم الأول العقيد خوصي ريكلمي

5) شهادة النقيب خوصي بربيتا (Jose Barbeta).

6) شهادة القاضي محمد بن عبد الكريم

7) نتائج تحريات قاضي التحقيق

8) تقرير القاضي المستمع إلى الجنرال أيثبورو

9) التقرير نفسه .

10) قرار الجنرال أيثبورو

11) رسالة الجنرال أيثبورو إلى المقيم العام بتاريخ 19 دجنبر 1915.

12) رسالة المقيم العام إلى الجنرال أيثبورو بتاريخ 20 اكتوبر 1915 .

S . H . M., Mel. , II , 12 , 43

13) رسالة وزير الدولة إلى المقيم العام الموجودة في ملف القضية .

14) برقية من أيثبورو إلى المقيم العام بتاريخ 23 دجنبر 1915 .

S . H . M ., Mel, II , 9 , 34 ,

15) تصريحات المبعوث محمد بن الحاج السي محند الذي قدم إلى "المكتب المركزي" موفدا من قبل القاضي عبد الكريم ، بتاريخ فاتح فبراير 1916 .

S . H . M., Mel , II , 9 , 30 ,

16) رسالة من الجنرال أيثبورو إلى المقيم العام بتاريخ 15 فبراير 1916

S . H . M., Mel , II, 12 , 15 .

17) جواب المقيم العام إلى الجنرال أيثبورو بتاريخ 19 فبراير 1916 :

S . H . M ., Mel , II , 12 , 2 .

18) رسالة انطونيو ايبانكوس (Antonio Ibancos) إلى الجنرال ايثبورو بتاريخ 31 غشت 1915 :

S . H . M., Mel , II , 12 , 13 .

19) برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليلية بتاريخ 29 غشت 1915 :

S . H . M., Mel , II , 9 , 100 .

20) محمد ازرقان ، مصدر سبق ذكره ، ص 18 و 19 من المخطوط

21) المصدر نفسه . وكذلك " نشرة لجنة إفريقيا " (B . C . A . F)

" في التقرير الشهري للحماية " شهر شتنبر 1915 ، نقرأ : " إن الدعاية الألمانية في الريف ليس لها تأثير كبير ، لأنها توجه العمل ضد فرنسا بينما توجد اهتمامات القبائل موجهة خاصة ضد الاسبان " .

22) " السي عبد الكريم أَصْنْ حياند أوبا رعمان إيرابيجٌ ضا صبيانو روخا إِ نوار ضا ليمان " .

ومعناها بالحرف : إن لعبد الكريم لحية عصفور دوري ، ولقد كان اسبانيا ثم أصبح اليوم المانيا . سجل لنا هذه الأهزوجة الريفية صديقنا يوسف السويكي بعد التقاطها من عمه شعيب الفلاح الذي قمنا من جهتنا باستنطاقه . كان هذا الأخير أحد القادة العسكريين خلال حرب الريف ، وقد شاهد في العصر الذي نتحدث عنه عدة عشرات من الألمان عند القاضي عبد الكريم .

23) " إن الألمان الذين استقدمهم الفقيه إلى بني ورياغل قد انصرفوا هذه الليلة مع رجال تابعين له ... ويعلق جل الأهالي على الوقائع الحالية قائلين إنها من نتائج المهمة التي كلفت بها اسبانيا السي عبد الكريم ، وهم يحذرون منه رغم تصريحاته الدائمة المعادية للاسبان " برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليلية بتاريخ 29 غشت 1915 :

S . H . M ., Mel., II, 9 , 100.

24) كان هناك جمهور غفير البارحة بسوق الأربعاء باجدير . وقد عرقل أصدقاؤنا نشاط السي عبد الكريم وصرحوا بأن جميع المسلمين يشجبون تصرفاته . وقد دار نقاش حاد حول ضرورة معاقبة بتاريخ 2 شتنبر 1915 .

S . H . M ., Mel., II , 9 , 99

25) برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليلية بتاريخ 20 يناير 1916 :

S . H . M ., Mel., II , 9 , 112 .

26) البرقية نفسها .

27) برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليلية ، بتاريخ 16 يناير 1916 :

S . H . M., Mel., III , 8 , 11 .

28) برقية من مليلية إلى المقيم العام خوردانة ، بتاريخ 13 أبريل 1916 :

S . H . M., Mel., III , 8 , 90

وبرقية الحسيمة (النكور) إلى مليلية ، بتاريخ 28 مارس 1916 .

S . H . M., Mel , III , 8 , 96 .

29) برقية من المقيم العام خوردانة إلى الجنرال ايثبورو بتاريخ 10 فبراير 1916 :

S . H . M., Mel , III , 8 , 106 .

وكذلك الرسالة الجوابية على هذه البرقية بتاريخ 29 فبراير 1916 :

S . H . M., Mel., III , 8 , 106 .

30) رسالة من الجنرال ايثبورو إلى المراقب السامي بتطوان ، بتاريخ 29 فبراير 1916 :

S . H . M., Mel., III, 8 , 102 .

31) " فيما كان عبد الكريم [السي محند] ما يزال في السجن بعد المتابعة القانونية ، جاءت الأوامر بالاستعدادات لاحتلال الحسيمة ،

بكيفية سلمية ، بالاعتماد على رجال عبد الكريم [والد السي محند] ، وإذا أمكن بالاعتماد أيضا على رجال قبيلة بقيوة المجاورة " .
شهادة العقيد ريكلمي أمام اللجنة البرلمانية للتحقيق حول " المسؤليات " :

De Anual à la República ..., op. cit ., pp. 118 , 119 .

32) "بعد الافراج عنه [السي محند] ، تم نقل موظفي الحسيمة [النكور] الذين يتحملون مباشرة مسؤولية الأزمة مع عائلة عبد الكريم" . شهادة العقيد ريكلمي التي سبق ذكرها ، نفسه ، ص 120 .

33) نفسس المرجع المذكور في الهامشين 31 و 32 .

34) رسالة القاضي عبد الكريم (الترجمة الاسبانية) إلى الجنرال أيثبورو ، بتاريخ 6 غشت 1916 .

S . H . M., Mel., II , 10 , 24 .

35) نفس المصدر المذكور في الهامش 31 .

36) برقية من حاكم إلى مليلية الجنرال المقيم العام خوردانة ، بتاريخ 12 شتنبر 1916 :

S . H . M., Mel., III, 8 , 58 .

37) المصدر نفسه .

38) رسالة من الجنرال أيثبورو إلى المقيم العام خوردانة ، بتاريخ 24 شتنبر 1916 :

S . H . M., Mcl ., II , 10 , 104 .

39) رسالة من القاضي عبد الكريم إلى الجنرال أيثبورو ، بتاريخ 26 شتنبر 1916 (الترجمة الاسبانية)

S . H . M., Mel ., II , 10 , 100 .

40) برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليلية ، بتاريخ 13 شتنبر 1916 :

S . H . M., Mel ., I , 8 , 51 .

41) المصدر نفسه .

42) برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليلية ، بتاريخ 30 شتنبر 1916 .

S . H . M ., Mel., I , 8 , 41 .

43) برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليلية بتاريخ 17 شتنبر 1916 :

S . H . M., Mel., I ., 8 , 36 .

44) برقية من الجنرال أيثبورو إلى المقيم العام خوردانة ، بتاريخ 21 دجنبر 1916 :

S . H . M ., Mel., II , 10 , 94 .

45) المصدر نفسه .

46) تقرير الجنرال أيثبورو إلى المقيم العام خوردانة حول الحالة السياسية في بني ورياغل ، بتاريخ 29 يناير 1917

S . H . M,. Mel ., III , 9 , 14 .

47) وهما السي عمار المحمدي من فخذ أيت يوسف أو علي والحاج الحادي من فخذ المرابطين : ملتمس السي محند بن عبد الكريم الموجه إلى خليفة السلطان بتطوان قصد الحصول على تعويض عن الخسائر الناجمة عن احراق أملاك عائلته من طرف أعداء اسبانيا ، بتاريخ 14 دجنبر 1917 .

S . H . M,. Mel., II , 2 , 216 .

48) المصدر نفسه .

49) المصدر نفسه .

50) برقية من الجنرال أيثبورو إلى المقيم العام خوردانة ، بتاريخ 8 مارس 1917 :

S . H . M ., Mel ., III , 9 , 2

51) برقية من المقيم العام خوردانة إلى الحاكم مليلية ، ايثبورو ، وهي غير مؤرخة ، إلا أنها ترجع إلى الفترة الممتدة بين 8 و 11 مارس 1917 :

S . H . M., Mel., III , 9 , 6 .

52) رواية عن المذاكرة التي دارت بين القاضي عبد الكريم والعقيد بابلو كوكوريو (Pablo Cogolludo) ، بتاريخ 4 نونمبر 1917 :

S . H . M., Mel., II , 13 , 53 à 56 .

53) في ماي 1917 عاد عمليا إلى منصبه بقرار اسباني : تقرير الجنرال ايثبورو المذكور في الهامش 46 . إلا أن الاجراءات الأصولية لم تتخذ إلا فيما بعد ، وذلك بظهير خليفي مؤرخ في 22 اكتوبر 1917 وبقرار وزاري مؤرخ في 16 نونمبر 1917 : ملتمس السي محند بن عبد الكريم المتعلق بنفس الموضوع المشار إليه في الهامش 47 ، غير انه موجه في 17 دجنبر 1917 إلى رئيس لجنة التعويضات (وثيقة تفضل فنسخها لنا العقيد دون رامون سانشيث دياث ، وهي ضمن وثائق S . H . M

54) رسالة من الحسيمة (النكور) إلى الجنرال ايثبورو ، بتاريخ 11 غشت 1917 :

S . H . M ., Mel., III , 9 , 50 .

55) المصدر نفسه .

56) رسالة من الحسيمة (النكور) إلى مليلية ، بتاريخ 11 يونيو 1917 .

S . H . M., Mel., III , 9 , 60 .

كانت الحالة المزرية في القبائل ناجمة عن انعدام محصول سنة 1917 .

S . H . M., III , 9 , 60 ;

57) محضر عن المذكرة التي دارت بين القاضي عبد الكريم والعقيد كوكولودو ، بتاريخ 4 نونمبر 1917 ، وقد سبق ذكره في الهامش 52 .

58) رسالة من وزير الدولة بمدريد إلى الجنرال ايثبورو معلنة إقامة الطالب الشاب بدار الطلبة (Residencia de Estudiantes)

S . H . M ., Mel. II , 13 , 42 .

59) برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليلية ، بتاريخ 15 نونمبر 1917 :

S . H . M., Mel., III , 9 , 36 .

60) برقية من الجنرال ايثبورو إلى المقيم العام خوردانة ، بتاريخ 4 ابريل 1918 .

S . H . M., Mel ., III , 9 , 36 .

كان الفرنسيون على علم بما يجري في قبيلة تمسمان . وفي 10 ابريل كتب المقيم العام إلى وزارة الشؤون الخارجية يقول : " إن المفاوضات من أجل شراء مرفأ إدريس تتواصل بشكل حثيث بين عبد المالك والالمان عن طريق بو قدور قائد تمسمان ، القبيلة التي يدخل هذا المرفأ ضمن ممتلكاتها :

P . LYAUTEY : Lyautey l'Africain ; op . cit. , III ., 297 , 298 .

بيد أننا نلاحظ أن معلومات الفرنسيين كانت ما تزال غير مضبوطة تماما ، سواء فيما يتعلق بالتفاصيل أو بجوهر القضية ، كما أنها كانت تستهدف ، تبعا لمقاصد ليوطي ، تضخيم الخطر الألماني في الريف وشجب ضعف أو مجاملة الاسبان .

61) شهادة العقيد ريكملي أمام اللجنة البرلمانية للتحقيق .

De Anual a la República ..., op. cit, p. 121

62) تقرير العقيد ريكملي حول مشروع الانزال ، بتاريخ 4 يونيو 1918 ، وقد ذكره مؤلفه في الشهادة المشار إليها في الهامش 61

63) شهادة ريكملي المشار إليها في الهامشين 61 و 62 .

64) "يقول الفقيه [عبد الكريم] إن وضعيته بين القبائل تتعرض للأخطار كل يوم بسبب الأدلة البينة التي قدمها بعد انضمامه للقضية الاسبانية . لذا ، فإنه يطلب بأن نسمح له بالاقامة في تمسمان إلى أن يكون ظهوره في بني ورياغل ضروريا ليعمل هنالك بنشاط بغية الحصول على نتائج سريعة" :

برقية الجنرال أيثبورو إلى المقيم العام خوردانة ، المذكورة في الهامش 60 .

65) في وصفه للحالة السياسية العامة بقطاعه ، كتب الجنرال داماسوبرنكر ، الذي خلف كومز خوردانة : " لقد اعترى الفتور تدريجيا أصدقاءنا الذين كانوا تحت تصرفنا ، وكثيرة هي الشخصيات الهامة التي ابتعدت عنا ، مما أدى إلى تفكيك الفرق الموالية لنا التي كلفنا انشاؤها الشئ الكثير ، وأدى إلى تدهور نفوذنا بما يترتب عليه من تشويه سمعتنا . لقد تولد عن هذا ارتياب في قدرتنا على العمل ، بحيث يعتقد اليوم أننا عاجزون عن القيام بعمل قوي أو أننا ، وهو ما أدهى ، على كامل الاستعداد وبموافقة تامة من شعبنا على التخلي عن المشروع لفائدة الفرنسيين . لقد ترسخت هذه الفكرة في الأذهان منذ انتهاء الحرب " : S . H . M.,Mel.,III, 1,3 á 16

66) وهو رأي ريكملي الذي كان على معرفة جيدة بالسي محند . يتعين القول بانه لم يعد في هذا التاريخ في " المكتب المركزي " إذ أصبح قائدا لاحدى الكتائب . هذا وسيصرح ريكملي أمام لجنة التحقيق البرلمانية حول " المسؤوليات " بان السي محند كان جد متأثر لتسليم هؤلاء المغاربة إلى الفرنسيين وربما سأل الرائد مرتنث مونخي (Martínez Monje) المكلف بهذا التسليم بقوله : " لو أن فرنسا طالبت بتسليمي لأذعنت " . ومع أن مونخي أنكر ، فإنه قال معاندا : " أعرف أنني أدرج كأحد أنصار الألمان وأن الاسبان يريدون تسليمنا ، أنا ووالدي " .

De Anual a la República, op . cit . p. , p. 120,

سيكون هذا ايضا هو رأي الجنرال أيثبورو كما سنرى .

67) بعد سنة تحضيرية ، فشل في امتحان الدخول ، في يونيو 1918 ، إلا انه قبل في ظروف ممتازة في دورة أكتوبر . شهادة البرتو خيمنث فرود (Alberto Giménez Fraud) مدير دار الطلبة بمدريد ، امام لجنة التحقيق حول " المسؤوليات " :

De Anual a la República .. , op. cit . p . 53 .

68) نفس المرجع المذكور في الهامش 67 .

69) برقية من حاكم مليلية إلى حاكم الحسيمة (النكور) بتاريخ 8 فبراير 1919 .

S . H . M., Mel., II , 8 , 28 .

70) نفس المصدر المذكور في الهامش 69 .

71) برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليلية ، بتاريخ 20 فبراير 1919 :

72) المصدر نفسه

73) S . H . M., Mel., II , 8 , 53 .

توفي خوردانة ، وهو ما زال بمنصبه ، منذ ثلاثة أشهر من قبل ، وقد تم تعويضه بالجنرال برنكر . أما بالنسبة للعقيد ريكملي ، فقد تمت ترقيته وأصبح قائدا لاحدى الكتائب .

74) رسالة الجيرال أيثبورو إلى المقيم العام برنكر بتاريخ 3 مارس 1919 ، Mel., II, 8 , 49 .

75) انظر ما سيأتي ص 301 ، 302 .

76) رسالة وجهها البرتو خيمنث فرود وأدرجت من طرفه في ملف التحقيق الذي أجرته اللجنة البرلمانية حول " المسؤوليات"

De Anual a la República .., op., cit. p. 53 .

مثال الريسوني

من المصادفات الجديرة بالذكر أن الاسبان ، في نفس الوقت الذي استرجع عبد الكريم وولداه حريتهم ، سجلوا في الطرف الآخر من الرقعة التي تدخل ضمن منطقتهم ارتداداً آخر كان من شأنه في حينه أن يكون أشد اقلاقا لهم ، نظرا لأن الأمر يتعلق بشخصية ذات وزن كبير ، ونعني بها الشريف الذائع الصيت أحمد الريسوني .

لم يكن عبد الكريم ، يتمتع في الريف سوى بنفوذ منازع فيه داخل قبيلتين أو ثلاث قبائل تدير أمورها على شكل جمهوريات . من هنا خدماته المحدودة ، ولو أنها ثمينة ، تلك التي قدمها لحد الآن . من هنا أيضا اضطراره إلى وضع حد لتعامله . أما الريسوني ، فكان بالعكس يحكم قبضته على جل القبائل التي تتكون منها مجموعة جبالة الكبرى . لذا شكل في حد ذاته قوة حقيقية ، عسكرية وسياسية على حد سواء . بفضل تحالفه ، تمكن الاسبان من تحقيق مكاسب هامة ، هي الوحيدة على أية حال ، أو شبه الوحيدة ، التي حققوها في ظرف ثماني سنوات ، علاوة على ذلك ، كان يحميهم من القبائل الجبلية الخاضعة له . وعليه ، لماذا انساق هو الآخر ، وفي نفس الوقت ، إلى وضع حد لتحالفه ؟ أيكون ذلك ، كما اعتقد الاسبان ، مجرد حيلة وخدعة ؟ أو هل يكون نتيجة طموح مفرط ؟ نرى من المفيد أن نحسم في الأمر طالما أن المستقبل القريب سيميط اللثام عن الروابط القائمة بين جميع قطاعات المنطقة التي كانت اسبانيا بصدد احتلالها .

في 1919 ، كان قد مر تاريخ طويل وحافل بالنسبة لمولاي أحمد الريسوني [1] .

بدأ هذا التاريخ في السنوات الأخيرة من القرن الماضي ، عندما طرأت تحولات شبيهة بتلك التي عاشها الريف ، مكنت من ظهور عصابات بين القبائل ، مسلحة ببنادق جيدة ، أقامت منظومة إرهابية : فكانت تقوم أولا بالنهب والسلب ، ثم تتفاوض مع الضحايا للحصول منهم على فدية لقاء رد متاعهم المنهوب . على أن الريسوني وهو يومها مراهق في مقتبل العمر ، ويتيم الأب ، كان منكبا على طلب العلم كما تقتضي استعداداته وأصوله . فهو سليل أسرة شريفة تحظى بالاحترام من كافة القبائل في شمال المغرب ، مما كان يفرض عليه ، وقد اشتد عوده ، أن يحافظ على هذا الاحترام بعلمه ودينه [2] .

للأسف ، اضطر إلى الانحراف عن هذا الاتجاه الورع عندما نهب بيته وقتلت أمه نفسها أثناء الاعتداء . إنها البندقية هي التي ستساعده على أخذ الثأر ، لا الكتاب . بعد أن صار بدوره رئيس عصابة تمكن من العثور على المعتدين فأثخن فيهم ، واسترجع متاعه بدون أية فدية (3) .

هذا العمل الباهر جعل الناس يرمقونه بعين الاجلال والاكبار إلى حد أن قبائل الناحية هرعت إليه ملتمسة مساعدته لأخذ الثأر . بفضل نجاحاته المتكررة ، تمكن من وضع حد للصوصية وفي نفس الوقت تمكن من إرساء دعائم سلطته الخاصة . حينئذ استقطب اهتمام الدولة ، فاستعانت به لقطع دابر اللصوصية بقبيلة أنجره النائية عنها ، ثم ما لبث السلطان أن عينه عاملا على هذه القبيلة اعترافا له بالجميل . كان ذلك في الأيام الأخيرة من عهد مولاي الحسن (4) .

مع الحكم الجديد تم فجأة ، بدون أن نعرف السبب بالضبط ، اعتقال هذا العامل الشاب البالغ من العمر 24 سنة ، وزج به في سجن جزيرة الصويرة ، حيث بقي إلى وفاة با احماد ، الوزير قوى الشكيمة (5) .

عندما خرج من السجن في غضون 1900 م ، كان قد صار رجلا آخر . لم يعد مجال اهتمامه موجها إلى التباري مع اللصوص المحليين . فإن رفقاءه في السجن من المعارضين السياسيين ، الذين جئ بهم من فاس ومن مدن أخرى ، فتحوا أمامه آفاقاً جديدة باطلاعه على الأخطار العظيمة التي تهدد مجموع البلاد (6) . لدرء هذه الاخطار ، قرر توظيف حمية شبابه وما اكتسب من امكانات في حياة المغامرة للوقوف ضد المسيحيين وضد السلطان مولاي عبد العزيز الذي كان مجرد ألعوبة بأيديهم . أجل ، لقد أصبح بعد خروجه من السجن هذه الشخصية الغريبة ، نصف الأسطورية ، التي تتداخل فيها في علاقة غامضة ، سمات من العدل والوطنية واللصوصية . بعد أن كان منذرا مغمورا ، صارت بذكره الركبان عن طريق اعتقال الصحافي الانجليزي هارس والأميريكي بردكارس ، اللذين أصبحا سجينيه في قلب الجبال ، كما اكتسب ثروة فائضة عن طريق الفدية . مع كل هذا ، فإن السلطان ، الذي وضعه في حالة لا يحسد عليها ، لم يجد بدا من مذاهنته بتعيينه عاملا على طنجة .

بيد أن هذا التعيين لم يجعله لين العريكة . بالعكس ، استغل السلطة التي فوضت إليه للوقوف ضد الخطر الذي كانت فرنسا تمثله بالخصوص في ذلك الوقت . عندما نزل غليوم الثاني بمدينته ، تحدوه نفس الرغبة في احباط مشاريع الفرنسيين ، كان هو الذي

حشد الحشود لاحاطة الاستقبال بروعة صاخبة . ثم سرعان ما رفع راية العصيان ضد عاهله عبد العزيز وتمكن من اعتقال أحد قادته العسكريين ، الانجليزي مكلين ، الأمر الذي عاد عليه بفدية أخرى [7] .

كان ذلك بعد مؤتمر الجزيرة الخضراء . وعندما ثار عبد الحفيظ بعد زمن يسير في مراكش ، كان الريسوني من بين الأوائل الذين بادروا إلى إعلان انضمامهم إليه . ذلك أنه علق عليه ، مثل محمد الكتاني ، آمالا عظيمة هذا بالإضافة إلى أنه كان مهيأ أكثر للتفاهم معه . إذ بدلا من مراقبة يمارسها الرعايا على ملكهم ، كان يومن بالعكس بقيادة نيرة تمارس عنفا لا يرحم وسلطة لا تقبل أخذا ولا ردا . ألم يقم هو نفسه بضبط النظام في منطقته بل وبإلقاء القفاز في وجه الدول العظمى ؟

من جهته ، فإن عبد الحفيظ الذي كانت تروقه هذه الأساليب ، جعل بين يديه أمر قيادة القبائل الست عشرة التي تعمر كل المنطقة في الشمال الغربي بين البحر والمحيط إلى المضيق [8] . في كل قبيلة منها ، وضع القائد الجديد حدا نهائيا للانقسامات ، مركزا أنصاره ومستأصلا شأفة خصومه . وسرعان ما أصبح اسم الريسوني يثير الرعب في منطقة شاسعة لم يكن أي واحد ليجرؤ فيها على التملص من إمرته . كان يحكم فيها كأنه ملك من الملوك . في كل مكان كان له رجاله المسلحون ومزارعوه الذين يشتغلون له في أراضيه . أما في أصيلة ، التي اتخذها عاصمة له ، فكانت الحياة تنتظم كلها حول قصره ، وسجونه المكتظة على الدوام .

بموازاة هذا النجاح المحلي ، انهارت للأسف الآمال التي التمعت تباشيرها في الآفق مع تولية عبد الحفيظ . فإنه بعيدا عن استرجاع شبر واحد من الأراضي المغتصبة من المسيحيين ، تنازل لهم على طول الخط : بقبوله مقررات الجزيرة الخضراء ، بتحمله مسؤولية ديون أخيه ، باندفاعه هو نفسه في هوة القروض . ثم إن الأخبار سرعان ما ترامت بأنه أقدم ، بعد أن تخلى عنه الجميع ، وحوصر بفاس من طرف القبائل التي نادت بخلعه ، أقدم على الاستنجاد بالفرنسيين . لقد أنقذه هؤلاء حقا من رعاياه بعد اقتحام عاصمته ، لكن ليجعلوا منه أسيرهم وليستقروا في قلب البلاد . كيف لا يعترف بواقع الحال ؟ في نهاية المطاف ، فإن زوكاستي (Zugasti) القنصل الاسباني بالعرائش ، الذي اتخذه الريسوني صديقا رغم أنه مسيحي ، هو الذي كان يرى الأمور على حقيقتها : إنه لمن العبث المقاومة أمام أوربا المتكتلة .

مع ذلك ، لم يكن زوكاستي (Zugasti) يرى المستقبل من وراء منظار قاتم . فبما

أنه ليس بالإمكان اختيار الدولة الحامية ، فقد لفت النظر ، كما فعل بالأمس مرين Marín صديق القاضي عبد الكريم ، إلى حظ المغاربة بالشمال الذين سينجون من الفرنسيين بفضل اسبانيا ، وهي فكرة مارست تأثيرها أيضا على الريسوني (9) . سيصرح بالفعل هذا الأخير بعد مدة طويلة ، وهو يستذكر هذه الفترة :

"لم تكن اسبانيا تمثل في نظري قوة عظمى . لأجل هذا فضلتها في قرارة نفسي على غيرها من الدول . وحيث انها لم تكن تتوفر على قوة عظيمة ، وحيث ان مصالحها كانت تتطابق مع مصالح المغرب ، فإنني لم أكن أراها مهيأة لسحقنا . كنت أخالها كأخت كبيرة ستتولى تهذيب هذه البلاد ، ولو تطلب ذلك من المغرب أن يرد لها ذات يوم ما ستغدقه عليه من نعم ، كأخ معترف بالجميل ، مفعم بالمودة " (10) .

على العموم ، كان يعتقد أن الحماية برعاية اسبانيا لن تكون كلمة عقيمة . لذا قرر ، وقد رأى فاسا تسقط تحت سيطرة الفرنسيين ، أن يضع الثقة في الاسبان . لكنه وجه اليهم منذ البداية تحذيرا نستشف منه ماكان ينتظره منهم وكذلك ما كان يتخوف منه . فعندما قدم توماس ما يسترى (Tomás Maestre) ، السيناتور بمدريد ، للاستكشاف عن نيته ، نصحه بشدة بألا ينزل الاسبان سوى الحد الأدنى من جنودهم على أن يبقى هؤلاء مقيمين بالميناء ؛ وهكذا فقد أوضح له قائلا :

"إن اسم اسبانيا مستحب لدى المغاربة . لكن إذا استقدمتم قوات كبيرة ، فإن هذا الاسم لن يلبث أن يصبح بغيضا ، لأن المغاربة سيعتقدون حينئذ أنكم تريدون الهيمنة بقوة السلاح " .

عندما سأله مايستري عمن سيتولى في هذه الحالة ضمان النظام والأمن ، أجابه الريسوني : "إنهم جنودي" (11) .

إنه تقدير في غاية التعقيد ذلك الذي يستشف من هذه الكلمات . فعلى الحضور الاسباني الذي اعتبر، كما رأينا ، بمثابة وقاية من التهديد الفرنسي ، أن يدعم الريسوني ويعتمد عليه في آن واحد .

يفترض هذا أن يترك له الاسبان زمام الأمور كلها بيده وأن يتحلوا برزانة كبيرة لتجنب إثارة الرأي العام . بهذا الشرط المزدوج ، يتكفل الريسوني بحمل القبائل على قبول الحضور الاسباني ، وإن اقتضى الأمر بفرضه عليها ، وإلا ، فإنه سيجد نفسه بين الاكراه الاسباني وغضب اخوانه ؛ في هذه الحالة لن يتحمل أية مسؤولية .

في هذا الطرح تدخل بالطبع ، وفي المقام الأول ، إرادة الهيمنة لرجل حريص على المحافظة على كامل سلطته . لكن من الخطأ اعتبار تلويحه بالتهديد الشعبي مجرد تحايل يرمي من ورائه إلى إرهاب الاسبان . بدلا من التحايل ، يمكن القول انه كان سانجا عندما علل النفس بأن الاسبان لن تحنوهم الرغبة في الاستئثار وحدهم بالسيادة بعد استقرارهم في البلاد .

أما التخوف الذي كان يشغل باله في حالة انهيار هذا الأمل ، فهو تخوف حقيقي لا تمويه فيه . فإنه كان واثقا جدا من نجاحه ما دامت المسألة لا تهم إلا المغاربة . إلا أنه كان يخشى من أفول نجمه لو ثبت أنه عميل للاسبان . وفضلا عن ذلك ، هل كانت له الرغبة في الاضطلاع بهذا الدور ؟ مهما يكن فقد كانت المخاطرة لا تخفى عن بصره . وإذا قرر المراهنة على التدخل الاسباني ، فلتعذر وجود خيار أفضل .

بالفعل ، بعد ثمانية أيام من المذاكرة مع السيناتور مايستري . استقبل في ميناء العرائش العقيد سلفستري الذي تمكن بدون صعوبة من انزال قواته الاحتلالية . ثم ساعده على احتلال القصر الكبير لإحراز قصب السبق على الفرنسيين ، وفتح له أبواب أصيلة حيث يوجد مقر حكومته . لقد كان يخوض اللعبة [12] .

أما بالنسبة لسلفستري ، فقد تظاهر بأنه يريد مكافأته حيث اقترحه لتولي منصب الخليفة الفخري ، كنائب للسلطان في كل المنطقة الآيلة لاسبانيا . إلا أنه سعى في نفس الوقت إلى تحطيم سلطته في الأراضي التي يحكم فيها (الريسوني) بتعيين مسؤلين من خصومه ، وبالتفاوض مباشرة مع القبائل الخاضعة له ، وبإفراغ سجونه بأصيلة كآخر إهانة وضربة قاصمة له [13] . بعد أقل من سنتين ، تفاقم التوتر بين الطرفين إلى حد أن الريسوني ، وقد تخلى عن كل السهول التي دخلها العدو بفضله ، التجأ في مارس 1913 إلى قبيلته الأصلية ، هي قبيلة بني عروس في أعالي الجبال [14] .

في هذه القبائل كما هو الشأن في تلك التي لم تكن اسبانيا قد أخضعتها بعد كان ما يزال سيد الموقف . إلا أنه سيد مستضعف وذو سلطة مهزوزة بسبب تواطئه مع الاسبان . لإعادة تعزيز موقفه ، اضطر ، حسب شهادته نفسها ، إلى "مصالحة ومسايرة القبائل" [15] ، التي كانت روح المقاومة متأججة فيها . بل ودعا هو نفسه إلى حمل السلاح ، موضحا أن تعامله مع الاسبان لم يكن سوى محاولة نابعة من حسن نيته ، استهدف من ورائها درء الخطر دون اراقة الدماء . حسب أقواله ، فإنه كان يعرف قبل

إقدامه - ببعض النفور- على هذا الأمر ، أن محاولته قد تنتهي بالفشل ، كما وقع بالفعل ، وأنها ستلصق به في جميع الأحوال التهمة المريرة بالتحول إلى مسيحي . لكن كان من واجبه - كما أوضح - بذل مثل هذه التضحية لخير شعبه (16) .

بيد أن هذا الكلام المعسول لم يكن كافيا لتسكين الحملة التي قامت ضده والتي أصرت على اعتباره أكثر من مسيحي ، وعميلا للإسبان (17) . كتب بنفسه فيما بعد مستحضرا ذكرى هذا الفشل :

"لقد طالما شاركت في كل تجمعات اخواني المسلمين وانضممت إليهم في جميع المعارك ، إلا أنهم كانوا يصرحون بأن ذلك مجرد حيلة من أجل خيانتهم ، وبأنني لا أسعى ، بالسير بجانبهم ، إلا إلى خدمة الدولة الاسبانية على وجه أفضل . كنت بهذا بين نارين : فأنتم معشر الاسبان كنتم تتهمونني بأن الثورة من تدبيري ، بينما كان المسلمون يعتبرونني خائنا " (18) .

من الثابت الأكيد أن سلطة الريسوني عرفت في ذلك الوقت تدهورا خطيرا بين إخوانه ، حيث انهم فضلوا زعيما آخر للجهاد لقيادة المعركة . إلا أن الرجل كان يتوفر على وسائل اخرى ، غير الكلام ، لاسترجاع ما فقده من نفوذ . فجهازه القمعي الذي أنشأه منذ مدة طويلة كان ما يزال قائما ، وقد وظفه لتصفية أبرز منافسيه مستعملا أساليب العنف والغدر التي يحسن ممارستها (19) .

صحيح أنه كان ممقوتا على نطاق واسع ، إلا أنه كان مهاب الجانب من طرف الجميع . بحيث إنه أصبح الرجل الذي يتوجب على الاسبان التفاوض معه إن هم أرادوا استمالة كل القبائل الجبلية التي كانت منذ سنتين تمنع عليهم كل تقدم بحضوره . لم يكن هو نفسه يطمح ظاهريا سوى إلى الاستئثار بهذا الدور . وهذا بالطبع شريطة أن يكافئه الاسبان عن خدماته حق المكافأة ، بإبقائه في سلطته وتزويده بالوسائل اللازمة من أجل تدعيمها ، من مال وأسلحة .

بعد أكثر من سنة من المفاوضات ، تم انتزاع الاتفاقية في ماي 1916 . عندئذ عبد الطريق في الحين أمام المقيم العام خوردانة الذي تمكن أخيرا ، بعد دخوله الفنيدق ، من ربط الاتصالات بين قطاعيه الغربيين ، قطاع العرائش على المحيط الأطلنتكي ، وقطاع سبتة على البحر الأبيض المتوسط . ثم ساعده على إخضاع القبائل المشرفة على الطريق المارة بين هذين القطاعين ، خاصة منها قبيلة أنجرة الكبرى . بيد أنه لم يتوصل إلى هذه النتيجة إلا بالحديد والنار ، وفي معارك اضطر فيها الريسوني

إلى التدخل مع جنوده أنفسهم بجانب الاسبان [20] . كيف يتسنى له منذئذ الاستمرار في درّ الرماد في العيون بخصوص طبيعة علاقاته مع الغزاة ؟

بيد أنه اجتهد في ذلك . فكلما ترامى الاسبان على الأراضي التابعة له إلا وتعالت احتجاجاته سيما وأنه كان يعتقد حقيقة أنه يتعرض للمعاكسات . حينئذ كان يستنفر رجاله للمقاومة . بيد أن هذا الترامي كان بالنسبة للاسبان ضرورة يقتضيها حتى منطق الزحف أينما سنحت به الفرصة . لذلك كانوا يغتاضون لاصطدامهم بالريسوني في الوقت الذي كانوا يتكلون على مساعدته . ابتداء من 1917 رأى خوردانة أنه يشل عمليا كل التقدم الاسباني ، وأنه لم يعد بالتالي صديقا ، ومن الواجب التصرف معه تصرف الأسياد [21] . تلك هي النوايا بالضبط - وكان الريسوني على علم بها - التي جاء بها برنكر عندما خلف خوردانة في بداية 1919 .

* * *

بيد أن التوتر الحقيقي الذي كان يعارض بين الريسوني والاسبان لم يكن ليبرئ ساحته في نظر القبائل الواعية بكل التقدم الذي حققه العدو بفضل مساعدته . لذا فإن القلق الذي كانت تخلفه كل محاولة ترمي إلى توسيع نطاق الاحتلال كان يثير عليه الخواطر بقدر ما كان يثيرها على الغزاة . ها هي ذي الشهادة التي سيدلي بها ذات يوم حول هذه المسألة حينما سيقول متحدثا عن العسكريين الذين كانوا يهاجمون هنا وهناك لتحقيق مزيد من التقدم :

"لقد جدوا واجتهدوا إلى حد أنهم زعزعوا مواقعي في كل المنطقة من أصيلة إلى قبيلة الأخماس ، بينما كان الجميع خاضعا لي من قبل . هذا ما كلفني تضحيات في الرجال والمال بدون جدوى " [22] .

إن هذه التضحيات بالطبع هي الثمن الذي توجب عليه أداؤه لقمع العصيان . معنى هذا أن المقاومة النضالية ضد الاسبان سارت سويا مع معارضة سياسية تجرأت على مد جذورها ضده هو الآخر . كان بغض القبائل من الحدة والوضوح إلى حد أن خوردانة توهم إمكانية استغلاله لفائدة اسبانيا [23] . وهو ما تبجح برنكر من بعده بتحقيقه ، حيث كتب مخاطبا الريسوني : " أتدري أن القبائل تستقبلنا بكل ترحاب لغاية واحدة ، هي التخلص من سلطتك ؟ " [24] .

كانت للريسوني خبرة كبيرة بالقوة الشئ الذي جعله واعيا بتلك التي تنامت ضده وسط القبائل . ياله من تحول ذلك الذي طرأ على طبيعة سلطته منذ الفترة التي كان فيها

وهو مازال شابا ، يطارد اللصوص ، أو يختطف في وسط طنجة بعض المسيحيين المرموقين . كان وقتها يضرب دائما بعنف ، لكن ليريح الناس من آفة اللصوصية أو ليضرب أعداء المسلمين . كانت القبائل تصفق لكل ضرباته ، وتنصاع طوعا لسلطته ، وتزوده بدون تبرم بالوسائل المادية لتدعيم حكمه . أما المنعطف فقد حدث في عام 1911 . فلئن وطد الريسوني العزم وقتئذ على العمل لفائدة اسبانيا ، فلأنه انطلق من اعتبارات تأخذ في الحسبان المصلحة العامة . إلا أنه كانه يعرف أن عامة الناس لن يكون في مقدورها بالطبع أن تفقه شيئا من مواقفه ، بحيث كان تعليل النفس بهذا الأمل ضربا من الأوهام . وفضلا عن ذلك ما الفائدة من التفكير فيه ؟ هل من واجب الزعيم تبرير مواقفه أمام رجاله ؟

مع ذلك ، فإن هذا هو ما ألزم نفسه به بعد أن أن ساءت علاقاته بسلفستري وعاد يقرع سن الندم مستجيرا بقبائله . كان عليه حينئذ أن يسلم طوعا أو كرها بخضوعه لهذه القبائل التي يحكمها . إلا أنه فهم الأمور بطريقة الفارس الذي يحتاج إلى دابته لكي يتقدم ، فيقوم بمداعبتها قبل ركوبها ، ولو اقتضى الأمر أن يضربها بالسوط فيما بعد إن هي جمحت . أجل لقد قاد القبائل إلى الطاعة بعصا الإكراه ، وأمسك برقابها من جديد ليسخرها لخدمة اسبانيا . قامت هاته من جانبها بتزويده بالسلاح لاحكام قبضته على رجاله . لكنه وقع في نفس المعضلة التي سبق أن تخوف منها من قبل كما عكست ذلك الكلمات التي أدلى بها لما يسترى . فبعيدا عن أن تخمد كراهية القبائل للاسبان مع مرور الزمن كانت تزداد حدة عند كل تقدم جديد لهم . إلى أي حد إذن سيصل هذا الوضع ؟ ومن سواه سيكون الضحية الأولى لو أنه انتظر إلى غاية حدوث الانفجار ؟

إن هذا التخوف الذي لم يبرح ذهن الريسوني هو الذي شل فجأة ، في غضون 1917 ، التعاون الذي قدمه للاسبان في الأشهر الفارطة ، أي منذ ماي 1916 ، وهو تاريخ الاتفاقية التي ربطته بهم. إنه السبب الحقيقي وليس ، وكما اعتقد البعض ، إيمانه بالنصر الألماني القريب. بالفعل فإن خوردانة الذي استهواه هو نفسه في البداية التفسير الأخير اضطر فيما بعد إلى التسليم بأن الريسوني، بعيدا عن العودة إلى جادة الصواب، بعد الهزيمة الألمانية ، ازداد تغطرسا وجنوحا إلى الاستقلال ، بل وأفضى به الأمر إلى ترجمة عدائه صراحة بالأفعال [25] . آخر مثال هو أوامره بطرد مهندسي الجيش الاسباني العاملين قريبا منه في نواحي تطوان. صرح فيما بعد للاسبان، محاولا تبرير موقفه بأن هذه المبادرة الصادرة عنه إنما هي مجرد مناورة

سياسية ، إذ حاول بقطع علاقاته معهم بشكل علني تسكين الغضب المتأجج بين السكان [26].

إن هذا التصريح في غاية الوضوح . ما عساه يكون بالفعل هذا الغضب الشعبي الذي من شأن قطيعة مع الاسبان أن تعمل على تسكينه ، ما عساه يكون اللهم إلا نفس الغضب الذي كان أصدقاء هؤلاء الاسبان أنفسهم يواجهونه بالضبط أيضا في الريف ؟ رأينا بأدق التفاصيل كيف اتخذ الغضب من هذا الجانب طابعا هجوميا في 1918 إلى حد أن عبد الكريم وولديه استحال عليهم أن يؤجلوا مرة أخرى قرارهم المتعلق بوضع حد لتعاونهم مع الاسبان . وها هو ذا الريسوني يخبرنا بنفسه ، في سياق حديثه عن السنة المذكورة ، بأنها تميزت أيضا في كل الناحية الغربية ، في القصر الكبير أو في أصيلة ، بتدهور الأوضاع بشكل لم يسبق له نظير [27] . إذا ما رأيناه إذن في نهاية هذه السنة لا يكترث بالفوائد التي جناها من الخدمات الهامة المتعددة التي سبق له أن أسداها للاسبان ، ويصرح بأن غضب الشعب يمكن أن يهدأ بمجرد ما يسود الاعتقاد بانفصاله عنهم ، فهل يبقى مجال للشك في وجود موازاة كبيرة بين تطور مجرى الأحداث في كلا القطاعين ؟

ليس من قبيل الصدفة إذن أن يكون هذا المجرى قد قاد في كلا القطاعين ، وفي نفس الوقت ، إلى نهاية تكاد تكون مماثلة . بعد مرور يوم واحد على الرسالة التي كتبها السي محند بأجدير ، حرر الريسوني بدوره بتازورت ، الواقعة بعيدا في القطاع الغربي رسالة مطولة كانت بمثابة قطيعة فعلية بعد أن حمل فيها اسبانيا المسؤولية الوحيدة للتوتر بين الطرفين . أما وجه الاختلاف ، فهو أن السي محند التجأ إلى المجاملة وأبدى رغبته الصادقة في انقاذ الصداقة بينما استعمل الريسوني لهجة قوية ووقف موقف التحدي . وهكذا فقد صرح هذا الأخير مخاطبا المقيم العام برنكر : "إذا كنتم تعتقدون أنكم ترهبونني فعليكم أن تعلموا أننا لسنا من هذه الأشجار التى نهزهزها ، ولكننا بالأحرى من هذه المعادن التي لاتنال منها لا الحرارة ولا البرودة" [28] . ذلك أن عبد الكريم والسي محند لم يكونا عموما سوى رجلين من الأعيان ، كانا مدينين كثيرا لاسبانيا ولم ينفصلا عنها إلا بمرارة ، إذ أنهما تخليا بانفصالهما عن كثير من الطموحات التي لم يتمكنا من تحقيقها إلا بفضلها . أما الريسوني ، فكان أميرا قبل اتصاله باسبانيا ثم لغم قواعد سلطته بالدخول في خدمتها . كان يشعر بأنه خاسر كل الخسارة إذا لم يعمل على إنقاذ نفسه عن طريق انقلاب باهر يكفي لاقناع إخوانه بأنه سيبذل منذئذ جهوده لمناهضة اسبانيا بكيفية أكثر مما بذلها في مساعدتها سابقا .

بالطبع كان انقلاب الريسوني الصاخب هو القادر وحده على إثارة الانتباه ، مع

أن المستقبل سيظهر مدى الخطورة المترتبة على الانسلال الحذر للقاضي عبد الكريم . لكن المهم هنا أن نلاحظ أن الفوران الساري المفعول منذ مدة طويلة بين قبائل الريف ، كان يعمل أيضا عمله في قبائل جبالة التي كانت تعرف مع ذلك ظروفا جد مغايرة ، وأن هذا الفوران كان في نهاية الأمر المسؤول بالفعل عن قطيعة الريسوني كما كان مسؤولا عن قطيعة القاضي عبد الكريم . معنى هذا أن الاسبان بعد أن أصبحوا محرومين من هذين العنصرين الرئيسيين ، سيصطدمون مباشرة هنا وهناك برفض قبائل أكثر تفطنا وتيقظا ، وتتمتع أيضا بحرية التصرف وفق إرادتها الخاصة. وبالتالي فقد كان أمل خوردانة ضربا من الأوهام عندما اعتقد أن القبائل ستساعده على كبح جماح الريسوني. وماذا يقال عن خلفه برنكر الذي صرح متبجحا بعد يومين أو ثلاثة أيام من ارتداد كل من الريسوني وعبد الكريم : "لقد قلت دائما ان مشكل افريقيا ليس مشكلا عسكريا" (29) . إن هذا لأقل ما يستطاع قوله في الوقت الذي سيرغم فيه بالضبط الفشل السياسي على اللجوء إلى السلاح.

* * *

سيما وأن معطى جديدا أخذ في هذا الوقت يمارس مفعوله على واقع الأحداث نتيجة للمنازعات إن لم نقل للتعويقات الفرنسية.

ذلك أن الفرنسيين لم يقدموا بالأمس وعودهم لاسبانيا بمنحها كل شمال المغرب إلا تحت إكراه الضغط الأنجليزي . هذا ما تجلى واضحا عندما تنكروا للالتزاماتهم ساعة التقسيم. ولقد تمكنوا بعد مساومات جشعة من تمديد الحدود إلى ما وراء ورغة ، مع أن الاتفاقية تنص على حصرها فيما قبل الوادي (30) . لكن بالنظر إلى أطماعهم الواسعة ، فإن هذا المكتسب الهام بدا لهم تسوية هزيلة جدا لا تشفي الغليل. بحيث ان نزعة حقيقية لضم شمال المغرب -تكاد تكون مفضوحة- ألهمت سياسة المستعمرين الفرنسيين ضد شمال المغرب ، وهذا بمقدار ما كان زعيمهم ليوطي يتمتع في المغرب بسلطة مطلقة.

منذ البداية ، حظر ليوطي كل تعاون مع اسبانيا على الصعيد العسكري. هذا ما حرص على تأكيده بصفة قطعية في زيارة لمدريد وأمام الملك بنفسه (31) . ولئن كان قد اقترح بالمقابل "تعاونه النزيه وبمنتهى الصدق" (32) في الميادين الأخرى ، فلإن الوعود هنا لم تكن تلزمه بشيء. وبالفعل فإنه عوض مد جسور التعاون ، سعى جادا إلى وضع العراقيل. هذا ما فعل بصدد مسألة الخليفة الذي كان يمثل بالنسبة لاسبانيا أهمية كبيرة. كان هذا الخليفة ، بوصفه نائبا عن السلطان ، الشذرة الوحيدة بيد الإسبان

المشروعية التي من شأنها أن تساعدهم على تجسيد وهم حمايتهم. كيف لا يبذلون إذن قصارى جهودهم للرفع من شأنه ؟ لكن هيهات. فلقد وقف لهم ليوطي بالمرصاد منددا بمظاهر السيادة التي تقلدها الخليفة كما يقول بكيفية غير مشروعة (33) . هل لحرصه ، كما زعم ، على المحافظة على وحدة المملكة السياسية (34) أم بالأحرى لرغبته في ضرب البناء الإسباني المتداعي في نقطة ضعفه ؟

من جهة أخرى ، ألم ينتهك هو نفسه الوحدة بكيفية أشد خطورة عندما قام في نفس الوقت بتفكيك هياكل الاقتصاد التقليدي لعزل الريف عن منطقته الخلفية ؟ لأن هذا هو السبب الذي جعله ، وحسب شهادته ، يقف موقف الرفض خلال عشر سنوات من بناء جسر على ملوية السفلى. فبما أن الوحدة كانت في هذه الحالة ستساعد الإسبان على إنعاش منطقتهم ، فإنه ضرب بها عرض الحائط وهو مرتاح البال ، ليربط ضد طبيعة الأمور شرق البلاد بالسوق الجزائرية (35) .

من الحق أنه فكر عشية الحرب في تغيير موقفه تحسبا للخيار الذي كان على اسبانيا أن تقوم به في بداية الصراع (36) . وحتى بعد أن بقيت هذه محايدة ، فقد اضطر إلى أخذها بعين الاعتبار ؛ وإلى غاية الهدنة ، ظل حريصا على عدم المس بالوضع القائم فيما عدا مرة واحدة ، وبصدد طنجة ، التي أراد جعلها قاعدة للبحرية الفرنسية (37) . مع ذلك ، فإنه لم يتخل عن مطالبه. خلال السنوات الأربع من الحرب ، هيأ ملفا ضخما من المآخذ ضد الإسبان متهما إياهم بتحويل منطقتهم إلى قاعدة ألمانية ضد فرنسا. وبمجرد ما وضعت الحرب أوزارها ، وبدون أن ينتظر حتى الإعلان عن الهدنة ، حرر لحكومته ملتمسا معربا عن رغبته في وجوب عرضه على مؤتمر الصلح.

نقرأ في هذا الملتمس : منذ أن لم يبق هناك داع ، كما كان الشأن في السنوات الأولى من الحرب ، لمداراة اسبانيا قصد كسب تحالفها ، ومنذ أن أصبحنا نتوفر على ملف جاهز حول إقدامها على وضع منطقتها في خدمة ألمانيا ، لم يبق هناك سوى حلين لا غير علينا أخذهما بعين الاعتبار : اما "التخلي عن مجموع المنطقة الاسبانية" لفرنسا، وهو الأمر الكفيل وحده "بتكريس وحدة تراب الإمبراطورية الشريفة تكريسا منطقيا وتاما" ، وإما التخلي الجزئي عن المنطقة المذكورة ، وفي هذه الحالة لابد وأن يضم "الحد الأدنى" الذي تطالب به فرنسا كل الأقاليم الواقعة في غرب وكذلك في جنوب وشرق القوس الذي تشكله قمم الجبال الريفية ، بما في ذلك منطقة طنجة الدولية (38) . بعبارة أخرى ، سيقتصر الحد الأقصى الذي سيبقى لاسبانيا على الجدار الذي يرتفع عن البحر من سبتة إلى مليلية على وجه العموم . وعلى هذا الأساس يتضح أن الاختلاف بين

الصيغتين اختلاف بسيط .

كلما كان ليوطي يقوم بتحضير مشروع كبير ، إلا وشاهدنا ميلاد حملة متنوعة تشن بمهارة من أجل تدعيمه على مختلف المستويات : من رأي عام ، وبرلمان ، ووزارات ، وأوساط دبلوماسية ، تلك الحملة التي يظهر فيما بعد أنه هو الذي قام بتنظيمها بتنسيق مع مصالحه. علي هذه الوتيرة جرت الأمور في الحالة التي تهمنا هنا. فما كاد يسلم الحكومة ملتمسه ، حتى وجدنا سلسلة من العرائض والمقالات ومحاولات جس النبض تُركز الاهتمام على الأضرار التي كانت تتعرض لها فرنسا في المغرب بسبب مجاورتها اسبانيا. وبالتالي فقد ارتفعت الأصوات لتقترح أو تطالب ، بحسب الحالات ، بالضم الكامل أو الجزئي. فعلى حين أن الغرفة التجارية بمرسيليا رفعت صوتها لتنادي بجعل هذه المطالب مقصورة على منطقة طنجة (39) ، عبرت الدورية الناطقة باسم العسكريين الاستعماريين عن رأيها بلهجة متكلفة في اتجاه تخلي اسبانيا عن كامل منطقتها ، ومما جاء في تصريحها : "ينبغي السعي بعزم وإصرار إلى إيجاد هذا الحل ، لأنه هو القادر وحده على إعادة الانسجام بين الدولتين العظيمتين ، ذلك الانسجام الذي هو غايتنا المنشودة" (40) .

في طنجة بدأت الأصوات ترتفع منذ الأيام الأولى من عام 1919. فقد صاغت الجالية الفرنسية بالمدينة مطالبها في عريضة وجهتها إلى كلمنصو (Clemenceau) منادية فيها بضم المدينة والساحل الذي يفصلها في الجنوب عن الأقاليم التي تشرف عليها فرنسا. كانت هذه المطالب مجرد مبادرة صادرة عن خواص من دون أن يكون لها أية صبغة رسمية. إلا أن الأمر اختلف عن ذلك شيئا ما عندما قام بواسوناس بنفسه (Boissonas) ، بوصفه قنصلا لفرنسا بالمدينة ، باطلاع زميله الأنجليزي على العريضة المذكورة ، مضيفا بدون مواربة بأن "ما يلزم التخلي عنه لفرنسا هو في الحقيقة كل المنطقة الإسبانية بما فيها سبتة ومليلية ، وذلك من أجل تأمين دفاعها الذاتي وتيسير المهمة التي تضطلع بها من الأطلنتيكي إلى طرابلس" (41) .وبهذا أصبح القنصلان وسيطين بين ليوطي والخارجية البريطانية.

استقبلت الفكرة ببرودة كبيرة في لندن حيث كان المسؤولون حريصين دائما على عدم السماح لفرنسا ، القوة البحرية ، بالتمركز في الساحل المواجه لجبل طارق (42) . لذا فقد تذرعوا هناك باتفاقية التقسيم التي خصصت عن قصد عام 1904 كل شمال المغرب لاسبانيا لجعلها حائلا بين الفرنسيين والبحر (43) . صحيح أن فرنسا لم توقع إلا

مع اسبانيا وحدها ، لكن ظروف التوقيع استلزمت على الأقل الموافقة الضمنية لانجلترة على فصول الاتفاقية التي أصبحت بهذا هي الضامنة لها (44) . مع ذلك ثمة حقيقة لا سبيل إلى إنكارها ، وهي أن الإسبان كانوا يخلقون الفرصة أمام فرنسا للتنديد بعجزهم الذي لا جدال فيه ، ذلك العجز الذي ترك منطقة بكاملها بدون حاكم إلى حد أنها تحولت في حدود منطقة الفرنسيين إلى مركز للتمرد وملجأ للثائرين عليهم (45) . بالطبع ليس في هذا ما من شأنه أن يزحزح موقف انجلترة كطرف مساند للإسبان ورافض للادعاءات الفرنسية. على أنه من واجب اسبانيا بالمقابل الإسراع بفرض حمايتها. وهو ما يتعين تنبيهها إليه (46) .

* * *

لكن ألم يكن المسؤولون في مدريد قد أدركوا ذلك من تلقاء أنفسهم ؟ إن اسبانيا لم تغتر أبدا بما كان الاستعماريون الفرنسيون يضمرونه لها خاصة منهم ليوطي. منذ أن قام هذا الأخير بزيارة مدريد في 1913 كان الملك ، في مقابلة له معه رأسا لرأس ، قد تأفف صراحة من "نفوره الملحوظ" (47) . إنه نفور ، أو قل بالأحرى عداء بذل الإسبان قصارى جهودهم لإخماد جذوته في السنوات اللاحقة بدون أية نتيجة. نتذكر كيف حرص خوردانة خلال الحرب على عدم التساهل في كل ما من شأنه أن يضر تحت قيادته بالمصالح الفرنسية . في مرتين ، استغل مناسبتين رسميتين ليؤدي القسم على ذلك أمام الجميع. كان هذا عندما نجح عام 1915 ، وبعد إلحاحاته ، في إقناع ليوطي بتبادل الزيارة معه : في الرباط أولا ، حيث تم استقباله ، ثم في تطوان حيث خصص لليوطي استقبالا رائعا جديرا ب " سيد الحرب الإفريقية غير المنازع" (48) . هل كان هذا إذن كفيلا بتنقية الأجواء بين الجيران ؟ بالعكس. فإن ليوطي لم ير في الاستقبال الذي خصص له سوى مناورة بعد أن فاجأه الإسبان وورطوه في "البروتوكول" الذي منح الخليفة السلطاني "اختصاصات السيادة". ألم يبد حينئذ وكأنه يزكي بنفسه الاغتصاب ؟ لذا فقد تعلل بهذه "الخدعة المحبوكة" -التي ادعى فيما بعد بتسع سنوات بأنه لم يهضمها- وقطع زيارته ، مستبعدا فكرة كل لقاء جديد بالنسبة للمستقبل (49) .

بعد أن انهار على هذا النحو كل أمل في التعاون أو حتى في التفاهم ، أخذت أخبار متنوعة تترامى إلى الأسبان عن دعاية مقلقة أشد القلق ، باعتبار أنها كانت تصورهم في منطقتهم في حالة يرثى لها من الفقر والضعف داخل موطنهم الأصلي وعاجزين بالتالي عن بسط سلطانهم خارجه. حدت هذه الدعاية ، وهو ما لم يكن يخفى

عن أحد ، صادرة عن المراكز الفرنسية [50] . إنه واقع مؤلم ، لكن كان يتعين التسليم به.

على أن إشاعة جديدة أكثر دقة بدأت تروج منذ الإعلان عن الهدنة ، مفادها أن قبائل الشمال أخذت هذه المرة تصرح بأن اسبانيا تأكدت أخيرا من فشلها وباتت على كامل الاستعداد لتفويت منطقتها تلقائيا للفرنسيين [51] . والأمر الجدير بالاعتبار أن نفس الادعاء تردد أيضا في الصحف الفرنسية هنا وهناك [52] . إذ علمنا أن الكثيرين من المعارضين داخل اسبانيا طالبوا بالفعل بالتخلي عن المغرب وإن اقتضى الأمر بالتفاوض مع فرنسا ، المستفيدة المحتملة [53] ، فإننا ندرك أن كل هذه الأمور أفضت في الأخير إلى وضع يقض مضاجع الإسبان ، وهذا بقدر ما كانت فرنسا ، المعنية الأولى ، تتراءى من الخلف. هل ستخطو هاته إذن خطوة أخري وتتجاوز مرحلة العداء الخفي الذي ساد في السنوات المنصرمة للقيام بعمل حاسم ؟ ألن تطالب ، وقد جاءت منتصرة إلى مؤتمر الصلح بباريس ، بتنحية اسبانيا لتبقى صاحبة السيادة الوحيدة بالمغرب ؟ ومن يدري ، فلعل المسؤولين بمدريد كانوا على علم بالطلب الذي تقدم به ليوطي إلى حكومته في هذا الاتجاه. كان واضحا على أية حال أنهم كانوا قلقين ، وهذا ما يفسر كيف أنهم رأوا في الأسابيع الأخيرة من 1919 ضرورة الاستفسار عما استجد في الموقف الأنجليزي من القضية المغربية [54] .

الضمانات التي تلقاها الأسبان من هذا الجانب مكنتهم من أخذ المبادرة قبل التحرك الفرنسي المحتمل. فما كاد ينعقد مؤتمر الصلح ، حتي أعلن رومانونس (Romanones) أمام الكورتس ، في 21 يناير ، أن تواجد بلاده في المنطقة المغربية المواجهة لسواحلها ليس سوى "ضمانة ضرورية .. لاستقلالها" [55] . بعبارة أخرى ، لم يكن هناك مجال بخصوص هذه النقطة ، لقبول أية مساومة أو للتنازل أمام الضغوط .

إنها لهجة حازمة بالطبع ، لكن من شأنها ألا تؤخذ مأخذ الجد إذا لم يواكبها عمل مناسب ، ونعني به العمل الحربي القادر على فرض التواجد الإسباني فوق التراب المغربي ، ذلك التواجد الذي اعتبر من الضروريات. بيد أن الإسبان انساقوا في اتجاه معاكس راضخين للمعارضين. فلقد مر شهران منذ وفاة خوردانة ، المقيم العام والقائد العام ، قبل أن يتمكنوا من تعيين خلف له. في هذا دليل على افتقارهم إلى قوة العزيمة. عندما تم أخيرا تعيين برنكر في بداية 1919 ، تراهم قد جردوه من لقب القائد العام إرضاء للمعارضين. كان الإسبان إذن يسيرون بالمعكوس ، وكان يتعين عليهم تدارك الموقف.

ذلك ما قاموا به ، ولو بكيفية سرية في البداية ، لكن بدون انتظار وصول المواعظ من لندن. ففيما كان من المفروض أن يكتفي برنكر بالقيام بدور سياسي ، يبدو أن مهمته قامت في الواقع على تركيز جهوده فورا على الصعيد العسكري. في 7 يناير ، وبدون أن ينتظر حتى التحاقه بمنصبه استفسر حاكم مليلية عما تبدو عليه الأمور في إطار عمليات حربية محتملة ، وهذا في حالة ما إذا قررت الحكومة إعطاء الغزو دفعا جديدا. إنه كما نرى مجرد احتمال. لكن من المرجح أن الأمر لا يتعلق سوى بتحفظ في الأسلوب. إذ أن ناقوس الخطر دق منذ هذا الوقت وسط القبائل التي بدأت تستعد لمواجهة هجوم وشيك. بل وتأكد لديها الخبر بأن اسبانيا تتهيأ هذه المرة لمد الغزو حتى النهاية.

ذلك ما سجله حاكم مليلية في جوابه دون أن يبدي أي اندهاش منه. كيف يمكن تصور ذلك إذا لم يكن متأكدا بنفسه من صحة الخبر (56) .

من جهة أخرى فإن الحكومة سرعان ما أفصحت علانية عن نواياها. فقد تناول رومانونس الكلمة أمام الكرتس وعبر عن موقفه بقوة وانفعال في اتجاه الحفاظ على الوضع القائم بالمغرب هاتفا : "إن التخلي عن مغربنا سيكون ... النكبة الأخيرة التي قد نتجرع مرارتها".

ثم أكد أنه يتوجب على اسبانيا أن تتدخل هناك بشكل أقوى وأكثر فعالية حتى تتمكن من فرض حقوقها ؛ وختم بقوله ، مستهدفا بوضوح المعارضين : "إننا مقبلون على مرحلة يتعين معها أن تكون حرية العمل في المغرب كبيرة وكبيرة جدا" (57) .

كان ذلك في 19 فبراير ، أي قبل يومين من قطيعة عبد الكريم وثلاثة أيام من قطيعة الريسوني. من المؤكد أنه لم تكن توجد أية رابطة بين هذه الأحداث ، بل وجرت بمعزل عن بعضها. مع ذلك فقد حددت في مجموعها التطور الذي عرفته الأوضاع. فإن أطماع فرنسا ونفاذ صبر انجلترة فرضا على اسبانيا ضرورة الشروع في فرض احتلال كل منطقة حمايتها بدون إبطاء ؛ وهذا في الوقت الذي كانت فيه مقاومة القبائل قد ازدادت حدة وبلغت من النضج ما جعلها تنتزع من أيدي الإسبان أوراقهم الرابحة على الصعيد السياسي. وهكذا لم يبق ، فيما عدا القوة ، أي ملجأ آخر ، ولا أي وسيلة للتراجع أمام العدو أو استمهاله. فإلى أين إذن سيقود اللجوء إلى القوة إذا ما كانت القبائل قد تمكنت بوعيها وإصرارها من أن تتخلص ، في شخصي عبد الكريم والريسوني ، من رادعين قويين من الروادع التي شلت حرية عملها لحد الآن ؟ .

* * *

هل كان الأسبان يقدرون صعوبة المشكل حق قدره ؟ لا نلمس وجود وحدة في الرؤية حول هذه النقطة ، على الأقل في البدء ، داخل القيادة العليا. في مليلية ، لم يكن الجنرال أيثبورو متفائلا على الإطلاق. في أحد تقاريره نجده يقول بأنه عاين منذ أربع سنوات من مزاولة مهامه تدهور النفوذ الإسباني : فالصداقات التي عقدها الإسبان مع قبائل الريف اعتراها الفتور تدريجيا ، كما سجلت كثير من الارتدادات ، وتفككت الأحزاب الموالية لاسبانيا التي كلف تشكيلها نفقات باهضة ، وختم قائلا : "إن الرأي السائد بين القبائل في المنطقة غير المحتلة يتلخص .. في الرفض البات لاحتلالنا" (58) .

كتبت هذه السطور في يناير 1919 . والملاحظ أن القلق الذي تنطوي عليه لم يتبدد بل ولم يخف رغم النجاح الذي حققه أيثبورو فيما بعد ، عندما تمكن في غضون هذه السنة من التقدم بقواته في قبيلتي مطالسة وبني بو ياحي. فلئن كان هذا التقدم قد تم في الواقع بدون أن يصطدم بأية مقاومة ، فإنه استفاد من ظروف استثنائية ، حيث إنه جرى في منطقة سهلية فقيرة ، كان سكانها جد المتشتتين يعانون فوق ذلك من مجاعة ناجمة عن توالي أربع سنوات من الجفاف وعن الحصار المزدوج لكل من الفرنسيين والإسبان (59) .

على أية حال فإن هذا التقدم لم يسفر عن أية تسوية. فبدلا من أن يجتذب أشخاصا جددا من المناصرين ، فإنه أدى إلى انشقاق رجل حليف لاسبانيا وإلى دخوله المعسكر الخصم -وهذا ارتداد آخر- ونعني به بو رحايل ، أحد الشيوخ من ذوي النفوذ في قبيلة مطالسة ، كما أنه أثار من جديد هيجانا كبيرا في باقي الريف. فلأول مرة لاقت دعاية الريسوني الترحيب حتى في المنطقة ، هذا بالإضافة إلى انتشار الدعاية الفرنسية بشكل ملموس والتي زادت بدورها الطين بلة. وهكذا فقد احتشدت تشكيلات مسلحة هنا وهناك ، مما جعل أيثبورو يقول في 2 يونيو : "حقا ، إن الهيجان على جانب كبير من الخطورة" (60) . بعد ثلاثة أسابيع ، لاحظ أن الفوران يجعل العمل السياسي عديم الجدوى ، ثم أضاف : "لا سبيل إلى قمع هيجان بمثل هذا العداء والخطورة إلا عن طريق سحقه بالوسائل العسكرية التي تعوزنا الآن" (61) .

خلال هذا الصيف ، ساد نشاط كبير وسط القبائل المجاورة لجون الحسيمة ، فقد قام هناك السي حميدو الوزاني على قدم وساق لجمع وحدات المقاتلين. على أن هذه الوحدات لم تعد تتجه فقط نحو كرت ، مما يؤشر على تطور جديد. إذ أن بعضها يمم شطر الغرب للالتحاق بوحدات الريسوني ، بينما توجه بعضها الآخر لمواجهة الفرنسيين

في الجنوب ، حيث تمكنت من تكسير زحفهم إلى ورغة في شهر أبريل تحت قيادة أحمد أخمليش ، بعد أن كبدتهم خسائر كبيرة في الأرواح وغنمت عددا من مدافعهم [62] . والمثير للانتباه أن هذه القبائل لم تكن مهددة بعد في حد ذاتها. وبالتالي ألا يدل الدعم الذي كانت تقدمه في جهات نائية حيثما لاح الخطر على وجود وعي بوحدة المصالح ، وبما يكفي للارتقاء بروح التضامن من مستوى محلي إلى مستوى عام يشمل الجماعة التي فصلتها الأقدار عن باقي البلاد ؟

إن هذا الاتجاه الجديد كان ما يزال في بدايته ، إذ أن "أصدقاء اسبانيا" لم يكونوا قد رضخوا كلهم بعد ، وكانوا ما يزالون قادرين على الزج بالمناضلين في أتون الصراعات الداخلية . مثال ذلك الإخوان الشامي وعبد السلام في قبيلة بني سعيد ، الذين واصلوا استفزازهم لبو رحايل ، وبوكوش والسي علال محند. في أكتوبر لاحظ أيثبورو :

"إن النتيجة التي أسفرت عنها صراعاتهم تمثلت في الاختفاء شبه التام لوحدات المقاتلين التي تشكلت سابقا ، والتي صارت اليوم مجرد زمر صغيرة جدا ، لأن كل طائفة تستنزف طاقتها وإمكاناتها في هذه الصراعات الداخلية ، كما أن ديون الدم التي تستتبع ذلك تزيد من صعوبة توجيه الكفاح ضدنا" [63] .

إن هذه العملية التضليلية لا تشكل عنصرا جديدا بالنسبة إلينا ، لكن الجديد هو أنها لم تعد تطمئن أيثبورو. فقد كتب يقول :

"يصرح أصدقاؤنا بأنهم هم الذين دبروا هذا الاضطراب وهذه الفوضى ، وأن ما تمخض عنهما من نتائج جاء متمشيا مع مخططاتهم. إلا أنهم وقعوا هذه المرة ضحايا لمكائدهم. ذلك أن فريق المتعصبين والمتمردين ، ذاك الذي يعرف في الريف ب "فريق عامة الناس"(el partido de los pequeños) ، أصبح هو الفريق الأقوى بكثير ، وقد قضّ بالإغارات والغرامات مضاجع أبرز الشيوخ المتهمين بالحفاظ على علاقاتهم بنا" [64] .

يضاف إلى هذا أن اسبانيا اكتشفت الآن وجود عدد من المتطوعين من "أصدقائها" وممن لم تكن تتوقع انضمامهم إلى المقاومين. ومن هؤلاء أحمد أخمليش بن محمد ، الشريف الذائع الصيت والخصم العنيد . كان هذا الشاب قد آثر مهادنة اسبانيا منذ أن بات يتقاضى منها راتبه. غير أنه هو الذي أنزل بالفرنسيين في الجنوب هزيمة ساحقة [65] . وعندما استدعاه أيثبورو إليه لتبليغه الأمر بترك الفرنسيين وشأنهم ، ثارت ثائرته مهددا ، لا أكثر ولا أقل ، بنسف قاعدة بادس الإسبانية تحت قصف المدافع التي

غنمها بالذات من الفرنسيين (66) . فإذا كانت هذه هي نوعية الصداقات التي تشترى بالمال ، فقد كان لا مفر من توقع المفاجآت.

والواقع أنه ثمة مفاجآت أخرى حصلت لايثبورو. فخلال زحفه نحو الجنوب ، احتل "سوق الثلاثاء" في قبيلة مطالسة الذي كان يشكل عقدة مواصلات. كانت الحملة مشجعة للغاية. إذ أن مطالسة لم تتلق أي مساعدة من وحدات المقاومين الأخرى مع أنها كانت قريبة جدا. ذلك أن مهمة هذه الوحدات القادمة من الريف الغربي تركزت بالخصوص على اعتراض سبيل الإسبان إن هم ساروا في اتجاه الغرب. وهو موقف جاء نتيجة للخطة البارعة لـ "أصدقاء اسبانيا" الذين نجحوا هذه المرة في تغليب الأنانية القبلية على واجب التضامن . بحيث ان قبيلة مطالسة ، التي تركت وشأنها ونال منها اليأس ، لم تعد تبدي أية مقاومة . وبذلك استعاد أيثبورو اطمئنانه ، ولم يخامره شك في أنه دعم مواقعه وأحبط نهائيا إرادة المقاومة لدى الخصم (67) . لكن في فاتح دجنبر ، وفي ليلة حالكة ، تعرضت حامية أحد مراكزه الصغيرة لهجوم أثناء سباتها ، قتل فيه وجرح عدد من أفرادها بينما اضطر الباقون إلى الفرار . كانت الصدمة قوية على أيثبورو لتخوفه من هذا " القلق شبه الصبياني الذي كانت الخسائر البشرية [على حد قول برنكر] تنشره بين الرأي العام في بلاده " (68) .

على أن الذي أذهله أكثر هو الكيفية التي نفذ بها المقاومون هجومهم . فقد كان هؤلاء يفتقرون إلى الوسائل اللازمة ، ولا يستعملون سوى نوع ردئ من القنابل اليدوية التي صنعوها بأنفسهم ، لكنها ذات فعالية مريعة (69) . فإذا عرفوا كيف يستفيدون من هذا السلاح الردئ ، فماذا يحدث لو أنهم أظهروا مثل هذا الإقدام وباستعمال السلاح الذي غنموه والذي كان بوسعهم دائما الاستحواذ عليه ؟

وهكذا أدرك أيثبورو بوضوح ، كما تشهد على ذلك جميع تقاريره ، أن قوة الخصم كانت آخذة في النمو فيما وراء المظاهر ، ولو أنه كان يضطر إلى التراجع . من هنا حذره المفرط الذي أفضى إلى شل نشاطه . لم يكن إذن رجل الظرفية الجديدة كما كانت تتراءى لبرنكر وللحكومة . ولن يتلقى القطاع الغربي دفعة من النشاط إلا مع خلفه الجنرال سلفستري الذي عوضه في 30 يناير 1920 .

* * *

قبل هذا التاريخ ، كان التباين كبيرا بين مواقف أيثبورو الحذرة في قطاعه ، وبين النزعة الجديدة التي أضفاها حضور برنكر المقيم العام ، على كل النشاط في

القطاع الغربي منذ أن تسلم مهامه . لم يكن الاسبان ، كما نتذكر ، قد أحرزوا من هذا الجانب على أي تقدم جديد منذ سنتين . لنقل ، لنكون أكثر دقة ، انهم اضطروا حتى إلى التراجع منذ أن تدهورت العلاقات بينهم وبين الريسوني . وهكذا فإنهم خسروا الفنيدق بعد أن احتلوه منذ ثلاث سنوات بفضل هذا الأخير . كان هذا المركز النقطة التي بواسطتها تم ربط الاتصال بين سبتة وتطوان من جهة ، وبين العرائش على المحيط من جهة أخرى . زيادة على ذلك ، أصبحت تطوان ، عاصمة المنطقة ، مهددة بالمقاومة التي كانت تقترب من أرباضها من كل جهة ، كما أصبحت المواصلات بينها وبين سبتة ، من حيث يتم الاتصال بشبه الجزيرة ، مشكلا عسكريا .

بناء على ذلك فإن برنكر ، الذي سبق له منذ بضعة أسابيع لا غير أن نفى وجود مشكل عسكري في المغرب ، لم يبد أي اهتمام آخر منذ وصوله إلا بتنظيم سلسلة من العمليات امتدت طوال سنة 1919 . وهي عمليات دامية جدا إلى حد أنها أثارت قلق الرأي العام الاسباني (70) . إلا أنها مكنت على نطاق واسع من فك الحصار عن تطوان وضمنت بعد استعادة الفنيدق ، السيادة على الممر المؤدي إلى المحيط (71) .

الجانب الجديد الذي ينطوي عليه هذا النجاح هو أنه بدلا من أن يأتي على يد الريسوني ، تحقق ضده إلى حد أنه اضطر إلى الفرار إلى قلب جبالة على جناح السرعة . أما وقد حرمت اسبانيا من الدعم الذي كان دائما يقدمه لها ، فإنها تمكنت هنا وهناك من استقطاب شخصيات مناصرة لقضيتها ، وهي شخصيات تقل عنه بكثير من حيث الأهمية ، إلا أنها ذات وزن كبير بحكم عددها وكان بغضها الشخصي للريسوني يساعد على التحالف معها ضده . ألا يدل هذا على أن اسبانيا وجدت البديل لتحالفها السابق معه ، وأنها ستحتفظ بوسائل النجاح السياسي الكفيلة بالحد من اللجوء إلى السلاح ، المحتم استخدامه ، إلى القدر الأدنى الضروري ، وضمان النصر لها ؟ مقابل تردد أيثبورو ، كانت الوقائع إذن تبرر تفاؤل برنكر المشوب بالجرأة ، ولكن أيضا بالتبصر . كما جاء اختيار الجنرال سلفستري لتولي القيادة في مليلية ، ليؤشر حقا على أن الاسبان عازمون في هذا القطاع أيضا على إعطاء الأولية لنفس الاستعدادات .

من الحق أن البعض أبى ، فيما بعد ، إلا أن يلتمس في هذا الاختيار أسباب الفاجعة التي أودت بعد سنة ونصف ، بالجنرال سلفستري وبكامل جيشه . لقد قيل بأن سلفستري معروف بكونه رجل أبهة ، وبأنه طموح ، وذو طبع حاد ، ومفضل لدى الملك الذي يتلقى منه الأوامر مباشرة . كانت له فوق ذلك نفس رتبة رئيسه برنكر ، ويتمتع بالأقدمية عليه . كيف لا يمكن أن يؤدي هذا إلى حدوث صراعات حول اختصاصات

الرجلين ، واحتدام التنافس بينهما وتمرد هذا ، وحقد ذاك بل وإلى وقوفه بالمرصاد (72).

الحقيقة أننا إذا ما اكتفينا بالمعطيات الأكيدة لا نجد شيئا من هذا القبيل . فزيادة على ارتباط الرجلين بصداقة متينة ، فان برنكر كان يعرف دائما حتى قبل أن تلحقه مدريد بمنصب القائد العام ، كيف يشرف بنفسه على مخططات الحملة ويدعمها خلال التنفيذ بمراقبة متساهلة لكنها لم تكن أبدا غائبة (73) . في مرة واحدة لا غير ، حصل أن تجرأ سلفستري على الكتابة في أحد تقاريره بأن الفرصة أتيحت له لغزو أحد المواقع إلا أنه اضطر إلى عدم استغلالها لعدم توفره على الإذن اللازم : إذ أن له رئيسا لم يكن ليخالف أوامره . على أن برنكر ، بدلا من أن يقتنع بمظاهر الطاعة التي قدمت بها القضية ، رآها تنم ، سواء عن خطأ أو صواب ، عن تلهف رجل متعطش إلى العمل بمزيد من الحرية. لذلك أجابه بقوله : كيف يمكنك " أن تحاول إظهاري وكأنني أحرمك من حرية التصرف ، وتجعل مني المسؤول عن عدم احتلال تافرسيت عندما سنحت الفرصة بذلك " ؟ هكذا وضع النقاط على الحروف بكل صرامة . فقد أظهر لمرؤوسه أنه يتمتع بحرية تامة فيما يتعلق بتنفيذ الخطة المتفق عليها معا ، لكن لا سبيل له إلى إدخال أي تعديل من تلقاء نفسه على جوهر الخطة ، أو على امتداد وترتيب المراحل (74) .

من خلال جوابه ، يتبين بوضوح أن سلفستري كان يعتبر نفسه ملتزما بما قيل له . نقرأ فيه : " إذا كنت قد تحسرت على عدم تمكني من استغلال الفرصة التي أتيحت لي ، فهذا لا يرجع إلى أنني أطمح إلى الحصول على مزيد من الحرية ، بل يرجع بالعكس إلى إحساسي بكوننا معا يدا واحدة ، إذ أن ما يحفزني هو الرغبة القوية ، الثابتة ، في العمل وفي مساعدتك على إنجاز مهمتك ، تلك المهمة التي يتوجب ضرورة تقديم تقرير عنها إلى الحكومة ". متحدثا بعد ذلك عن الضمانات التي عليه أن يقدمها إلى برنكر ، تماما كباقي القواد الآخرين ، أضاف قائلا :

"لن أحاول أبدا في المستقبل ، كما كان الشأن لحد الآن ، التمتع بوضع استثنائي خاصة إزاءك ، والحال أنك تفضلني بالذات بمنحي ثقتك التي أنا جد ممتن لك بها " .

وختم بهذه الكلمات : " صديقك الوفي كما عهدته دائما ، ومساعدك المخلص . على أمل تقبيلك يوم الثلاثاء القادم " (75) .

إذا كنا حرصنا على إبراز هذه الواقعة الجزئية ، فليس لشغفنا بتقديم الطريف المستجد ، وإنما لتسليط الأضواء على ماكانت عليه حقا علاقات رجلين يضطلعان بدور

أولي . إن سلفستري لم يشق عصا الطاعة . بل ألزم نفسه تلقائيا بواجب الانصياع . مع ذلك كان يكفي أن يخامر الشك برنكر ليقوم بكبح جماحه . وبدلا من أن يتذمر حينئذ سلفستري ، فإنه تباهى بالانقياد له . إن هذا ما لا يتفق تماما والأسطورة التي نسجها البعض فيما بعد . وفي هذا ما يُغني أيضا - سيما وأن برنكر بنفسه تكلف بالأمر (76) - عن مراجعة كل مجرى العمل العسكري لكي نتحقق من كون علاقات التبعية روعيت بكيفية صارمة . وفي اليوم الذي أفلت زمام الأمور من يدي سلفستري ، فإن ذلك لم يكن بسبب هفوة من جانب هذا الأخير ، وإنما بسبب تأثير عنصر جديد لم يكن بالامكان أنذاك تقييمه رغم دوره الحاسم ، وهو نفس العنصر الذي تفطن إليه أيثبورو فيما يبدو ، لكن من دون أن يتمكن من التعرف على طبيعته ، ومن دون أن يدرك بالخصوص درجة قوته . ولا غرو ، فمن كان يومها يتصور أن الوطنية - إذ أن الأمر يتعلق بها هنا - يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار طالما أن المواجهة لم تهم سوى قبائل ريفية ؟ وعلى أية حال ، لم يكن سلفستري ليتصور ذلك ، ولا حتى برنكر .

على العكس ، فإن هذا الجهل المشترك جعل من سلفستري ، الذي وطد العزم على المضي قدما ، الرجل الذي تستلزمه الأوضاع كما كان يتصورها برنكر .

في الحقيقة أن القطاع الغربي هو الذي حظي بالأولوية في المخططات التي حددها هذا الأخيربالنسبة للمنطقة كلها . فبعد أن فك برنكر الحصار عن منافذ تطوان ، وأعاد ربط الاتصال بالعرائش متجنبا شمال كتلة جبالة ، فإنه قرر في المرحلة الجديدة ، احتلال الطية التي تشق هذه الكتلة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ، بين البحر والمحيط تبعا لمجريي وادي لاو ونهر اللكوس ، كل منهما على سفحه . على هذا النحو ، كان بإمكانه التوفر على رقعة قروية واسعة معلمة بمدينتي شفشاون والقصر الكبير ومن شأنها أن تساعد على عزل جيوب الانشقاق الذي يقوده الريسوني (77) . تلك إذن هي المهمة التي حظيت بالأولوية والتي أراد انجازها قبل الاتجاه بكل امكاناته لمواجهة المشكل الآخر في المنطقة الشرقية ، والمتمثل في الوصول إلى جون الحسيمة (78) .

بيد أن أولية الضروريات العاجلة لم تكن تقتضي البتة ايقاف العمل العسكري بشكل تام في هذا القطاع الآخر . ذلك أن مشكل الحسيمة كان يلوح في حد ذاته فيما وراء مجموعة من العقبات التي تشكل صعوبة كبيرة ، وبالامكان تذليلها على الفور ، كما أنها قد تنهار بمزيد من السهولة إذا ما استغلت الظروف غير المتوقعة خلال الزحف بما تتطلبه من ثبات وحزم . كان سلفستري ، برتبته وطبعه ، القائد الذي يستجيب بالذات لمثل هذه المتطلبات . كان قادرا على استغلال الفرص ، ويتمتع بصداقة برنكر الموثوق

بها ، وله ما يكفي من النفوذ ، لا لفرض مخططاته الخاصة عليه ، بل لعرضها عليه واستدراجه إلى الموافقة عليها ، وهذا بمقدار ما يظهر له من احتمالات أثناء زحفه .

على كل حال حان الوقت لكي نلاحظ أن الاستراتيجية الاسبانية طرأ عليها تغيران أساسيان . لقد شكل دائما القطاع الشرقي ، وبعبارة أخرى الريف ، المسرح الرئيسي للمعارك . وفي سنة 1909 - 1912 ، دارت فيه على عهد أمزيان حرب حقيقية . ثم استمرت الحرب بعد ذلك التاريخ على جبهة كرت ، حيث كان يتجابه أو يتواجه معسكران خصمان بكيفية لا هوادة فيها . على أن الحالة كانت مختلفة تماما في القطاع الغربي حيث كانت أربع مدن من المدن الخمس التي تضمها المنطقة (العرائش ، القصر ، أصيلة ، تطوان) قد فتحت أبوابها أمام الغزاة ، وأصبح هؤلاء منذ ذلك الحين يعيشون في جوار آمن مع قبائل جبالة . وفوق ذلك ، كان جون الحسيمة ، في القطاع الريفي الذي حظي وقتذاك بالأولية ، هو الجبهة التي رأت فيها القيادة لحد الآن مفتاح الوضع ، وخططت مرارا لاحتلالها منذ 1911 بواسطة الانزال البحري . على العكس أصبح الآن القطاع الغربي ، كما رأينا ، القطاع الرئيسي لبرنكر . أما قطاع الريف ، الذي أصبح يأتي في الدرجة الثانية ، فلم يعد الاسبان يتصورون فيه إمكانية بذل الوسائل الكبيرة التي يستلزمها الانزال البحري. فبعد أن اعتبر كهدف أولي لجيش يأتي من جهة البحر ، احتفظ جون الحسيمة حقا بجاذبيته لكنه أصبح ، بقلب حدود المشكل ، المرحلة النهائية لزحف بري .

كيف لا يمكن اعتبار هذا التغيير الاستراتيجي تدبيرا عاجلا يتوخى تكييف البرنامج العسكري بمتطلبات الحالة الجديدة كما تراءت بعد قطيعة الريسوني وانسحاب كل من القاضي عبد الكريم وولده محند ؟ من المؤكد أن الريسوني فقد وقتئذ الكثير من نفوذه السابق من جراء تخليه عن كل السهول للاسبان . لكن إذا ما ترك وشأنه يعبئ كل قبائل الجبل ، فقد يشكل خطرا عظيما على كل المنظومة الاسبانية ، المدنية منها والعسكرية ، المعرضة في السهول لضرباته . لذا كان من أولى الأوليات العمل على تدارك أمره عن طريق تطويقه ثم الزحف إليه في قلب جبالة للقضاء عليه ، وهذا قبل أن يتمكن من إعادة توطيد سلطته . ذلك ما قرر برنكر بنفسه التفرغ له معبئا إمكاناته الرئيسية . بانتظار ذلك ، ظهر بالطبع ضرورة القضاء على طموحاته في الطرف الآخر من المنطقة ، في قطاع مليلية . هنا كان الاسبان متأكدين من قدرتهم على التقدم بالتدرج باستغلال الظروف على أحسن وجه . كان ينبغي أيضا أخذ انشقاق القاضي عبد الكريم بعين الاعتبار . فبدون مساعدة هذا الأخير وولده ، لم يعد بالامكان المجازفة بالكل

للنزول فورا بشاطئ الحسيمة .

* * *

لقد تغيرت إذن الاستراتيجية لتستجيب لمتطلبات الأوضاع . بيد أن هذه الأوضاع ستعرف تطورات جديدة . فإذا كان برنكر قد أوقع بالريسوني وتفوق عليه عسكريا ، فإنه مكنه بالمقابل من استعادة نفوذه المنهار ، وشحذ عزيمة المناضلين في كل المنطقة . فبدلا من أن تفت في عضدهم انتكاسات الريسوني الأولى ، فإنهم تحمسوا للضربات القوية التي أصبح يوجهها للاسبان ، مقيمين بالنسبة للمستقبل عواقب انقلابه على الصعيد العام لعلاقة القوى المتواجهة [79] . سبق أن رأينا ، وكظاهرة جديدة ، كيف أن أقصى القبائل الشرقية رحبت برسل الريسوني في صيف 1919 ، أي في الوقت الذي انطلق فيه الصراع في القطاع الغربي [80] . وثمة حقيقة جديدة أخرى أكثر إثارة للانتباه وهي أن قبائل الحسيمة الوسطى أرسلت إلى الريسوني في هذا الصيف مددها على جناح السرعة [81] .

عندما أعلنت الرسائل الصادرة عن قاعدتي بادس والنكور الاسبانيتين عن هذا الخبر ، فإنها لاحظت ، بدون إيضاحات أخرى ، أن الشريف السي حميد و الذي تكفل بالاشراف على هذه الامدادات كان على اتصال بالفقيه السي عبد الكريم الأجديري " [82] . لقد كان اسم القاضي عبد الكريم ، كما هو الشأن بالنسبة لاسم ولده السي محند ، قد اختفى من المراسلات الاسبانية منذ انسحابه بستة أشهر . وإنه لذو دلالة أن نجده يظهر من جديد ، ولو بشكل عرضي ، مرتبطا بالأصداء التي خلفها في المنطقة الانشقاق الصاخب للريسوني .

بالإضافة إلى هذه القرينة البسيطة ، هناك أخرى أكثر وضوحا ودقة تجعلنا نلمس كم بقي القاضي عبد الكريم في أقاصي عزلته متيقظا للأحداث ، حساسا بتطورها ، مترصدا للتغيرات التي من شأنها أن تساعده على العودة إلى مسرح الأحداث . رأينا بالفعل كيف أن ولده محمد (بالفتح) برر طويلا في شهر فبراير الانسحاب الذي أرغمت عليه عائلته كلها ، وذلك في رسالة إلى مدير "دار الطلبة" التي انقطع عنها [83] . بعد ستة أشهر عاودته حاجته إلى التبرير ، فكتب من جديد في 15 غشت حول نفس الموضوع . لكن هذه المرة إلى مانويل أكيري ، الموظف السامي بوزارة الدولة ، وهذا في الوقت الذي كانت فيه المراسلات تشير إلى تورط القاضي عبد الكريم في قضية المساعدة المقدمة للريسوني والمثير للانتباه أنه ، وقد أعاد فتح ملف لم يطرأ عليه مبدئيا أي تغيير ، قدم

عنه عرضا جديدا بشكل ملموس . فإنه قبل ستة أشهر لم يتطرق إلا لحالة والده عبد الكريم الخاصة . أما هذه المرة ، فقد قام بنظرة شمولية ليقدم بلهجة قوية ، لاذعة أو مؤثرة ، حصيلة فشل كل السياسة الاسبانية بالمغرب . وهكذا كتب يقول :

" لو أن المال الذي أنفق هنا ، استعمل بطرق سليمة ، لكان من الممكن التوصل إلى تهدئة المنطقة الاسبانية ، وبناء الخط الحديدي من طنجة إلى تطوان ، ومن مليلية إلى فاس ، أو إلى تازة عبر الحسيمة . كما كان من الممكن أن تعبأ في بني توزن وبني ورياغل آلاف من سواعد الرجال ، بالإضافة إلى الجرّافات ، لتعمل في عمق الجبل على استخراج الكنوز التي يحتضنها " (84) .

لم تكن إذن الوسائل المالية منعدمة ، إلا أنه أسئ استعمالها . كذلك فقد بددت اسبانيا رصيدها من التعاطف الذي تمكنت لمدة طويلة من التمتع به :

"في اليوم الذي شرعت فيه اسبانيا في انجاز مهمتها الحضارية ، تعبأت للعمل كثير من الشخصيات المرموقة . وكانت كل مجهوداتها تجنح إلى أن تجد معكم تسوية للمشكل المغربي تتوافق والمصالح الاسبانية . للأسف ، عوض أن يحصل هؤلاء الأشخاص على نتيجة مرضية ، وعلى ما يستحقونه من تكريم ، فإنهم لم يجنوا كلهم سوى الخذلان الشخصي ، وفقد الاعتبار وضياع أملاكهم ... إن هذا بالطبع ما يقضي على سمعة اسبانيا وسمعة أنصارها في نظر الأهالي ... إن هؤلاء لمقتنعون بأن اسبانيا لن تتمكن مطلقا من تهدئة منطقتها لو استمرت في هذا الاتجاه . وبما أنهم يرون فوق ذلك الكيفية التي يتم بها تطبيق الأحكام ، والتي تدار بها المصالح الكبرى والادارة ، فإنهم يتبرأون من كل تقدم سياسي أو عسكري ، لأنهم يفضلون وضعهم الخاص " (85) .

على أية حال ، كيف لم يتفطن الاسبان بأنفسهم إلى فشلهم بناء على ما لاحظوه من عدد وأهمية معاونيهم الذين أخذوا منذ زمن يسير يفقدونهم الواحد تلو الآخر ؟

يقول محمد :

"إنني مقتنع فيما يخصني بالفشل ، بالنظر إلى أن الكثيرين من الشيوخ المرموقين المناصرين لقضيتكم ، حرموكم من دعمهم ، لكي ينقلب البعض منهم صراحة ضدكم ، ولكي يراقب البعض الآخر بكل بساطة تطور الأحداث . سأذكر من بين الفريق الأول ، الريسوني ثم ابن هاشم من قبيلة أنجرة ، وبو رحايل من قبيلة مطالسة ، وكذلك بو شريف من قبيلة بني توزن . على أن ثمة آخرين [لا داعي إلى ذكرهم] . من الفريق الثاني ، هناك مثال بوجداين من قبيلة بني توزن ، ومثال والدي ، هو أكثر الجميع

نشاطا ، من قبيلة ورياغل . وهذا دون ذكر آخرين كثيرين . من اللازم أن يكون في اسبانيا على علم بهذا . ومن اللازم أن يتساءلوا عن سبب هذه الموجه الهائلة من الارتداد ، خاصة ارتداد والدي " [86] .

أمام عدم تبصر ممثليهم بالمغرب نرى محمدا (بالفتح) يلجأ إلى الاسبان . يقول :

" إن الريف يوجه من أعماق قلبه نداءه إلى الاسبان الأخيار ، مندداً بالطرق التي تمارس بها الحماية ... إننا وقد سئمنا من سنين كثيرة من الفوضى والصراعات الداخلية ، نتوجه إلى اسبانيا مناشدين إياها بأن تنظر في حالنا وتغير قليلا من سياستها في الريف . ونحن نؤكد لها أن عملية التهدئة في منطقتها تتطلب أن يقوم اسبان أخيار بالتفاهم مباشرة مع النخبة القليلة من الشيوخ المتفتحين هنا . إنهم رجال يدركون كل الفائدة التي سيجنيها شمال المغرب من ارتباطه باسبانيا في وحدة حميمة وأخوية . إنهم رجال يتمتعون أيضا بخبرة في شؤون الادارة وتنظيم الحماية .

إن الكيفية التي توزع بها الرواتب على الأهالي في الحسيمة ، لا يمكن أن تقود إلا إلى الفشل ... ينبغي إلغاء هذه الرواتب إلى غاية وضع خطة جديدة ... ومرة أخرى ، فإن السبيل الوحيد إلى تهدئة المنطقة هو التفاهم مع الشخصيات المرموقة المطلعة على حقيقة المشكل ، ومدها بكل المساعدة اللازمة لتنشر هنا النفوذ الاسباني بدون تضحيات " [87] .

هل نحن في حاجة إلى التوضيح أن محمدا (بالفتح) لم يكن ليتصرف من عنديته عندما حرر هذه الرسالة ولم يعبر فقط عن وجهات نظره الشخصية ؟ باعتبار أن القرار في العائلة يكون بيد الأب ، فإن الأفكار بالتالي كانت هي أفكار الأب وولده الأكبر محمد ، الذي هو مستشاره . ذلك على أية حال ما كان يعتقده الاسبان وإذ بدت هذه الرسالة للوهلة الأولى ، كأنها نسخة معدلة للتي أرسلها منذ خمسة أشهر ، والمرسل الأول إليه ، [88] فإنها تنم ، عند امعان النظر ، عن تطور على جانب كبير من الأهمية . أجل ، إننا نجد فيها من جديد اللوم التقليدي الموجه لاسبانيا المتهمة بالعجز وقلة الحزم في تقديم الدعم اللازم للأصدقاء الذين يخاطرون بأنفسهم من أجلها . لكن ، كيف لا ننتبه إلى أن الدعم المطالب به الآن يختلف في طبيعته عن ذاك الذي جرى الحديث عنه فيما مضى ؟ لقد اقتصرت مهمة القاضي عبد الكريم خلال سنوات متعددة على تعبيد الأرضية لكي يتمكن الإسبان من إنزال جيشهم . وكان الدعم الذي يرتجيه وقتذاك هو أن يصبح في مأمن

بفضل هذا الجيش ساعة حضوره . من هنا أيضا لوائمه الشديدة للاسبان عند كل تأجيل جديد . لكن هل نراه الآن وهو يلوم اسبانيا عن أخطائها ، يشير ، كما كان الشأن في الماضي ، إلى هذا الإنزال الذي كانت تعد به دائما وترجئه في كل مرة ؟ لنتذكر كلماته إلى العقيد كوكولود و عام 1917 :

"إذا كنتم ترغبون حقا في توطيد سلطة المخزن في الريف ، فلا توجد وسيلة أخرى إلى ذلك سوى أن تعجلوا بالتدخل مغتنمين الفرصة السانحة ، وأن ترفعوا من رواتب من يخدمكم ، وتضربوا بقوة على من يعاديكم ، وتظهروا قوتكم باستمرار على الملأ " (89) .

وأيضا :

[أرى بالفعل] أن اسبانيا لن تقوم أبدا بعمل يشفى الغليل في الريف طالما لم توطد العزم على توظيف الوسيلتين اللازمتين ، وبما فيه الكفاية ، وهما القوة والمال ، والوقوف دوما على أهبة الاستعداد للانقضاض كلما لاحت لها ظرفية مناسبة . وفيما عدا هذا ، لا ينبغي التعويل على وضع أقدامكم على شاطئ "الحسيمة "(90) .

نرى إذن أن القوة والمال هما الوسيلتان اللازمتان في نظره وقتذاك . كما كان الهدف هو أن يقوم الاسبان بتثبيت أقدامهم بشاطئ الحسيمة . أما الآن فقد أصبح الهدف أكثر تعقيدا وبعدا ، حيث إنه يكمن في "تهدئة المنطقة " . أما بالنسبة للوسيلتين ، فنجد الإشارة إلى إحداهما ، وهي المال ، مع هذا التحفظ المتعلق بالكيفية التي يستعمل بها ، وخاصة بمنح رواتب لا حصر لها لأشخاص قليلي الأهمية ، وعديمي التأثير ، من الأنصار التافهين . أما القوة ، الوسيلة الثانية ، فلا توجد أية إشارة إليها من قريب أو بعيد . ذلك أنه حل محلها مفهوم جديد كل الجدة ، وهو مفهوم التفاهم مباشرة بين "القادة الاسبان الأخيار " وبعض الشيوخ المنتقين الذين سيتولون ، بفضل الوسائل التي ستمدهم بها اسبانيا ، هم وحدهم ، حمل الناس على الانصياع لمزايا الحماية بدون مقاومة تذكر . معنى هذا أنه على الاسبان ، وعلى عكس ما جرى في الجهات المحتلة ، الاكتفاء بدور توجيهي والاحتراز من الحلول في الشؤون العامة محل الشيوخ الذين سينصبونهم .

نرى أن الأمر يتعلق هنا عموما بتبني وجهات نظر الريسوني ، وتبني فكرة الانتداب الذي طالب به اسبانيا بالأمس على الجهات التي يحكمها ، ذلك الانتداب الذي فاز به بالفعل ، ثم أصبح يكافح من أجل إعادة اقراره بكامله . وفي الوقت الذي كان فيه

الريسوني يعيش في وئام مع الاسبان ، كان القاضي عبد الكريم يفتقر إلى النفوذ لكي يطالب بحق الاستفادة من هذه الصيغة . فاضطر يومها إلى الاكتفاء بدور المبشر إلى أن أصبح دوره هذا يشكل خطرا جسيما عليه ، فآثر الانعزال تاركا الحبل على غاربه . لكن تمرد الريسوني أصبح يغريه بطرح العلائق مع اسبانيا في صيغة مغايرة . فبما أن هاته لم تنفذ بتاتا مخططات غزوها العسكري عندما لم تكن تواجهها سوى بعض القبائل الريفية ، ألن تخاطر الآن لو أنها نفذت هذه المخططات وفي الوقت الذي كان عليها أن تواجه الحرب في القطاع الغربي وضد أكبر حليف لها بالأمس ؟ كان عليها إذن ، طوعا أو كرها ، أن تغير استراتيجيتها . فعوض أن تسعى جادة إلى تجريد الريسوني من حق الانتداب الذي بفضله استغنت عن اللجوء إلى السلاح في قطاع واسع ، كان عليها بالأولى أن تجني في الريف نفس الفائدة من هذه المنظومة . في هذه الحالة ، كان القاضي عبد الكريم ، الذي اضطر فيما مضى إلى التخلي عن دوره المحفوف بالأخطار كعميل لها ، على كامل الاستعداد بتحديد روابطه بها ، لكن بالطبع بشروط ملائمة . فإذا ما قبلت اسبانيا منحه الانتداب على الريف وتزويده بالوسائل دون إنزال جيشها بالقوة ، فإن المشكل سيصبح قابلا للحل بكامل أبعاده . إذ بدلا من مجابهة المقاومة ، كما هو الشأن وقتئذ سيكون هناك مجال واسع للتعامل معها بالطرق الملتوية .

لكن ، هل كان القاضي عبد الكريم لا يفكر سوى في تسليم زمام أمره لإرادة الاسبان الحسنة بخصوص قبول مقترحاته ؟ هناك مقطع في رسالة ولده الأصغر محمد يدعونا فورا إلى طرح السؤال . ها هو ذا :

"إن الريف ليفضل اسبانيا على جميع القوى الأوربية الأخرى بحكم روابط الأخوة وواجب الجوار . لذا فإنه يوجه نداءه عاليا إلى جميع الأحزاب الاسبانية مناشدا إياها أن تنكب على دراسة أوضاعه . على أنه لا يسعه ، إذا رأى نداءه يقابل بالاستخفاف ، إلا أن يطلب المساعدة من جهة أخرى " (91) .

إنه مقطع مؤثر ولكنه ينتهي أيضا بالتحذير . فإن طلب المساعدة من طرف آخر لا يعني سوى فتح الباب أمام تدخل الفرنسيين . كان التهديد إذن واضحا ، كما أنه لم يكن عديم الجدوى . فقبل شهرين ، كان أعيان الريف قد أوفدوا أحدا منهم ليقترحوا على الفرنسيين تقديم ولائهم . كان حامل الرسالة هو بوجداين الذي ذكره محمد (الابن الأصغر) في رسالته ، بجانب والده كأحد الشيوخ الذين قطعوا علاقاتهم باسبانيا (92) . على أن القاضي عبد الكريم لم يكن ليجهل هذه المسألة ، هذا إذا افترضنا أن لا ضلع له

فيها . كما لم يكن لتخفى عنه الاتصالات التي جرت مع الفرنسيين هنا وهناك (93) . صحيح أنه كان يجهل أن فرنسا اقترحت مؤخرا على الاسبان شراء منطقتهم ، لكن المسؤولين في مدريد كانوا على علم بذلك (94) . وهكذا فقد كان تحذيره مرتكزا على أساس ولم يكن من المحتمل في مثل هذه الظروف أن يقابل بالاستخفاف .

ماذا سنستخلص من ذلك ؟

من المؤكد أن القاضي عبد الكريم كان على كامل الاستعداد ليضطلع بمهمة الانتداب بالنيابة عن اسبانيا . على أن ماكان يجيش في نفسه لم يكن مجرد استعداد بسيط . في الحقيقة أنه ضاق ذرعا بعزلته وبات يتحرق شوقا لهذا الانتداب الذي بدت الظروف الجديدة تضعه وكأنه في متناول يديه . وأكثر من ذلك ، فإنه التمسه مستعملا حتى بعض التهديد إذا قوبل بالرفض . معنى هذا أنه ، وبدون أن يتكهن بعواقب هذا الصراع ، لم يستبعد فكرة مقارعة الاسبان لاكراههم إذ ما ظلوا يضربون عرض الحائط بنداءاته . كان يتوفر من أجل اقناعهم على وسائل له خبرة في استعمالها . فإن الخطر الفرنسي الذي لوح به ببراءة متصنعة ، لم يكن سوى وسيلة ضمن وسائل أخرى أهم . وبهذا الخصوص ، لم يكن لحركة الريسوني الفضل فقط في خلق جو ملائم له بوضوح ، بل كان لها أيضا ، وفي حد ذاتها شأن القدوة التي تحتذى . إنها آخر وأحسن تجسيد للفائدة الكبيرة التي يمكن جنيها ، قصد اقناع الاسبان ، من الرفض الأعمى الذي يثير ضدهم القطاع العريض من السكان ، وهذا حتى بالنسبة لمن تضاءل نفوذه بينهم أو تحطم في مواجهتهم ، مثل الريسوني وعبد الكريم . ذلك ما كان يعيد الاطمئنان إلى هذا الأخير ويشجعه على المضي قدما في الاتجاه الذي كان من شأن تجربته الخاصة أن تقوده إليه . وبالفعل ، كيف تسنى له بالأمس انتشال ولده من سجن مليلية ، اللهم إلا بتظاهره بالانحياز بعزم إلى جانب المقاومين ؟ وإذا كانت اسبانيا ترفض اليوم التسوية التي يقترحها عليها بدون انقطاع ، شأنه في ذلك شأن الريسوني ، فإن الظروف اجد مواتية للمضي ، عند الاقتضاء ، حتى إلى نهاية هذه الخطة التكتيكية .

كما كان متوقعا ، فقد أثارت رسالة محمد بعض القلق في مدريد . إلا أن المسؤولين هناك أبوا إلا أن يعتبروها من وحي عميل معاد لاسبانيا كان يعتقد أنه يحبك دسائسه بناحية أجدير . لذا فقد بلغوها للمقيم العام برنكر راجين منه توضيح القضية وتجلية الدوافع التي ينقاد لها القاضي عبد الكريم . وهكذا كانت مدريد ، التي رفضت كما نرى التسليم بالحقيقة المجردة ، غير مستعدة لسلوك السبيل الذي دعتها إليه أجدير . أما تطوان ، فكان برنكر غير مستعد هو الآخر علما بأنه قرر وقتئذ اخضاع المقاومين بالقوة . ومن ثم تغافل بكل بساطة عن الجواب خلال أزيد من سنة وإلى نهاية 1920 ، عندما كررت عليه وزارة الدولة سؤالها (95) .

إلا أن ساعة التسوية كانت قد مضت وقتئذ . إذ أن حظوظ النجاح أخذت في غضون ذلك تبتسم للأسلحة الاسبانية .

الهوامـــــــش

1) أثارت شخصية الريسوني اهتمام الكثيرين من أصحاب التراجم نذكر منهم بالخصوص :

- Manuel L. ORTEGA (PICHARDO) : España en Marruecos ; El Raisuni, Madrid, 1917.
- Eliseco BERMUDO SORIANO : El Raisuni (caudillo de Yebala) , Madrid 1921 .
- Rosita FORBES : EL RAISUNI the sultan of the mountains, N. - York 1924 .
- Tomás GARCÍA FIGUERAS : Del Marruecos feudal . Episodios de la vida del xerif Raisuni, Madrid, Barcelona, Buenos - Aires, 1930.

لنشر كذلك إلى دراستين نشرتا متسلسلتين ، إحداهما لمؤلف مجهول ، وقد نشرت في "نشرة لجنة إفريقيا الفرنسية " (وسنرمز لها من الآن فصاعدا بهذا الرمز : (B . C . A . F) ابتداء من يوليوز 1946 . والأخرى لتوماس كارسيا تحت عنوان : Tomàs CARCIA FIGUERAS : Mulay Ahmed ben Sidi Mohamed Raisuni, (Zinat 1873 ? - Tamasin 1925) .

وقد نشرت في المجلة الاسبانية "Africa" ابتداء من اكتوبر 1943 .

بيد أن المعلومات التي تقدمها هذه التراجم معلومات غير أكيدة في كثير من الحالات ، حتى فيما يتعلق بواقعية الأحداث وتواريخها ، خاصة في الفترة السابقة لعام 1900 ، عندما كان الريسوني ما يزال مجهولا من طرف الأوربيين . وحتى بالنسبة لاسمه ، فقد نقل إلينا محرفا على هذا النحو : الريسولي . على أن المؤلف الوحيد الذي يمكننا أن نثق به حقا هو الاسباني توماس كارسيا فيكراس ، الذي قام بدراسة ميدانية في المنطقة واستند إلى شهادات مغربية شفوية ومكتوبة .

في المدة الأخيرة ، نشر مؤلف مغربي ، هو علي الريسوني المحامي كتابا بالعربية تحت عنوان : " أبطال صنعوا التاريخ " ، تطوان 1975 ، خصص جزءا كبيرا منه لسيرة الريسوني ، بيد أن المؤلف ينتمي إلى عائلة بطله ، اجتهد في إظهار الريسوني بطلا من أبطال الوطنية المغربية ، وهو ادعاء لا سبيل إلى قبوله لأنه يشوه بشكل سافر كثيرا من الحقائق الثابتة . بالمقابل ، يمكننا بدون تردد أن نفضله على المؤلفين الأوربيين بالنسبة للسنوات الغامضة من طفولة وشباب الريسوني ، وهي المرحلة التي يستند فيها المؤلف إلى الروايات التي تركها شخصان من عائلته ومن رفقاء الريسوني المقربين .

هناك إشارات حول الفترة التي كان فيها هذا الأخير عاملا على طنجة ، نجدها في "الوثائق المتعلقة بالريسوني " ، وهي وثائق مخزنية بالعربية ، نشرها مع ترجمتها الفرنسية ا . س . طوش في مجلة اسبرس - تمودا " 1951 .

بالنسبة للفترة التي تبدأ عام 1911 ، نتوفر على معلومات دقيقة ومؤرخة تتعلق بكل علاقات الريسوني باسبانيا . ونجد أهمها في :

Carlos HERNÁNDEZ HERRERA et Tomás GARCÍA FIGUERAS : Acción de España en Marruecos , 2 Vols., Madrid,

بيد أن أهم المعلومات هي التي نجدها في رسائل الريسوني المطولة ، وهي بمثابة مذكرات حقيقية كان في مناسبات متنوعة يوجهها إلى السلطات الاسبانية . ونجدها مترجمة إلى الاسبانية اما في الملحق الوثائقي للكتاب السابق الذكر ، واما في ملحق كتاب الجنرال برنكر :

BERENGUER : Campañas en el Rif y Yebala - 1921 - 1922, Madrid, 1923.

على مثل هذا المستوى من الأهمية ، هناك أيضا المذاكرات التي أجريت اما مع الصحفيين وإما مع رجال السياسة الاسبانية ، وسنقدم مصادرها تباعا في حينها .

2) حول نسب الريسونيين وأولاد ريسون ، انظر محمد داود : "تاريخ تطوان " المجلد السابع ، القسم الأول ، ص 100 -101 ، تطوان 1975 .

3) علي الريسوني : مرجع سبق ذكره ، ص ، 96 .

4) المرجع نفسه ، ص 98 - 99 .

5) المرجع نفسه ، ص 99 - 100 . بفضل البحث الذي يحضره حاليا محمد البزاز حول "المجلس الصحي الدولي بالمغرب " قبل

1912 ، نعرف أن سجن الصويرة لم يكن مفتوحا قبل 1897 . وهذا ما يحد المدة التي قضاها أحمد الريسوني في هذا السجن في ثلاث سنوات (1897 - 1900) .

6) المرجع السابق ، ص 102 .

7) المرجع السابق ، ص 106 وص 113 - 116 .

8) التهامي الوزاني : " تاريخ المغرب " ، المجلد الثالث ، ص 145 ، تطوان 1940 .

HERNANDEZ HERRERA et GARCÍA FIGUERAS (=HH) : "Op. cit vol ., I , pp. 249sqq .

9) T. GARCÍA FIGUERAS : Mulay Ahmed ben Sid Mohamed Raisuni "in" Africa, oct . - nov. 1945 ;

أشار الريسوني بنفسه إلى صداقته مع زنكاستي في رسالته إلى العقيد كومث سوثا (Gómez Souza) المؤرخة في 22 فبراير 1919 . نشرت هذه الرسالة في ملحق كتاب هرناندث هرره السابق الذكر ، المجلد II ، ص 88 وما يليها ونشرت في "Revista Hispano - Africana " sept. 1922

10) تصريحات تم التقاطها من طرف مانويل أورطيكا (Manuel Ortega)

11) تصريحات قدمت للسيناتور توماس مايستري.Tomás Maestre في فاتح يونيو 1911 ، وقد أوردها :

T . GARCÍA FIGUERAS : Mulay AHMED ... op. cit.

12) في رسالة موجهة فيما بعد إلى الجنرال برنكر بتاريخ 2 جمادى الثانية 1340 / 30 يناير 1922 ، سيذكر الريسوني بالخدمات التي قدمها للاسبان على هذا النحو : " أو نسيت كيف تصرفت حيال بلادكم في بداية علاقتنا ، والخدمات التي قدمتها لك عندما ساعدتك على احتلال العرائش والقصر وأصيلة وأماكن أخرى هامة ...؟ كل هذا تم بناء على إرشاداتنا وبفضل تدخلنا دون أن يتعرض جنودكم لطلقة نارية واحدة" .

أورد برنكر هذه الوثيقة في ترجمتها الاسبانية تحت رقم 11:

BERENGUER : Campañas ..., op. cit . pp. 257 - 260 .

13) HH. Vol., I, p . 249 .

14) المصدر نفسه ، المجلد 1 ، ص 249 .

15) رسالة إلى الجنرال برنكر بتاريخ 30 يناير 1922 ، سبق ذكرها في الهامش 12 .

16) T . GARCÍA FIGUERAS : Del Marruecos feudal ...,. op . cit ., p 23.

17) المصدر نفسه ، ص 39 .

18) رسالة إلى الجنرال برنكر ، 30 يناير 1922 ، ذكرت في الهامش 12 .

19) Del Marruecos feudal ..., cit ., pp. 51 - 55

20) HH., op. 236.

21) آخر تقرير للمقيم العام خوردانة ، وقد اعتبر كوصيته السياسية عشية وفاته في نونبر 1918 ، المصدر نفسه ، المجلد 1 ، ص 249 .

22) رسالة 30 يناير 1922 الموجه إلى الجنرال برنكر ، سبق ذكرها في الهامشين 12 و 15

23) " إذا قطع علاقاته بنا ، سيمكننا عزله سياسيا ، لأن القبائل تبغضه ولو أنها تخشاه " . (وصية خوردانة السياسية (HH. op. cit., I, p. 249). :

24) رسالة برنكر إلى الريسوني ، 12 فبراير 1922 ، وردت في : . Campañas ..., op. cit . p . 260 .

25) وصية خوردانة السياسية : HH . op. cit, I, 249

26) رسالة إلى العقيد كومث سوثا ، المذكورة يقي الهامش 9 .

27) " هكذا وصلنا إلى سنة 1337 هـ [1918] وهي السنة التي تدهورت فيها الحالة اكثر من أي وقت مضى من أصيلة إلى القصر .." (رسالة الريسوني إلى برنكر بتاريخ 31 يناير 1922 ، وردت في : (*Campañas ..., op. cit., p. 259*)

28) رسالة الريسوني إلى كومز سوزا ، المذكورة في الهامش 9 .

29) تصريح ادلى به لـ"España en Afrca" بتاريخ 26 فبراير 1919 ، أورده :

30) بقيت اتفاقية التقسيم مع فرنسا سرية إلى أن نشرتها الصحيفة الباريزية " (Le matin) في عدد 3 اكتوبر 1911 ، وقد نصت على خط لتحديد الحدود يمر عن طريق الخط الفاصل بين وادي ورغة في الشمال ووادي سبو في الجنوب . بعد أزيد من 14 شهراً من المفاوضات ، اضافت الاتفاقية النهائية بتاريخ 17 نوفمبر 1912 وادي ورغة إلى منطقة الاحتلال الفرنسية . انظر جدول وتحليل المفاوضات في B. C . A . F. à partir de juin 1911

31) "لا مجال لأي تعامل عسكري بأي شكل كان ، إن هذا أمر مفروغ منه " : ذلك ما صرح به ليوطي للاسبان كما جاء في تقريره إلى الحكومة . أورده :

Pierre LYAUTEY : Lyautey l'Africain, Paris 1953 t . I, p. 284 (ci - aprés ; LYAF) .

32) "عند مروري بمدريد منذ احدى عشرة سنة ، صحبة السيد بوان كاري Poincaré قمت بعد التفاهم معه بعرض تعاوننا بكل نزاهة وصدق ..." (مذكرة ليوطي بتاريخ 4 مارس 1924 إلى الرائد بفرفيل (Puverville) ، الملحق العسكري بالسفارة الفرنسية بمدريد : وثيقة ملحقة بالرسالة ذات الرقم 538 ، الموجهة من ليوطي إلى رئيس الحكومة ، بتاريخ 22 مارس 1924 : وثائق الكي دورساي (سنرمز لها فيما يأتي ب . A . E . P) سلسلة "المغرب" ، 11، 2 .

33) في رسالة من السلطان مولاي يوسف (25 صفر 1337 / 30 نوفمبر 1918) ، نقرا ما يلي : "اما بالنسبة للمنطقة الأخرى ، فهي لا تخضع حتى لمراقبتنا نظرا لأن الحكومة الاسبانية أقامت بها سلطات مغربية مستقلة عن المخزن ولا تنصاع إلا لشريف ينتمي إلى أسرتنا ، وهو ان كان حقا خليفتنا ، إلا أنه لا يربط أية علاقة بنا ، ويتحلى بشكل تعسفي بمظاهر السيادة التي لا يختص بها إلا جلالتنا " : وثيقة ملحقة بالرسالة ذات الرقم 1386 الموجهة من ليوطي إلى وزير الشؤون الخارجية 5 دجنبر 1918 :

. (A . E . P . . série, "Maroc" , 10 - I d/g.) احال ليوطي هذه الرسالة إلى حكومته تعزيزا للمقترحات التي عرضها عليها ، ويظهر أن مصالحه هي التي أوحت بها ان لم تكن قد حررتها . هذا وسيضع ليوطي بنفسه فيما بعد بست سنوات على رأس قائمة مآخذه المتراكمة ضد اسبانيا منذ 1913 " اختصاصات السيادة الخارجية التي منحت للخليفة بتطوان "(مذكرة إلى الرائد بفرفيل (Puverville) المذكورة في الهامش (32) .

34) يقول لنا ليوطي انه اقترح عام 1913 تعاونه على الاسبان " بهذا الشرط الذي لا غنى عنه وهو أن يعترفوا قبل كل شئ بالسيادة التامة للخليفة " يعني بالخليفة هذه المرة الامبراطورية الشريفة تحت سيادة السلطان الذي هو بالفعل خليفة الرسول ، في حين أن الخليفة بتطوان مجرد نائب السلطان : مذكرة إلى الرائد بفرفيل المذكورة في الهامشين 32 و 33 .

35) في رسالة تحمل تاريخ 24 يونيو 1924 ، يبين ليوطي لوزير الشؤون الخارجية انه عارض منذ 1915 رغبة الاسبان في بناء جسر على ملوية السفلى ، وهو النهر الفاصل في الشرق بين المنطقتين . لتفسير موقفه ، كتب يقول بالخصوص : " السبب الآخر الذي جعلنا نعارض البناء ، هو تخوفنا من أن يتم بفضل هذا الجسر تحويل جزء من التجارة الشرقية إلى مليلية ... إن هدفنا من سياسة التأجيل يرمي إلى ربح الوقت ، وهذا إلى غاية انشاء الطرق والسكة الحديدية ، وإلى أن تعتاد حركة المبادلات على التحول نحو الجزائر بدلا من الاتجاه إلى مركز مليلية كما يود الاسبان " .

الرسالة ذات الرقم 1173 :

(A . E . P ., série " Maroc" , I1 - 2)

36) " إن اعتبارات ذات مستوى عال تدخل في إطار السياسية العامة تملي علينا ضرورة مساعدة جيراننا ليتمكنوا في أحسن الظروف من التغلب على مشاكلهم المغربية " : رسالة إلى فيفياني (Viviani) ، وزير الشؤون الخارجية ، بتاريخ 30 يوليوز 1914 :
LYAF, op., II, p. 150 .

37) رسالة 17 نوفمبر 1915 التي وجهها ليوطي إلى برتي (De Peretti) ، نائب مدير إفريقيا بوزارة الشؤون الخارجية
LYAF , op. cit., p. 88

38) رسالة ليوطي إلى وزارة الشؤون الخارجية . وهي تحمل الرقم CMC 400 حررت هذه الرسالة بفاس في 5 نونمبر 1918 ، إلا أنها لم ترسل إلا بعد شهر ، أي في 5 دجنبر 1918 ، ملحقة برسالة أخرى تحمل نفس التاريخ الأخير وحول نفس الموضوع :

A . E . P., série " Maroc" 11 - 2 s/d.

39) قرار منشور في الصحيفة الباريزية "Le Temps". وقد أشعرت به باريس وزارة الخارجية البريطانية في 25 مارس 1919
Archives du Foreign Office au Public Record Office de Londres, (ci--après : PRO FO -) FO . 403/ 450 ; n° 67 -

40) بقلم روبر رينو : B . C . A . F ., janvier - février , 1919 , p. 92.

41) العريضة التي سلمها القنصل البريطاني بطنجة ، وايت ، إلى كاتب الدولة في الشؤون الخارجية بمدريد ، كورزون (Curzon) ، بتاريخ 14 يناير 1919 : . PRO - FO . 403 / 450 .

42) أعيد تأكيد وجهة النظر هاته لكورزون (Curzon) في 27 فبراير 1919 من طرف سفير بريطانية العظمى بباريس ، دربي (Derby) ; PRO - FO., 403/450,27;

في 30 يونيو 1923 ، وفي رسالة إلى كورزون ، ألح مرة أخرى القنصل البريطاني الجديد بطنجة (William Codrington) على : الضرورة الاستراتيجية لابقاء السواحل المغربية [الشمالية] تحت السيطرة الاسبانية ، أو على الحيلولة في كل الأحوال دون وقوعها في يد فرنسا " . كما أن القنصل المذكور سيذكر بأن الغاية من عقد اتفاقيتي 1904 و 1912 هي "تفادي حدوث فراغ غير مرغوب فيه طول السواحل " : PRO - FO., 413 / 66

43) عندما أخبر السير روبر سسل (Sir Robert Cecil) كاتب الدولة في الشؤون الخارجية ، سفيره بمدريد (Sir Hardinge) بهذا الموقف ، بتاريخ 2 يناير 1919 ، قامت الحكومة الاسبانية باستفساره : فأجابها بأن السياسة الانجليزية لم يطرأ عليها أي تغيير منذ 1904 فيما يخص المسألة المغربية " : . PRO - FO . 403 / 450 .

44) في 26 فبراير 1919 ، أبرق كورزون إلى بلفور (Balfour) بمؤتمر الصلح ، بأن انجلترة متمسكة بالاتفاقية الفرنسية الاسبانية (لعام 1904) التي انضمت إليها "ضمنيا " ، ويختم بقوله : " وبناء على ذلك ، لا سبيل إلى أخذ المطالب الفرنسية بعين الاعتبار " . : . PRO - FO., 403/450, 23

45) تعقيب وايت (طنجة) الذي وجهه إلى كورزون بتاريخ 14 يناير 1919 حول عريضة الفرنسيين بطنجة :

PRO - FO ., 403 / 450 . 23 .

46) برقية أ . اردنج (A . Harding) سفير بريطانية العظمى بمدريد ، الموجهة إلى كورزون بتاريخ 22 يناير 1919 :
PRO - FO ., 403 / 450,9

47) عند سرد مذاكرته الأولى مع الفونس 13 بمدريد ، صرح ليوطي بصدد هذا الأخير : قام " بمقدمة صغيرة حول تقوقي الاحتياطي والملحوظ ضد اسبانيا " (6 اكتوبر 1913) :

LYAF, op . cit ., I, P, p. 279. 279.

48) بتاريخ 6 دجنبر 1915 B . C . A . F ., déc., 1915, p. 338.

49) مذكرة إلى الرائد بفرفيل (Puverville) بتاريخ 4 مارس 1924 ، المذكورة في الهوامش 32 ، 33 ، 34 .

50) مذاكرة القاضي عبد الكريم العقيد كوكوليدو (Cogolludo) ، بتاريخ 4 نونمبر 1917

S . H . M., Mel., II, 19, 53 à 56 :

51) تقرير من الجنرال أيثيورو ، حاكم مليلية ، إلى المقيم العام برنكر ، 18 يناير 1919 :

S . H . M., Mel., III, I , 3 à 16 . :

52) خاصة في "B . C . A . F." . كتب فيها روبر رينو (يناير 1919 ، ص 92) : "

"إن وجهة النظر هاته [جعل المغرب عملة للتبادل] هي وجهة نظر الاشتراكيين والقطلانيين والاصلاحيين بمعنى وجهة نظر قادة اسبانيا في المستقبل " .

53) في 25 فبراير 1919 ، صرح كامبو (Cambo) ، ممثل الأقلية الإقليمية ، بأنه من العبث بالنسبة لدولة ضعيفة كاسبانيا أن تجعل من المغرب "حدوداً" استراتيجية لن تكون قادرة على الاحتفاظ بها . ورأى بالتالي في الحماية "أداة دولية للتبادل" :

(B . C . A . F . janvier . 1919) وكانت هذه هي وجهة نظر معارضين تتباين اتجاهاتهم ، مثل الليبرالي ليوبولد روميو (Leopoldo Romeo) والجمهوري لرو (Lerroux) ، أو الاشتراكي بستيرو (Besteiro)

54) من اللورد روبر سسيل (من لندن) إلى اردنج (Hardinge) ، السفير البريطاني بمدريد ، بتاريخ 2 يناير 1919 : 450 / PRO - FO ., 403

بإبلاغه الخبر ، بين اللورد سسيل أيضا الجواب الذي قدم لمدريد : إن السياسة الانجليزية لم تتغير بصدد المسألة المغربية منذ 1904 .

55) B . C . A . F ., janvier - février , 1919 , p . 71

56) تقرير من الجنرال ايثبورو إلى المقيم العام برنكر ، 18 يناير 1919 ، المذكور في الهامش 51 .

57) B.C.A.F., janvier - février 1919

58) تقرير ايثبورو إلى برنكر ، 18 يناير 1919 ، المذكور في الهامشين 51 ، 56 .

59) دورية "التقرير الشهري للحماية " (= RMP) الناطقة الأمينة بلسان حال الإقامة الفرنسية بالرباط ، لاحظت بنوع من الامتعاض في عدد ماي 1919 ، متحدثة عن الزحف الاسباني في قبيلة مطالسة وبني بوياحي : "لقد أذعنوا للغزو بسهولة مذهلة .. كما أن الحصار الذي ضربته في آن واحد اسبانيا وفرنسا أوقع هؤلاء السكان في البؤس " .

60) تقرير من ايثبورو إلى برنكر ، بتاريخ 2 يونيو 1919 . S . H . M., Mel , III, I , 51 52

61) تقرير من ايثبورو إلى برنكر ، 23 يونيو 1919 :

S . H . M., Mel., III, I , 59 , 61 .

62) تقرير من ايثبورو إلى برنكر ، 15 غشت 1919 :

في فاتح أبريل وفي عين مديونة على ورغة ، تكبد الفرنسيون هزيمة ساحقة أمام الريفيين بزعامة أحمد أخمليش . وقد سجلوا في صفوفهم 296 قتيلا و67 جريحا :

VOINOT " : Sur les traces glorieuses des pacificateurs du Maroc , Paris , 1939, p. 267.

أما التقرير الشهري للحماية (R . M . P) عدد 10 اكتوبر 1919 ، فلم يعترف إلا ب 24 قتيلا و67 جريحا .

63) تقرير ايثبورو إلى برنكر ، 10 اكتوبر 1919 . S . H . M., Mel ., III, 66 à 69 .

64) المصدر نفسه

65) انظر ما مر معنا في ص .

66) تقرير ايثبورو 2 نونمبر 1919 : . S . H . M ., Mel., II, I, 17 à 23 .

67) تقرير ايثبورو إلى برنكر ، 12 نونمبر 1919 : . S . H . M., Mel ., III , I , 17 à 23 .

68) تصريح برنكر المنشور في " España en Africa" : عدد 26 فبراير 1919 ، ذكره : H . H ., op. cit., I , p . 266.

69) تقرير ايثبورو إلى برنكر ، 4 دجنبر 1919 : . S . H . M., III, I , 74 .

70) تكبد الاسبان في يوليوز هزيمة فادحة في قبيلة واد راس . وحسب . B . C . A . F فقد سجل فيهم 67 قتيلا و101 جريح .

71) في 6 اكتوبر 1919 .

72) عرفت وجهة النظر هاته ، التي تدفع إلى تفسير جد مختصر للهزيمة الاسبانية في أنوال ، رواجا مدهشا ، وأصبحت مع مرور الوقت وكأنها حقيقة ثابتة ، ولعل اكثر من ساهم في اقحامها في التاريخ هو بلاسكو ايبانيث BLASCO Ibañez في كتابه

التهجمي :

Alphonse XIII démasqué ; La terreur militariste en Espagne, trad . française de Jean LOUVRE , PARIS ; 1925 .

على سبيل المثال : يزعم المؤلف أنه تم العثور ضمن وثائق سلفستري على رسالة من الملك يقول له فيها : " افعل ما أمرك به ولا تعبأ بوزير الحربية : إنه أبله " (ص 47) . هل نحن في حاجة إلى التوضيح بأن أي شخص لم يعثر أبدا على أثر لهذه الرسالة أو على ما يشابهها ؟

73) أعيد تقليد برنكر مهام القائد في فاتح أكتوبر 1920 . وفي كتابه المذكور أنفا (Campañas...) لم يسمه إلا أن يرجع إلى الشائعة التي زرعت ، حسب ماروج فيما بعد ، الشقاق بينه وبين سلفستري (ص 7 - 8) .

ومع أن التكذيب الذي واجهها به تكذيب معتدل ، إلا أنه حازم وينسجم مع وجهة النظر التي تستخلص من دراسة الوثائق .

74) رسالة من المقيم العام برنكر إلى الجنرال سلفستري ، قائد القطاع بمليلية ، بتاريخ 8 يوليوز 1920

S .H . M ., Ponencia de Africa , Documentos personales del General Silvestre .

75) جواب الجنرال سلفستري برنكر ، 17 يوليوز 1920 . نفس المصدر المذكور في الهامش 74 .

76) في كتابه المذكور أنفا :(Campañas ...)

77) الجنرال برنكر ، مصدر سبق ذكره ، ص 27 .

78) المصدر نفسه ، ص 3 .

79) يشير التقرير الشهري للحماية ، غشت 1919 ، إلى أن نشاط الريسوني " أحمى الوطيس" في كل الشمال وذلك بعد نجاحه في واد راس في يوليوز " (انظر الهامش 70) .

80) انظر ما تقدم في ص 276.

81) انظر ما تقدم في ص 277.

82) تقرير ايثبورو إلى برنكر ، 15 غشت 1919 : . S . H . M ., Mel ., III, I , 64

83) انظر ما تقدم في ص 253 .

84) رسالة من محمد (الابن الأصغر) بن عبد الكريم إلى الدون مانويل اكيري Aguirre كاتب قطاع المغرب بوزارة الدولة بمدريد ، وهي مؤرخة ب " قبيلة بني ورياغل " في 15 غشت 1919 . وكان السي محمد كصاحب منحة سياسي محط عناية مانويل أكيري خلال إقامته بمدريد ، وقد قامت بينهما صداقة ودية .

85) المصدر نفسه .

86) المصدر نفسه .

87) نفسه .

88) انظر ما تقدم في ص 253 .

89) انظر ما تقدم في ص 245 .

90) انظر ما تقدم في ص 245 .

91) رسالة محمد (بالفتح) إلى مانويل اكيري ، المذكورة في الهاسشش وما بعده .

92) يقول التقرير الشهري للحماية (R . M . P.) ، عدد يونيو 1919 : إن هؤلاء الأعيان انتدبوا " تلقائيا " بوجداين من أجل "المطالبة بالحماية الفرنسية " . وقد مثل بوجداين هذا أمام المركز الفرنسي برتو (Berteaux) يوم 20 يونيو .

93) في رسالة كتبت في وقت متاخر (10 فبراير 1921) ولكنها تستند إلى الفترة التي نحن فيها (غشت 1919) سيضيف سلفستري حتى اسم القاضي عبد الكريم إلى قائمة من كان يجري هذه الاتصالات مع فرنسا نقرأ في هذه الرسالة :

"إن اسمه يوجد ضمن من يحرك الرأي العام في الريف لتحرير عرائض إلى الفرنسيين وإلى مولاي يوسف [السلطان] " . رسالة من

الجنرال سلفستري إلى برنكر ، 10 فبراير 1921 .

S . H . M., Mel., II , 15 , 26 .

94) في 20 يونيو 1919 ، صرح أدرنج (Hardinge) ، سفير بريطانية العظمى بمدريد ، صرح اللورد كورزون : " لقد قال لي اليوم وزير الدولة إن الحكومة الفرنسية كشفت الآن فيما يظهر عن خططها بشأن المغرب " . هذا وكان سفير فرنسا(Alapetite) خلال إحدى مقابلاته ، قد اقترح على الملك شراء المنطقة الشمالية :

PRO - FO , 403 / 450 , 122 , 127.

95) تم توجيه الطلب الأول إلى برنكر في 16 اكتوبر 1919 . ونحن لانتوفر على الرسالة التي تضمنت هذا الطلب ، إلا أننا نتوفر على رسالة 18 دجنبر 1920 التي عاودته مذكرةً بعبارات وملفتة النظر إلى أنه لم يحظ بأي جواب : رسالة وزارة الدولة إلى المقيم العام برنكر ، 18 دجنبر 1920 : S. H. M. Mel, II. 15, 31, `a 35.

مفتـــرق الطـــــرق

إن البلاد الريفية الحقيقية لبعيدة عن أن تحوي مجموع الهلال الذي ترسمه السلسلة المسماة عادة بالريف . فهي لا تكاد تضم سوى الجزء الشرقي ابتداء من النقطة التي تأخذ فيها التضاريس ، بعدما كانت ضخمة ، مرتفعة ، متصلة ، في الانخفاض والرشاقة في اتجاه الشرق ، لتتقطع إلى عناصر متدرجة بشكل بدئ بجانب الساحل كأسنان مشط يتقلص طولها تباعا .

بين هذه العناصر التي تستدير على شكل رؤوس أو تستطيل على شكل شبه جزر ، تقبع منخفضات تخترقها بعض الوديان القادمة من الجنوب لتتصل بسرعة بالبحر . في اتجاه الشمال ، يتسع أحيانا أحد هذه المنخفضات على شكل جون متسع كما هو الشأن في الحسيمة [1] . بينما تنفتح في اتجاه الجنوب ، عبر مجازات أو فجاج وعرة إن قليلا أو كثيرا ، على وهدة طويلة تحيط بكل المنظومة من الشمال الشرقي والجنوب الغربي .

في خانات هذه الرقعة ذات الأشكال الناتئة أو المقعرة ، تقاسمت القبائل الريفية الكبرى المجال طوال قرون . على أن اسبانيا تمكنت هي الأخرى من دس بيادقها الخاصة . تتكون هذه في الغرب من القاعدتين المكملتين النكور وبادس ، كل منهما على جزيرة بالقرب من اليابسة . بينما توجد مليلية في الطرف الآخر تجاه الشرق وبالتالي نحو الخارج ، مسندة ظهرها إلى الضلع الجبلي لشبه الجزيرة المتطرفة التي تنتهي عند رأس المذارى الثلاث .

عندما وُضع الغزو في جدول الأعمال سنتي 1907 و 1909 ، فقد جرى البدء في المشروع بالطبع عن طريق مليلية . كان يبدو إذن أن الأرض هي التي تتحكم في توجيه عملية الغزو . كان الهدف بالتسلل جنوبا بين البحر والجبل هو الوصول إلى السهل والانتشار فيه غربا ، ثم بالانقلاب نحو الشمال ، إنجاز حركة منجلية تقود إلى البحر وتقطع شبه الجزيرة عن باقي البلاد . سيكفي حينئذ الانتظار حتى تضطر القبائل المحاصرة حتما إلى الخضوع . بعد ذلك ستظل نفس الخطة مطبقة باستمرار . بحيث سيتواصل الزحف غربا على طول الوهدة للمناورة عبر عمليات تطويق متتالية . وإن الغزو المتجزئ على هذا النحو من شأنه أن يقود أكيدا ، بطول أناة وبدون اللجوء إلى زيادة مفرطة في الوسائل ، حتى إلى خليج الحسيمة .

بيد أن الفكرة التي تضمنتها هذه الخطة هي أنه لن توجد خلال الزحف سوى مقاومة محلية يسهل التغلب عليها . وهو ما لم يكن عليه الأمر بتاتا ، كما رأينا ، وذلك حتى في البدايات الأولى . نتذكر الانتكاسات الكبيرة التي طبعت محاولة الاختراق نحو الجنوب في يوليوز 1909 (2) ، والتي تدل على أن القبائل النائية نفسها كانت من يومئذ قد استجابت لنداء أمزيان . تطلب الأمر ما لا يقل عن سنتين من الانتظار وستة أشهر من الحرب ، احتفظ خلالها الريفيون بزمام المبادرة ، للوصول إلى مصب كرت ، الحد الطبيعي لشبه جزيرة مليلية (3) .

على الضفة الأخرى من واد كرت ، تنتصب المرتفعات التي يسميها الاسبان بجبل مورو (mont Mauro) والتي تسد سدا مكثفا طريق الغرب وتبلغ فيها المقاطعة الساحلية الآهلة بقبيلة بني سعيد أعلى ارتفاع لها . منطقيا ، كان جبل مورو هذا الهدف الثاني اللازم إخضاعه عن طريق تطويقه من كل جانب . لكن منذ وفاة أمزيان لم تفتأ الوحدات القادمة من الريف قاطبة تتوارد عليه لتقوم هنالك بالحراسة .كان بإمكانها انطلاقا من جبلها أن تنقض في رمشة عين على مؤخرة أو جناح أية قافلة تغامر في اتجاه الغرب . وإن التهديد الذي شكلته بصورة دائمة على مليلية نفسها ، التي لا تكاد تبعد إلا بمسيرة ليلة ، فرض على الجنود الاسبان واجبات فادحة (4) . لذا ، وطوال سبع سنوات ، بين 1912 و 1919 ، حدث حقا في عهد خوردانه وأيثبورو زحفان لا يستهان بهما في الحقيقة . لكن بعيدا عن الاقتراب من أراضي بني سعيد ، وبالأحرى من الضرب هنالك صعودا إلى الشمال ، فقد تم إنجازهما في اتجاه الجنوب عبر الامتدادات المنبسطة لبني بوياحي وجيرانهم مطالسة . من الحق أنهما أسفرا عن تمديد منطقة الاحتلال بشكل ملحوظ ، في نفس الوقت الذي نصبا فيه حواجز أمام التوسع الفرنسي . إلا أنهما أدارا الظهر مع ذلك للمشكل الحقيقي كما ارتسمت معالمه أمامنا أعلاه . ذلك أن الاسبان جعلوا من جبل مورو هذا قضية شائكة إلى حد أنهم بعد عدو لهم عن اقتحامه عنوة رأوا من اللازم اختيار مفتاح آخر للمشكل . لم يكن ثمة مصدر آخر غير هذا للفكرة الثابتة التي كانت الشغل الشاغل للقيادة في هذه السنوات : فكرة النزول رأسا على ساحل الحسيمة . على العكس من ذلك ، عندما استبعد برنكر من جديد فكرة هذا الإنزال متكيفا وفق الحالة التي تعرف عليها ساعة وصوله ، فإنه رجع فيما يخص الأهم إلى مفاهيم الأيام الأولى ، وهذا على الأقل في نطاق عمله في الواجهة الشرقية .

لكن يتعين القول إن هذه المفاهيم وجدت في خدمتها وقتئذ وسائل جديدة . منذ 1909 كانت الأمور قد تغيرت كثيرا حول مليلية وحتى داخلها . بالأمس كانت المدينة شبه

حبيسة داخل حزام تحصيناتها ، لا تتنفس إلا عن طريق البحر من حيث يتعين أن يصل إليها كل ما هو ضروري من أجل حياتها اليومية . غير أنها أصبحت في ظرف عشر سنوات وبفضل تقدم الغزو عاصمة لمنطقة تغطي عدة ألوف من الكيلومترات المربعة ، من غرب كرت إلى ملوية السفلى ، ومن غرورو إلى رأس المذارى الثلاث . بعد أن كانت تفتقر بالأمس إلى كل شئ ، بما في ذلك الماء الجاري ، وجدت الآن في هذه المنطقة الخلفية الظروف التي تساعدها على التعمير والتمون والامتداد بغية استقبال وتأمين حاجيات جيش احتلال قوي . من جهتها فان المنطقة المستولى عليها ، التي أصبحت الآن محفوفة بالقلاع والحاميات والمراكز الاستعمارية وتربطها الطرق والمسالك بل وحتى سكة حديدية ، باتت توفر من أجل المناورة كل الموارد التي يمكن أن توظفها الاستراتيجية . كانت بالاضافة إلى ذلك خزان مقاتلين من شأنه توفير دم الجندي الاسباني . ففي القبيلة التي كانت معادية بالأمس ثم أصبحت بعد ذلك خاضعة كان يتم بالفعل تجنيد المرتزقة الذين شكلوا الفيالق المعروفة بالنظاميين (Regulares) والفرق المسماة بوحدات الشرطة (Mías de Policia) . كان هؤلاء التعساء المساكين مجبرين على أن يبلوا البلاء الحسن في الحرب لعلمهم بأن خيانتهم لن تقابل بالعفو في الجهة المقابلة ، وكان يزج بهم في الخط الأمامي بدون أي اعتبار ، بحيث لا تبقى أمام جنود شبه الجزيرة أية مهمة أخرى عدا التمركز في الأرض المستولى عليها .

كذلك خولت الأهمية المتزايدة للمنطقة المحتلة إمكانية تكثيف العمل في البلاد غير الخاضعة . فإن الحدود المططة كانت تؤدي إلى الاحتكاك بالقبائل أكثر فأكثر ، تلك القبائل التي يبدأ فيها العمل الخفي على الفور القائم على الإرشاء وجمع المعلومات . أضف إلى هذا أن العمال الموسميين القادمين من هذه القبائل أو من قبائل أخرى أكثربعدا ، أصبح من المتعذر عليهم التوجه إلى الجزائر كما هي العادة في كل صيف دون المرور من المنطقة المذكورة من أدناها إلى أقصاها . كان احتجاز بعضهم عند العودة وسيلة ناجعة لممارسة ضغط على القبائل التي يتحدرون منها .

لنضف أن الجيش الاسباني أصبح يتوفر الآن على تشكيلة جوية وبإمكانه بالتالي الضرب في أية جهة أو معاقبة المقاتلين حتى في عقر ديارهم بمن فيهم القادمون إلى المعركة من بعيد . إذ علمنا في الأخير أن الجفاف تفشى خمس سنوات متتالية من 1915 إلى 1919 أدركنا أن اسبانيا ، سواء أسمحت أم لم تسمح باستيراد الشعير عن طريق مليلية أو النكور ، ذلك الشعير الذي يصنع منه الريفيون خبزهم ، توفرت على آخر وسيلة جهنمية للانتقام ضد أعدائها . صحيح إذن أن برنكر أخذ المشكل من الجانب الذي

اضطر سلفه إلى إهماله . لكن من الحق أيضا أنه أخذه في ظروف ممتازة للغاية .

كانت الظروف الجديدة تمكن حتى من إنجاز العملية بسرعة . بالأمس ونظرا لعدم توفر المجال اللازم من أجل المناورة ، لم يكن بالامكان إخضاع جبل مورو إلا بالالتفاف حوله إلى أقصى حد . إنها عملية محفوفة بالمخاطر ومحدودة النتائج ، بحيث إنها لا تؤدي إلا إلى عزل القسم الأقصى من قبيلة بني سعيد . أما الآن فقد أصبح برنكر يسيطر على جزء كبير من الخط الموازي للجبهة الذي يتجه من الناضور وسلوان إلى الغرب على طول الوهدة المتوسطية . يمكنه بالتالي أن يفكر من يومئذ في محاصرة قسم أكبر بكثير من القبيلة دون أن يلاقي في نفس الوقت ، خلال زحفه إلى البحر ، سوى بلاد من التلال يسهل دخولها . لكنه - وليطفح الكيل - فكر في شق طريقه بعيدا ليتوغل في الغرب حتى إلى قدم كندة جبلية ثانية تتلاقى عندها قبيلة بني أوشك وبني توزين والتي يمكن فيما بعد بصعوده نحو الشمال أن يسلك منحدرها عن بعد . بناء على ذلك وضع منذ 1919 خطة من أجل احتلال منطقة تافرست حيث يمكن أن تقوم قرية دار دريوس مقام محور للمناورة في الشمال ، على حين يمكن للمراكز التي تقام في بني الطيب وتافرست وعزيب ميدار أن تسد على جناحه الأيسر كل منافذ الجبل التي تهدد الزحف . هذه هي الخطة التي سيتولى تنفيذها سلفستري ساعة وصوله [5] .

* * *

من المؤكد أن الريفيين كانوا يجهلون تفاصيل هذه الخطة . لكن باعتبار أنهم كانوا متيقظين كما هو دأبهم لأدنى مبادرة يقوم بها العدو ، فلم يكن ليغيب عنهم أن التهديد الذي كان جاثما بالأمس على سواحل الحسيمة ، تحول إلى جهة أخرى نحو قبائل الشرق التي خضعت منذ سنة لجهود متزايدة من الاجتذاب السياسي واختيرت بواسطة استعدادات عديدة لتكون هدفا لعمليات الزحف المقبلة .

بحكم ذلك ستعمل قبيلة بني ورياغل التي ورثت الصدارة عند وفاة أمزيان والتي كانت متيقظة لا تلين لها عريكة ، ستعمل على توسيع نطاق عملها بشكل ملموس . طوال الوقت الذي كان فيه الخطر يخيم عليها مباشرة ، فإنها تعبأت بالاعتماد بالخصوص على نفسها . أما وقد بات نفس الخطر يجازف اليوم بأخذها علي حين غرة بالاقتراب عن طريق جيران يقلون عنها جرأة واستعدادا ، فإنه لم يكن هناك بد من أن تتجه إلى هؤلاء الجيران للدعوة إلى المقاومة ولتنظيمها . ينبغي القول إنه لم يكن من المنتظر أن تكون مهمتها سهلة على وجه العموم في غيبة مؤسسات ملائمة . كان عليها كذلك أن

تحسب الحساب سواء في عقر دارها أو عند جيرانها لـ " أصدقاء اسبانيا" الذين يتعين عليها فضح دسائسهم باستمرار ، سيما وقد كان بإمكانهم أن يلعبوا بالورقتين الرابحتين الاضافيتين : عدم الثقة حيال قبيلة أجنبية ، وعلى الخصوص تخوف من يدافعون عن أرضهم الخاصة من عمليات القمع التي تمارسها اسبانيا بعد الانتصار على القبيلة التي لم ترضخ .

على أنه كان بإمكانها الافادة من امتياز أكيد وذلك منذ أن زالت أمامها الحواجز الألف التي كان القاضي عبد الكريم ينصبها في طريقها منذ عشر سنوات . وفوق ذلك ، فإن القاضي عبد الكريم وولده محمد اللذين حاولا في البداية التزام الحياد ، قررا مؤخرا وفي نهاية المطاف ، الدخول في الخط الذي لن يحيدا عنه مطلقا .

نعرف ذلك من خلال وثيقة مؤرخة في فبراير 1920 ، في 27 من هذا الشهر أخبرت برقية مقتضبة من النكور أن السي محند الخطابي وعمه عبد السلام غادرا أجدير منطلقين نحو "الحركة" [6] . والحال أن " الحركة" هي الكلمة التي تعني التشكيلات المغربية المسلحة . بعبارة أخرى ، كان السي محند وعمه قد صعدا إلى الجبهة . في هذا التاريخ إذن تحقق ذلك التنبؤ الذي أكدته منذ بضع سنوات رسالة محمد إلى مانويل أكيري (Manuel Aguirre) : لقد اجتاز القاضي عبد الكريم مع ولده محمد الخط الأحمر .

دون شك أنه اجتازه منذ مدة ، وعمل في أغلب الظن على إنجاح اتفاقية أبرمت من قبل ببضع سنوات مع تمسمان التي كان يمارس عليها كما نعرف نفوذا كبيرا .

يشغل أهل تمسمان كل القسم الساحلي الحائل بين جيرانهم بني ورياغل في الغرب وبني سعيد في الشرق . في الداخل ، نجد أن مجالهم المكون في اتجاه الشرق من سهول و تلال ينتصب في الغرب على شكل ذروة سميكة تتقدم إلى البحر وتميل غربا في جدار متواصل مشرف على المنخفض الذي يحده شمالا جون الحسيمة . من ثم الأهمية الحيوية لهذه المرتفعات بالنسبة إلى بني ورياغل التي تحميهم من الغزو إن هم تحكموا فيها ، وتحكم عليه به إن هي وقعت بيد العدو .

والحال أن قبيلة تمسمان الخاضعة أيضا لنفوذ قاعدة النكور ، كانت تضم على غرار بني ورياغل فريقا قويا متكونا من أعيان موالين للاسبان . نتذكر أنها حاولت عام 1918 وتحت تأثير القاضي عبد الكريم حتى أن تترك الخيار لهؤلاء بالنزول بديارها [7] . ولئن فشل المشروع ، فإن الروابط ظلت قائمة وقادت في السنة التالية إلى اتفاقية حسب الأصول . أخذ فيها التمسمانيون على عاتقهم التزامات خطيرة : عدم الدفاع عن

أرضهم ضد الاسبان ؛ عدم المشاركة في الحملات الموجهة ضدهم ؛ منع المرور على القبائل التي تتوجه إلى محاربتهم ؛ أخيرا التوجه لملاقاتهم عندما يصلون إلى تافرست لقيادتهم حتى إلى حدود القبيلة . كل هذا مقابل إنهاء الحصار المفروض من طرف اسبانيا ، وتحرير عمال موسميين عائدين من الجزائر ، وعودة حرية تجارة المرور (8) .

بالارتماء على هذا النحو في حضن الاسبان ، كان من المحتمل أن يوجه التمسمانيون ضربة قاتلة لجيرانهم بني ورياغل وينذروا بالقضاء النهائي على المقاومة التي كان هؤلاء يشكلون روحها . ذلك هو الخطر الذي عملت على تفاديه الاتفاقية المبرمة في فبراير 1920 . فقد التزمت القبيلتان بالحفاظ على حسن علاقات الجوار ، وعلى الأخص بأداء المساهمات التي ستتقرر من أجل الحرب على أساس نسب مشتركة من كرت إلى غمارة ، وحتى على تبادل المساعدة لتحصيل مبلغها (9) . معنى هذا أن التمسمانيين هبوا لاحتلال مواقعهم في المعركة بجانب إخوانهم ضاربين عرض الحائط بالوعود التي قدموها للاسبان .

يمكن أن نستغرب كيف تسنى لنفس القبيلة وبفاصل زمني يسير ابرام معاهدتين تتعارض فصولهما من الأولى إلى الأخرى . بيد أن ذلك ما هو إلا انعكاس لتقلبات الصراع الذي كان يتواجه فيه منذ أزيد من عشر سنوات ، وعبر الريف كله ، فريق الأعيان الموالي للاسبان وفريق الرفض المعروف ب" فريق عامة الناس" . فبحسب ما تفوق هذا الفريق أو ذاك في فترة معينة ، تكون الدعوة إلى حمل السلاح أو إلى التواطؤ مع الغزاة . من المؤكد أن اسبانيا في ظل هذا الوضع كان لا بد وأن تتكرر مرارا خيبة أملها . إلا أنها كانت تتوفر على الأقل على جيش يوجد دائما على أهبة الاستعداد للزحف وبإمكانها بالتالي الاعتماد عليه مهما كان مصير الوعود . بالمقابل كم كانت الأمور بالنسبة إلى الريفيين أكثر صعوبة وتعقيدا وتقلبا . بدون جيش ، بدون ميزانية ، بدون أية وسيلة أخرى لممارسة الاكراه عدا الدعم العابر لحشود لا رابطة عضوية بينها ، فإنه لم يكن بإمكانهم الحصول على شئ ، لا على المال ، و لا على الأسلحة ، ولا على المقاتلين ، ولا حتى على وحدة العمل ، إلا بانتزاع كل هذا يوما فيوما عن طريق صراع متجدد ضد معارضين يلزم كل مرة وفي أية جهة فضحهم والتشهير بهم وعزلهم .

بما أن الكفاح المسلح كان بهذا خاضعا لنجاح معركة سياسية دائمة ، فقد شكل انضمام عبد الكريم وولده محمد بالنسبة إلى الريفيين كسبا عظيما وإن جاء متأخرا . بعد أن أصبحا في خدمة القضية التي كانت مناهضتهما لها بالأمس تحكم عليها بالشلل ، فإنهما لم يوظفا موهبتهما فحسب ، ولكن أيضا هذه الذخيرة الكبيرة من

المعلومات السرية التي تمكنا من جمعها بفضل تعاونهما مع اسبانيا . من ذا الذي كان إذن باستطاعته أحسن منهما التعرف على " أصدقاء اسبانيا" تحت الأقنعة المختلفة التي تخفيهم ؟ من كان يعرف أحسن حيلهم ؟ من سيكون بوسعه أحسن استمالتهم عند الاقتضاء ؟

* * *

هل معنى هذا أن أي واحد لم يكن يشك في النوايا الخفية التي كان انضمامهما يخضع لها في الواقع ؟ بالعكس . أو بالأحرى أن الريفيين ، ودون أن يتمكنوا من الكشف بدقة عن لعبتهما ، كانوا ينظرون إليهما عموما بارتياب تام ومبدئي . فإن الانضمامات السابقة للقاضي عبد الكريم كانت ماثلة في أذهان الجميع ، وكلها كانت كاذبة . لماذا لا تكون كاذبة أيضا هذه المرة ؟ أما بالنسبة إلى ولده محمد ، فقد عاش مدة طويلة وسط النصارى . كان الكثيرون يشعرون بنفور حاد منه . عند سجوده في الصلاة كاشفا عن أسفل بطن ساقه ، كان جيرانه من الريفيين الأخيار الذين ألفحتهم أشعة الشمس يشمئزون من بياضهما غير العادي . فتلك صورة لا تنطبق مع الفكرة التي لديهم عن رجل مسلم (10) .

لكن الرجلين تمكنا أيضا منذ البداية من استمالة أتباع مصقاعين ، كالفقيه بولحية ، تكفلوا بضمان حسن طويتهما . في هذا الصدد ، لم تكن الأدلة هي الأخرى منعدمة . أو ليست من عمل الاسبان هذه العاهة المؤلمة التي كان السي محمد يجرجر خطاه بها على مرأى من الجميع ؟ هل كان هؤلاء ليبقوه بالأمس يتعفن في سجونهم لو لم يصبح من يومذاك عدوهم اللدود ؟ أما بالنسبة إلى الأب ، فمن لن يناور مثله إذا كان عليه أن يسعى إلى إطلاق سراح ابنه ؟

ما كان للكلام بداهة أن يعطي نتائجه إذا لم يكن المعنيان بالأمر قد ساهما بنفسيهما في إخماد الشكوك التي تحوم حولهما عن طريق الانغماس كليا في عمل لا تشوبه شائبة يتوخى إذكاء الطاقات وتعبئتها . هذا إلى اليوم الذي وجدا فيه نفسيهما ، في مرحلة ثانية وبفضل ما حققاه من نتائج ، مرشحين لاحتلال مركز الصدارة . حول المرحلة الأولى ، وهي مرحلة تمهيدية وحتما غامضة ، تلوذ الوثائق والشهادات بصمت تام . نستشعر لا غير وجودهما كضرورة منطقية . في حين لن يعودا إلى الظهور في مجال مراقبتنا إلا في ماي أو يونيو 1920 مع المرحلة الثانية .

في هذا الوقت كان الجنرال سلفستري قد دفع مسبقا بجنوده في اتجاه الغرب . في 15 ماي دخل بدون صعوبة إلى دريوس . كان من شأن هذا الهجوم المنجز بسرعة وسهولة كبيرة أن يوقظ أولئك الذين كانوا يعتقدون لحد الآن أنهم في مأمن . لكن كان من اللازم أن تسمع أصوات قادرة على إسكات دعاة الاستسلام وتغليب النداء إلى حمل السلاح . ارتفعت هذه الأصوات بالخصوص في بني ورياغل . من بينها وأكثرها وضوحا ونفاذا صوت القاضي عبد الكريم . يلاحظ بالفعل من خلال تقرير للجنرال مؤرخ في يونيو 1920 أن الحالة كانت هادئة في كل جهة داخل المنطقة غير الخاضعة الموجودة في المواجهة . يقول المؤلف :

"النقطة السوداء الوحيدة هي وجود بعض الاضطراب في منطقة وممتدن أجدير بسبب رجل جحود أطلق لطموحه العنان ، ألا وهو الفقيه عبد الكريم ، بينما كانت كل النواحي تمرح في بحبوبة الهدوء منذ زمن طويل " (11)

ربما يظهر المستقبل أن الحالة في مجموعها لم تكن بنفس الهدوء الذي ود سلفستري معاينته . لكن المهم هنا أن نلاحظ كيف أن صورة عبد الكريم ظهرت فجأة في المنظر من جديد منذ هذه اللحظة ، وحتى في أعين الاسبان ، فيماعدا أن صديق الأمس أطلّ بوجه خصم عنيد بعد سنة من الاحتجاب .

تبلور حينئذ نوع من المحاولة لاستمالة قلب " الخائن " من جديد . وهكذا فقد فكر الاسبان في دعوته إلى مليلية بمناسبة قدوم برنكر ، وأعطي الأمر ببذل الممكن لاقناعه بالمجيء (12) . لكن المحاولة لم تسفر عن أية نتيجة . إذ أن سلفستري لم يكن بالرجل الذي يتواضع عندما يتعرض للتحدي . من جهة أخرى كان القاضي عبد الكريم قد وصل في هذه الاثناء إلى نقطة اللارجعة . بالفعل كان يتولى منذئذ القيادة في الجبهة .

* * *

يمكن تكوين فكرة خاطئة عن واقع الجبهة في هذه الفترة إذا لم نكن على بينة من الكيفية التي كان يتم بها تجنيد وتسليح وتجميع هذه التشكيلات من المقاتلين التي كان الريفيون ، كما رأينا ، يسمونها "الحركات" ، والتي سنطلق عليها من الآن فصاعدا هذه التسمية .

لم تكن توجد أية سلطة مؤهلة لفرض التجنيد إذا تعلق الأمر بالخروج للقتال خارج حدود القبيلة . كان كلام الخطباء في الأسواق ، وهي بمثابة ساحات عمومية بكل معنى الكلمة ، هو الذي يدفع الناس إلى الانخراط والتصويت هنا وهناك على إرسال

وحدات المقاتلين . حينئذ يتعين على هذه أن تتكون من تلقاء نفسها بضم المجندين عن طريق فتح التطوع الحر لمن يريد الالتحاق بها . بيد أن التجنيد لم يكن متيسرا لأي كان . فمن اللازم أولا امتلاك بندقية مع ذخائرها . والحال أن الأسلحة كانت نادرة . فلئن كان يتم الحصول عليها في سبتة عند العدو نفسه ، فإنها لم تكن تصل بالطرق السرية إلا بشكل شحيح (13) . من اللازم من جهة أخرى أن يكون بمقدور المجندين إعالة أنفسهم فيما يخص الضروريات أثناء غيبتهم . ومن ثم فإن هذه الغيبة لا يمكن أن تكون طويلة وهذا حتى بالنسبة لأحسنهم حالا . بناء على ذلك كان لا مفر منذ البداية من اتخاذ الاحتياطات لمن سيحل محلهم .

كان على كل وحدة من هذه الوحدات المتكونة على انفراد أن تضع نظامها الداخلي وتختار زعيمها . بعد ذلك ، وعندما تكون جميع الوحدات قد التحقت بمكان التجمع ، يطرح عليها المشكل من جديد على المستوى العام . لمن ستؤول قيادة الجميع ؟ إنها مسألة لا تكون سهلة على الإطلاق . عادة ما يتم في البداية تشكيل هيئة تكون كل قبيلة ممثلة فيها . بعد ذلك يبرز ، وبدون أن تنعدم المنافسات ، الرجل الذي يعترف الجميع بزعامته .

إن الحسنات التي تضمنتها هذه المنظومة هي كون المقاتلين كلهم متطوعين . لكن كم هي بالمقابل خطيرة مساوئه : نقص في العدد ، انعدام الاستقرار ، وبالتالي الالتحام بحكم اللجوء إلى البدلاء ، وأخطار التفسخ في حالة نشوب خلاف . إلى هذا تنضاف علاقات "الحركة" الصعبة مع رجال القبيلة التي قدمت مبدئيا لحمايتها .

ذلك ما يبدو من المفارقات . لكن باعتبار أن التجربة أظهرت منذ عشر سنوات أن الريفيين يرضخون في نهاية المطاف دائما أمام الغزاة ، فقلما تجد قبيلة تصمد أمام الخوف وفكرة الاستسلام وهي ترى هؤلاء عند أبوابها . بدلا من أن تسارع تلقائيا إلى حمل السلاح ، فإنها تضيق ذرعا بوجود "الحركة" التي تسببت في تعرضها لقنبلة الطائرات والتي تتركها بعد انسحابها في الغد عرضة لعمليات قمع الاسبان . بناء على ذلك لم تكن تعطي تحت الاكراه إلا الحد الأدنى المطلوب منها : تقديم سقف لايواء الجندي ، ورغيف لوجبته ، وبعض السواعد لحفر الخنادق . تلك إذن هي الظروف التي كانت تمارس تأثيرها على أشكال ومصير الصراع الدائر رحاه في الجبهة .

وبما أن عدد قوات الحركة التي تطلب تجمعها نفقات كبيرة لم يكن يتجاوز عدد كتيبة كبيرة ، فإنه لم يكن بالامكان ضد جيش حقيقي التفكير في دفاع متواصل ولا

حتى في دفاع خطي . من اللازم أن يكون الجميع متمركزا في نقطة واحدة بإمكانها أن تساعد ، إذا ما أحسن اختيارها ، على قطع الطريق على العدو أو على مهاجمته من أجنحته . ذلك هو الحل الوحيد . إلا أنه كان حلا مؤقتا إن لم نقل سخيفا في حالة ما إذا كان للعدو الاختيار بين عدة مسالك . إذا ما استطاع خلال زحفه الوقوف على بعد كبير ، وإذا ما تجزأ إلى طوابير متعددة ، فإن "الحركة" التي طما أمامها السيل كانت تضطر إلى الانسحاب على عجل من دون أن تجرب حتى حظها .

إلى نفس الفشل يمكن أن تؤدي المؤتمرات السياسية للمنظومة ومساوئها العضوية ؛ عندما يطول انتظار جند التبديل ؛ عندما تنشب الخلافات حول القيادة ؛ أو عندما يصاب زعيم نافذ الكلمة بعجز طارئ ؛ أخيرا عندما تتمرد القبيلة المستضيفة رافضة الخدمة بكل صراحة .

لم تكن إذن المقاومة في بداية 1920 بالشكل الذي كانت عليه أيام أمزيان . بل وتغيرت النظرة نفسها . فإذا كان الغزو لم يصل حقا إلى أهدافه بعد مرور عشر سنوات ، فإن إسبانيا بالمقابل لم تتخل عن أي شبر من الأراضي التي استولت عليها . ناهيك بأنها عززت وجودها فيها حيث بات من العبث الاعتقاد بإمكانية طردها منها . وغاية ما يمكن ترجيه ، منطقيا ، هو منعها من غزو الباقي . على أن الكثيرين فقدوا حتى هذا الأمل أو كانوا يفقدونه على مر الأيام وهم يرون اسبانيا تستأنف زحفها من دون أن يباريها أحد في الأرض . وهذا التشاؤم هو الذي كان على أولئك الذين يريدون الكفاح أن يعملوا على زعزعته بادئ ذي بدء .

* * *

سيما وأن الحالة تأثرت في نفس الفترة تأثرا بليغا بنكبتين ألمتا معا ، الجفاف والانهيار النقدي .

في 14 ماي أشار الجنرال سلفستري إلى النكبة الأولى بقوله :

"إن السكان الأهالي يعانون من الجوع بشكل فظيع . فمنذ خمس سنوات لم يكن هنالك محصول . أما محصول هذه السنة فيعتبر أيضا منعدما " (14) .

بعد خمسة عشر يوما ، أكد هذه التوقعات :

"ان ضياع المحصول أفرز حالة عامة من اليأس " (15) .

بعد خمس سنوات من الحرمان ، كان من شأن احتمال سنة أخرى بلا خبز أن

يصرف الريفيين حقا عن كل شئ عدا عن غريزة البقاء . وبدلا من أن يحس الكثيرون بالرغبة في محاربة اسبانيا ، فإنهم كانوا يأملون منها ، وهي طوق النجاة الوحيد ، أن تتفضل بتشغيلهم مقابل حفنة من الشعير ، في تعبيد الطرق لجيشها في هذه الجهة أو تلك ، أو في الحصاد هنالك بأرض الأندلس (16) .

أما بالنسبة إلى النكبة الثانية ، فقد جاءت كنتيجة غير منتظرة للأزمة التي مرت بها في ذلك العصر العملةالفرنسية . كنا نعرف لحد الآن مدى الأضرار التي تسبب فيها هبوط الفرنك في سنوات ما بعد الحرب في المناطق التي كانت تحتلها فرنسا في المغرب. وهي أضرار تقاس بالخسارة التي تعرضت لها قيمة الفرنك وبكمية هذه العملة التي عرضها المحتلون للتداول منذ 1907 . لكننا لم نكن نعرف أن الفرنك كان يروج حتى في المناطق غير المحتلة من هذه البلاد الريفية التي كان قسم منها على كل حال قد أصبح تحت الاحتلال الاسباني . بيد أن الأمر لم يكن مطروحا على هذا الشكل فحسب ، بل وكان الفرنك هناك ، لاسباب غير محددة ، العملة المستعملة وحدها تقريبا بعكس ما كان عليه الأمر في باقي المغرب (17) . فالضربة كانت هناك إذن مباشرة ، لأن الأمر يتعلق هنا بالقيمة التي حددت بها السلطة السعر المصطنع للفرنك في المنطقة الجنوبية (18) . أما السعر الحقيقي فهو أكثر انخفاضا من ذلك كما هي القاعدة . النتيجة هي أنه إلى جانب الأزمة الغذائية الحادة انضاف الارتفاع المفاجئ للأسعار حتى في القطاع غير الفلاحي ، خاصة قطاعي الأسلحة والتجهيز . الشيء الذي قضى على المعنويات وقلل من الطاقة الهزيلة للوسائل المادية .

وهكذا فإن المقاومة التي تدفقت فيما مضى مثيرة الجماهير ، تقلصت إلى تيار ضيق نابع من مركز ثانوي ، وعليه ليلحق بالعدو أن يشق طريقه عبر قبائل مترددة أو معادية بكل صراحة . من ثم المظهر المتواضع لهذه الجبهة التي استحالت إلى حجم نقطة . من ثم أيضا الانطباع الذي تعطيه عن عدم تماسك عام عندما تنسحب الحركة"حتى دون أن تنتظر احتكاك العدو بها .

بيد أن الكسوف في مثل هذه الحالة لم يكن أبدا سوى كسوف مؤقت . فعندما تتوارى "الحركة"، كانت "حركة" أخرى تظهر في هذه الجهة أو تلك وراء الخط . وهي علامة ينبغي أخذها بعين الاعتبار . إذ تدل على أن شيئا ما كان يفور تحت المياه الراكدة . كان يبدو أن حمية السنوات الماضية قد تحطمت في خضم الحواجز التي أفرزتها حالة فريدة حقا . إلا أنها كانت ما تزال في الواقع تلهب على الأقل مشاعر تلك

الأقلية التي رفضت الخضوع في الوقت الذي كان الكل ينصاع من حواليها ، والتي يقر التاريخ أحيانا ببعد نظرها ومخاطرتها . دون شك لم يكن بإمكان أي كان وقتذاك التكهن بما سيكون عليه المجرى النهائي للأمور. إلا أن عقلا نيرا من شأنه أن يدرك أن الوقت سيحين ليصبح في استطاعة "الحركة" ، وقد واتتها الفرصة ، توجيه ضرباتها إلى العدو وجعله يؤدي ثمنا باهضا عن زحفه .

على هذا التقدير بالذات كانت ترتكز مخططات القاضي عبد الكريم ، ووفقه كان يدبر بالتالي عمله .

* * *

إن دخول اللاسبان المفاجئ لدار دريوس ، الذي حدث في 15 ماي ، أثار هياج كل قبائل المنطقة : بني سعيد ، التي كان يهددها بالتطويق ، وبني توزين ، وبني أولشك اللتين كان يهددهما من الأمام ، وتمسمان وبني ورياغل اللتين كانت القبيلتان السابقتان تشكلان خط دفاعهما المتقدم . إلا أن المهلة التي تركها لها سلفستري ، المشغول بتدعيم مواقعه الجديدة ، مكن المقاومين من الدخول في اتصالات فيما بينهم ، ومن قبيلة إلى أخرى ، من أجل وضع خطة مشتركة . وعلى حين أن قبيلة بني سعيد المقيمة على حدة لم تكن تضمن سوى الدفاع عن حدودها الخاصة ، فإن القبائل الأربع الأخرى ركزت قواتها في "حركة" واحدة بتافرست في قدم الجبل الذي تتقاسمه قبيلتا بني أولشك وبني توزين .

كانت بلدة تافرست التي تسد مدخل فج تيزي عزة الواقع وراءها تراقب كذلك ممرين يحيطان بها ، أحدهما في الشمال عن طريق قرية بني الطيب ، والاخر في الجنوب عن طريق أربعة ميدار . بيد أنه كان من اللازم التمركز هنالك قبل سلفستري الذي سيزحف بكل تأكيد إلى هذه المراكز الثلاثة .

استغرقت المفاوضات مع العمل السياسي التمهيدي لحملة التجنيد شهرا بكامله . الحملة نفسها لم تبدأ في بني ورياغل إلا في منتصف يونيو ، عندما تمكن أخيرا القاضي عبد الكريم في الأسواق - لأنه هو المحرض - من إسكات الفريق الموالي للاسبان واسماع نداءاته [19] . قبل نهاية الشهر تمكن من الانطلاق نحو تافرست متوليا هو نفسه مع ولده محمد قيادة وحدة المقاتلين التي تم تكوينها [20] . وكانت الوحدات الأخرى قد سبقته إليها ، لكن ابتداء لا غير من 25 ، بينما كان العدو على وشك الوصول إليها عشية ذلك اليوم [21] .

إن هذا الوصول المتأخر يجعلنا ندرك أن المعنيين أكثر بالأمر ، وهم أهل تافرست ونواحيها ، بدوا جد مترددين إلى حد أنهم لم يزودوا الحركة بأي جندي [22] . لكن بعد أن تجمع هنالك الآن حوالي 2000 رجل ، فإن هذا يعد في نهاية الأمر نجاحا رائعا [23] . هناك أيضا من بين العوامل المشجعة الأخرى خيار التمسمانيين الذين التحقوا بالكفاح بجانب إخوانهم رغم الوعود التي طمأنوا بها الاسبان [24] . وإذا كان تنظيم الدفاع يسير على أحسن وجه ، فلماذا لا تتم تقوية معنوية رجال المنطقة لاخراجهم من لا مبالاتهم ؟ دون شك أنه ينبغي بذل قصارى الجهد من أجل هذا . بيد أن مواهب القاضي عبد الكريم وولده محمد كانت تفي بالضبط بهذه الحاجة .

كان الرجلان بالفعل قد رُشِّحا بسرعة لتولي المهام القيادية . فان رأي الوالد هو الذي كان يرجح في مجلس الزعماء . أما بالنسبة إلى محمد ، فهو الذي كُلف بجهاز الدفاع . وهي مهمة أساسية ولا تقتصر فقط على الجانب التقني بالنظر إلى الجو المتقلب الذي كان ينجزها فيه . مثال ذلك أن الشيخ بو شريف ، وهو رجل ذو نفوذ في المنطقة ، أفضى به الأمر إلى أن صاح فيه علنا :

" لقد قال له إنه جاء في وقت غير مرغوب فيه ، هذ الذي أكل الخبز الاسباني ، ليمنع اليوم الناس المساكين من العيش . لأن هؤلاء يعرفون حق المعرفة أنهم ، رغم الخنادق وكل هذا الجهاز الذي أقيم لهم ، لن يتوصلوا مع الاسبان إلى أية نتيجة عدا جلب نقمتهم . على أنه إذا كان يود حفر الخنادق ، فما عليه إلا أن يعود إلى مسقط رأسه ويحفرها هنالك " [25] .

كان مثل هذا التحدي يدعو إلى القلق سيما وأن بو شريف ، الصديق القديم للاسبان ، كان قد انقلب ضدهم مثل القاضي عبد الكريم ، بحيث لم يعد بالامكان اتهامه بكونه مجرد عميل للعدو [26] . وإذا كانت عزيمته قد وهنت فما ذلك إلا نتيجة الخوف . وهو خوف معد كان يجازف بدوره بنشره على نحو لا سبيل إلى وقفه . بيد أن السي محمد لم يكن بالرجل الذي يفحم . فان خبرته في الكفاح السياسي كانت تمكنه دون شك من تسوية المشكل الذي لم يكن مثال بو شريف سوى تنبيه إليه . لولا أن حدثا طارئا وقع فجأة ليرغمه هو ووالده على الانسحاب وترك الحبل على غاربه .

حدث ذلك عندما أصيب الوالد في منتصف يوليوز بأوجاع غير عادية في البطن ، لازمته وزادت استفحالا إلى حد أنها شلت قواه [27] . فكان إذن لا مناص من إجلائه . وبما أن تقاليد العائلة كانت تلزم محمد بعدم مفارقته ، فإن الرجلين معا عادا إلى

أجدير في 19 يوليوز [28] .

نفتقر إلى الايضاحات الكافية عن حالة "الحركة" بعد عودة الرجلين . لكن من المؤكد أنها تأثرت أيما تأثر . بل وقدرت مذكرة اسبانية ، ومنذ 23 ، أن ذهاب الوالد حرم المقاتلين من الزعامة [29] . وبدت الأحداث اللاحقة وكأنها تؤكد هذا التقدير . عندما دخل سلفستري بعد خمسة عشر يوما إلى تافرست ، فإنه لم يدخل بدون حرب فحسب . بل ولم يجرؤ الخصم حتى على الظهور في الميدان [30] . هل كانت الأمور لتجري على هذا النحو لولا احتجاب وجهي " الحركة" البارزين ؟

بعد وصوله إلى أجدير ، لم يتماثل القاضي عبد الكريم للشفاء . عانى من آلامه ثلاثة أسابيع ثم أسلم الروح في 7 غشت [31] . على أن الريفيين عزوا وفاته إلى الاسبان الذين اتهموهم بتسميمه [32] . بيد أنه اتهام واهي الأساس لو نحن دققنا في المسألة من خلال المستندات السرية ، حيث نستشف أن مرض القاضي عبد الكريم ثم وفاته كانا بالنسبة إلى سلفستري ومصالحه أمرا غير منتظر [33] . يبقى مع ذلك أن الاتهام هام باعتبار أنه أزال الشبهة عن عبد الكريم وولده ، شبهة البقاء مخلصين سريا للاسبان . إذ هل يمكن دس السم للأصدقاء ؟

* * *

مع ذلك ، وفي الوقت الذي بُرئت فيه على هذا النحو ساحة الوالد ، فإن وفاته شكلت أيضا فرصة بالنسبة إلى ولديه للشروع في إعادة ربط الصلات بأصدقائهما بالأمس . وهكذا فإن لوبيرا ، مدير " تلغراف الريف" ، الذي عمل محمد مساعدا له زمنا طويلا ، نشر حول الفقيد مقالا جميلا خاصا بسيرته ، متأسفا فيه بالطبع على أن يكون رجل من مستواه قد انقلب في أواخر العمر ضد اسبانيا . لذا ، وبتوجيه تعازيه الرقيقة إلى ولديه ، فإنه مد لهما اليد وحثهما على القيام بانضمامهما . كتب يقول :

"إنهما يعرفان حقيقة مشاعر اسبانيا . لقد عرفا عن كثب محاسن عملنا الاستعماري . وإنهما على اقتناع بأنه ليس في الإمكان مقاومتنا . ليعترفا إذن بخطئهما ، وليعودا للعمل في صفوف الأصدقاء ويكفا عن إغراء النفس بطموحات لا وجه لقبولها ولا لتبريرها . إنها نصيحة .. صديق قديم يحبهما " [34] .

قوبل النداء بأذن سميعة ، وجاء الجواب عليه دونما إبطاء . فيما يلي نصه :

أجدير ، 15 غشت 1920

صديقنا العزيز

« إن الغاية من رسالتنا هاته هي أن نعبر لكم عن عظيم امتناننا لتعازيكم وللنصيحة الوجيهة التي وجهتموها لنا في « التلغرامة » بمناسبة وفاة والدنا تغمده الله برحمته .

لو أمعنا النظر في نشاط وفكر والدنا ، فإنه لا يسعنا إلا الاقتناع بالدور الذي اضطلع به في الرسالة الحضارية لاسبانيا – وهي قضيتنا المشتركة – وتقدير مجهوداته الكبيرة لمد النفوذ الإسباني في الريف . لقد عمل باصرار تحدوه دوافع انسانية . ذلك أنه أمعن النظر في مهمة اسبانيا وفهم مراميها جيدا ، مقدرا المحاسن الجليلة التي سيجنيها منها اخواننا الريفيون . لقد كانت سياسته تجنح دائما إلى السلم . وكان يدرك تمام الادراك أن شعبينا في حاجة إلى أن يكونا صديقين ومرتبطين بثقة متبادلة ، لكي تسود بينهما طمأنينة أخوية ومستمرة . كلا ، لم يكن معاديا للعمل الاسباني ، كما ادعى ذلك البعض منذ زمن يسير .

ونحن أيضا ، كولدين لهذا الرجل ، الماثلة أمامنا المحاسن التي غمرتنا بها شخصيا اسبانيا ، نقدم لكم أعظم متمنياتنا بازدهار هذه الدولة الاسبانية وحمايتها ، متمنين من أعماقنا نجاح هذه الحماية . كما نقدم في نفس الوقت كل الضمانات المتعلقة بمساهمتنا الكاملة في العمل الذي تضطلع به .

صديقاكم الحميمان : ولدا عبد الكريم » (35)

كانت هذه الرسالة كفيلة دون شك بإذهال المقاومين الريفيين لو أنهم تمكنوا من الاطلاع عليها بعدما تكفل لوبرا بتسليمها للنشر . لكن " التلغرامة " لم يكن لها ولا يمكن أن يكون لها من قارئ في الريف غير المحتل سوى الأخوين . وبالتالي فقد أمكن للسي محمد أن يظل في أعين إخوانه ذلك البطل صعب المراس الذي صار يتقمص شخصيته في نفس الوقت مع أبيه . على العكس من ذلك فإننا ندرك مدى الحيرة التي وقعت فيها السلطات الاسبانية . عند قراءة هذا البيان البرئ يخيل أنه لم يطرأ طارئ في هذه الأشهر الأخيرة على صعيد الكفاح السياسي وجمع الوحدات وتنظيم الدفاع بتافرست ، أو على الأقل لا أساس لصحة الأخبار التي بوأت عبد الكريم ووالده مركز الصدارة في الأحداث . بما أن هذه الأحداث وقعت بالفعل ، وأن دور الرجلين دور ثابت ، فكيف يمكن التوفيق بين الأقوال والأفعال ؟ إذا كانت الأقوال صادقة ، لماذا هذا الانفجار العدائي ؟ لماذا هذه الرسالة المعسولة ، الآن وقد تم اشهار الحرب ؟

في الحقيقة أن الجنرال كان قد حدد رأيه ومنذ ما قبل وفاة القاضي عبد الكريم . وقدم تأويلين لتعليل الانقلاب المفاجئ في موقف هذا الأخير . إما أنه ادعى بأن هدفه الوحيد هو "أن يصبح الرقم الواحد في قبيلته " ، وإما أنه اتهمه بنسف عمل الاسبان "بغية إظهار نفوذه الذي بولغ في تقديره شيئا ما ، وذلك حتى يُقترح عليه الالتحاق ثانية بالخدمة " (36) .

لم يكن إذن مغفلا . بيد أن تحليله يظل ناقصا جدا . إذا تفطن حقا إلى أن الطموح هو الذي حرك القاضي عبد الكريم ، فإنه لم يقدر أن هذا الطموح لم يعد منذئذ يقف عند حدود قبيلة ، وانه يمتد على الأقل إلى الريف غير المحتل . كذلك ، إذا أدرك أن الغاية من توجيه الضربات لاسبانيا هي الدعوة إلى المصالحة ، فإنه لم يفهم أن الهدف بالنسبة إلى المعني بالأمر لم يكن - وهيهات ذلك - يرمي إلى أن يتم "استدعاؤه للخدمة " ، ولا إلى نيل العفو ، وإنما يرمي في الحقيقة إلى التفاوض حول عقد ميثاق ندا لند . بماأن الأمر كذلك ، فإن حظوظ نجاحه كانت مرتهنة بقوة إرادته . فلن يتسنى له أن " يصبح الرقم الواحد" في الريف كله إلا إذا جعل من نفسه حقا المحرض الأكثر نشاطا والأكثر فعالية في حركة المقاومة . من جهة أخرى فإنه بقدر ما اكتسب من سلطة بهذه السياسة ونظم فريقه ومرس جنوده بالحرب ، بقدر ماستكون اسبانيا مرغمة على مفاوضته بوصفه محاورا لا ملتمسا . وبعد أن خطا خطوته ، فإنه لم يعد بإمكانه منذئذ أن يتراجع ، أو يتوقف ، أو يتردد ، ذلك ما اعتبره سلفستري خطأ لعبة واجهة وحيلة دنيئة للابتزاز بالتهديد.

من هذا المنظور فإن رسالة الأخوين المنشورة في "التلغرامة" بدت وكأنها تترجم ، الآن وبعد اختفاء الوالد ، الرغبة في توقيف المشروع مع محاولة جني ثماره مع ذلك . مما سيقود سلفستري إلى أن يصوغ على هذا النحو خطة العمل التي كان يسلكها بصددهما :

"عندما كان بعض الزعماء في البداية أصدقاء ثم ارتدوا وعادوا إلى الوقوف ضدنا، فإنني كنت أرحب بهم في حالة انضمامهم ، لكنني لا أسعى وراءهم ، لأن ذلك سيعطيهم الفرصة ليتحولوا إلى متعاظمين ويقدموا مطالب لا يمكن قبولها بأية حال . ها كيف أعدت بو رحايل . وها كيف سأعيد أيضا ، وأنا متأكد من ذلك ، عائلة الخطابي (السي محمد وأخيه) عندما سيحين الأوان" (37) .

عندما سُطرت هذه الكلمات ، كان من الممكن أن يكون شخص آخر غير سلفستري

أقل ثقة منه بالنفس . فإن وقتا كافيا ما كاد يمر حتى أثبت أن الرسالة الموجهة إلى لوبرا لم تكن تنم عن ضعف مؤلفيها . إن التفسير لمختلف كل الاختلاف . دون شك أن الخطة التي تصورها المرحوم القاضي عبد الكريم كانت في حاجة لتدخل في حيز التنفيذ إلى الصرامة . لكن إلى المرونة أيضا . لأنه إذا كان لابد من فرض الهيبة على الاسبان ، فإنه لَضَرْبٌ من الخيال بالعكس - وهذا ما كان يُعتقد على الأقل - أن يخطر بالبال أن أي شأن يمكن أن يتحقق بدونهم ، بدون موافقتهم ومشاركتهم الكلية . من ثم ضرورة نهج سياسة ذات وجهين : أحدهما مهدد ، والآخر باسم : سياسة تستند إلى استعمال القوة ، لكنها تبدي الأسف فورا على استعمال هذه القوة نفسها باعتبارها وسيلة اضطرارية وبالطبع مؤقتة . وهذا على عكس عرى الصداقة التي لا تنفصم وتتأكد باستمرار . وإن إظهار هذه الصداقة هي التي استغلها السي محمد عندما أتاحها له لوبرا .

أما بالنسبة للفرصة الأخرى ، تلك التي قد تساعده ، حسب تعبير سلفستري ، على أن " يصبح متعاظما" ، فإنه لم يكن ينتظرها من الغير ، إذ كان يغتنمها هو نفسه من حواليه يوميا . ذلك ما كان سلفستري قاصرا عن إدراكه في وقته . بيد أنه على أية حال هو الذي ترك لنا قبل أن يختفي أكثر الشهادات إثارة للدهشة عن الرجل الذي كان يكتشفه ؛ نقرأ فيها :

"إذا ما قيل إنه لم يكن يجرؤ على رفع الأصبع الصغرى وأبوه على قيد الحياة ، فلا شئ يوقفه الآن بعد وفاته ، وتراه يسير بعد أن تحرر من العادات التي اكتسبها عندما كان بيننا ، يعلوه الغبار وتلفحه الشمس وكأنه جبلي حقيقي . لقد شق طريقه شيئا فشيئا . ومع أنه ليس رجل حرب ، وأن عليه أيضا مواجهة هذه الشكوك التي أثيرت حوله من جراء إقامته وسط المسيحيين ، فإنه يمكن القول اليوم انه الزعيم المعترف به في الحركة" [38] .

يرجع هذا " اليوم" إلى ما بعد وفاة والده بتسعة أشهر ، تلك الوفاة التي اعتقد يومها سلفستري أنها مهدت السبيل لاسبانيا [39] . لقد أخطأ كثيرا . سنرى بالعكس أن تنفيذ الخطة التي دبرت بالأمس مع الوالد تلقت بعده دفعه جديدة .

* * *

كان سلفستري واثقا من أن أن انهيار " الحركة" مع سقوط تافرست وأربعة ميدار سيكون كافيا لزعزعة معنوية الريفيين على نحو لا يمكن علاجه . كيف لا وقد حدث بعد ذلك ، كما أشار ، خضوع بو شريف ، وهو زعيم كان يعتبر ه الجميع متصلبا . وبما

أن طائراته كانت فوق كل هذا تنشر رعبا ناجعا ، فقد عبر عن وجهة نظره ، وهو مقتنع بقوة الاسبانيين ، بأن المقاتلين سينقادون من الآن فصاعدا إلى الاستسلام بجبرية العرب المألوفة (40) .

ذلك تقييم ذاتي . من المؤكد أنه كان على القبائل مواجهة صعوبات جديدة . من ذلك أن الفريق الموالي للاسبان سرعان ما رفع الرأس بمجرد ما شاع الخبر في بني ورياغل باحتضار القاضي عبد الكريم . بل وتمكن من إثارة مشاجرة في سوق أجدير نفسه بغية نسف قرار جمع الاعتمادات اللازمة للمعركة . يبقى مع ذلك أنه انهزم في نهاية المطاف وتم جمع الاعتمادات (41) . هذه الخاتمة التي كذبت تفاؤل سلفستري تجعلنا ندرك بالعكس أن مركزا جديدا للمقاومة تمكن من الظهور متزامنا تقريبا مع سقوط تافرست (42).

يتعلق الأمر بمركز يقع أكثر تطرفا إلى الشمال في المكان المعروف بتاوردة ، ويتحكم في مدخل ابن الطيب ، وهو الموقع الذي كان سلفستري في حاجة إليه ليحمي جناحه في زحفه إلى البحر . من الحق أن " الحركة" التي ظهرت هنالك كانت تختلف كثيرا عن التجمع السابق بتافرست ، فهي أقل عددا ، كما لم تكن تعبر بكل معنى الكلمة عن إرادة القبائل . عُلِمَ بالفعل أنه كان على رأسها شخصية من أصل شريف فيما يعتقد ، يدعى الإدريسي وليس بإمكان أي كان ، سواء في الجانب الريفي أو الاسباني ، أن يعرف من أين قدم . وكان يشتبه به كثير مبعوثا من طرف الفرنسيين . وتلك علامة نحس بالنسبة إليه . لكن بما أنه كان يعد بالمال والأسلحة ، ويعمل على كل حال ضد اسبانيا ، فقد كان من اللازم الوقوف على حقيقة أمره عن كثب . فاجتمع نواب قبائل المنطقة الخمس في تاوردة حيث تم وضع خطة لجمع وحدات المقاتلين في أية جهة على أن توزع إلى ثلاث " حركات" في كل قبيلة من قبائل المواجهة : بني سعيد ، بني توزين، بني أولشك . ثم عاد كل واحد لتنفيذ القرارات المشتركة داخل قبيلته (43) .

عند انعقاد هذا النوع من المؤتمرات كان الاسبان يستخبرون بوجه الخصوص عن مندوبي قبيلة بني ورياغل بالنظر إلى وزنهم الحاسم . في هذه المرة أظهروا كثيرا من الامتعاض لما تعرفوا على زعيم وفدها ، لأن هذا الزعيم لم يكن سوى السي محمد ، ولد القاضي عبد الكريم ، الذي كان يساعده فوق ذلك أخوه الأصغر محمد (فتحا) . فأبدى حينئذ سلفستري ملاحظته عن سلوك الرجلين وهو يستشيط غضبا :

" إنهما يدليان بتصريحات معسولة على الملأ ، إلا أنهما لا يوفقان بين أقوالهما

وأفعالهما . فليس التهافت على دعاة الحرب المقدسة بالطريقة التي تمكنهما من إظهار امتنانهما لكل ما أغدقته عليهما الدولة الحامية من نعم " . (44).

كان ذلك ولما يمض على وفاة الوالد سوى أقل من شهرين .

في هذه الأثناء كانت " الحركة " المتجمعة في تاوردة كافية لإيقاف الفريق الموالي للاسبان عند حده في قبيلة بني أولشك (45) . وبذلك فقد حالت دون خضوع القبيلة الذي كان سلفستري ما يزال ينتظره ليتقدم بدون مخاطر . وهو خضوع اشتدت الحاجة إليه أكثر نظرا للتجنيد المتوقع في القبائل الأخرى . إذ أن القائد العام برنكر كان يمتنع ، كما نتذكر ، عن شن الهجوم في قطاعه بالشرق ما دام لم يتم القضاء على المقاومة في الغرب . والحال أن نشاطه العسكري في هذا القطاع الأخير كان يسير على قدم وساق . وفي أكتوبر 1920 تمكن من الوصول إلى مدينة شفشاون بفضل عملية اختراق جزئية . ومنذئذ تم ربط هذه المدينة بتطوان بممر ضيق يصل إلى ستين كيلومترا شطر البلاد غير الخاضعة إلى شطرين . لكن مهما كان هذا النجاح باهرا فإنه كان يتطلب أن يدعم بغزو المنطقتين المحيطتين بالممر ، مما كان يستلزم ولمدة طويلة وسائل ضخمة ليس بالإمكان تحويل أي شيء منها لفائدة سلفستري إذا ما اصطدم بالمصاعب .

انتظر سلفستري إذن ، إلا أنه كان على أحر من الجمر . إذ لم يكن يومن بوجود المصاعب . وإنها لمهزلة كبيرة في نظره ذلك الاضطراب الملحوظ داخل القبائل . منذ يوليوز كتب يقول :

"كل هذا لا يؤدي إلا إلى فتن صيفية . عندما سيمر الصيف ، ستأتي ساعة الحقيقة ، أو بعبارة أخرى ، سيحل الجوع والبؤس نظرا لضياع المحصول وانعدام الشغل" (46) .

بيد أن عاملا آخر لم ترد الإشارة إليه هنا سيتداخل في نهاية الصيف مع عودة الأمطار . كيف يتسنى اللجوء إلى الأسلحة وتضييع فرصة حراثة الأرض بعد توالي عدة سنوات من الجفاف ؟ كما حدث عام 1909 ، عندما اضطر فجأة أمزيان إلى وضع حد للمعارك بعد أن رأى جيشه يتقلص بسرعة (47) ، فإن العمل في الحقول هو الذي كانت له الأسبقية كذلك في هذه المرة . يقول سلفستري : " لقد نزل المطر وعاد الأمل بالتخلص من المجاعة . إن الناس منهمكون في خدمة الأرض " (48) . لذا لم يكن لديه ما يقوله على الصعيد العسكري . وبالفعل فقد ظلت قرارات تاوردة حبرا على ورق . ورغم جميع مجهودات السي محمد ، لم يستجب للنداء سوى خمس المقاتلين في قبيلته (49) . فما

عسى يكون عليه الأمر في جهات أخرى ؟ باء التجنيد إذن بالفشل ، وكان سلفستري واثقا من أنه باغتنامه هذه الفرصة سيسير قُدما دون أن تواجهه العقبات .

انتهى اصراره إلى انتزاع موافقة برنكر ، ودخل في طو ر العمل منذ نهاية الأمطار . بعد أن تجاوز تاوردة التي فر منها الشريف الادريسي ، احتل في 5 دجنبر ابن الطيب وكل القسم الشرقي من بني أولشك . بعد ثلاثة أيام اقتحم بدون عناء ديار بني سعيد ، وتقبل طاعة خصم لدود ، المدعو قدور بنعمار . في 11 يونيو أخيرا ، رفع علمه فوق قمة جبل مورو الهدف المنشود منذ 1911 (50) .

وهكذا فقد كان مصيبا . في بضعة أيام ، وضع حدا نهائيا لخطة توسعية لم يكن برنكر يحلم بتحقيقها إلا بعد زمن طويل . إنه لم يعمل فحسب على تمديد منطقة الاحتلال بشكل واسع بل وأحدث بالخصوص بعد إحدى عشرة سنة الثغرة الأولى في الحصن الريفي . وما من أحد جادله في استحقاقه الترحيب الحار الذي خصصته له مليلية حيث أنشدت ترنيمة النصر يوم 31 دجنبر .

بيد أن النصر لم يقف عند هذا الحد . في اليوم التالي ، وهو فاتح يناير، جاء جميع أعيان تمسمان لتقديم طاعتهم مع أن بلادهم كانت ما تزال في غير متناول يد الاسبان . وقد وعدوا المحتل بفتح أبوابهم أمامه بمجرد قدومه (51) . هذا المحتل الذي واصل اندفاعه ليتم في يناير السيطرة على بني أولشك . في هذه الناحية أقام بالخصوص يوم 15 يناير مركز أنوال عند حدود تمسمان ، تاركا في الوراء خط جبهة كرت القديم على بعد 35 كيلومترا . كل هذا "بدون طلقة نارية " وبمعية زعماء القبيلة وسكانها الذين كانوا يسيرون بجانب الطوابير ، في جو هادئ ووفاق تام" (52) .

فتحت إذن سنة 1921 آفاقا جديدة . فإن القطاع الشرقي قدم فجأة إمكانات كان من اللازم استغلالها دونما إبطاء . وبرنكر هو الذي تصور القطاع على هذا النحو وأعطى سلفستري التعليمات المطابقة في رسالة مطولة بتاريخ 21 يناير (53) . بوصفه وقتذاك صاحب السلطة المطلقة فيما يخص الأهم بأراضي بني سعيد وبني أولشك ، فقد عهد إليه أولا باتمام الاحتلال باستغلال الظروف التي كانت تتيحها المجاعة وألا يتوقف إلا عندما يرى بنفسه من الحكمة ذلك بالنظر إلى وسائله : وأضاف قائلا : بما أن الأمر كذلك ، فها نحن مشرفون على المرحلة الأخيرة ، وقد آن الأوان لاعادة النظر في مشكل الحسيمة القديم لكن في صيغة جديدة تتناسب مع الحالة .

من هذا المنظور أصر على رفض صيغة الانزال لأن الوسائل اللازمة ظلت من

الضروريات التي لا غنى عنها في جهة أخرى . وبالتالي فقد بقي يعول دائما للوصول إلى بني ورياغل على الطريق القاري . لكن لحد الآن كانت الترتيبات الضرورية تتخذ انطلاقا من الداخل وفق التخطيط القديم وفي مرحلتين : الاندفاع أولا في الغرب حتى منابع النكور الذي سيقود منخفضه بعد ذلك رأسا إلى الشمال نحو الجون . إلا أن الزحف غير المنتظر لسلفستري قاد حتى إلى ضفاف تمسمان ، القبيلة الساحلية المجاورة مباشرة لبني ورياغل على الجون . وبما أن التمسمانيين من جهة أخرى أظهروا تلقائيا استعدادهم لافساح مجال المرور ، فقد أصبح من السهل للغاية شق الطريق انطلاقا من بلادهم ، ولو اقتضى الأمر في نهاية المطاف اختراق إبط الجبل المائل - كما رأينا - عن سمت الجون وعن منخفض النكور الأسفل .

لم تبق سوى نقطة واحدة يتعين توضيحها قبل اتخاذ القرار . فلو تم الزحف عن طريق الساحل لا غير ، فإنه سيتم تشكيل جبهة عريضة جدا تجاه قبائل الداخل وستصبح حتما عرضة للهجوم . هل يمكن الدفاع عنها دون امدادات مساعدة ؟ وإلا ، في حالة عدم توفر هذه الامدادات ، ألا ينبغي التفكير في زحف أبطأ ، مدعم تباعا بنقط ارتكاز تقام في عمق البلاد ؟ لجمع عناصر الإجابة فوض برنكر الأمر لسلفستري [54]

لكن كيف يمكن لهذا الأخير أن ينجز المهمة دون أن يأخذ بعين الاعتبار تجربة الأشهر الأخيرة ؟ وعليه فقد كانت له نظريته . لقد تم في نظره تهويل أمر الغزو بينما كان يكفي الإقدام عليه . وهو يرى أن المقاومة الريفية ما هي إلا سراب يتوارى كلما اقتربنا منه . أما عن زعمائها ، فيعتبرهم رجالا طموحين مثل محمد بن عبد الكريم ، لا يرتفعون فوق إخوانهم إلا لبيع أنفسهم بالمزاد على أحسن وجه ، أو يعتبرهم نفعيين مثل عمار بن مسعود بنطورياس الذي يملأ جيبه بالاعتمادات المخصصة للحرب . يقول سلفستري في هذا السياق :

" بيد أن عامة الناس لا تستسيغ فيما يخصها المشاريع الحربية ، فهي تعرف أن الصراع غير متكافئ تماما ، وتتخوف من الاقتصاص .. من المؤكد (من جهة أخرى) أن الأهلي الذي لا يعيش بشق النفس إلا في الجوع وحياة الكفاف وفي حالة أقرب ما تكون إلى الاحتضار ، لا يقابل النداءات إلى المعركة إلا بعدم الاكتراث أو حتى بالسخط ضد الجبابرة الفيوداليين والربانية القساة الذين هم في الواقع وبالنسبة إليه زعماء في نظامه التقليدي " . ثم يصرح مستنتجا :

" هذا ما يحمل على الاعتقاد بأن الأهالي .. خاصة أولئك الذين ... يعرفون قليلا كيف تعيش قبائل منطقة حمايتنا ... ينتظرون ذلك اليوم الذي سيدخلون فيه هم أنفسهم ومع عائلاتهم تحت هذا النظام الجديد" (55) .

ويلاحظ سلفستري أن هناك أكيدا الحالة الاستثنائية المتمثلة في بني ورياغل " المركز الممتنع " الذي تتعرض الأفخاذ المتاخمة له لتأثيره طوعا أو كرها " . لكنه يلاحظ أيضا أن هذا التأثير خف إن لم يكن تلاشى بعد الهزيمة النكراء لـ " حركة" القبيلة ، تلك " الحركة" التي طردت طردا شنيعا هذه الأيام الأخيرة من بلاد تمسمان (56) . بحيث يمكن القول عموما - ودائما في نظره - إن الريفيين ، الجائعين ، العزل ، المرتعبين ، المرهقين بالاعتصار الضريبي ، المضطهدين ، يحلمون في الخفاء بوصول الاسبان ؛ وما الترحيب المؤخر لقبيلتي بني سعيد وأولشك إلا دليل على ذلك .

وعليه كيف يجيب عن سؤالي برنكر ؟ إننا نشعر بوضوح وبالطريقة التي طُرح بها هذان السؤالان ، أن هذا الأخير كان يتخوف من التورط دون أن يقوم بتأمين غطائه . لكنه لم يكن يعرف أن هذا الغطاء كان قد تحقق عمليا في الساعة الراهنة . وأن الوقت حان لبرمجة العملية . وفعلا لم تبق منذئذ سوى قبيلتين منتصبتين كحاجز بين سلفستري وبني ورياغل : تمسمان بمحاداة الساحل ، وبني توزين في الداخل . منطقيا كان من الواجب أن يتم الزحف عن طريق القبيلة الساحلية التي وعدت على كل حال بإخلاء المرور . وبما أن قبيلة بني توزين ستكون على الميسرة ، فإن المشكل الوحيد من أجل تأمين حراستها هو التمركز في عقر دارها . والحال أن فخذين منها كانا قد قدما مراسيم خضوعهما وينتظران على أحر من الجمر احتلالهما الفعلي . ولئن لم تكن الأمور قد وصلت بعد إلى هذا المستوى فإنها كانت في طور النضوج بفضل الأصدقاء الذين كانت اسبانيا تعتمد عليهم هنالك . على هذه القواعد يمكن بلا مغالاة في التفاؤل التفكير ، مع نهاية غشت ، في الاحتلال المشترك لقبيلتي تمسمان وبني توزين ، حتى إلى النكور الذي يفصلهما عن بني ورياغل . حينئذ سيكون شهر من العمل الدؤوب كافيا ، بالنظر إلى تواجد الجنود على مقربة من عين المكان ، لإذكاء نشاط الفريق الموالي للاسبان في هذه القبيلة الأخيرة ، وإخماد روح مقاومتها . بحيث يمكن أخيراً في شهر أكتوبر أن يطأ الاسبان هذا السهل المشهور الذي يحف بجون الحسيمة والذي يقطنه قسم هام من أعتى القبائل . أما بخصوص القسم الباقي من القبيلة المقيم بالجبل ، فلا خوف منه . فقد جاء في التقرير الذي أعد لسلفستري : " ان عدونا يفتقر إلى التنظيم . وعلى الرغم من أنه بذل منذ 1912 كل طاقته التي تتيحها إمكاناته من أجل الدفاع عن ترابه ، فإنه لا

يعمد إلى الهجوم إلا من أجل أعمال دقيقة " (57) .

تقبل برنكر بحذر تحليل سلفستري وقرر التوجه بنفسه إلى عين المكان لامتحانه . إلا أنه مبدئيا على الأقل ، احتفظ بالمشروع الذي أحيل عليه . وقبل أن يتوجه لإجراء التحقيق الذي اعتزم القيام به في قطاع مليلية ، أخضع بالفعل لحكومته خطة أدرج فيها بالنسبة إلى السنة الجارية هدفا جديدا بجانب الأهداف القديمة . يتعلق الأمر ب " احتلال جون الحسيمة وإذا كان من الممكن احتلال قبيلتي بني توزين وبني ورياغل " (58).

* * *

هل من المعقول أن يستمر الريفيون ، وعددهم يتقلص كل يوم ، في الوقوف ضد الزحف الاسباني ؟ إن المغاربة الذين صمدوا جيدا في شمال البلاد منذ إحدى عشرة سنة ، قد انتهى الامر بهم في ظرف ثلاثة أشهر إلى التخلي عن مواقع تزيد مساحتها على تلك التي خسروها طوال الفترة المنصرمة . وهذه وزان وشفشاون ، وهما المدينتان الوحيدتان اللتان تضمهما المنطقة في الداخل ، قد سقطتا دفعة واحدة ، الأولى في يد الفرنسيين ، والأخرى في يد الاسبان . وفيما كان أخمليش بالأمس يخرج لملاقاة الفرنسيين ويكبدهم الهزائم ، ترى اليوم قبيلتي أولشك وبني سعيد تسلمان أراضيهما حتى بدون قتال ، فاتحتين بذلك باقي البلاد أمام العدو .

من الحق أن بني ورياغل قاموا برد الفعل إزاء هذا الوضع . فتم في بلادهم في بضعة أيام جمع فيلق من 600 رجل . لكن بدلا من أن يجد فيلقهم الدعم أو قل المدد من التمسمانيين ، الذين كان عليه أن يمر بديارهم ، فإنه استقبل من طرفهم شر استقبال إلى حد أنه انسحب في حالة تعساء (59) . وبما أن روح الانهزامية تفشت أيضا في جيرانهم بني توزين ، فإنه لم يبق لبني ورياغل أي أمل في تنظيم دفاع متقدم أو عمل موحد . ووسيلتهم الوحيدة هي أن يدافعوا عن أنفسهم ، وبمفردهم دون شك ، وقد سدت أمامهم كل المنافذ . فهل يجوز التفكير في مثل هذا الدفاع ضد جيش بكامله ؟

بيد أن هذه الفكرة الجنونية هي التي سادت بينهم ، وهذا دون أن ندري كيف اللهم إلا من أن ابن المرحوم عبد الكريم كان من أولئك الذين دعوا لها بجرأة ، حيث كان يردد : " الموت خير من الاستسلام للعدو" (60) . كانت هذه الكلمات تذكي الحماس في وقت ازدادت فيه حدة الخطر . وهكذا فقد تجمع المناضلون من جديد ، رغم النكسة الكبيرة التي منوا بها عند جيرانهم ، مصممين من الآن فصاعدا على استعمال وسائل أخرى غير الإقناع إزاء التمسمانيين . هل تقاعس هؤلاء عن الدفاع عن أرضهم ضد العدو ؟ لهم الخيار في ذلك . لكن من حق جيرانهم بني ورياغل في هذه الحالة الدخول إلى هذه الأراضي نفسها ليسبقوا العدو إليها . فتلك وسيلة لضمان حمايتهم الخاصة . لأنهم سيكونون من الخاسرين لو تركوا الاسبان يحتلون المرتفعات التي تقطع بلاد

تمسمان من الشمال إلى الجنوب وتشكل جدارا على طول الحدود بين القبيلتين . ففي هذه المرتفعات سيتقرر مصيرهم . وهذا ما كان يحتم عليهم ضرورة التمركز فيها . أما بخصوص أهل المكان ، وهم تروكوت - فخذ من تمسمان - فما عليهم إلاالتسليم بالوجود المسلح لجيرانهم والانصياع لسلطتهم طوعا أو كرها .

ذلك ما حصل لهم بالفعل عندما قام حوالي مائة من مقاتلي بني ورياغل بضرب معسكرهم على مرتفع جبل القامة في نهاية أو بداية فبراير 1921 (61) .

كان اختيار الموقع مناسبا للغاية . فلئن كان جبل القامة قريبا جدا من منبسطات الحسيمة من حيث يسهل تسلقه رغم فارق الارتفاع البالغ 700 متر ، فإنه كان محصنا بالعكس في الاتجاه الآخر بفضل شدة انحدار سفحه الذي يتقدمه ممر حدور منحوت بعمق داخل الكتلة ، وينتهي بشرفة مطلة على السهل . من هناك تتراءى في الشرق والجنوب الشرقي كل المنطقة المعلمة على المدى البعيد بالمواقع الاسبانية والتي تعد أنوال من أهمها وأقربها . لم يكن المنظر محجوبا إلا في اتجاه الشمال الشرقي بظهر أوبران الذي وإن كان أقل ارتفاعا فإنه يرسم بشكل عمودي تقريبا حاشية الشرفة على اليسار . على أن المقاتلين سدوا هذا النقص بإقامة مركز متقدم يطل على السهل وبإمكانه أن يراقب إلى غاية البحر جوانب التضاريس وكل مجرى أمقران ، الوادي المتعرج في سفحه (62) . إن جبل القامة ، المركز المتقدم والمتجدر في نفس الوقت في مؤخرته ، كان يساعد كثيرا كذلك على الصمود والتدخل والمراقبة .

من بين الزعماء الحاضرين ، ظهر منذ البداية أن محمداً بن عبد الكريم كان أبرزهم (63) . وهو الذي سرعان ما توطد نفوذه كليا عندما توفي في أبريل منافسه الوحيد المحتمل محمد بن الطاهر (64) . منذئذ فإن " الحركة" المتشكلة ضد الغزاة ستسخر أيضا بيده كأداة سياسية لانشاء سلطة كان خلو الساحة منها يحكم لحد الآن بالفشل على كل العمل الجماعي المنجز بالريف . ففي جبل القامة ، ومن فبراير إلى ماي 1921 ، ظهرت في شكلها الذي ما زال جنينيا ، هذه السلطة التي كان محمد بن عبد الكريم صانعها الواعي ، والتي سيظل طوال فترة نموها صاحبها والقابض عليها كليا .

في فبراير عندما تأسست أول تشكيلة مسلحة ، فإن الغرض منها لم يكن شن الهجوم . كان الناس يعانون كثيرا من المجاعة بشكل لا يساعد على تجنيد عدد كبير منهم . وإلى غاية موسم الحصاد ، الذي كان يؤمل أن يكون عاديا هذه المرة ، كان ينبغي الاكتفاء بالصمود والاستعداد للمعارك في المستقبل (65) .

معنى الاستعداد تشكيل جنود حقيقيين ، مكونين ، متمرنين بشكل جيد ، دائما رهن الاشارة لتأطير كل المجندين في الوقت المطلوب . معناه أيضا الحصول على الأسلحة . معناه أخيرا توحيد الناس في إرادة واحدة للكفاح مع استئصال شأفة الانشقاق وسحق المعارضين . إنها مهام متعددة كان محمد بن عبد الكريم على بصيرة بها ، وهو الذي سيقود بنجاح عملية إنجازها .

انصب اهتمامه في البداية على ضمان انضمام أهل تروكوت ، حيث ترابط "الحركة" والحصول على الضمانات من باقي التمسمانيين الذين كانوا يتأهبون لاستقبال الاسبان . كان يكفيه قي تروكوت التأثير عن طريق حضوره في الجدال الجاري بين أصدقائه وخصومه . يروي لنا شاهد كيف تمكن عمر أو فقير على هذا النحو من الاستظهار على "القايد" علال . فقد تجرأ على التصريح له بقوله :

" إن إخواننا بني ورياغل الحاضرين هنا مسلمون ، ونحن مسلمون كذلك . فإذا كنت أنت من الاسبان ، فما عليك إلا أن تبوح بذلك لنعرف قبل كل شئ ماهي الإجراءات التي ينبغي اتخاذها معك " (66) .

في الأفخاذ الأخرى ، تدخل بالقوة لإلقاء القبض على الاعيان الرئيسيين الذين قدموا مراسيم خضوعهم في مليلية ، واستعملهم كرهائن . كما فرض عليهم الغرامات مبينا أن القصاص سيكون في المستقبل مصادرة جميع متاعهم (67) .

بنفس الشدة ردع الناس عن اللجوء إلى الانتقام الشخصي الذي كان يعرف أن الاسبان استغلوه على نطاق واسع ، وفرض سواء بين اخوانه بني ورياغل أو بين التمسمانيين عدالة اجتماعية طبقها بنفسه وفق الشريعة الاسلامية . لهذه الغاية لم يتردد في اتخاذ عقوبات نموذجية . من ذلك أن مساعده الخاص ، السي محند بن الطاهر ، اضطر إلى تسديد غرامة باهضة عن جريمة قتل اقترفت في فخذ منوط به ، هو فخذ بني بو عياش (68) . كذلك فإنه لم يكن يسمح لجنوده بأن ينصبوا أنفسهم محاكمين ؛ يقول مخبر في المصالح الاسبانية :

" إن السي محند بن عبد الكريم يمنع كليا على رجاله في " الحركة" التهجم على أي أحد في شخصه أو متاعه ممن يشتبه به صديقا لاسبانيا ، كما أنه لا يسمح بذلك لأي كان ، دون أن يكون قد علم بالأمر وبت فيه بنفسه " (69) .

من جهة أخرى فقد كان عليه أن يجد الاعتمادات الكافية للمحافظة على قواته دون اللجوء إلى البدلاء . وقد قام بأود هؤلاء الآخيرين أولا بأن كرس ثروته الكبيرة نسبيا

والتي احتجنها منذ خمس عشرة سنة في مليلية (70) . ثم وظف بعد ذلك مدخول الغرامات ، أخيرا أقنع جميع أفخاذ بني ورياغل بتخصيص مداخيل المؤسسات الدينية من أجل الدفاع (71) . مكنت هذه الوسائل مجتمعة من تخزين مزيد من الأسلحة والذخائر بالاضافة إلى تلك التي كانت على كل ريفي ميسور أن يقتنيها على نفقته ؛ سيما وأن البعض في القبائل المحتلة مؤخرا كان وقتئذ يتخلص منها مخافة من مصادرتها من طرف اسبانيا (72) . هذا وقد استولى السي محمد شخصيا ، دون أن ندري كيف ، على السلاح الذي غنمه أخميلش من الفرنسيين منذ سنتين في عين مديونة . والظاهرة المستجدة والمثيرة للحماس بالنسبة للريفيين هي أن هذا السلاح تضمن رشاشتين ومدفعا وثلاثمائة قذيفة (73) .

في غضون ذلك كان العمل يسير على قدم وساق في جبل القامة . فكان الريفيون يحفرون هناك الخنادق ويقومون بالدوريات ويتمرنون بالخصوص على المناورة الجماعية ، وهي وحدها التي يلزمهم التمرس بها إذ كانوا كلهم فيما عداها بهلوانيين ورماة من الطراز الرفيع .

وبذا فقد بدأ العمل تحت السلطة المتزايدة لمحمد بن عبد الكريم بجهاز لم تكن أهدافه العسكرية تستثني التدخل الشامل في حياة القبيلتين الكبيرتين ، تمسمان وبني ورياغل ، اللتين كان يجنح إلى توحيدهما في علاقة ما تزال غامضة من التحالف أو السيطرة .بيد أنه كان على هذا الجهاز الفتي أن يتعرض على حين غرة لأول امتحان شكل مع ذلك مناسبة لتحقيق نجاح باهر إلى حد أنه اعتبر من طرف الريفيين من الأحداث التاريخية الكبرى .

* * *

حدث ذلك عندما وصل برنكر لتفقد قطاعه الشرقي .

كان يعتزم التأكد معاينة من سلامة الخطة التي يقترحها سلفستري . وإذا ما صدقنا ما كتبه هو نفسه فيما بعد ، فقد اعتبر أن الوضع الراهن وقتئذ غير ناضج سياسيا ويلزم بالتالي وقف التنفيذ كليا (74) . بيد أن هذا التأكيد الثابت في رسالته يخفي مع ذلك نزعة مبيتة من حيث إنه يشدد على الرفض دون أن يظهر أن هذا الرفض ، الذي يكتسي صبغة تأجيلية محضة ، كان مصحوبا لديه بتحبيذ متحمس للخطة التي ظهر نجاحها على أية حال أمرا وشيكا. بل يبدو أن موافقة برنكر على وجهات نظر مساعده جاءت على الفور . منذ الاتصال الأول بقاعدة النكور ، حيث استقبله سلفستري واكتشف بلد بني ورياغل المستهدف ، فإنه هو نفسه رفع كأسه وقت تناول الشمبانيا

مرددا : " على الاحتلال الوشيك للمنطقة " [75] . ثم بعد أن نزل في اليوم التالي في الأراضي التي سبق الاستيلاء عليها والواقعة على بعد ثلاثين كيلومترا شرقا ، من حيث يتراءى الوجه الآخر من الحاجز الجبلي الذي يسد طريق الحسيمة ، فإنه عبر عن قناعته بأن الحاجز يمكن اختراقه بسهولة [76] . أخيرا فإن الترحيب الذي أظهرته قبيلتا بني سعيد وبني أولشك في طراوة خضوعهما قضى على آخر ما تبقى من أسباب تردده إن كانت ما تزال بالفعل [77] .

إن كانت ما تزال هنالك أسباب . ففي 6 أبريل ، وفي أمر يومي رنان ، وجه بمليلية تهانئه إلى الجنود على أمل أن تجدد كما قال ، لكن في الحسيمة [78] . وفي حديث له نشر في "التلغرامة " يومي 7 و 8 أبريل ، نراه أكثر وضوحا . نقرأ فيه :

" سنقوم في هذا الربيع باختراق الخط الذي يفصل أحواض النكور عن واد أمقران . ستحاول بعض أفخاذ بني ورياغل اعتراض سبيلنا مما سيضطرنا إلى خوض المعركة . لكن بمجرد ما نصل إلى السفح الآخر ، سنبلغ جون الحسيمة الذي يمكن اعتباره ثمرة ناضجة " [79] .

بعد عشرة أيام كتب إلى وزارة الدولة برباطة جأش وبوزن الكلمات :

" إن مسألة الحسيمة يمكن أن تعتبر في متناول اليد " [80] .

"ثمرة ناضجة " ، في "متناول اليد" إنهما صيغتان سيحترز من التذكير بهما فيمابعد لأنهما تشيران إلى ما تؤول إليه التحفظات المتكتمة التي كان من شأن الحالة السياسية أن توحي بها . وفعلا فقد توقع " منذ هذا الربيع " زحفا نعرف أن نهايته ، بالنسبة لسلفستري ، ستكون بالأحرى في شهر غشت . وفي هذا ما يكفي للدلالة على أنه كان يجهل ، مثل سلسفتري ، ما وصلت إليه الأمور في بني ورياغل ، وأنه كان يستخف مثله ، كما سنرى ، بأهمية ما طرأ هناك من أمور بعد أن بات على علم بها .

عندما نزل برنكر بالنكور في فاتح أبريل ، كان من المفروض أن يلاقي هناك ترحيبا من أصدقاء اسبانيا وقد تسارعوا بكاملهم انطلاقا من الأراضي المجاورة . لكن رغم الضجة التي جرت مقدما ، لم يخف لاستقباله سوى نفر قليل من الأشخاص التافهين وقلة ضئيلة من الأعيان ، منهم صبيرة من بقيوة وسليمان بن محمد أمجاهد من بني ورياغل . فكان أن نسب هذا التبدل إلى رداءة أحوال الطقس الذي كان يسودبالفعل [81] . لكن السبب الحقيقي هو أن محمدا بن عبد الكريم قد أعلن عن حظر التوجه للسلام على الاسباني ، ولم تجرؤ الغالبية على مخالفته [82] . وهو ما كان في حد ذاته مدعاة

للقلق . إلا أن برنكر لم يعلم بالأمر . ولم يتلق ما تمخض عن الواقعة من نتائج إلا عند توقفه في طريق العودة ، وفحواه أن اجتماعا يجري فيه العمل ببني ورياغل لوضع عمل اقتصاصي يقوم على حرق مساكن كل أصدقاء اسبانيا (83) .

في الحقيقة كان الأمر يتعلق فقط بفرض غرامات على من استخف من هؤلاء الأخيرين بقرار الحظر وتوجه إلى الجزيرة (84) . إلا أن النبأ الذي ضخم بهذا الشكل ، وبدون شك عن قصد ، جاء كأحسن ما يكون للتأثير على الاسبان .

على أن هؤلاء لم يتأثروا ، بل اعتبروا بالعكس أن الفرصة سانحة للتدخل . من ثم جرت مشاورات تلغرافية بين سلفستري وبرنكر : إن أنصارهم المهددين بالعقوبات يأنسون من أنفسهم القدرة على المقاومة بصرامة ؛ لذا فإن دعما ناريا قويا من النكور ومن البحرية والطيران قمين بجعلهم ليس فحسب قادرين على الصمود بل وعلى سحق خصومهم والتخلص في أقرب وقت مما كان يعتقد من معارضة بني ورياغل . ذلك هو الاتجاه الذي سارت فيه اقتراحات سلفستري ، بل وأوعز حتى بعملية انزال للاستجابة لإلحاحات الريفي صبيرة الذي كان حول هذه النقطة يحنو حنو القاضي عبد الكريم .

في جوابه ، لم يكن برنكر متحمسا لفكرة الانزال . إلا أنه أعرب عن موافقته على باقي المقترحات وهذا في حالة تعرض الفريق الصديق للهجوم (85) . كان ذلك في 10 أبريل ، وكما نرى فإن العملية لم تتحدد في مخيلة برنكر إلا على أساس أن تكون بمثابة رد الفعل . لكنها اتخذت فيما بعد ، وبدون أن ندرى سبب هذا التغيير ، صبغة تدبير وقائي ، بحيث ستشرع المدافع في القصف في ساعة معينة ، بينما يتحرك في اليابسة الريفيون الأصدقاء .

وهكذا بدأت القذائف تنهال يوم 13 أبريل في وقت كان فيه سوق الأربعاء يعج بالناس . عندما فرت الحشود من المكان متشتتة أيادي سبأ ، تحول القصف إلى مساكن الشيوخ التي شكلت وإلى غاية المساء هدفا للمدفعيين (86) .

نعم العمل . لكن فيما عدا الخسائر والأضرار المسجلة ، لم تسفر العملية عن أية نتيجة ، بل وكانت سلبية نظرا لأن أصدقاء اسبانيا لم يحركوا ساكنا رغم ما قدموه من وعود . بالمقابل فإن خصومهم تسارعوا - بدلا من الانزواء- إلى السلاح ، وقاموا بقيادة محمد (بالفتح) الأخ الأصغر للسي محند بقض مضاجع قاعدة النكور ببنادقهم وحدها ، لكن بضبط التسديد على كل من هب ودب فيها . لقد أظهر الطرف الاسباني أمام أنظار الجميع حقيقة علاقات القوى داخل القبيلة ، ولم يعمل بذلك سوى على أن يزيد الطين بلة

بخصوص السمعة المنحطة التي كان يعاني منها أصدقاؤهم . كان على هؤلاء من الآن فصاعدا أن يطأطئوا الرأس أمام المقاومين الذين تنامى نفوذهم بالمقابل بدرجة كبيرة جدا . وهكذا توجب على الذين توجهوا لاستقبال برنكر ، وإن كانوا من علية القوم ، أن يسددوا غراماتهم في حالة يرثى لها ، باستثناء أحدهم المدعو سليمان بن محمد الذي تمكن من الفرار إلى الجزيرة . أما وقد تخلص المقاومون من معارضيهم ، فقد أصبح بإمكانهم على مهل تعبئة الرجال والامكانات . وكانت حالة الحرب التي فرضها عدوهم التقليدي ، تهورا منه ، تذكي هي الأخرى حميتهم الوطنية . بحيث توقفت جميع المعاملات مع قاعدة النكور ، وبقيت لغة التعامل الوحيدة هي الرصاص الذي كان يتفرقع هنالك بين الفينة والأخرى (87) .

أحس سلفستري وبرنكر بهذا الفشل . ومن خلال كتاباتهما نستشف ما انتابهما من مرارة وندامة . من ذلك لما كتب سلفستري يقول :

"رغم اقتراحاتهم المحضة ووعودهم بالصمود أمام " الحركة" فإن زعماء الحسيمة الذين يتقاضون معاشاتنا أدوا الغرامة التي فرضت عليهم " (88) .

نقرأ نفس الشئ في تقرير لبرنكر :

"إنني لا أوافق في هذه المسألة على سلوك صبيرة (89) ، لأنه هو الذي نصح في الواقع باطلاق النارعلى الساحل وتسبب بالتالي في رد فعل القبيلة التي يقوم رجالها برشق الحصن " (90) .

مع ذلك فإن كلا منهما كان يعمل جادا للتقليل من أهمية هذا الحادث . ففي حديثه عن الحسيمة ، ترى سلفستري يصرح متعجلا :

"إن الحالة في تحسن . وقد توقف إطلاق النار وبدأت الحياة التجارية تجري بسهولة . هنالك ما يحمل على الأمل بأن عودة الأمور إلى حالتها الطبيعية لن تتأخر " (91) .

من جهته ، كتب برنكر مشيرا إلى نفس الموضوع :

" أما بخصوص الاضطراب الذي طرأ مؤخرا ، فإنني بعد عودتي... لا أوليه كبير اهتمام... إنني لا أرى حاليا في كل مايجري هناك طابعا حادا لعداء قوي إلى أقصى الحدود... ولا أعتقد بني ورياغل بقادرين على الصمود أمام هجومنا وتكبيدنا خسائر كبيرة خلال اندفاعنا ، وهذا بالنظر إلى الضغط الذي يمكننا ممارسته عليهم عندما يحين الأوان (92).

ذلك هو خطأهما الكبير المشترك . بالطبع كانت الحادثة تبدو وكأنها سحابة صيف ، إذ أن الريفيين والاسبان لم يقوموا بأي شئ جديد عدا الاحتراز من بعيد . إلا أنهم مع ذلك عملوا على خلق حالة جديدة كل الجدة في القبائل . فإن الناس في اليابسة وقد عاينوا انهيار الفريق الاسباني والاخفاق التام للوسائل الضخمة الموظفة من طرف العدو ، اهتزوا حماسا أمام الطلعة المهيبة للمقاومين وتشكيلتهم المتراصة . والنتيجة أن هؤلاء الآخرين أصبحوا بعد إقصاء المعارضين يتمتعون بسلطة كلية ، وبنفوذ يدعمه إضافة إلى قوتهم المسلحة الانضمام المكثف لقدماء المترددين . ولن يلبث محمد بن عبد الكريم الموجود على رأسهم ، والذي كان مايزال يبدو عشيتها مجرد زعيم عصابة أو رئيس حزب ، لن يلبث أن ينال التقليد من جميع إخوانه بني ورياغل الذين سينضم إليهم جيرانهم البقيويون .

وهذا ما حدث قبل نهاية شهر أبريل ، خلال تجمع مشهود هو الآخر يمثل بالنسبة للريفيين نوعا ما ما مثله اجتماع "قاعة كرة المضرب " بالنسبة للفرنسيين . فقد تسلق جبل القامة - حيث كانت " الحركة " ساهرة - خمسون مندوبا يمثلون الأفخاذ الخمسة لبني ورياغل وقبيلة بقيوة . وبعد أن قرروا كتدبير أول جمع مائة رجل من المدد في كل فخذ من الأفخاذ ، أدوا اليمين الأعظم بان يبقوا متحدين ويقاتلوا إلى النهاية . أما من اختاروه زعيما ، فهو بالذات محمد بن عبد الكريم [93] .

* * *

لكن في الوقت الذي كان فيه أصحاب "يمين القامة" يسكّون على هذا النحو الصورة الأولى لزِعيم الحرب الذي سيشتهر في التاريخ باسم عبد الكريم ، كانت المساومات تجري في الخَفاء ؛ وهي إذ تؤكد طبيعة النوايا التي كانت تغازل أحلام عائلة الخطابي ، فإنها تبقى مع ذلك مدعاة للحيرة لمدى ما تكشف عنه من رباطة جأش كبيرة وثبات منطقي في إبقاء السفينة حتى في اتجاه جبهة العاصفة نفسها .

كان سلفستري قد أدلى بأول تصريح في هذا الصدد منذ 10 فبراير ولما يمض سوى زمن يسير على اجتماع " الحركة " في جبل القامة . فإنه أعلم برنكر بأن السي محمد أعرب له عن رغبته في الحوار والعودة ثانية إلى كنف الاسبان ، وهذا على الرغم من حركاته وسكناته المعادية أكثر فأكثر [94] . وهذا الخبر الذي كان ما يزال في حينه غامضا سرعان ما تأكدت صحته إلى حد أنه أثير على بساط الدرس عندما تلاقى الرئيسان بمليلية في شهر أبريل [95] . فما كان لهذين الأخيرين أن يتجاهلا بالفعل الاتصالات الوشيكة التي ستجريها في أجدير شركة اسبانية لها علاقة أعمال مع الأخوين ، ابني عبد الكريم .

غالبا ما ينسب دور حاسم فيما سيتلاحق من أمور إلى المصالح المركنتيلية ، وهذا بدون تقديم أي دليل . الحقيقة أن الريف في العصر كان يعتبر بمثابة بيرو جديد . من ثم الأهمية التي علقها عليه إما المجموعات المالية وإما الخواص الذين كانوا يرغبون في الحصول فيه مقدما على امتياز الاستغلال عندما سيتم اخضاع البلاد . وإنها لحقيقة كذلك أن محمداً بن عبد الكريم قام طوال كل السنوات التي قضاها بمليلية وحتى فيما بعد بدور سمسار في هذا النوع من الصفقات . كانت المعاملات تستهدف المناطق المعدنية أو الأراضي الزراعية دون أن ندري بالضبط كيف كانت تتم (96) . الوثيقة الوحيدة التي قد تنير سبيلنا يرجع تاريخها إلى الفترة التي تجمعت فيها ثانية عائلة القاضي عبد الكريم بأجدير . وكان محمد الابن الأصغر ، هو الذي عرض هناك على مراسل من اسبانيا بقعة أرض للبيع في نواحي النكور ، كما اقترح عليه تأسيس شركة تستورد مباشرة إلى الريف جميع المواد التي كان بنحييم وايبنكوس (Ibancos) ، التاجران الاسبانيان بالقاعدة الجزرية ، يتوليان وحدهما آنذاك تصريفها فيه (97) .

كل هذا صحيح تماما . لكن هل هذا يدل على أن المثل الأعلى الذي سيتباهى به السي محند ذات يوم كان مجرد خدعة ، وأن السبب الحقيقي لحربه ضد اسبانيا إنما هو مسألة مصلحة مادية ؟ ينبغي من أجل تصديقه ألا نفرق بين الفترات ولا بين الحالات . عندما كان السي محند يقوم بهذا النوع من النشاط كفرد من أيها الناس ، فإنه لم يكن يتصور الدور الذي يهيئه له القدر . كان يكسب رزقه كأي فرد آخر . أما أن ندعي بأنه كان عليه ولو آنذاك القيام به (النشاط) كوطني ، فإننا نتناسى أن الوطنية في مغرب ذلك العصر كانت ما تزال تتلمس طريقها ، و أن الحرب ، بالنسبة لمحمد ، هي بالذات التي ستوطدها حالما تندلع . إلى ذلك الحين فإنه لم يكن يرى لبلاده ، كما سبق أن أوضحنا بأدق التفاصيل ، أي تنظيم سياسي إلا بدعم من الخارج ، وأي تقدم مادي إلا بتوظيف رأس المال الأجنبي . التوضيح الوحيد الذي ينبغي إضافته هو أنه لم يتفاوض إلا مع الشركات الاسبانية (98) .

وهي حقيقة ذات دلالة . فإذا اختار اسبانيا كوصية سياسية ، فإنها هي التي أناط بها وحدها دور الشريك المالي . المهم هنا أن نلاحظ أنه كان يواصل تعامله مع هذا الشريك فيما كانت الحرب على شفا الاندلاع . وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على أنه لم يكن حتى هذا الوقت يتصور المستقبل بدون الحضور الاسباني في الريف ، وأن استعداداته الهائلة لم تتخذ إلا على أساس الحصول على تسوية آخر لحظة تكون في صالحه . بالنسبة إلينا ليس هذا سوى تزكية لموقف معروف .

لكن كيف لم يدرك ذلك برنكر وسلفستري ؟ لعل هذا هو أصل الخطأ الذي وقع فيه الأول عندما صرح بأنه لا يلمس في حوادث أجدير " عداء قويا إلى أقصى الحدود " [99] .

في ليلة 6 أبريل نزل خفية بأجدير مبعوث يدعى كوت (Got) موفدا من قبل اشفاربيتا (Echevarricta) أحد كبار رجال الأعمال ببلباو المهتم بباطن الأرض الريفي والذي لن يفتأ حتى النهاية يقوم ببعض الادوار في الأحداث بحكم التقدير الذي يربطه بالسي محند . وقد جاء المبعوث خصيصا لملاقاة هذا الأخير . لكن سخرية القدر شاءت أن يكون السي محند مقيدا بحضوره في الاجتماع المخصص بالذات لمحاكمة الأعيان المتهمين باستقبال برنكر . لذا فقد مثله أخوه الأصغر محمد وعمه عبد السلام .

المقابلة التي دامت حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، كرست في البداية للقضايا المعدنية . ثم تطرق محمد للمشكل السياسي . أعرب عن كامل أسف أسرته لتخليها عن خدمة اسبانيا التي تكن (الأسرة) لها حبا جما ، مبررا هذا التخلي بتأويل جديد للظروف التي قادت إليه . بعد ذلك ذكر بالشكاوي المعروفة ضد السياسة التي كانت القبائل المحتلة تعاني منها تحت سلطة صغار الضباط ، بينما كان من المفروض أن تخضع لادارة مغربية بمقتضى روح الحماية . ثم أضاف بأن أخاه وهو نفسه مستعدان كل الاستعداد للتفاوض مع الجنرال سلفستري - الذي لهما فيه كامل الثقة - حول شروط انضمامهما لاسبانيا وولائهما لشخص الخليفة . بالطبع ينبغي أن تجري المفاوضات في سرية تامة بالنظر إلى المخاطر الكبيرة التي قد تنجم عن ذلك إذا ما علمت القبيلة بالقضية قبل حسمها . ذلك هو الاقتراح الذي كان كوت مخولا بنقله إلى الدوائر العليا [100] .

أنجز كوت المهمة منذ 9 أبريل في تقرير موجه إلى مورالس (Morales) الرئيس الجديد للمكتب المركزي . في 17 أبريل أجاب هذا الأخير بأن سلفستري موافق لكن شريطة أن يقدم محمد بن عبد الكريم مساعدته بشكل ملموس للزحف الاسباني حتى في قبيلته . وقد حبذ برنكر الجواب بعد إخباره . إلا أنه وجه هذا التحذير : حتى ولو تمكن اليوم صاحب الملتمس من التكفير بواسطة الأفعال عن أخطائه الماضية ، فإنه ينبغي الحرص كثيرا على أن نجعل منه شخصا لا غنى عنه بين اسبانيا والقبائل [101] . وهكذا وبعد أن مرت الشهور بدأ الجانب الاسباني يرى الأمور على حقيقتها في الصراع الجاري . إلا أنه كان على يقين من توفره على جميع حظوظ النجاح .

هذا اليقين سيزكيه على أية حال سلوك السي محند . فحرصا منه على عدم تسرب الأخبار ، كان هذا الأخير قد صرح بأنه لا يريد وسيطا آخر عدا كوت . لكن بعد عودة كوت ، غير اللجوء إلى القوة في 13 أبريل كثيرا من معطيات الوضع . فإن حظر العلاقات الذي تعين على السي محند نفسه فرضه بين اليابسة والحصن المعادي ، قطع على المبعوث طريق العودة ، بينما كان قرب حدوث الانفجار يجعل بالمقابل مواصلة الحوار المنطلق أكثر إلحاحا . فهل لهذا السبب كان الحصار المشدد في النهار يتراخى في الليل ؟ لا يمكننا تقرير ذلك . لكن الحقيقة أن حركة من الذهاب والاياب قدر لها أن ترى النور "دون أن يتعرض الحصن (يقول سلفستري) لأدنى مبادرة عدائية ودون أن يرى (الجانب الريفي) داعيا لاعتراض سبيل من يريد التوجه إليه في الليل " (102) .

لكن بما أن شهرا مر دون أن يعود كرت ، فقد تعين تدارك الموقف ، ووجد السي محند نفسه حينئذ في موقف اضطراري مذل إلى معاودة اقتراحه عن طريق مبعوث سري من حاشيته الخاصة . وقع اختياره على أحد أصهاره ، محمد أزرقان ، المتفاني في خدمته والذي كان في نظر الاسبان مع ذلك عديم الاعتبار . ففي مليلية التي عاش فيها بعض الوقت كان يُخلع عليه لقب تهكمي وهو بخاريتو Pajarito (العصفور الدوري الصغير) .

ترك لنا محمد أزرقان فيما بعد رواية عن المهمة التي أنجزها وقتذاك والتي كانت بالنسبة إليه في الواقع بداية كرجل دبلوماسي . لقد قال للاسبان بأن الريفيين يريدون معرفة نواياهم ويطلبون منهم أن يوقفوا زحفهم نهائيا في انتظار التحاور والتوصل إلى اتفاق (103) .

بعبارات واضحة ، كانت الغاية هي اقتراح خضوع مشروط . على أننا إذ نأخذ بعين الاعتبار هذا الاعتراف الضمني ، لا يسعنا فيما عداه إلا رفض شهادة ندرك أن صاحبها ، وقد خانته ذاكرته سلفا ، لم يكن بإمكانه أيضا أن يبوح لنا بالحقيقة . إذ كيف يعترف بأنه كان مفوضا من قبل السي محند في غفلة عن الريفيين ، وأنه توجه باسم مفوضه ليقترح في الواقع انضماما بدون شروط ؟ على العكس نجد الوثائق الاسبانية المحررة في الطراوة تخلو فيما يخصها من مثل هذا الغموض وهذه الاحتياطات . فيما يلي إذن حرفا حرفا رسالة 7 ماي التي تروي فيها سلطات مليلية الواقعة :

" إن الحسيمي محمد أزرقان ، الملقب عادة بباخاريتو ، قد قدم إلى هذا الحصن

يوم الخميس 5 موفدا من قبل السي محند بن عبد الكريم ، ليقدم باسم هذا الأخير طلبا بالعفو عن سلوكه الماضي ، واقتراحا بالعودة إلى العمل بإخلاص لفائدة اسبانيا .

بعد أن بين له باسهاب مدى خطئه الذي لا يوجد ما يبرره ، منح له العفو شريطة أن تكون خدماته القادمة فعالة ومخلصة بقدر ما كان خطأه كبيرا .

حينـئذ قدم باخاريتو اقتراحا يقضي بأن يقوم السي محند ، وقد علم بنيله العفو ، بكتابة رسالة تؤكد الطلب الذي نقله شفويا مقترحا خدماته اللامشروطة . كما أنه استفسر عن السلوك الذي تريد الحكومة أن يختاره السي محند ، علما بأن هذا الأخير قبل التخلي عن "الحركة" . كان الجواب أن عليه بالعكس عدم مغادرتها لأنه بهذا سيقدم خدمته على الوجه المطلوب لاجهاضها بلباقة . وستبت الحكومة في إخلاص وفعالية عمله تبعا للنتائج " (104) .

بعد أن أعلن هو نفسه عن موافقته ، أبحر في اتجاه النكور ثم أجدير واعدا بتقديم رواية أمينة للسي محند .

ما كاد يصل حتى وجدنا كوت ، المبعوث المنتظر ، ينبه إلى حضوره في القاعدة الجزرية . ومع أن الجواب الذي يحمله هذا الأخير كان قد وصل ، فإن مقابلة مهدت له في الحين ليلة 16 ماي . في هذه المرة كان السي محند هو الذي حرص على استقباله شخصيا والكشف له عن مكنون صدره .

يقول سلفستري الذي نقل إلى برنكر نتيجة المقابلة بعد زمن يسير :

"كان إذ ذاك جد صريح . لقد قال لكوت (Got) إنه يعتزم تشكيل قوة بوليسية من 500 إلى 1000 رجل من أجل فرض الهدوء والنظام في القبيلة ، وانه سيتفاوض مع اسبانيا ساعة تمكنه من ذلك " (105) .

كان من المتوقع فيما يظهر أن يؤدي استئناف الاتصالات بكوت إلى استغناء السي محند عن مواصلة المساعي التي بذلها أزرقان ، بيد أن شيئا من هذا لم يحدث . إذ أن هذا الأخير أبحر ثانية حاملا رسالتين للعقيد مورالس الذي أجري معه مباحثاته بمليلية . وقد حررت الرسالتان - دون أن ندري لماذا - لا من طرف السي محند ، وإنما من طرف محمد (بالفتح) الذي كان فيهما الناطق الرسمي باسمه . هل يتعلق الأمر بتدبير احتياطي ؟ ذلك ما قد يكون ضربا من الوهم . وهل يتعلق بمجرد سلاسة النص باعتبار أنه حرر بالاسبانية ؟ بيد أن السي محند لم يكن يسئ كتابتها ، أو هل هي

مسألة بروتوكول بالنظر إلى أن المقصود هو أن يظهر السي محند مدى تحفظه من التحاور فقط مع سلفستري ؟ انه سبب محتمل . مهما يكن من أمر فقد اكتفى محمد (بالفتح) ، في رسالة أولى مؤرخة في 18 ماي ، وبالنظر إلى الجواب الذي حمله أزرقان ، بالإشارة إلى أن له ولأخيه عظيم الأمل في التوصل إلى اتفاق لا شراك المصالح الريفية والاسبانية ، في مشروع واحد " يكون علينا نحن أيضا (كما يقول) أن نقوم فيه بدورنا " (106) . ثم فكر فيما بعد في كتابة كلمة اضافية . وذلك ليطلب من مورالس مفتاح رموز يمكن التراسل بواسطته مما يغني عن الوسيط بالنسبة للعلاقات القادمة .

ثمة في هذه الحركة الجارية في آن واحد في اتجاهين مختلفين تشابك لم يكن يساعد عل توضيح المواقف الغامضة سلفا . في البداية ، علم الاسبان عن طريق كوت أن السي محند مستعد للتفاوض في شروط انضمامه . فإذا بأزرقان يصرح لهم فجأة بأمر من السي محند بأن هذا الأخير ، الذي لم يطلب سوى العفو ، يوافق مقدما على أي شرط كان . ثم بعد أن ظهر أزرقان ثانية ، سلم رسالتين لا تنكران كلماته بالأمس بشكل صريح ، لكنهما تتجاهلانها ، في حين لم تعد المفاوضة تبدو فيهما محبذة ، وإنما قدمت وكأنها مقبولة من كلا الطرفين . والحال أنه علم في أثناء ذلك عن طريق كوت أن السي محند لم يكن يعتزم الظهور أمام الاسبان كمجرد ملتمس ، اذ كان له هو نفسه ما يقترحه . وقد ألمح إلى أنه يريد مكافأة .

أين هي إذن الحقيقة ؟ وقبل كل شئ ما هو بالضبط الهدف الذي كان ينشده السي محند ؟ لقد طرح سلفستري هذا السؤال على نفسه وتردد فيه بين افتراضين كما يتضح من قوله :

" من الممكن أيضا أن يكون ذلك مجرد حيلة ليتمكن من تأمين نفسه في حالة الفشل - وهذا في نظري هو السبب الأرجح- أو يكون وليد الشعور بأن إسبانيا ستصل حتما إلى بني ورياغل مما جعله يرغب في التصالح قبل كل شئ بتقديم خدمة يمكن أن تكون أكثرتأثيرا من ارتداده . ليس لدي لحد الآن دليل قاطع ، وإنني أنتظر أن تدلني الأحداث على الرأي الذي يتعين الانحياز إليه " (107) .

بإمكاننا نحن الذين تتبعنا جميع السوابق أن نجازف بالقول بدون تردد ان الافتراضين معا لا يصيبان كبد الحقيقة ، وان كلمات السي محند إلى كوت كانت بالفعل جدية ، وان خطته لم يطرأ عليها تغيير . لقد أنجز الشطر الأول من هذه الخطة بعدما صار ذلك الزعيم الذي يتعين على اسبانيا التفاوض معه ، ولم يبق عليه سوى أن يقتنع

إسبانيا بفكرة التفاهم معه . من ثم محاولاته التقاربية التي كان يلمح إليها بطريقة أو بأخرى والتي كانت أحيانا واعدة جدا ، ولكنها بحكم تكررها كرست المفاوضة في الوقائع .

من الحق أنه يمكن مقاربة الأمور من زاوية أخرى ، فنفترض أن السي محند بعد أن اختار مقدما تفجير الصراع المسلح رأى من الضروري تضليل العدو حول درجة صدق نواياه . لكن لماذا فضل في هذه الحالة اجراء الاتصالات من تلقاء نفسه وفي غفلة عن رفقائه في الكفاح ؟ قد يقال بأن هذه السرية إنما هي صورية ومصطنعة في حقيقة الأمر . في هذه الحالة يبقى أن نفسر موقف أزرقان عندما أثار القضية فيما بعد . سبق أن رأينا أنه موه الحقيقة لما قدم لنا روايته عن مهمته الأولى . وهو ما فعله أيضا في رواية ثانية ، تلك التي تكون انتهت - حسب مزاعمه - بالقطيعة المأساوية . إذ يخبرنا بأن سلفستري نفسه صرخ في وجهه بهذه الكلمات : " ليس لدينا ما نناقشه معا ما دام جنودي لم يصلوا بعد إلى رأس شعيب في تمسمان ورأس العبيد في بقيوة" . كان ذلك ، كما يقول إعلانا حقيقيا عن الحرب (108) .

تناول الكتاب الاسبان بتنافس هذا الفصل المسرحي وأدخلوه في إطار التاريخ مع أنه لا مكان له فيه بتاتا (109) . إن الحقيقة لمختلفة عن ذلك كل الاختلاف . لقد عاد أزرقان حاملا رسالتين إلى العقيد مورالس ، وهذا الأخير هو الذي تلاقى به وليس سلفستري . كما أنه اكتفى بتسليمه لا غير الرسالتين اللتين طلب فيهما محمد(بالفتح) باسم السي محند مفتاح رموز يتم التراسل بواسطته . وهذا يدل على أن السي محند كان يرغب في فتح باب الحوار الذي لم يتم حتى ذلك الحين سوى وضع صيغته الأولية . وحيث ان موراليس لم يكن مؤهلا لحسم المسألة من تلقاء نفسه ، فقد أحالها إلى سلفستري . والحال أن هذا الأخير كان يرغب بالذات في الحصول عل مزيد من المعلومات ليقف بوضوح على حقيقة لعبة السي محند (110) . كما كان مزودا بتعليمات برنكر الصريحة أو بالأحرى بموافقته على استئناف التعاون مع الأخوين ، ولدى عبد الكريم (111) . لذا لم يكن بوسعه سوى الموافقة على الطلب الذي نقله إليه مورالس وهو ما قام به بالفعل (112) . بحيث إنه عندما أبحر أزرقان في 30 ماي صوب النكور وأجدير وهو مزود بموافقته ، لم يكن يوجد بتاتا ما يدل على القطيعة . بل وكان الطرفان معاً قاب قوسين أو أدنى من وضع الترتيبات المتعلقة بآليات المفاوضة التي كان من المفروض أن تقود إلى التفاهم .

وهكذا وبعد أن وجد السي محند نفسه في مفترق الطريقين وأرغم على الاختيار بين السلم أو الحرب ، وجدناه يأمل في كسب السلم بتحضير الحرب . لا بل هي الحرب التي انغمر منذئذ في دوامتها وبدون رجعة .

الهوامش

1) عندما نتكلم عن الحسيمة ، فإن الأمر يتعلق إما بالخليج الذي يحمل هذا الاسم وإما بقاعدة النكور الاسبانية الواقعة في قاع الخليج والتي كانت تعرف بنفس الاسم من طرف الاسبان . أما بالنسبة لمدينة الحسيمة الحالية ، وكذا الأمر بالنسبة لمينائها ، فعلينا أن ننتبه إلى أنها لم تكن توجد في ذلك العصر ، إذ لم تؤسس إلا بعد الاحتلال الاسباني .

2) انظر ما تقدم في ص139

3) انظر ما تقدم في ص140 وما يليها

4) General BERENGUER : Campañas en el Rif. . ; op. cit., pp 1-2

5) أعطى سلفستري تعليماته لتنفيذ هذه الخطة في 5 مارس . جاء في هذه التعليمات : " ان الهدف الذي نسعى إليه بكل مجهوداتنا هو منطقة تافرسيت " . رسالة برنكر إلى سلفستري ، بتاريخ 8 بتاريخ 1920 :

S. H . M , Ponencia de Africa, Documentos personales del General Silvestre, et General BERENGUER, op. cit., p. I.

6) برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليلية : S . H . ,Mel. 256 , 2 وثيقة غير مفهرسة .

7) انظر ما تقدم ، ص. 253

8) تقرير من سلفستري إلى برنكر ، بتاريخ 24 غشت 1920 : S . H . M ., Mel, III, I, 96 - 100

9) مذكرة حول الحالة السياسية في قطاع مليلية : S . H . M ., Cuartel General, 1920 , dossier 28.

10) شهادة الشيخ افلاح الذي كان خلال الحرب أحد قادة الجيش الريفي النظامي ، وهي شهادة سجلها المؤلف بنفسه بتاريخ 23 ماي 1972 .

11) التقرير الشهري الموجه من سلفستري إلى برنكر، بتاريخ يونيو 1920 .

12) أمر من سلفستري الحاكم العام بمليلية إلى العقيد مورالس ، رئيس المكتب المركزي ، بتاريخ 7 يوليوز 1920 :

(S . H . M ., Mel., II. 205)

13) مذكرة الفرع الثالث من المكتب المركزي ، بتاريخ 12 غشت 1920 . وقد أشير فيها إلى أن قوارب قبيلة بقيوة تقتني من سبتة ، حيث تتجه لبيع بيضها ، بندقية أو بندقيتين بالإضافة إلى الذخائر وأحيانا المفرقعات التي من المحتمل أن يكون مصدرها من أشغال الميناء : S . H . M ., Mel., 256, 2

14) رسالة الجنرال سلفستري إلى المقيم العام برنكر .

S . H. M ., Ponencia de Africa, Docunentos personales del General Silvestre .

15) التقرير الشهري الموجه من سلفستري إلى برنكر ، ماي 1920 .

16) رسالة 14 ماي المشار إليها في الهامش 14 ، والتقرير الشهري المشار إليه في الهامش 15 .

17) في الشهادة التي سيدلي بها فيما بعد أمام اللجنة البرلمانية المسماة ب" لجنة المسؤوليات " ، سيذكر برنكر في جملة أسباب البؤس العام السائد في الريف " انخفاض العملة الفرنسية ، تلك العملة التي كان يملكها بالخصوص مغاربة هذه المنطقة والتي كانت لا قيمة لها تقريبا " . أدلى بهذه الشهادة بتاريخ 7 غشت 1923 :

De Annual a la República : Documentos relacionados con la infomación instruida por la Hamada Comisión de Responsabilidades acerca del desastre de Anual, Madrid 1936, p. 330.

18) بمقتضى ظهير 19 مارس 1920 "حول الاصلاح النقدي" :

P. Louis RIVIERE : Précis de législation marocaine, Paris 1927, p. 152.

19) S . H . M., Cuartel Général, 1920, dossier 28.

20) لا نتوفر على تاريخ ذهابه بالضبط . لكننا نعرف بالمقابل أنه عاد إلى أجدير مريضا في 10 يوليوز. وحسب " مذكرة لارينون" ، مصدر سبق ذكره ، نعرف أن ثلاثة أسابيع انقضت بين الحادثتين (مذكرة لارينون : نهاية حيادنا وتطوع والدنا بجانب الريفيين).

21) بعد وصوله إلى عبادة 24 يونيو ، كان بإمكان سلفستري أن يمضي قدما حتى إلى تافرسيت التي كانت في متناول يده وبدون دفاع . إلا أنه رأى من الواجب الاحجام عن ذلك لعدم حصوله سبقا على موافقة القائد العام برنكر . رسالة برنكر إلى سلفستري بتاريخ 1920 وجواب سلفستري بتاريخ 17 يوليوز .

S . H M ., Ponencia de Africa, Doc. personales del General Silvestre .

لم تبدأ " حركة" تافرسيت في التجمع إلا في اليوم التالي ، وهو يوم 25 يونيو : تقرير سلفستري إلى برنكر ، بتاريخ 8 يوليوز 1920 :

S . H . M ., Mel., II, 1 - 62 - 63.

22) المصدر نفسه .

23) المصدر نفسه ، وكذلك سلفستري إلى برنكر ، 24 غشت 1920 :S . H . M ., Mel., III, I- 96 à 106

24) نفس المصدرين المذكورين في الهامش 23 .

25) أورد هذه الرواية عميلان سريان هما الطاهر ومحمد بن الحاج الطاهر محند المنتميان إلى قبيلة بو يفرور بتاريخ 8 يوليوز 1920 .

26) رسالة محمد بن عبد الكريم (الابن الأصغر) إلى مانويل اكيري . (Manuel Aguirre)

بتاريخ 15 غشت 1920 S . H . M., II, 15 - 31 `a 35.

27) "مذكرة لارينون" ، مصدر سبق ذكره ، نفس المصدر المذكور في الهامش 20 .

28) برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليلية ، بتاريخ يوليوز 1920 :

S . H . M ., Mel., II, 2 , pièce non cotée

29) برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليلية بتاريخ 23 يوليوز 1920 . نفس المصدر المذكور في الهامش 28 .

30) تقرير سلفستري إلى برنكر بتاريخ 2 غشت 1920 . المذكور في الهامش 23 .

31) اعتمادا على ذاكرته ، سيعتقد ولده محمد فيما بعد ، في " مذكرة لارينون" ، أن الوفاة حدثت بعد 22 يوما من العودة إلى أجدير، وهذا ما يرجع تاريخ الوفاة إلى 11 غشت 1920 . إلا أن "تلغرامة الريف " في عددها الصادر في 11 غشت 1920 ، أعلنت عن وفاة القاضي عبد الكريم مؤرخة إياها في 8 غشت . ثم سنجد سلفستري يخبر برنكر بالنبأ ، بالاستناد إلى المعلومات الصادرة عن الحسيمة ، مؤرخا إياه في 7 غشت مساء :

تقرير سلفستري إلى برنكر، غشت 1920 : S . H . M ., Cuartel General, 1920 , dossier 28

32) يذكر أزرقان حتى اسم الشخص الذي كلفه الاسبان بتنفيذ الجريمة التي حبكوها ، وهو القايد عبد السلام.

33) نتذكر أن الفكرة كانت قد تبلورت بضعة سنوات من قبل على صعيد قاعدة الحسيمة لتصفية اما الأب عبد الكريم وإما الابن محند (انظر ما مر بنا في ص 243) . ومع أن الأمر كان يتعلق بمجرد مشروع ، فإنه أثار ردود فعل قوي ، وعلى مستوى عال ، من لدن الاسبان ، وترك بصمات على الوثائق . غير أن شيئا من هذا القبيل لم يحدث بعد وفاة القاضي . فإن عودته ومرضه لم يتم الاعلان عنهما تباعا إلا في 21 ثم 23 يوليوز وكأنهما من الأمور العادية . وعندما أعلن سلفستري بعد ذلك عن خبر وفاته ، في سياق أحد تقاريره، فإنه أخبر برنكر بأن الوفاة حصلت في « ٩ (غشت) مساء سبب متاعب رحلته إلى تافرسيت " ، (تقرير سبق ذكره في الهامش 30) والمثير للانتباه أن ولده محند لم يذكر في "مذكرة لارينون" حتى فرضية عملية التسميم الاجرامية .

34) "تلغرامة الريف " ، عدد 11 غشت 1920 .

35) نشرت هذه الرسالة في "التلغرامة" كما لو كانت محررة في 15 شتنبر 1920 . وهو خطأ واضح ، حيث إنها توجد في عدد 22 غشت . فبدلا من هذا التاريخ ينبغي إذن أن نقرأ : 15 غشت . هذا وقد أعيد نشر الرسالة بتاريخها الخاطئ وبحذف جملة هامة من طرف :

F . Hernández Mir : Del desastre a la victoria (1921 - 1926) Madrid , 1926 , `1re partie , p. 18 .

36) التقرير الشهري الموجه من سلفستري إلى برنكر ، يونيو 1920 :

S . H . M ., Cuartel General, 1920, dossier 28

37) رسالة سلفستري إلى برنكر ، 10 نونبر 1921 :

1 à 35 ـS . H . M., Mel., II, 15 - 26 et 3

38) رسالة سلفستري إلى برنكر ، 29 ماي 1921 . نشرت هذه الرسالة من طرف فسكندي دي إيثا (Le Visconde de Eza) الذي كان في التاريخ المذكور وزيرا للحربية ، وذلك في كتابه الذي نشره بعد سنتين تحت عنوان .

Mis responsabilidades en el desastre de Mellilla como ministro de la guerra, Madrid, Gráficas Reunidas, 1923 - pp. 415 - 419 .

يمكننا أن نطمئن بخصوص أصالة هذه الوثيقة نظرا لأن ناشرها ايثا (Eza) شخصية موثوق بها ، وقد كانت تحال عليه بانتظام جميع مراسلات سلفستري : هذا بالإضافة إلى ضمانة برنكر الذي وجهت إليه في الأصل ، والذي قام بالفعل بتحليلها وتقديم مقتطعات منها في كتابة السابق الذكر :

Campañas en el Rif ...

39) التقرير الشهري ، غشت 1920 ، الموجه من سلفستري إلى برنكر ، مصدر سبق ذكره في الهامشين 31 ، 33.

40) المصدر نفسه . وكذلك التقرير الشهري ، شتنبر 1920 ، الموجه من سلفستري إلى برنكر .Cuartel Gener-, S . H . M. al, 1920 , dossier 28.

41) التقرير الشهري ، الموجه من سلفستري إلى برنكر ، يوليوز 1920 :

S . H . M ., Mel., Cuartel General, 1920, dossier 28, et rapport d'août cité supra, n. 39.

42) التقرير الشهري ، من سلفستري إلى برنكر ، 11 اكتوبر 1920 .

S. H . M ., Mel., III, I - II.

43) المصدر نفسه ، وكذلك برقيتان موجهتان من الحسيمة (النكور) إلى مليلية ، بتاريخ 17 و 19 اكتوبر 1920 : ,.S . H . M. Mel ., 256, 2 - 10 et II

أخيرا ، التقرير الشهري من سلفستري إلى برنكر ، اكتوبر 1920 .

Cuartel General, dossier 28.

44) تقرير اكتوبر 1920 ، المذكور في الهامش السابق .

45) تقرير 11 اكتوبر المذكور في الهامش 41 .

46) التقرير الشهري الموجه من سلفستري إلى برنكر في يوليوز 1920 :

S . H . M., Cuartel General, 1920, dossier 28 .

47) انظر ما تقدم في ص 139 - 140 .

48) التقرير الشهري الموجه من سلفستري إلى برنكر بتاريخ نونبر 1920 :

S . H . M., Cuartel General, 1920, dossier 28 .

49) برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليلية ، نونبر 1920 : S. H. M., Mel., 158.

50) General BERENGUER : Campañas en el Rif ..., op. cit. pp. 5 et 6 .

51) تقرير سلفستري إلى برنكر ، 26 يناير 1920 : S . H . M., III, I - 121 à 123.

52) General BERENGUER, Op. cit., p. 9

53) لم يورد برنكر سوى مقاطع من هذه الرسالة في كتابه السابق الذكر (ص 10 و 11) . وهو يؤرخها خطأ في 10 يناير . أما النص الأصلي الذي عثرنا عليه ضمن وثائق سلفستري الخاصة فيحمل تاريخ 21 :

(S . H . M., Ponencia de Africa . Documentos personales del General Silvestre)

وفي الشهادة التي سيدلي بها فيما بعد أمام " لجنة المسؤليات" ، سيبين في غشت 1923 كيف قام برد الفعل تلقائيا أمام الحالة الجديدة . فإنه كما يقول وضع نصب عينيه عند وصوله إلى المغرب غزو المنطقة الغربية التي كانت تبدو له هي الأكثر أهمية لأنها هي التي كانت مدعوة لتكون لها علاقات دولية في إفريقيا . لكن ، تجاه الحالة الجديدة الناجمة عن الانتصار الكبير الذي حققه سلفستري ، رأى من الممكن القيام بزحف "سلمي" نحو الحسيمة ، ذلك الزحف الذي لم يكن ليعرقل عملياته الخاصة ضد الريسوني :

De Anual a la República : Documentos ..., op. cit., pp. 328 - 330 .

54) رسالة 21 يناير 1921 المذكورة في الهامش 53 .

55) تقرير سلفستري إلى برنكر ، دجنبر 1920 . S. H . M., Cuartel General, 1920 , dossier 28

56) المصدر نفسه .

57) تقرير أعده موراليس (Morales) رئيس المكتب المركزي " لفائدة سلفستري في 16 فبراير 1912 ، أورد هذه الوثيقة بنصها الكامل دي إزا (De EZA) في كتابه :

Mis responsabilidades ..., op. cit. pp. 313 - 314 .

وقد قام برنكر بتحليلها مع ذكر مقتطفات منها في كتابه : Campañas en el Rif ..., p. 15.

هذا ونجد الفكرة المهيمنة في هذا التقرير في رسالة وجهها سلفستري إلى برنكر بعد بضعة أيام . فبعد أن أورد حديثا لأحد " أصدقاء اسبانيا" الذي نصحه بوجوب انزال القوات الاسبانية في جون الحسيمة ، كتب يقول : "أضاف الرجل ، وهذا ما أعرفه بنفسي ، أن الفرصة مواتية للزحف إلى الحسيمة بسبب البؤس السائد في كل جهة ، وأنه لن يكون من المناسب ولا من السهولة الزحف بعد الحصاد " . رسالة 28 أبريل 1921 :

S . H . M ., Ponencia de Africa, Documentos personales del General Silvestre, dossier I.

إن هذه الفكرة المتمثلة في الفرصة الواجب اغتنامها قبل أن يضع الحصاد حدا للمجاعة ، قد مارست تأثيرها سواء على سلفستري أو برنكر .

58) رسالة برنكر ، 27 مارس 1921 ، إلى وزير الحربية بمدريد ، أوردها :

Mis responsabilidades ..., pp. 42 - 43

وقد حللها برنكر مع ذكر مقاطع منها في كتابه :

Campañas en el Rif ..., pp. 15 - 16.

59) تقرير شهري لدجمبر 1920 المذكور في الهامش 55

60) "نعتقد أنه علينا إثارة الانتباه مرة أخرى ... إلى الموقف الغريب للسي محند عبد الكريم الذي يؤكد البعض أنه يقول بلسانه إن بني ورياغل يفضلون الموت على الاستسلام لاحتلالنا" : المصدر نفسه .

61) في تقرير إلى برنكر بتاريخ 26 يناير 1921 : (S . H . M., Mel . III, I - 121 à 123)

يشير سلفستري إلى أن بني ورياغل يحاولون الاقامة في ترويكوت . وفي 9 فبراير ، تشير رواية من الحسيمة (النكور) إلى حضورهم

القطي : (S . H . M., Mel., II, 2 - 198)

62) يوجد هذا المركز الأمامي في أزدرو ايدرار جنوب شرق القامة : تقرير سلفستري إلى برنكر .

63) رواية من الحسيمة (النكور) بتاريخ 9 فبراير 1921) ، وقد سبق ذكرها في الهامش 61 .

64) رواية من الحسيمة (النكور) بتاريخ 25 ابريل 1921 : S . H . M,. Mel., II, 2 - 38 à 40.

65) المصدر نفسه .

66) ازرقان ، مصدر سبق ذكره ، ص 32 - 33 من المخطوط .

67) رواية 25 ابريل المذكورة في الهامش 64.

68) رواية 9 فبراير 1921 المذكورة في الهامشين 61 و 63 .

69) رواية 25 ابريل المذكورة في الهامشين 64 و 67 .

70) تشير مذكرة من "المكتب المركزي" بمليلية بتاريخ فبراير 1921 (S . H . M ., Mel., II, 2 - 36)

إلى أن السي محند لم يبق في حسابه في بنك اسبانيا سوى 8400 دورو من رصيده البالغ 100000 دورو وإلى أن المبالغ المسحوبة استعملت من طرفه في حاجيات " الحركة" .

71) رواية من الحسيمة (النكور) بتاريخ 20 ابريل 1921 : ; S . H . M ., Mel., II, 2 - 202

72) برقية من العقيد دافيلا (Davila) عند إدلائه بشهادته امام "لجنة المسؤوليات" ، بتاريخ 16 غشت 1923 :

De Anual a la República : Documentos relacionados .., p. 402.

73) برقية من سلفستري إلى برنكر ، 10 ماي 1921 :

S . H . M., Comandancia de Melilla, dossier 278.

74) Campañas en el Rif ..., pp. 22 - 23

75) استطلاع "تلغرامة الريف" 2 ابريل 1921 .

76) رسالة برنكر إلى وزير الدولة وإلى وزارة الحربية ، 17 ابريل 1921 . وكذلك :

De EZA : Op . cit., pp. 259 - 264 ; BERENGUER : Op. cit. p. 23 ;

في هذين المصدرين الأخيرين ، لم يتم سوى تحليل الرسالة مع ذكر بعض مقاطعها .

77) General BERENGUER : Op. cit., p. 21 .

78) أمر عام إلى جنود مليلية ،. 6 ابريل 1921 .

S . H . M., Ponencia de Africa, Documentos personales del General Silvestre .

79) "تلغرامة الريف" ، 7 و 8 ابريل 1921 .

80) التقرير المذكور في الهامش 76 .

81) General BERENGUER : Op. cit., pp. 16 - 17 .

82) ازرقان ، مصدر سبق ذكره ، ص 28 - 29 من المخطوط .

83) برقية من المقيم العام برنكر بباديس ، إلى الجنرال سلفستري بمليلية ، 7 ابريل 1921 .

84) ازرقان ، مصدر سبق ذكره ، ص 28 - 29 من المخطوط .

85) برقية من برنكر إلى سلفستري ، 10 ابريل 1921 :

S . H . M., Comandancia de Melilla, 1921, dossier 278 .

86) برقية من سلفستري إلى برنكر ، 13 ابريل 1921 ، نفس المصدر المذكور في الهامش 85 .

87) أزرقان ، مصدق سبق ذكره ص ، 28 -29 من المخطوط . وكذلك برقية سلفستري إلى برنكر ، 27 ابريل 1921 :

S . H . M Comandancia de Melilla, 1921, dossier 278

88) برقية 27 أبريل المذكورة في الهامش السابق .

89) انظر ما تقدم في ص 323.

90) تقرير برنكر إلى وزير الدولة ، 17 أبريل 1921 ، المذكور في الهامش 85 .

91) رسالة سلفستري إلى برنكر التي تشرح برقية 27 ابريل المذكورة في الهامشين 87 و 88 . تم تحليل هذه الرسالة مع ذكر لبعض مقاطعها من طرف : . BERENGUER : Op . cit., pp. 24 - 25

يذكر برنكر أن تاريخ هذه الرسالة يرجع إلى " نهاية أبريل " دون أن يحدد التاريخ بالضبط .

92) تقرير برنكر إلى وزير الدولة ، 17 أبريل ، المذكور في الهامش 76 .

93) تصريحات مخبر خاص ، بتاريخ 30 ابريل 1921 : (S . H . M., Mel., II, 2 - 23)

وكذلك شهادة أزرقان : مصدر سبق ذكره ، ص 32 - 33 من المخطوط . يظهر من تصريحات أزرقان ، المبنية على الذاكرة ، أنه يرجع تاريخ الواقعة إلى 10 ماي ، على أن رواية 30 أبريل المحفوظ في الأرشيف الاسباني تجعلنا نرجع التاريخ إلى ما قبل نهاية أبريل .

94) رسالة سلفستري إلى برنكر ، 10 فبراير 1921 . . S . H . M ., Mel., II, 15 - 26

95) يحيل برنكر إلى هذه الرسالة في البرقية التي حررها حول الموضوع والموجهة إلى سلفستري بتاريخ 29 أبريل 1921 :

S . H . M., Comandancia de Melilla, 1921 , dossier 278 .

96) عند اعتقال السي محند في شتنبر 1915 ، احتجزت لديه 276 رسالة يقول عنها تقرير التحقيق لا أقل ولا أكثر : " إن جلها يتعلق بشراء الأراضي والمناجم وصفقات أخرى .... ولا يوجد فيها ما من شأنه إدانة المتهم " :

S . H . M., Mel., II , 12 - 32 à 38 .

97) رسالة محمد بن عبد الكريم (الابن الاصغر) إلى خوليو ستواين (Julio Setuaïn)

زوربانو (Zurbano) ، 10 مدريد ، 23 فبراير 1919 :: S . H . M ., II., 8 78

98) نقرأ في برقية من الحسيمة (النكور) أن السي محند توسط بالفعل في شراء أراض لفائدة شركة من بلباو : " إلا أنه بالمقابل لم يتدخل مطلقا في المشتريات التي قام بها الألمان أو الفرنسيون " . والبرقية المذكورة غير مؤرخة ، لكن يظهر أن تاريخها يرجع إلى فترة اجراء التحقيق لما كان السي محند معتقلا :

S . H . M., Mel., II, 2 - 138 .

وما جاء في هذه البرقية يؤكد تقرير قاضي التحقيق المذكور في الهامش 96 ، ذلك التقرير الذي ورد فيه أن كل المراسلات المحتجزة تقريبا كانت تتم مع شريكتين من بلباو .

99) انظر ما جاء في ص 324 .

100) نشر كوت (GOT) بنفسه نص التقرير الذي وجهه عقب هذه الذاكرة إلى العقيد مورالس ، رئيس "المكتب المركزي" بمليلية ، وكذا الأمر فيما يتعلق بجواب هذا الأخير . وحيث ان هذا النشر لم يتم إلا في 3 نوفمبر 1921 (في صحيفة) "EL Sol" أي بعد وفاة مورالس وسلفستري الذين قتلا معا في أنوال ، فإن هناك ما يدعو إلى الشك في قيمة هاتين الوثيقتين . إلا أن البرقية التي وجهها سلفستري إلى برنكر في 27 أبريل 1921 تسمح لنا بالمصادقة على مضمونها . نقرأ في تلك البرقية : " أخبر عبد الكريم عن طريق كوت أنه مستعد للخضوع شريطة أن يتفاوض مباشرة مع القائد العام سلفستري عن طريق كوت . وقد أجيب بأنه وقع الترحيب بتعاونه لكن ينتظر منه القيام بعمل فعلي " : البرقية المذكورة في الهامش 87 .

101) برقية من برنكر إلى سلفستري بتاريخ 29 ابريل 1921 :

S . H . M., Mel. Comandancia de Melilla, 1921 , dossier 278 .

102) من سلفتري إلى برنكر ، 29 ماي 1921 ، المذكورة في الهامش 38 .

103) ازرقان : مصدر سبق ذكره ، ص 31 من المخطوط .

104) برقية من حاكم مليلية إلى المقيم العام برنكر ، 7 ماي 1921 :

S . H . M ., MEL., Comandancia de Melilla, 1921, dossier 278.

في الحقيقة أن هذه البرقية أمليت من طرف الحاكم المساعد ، إذ أن سلفستري كان في هذا التاريخ في إجازة له باسبانيا .

105) رسالة من سلفستري إلى برنكر ، 29 ماي 1921 ، المذكورة في الهامشين 37 و 101 يصف سلفستري المقابلة التي يدلي بتقريره عنها على هذا النحو بأنها المقابلة " الثانية" التي قد تكون جرت بين كوت والسي محند . بالنسبة لكوت ، فقد جرت بالفعل مقابلتان . لكن الشخص الذي تقابل معه في المرة الأولى هو محمد (الابن الأصغر)

وليس السي محند . وحيث إن محمد (الابن الأصغر) كان الناطق باسم أخيه ، فإن سلفستري لم ير فائدة في التمييز بينهما

106) تم إلحاق نسخة من هذه الرسالة الثانية برسالة سلفستري إلى برنكر ، 29 ماي 1921 ، المذكورة في الهامش السابق .

107) رسالة 29 ماي 1921 المذكورة في الهامش السابق .

108) ازرقان : مصدر سبق ذكره ، ص 31 من المخطوط .

109) خاصة رويز البنيث (Ruiz Albeniz) الذي يدعي أن كوت هو الذي سلم سلفستري تحذيرا للسي محند بن عبد الكريم . تبنى هذا الادعاء من جديد هرنندز هرر وكارسيا فيكراس

(HERNANDEZ HERRERA et GARCIA FIGUERAS) .

اللذان يذكران مصدرهما في :

Accion de Espana en Marruecos, op. cit., pp. 313 - 314 .

أما بالنسبة للويس اوتيثة (uis de OTEYZA) فإنه يرى أن التحذير سلم عن طريق كوت وأزرقان :

(in Abdelkrim y los prisioneros, Madrid S. d)

110) انظر ما تقدم في ص 324 : « ليس لدي لحد الآن دليل قاطع ، وإنني في انتظار أن تدلني الوقائع إلى أي جانب سينبغي علي الانحياز إليه » .

111) برقية من برنكر إلى سلفستري ، 29 ابريل 1921 ، المذكورة في الهامش 101 .

112) رسالة سلفستري إلى برنكر ، 29 ماي 1921 ، المذكورة في الهامشين 38 و 102 .

خاتمة

في فجر فاتح يونيو 1921 ، لمح حراس "الحركة" من جبل القامة قوة معادية تستقر قبالتهم على بعد خمسة كيلومترات إلى الشرق ، على مرتفع أوبران ، وهو الشفعة التي لا يفصلهم عنها سوى مجرى جاف لأحد روافد أمقران .

بالفعل ، كانت كتيبة اسبانية مؤلفة من 1500 رجل قد انطلقت ليلا من أنوال . ثم بعد عبورها وادي أمقران صعدت منحدرا خفيفا عبر السفح المحجوب لهذه الشفعة حتى إلى هدفها الذي تراءت فيه مع تباشير الصباح . بعد أن أقامت في الحال سورا من الحجارة ، تعلوه أكياس من الرمل ، وتتقدمها أسلاك شائكة ، تمكنت قبل منتصف النهار من العودة تاركة في عين المكان 250 رجلا ، أغلبها مغاربة ، ولم يكن معهم من الاسبان سوى مؤطري ومستخدمي أربع قطع من المدفعية [1] .

كان سلفستري قد قدم من مليلية لحضور هذه العملية الرائعة ، التي أخذت "الحركة" على حين غر وجعلتها على مرمى من المدافع ، ثم ما لبث أن عاد أدراجه بعد أن زف خبر الانتصار لبرنكر بواسطة التلغراف . لكن عند عودته في المساء إلى مليلية ، وجد في انتظاره خبرا مستعجلا يعلن عن فقدان أوبران [2] .

كيف يفسر إذن الخبر الصاعق ؟

في الواقع أن المحاربين الريفيين أخذوا على عاتقهم مهمة الهجوم في غياب قائدهم السي محند الذي نزل إلى أجدير لينتظر هناك أزرقان سريا . وهكذا فقد توزع عددهم البالغ خمسمائة رجل إلى ثلاث مجموعات ، تمركزت اثنتان منها على المرتفعات ، غرب وشمال أوبران ، لكي تغطي بنيرانها المجموعة الثالثة التي ستشن الهجوم من الشرق . ثم أخذت هذه المجموعات مواقعها دون إثارة الانتباه ، ولم تهاجم إلا بعد الساعة الثالثة مساء حينما انسحبت معظم قوات العدو ولم تترك في مواجهتها سوى المدافعين الذي ظلوا في مواقعهم . بعد أن تعرض هؤلاء للنيران من جهة وللهجوم من جهة أخرى . لم يتمكنوا من كسر الموجة الأخيرة التي تدفقت عليهم رغم استعمالهم القذائف المتفجرة . عند الساعة الخامسة مساء ، كان قد قضي الأمر . فقد تمكن عشرون مدفعيا من الفرار مع خمسين من المرتزقة . أما الباقون – مائة وخمسون رجلا وجميع الضباط – فقد قتلوا أو أصبحوا في عداد المفقودين [3] .

حاول برنكر التقليل من أهمية هذه الواقعة عندما استحضر ذكراها فيما بعد ، ناعتا إياها بكونها مؤسفة ومؤلمة ، كما أنه رآها مجرد حادثة عادية كتلك التي تعرفها كل الحروب الاستعمارية . مضيفا بأنه علينا أن نحذر من اعتبارها ، كما هو الشأن عادة ، مقدمة للانهيار الكبير الذي سبقته بقليل (4) .

إن وجهة النظر هاته غير مقنعة نهائيا . صحيح أنه لم يكن بإمكان أحد أن يتكهن أثناء المعركة بما ستؤول إليه الأمور . لكن إذا تأملنا في سير الأحداث اللاحقة فلا يبقى مجال للشك في وجوب تحديد المنعطف انطلاقا من تلك المعركة.

كانت اسبانيا حتى ذلك الحين هي التي تأخذ المبادرة الى الهجوم . ومع أن سلفستري وبرنكر كانا يشيران هنا وهناك إلى الخسائر التي تنجم عن الاصطدامات ، فإنهما لم يعودا يومنان بوقوعها . أو على الأكثر ، كانا يعتبرانها تضحية طفيفة لقاء ثمن الانتصار الذي بدا في متناول أيديهما . أضف إلى هذا أن اسبانيا أصبحت تبدو في نظر القبائل قوة لا تقهر . هذا ما جعل ، في المؤخرة ، قبيلتي بني سعيد وبني أولشك تنسحبان وتذعنان للغزو . كان نفس السبب يمنع ، في المقدمة ، قبيلتي بني توزين وتمسمان ، وكذلك قبائل أخرى أبعد منهما ، من تقديم دعمها "لحركة" جبل القامة. غير أن هذا الوضع انقلب كله رأسا على عقب بضربة اوبران . فأن تتمكن "الحركة" بمقاتلين معدودين ، من التغلب على المدافع الاسبانية ، فذلك ما اعتبر في كل أنحاء الريف صيحة استيقاظ .

وهو ماتنبه إليه سلفستري الذي كان من قبل جد واثق من نفسه . لاحظ في 4 يونيو :

"إن هزيمة أوبران تعرقل في الوقت الراهن متابعة الخطة المقررة في اتجاه كيلاطيس [على أبواب الحسيمة] . إذ أن قبيلة بني توزين انضمت إلى قبيلة ورياغل ، وهي نتيجة أولى- كنت قد توقعتها - وهذا الامر سيؤدي أكيدا إلى ارتداد أفخاذ تمسمان التي تعتبر بمثابة حليفة لنا ، مع احتمال حدوث انعكاسات وسط بني أولشك . ينبغي أن نضيف إلى ذلك أن الفرصة لم تسنح بعد لاختبار... مقدار الثقة التي يجب أن نضعها في تصريحات قبيلة بني سعيد التي ما فتئت تعبر لنا عن انضمامها " (5) .

أما برنكر ، الذي سارع من تطوان للاطلاع على مستجدات الأحداث ، فقد شاطره رأيه ليستخلص أن "أي تحرك يستهدف عبور وادي أمقران ، في الوقت الذي عبأ العدو جنوده وأصبحت له معنويات مرتفعة ، سيكون ثمنه غاليا" (6) ومن التقرير

الذي وجهه يوم 8 إلى وزارة الدولة ، يستخلص كما صرح بنفسه أنه... تم تأجيل مشروع التقدم في الزحف إلى تمسمان ونحو الحسيمة بشكل نهائي" (7) .

غير أنه ليس بكاف الاعتراف على هذا النحو بكون آثار هزيمة أوبران اقتصرت على إيقاف الهجوم الاسباني . الحقيقة هي أن استراتيجية كلا من المعسكرين المتجابهين كانت آخذة في التغير ، بحيث إن مبادرة الهجوم سرعان ما ستأتي من الطرف الريفي .

ففيما لم يعد سلفستري يهتم سوى بتعزيز مواقعه المكتسبة ، مبديا فجأة قلقه على سلامة وحداته الخلفية ، كانت فورة من الهيجان تعم الريف . فقد توافدت بغتة على المنطقة المستقلة وحدات قدمت حتى من قبائل الصفوف الخلفية حيث ألقى كل من حميدو وأخمليش بكل ثقلهما في المعركة بوصفهما قائدين روحيين (8) . وسرعان ما أصبح عدد أفراد "الحركة" يقدر بحوالي أربعة آلاف (9) . وفي موكب ضخم ، تم تصويب ثلاثة من مدافع غنيمة أوبران باتجاه النكور (10) . أضف إلى هذا أن القبائل التي تقع في جهة متطرفة إلى الجنوبية ، تلك التي كان تقدم سلفستري يهدد باكتساحها ، بعثت برسائلها إلى السي محند محيية إياه فيها بلقب "القائد الأول للمجاهدين الريفيين" جاء في إحداها : "كنا فقدنا الأمل في رؤية رجل يردع الاسبان ، ورغم ذلك فهاهم أبطال الاسلام قد أبانوا عن أنفسهم" (11) .

وتقول أخرى : "انتظروا لكي تقدموا إلينا إلى أن ندخل الحبوب" (12) . هذا وقد أجمعت كل هذه الرسائل على أن القبائل الجنوبية ستكون مع اخوانها الشماليين كلا لا يتجزأ بعد انتهاء الحصاد .

أما في المنطقة المحتلة ، فكانت تعليقات الناس تكاد تصل حد الهذيان . ففي بني سعيد ، التي سبق لها أن رحبت بالغزاة منذ ستة أشهر ، أعرب السكان عن الفرحة الكبرى التي أحدثها فيهم المعركة . وقد لفتوا الانظار إلى أن هذه الناحية تقريبا هي التي مني فيها جيش الزرهوني بالهزيمة منذ ثلاث عشرة سنة خلت قبل أن يرتد على أعقابه في فوضى عارمة إلى قواعد انطلاقه . كما توقعوا أن يلاقي الجيش الاسباني نفس المصير . لذا ، بادروا إلى الكتابة إلى السي محند ، راجين منه أن يكف عن توجيه ضرباته إلى أهالي بني سعيد الذين ضمهم العدو قسرا إلى صفوفهم إذ أنهم ينتظرون أول فرصة لينقلبوا ضده (13) .

إن هذه الموجة العامة من الفوران تجسدت بسرعة كبيرة في الميدان . فمنذ اليوم

التالي من معركتهم الأولى ، ظهر الظافرون في أوبران – أوعلى الأصح فريق منهم – في السهل ، ثم بعد أن تعززوا بعناصر من تمسان ، اتجهوا من تلقاء أنفسهم نحو سيدي ادريس ، أحد مواقع سلفستري المتقدمة على مصب واد أمقران . وبالفطرة ، طبقوا هنالك للمرة الأولى خطة ستصبح القاعدة فيما بعد ، حيث كانوا يناوشون العدو طول النهار ولا يشرعون في الهجوم إلا عند حلول الليل . وقد تمكنوا من الوصول إلى هذا الموقع ثلاث مـرات ؛ وعلى الرغم من نيران مدافع سفينة حربية كانت تقوم بعملياتها من عرض البحر ، فإنهم نجحوا في اقتحام الأسلاك الشائكة ، إلا أنهم توقفوا فجأة عن المعركة في الساعة الثالثة صباحا (14) .

ذلك أن محاربي بني ورياغل ، البعيدين عن ديارهم ، تعجلوا في الرحيل لقضاء الليلة التالية بين ذويهم ، ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان ، المقدسة عند هؤلاء المسلمين الأتقياء (15) . نرى إذن أن عملهم الجنوني لم يسفر عن أية نتيجة . إلا أنه كان مـع ذلك مـؤشـرا عـلى المنحنى المعكوس للوضـع الجديد . فإذا كان الاسبان حتى الأمس القريب هم الذين كانوا يتقدمون داخل الأراضي الريفية للاستيلاء على أوبران ، فإن الريفيين هـم الذين هرعوا الآن لتحديهم داخل مراكزهـم .

تأكد المجرى الجديد عندما تلاقت الحركة ثانية بقائدها . فقد أنزل السي محند جنده من جبل القامة حتى بلغ ضفة واد أمقران ، بسيدي اسماعيل حيث توافدت جموع المجندين (16) . انطلاقا من هناك ، وبعد عبور الوادي ، استقر السي محند في مكان يدعى أمساورو ، على بعد خمسة كيلومترات ، جنوب غرب المعسكر الكبير ، المحصن ، الذي يمثله أنوال ، وهذا بالضبط أمام إغريبن التي تشكل نقطة دفاع هذا المعسكر المتقدم (17) .

في 14 يونيو ، فوجئ الاسبان بجموع لا متناهية من المقاتلين تتقدم صفا بصف نحو قدم ربوة سيدي ابراهيم التي كانوا هـم أيضا يرسلون إليها في أيام معينة حرسا لحماية الفرقة المكلفة بجلب الماء لتموين المدافعين عن إغريبن . عندما تقدم الحرس في اليوم التالي لأخذ مواقعهم ، اعترض الخصم سبيلهم . ورغم ضراوة المعركة والدعم بالامدادات أجبر الحرس على التخلي عن مهمتهم ، ليس فحسب في ذلك اليوم وإنما بصفة نهائية لأن الريفيين الذين ظلوا سادة المكان تحصنوا هم أنفسهم بالمرتفع (18) . من هناك حكموا على إغريبن بالاعتماد على معسكر أنوال في التزود بالماء على غرار اعتمادهـم عليه في المؤن والعتاد . على أنهـم أصبحوا يسيطرون أيضا ، انطلاقا من ربـوة سيدي إبراهـيم ، عـلى الطريـق المتـعمق الذي تـأتـي عبره كل هذه التموينات . فلو

قطعوا هذا الطريق ، لأصبحت إغريبن تحت رحمتهم ، كما أنهم لو استولوا على هذا الموقع على الرغم من مساعدات معسكر أنوال وتحت نيران مدافعه ، فإن ذلك يعني أن أنوال سيغمره بدون المد المتصاعد للانتفاضة العارمة للقبائل التي لم يتم اخضاعها من جهة ، وللثورة التي كانت من ورائه من جهة أخرى .

هكذا سارت الأمور بعد مرور شهر ، عندما انتهى الريفيون من تجميع وتنظيم وتدريب رجالهم وبعد أن أعيد ربط العلاقات بين القبائل الواقعة على هذا الجانب أو ذاك من الخطوط الإسبانية . نرى إذن أن غزو سيدي إبراهيم حمل في طياته سقوط إغريبن وهزيمة أنوال . لكن هل يمكننا أن نتصور أن الريفيين كانوا قادرين على غزو سيدي إبراهيم لولا الانتصار الباهر الذي حققته " الحركة" في معركة أوبران ، عشرين يوما قبل ذلك ؟

لا يمكننا البتة أيضا أن نتصور ذلك لولا حنكة الرجل الذي كان على رأسهم . كتب السي محند ، فيما بعد ، أنه لم يقلد مهام القيادة العامة إلا عشية الهجوم على موقع اغريــبن ، في منتصف شهر يوليوز [19] . إن هذا يعني ببساطة ، إذا ما كانت ذاكرته قوية ، أن القبائل التي وصلت واحدة تلو الأخرى قصد الانضمام إلى المعركة اعترفت له كلها حينئذ بالسلطة التي مارسها قبل ذلك بصفة قانونية بين إخوانه بني ورياغل منذ بيعة القامة ، وبتلك التي مارسها ، بشكل فعلي ، في العمليات على طول الجبهة منذ الأيام الأولى التي تلت معركة أوبران . كيف يمكن الشك في هذه السلطة الفعلية ، والحال أن القبائل ، بما فيها البعيدة ، تخصه بالكتابة وتلقبه تارة ب" القائد" وأخرى ب"القائد الأول " للجيش المجاهد في سبيل العقيدة "أو" للجيش الريفي " [20]

إن هذه السلطة ، سلطة رجل قادر على الأخذ بزمام المقاومة العامة ، هي التي عرفت بشحذها عزيمة المجاهدين ، كيف تقضي على ما كان يطبع العمل الحربي من مظاهر التقلب والارتجال ، تلك المظاهر التي يقدم لنا ما جرى في سيدي إدريس مثالا عنها . إنها هي التي تمكنت من العقول والقلوب ، متجنبة استعمال القوة ، لتضع فوق كل اعتبار ، وكعامل حاسم ، الوحدة داخل القبائل وفيما بينها ، وهذا حتى قبل مباشرة الحرب . إنها أيضا ، سلطة السي محند ، التي أشرفت على الاختيار العبقري لهدف مثل سيدي إبراهيم الذي كان نقطة حساسة في دفاع الخصم ومن حيث يمكن ، إن صح التعبير ، إمساك الثور الاسباني من قرنيه . وهي أخيرا ، كما سنبين في كتاب آخر ، السلطة التي عملت في خضم الفوضى التي سادت الريف بعد أنوال على إنشاء نظام جديد لمعارك جديدة . غير أنه كيف يعزب عن بالنا أن السلطة المذكورة كانت تبذل

قصارى جهودها ، وإلى غاية فاتح يونيو ، لا لتحضير الحرب التي كانت تعتبرها غير معقولة ، وإنما لتهيئ حالة وفاق أو حتى تحالف مع الغزاة ، وأن هدير معركة أوبران هو الذي قضى على هذا المشروع قضاء مبرما ؟

هكذا كانت أوبران ، بخلاف رأي برنكر ، هي التي أعطت في كل الريف نفسا جديدا للقوة الشعبية الهائلة بعد أن كان قد اعتراها الفتور تدريجيا من جراء الانقسام ، والفوضى ، والفشل ، والخوف في آخر الأمر . وحيث إن أوبران هي التي قطعت خط الرجعة على محمد بن عبد الكريم ، الذي كانت القبائل في حاجة إليه من توحيد صفوفها وبلوغ غايتها المنشودة ، فقد اندلعت منها ومن يوم وقوعها بالذات هذه الحرب التي تعتبر أول حرب في التاريخ ضد هيمنة أوربا المنتصرة ، تلك الحرب الشعبية ، الهجومية ، التي كادت تكون مظفرة : إنها حرب الريف التي بدأت من تلك المعركة ومن يوم وقوعها .

* * *

خصصنا لهذه الحرب المدهشة ، التي لا تتناسب على كل الأصعدة والعالم الريفي الصغير ، دراسة أخرى نحن بصدد إنجازها . أما الدراسة التي نختتمها الآن ، والتي حاولت أن تظهر كيف أمكن للبنية العتيقة للتاريخ المغربي افراز حدث جديد كل الجدة ، فستكون قد مكنتنا من إرساء القواعد التاريخية لما كانت تحوم حوله الأساطير إلى اليوم .

لقد نسجت هذه الأساطير ، كما رأينا ، منذ البداية . ثم تعددت فيما بعد ، وتنوعت تبعا للمنظور الذي وقع تبنيه وللاتجاه الذي أريد إعطاؤه للقضية .

في البداية ظهرت أطروحة تفسر كل شئ بقلة الاسبان . وهي أطروحة يمكن قبولها على ضوء النجاح الفرنسي ، إلا أنها تنهار بالنظر إلى الجولة الموفقة التي قادها برنكر في الناحية ، والنجاح الكبير الذي أحرزه سلفستري نفسه حتى النكبة . وعلى أية حال ، فقد ألقي بها في زاوية الاهمال - وهل هذا من قبيل الصدفة ؟ - عندما ذاق ليوطي بدوره ومع رجاله طعم الهزيمة .

ثم ظهرت أطروحة أخرى تتعلل بالتدخل الأجنبي . وقد حظيت هي الأخرى ببعض الترحيب بالاستناد إلى ذكرى المحاولات الألمانية - التركية خلال الحرب العالمية الأولى . لذا فقد تبناها الاسبان ، من جهتهم ، منذ هزائمهم الأولى ، متهمين الألمان بتزويد الريفيين بالأسلحة والمدربين العسكريين [21] للحيلولة دون تقدمهم نحو المراكز المعدنية .

على أننا نعرف حول هذه المسألة ما لا يتفق وهذا الزعم ، حيث سبق أن رأينا عن كثب كيف أخفق الألمان ، عندما كانوا حاضرين بالفعل ، في جر الريفيين إلى ولوج مسالك غير ريفية .

أما بالنسبة لروبر مونطاني ، فقد أقر بأن القبائل هي التي كانت تتصف بذاتيتها بتلك " القوة المريعة " التي تعثر بها الاسبان والفرنسيون ، لكنه ما لبث أن رأى في ذلك مجرد أثر لحلم " السيبة " القديم الذي كانت تلك القبائل تبحث في خضمه عن علاج لمعضلاتها [22] إننا نعرف أطروحة مونطاني ، وقد سبق أن رأينا ما يمكن قوله بصددها .

في الحقيقة أن هذه الأطروحة ، وبالنظر إلى ما يلاحظ فيها من اصرار على رفض الحقيقة ، تعد أقرب إلى التدجيل منها إلى الأسطورة ، شأنها في ذلك شأن الأطروحتين السابقتين . وبخلاف ذلك ، راجت أسطورة حقيقية في الريف متلائمة مع عقلية بسيطة تحاول استجلاء حقيقة الأمور في خضم وضع معقد لا تستطيع ربط خيوطه ، الرمز المجسد لكل الأحداث . إن معظم الفرنسيين اعتقدوا ، فيما مضى ، أن ضربة المروحة وقبعة الأب بوجو (Bugeaud) تسببتا أو مثلتا كل ما يتعلق بغزو الجزائر . وبالمثل ، فإن كل شئ بالنسبة للريفيين بدأ بمشاجرة السي محند مع الاسبان عند اقامتهم بينهم . تظهره رواية معلما بمليلية وقد قذف بمحبرته على المدير . وتجعل منه أخرى ملازما أولا في الجيش الاسباني بملقا ، وقد صفع رئيسه لشتمه إياه . أخيرا ، هناك رواية ثالثة - وهي ليست بالأخيرة - يستفاد منها أن سلفستري هو الذي قام بالعكس بلطمه [23] .

بيد أن الأمر لا يتعلق هنا سوى بالأساطير الأولى ، تلك التي ترجع إلى عصر لم يكن فيه أي شخص يجد غضاضة في كون السي محند عاش بمليلية . فكثيرون هم الذين مثله يحاربون الاسبان بعزيمة صادقة بعد أن قدموا لهم في السابق خدمات جمة . لكن هذه الذهنية أصبحت مع مرور السنين غير مستساغة . ذلك أنه لما استقل المغرب ، أصبح كل واحد يتوهم أن جميع القلوب كانت فيما مضى ، وهي تتأجج بلهيب الوطنية ، لا تقبل أي مكان آخر لملاقاة العدو باستثناء ميدان المعركة فماذا يقال إذن عن سبب توجه السي محند إلى مليلية وهو الرجل الذي بحق أول المناضلين الذين تحدوا الامبريالية ؟ للجواب على هذا السؤال ، ظهرت ميتولوجيا جديدة ، روجها فيما بعد كل من أحمد البوعياشي ومحمد سلام أمزيان [24] . يفيدنا هذان المؤلفان أن

القاضي عبد الكريم وولده محمد لم يعاشرا الاسبان إلا ذكاء وتيقظا منهما وقصد الاستكشاف عن نواياهم والتمرس بفنون المعركة التي سيعملان على قلبها ضدهم حينما يحين الوقت لذلك . أما في الريف ، فقد كان القاضي عبد الكريم يعمل بالعكس على استتباب السلم بين القبائل ووضع حد لصراعاتها الداخلية . وبخصوص ولده امحمد ، ذلك النابغة الذي يروي عن ظهر قلب 16 000 بيت ، فإنه انهمك بنفسه في سن السادسة من عمره في حفر الخنادق تحسبا للخطر الذي ستشكله اسبانيا على بلده . وفي سن السادسة عشر ، وبخ بشدة باشا تطوان الذي يساعد على التقدم الأوربي بخدمة الملك عبد العزيز عدم الأهلية . كذلك ، فإنه لما أقام بمليلية فيما بعد ، جلب المتاعب مستضيفيه الاسبان . فقد استفز ذات يوم الشاب سلفستري . - وهو خصمه في المستقبل - الذي لا ندري أية صدفة جعلته يحضر هنالك منذ ذلك الحين ، كما أنه وقد دخل ذات يوم مع والده إلى مكتب مارينا (Marina) رفض مصافحة يد الجنرال الممدودة إليه ، فصاح هذا الأخير متعجبا من شدة جرأته : " إنه لولد سيتحدى السماء" (25) .

إن اللائحة بمثل الصور المثالية طويلة . لكن ما قدمناه يكفي ليظهر ما تتسم به الروايات الشفوية من جنوح إلى الخيال ، الأمر الذي يفرض على المؤرخ ضرورة الغوص بنفسه إلى مستوى الأحداث لسبر أغوارها ، مكيفا على ضوء تعمقه فيها . ان الحقيقة التي تنبني على هذا الأساس معقدة ، كما أنها مخالفة بالطبع من جميع الوجوه لتلك الصور المثالية . لقد كان القاضي عبد الكريم وولده عميلين مخلصين للقضية الاسبانية . وإلى عشية اندلاع الحرب الريفية ، لم يكن هناك أحد أكثر فعالية ووعيا منهما فيما بذلاه لعرقلة جهود المقاومين . وبحصر حديثنا عن محمد ، لأنه هو الذي سيبقى وحده على مسرح الأحداث ، علينا أن نلاحظ ، مهما بدت هذه الملاحظة غريبة لمعاصرينا ، أنه لم يحدد خياره إلا بأخذه مصلحة بلاده بعين الاعتبار . لقد كان وطنيا ، ولم تكن وطنيته مصطبغة بتلك الألوان الصبيانية التي أضفتها عليها الروايات المذكورة آنفا . لم تكن كذلك من الصنف الذي يحلو للبعض تسميته ب" الوطنية البدائية" . أجل ، انها لم تكن بدائية ، بل توشحت بمفاهيم حديثة بشكل يثير الدهشة ، كمفهوم الوطن ، وحرية التفكير ، والديموقراطية ، تلك المفاهيم التي يمكن أن يغبطه عليها أولئك الذين سموا أنفسهم فيما بعد ب"وطنيين" . لقد كان الشعور هو الذي أفرز فيه النظرية .

لكن اتفق أن النظرية انطوت على مواطن القوة والضعف . أما القوة ، فتتمثل في ارادة الاستقلال التي غرست جذورها في اعماق شعب بكامله عبر العصور ، والتي لم

تكن هذه النظرية سوى الجانب المعبر عنها . أما الضعف ، فيتمثل في تلك النخبة التي كانت ما تزال لا تومن بالقوة الكامنة في الإرادة الشعبية ، وتقف بالعكس موقف الانبهار بالقوة الأوربية . من ثم لجوؤها المتهور إلى المساعدة الملغومة التي كان بامكان أوربا وحدها تقديمها . كان على عبد الكريم أن يتمرس طويلا بالقوة الشعبية ليقتنع بأن لا قبل له . حتى من أجل مصلحتها وحدها ، بارغامها ، أو باستخدامها ، وأن عليه بالتالي أن يكرس نفسه لخدمتها . أما وقد اقتنع ، فإنه سيمضي فجأة بخطى كبيرة قدما نحو المثل الأعلى الذي لم يعمل حتى ذلك الحين سوى على ملامسته من بعيد .

ذلك ما يدعو التأمل فيما يقال عادة عن الرفض التلقائي الذي كانت القطاعات العريضة من السكان تقابل به المستعمرين . لقد قيل إنه بدائي ، مكتوب عليه الفشل ما لم يتهيأ ذلك اللقاح من الافكار الحديثة الذي تفرزه هنا وهناك أدمغة ممتازة لتلقيح واخصاب هذه الثمرة التي تسمى أخيرا ب "الوطنية" . ألا يدفعنا مثال محمد بن عبد الكريم إلى قلب حدود المعادلة ، أو على الأقل إلى موازنتها ، وقد لاحظنا بطلان أفكاره رغم حداثتها ، وهذا قبل أن يفرض كفاح الريفيين نفسه عليه ويجسد تلك الأفكار في الواقع ؟

كذلك فان مثاله من أحسن الأمثلة لمقاربة المكانة التي يحتلها كل من الزعيم والجماهير في أوقات طفرات التحول التي تطبع تقدم التاريخ . إذ حتى قبل كتابنا الآخر المخصص لوقائع حرب الريف ، فإننا لن نجد من يعارضنا إذا قلنا ان هذه الحرب ماكان لها بدونه لتعرف ما عرفته من أبعاد . لكن كيف ننسى بالمقابل - وهذا على الأقل ما تم ابرازه - أنها لم تكن لتقع لو كانت رهنا بمشيئته وحدها ؟ لقد كان ساعة اندلاعها يتفاوض مع الاسبان ، وفي الخفاء . كيف لا نطرح السؤال : هل كان بالامكان أن تنطلق معركة أوبران ، التي فجرت الحرب الريفية ، لو أنه كان حاضرا في "الحركة" يوم فاتح يونيو ؟

على أية حال فإن المواجهة التي انتصب فيها الريفيون ضد الاسبان ثم ضد الفرنسيين ، لم تكن من صنع رجل ، مهما كان قوي الشخصية ، ومهما كان طموحا أو وطنيا متحمسا ، كذاك الذي يراد تصوره بهذا الشكل أو ذاك . لقد نجمت مباشرة عن الإرادة العنيدة للجماهير الريفية رغم حاجز النخبة التي كان محمد بن عبد الكريم بالذات ، مع والده ، الوجهين البارزين فيها لمدة طويلة . لكن هؤلاء الريفيين ليسوا مجرد ريفيين . انهم مغاربة قبل كل شئ . ولقد أظهرنا أنه فيما وراء حدود الرقعة التي انتفضوا من أجل الدفاع عنها ، كان هنالك شعب جعل منهم قوما

مسلمين أبد الآبدن ، كما كانت هنالك بلاد تولوا منذ الأزل مهمة الدفاع عن شواطئها ضد غزو المسيحيين . على عكس المظاهر إذن ، فان الحرب التي أقدم عليها الريفيون وحدهم لم تكن قضية محلية أو إقليمية ، بل كانت حدثا وطنيا من مستوى عال ، لأن أصولها ترجع في آخر الأمر إلى الارادة الكامنة لشعب بكامله .

على أن هذا لا يقلل البتة من دور محمد بن عبد الكريم الذي اقترن اسمه بماحدث فيما بعد ، ولو أنه يستعيد من هذا المنظور صورته البشرية ليحتل مكانته بين هؤلاء الأفراد الآدميين الذين أثروا في تاريخ عصرهم ، بعد أن كان اعجاب الشعوب وغضب الناشرين الأوربيين قد جعلا منه صانع المعجزات . لقد أثر في مجرى الأحداث من أولها إلى آخرها . صحيح أن تأثيره فيه سار بالتناوب في اتجاهات مختلفة أو معاكسة بشكل صريح ، إلى حد أنه عوّق تقدمه لمدة طويلة قبل أن يساعد عليه . صحيح أن هذا المجرى تكون ونشأ بدونه ، وأنه (محمدا) كاد يتحطم بمحاولة الوقوف في وجهه . لكن يبقى مع ذلك أنه عندما صحح موقفه ، أخذ يعمل في البدء على مسايرته قبل أن يستسلم له . وعندئذ ، وقد انجذب في اتجاه تياره الذي أدرك قوته واتجاهه ، تسارع بكل قوته ليعبد له الطريق . هنا تكمن عبقريته .

قد يود الكثيرون دون شك لو أن المؤرخ وجه اهتمامه مباشرة إلى هذه المرحلة من حياته . لكن هذا سيكون على حساب الجماهير في القبائل الذين ما فتئوا يعودون إلى الظهور بدون ملل على مسرح الأحداث طيلة نصف قرن ، لكن لا يحتجبوا عنه قط منذ عهد أمزيان . وفوق ذلك ، فإن مسار محمد بن عبد الكريم هو مسار عدد كبير من المغاربة من أبناء جيله ممن كانوا وطنيين متحمسين ، إلا أنهم استسلموا لحلول اليأس لمعرفتهم بالأوضاع الدولية وبالمصير المحتوم الذي ينتظر بلادهم . فمثال محمد بن عبد الكريم اذن يساعدنا على تسليط الأضواء على عصر بكامله ، على فهمه ، وتقييمه بكيفية منصفة .

والحقيقة أنه هو المستفيد من هذا التقييم المجرد عن الأهواء . إذ لا يوجد ما هو أنسب لحجب شهرته من الصمت المخيم على ماضيه أو من ترهات سلام أمزيان أو أحمد البوعياشي .

أخيرا من ذا الذي يمكنه أن يؤكد أنه كان في مقدوره الاطلاع بالدور الذي صنع مجده ، دون سنوات التمرن التي جعلته يقف على مواطن القوة والضعف في كلا المعسكرين ، الاسباني والريفي ؟ من بامكانه القول إنه يمكن الحصول على الفراشة بدون وجود الفيلجة ؟

مهما يكن ، فان مهمة التاريخ هي تسليط الأضواء . لقد وُجدت الفيلجة ، ولا مندوحة للعالم الطبيعي ، هو المؤرخ أيضا ، من معاينتها قبل التوصل إلى الصورة النهائية للفراشة .

الهوامش

1) تقرير الجنرال De Anual a la República ; Ière partie : El Expediente Picasso, Madrid, 1931, pp. 314-320

2) شهادة العقيد دافيلا أمام لجنة التحقيق ، 16 غشت 1923 :

De Anual...Comisión de responsabilidades...; op.cit,pp. 397-398 .

3) برقية من سلفستري إلى برنكر ، وهي غير مؤرخة ولكنها توجد ملحقة ببرقية أخرى تحمل تاريخ 2 يونيو : Comandancia de : S.H.M., Mel., 1921, dossier 278 .

4) Campañas en el Rif...op. cit., p. 34

5) برقية من سلفستري إلى برنكر ، 4 يونيو 1921 S. H. M., Com. de Melilla, 1921 dossier 278.

6) Campañas en el Rif...op. cit. p. 39

7) المصدر نفسه ص 42

8) برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليلية ، 8 يونيو 1921 . سلم هذه الوثيقة العقيد ركملي إلى اللجنة البرلمانية المكلفة بالتحقيق . وقد جاءت في

S. H. M., Com. de Mellilla : dossier 278

9) برقية من حاكم دار دريوس إلى مليلية ، 15 يونيو 1921 . سلمها ركملي إلى اللجنة البرلمانية . نفس المصدر الوارد في الهامش 8 .

10) برقية 8 يونيو 1921 ، المذكورة في الهامش 8 .

11) رسالة غير مؤرخة ، لكنها مرسلة قبل 15 يونيو من بني ورغايل إلى السي محند ، وقد وقعت بيد الاسبان في فاتح يوليوز S.H.M., Mel.,II,2,119

12) رسالة من بني بوياحي إلي السي محند بتاريخ 3 شوال 1339 /10 يونيو 1921 ، وقد وقعت هي الأخرى بيد الاسبان : .. S. H. M, Mel., II, 2, 120

13) رواية أحمد حدو علي من بني سعيد ، أدلى بها في 4 يونيو 1921. وهي وثيقة قدمها ركملي أمام لجنة المسؤوليات .: De Anual..., op. cit., p 228

14) تقرير تلغرافي من سلفستري إلى برنكر، 3 يونيو 1921 :

S. H. M. Comandancia de Melilla, 1921, dossier 278 .

15) شهادة شعيب أفلاح ، التقطت لفائدة المؤلف في دجنبر 1973 من طرف يوسف السويقي .

16) أزرقان : الظل ...، مصدر سبق ذكره ، ص 37 - 38 من المخطوط .

17) البرقية المذكورة في الهامش 9 .

18) تقرير بيكاسو :

[op, cit . pp.] De Annual ... op. cit. pp. 320 - 322 et Campañas en el Rif 46 - 47 .

19) مذكرة لارينيون ، مركز إغريبن .

20) الرسالتان المذكورتان في الهامشين 11 ، 12

"El Diario Universal " et "El Tiempo" cités par "Le temps" (21

Les Berbères et le Makhzen op., cit, p. 416 (22

23) سجل المؤلف بنفسه هذه الروايات .

24) ورد كتابا هذين المؤلفين في البيليوغرافيا

25) أمزيان : عبد الكريم ...(انظر البيليوغرافيا) .

المصـــادر

I- المصادر المغربية

1- ربائد تطوان (تطوان) : وهي وثائق دار النيابة ، تلك المؤسسة التي أسسها السلاطين بطنجة وتتضمن حوالي 000 15 وثيقة محفوظة في 161 محفظة . وقد راجعنا على الخصوص المحافظ التالية :

- من 1 إلى 30 : هذه المحافظ تضم الرسائل الموجهة من طرف السلاطين المتعاقبين إلى دار النيابة ، منذ السنوات الأخيرة للمولى الحسن ، وتحتوي أيضا على الرسائل الواردة من وزرائهم ، وعلى الخصوص أحمد بن موسى (با حماد) .

- من 36 إلى 55 : تهتم بعلاقات المغرب مع اسبانيا ، فرنسا ، انجلترا ، ألمانيا .

2- المجموعة الكتانية بالرباط (الكتانية) : تضم حوالي 000 5 وثيقة واردة من جهات متنوعة وقد اطلعنا عليها كلها لأننا أشرفنا شخصيا على فهرستها .

3- مستودع القصر الملكي بالرباط (مستودع ب) : هذا المستودع الضخم يوجد حاليا قيد الفهرسة . لم نستطع القيام بأبحاث منهجية وافية . والوثائق الواردة في عملنا هذا لا تحمل أرقاما . اكتفينا بنقلها أو أخذ صور فوتوغرافية عنها .

4- مجموعتنا الشخصية : تتكون من وثائق أصيلة أو نسخ فوتوغرافية ، عثرنا عليها ضمن مجموعات خاصة . توجد ، في المغرب ، مستندات كثيرة للدولة في حوزة الخواص ، وهي تعود إلى ما قبل 1912 .

5- المجموعة الصبيحية بسلا . وهي غزيرة المادة ، بيد أنها توجد حاليا قيد الفهرسة ، الشئ الذي تعذر معه القيام بفحص شامل لها .

6- وضمن هذا النوع من المصادر ، تندرج مجموعات وثائقية كثيرة مطبوعة ، غير أنها ما زالت لم تستغل بعد ، وهي :

- نهليل ، محمد ، "الرسائل الشريفة" ، باريس ، 1915 . ينطوي هذا المؤلف على 128 رسالة صادرة عن سلاطين القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، وهي على شكل صور فوتوغرافية .

- "الوثائق" ، مجموعات وثائقية دورية ، تتولى نشرها مديرية الوثائق الملكية ، استنادا إلى وثائق "المستودع ب" . صدرت الأجزاء الأربعة بالرباط . 1976 - 1978 ؛ جل نصوص وثائقها مطبوعة ، وبعضها معززة بصور فوتوغرافية لأصولها .

- ابن زيدان ، عبد الرحمن ، "اتحاف أعلام الناس ، بجمال أخبار حاضرة مكناس" ، 5 أجزاء ، الرباط ، 1929 - 1933 . وهذا القاموس البيليوغرافي يندرج ضمن المؤلفات التاريخية المغربية المهتمة بالتراجم وسيرة سلاطين الدولة العلوية سيما في القرن التاسع عشر ، مشحونة بمآت الوثائق التي هي في حوزة المؤلف ، وهي عبارة عن رسائل سلطانية .

- ولنفس المؤلف "العز والصولة" . جزءان ، الرباط ، 1961 و 1962 ، اتبع نفس المنهج المستند إلى الوثائق .

- داود ، محمد ، "تاريخ تطوان" ، صدرت المجلدات الستة الأولى بتطوان ، بين عامي 1959 و1966 . ونشر قسمان من المجلد السابع بتطوان ، الأول عام 1975 ، والثاني سنة 1976 . وتم نشر المجلد الثامن بالرباط سنة 1979 ، تحت إشراف المطبعة الملكية .

- اعتمدنا ، في الأخير على المقالات التي نشرها محمد بن عبد الكريم ، في "تلغراف الريف" بالعربية ، في الفترة الممتدة من 1907 إلى 1915 ، وهي تعد ، في هذا الصدد ، المصدر الوحيد الموثوق به .

II- المصادر الاسبانية

أتيحت لنا فقط فرصة الاطلاع على أرشيف القسم التاريخي العسكري Servicio Histórico Militar بمدريد والعمل في هذا المستودع وحده ، لأن وثائق وزارتي الدولة والحرب - اللتين وجهتا اهتماما خاصا بشؤون المغرب - بقيت حبيسة ، بيد أن الصعوبات التي اعترضت البحث تم تذليلها ، لأنه توجد ، في القسم التاريخي العسكري ، ربائد قيادة مليلية العسكرية Comandancia de Melilla والقيادة العامة Cuartel General بتطوان ، وهي تضم ، على الخصوص ، المراسلات المتبادلة بين وزارتي الدولة والحرب ، بالإضافة إلى الوثائق المحلية .

ولازالت المجموعات الوثائقية التي تهم بحثنا قيد الفهرسة : فالمحافظ الثلاث الأولى (Legajos , I , II , III) التي تحمل عنوان "مليلية" ، خصصت ، وبشكل واف

للمنطقة التابعة "للمكتب "Oficina" المكلف بالنشاط السياسي ، انطلاقا من جزيرة النكور وهي مرتبة على امتداد عشرين عاما ، وتغطي الفترة الواقعة بين 1902 و 1921 . توجد فيها ، وبصورة كثيفة بين عامي 1914 و 1919 ، وثائق تحتوي على معلومات على مستوى الأحداث . فهي تنطوي على مراسلات متبادلة ، يوميا ، أحيانا ، مع " المكتب المركزي " بمليلية ، وعلى محاضر الاجتماعات ، في القبائل ، مع رؤساء "الحزب الاسباني" أو على الكتابات الواردة من هؤلاء . ونرى ، في هذا السياق ، أن الأمر يتعلق ، هنا ، بكل من الوثائق الريفية والإسبانية . وقد تم جمعها دون فهرستها في ملفات صغرى ، إلا أنها ولحسن الحظ ، مرقمة ، صفحة بصفحة ، بطريقة تجعلها ، على الأقل ، في شكل سلسلة .

وتحت عنوان ، " القيادة العسكرية لمليلية" "Comandancia de Melilla" صنفت الوثائق في ملفات مؤرخة ، تناولت مجالا معينا لرصد مجموع العمل المنجز في المنطقة العسكرية . وإن الملفين اللذين انتقينا منهما المعلومات الوافرة هما : ملف رقم 256 بالنسبة لسنة 1920 ، وملف رقم 278 لعام 1921 .

ويجب تسجيل نفس الملاحظة فيما يخص هذين الملفين ، حول الطابع المزدوج - إلى حدما - لمحتواهما الريفي والاسباني . ورغم ذلك ، فإن الوثائق قد جمعت فيهما بطريقة عشوائية للغاية ، وبدون أرقام متسلسلة ، لذلك فإن المرجع يجب أن ينحصر في الإشارة إلى الملف فقط .

وتشتمل مستندات "القيادة العامة" "Cuartel General" على ملفات مصنفة حسب السنوات ، وأخرى حسب مدة طويلة نوعا ما ، ففي الصنف الثاني ، هناك المحفظة رقم 2 لسلسلة 1908 - 1926 ، التي كانت تستجيب لموضوع أبحاثنا . أما فيما يخص الصنف الأول فإن المحفظة رقم 28 لسنة 1920 مشتملة على التقارير الإجمالية ، الشهرية أو النصف الشهرية ، الموجهة من طرف قائد مليلية إلى القائد العام ، وحيث إن هذه التقارير تعود إلى نفس المصدر والجهة ، فإن تاريخها يكفي كمرجع بعد الإشارة إلى الملف .

وتحت عنوان "Ponencia de Africa" ، عثرنا على الأوراق الشخصية لسلفستري

(Documentos personales del General Fernández Silvestre)

التي تغطي فترة قيادته بمليلية (فبراير 1920 - يوليوز 1921) . وتحتوي ،

بالإضافة إلى المستندات الإدارية ، على وثائق تحمل إشارة "شخصي ومحتفظ به"

وأخيرا ، فإن بعض المستندات التي وقفنا عليها ، نشرها سنة 1923 الجنرال برنكر Berenguer والـوزيـر دي إيـثا De Eza . كان الأول رئيسا للقوات الاسبانية ، ومقيما عاما لاسبانيا بالمغرب ، والثاني بصفته وزير الدولـة . وقد بدا أن تحليلها الصحيح لن يتم إلا على الوثائق الأخرى التي قمنا بفحصها .

III- المصادر الفرنسية

هذه المصادر مفيدة لتقويم المطامع الفرنسية في منطقة النفوذ الاسباني ، لكنها لا تمدنا بالمعلومات الكافية عن الفترة التي تهمنا لملامسة الوضع بالمنطقة ورصد الأحداث ومؤشراتها ، وهذا راجع ، أولا ، إلى كون الفرنسيين لم يلتقطوا المعلومات بدقة لمراقبة ما يجري فيها بعيدا عن حدودهم . ثم إن المعلومات التي يرسلها ليوطي إلى باريس لا تخلو من اضطراب ومبالغة عمدا ، ليثبت التهديد الألماني ، ويوجه تهمة التواطؤ إلى السلطات الاسبانية .

ووقفنا ، في القسم التاريخي للجيش Service Historique de l'Armée بفانصين Vincennes ، على مايلي :

Série E : Carton 12 bis : Evénementss de la zone espagnole . Raissouni . Abdelmalek . Agissements allemands. Complicité des autorités espagnoles (1915 - 1921)

Carton 19 : Apparition d''Abdelkrim

Carton 21 : Notice sur le Rif

Carton 30 : Au Maroc de juillet 1914 à décembre 1921 (Cap. Tarrit) .

Série EM.

Carton 2 : Documents communiqués par le service des Renseignements (1902 - 1912) .

Carton 7 : Notices sur différentes tribus (1912) .

Carton 10 : Front nord, 1912 - 1924 . Action contre Abdelmalek, 1917- 1918 . Relations avec les Espagnols .

Carton 52 : Abdelmalek, 1915 - 1916 .

Carton 68 : Abdelmalek, 1917.

Carton 123 : Renseignments sur les tribus .

Carton 156 : Etudes historiques .

وفي وزارة الخارجية بباريس ، استطعنا الاطلاع على الملفات الأساسية لسلسلة

م ، ومحفظتين تحت رقمي 10 و 11 ، تتعلقان بمنطقة الحماية الاسبانية . وهذه الوثائق نفسها محفوظة بفانصين . وعثرنا ، بالرباط ، على ما بقي من وثائق الحماية الفرنسية ، لم يتم نقلها بعيد إعلان الاستقلال ، وهي توجد بقسم الوثائق في المكتبة العامة بالرباط ، ولا تحمل ، لسوء الحظ ، أرقاما . مع ذلك ، توجد فيها السلسلة الكاملة "للتقرير الشهري للحماية " ، "Rapport mensuel du Protectorat" ، ونستطيع أن ندرجه ، بحق ، ضمن المصادر . فعلا ، إن هذه النشرة - رغم أنها مطبوعة - بقيت سرية حيث إنها كانت متداولة بين ثلة من رجال السلطة السامين . وكانت تعطي صورة شاملة للحالة الداخلية في المغرب خلال الشهر ، كما تبدو لدى الدوائر العليا ، أو تتدخل هذه الدوائر لتصنعها كما تريد أن تكون . وفي كلا الحالتين ، فإن هذه النشرة تحتفظ بقيمتها كوثيقة .

IV - المصادر الإنجليزية

إن وثائق Foreign Office (F . O) في Public Record Office بلندن ، زاخرة بمادة غزيرة عن حرب الريف بعد اندلاعها ، إلا أنها لا تمدنا ، عن الفترة التي تهمنا ، إلا بمعلومات قليلة ، ولكنها ثمينة فيما يخص الجانب الدولي للمشكل . وبالنسبة لهذه الفترة ، فقد قمنا بفحص السلسلتين 403 / 450 و 403 / 451 .

الشهادات المكتوبة

1- في جزيرة لارينيون ، قبل 1929 ، كتب محمد بن عبد الكريم "مذكرات لارينيون " كما نسميها نحن والمعروفة أيضا بمخطوط سانييس Manuscrit Sagnes ، على اسم الضابط الترجمان الذي رافقه في منفاه ، كما تدل على ذلك الإشارة الوحيدة التي عثر عليها فيه ، إننا نجهل كيف وصل هذا المخطوط إلى يد مالكه الحالي ، بل لم نعلم - نحن أيضا - بوجوده إلا من خلال الترجمة التي قام بها المرحوم التهامي الزموري لهاذا المخطوط من العربية إلى الفرنسية. فكفاءة المترجم التي لا يشوبها شك تضمن لنا مطابقة النص الفرنسي للنص العربي ، عدا بعض الأخطاء الناتجة عن جهله للإطار التاريخي ، والتي يسهل ضبطها وتصحيحها حالما نلم بهذا الإطار . أما فيما يخص صحة مضمون الوثيقة ، فإنها تبدو مؤكدة. صحيح أن الأخطاء الناتجة عن عدم الدقة متعددة فيها . لكنها ترجع إما إلى خيانة الذاكرة التي لا يمكن تفاديها، أو إلى أفكار جاهزة . إلا أن الوثيقة تحمل ، على العكس من ذلك ، في ثناياها عدة حقائق تجهلها العامة ، بيد أنها تطابق معطيات الوثائق ، كما تنطوي على مجموعة مصطلحات

محلية أو معاصرة لتلك الفترة ، بحيث لم يتمكن أحد سوى السي محمد بن عبد الكريم من ذكرها أو استعمالها . إن هذه الوثيقة ، بصفحاتها الستين ، المضروبة على الآلة الكاتبة ، أعطتنا ، على الخصوص ، قاعدة ننطلق منها لتحليل قادتنا إليه وثائق الأرشيف .

2- "مذكرات محمد أزرقان" . كان أزرقان مكلفا بالشؤون الخارجية في الحكومة الريفية . وأثناء الإقامة الإجبارية التي فرضت عليه بعد الحرب ، روى - لكونه أميا - الحقائق التي كان يعرفها ، فاضطلع أحمد السكيرج بتدوينها وترك لنا المخطوطة الوحيدة بعنوان " الظل الوريف في محاربة الريف " ، المحفوظة بالقسم العربي في المكتبة العامة بالرباط .

إنها أكثر شمولية وتفاصيل من "مذكرات لارينيون " ، والتعامل معها يستلزم تسجيل نفس الملاحظات السابقة . ورغم العيب الكبير الذي يتجلى في غموض ترتيبها الكرونولوجي ، فهي تعتبر مرجعا لا غنى عنه لتسليط الأضواء على القضية من منظور داخلي .

II - الشهادات الشفوية

عندما يتعلق الأمر بفترة مر عليها نصف قرن على الأقل ، فإن الشهادات الشفوية المباشرة تقل . لقد وردت ، على لسان مساهمين بسطاء ، في العدد الضئيل الذي التقطناه منها ، معلومات جزئية تفيد في معرفة فكرة الناس عن الأزمة التي عاشوها . أما بالنسبة للأزمة ذاتها ، فقد استطاع الشهود المحظوظون أن يمدونا بمعلومات عنها . تحدثنا طويلا مع كل واحد منهم . وفيما يلي أسماء هذه الشخصيات :

- عبد الكريم بن الحاج علي اللوه الذي التقينا به في ماي 1970 وأبريل 1971 ، بتطوان ، كان يقيم بها . كان آنذاك في الثمانين من عمره . تعود ذكرياته إلى نهاية القرن الماضي ، ففي قبيلة بقيوة لعب أبوه دورا في قضية القراصنة المشهورة ، قام بأسفار عديدة خارج منطقة الريف ، فكان أحد عضوي البعثة التي توجهت ، خلال الحرب ، إلى لندن لتعرف بالمقاومة الريفية . وكلف بمهام أخرى ، إلى جانب قيامه بدور القيادة في قطاع من الجبهة الغربية .

- محمد بو جبار : صهر محمد بن عبد الكريم . يقيم حاليا بمدينة الجديدة . رافق عبد الكريم اللوه إلى لندن ثم إلى باريس . وقد كان ، من قبل ، بمليلية ، مساعدا مقربا للسي محاند ، وظل كذلك طوال الحرب . جرى حديثنا بالدار البيضاء في يونيو 1971 وماي 1972 .

- المفضل بنينو وهو من ناحية شفشاون . التقينا به عام 1970 . كان في البداية ، مقاتلا ضد الاسبان في الجبهة الغربية . عندما وصل الجيش الريفي إلى هذه الجهة ، واحتل شفشاون ، عينه محمد بن الكريم باشا على المدينة .

- أحمد الحاتمي : قريب ورفيق الطفولة لمحمد بن عبد الكريم . كان قد بلغ سن الثامنة والثمانين لما اتصلنا به في ماي 1972 بمدينة الحسيمة - حاليا - حيث كان يعيش . وكان القاضي ، والد محمد بن عبد الكريم يعده بين مساعديه الأقربين وذلك حتى وفاته سنة 1920 . ولما اندلعت الحرب تقلد أحمد الحاتمي وظائف عسكرية .

- شعيب أفلاح : كان يقطن قرب أجدير حيث دار بيننا حوار في ماي 1972 ، كان لا يزال شابا حين اندلعت الحرب . وكان آنذاك ، خماسا متواضعا . أظهر كفاءة عسكرية مكنته من ترقية سريعة ، وانتهى إلى قائد ملازم من بين قواد فيلق الملازمين الذي شكل نواة المقاومة الريفية ، وقد توفي أخيرا.

- القائد بوحوت : كان عمره أكثر من ثمانين عاما لما استقبلنا بمنزله الريفي الصغير قرب الناضور . كان شاهداً على الطرفين لأنه كان في المعسكر الاسباني كملازم أول " أهلي " ينتمي إلى الريكولاريس" . وأثناء الحرب المدمرة ، خلع اللباس العسكري ليصبح بين ذويه قائدا فذا .

- محمد بودرا : أصغر بكثير من الشخصيات المذكورة سابقا . لم يكن إلا تلميذا عشية الحرب ولكنه احتفظ بالكثير من الروايات التي سمعها فيما بعد . وكانت شهادته - فيما يتعلق بما قبل الحرب - لا تخلو من إفادة ، إلا أنها لم تكن مباشرة ، ولا يمكن أخذها إلا بتحفظ .

وفي الختام ، نذكر اسم محمد الحاتمي وهو أصغر من أحمد الحاتمي المذكور سابقا . كان ، خلال الحرب ، مساعدا مقربا لامحمد أخ السي محمد . وفي الفترة السابقة ، كان يدور في فلك عبد المالك . كنا ننتظر الكثير من مثل هذا الشاهد ، لكن لأسباب نجهلها فضل الصمت . وكان فشلنا الوحيـــــد .

ببيليوغرافيا

1 – بالعربية :

• أبو نصر، عمر، "بطل الريف : الأمير عبد الكريم "، دمشق، المكتبة الأهلية، 1934.

• أرسلان، شكيب، " الأمير محمد بن عبد الكريم، زعيم الريف " في " حاضر العالم الإسلامي "، القاهرة، 1352/ 1933، الجزء الثالث، ص ص . 184 – 207.

• أمزيان ، محمد سالم ، "عبد الكريم الخطابي و حرب الريف" ، القاهرة ، مطبعة المدني ، 1971.

• إبراهيم ، محمد عبد المنعم ، الصوفي ، محمد عبد الوارث ، " الأمير عبد الكريم الخطابي بطل الشمال الإفريقي "، القاهرة ، 1954.

• ابن زيدان، عبد الحمن، انظر : " المصادر "، I ، 6 .

• ابن منصور ، عبد الوهاب ، " أعلام المغرب العربي " ، الجزء الأول، الرباط ، 1979. انظر : الجيلالي الزرهوني (أبو حمارة) ، ص ص .303 – 397..

• البوعياشي، الحاج أحمد، "حرب الريف التحريرية و مراحل النضال "، ج 2 ، طنجة ، 1974 .

• التوفيق ، أحمد ، " مساهمة في دراسة المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر . إينولتان (1850 – 1912) " ، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانيةبالرباط ، 1978– 1980.

• جلال يحيى ، د ، "عبد الكريم الخطابي " ، سلسلة أعلام العرب، القاهرة، 1968.

• داود، محمد، انظر : " المصادر"، I ، 6 .

• الريسوني المحامي ، علي ، " أبطال صنعوا التاريخ "، تطوان، 1975 .

• الكتاني، محمد الباقر، " ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد "، الرباط ، 1962 .

• الناصري، أحمد بن خالد، "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" ، 4 أجزاء ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، 1894 ، طبع بالدارالبيضاء ، 1954-1956 ، 9 أجزاء.

• العلمي ، محمد ، "زعيم الريف : محمد عبد الكريم الخطابي" ، الدارالبيضاء ، 1969.

• الفاسي ، علال ، "الحركات الاستقلالية في المغرب العربي" ، طنجة ، الناشر عبد السلام جسوس ، د. ت.

• القاضي ، محمد محمد عمر ، " أسد الريف محمد عبد الكريم الخطابي : مذكرات عن حرب الريف"، تطوان ، 1979.

• سعيد ، أمين ، " ثورات العرب في القرن العشرين " ، القاهرة ، د . ت . كذلك : "الدولة العربية المتحدة" ، الجزء الثالث ، القاهرة ، د.ت.

• الورياشي ، الحاج العربي ، "الكشف و البيان عن سيرة بطل الريف الأول سيدي محمد أمزيان" ، تطوان ، المطبعة المهدية ، 1976.

• الوزاني ، التهامي ، " المقاومة المسلحة و الحركة الوطنية في شمال المغرب " ، تحقيق و تعليق محمد ابن عزوز حكيم ، الرباط ، 1980.

2- باللغات الأجنبية :

Recueils de traités

. Rouard de Card, E. : Les relations de l'Espagne et du Maroc pendant le XVIIIe et le XIXe siècle, Paris, 1905.
. Becker, Jeronimo : Tratados, convenios y acuerdos referentes a Marruecos y la Guinea, Madrid, 1918.
. Résidence Générale de France au Maroc : Recueil des actes internationaux et à incidence internationale concernant le Maroc, Rabat, 1941.
. Rivière, P. Louis : Traités, codes et lois du Maroc, 5 vol. (le vol. I réservé aux traités), Paris, 1924.
. Caillé, Jacques : Les accords internationaux du Sultan Sidi Mohammed Ben Abdallah (1757 - 1790), Rabat, 1960.

Etudes, Récits, Témoignages

. Abdelkrim et la République du Rif, actes du colloque international d'études historiques et sociologiques, 18 - 20 janvier 1973, Paris, 1976.
. Ageron, Charles R. : La politique berbère du Protectorat marocain de 1913 à 1934,

in "Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine ", t. XVIII. janv. - mars 1971, pp. 50 - 90.

. Allain, Jean-Claude : Agadir, 1911, Paris, 1976.

. Allouche, I. S. : Documents relatifs à Raisuni, in "Hespéris ", 1951, t. XXXVIII, 3e - 4e tr. pp. 327-353.

. Antonius, George. : The Arab Awakening. The story of the arab national movement, New-York, 1939, Edit. arabe, sous le titre : Iaqdat al' Arab, Beyrouth, 3e édit., 1969.

. Arnaud, Dr Louis : Au temps des mehallas ou le Maroc de 1860 à 1912, Casablanca, 1952 .

. Aubin, Eugène : Le Maroc d'aujourd'hui, Paris, 1904 .

. Ayache , Albert : le Maroc, Bilan d'une colonisation, Paris, 1956 .

. Ayache , Germain : Aspects de la crise financière au Maroc après l'expédition espagnole de 1860 , in "Revue Historique ., t . CCXX , oct.-déc. 1958.

. - - - - - - - - - - - - - : Ibn Khaldoun et les Arabes, in "Ibn Khaldoun", actes du colloque de mai 1962 à Rabat, Casablanca, s.d.

. - - - - - - - - - - - : La première amitié germano-marocaine (1885-1894), in "Mélanges Charles André Julien", Paris, 1964.

. - - - - - - - - - - - - - : La crise des relations germano-marocaines (1894-1897), in "Hespéris-Tamuda", vol.VI, 1965, fasc. unique.

. - - - - - - - - - - - - - : Le sentiment national dans le Maroc du XIXe siècle, in "Revue Historique", fasc. 488, oct. - déc.1968.

. - - - - - - - - - - - - - - : Beliounech et le destin de Ceuta entre le Maroc et l'Espagne, in "Hespéris-Tamuda, vol. XIII, fasc. unique, 1972.

. - - - - - - - - - - - - - - : Société rifaine et pouvoir central marocain, (1850-1920), in "Revue Historique", t.CCLIV, 2, 1975.

. - - - - - - - - - - - - - - : La fonction d'arbitrage du Makhzen, in "Actes du Colloque de juillet 1977", à Durham, Rabat, 1979.

. Barbari, Mouslim (pseudonyme) : Tempête sur le Maroc ou les erreurs d'une politique berbère, Paris, 1931.

. Barèty, Léon : La France au Maroc, Paris, 1932.

. Becker, Jeronimo : España y Marruecos. Sus relaciones diplomáticas durante el siglo XIX, Madrid, 1903.

.- - - - - - - - - - - - - - - : El Rif, Madrid, 1909.

. - - - - - - - - - - - - - - - : Historia de Marruecos, Madrid, 1915.

. Berenguer, General : Campañas en el Rif y Yebala (1921-1922). Notas y documentos de mi diario de operaciones, Madrid, 1923.

. Bermudo Soriano, Eliseo : El Raisuni, caudillo de Yebala, Madrid, 1941.

. Bernard, Augustin : Le Maroc, 6e édit. , Paris, 1921.

. Blasco Ibañez, Vicente : Alphonse XIII démasqué. La terreur militariste en Espagne (traduit de l'espagnol), Paris, 1925.

. Biarnay, S. : Un cas de régression vers la coutume berbère chez une tribu arabisée, in "Archives berbères ", 1915-1916, t. IV, pp. 219-229.

. Blanco Izaga, Emilio : La vivienda rifeña, in "Curso de perfeccionamiento de Oficiales del Servicio de Intèrvención", revue "Africa", Ceuta, 1930.

. - - - - - - - - - - - - - - - : El Rif (2a Parte. La ley Rifeña) II, Los Canones rifeños comentados, Ceuta, 1939.

. Brenan, Gerald : Le labyrinthe espagnol. Origines sociales et politiques de la guerre civile (traduit de l'anglais, Cambridge, 1960), Paris, 1962.

. Brignon, J. (en collaboration) : Histoire du Maroc, Paris Casablanca, 1967.
. Brunschwig, Henri : Mythes et réalités de l'impérialisme colonial français, Paris, 1960.
. Bueno y Nuñez de Prado, Emilio : Historia de la acción de España en Marruecos desde 1904 a 1927, Madrid, 1929.
. Burke, Edmund : Prelude to protectorate in Morocco. Precolonial protest and resistance, 1860-1912, Chicago- London, 1976.
. Buschenschutz, Lt-Col. : Une opération de partisans au Maroc, in "Revue d'Infanterie ", 1er avril 1925, pp. 559-575.
. Campo Echevarria, Antonio del : España en Marruecos. datos y consideraciones, Santander, 1926.
. Carrenza, Fernando : Estudios sobre las provincias de Yebala y el R if, Ceuta, s. d.
. Calvo, Gonzalo : España en Marruecos : 1910-1913. Acción de Espana en las regiones de Larache, Alcazar, Ceuta y Melilla, con el relato de la campaña del Rif en 1911-1912, Barcelone, s.d.
. Catroux, Général : Lyautey le Marocain, Paris, 1951.
. Charles-Roux, François et Caillé, Jacques : Missions diplomatiques à Fès, Paris, 1955.
. Caillé, Jacques : Charles Jagerschmidt, chargé d'affaires de France au Maroc (1820-1894), Paris, 1950.
. - - - - - - - - - - - - - : La mission du capitaine Burel au Maroc en 1808, Paris, 1953.
. - - - - - - - - - - - - - : Le vice-consul Broussonet et ses "mémoires" sur le Maroc, in "Hespéris-Tamuda, 1961, vol.II, pp. 5-42.
. - - - - - - - - - - - - - - : voir également Traités et Charles-Roux.
. Coon, Carleton : Tribes of the Rif, Cambridge, 1931.
. Cossé Brissac, Philippe de- : Les rapports de la France et du Maroc pendant la conquête de l'Algérie (1830-1847), Paris, 1931 (paru initialement in "Hespéris", 1931, t. XIII, fasc. 1, pp. 35-115 et fasc. 2, pp. 133-225.)
. Cour, Auguste : L'établissement des dynasties des chérifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs de la Régence d'Alger, 1509-1830, Paris, 1904.
. Coutard, Cap. : Au Maroc : contre la montagne. Méthodes d'action politique, économique et militaire, in "Revue d'Infanterie", 15 mars 1921, pp. 326-338.
. Davila Jalon, Valentin : Una vida al servicio de España : General Don Fidel Davila Arrondo (1878-1962), Primera parte, Madrid, 1978.
. De Anual a la República : El Expediente Picasso. Las responsabilidades de la actuación española en Marruecos, Madrid, 1931.
. De Anual a la República : Documentos relacionados con la información instruida por la llamada "Comisión de responsabilidades" acerca del desastre de Anual", Madrid, 1936.
. Delbrel, Gabriel : España en Marruecos. Intereses de España en el valle del Muluya, el Rif oriental y el Garb el Isar (traduit du français), Melilla, 1909.
. - - - - - - - - - - - - - - : Geografia general del Rif y cabilas de Guelaia-Kebdana, Melilla, 1911.
. Díaz de Villegas, José : Lecciones de la experiencia (Enseñanzas de las campañas de Marruecos), Tolède, s.d.
. Dumaine, Jacques : Les éléments du problème du Rif, in "Renseignements Coloniaux", février 1926, pp. 89-99.
. Dumas, Pierre : Abdelkrim, Toulouse, 1927.
. Donoso Cortéz, Ricardo : Estudio geográfico - politico-militar sobre las zonas

españolas del Norte y sur de Marruecos, Madrid, 1913.
. Dunn, Ross E : Resistance in the desert, Moroccan responses to French Imperialism (1881-1912), Madison-London, 1977.
. Eustache, Daniel : Corpus des Dirhams Idrissites et contemporains, Rabat, 1970-1971.
. - - - - - - - - - - - - : Les ateliers monétaires du Maroc, in "Hespéris-Tamuda", vol.XI, 1970, fasc. unique, pp. 95-102.
. Estado Mayor Central del Ejército : Enseñanzas de la campaña del Rif en 1909, Madrid, 1911.
. Eza, Visconde de- : Mi responsabilidad en el desastre de Melilla como Ministro de la Guerra, Madrid, 1923.
. Fernando La Hoz, Vicente : apuntes para la historia de la imprenta en el Norte de Marruecos, Tétouan, 1949.
. Fontaine, Pierre : Abdelkrim : origine de la rébellion nord-africaine, Paris, 1958.
. Forbes, Rosita : El Raisuni, the Sultan of the Mountains, New-York, 1924.
. Frunse, Michail Wassiliewitsch : Die Europäischen Zivilisatoren und Marokko, traduction allemande de l'édition russe, (Moscou-Léningrad, 1927), pp. 440-532 des oeuvres choisies (Ausgewählte Schriften), Berlin, 1955.
. Furneaux, Rupert : Abdelkrim, emir of the Rif, London, 1967.
. Gabrielli, Léon : Abdelkrim et les événements du Rif, Casablanca, 1953.
. García Figueras, Tomás : (voir Hernández Herrera)
. - - - - - - - - - - - - - : Del Marruecos feudal : episodios de la vida del Cherif Raisuni, Madrid, 1930.
. - - - - - - - - - - - - - - : La acción de España en Marruecos, Barcelone, 1939.
. Ghirelli, Angelo : El Norte de Marruecos. Contribución al estudio de la zona de Protectorado español en Marruecos septentrional, Melilla, 1926.
. - - - - - - - - - - - - - - : Monografía de la cabila des Beni Tuzin, Madrid, 1923.
. Goded, General: Las etapas de la Pacificación, Madrid, 1932.
. Gómez - Jordana Souza, Teniente General Francisco - : La tramoya de nuestra actuación en Marruecos, Editorial National, Madrid, 1976.
. Guillen, Pierre: L'Allemagne et le Maroc de 1870 à 1905, Paris, 1967.
. Harris, Walter B.: France, Spain and the Rif, London, 1927.
. - - - - - - - - - - - - - : Morocco that was, London, 1921, traduit en français sous le titre Le Maroc disparu, Paris, 1929.
Hart, David M. : An ethnologic survey of the rifian tribe of Ait Wuryaghil, in "Tamuda", II, 1954, pp. 51-86.
. - - - - - - - - - - - - - : Emilio Blanco Izaga and Berbers of the Central Rif, in "Tamuda", VI, 1958, pp, 171-237.
. - - - - - - - - - - - - - - : Clan, lignage et communauté locale dans une tribu rifaine, in "Revue de Géographie du Maroc", n° 8, 1965, pp. 25-33.
. - - - - - - - - - - - - - - : De ripublik a République : les institutions socio-politiques rifaines et les réformes d'Abdelkrim, in "Abdelkrim et la République du Rif", pp. 33-45, Paris, 1976.
. Hernández Herrera, Carlos y García Figueras , Tomás : Acción de España en Marruecos, 2 vol., Madrid, 1929-1930.
. Hernández Mir, Francisco: Del desastre a la victoria, 4 vol., Madrid, 1926-1927.
. Hubert, Jacques : L'aventure riffaine et ses dessous politiques, Paris, 1927.
. Jiménez Ortoneda, Jesús : Estudio de la región del Rif, Toledo, 1930.
. Julien, Charles - André : Histoire de l'Afrique du Nord (Tunisie - Algérie - Maroc) ,

Paris , 1931 , Deuxième édition , "Des origines à 1830" revue par Christian Courtois et Roger Le Tourneau, Paris, 1951-1953.
. - - - - - - - - - - - - - - : L'Afrique du Nord en marche. Nationalismes musulmans et souveraineté française, Paris, 1952, 2e édit., Paris, 1972.
. - - - - - - - - - - - - - - : Histoire de l'Algérie contemporaine. I / la conquête et les débuts de la colonisation (1827- 1871) , Paris , 1964.
. - - - - - - - - - - - - - - : Le Maroc face aux impérialismes (1415-1956), Paris, 1978.
. Kann, Reginald : Le Protectorat marocain, Nancy, Paris, Strasbourg, 1921.
. Ladreit de Lacharrière, Jacques : Le rêve d'Abdelkrim, esquisse d'histoire marocaine, Paris, 1925.
. Laroui, Abdallah : Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912), Paris, 1977.
. Leclère, Chef de bataillon : Terres collectives de tribu (conférence au Cours de Perfectionnement des Adjoints stagiaires du Service des Renseignements), Rabat, 1922.
. Lecuyer, M. C. et Serrano, C. : La guerre d'Afrique et ses répercussions en Espagne, (1859-1904), Paris, 1976.
. Le Tourneau, Roger : Evolution politique de l'Afrique du Nord musulmane, (1920-1961), Paris, 1962.
. Lévi-Provençal, Evariste : Le Maroc en face de l'étranger à l'époque moderne, in "Bulletin de l'Enseignement public", n° 65, février 1925, pp. 95-112, Rabat, 1925.
. Lévy, Simon : La guerre du Rif sous le règne d'Alphonse XIII (1886-1931), Mémoire pour le D.E.S. à la Faculté des lettres de Paris, 1957-1958. (Inédit).
. López Rienda, Rafael : Frente al fracaso. Raisuni. De Silvestre a Burguete, Madrid, 1923.
. Loutskaïa, Nathalie : Respublica Rif (en russe), Moscou, 1959.
. - - - - - - - - - - - - - - : A propos de la structure intérieure de la République du Rif. (Communication au XXVe Congrès international des Orientalistes, Moscou, 1960).
. - - - - - - - - - - - : Abdelkrim El-Khattabi sur la guerre hispano-rifaine (Communication au XXVIIe Congrés international des Orientalistes), édité à Moscou, 1967.
. - - - - - - - - - - - - - - : Les auteurs arabes sur les luttes de libération nationale des Rifains (Communication au IIe Congrès international des Africanistes), édité à Moscou, 1967.
. Lyautey : Vers le Maroc. Lettres du Sud-Oranais, 1903-1906, Paris, 1937.
. Lyautey, Pierre : Lyautey l'Africain. Textes et lettres du Maréchal Lyautey, 4 vol. 1953-54-56-57.
. Maldonado, Eduardo : El Rogui, Tétouan, 1949.
. Martin, A.G.P : Quatre siècles d'histoire marocaine, 1504- 1912, Paris, 1924.
. Martínez Yagues : El mokadem de Segangan, in "Africa Española", n°40, 4e année, 30 sept. 1916.
. Marty, Paul : La politique berbère du Protectorat, in "Renseignements coloniaux", 1927, n°7 bis, pp. 322-335.
. Maura, Gabriel : La question du Maroc au point de vue espagnol, Paris, 1911, (L'édition originale espagnole est de 1905).
. Michaux-Bellaire, E. : le Rif (Conférence au Cours des Affaires indigènes, Rabat, 1925.
. - - - - - - - - - - - - - - : Conférences préparatoires aux Cours des Affaires indigènes, Rabat, 1927.
. Miège, Jean-Louis : Le Maroc et l'Europe (1830-1894), Paris, 1961-1963.

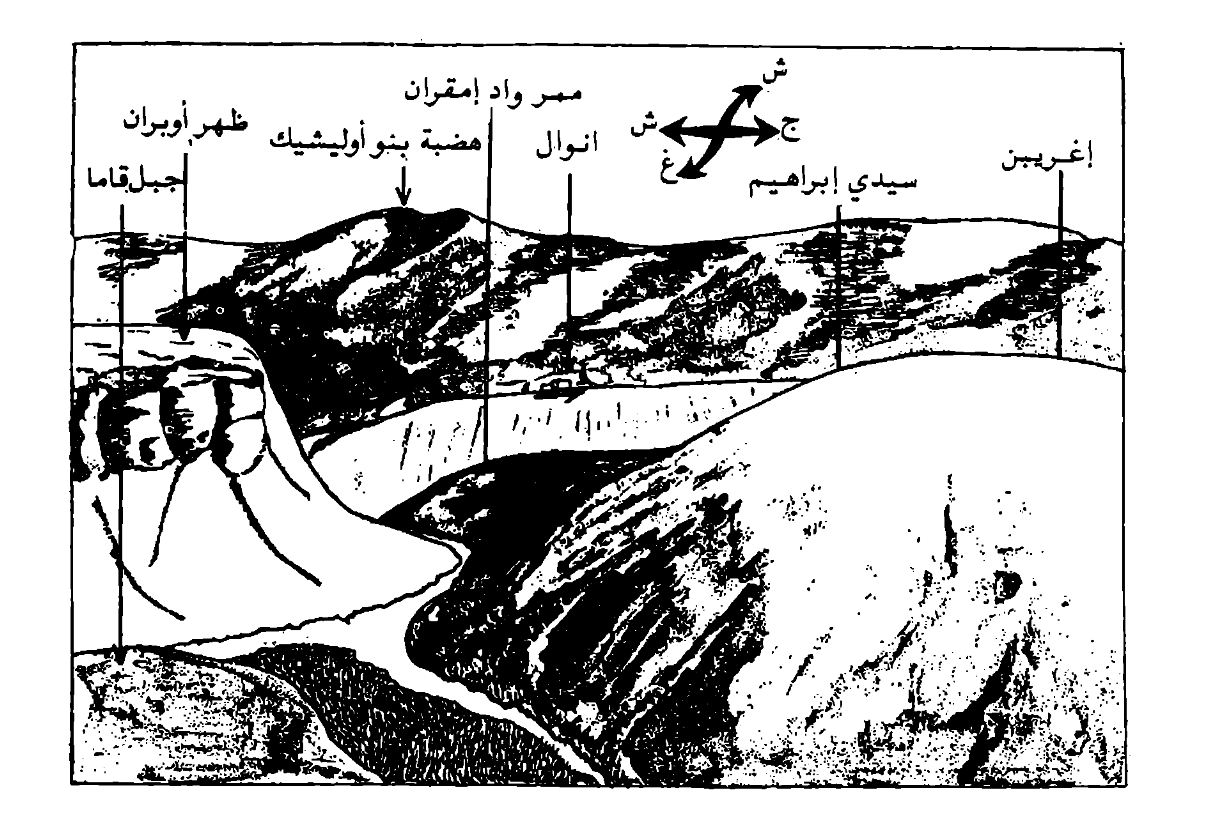
. Montagne, Robert : Les Berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc. Essai sur la transformation politique des Berbères sédentaires (groupe Chleuh), Paris, 1930.
. - - - - - - - - - - - - - : La vie sociale et la vie politique des Berbères (Leçons professées à la Faculté des lettres de l'Université de Paris, nov. déc.1931), Paris, 1931.
. - - - - - - - - - - - - - - : Abdelkrim, in "Politique étrangère", juillet 1947, pp. 301-324.
. - - - - - - - - - - - - - - : Révolution au Maroc, Paris, 1953.
. Morales Lezcano, Victor : El colonialismo hispano-frances en Marruecos ; (1898-1927), Madrid, 1976.
. Moulieras, Auguste : Le Maroc inconnu. Exploration du Rif, Oran, 1895.
. Opérations (les) militaires au Maroc, ouvrage collectif réalisé sous la direction du général Maurel, Paris, 1931.
. Ordinaire, Maurice : Les deux Maroc, in "Revue de Paris", 15 octobre 1932, pp. 818-830.
. Ortega, Manuel L. Pichardo : España en Marruecos. El Raisuni, Madrid, 1917.
. Ortega y Gasset, Eduardo : Anual, Madrid, 1922.
. Oteyza, Luis García de- : Abdelkrim y los prisioneros, Madrid, s.d.
. Pardo Fernández-Corredor, Emilio : Resumen de la historia de la zona de España en el Norte de Marruecos, Madrid, 1933.
. Pardo González, Candido : Al servicio de la verdad. Las Juntas de Defensa militares. El Protectorado de Marruecos y Alhucemas. La dictadura del secundo marqués de Estella. Aportaciones para un estudio critico de la dictadura del general Primo de Rivera, Madrid, 1930.
. Pascon, Paul : Le Haouz de Marrakech, 2 vol., Rabat, 1977.
. Payne, Stanley G. : Los militares y la polítcia en la España contemporánea (traduction de l'original américain de 1967), Paris, 1968.
. Pezzi, Rafael : Los presidios menores de Africa y la influencia española en el Rif, Madrid, 1893.
. Piquet, Victor : Le Maroc . Géographie, histoire, mise en valeur, nouvelle édition, Paris, 1920.
. Primo de Rivera, Miguel : La cuestión del día . Gibraltar y Africa (Discurso del general...) Cadix, 1917.
. Quintana Martínez, Eduardo, La marina de guerra española en Africa . Crónica de la campaña del Rif, Cadix, 1910.
. - - - - - - - - - - - - - - : La marina de guerra española en Africa. Crónica . Ocupación de Larache y Alcazarquivir . La campaña del Kert, Cadix, 1912.
. Ramos Charco- Villaseñor, Aniceto : el Rif . Apuntes para su estudio, Toledo, 1930.
. Ricard, Robert : Le commerce de Berbérie et l'organisation économique de l'Empire portugais aux XVe et XVIe siècles, in "Annales de l'Institut d'études orientales", Faculté d'Alger, II, 1936.
. Riera, Augusto : España en Marruecos . Crónica de la campaña de 1909, Barcelone, 1910.
. Rinn, Louis : Marabouts et Khouans, Alger, 1884.
. Rivière, Paul Louis, Précis de législation marocaine, Paris, 1927.
. - - - - - - - - - - - - - - : voir également "Traités".
. Roda Jiménez, Rafael de - : Economía marroquí. Los problemas del campo, Ceuta, 1914.
. Rodríguez Padilla, Isaias : Cofradías religiosas en el Rif y diversas taifas de Xorfas,

Zaouias y santuarios, Ceuta, 1930.
. Roger-Mathieu, J. : Mémoires d'Abdelkrim, Paris, 1927.
. Rosenberger, Bernard : Autour d'une grande mine d'argent du moyen âge marocain · le Jebel Aouam, in "Hespéris-Tamuda", V, 1964, fasc. unique, pp. 15-78.
. - - - - - - - - - - - - : Les anciennes exploitations minières et les anciens centres métallurgiques du Maroc, in "Revue de géographie du Maroc", nos 17 et 18, 1970.
. - - - - - - - - - - - - : Tamdult, cité minière et caravanière (du IXe au XIVe siècles), in "Hespéris-Tamuda", vol. XI, 1970, fasc. unique.
. Rosenberger, Bernard et Triki, Hamid : Famines et épidémies au Maroc aux XVIe et XVII siècles, in "Hespéris-Tamuda", vol. XIV, 1973, fasc. unique, et vol. XV, 1974, fasc. unique.
. Ruiz Albéniz, Victor : El Riff (Estudio de un español en el Norte Africano). El Riff en paz. La guerra del Riff. El pleito internacional, Madrid, 1912.
. - - - - - - - - - - - - - : Las responsabilidades del desastre. Ecce homo, Madrid, 1922.
. - - - - - - - - - - - : La actuación de España en Marruecos por Juan de España (pseudonyme), Madrid, 1926.
. Sánchez Diaz, Ramón : La pacification espagnole, in "Abdelkrim et la République du Rif ", pp. 75-80, Paris, 1976.
. Sánchez Pérez, Andrés : Aprovechamientos comunales y formas de cooperación en las yemaas del Rif, in "Africa", Madrid, novembre 1947.
. - - - - - - - - - - - - : Abdelkrim, in " Selección de conferencias y trabajos realizados por la Academia de Interventores durante el curso 1949-1950, pp. 61-76, Tétouan, 1950.
. Sangróniz, José-Antonio : La actuación de España en Marruecos, apuntes de historia y estudios sobre la política y situación actual del problema hispano-marroqui, por Juan de España (pseudonyme), Madrid, 1926.
. Shinar, Pessah : 'Abd al-Qadir and ' Abd al-Krim. Religious influences on their thought and action, in "Asian and African Studies", (Annual of the Israel Oriental Society), vol. I, 1965, pp. 139-174.
. Taillis, Jacques du - : Le nouveau Maroc suivi d'un voyage au Rif, . Paris, 1923.
. Tarrit, Capitaine : Emploi des partisans au Maroc, in "Revue de Cavalerie", t. III, mars-avril 1923, pp. 197-211.
. Terrasse, Henri : Histoire du Maroc. Des origines à l'établissement du Protectorat français, 2 vol., Casablanca, 1950.
. Thomassy, Raymond : Le Maroc. Relations de la France avec cet empire, 3e édit., Paris, 1859 (1ère édit. 1842).
. Toynbee, Arnold J. : The Islamic World since the peace settlement, in "Survey of international affairs", vol. I, 1925, Oxford, 1927.
. Torcy, général de - : Les Espagnols au Maroc en 1909, Paris, Nancy, 1910.
. Tuñon de Lara, Manuel : La España del Siglo XX, Paris, 1966.
. Vallerie, Cap. Pierre : La pénétration militaire au Maroc, Paris, 1934.
. Verdades amargas. La campaña de 1909 Por el Capitan X..., Madrid, 1910.
. Vincent, Lieut. Col. : Un peuple gagné à la France. Les Berbères marocains et leur sol, in "Revue des Deux Mondes", 15 août 1924, pp. 855-872.
. Vivero, Augusto : Una petición absurda, in "Africa española", 30 nov. 1915.
. - - - - - - - - - - - - - : España y Francia en Marruecos. La cuestión de Tanger, s. l., 1919.
. - - - - - - - - - - - - - : El Derrumbamiento, 2e édit., Madrid, 1922.

. Voinot, Lieut. Col. : Sur les traces glorieuses des pacificateurs du Maroc, Paris, 1939.
. Weisgerber, Docteur : Au seuil du Maroc moderne, Rabat, 1947.
. Westermarck, Edward : Ritual and Belief in Morocco, London, 1928.
. Woolman, David S. : Rebels in the Rif. Abdelkrim and the Rif Rebellion, Stanford, London, 1969.
. Youssoufi, Abderrahman : Les institutions de la République du Rif, in "Abdelkrim et la République du Rif, pp. 81-100. Paris, 1976.

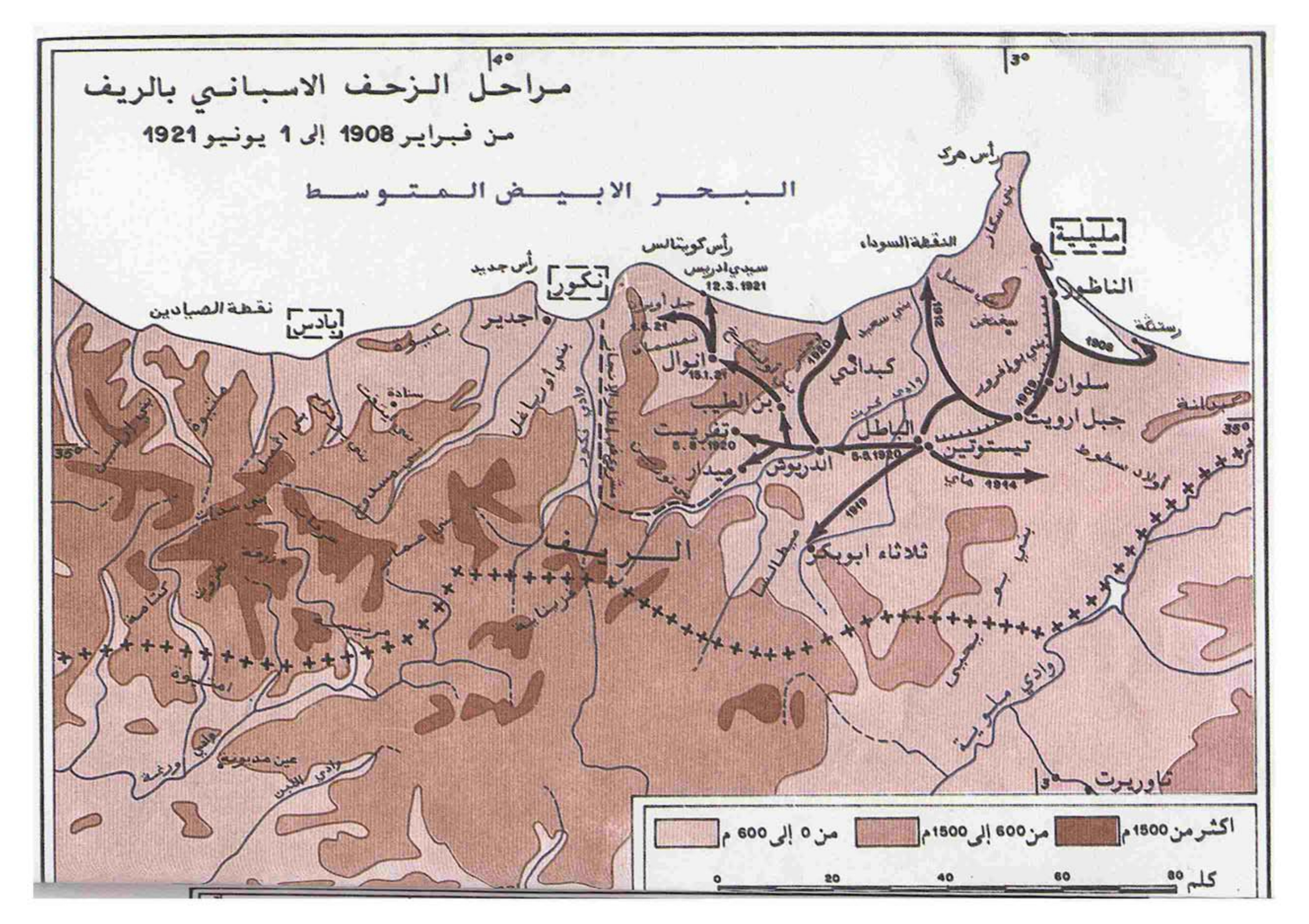


المحتويات

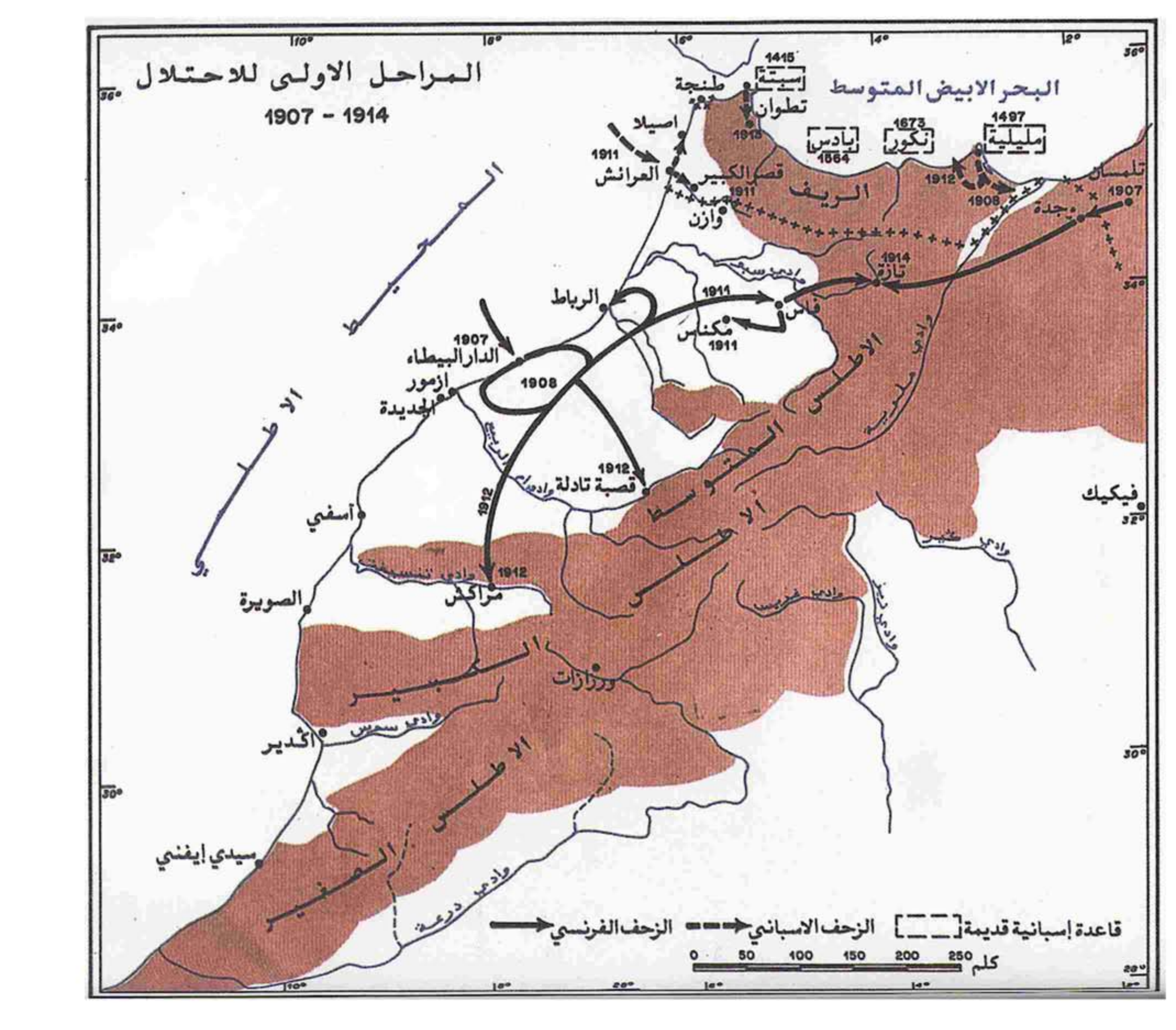

إغريبن
سيدي إبراهيم
ش
ج
ش
غ
انوال
ممر واد إمقران
هضبة بنو أوليشيك
ظهر أوبران
جبل قاما

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

الإيداع القانوني رقم 1992/259



مراحل الزحف الاسباني بالريف
من فبراير 1908 إلى 1 يونيو 1921
البحر الابيض المتوسط
رأس هرك
مليلية
الناظور
رستنقة
النقطة السوداء
سلوان
جبل ارويت
تيستوتين
الباطل
كبداني
الدريوش
ميدار
تفريست
بن الطيب
انوال
سيدي ادريس
12.3.1921
رأس كويتالس
نكور
رأس جديد
اجدير
بادس
نقطة الصيادين
الريف
ثلاثاء ابوبكر
أولاد ستوط
تاوريرت
وادي ملوية
عين مديونة
كتامة
1908
1909
1912
1914
1919
1920
5.8.1920
15.1.21
1.6.21
35°
30°
40°
من 0 إلى 600 م
من 600 إلى 1500م
اكثر من 1500م
كلم
0
20
40
60
80


المراحل الاولى للاحتلال
1907 - 1914
البحر الابيض المتوسط
المحيط الاطلسي
سبتة 1415
طنجة
تطوان 1913
بادس 1564
نكور 1673
مليلية 1497
اصيلا
العرائش 1911
قصر الكبير 1911
وازن
الريف
تلمسان
وجدة 1907
1912
1908
تازة 1914
فاس
مكناس 1911
1911
الرباط
الدار البيضاء 1907
1908
ازمور
الجديدة
قصبة تادلة 1912
آسفي
مراكش 1912
1912
الصويرة
ورزازات
اكدير
سيدي إيفني
فيكيك
الاطلس المتوسط
الاطلس الكبير
الاطلس الصغير
قاعدة إسبانية قديمة
الزحف الاسباني
الزحف الفرنسي
0 50 100 150 200 250 كلم



ولد جرمان عياش ونشأ في المغرب.

عين أستاذا في الآداب الكلاسيكية ودرّس بدءاً في الدارالبيضاء من 1937 إلى 1950 مع انقطاع خلال الحرب العالمية الثانية دام ست سنوات قضاها في الجيش. في 1950 أبعدته سلطات الحماية عن المغرب، فرحل إلى فرنسا حيث درس في تولوز ثم في باريز بثانوية كوندورسي، وبعد عودته إلى المغرب، كرس حياته لتاريخ هذا البلد، أولا تحت إشراف «المركز الوطني للبحث العلمي» بباريز، ثم في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، حيث زاول مهام التدريس منذ 1960 إلى وفاته.

وبالاضافة إلى أبحاثه المختلفة، فإن جرمان عياش أشرف على مجلة «اسبريس ـــ تامودا»، كما أن له كتابا حول «دراسات في تاريخ المغرب».

* * *

«كان قصدنا الأول نفض الغبار عن حرب الريف نفسها عن طريق عرض جديد ومُطابق أكثر لما كانت عليه حقاً هذه الحرب. ذاك كان قصدنا وما يزال. لكن، على الرغم من أن المادة التاريخية للعرض المذكور أصبحت جاهزة لدينا، فإننا ارتأينا أن نرجئ الخوض فيه في هذا الكتاب، اللهم إلا في الخاتمة حيث شرعنا في مقاربته. ذلك أن طموحنا لم يقتصر على سرد الوقائع ـــ وإن كنا أعدنا بناءها في صورتها الحقيقية ـــ بل توخينا أيضا فهمها. لذا تعيّن القيام أولا بإزاحة تلك الركامات من الأفكار الخاطئة التي كانت تعتّمها. فبما أن حرب الريف حدثتْ، وخاضتها ببطولة، وفي أرض مغربية، جماعات متواضعة من الفلاحين، فإننا كنا بين اختيارين : إما أن نحيطها بالخوارق ـــ الشيء الذي لا يقبله المؤرخ مطلقا ـــ وإما أن ننبذ ما كان رائجا من مقولات جاهزة تطمس الطاقة الكامنة في مغرب ذلك العصر ولدى الريفيين، وبما أننا تبنّينا الاختيار الثاني، فقد كان علينا أن نرجع إلى التاريخ القريب والبعيد للمغرب ولأبنائه الريفيين لإعادة النظر في الوقائع بشكل واضح وبطريقة منهجية، ذلك ما فعلناه. وبعد أن أمطنا اللثام عن واقع المغرب والريف، عن تاريخهما ومجتمعهما، فإننا سنجعل القارئ يقف في هذا الكتاب على الأصول الحقيقية والمنطقية للحدث الهام الذي تمثله حرب الريف، تلك الحرب التي سيُخصص كتاب آخر، نحن بصدد تحريره، لسرْد مجرى أحداثها».